مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ق

مع تعاليق

العلامة المفسر أبو الحسن الشعراني

المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ ق

وتعاليق جديدة



المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية

مجمع البيان

في تفسير القرآن

مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

مع تعاليق

العلامة المبين أبو الحسن الشعراني

شبكة الفكر
alfeker.net

الجزء السابع

طه - القصص

حققه وعلق عليه وأشرف على تصحيحه

حامد الفقي الأردستاني

تحرير ووضع العلامات

أحمد دراية

سرشناسه : طبرسي، فضل بن حسن ۳۵۸ ـ ۵۴۸ ق.
عنوان و نام پديدآور : مجمع البيان في تفسيرالقرآن/تأليف امين‌الاسلام ابي علي الفضل بن الحسن الطبرسي؛ مع تعاليق ابوالحسن الشعراني؛ حققه و علق عليه حامد الفدوي‌الاردستاني؛ محرر احمد درايتي.
مشخصات نشر : تهران: المكتبه‌المرتضويه‌لاحياء الآثارالجعفريه: مرتضوي، ۱۴۳۱ق.=۱۳۸۸ـ۱۳۸۹.
مشخصات ظاهري : ۱۰ ج.
شابک : دوره: 978-964-2965-11-3؛ ج.۱: 978-964-2965-12-0
: ج.۲ 978-964-2965-13-7؛ ج.۳: 978-964-2965-14-4؛ ج.۴: 978-964-2965-15-1
: ج.۵ 978-964-2965-16-8؛ ج.۶: 978-964-2965-17-5؛ ج.۷: 978-964-2965-18-2
: ج.۸ 978-964-2965-19-9؛ ج.۹: 978-964-2965-20-5؛ ج.۱۰: 978-964-2965-12-2
وضعيت فهرست نويسي: فيپا
يادداشت : عربي.
يادداشت : كتابنامه.
موضوع : تفاسير شيعه ـ قرن ۶ق
شناسه افزوده : شعراني، ابوالحسن، ۱۲۸۱ ـ ۱۳۵۲.
شناسه افزوده : فدوي اردستاني، حامد
شناسه افزوده : درايتي، احمد، ويراستار
رده بندي كنگره : ۱۳۸۹ ۳م۲ط/ BP۹۴/۵
رده بندي ديويي : ۲۹۷/۱۷۲۶
شماره كتابشناسي ملي : ۲۰۲۹۴۹۲





هوية الكتاب

الكتاب: مجمع البيان في تفسير القرآن ج۷
المؤلّف: أمين الاسلام الفضل بن الحسن الطبرسي رحمه‌الله
تعليق: العلاّمة الميرزا أبو الحسن الشعراني رحمه‌الله
تحقيق: حامد الفدوي الأردستاني
تحرير ووضع العلامات: احمد درايتي
الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية
بالتعاون مع انتشارات مرتضوي
التنضيد والاخراج الفني: كومبيوتر المجتبى عليه‌السلام
المطبعة: ستارة ـ قم ـ الكميّة: ۲۲۰۰ نسخة
الطبعة: الأولى ـ منقّحة ومصحّحة ـ ۱۴۳۱ هـ. ق . ۱۳۸۹ هـ. ش
ردمك: 2 - 18 - 2965 - 964 - 978 :ISBN
شابك الدورة: 3 - 11 - 2965 - 964 - 978 :ISBN

العنوان: طهران ـ شارع ناصر خسرو ـ فرع حاج نائب ـ سوق المجيدي
هاتف: ۳۳۱۱۶۴۸۱ ـ ۰۲۱ ـ فاكس ۴۴۸۱۴۷۷۲ ـ ۰۲۱


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
للمكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفريّة ايران ـ طهران
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلاّ بموافقة الناشر خطيّاً

طهران: شارع ناصر خسرو ـ فرع حاج نائب ـ سوق المجيدي
الطابق الثاني ـ الرقم ١١ ـ هاتف: ٣٣١١٦٤٨١ ـ ٠٢١

البريد الالكتروني
info@mortazavi-pub.ir
الانترنت
www.mortazavi-pub.ir

سورة طه

عدد آيها: مائة وأربعون آية شاميّ، وخمس وثلاثون كوفيّ، وأربع حجازيّ، وآيتان بصري.

اختلافها: إحدى وعشرون. آية ﴿طه﴾، ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، ﴿رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾: ثلاثهنّ كوفيّ.

﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾، ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾: كلاهما غير البصري.

﴿مَحَبَّةً مِنِّي﴾: حجازيّ شاميّ.

﴿فُتُوناً﴾: بصريّ شاميّ. ﴿لِنَفْسِي﴾ كوفيّ شاميّ.

﴿وَلاَ تَحْزَنْ﴾، و﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، و﴿مَعَنَا بَني إِسْرائِيلَ﴾، و﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾: أربعهنّ شاميّ.

﴿غَضْبَانَ أَسِفاً﴾، ﴿وإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾: كلتاهما مكّيّ. والمدني الأول.

﴿وَعْداً حَسَناً﴾، ﴿أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾: كلتاهما المدنيّ الأخير.

﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾: غير المدنيّ الأخير. فـ﴿نَفسي﴾: عراقيّ شاميّ. والأخير ﴿صَفْصَفاً﴾ عراقيّ شاميّ.

﴿مِنِّي هُدىً﴾، و﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غير الكوفيّ[١].

فضلها: أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأها، أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار. أبو هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: إنّ الله تعالى قرأ طه، ويس، قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألفي عام. فلمّا سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمّة نزل هذا عليها، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلّم بهذا. وعن الحسن قال: قال النبيّ ﷺ: لا يقرأ أهل الجنّة من القرآن إلّا يس، وطه. وروي إسحاق بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: لا تدعوا قراءة طه، فإن الله سبحانه يحبّها، ويحبّ من قرأها، وأدمن قراءتها، وأعطاه يوم القيامة كتابه بيمينه. ولم يحاسبه بما عمل في الإسلام، وأعطي من الأجر حتى يرضي.

تفسيرها: ختم الله سبحانه سورة مريم بذكر إنزال القرآن، وأنّه بشارة للمتّقين، وإنذار للكافرين. وإفتتح هذه السورة بالقرآن، وأنّه أنزله لسعادته لا لشقاوته، فقال:

---

[١] اعلم أن أعداد أهل الكوفة أصح الأعداد، لأنه مأخوذ عن علي بن أبي طالب عليه السلام، والمراد بالمدني الأول هو أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارىء، وشيبة بن نصاح. وقيل: المدني الأول الحسن بن علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عمر، والمدني الثاني، والمدني الأخير هو اسماعيل بن جعفر. وقيل: المدني الأخير أبو جعفر وشيبة، واسماعيل. والأول أشهر. وعدد أهل البصرة منسوب إلى عاصم بن أبي الصباح الجحدري، وأبواب المتوكل. وعدد أهل مكة منسوب إلى مجاهد بن جبيرة، واسماعيل المكي. وعدد أهل الشام منسوب إلى عبدالله بن عامر. (عن هامش بعض النسخ المصححة).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾
ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ
فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

القراءة: قرأ أبو عمرو: طَهِ ـ بفتح الطاء وكسر الهاء كسراً لطيفاً من غير إفراط ـ. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم إلّا يحيى، عن أبي بكر: بكسر الطاء والهاء. وكذلك عياش عن أبي عمرو. والباقون: بفتح الطاء والهاء. وروي عن أبي جعفر، ونافع كهيعص، وطه، وطس، وحمّ، وآلر كلّه بين الفتح والكسر، وهو إلى الفتح أقرب[1].

---

(١) الفتح ضدّ الإمالة، وتمال الألفات في رؤوسِ الآي من أوّل السورة إلى قوله: لترضى في آية ٨٤ وكذلك تمال ألف «موسى» في آية ٩١، ثمّ من آية ١١٦ إلى آخر السورة، إلّا «بصيراً» آخر آية ١٢٥. ويميل هذه كلّها حمزة، والكسائي، وخلف، وأمّا أبو عمرو فيميل ذوات الراء إمالة محضة، وفي غيرها بالتقليل أو الفتح.

الحجة: قد مرّ القول في الإمالة والتفخيم في الحروف فيما تقدّم. والتفخيم: لغة أهل الحجاز، ولغة النبيّ ﷺ.

اللغة: الشقاء: إستمرار ما يشقّ على النفس، ونقيضه: السعادة. والعلى: جمع العليا. ومنه: الدنيا والدنا، والقصوى والقصى. والثرى: التراب الندي. والجهر: رفع الصوت. يقال: جهر يجهر جهراً، فهو جاهر، والصوت مجهور وضدّه: المهموس.

الإعراب: روي عن الحسن أنّه قرأ: طَه ـ بفتح الطاء وسكون الهاء ـ. فإن صحّ ذلك عنه، فأصله: طَأْ. فأبدل من الهمزة هاء، ومعناه: طاء الأرض بقدميك جميعاً. وقد روي أنّ النبيّ ﷺ كان يرفع إحدى رجليه في الصلاة ليزيد تعبه، فأنزل الله: ﴿طٰهٰ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ فوضعها. وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام. قال الزجّاج: ويجوز أن يكون ﴿طٰهٰ﴾ أمراً، من وَطأ يَطأ، على قول من لم يهمز، ثمّ حذفت الألف، فصار «ط» ثمّ زيدت «الهاء» في الوقت. ويجوز أن يكون ﴿طٰهٰ﴾ جارياً مجرى القسم، فيكون ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ جواب القسم. وقوله: تَذْكِرَةً: مفعول له. لِمَن يَخْشَى: الجارّ والمجرور في موضع الصفة لتذكرة. والأولى أن يكون مصدر فعل محذوف، ويكون الإستثناء منقطعاً، والتقدير: لكن تذكرة. كذلك قوله: تَنزِيلا مصدر لفعل محذوف، تقديره: نزلناه تنزيلاً، أو نزّل تنزيلا، ويدلّ عليه قوله: أَنزَلْنَا.

المعنى: ﴿طٰهٰ﴾ قد بيّنا في أوّل البقرة تفسير حروف المعجم في أوائل السور، والإختلاف فيه. وقد قيل: إنّ معنى طه: يا رجل، ـ عن ابن عباس وسعيد بن جبير، والحسن ومجاهد، والكلبي ـ. غير أنّ بعضهم يقول: هو بلسان الحبشيّة أو النبطيّة. وقال الكلبي: هي بلغة عك. وأنشد لتميم بن نويرة:

هَتَفْتُ بِطٰهٰ في القَتال، فَلَمْ يُجِبْ فَخِفْتُ لَعَمْرِي أنْ يَكُونَ مُواليا

قال الآخر:

إنَّ السَّـــفاهَةَ طٰـــه مِـنْ خَـلائِقِكُمْ لابارَكَ اللَّـهُ فـي الْـقَوْمِ المَـلاعِينِ

وقال الحسن: هو جواب للمشركين حين قالوا: إنّه شقيّ، فقال سبحانه: يا رجل ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ لكن لتسعد به، وتنال الكرامة به في الدنيا والآخرة. قال قتادة: وكان يصلّي الليل كلّه، ويعلّق صدره بحبل، حتى لا يـغلبه النوم، فأمره الله سبحانه بأن يخفّف على نفسه، وذكر أنّه ما أنزل عليه الوحي ليتعب كل هذا التعب.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ قال المبرّد: معناه: لكن أنزلناه تذكرة أي: لتذكرة من يخشى الله. والتذكرة: مصدر كالتذكير ﴿تَنزِيلاً﴾ أي: أنزلناه تنزيلاً.

﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ بدأ بالأرض؛ ليستقيم رؤوس الآي ﴿وَالسَّـمَوَاتِ الْعُلَا﴾ أي: الرفيعة. العالية نبّه بذلك على عظم حال خالقهما.

ثمّ أكّد ذلك بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي: هو الرحمن؛ لأنّه لمّا قال ﴿مِمَّنْ خَلَقَ﴾ بيّنه بعد ذلك، فقال: هو الرحمن. قال أحمد بن يحيى: الإستواء: الإقبال على الشيء، فكأنّه أقبل على خلق العرش، وقصد إلى ذلك. وقـد سـبق القول في معنى الإستواء في سورة البقرة والأعراف.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له ملك ما في السماوات وما في الأرض، وتدبيرهما، وعلمهما. يعني: أنّه مالك كـل شـيء، ومـدبّره. ﴿وَمَـا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: الهواء. ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ والثرى: التراب النـدي. يـعني: ومـا وَارَى الثرى من كل شيء، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: يعني: ما في ضمن الأرض من الكنوز والأموات.

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ أي: إنْ ترفع صوتك به ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْـفَى﴾ أي: فلا تجهد نفسك برفع الصوت، فإنّك وإنْ لم تجهر، علِم الله السرّ، وأخفى من

السرّ. ولم يقل: وأخفى منه؛ لدلالة الكلام عليه، كما يقول القائل: فلان كالفيل، أعظم. وقيل: تقديره: وإن تجهر بالقول، أو لا تجهر، فإنّه يعلم السرّ، وأخفى منه.

ثمّ إختلفوا فيما هو أخفى من السرّ، فقيل: السرّ ما حدث به العبد غيره في خفيّة، وأخفى منه: ما أضمره في نفسه ما لم يحدث به غيره، عن ابن عباس. وقيل: السرّ: ما أضمره العبد في نفسه. وأخفى منه: ما لم يكن، ولا أضمره أحد، ـ عن قتادة، وسعيد بن جبير، وابن زيد ـ. وقيل: السرّ: ما تحدث به نفسك. وأخفى منه: ما تريد أن تحدث به نفسك في ثاني الحال. وقيل: السرّ: العمل الذي تستره عن الناس. وأخفى منه: الوسوسة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: يعلم السرّ أي: يعلم أسرار الخلق، وأخفى: أي سرّ نفسه، عن زيد بن أسلم: جعله فعلا ماضياً. وروي عن السيّدين الباقر والصادق عليهما السلام: السرّ: ما خفيته في نفسك. وأخفى: ما خطر ببالك، ثمّ أنسيته.

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود تحقّ له العبادة غيره.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: الأسماء الدالّة على توحيده، وعلى إنعامه على العباد، وعلى المعاني الحسنة. فبأيّها دعوت جاز. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: إنَّ لله تعالى تسعة وتسعين إسماً، من أحصاها دخل الجنّة. قال الزجّاج: تأويله: من وحّد الله تعالى، وذكر هذه الأسماء الحسنى، يريد بها توحيد الله وإعظامه، دخل الجنّة. وقد جاء في الحديث: «من قال لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنّة. فهذا لمن ذكر إسم الله موحّداً له به، فكيف بمن [لمن] ذكر أسماءه كلّها، يريد بها توحيده، والثناء عليه. وإنّما قال: الحسنى ـ بلفظ التوحيد ـ، ولم يقل الأحاسن؛ لأنّ «الأسماء» مؤنّثة، تقع عليها هذه، كما تقع على الجماعة «هذه»: كأنّه إسم واحد للجمع. قال الأعشى:

وَسَوْفَ يُعْقِبُنِيهِ إِنْ ظَفَرْتَ بِهِ رَبٌّ كَرِيمٌ وَبِيضُ ذاتُ أطْهارِ[1]

وفي التنزيل: «حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ»، و «مَآرِبَ أُخْرَى».

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ
عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو: أنّي أنا ربك ـ بفتح الألف ـ والباقون: إنّي ـ بالكسر ـ. وقرأ حمزة: لأهلهُ امكثوا. وفي القصص أيضاً بضمّ الهاء. وأنّا: مشدّد مفتوح الهمزة، إخترناك ـ على الجمع ـ. والباقون: لأهلِهِ ـ بكسر الهاء ـ ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ ـ على التوحيد ـ. وقرأ ابن عامر، وأهل الكوفة: ﴿طوىً﴾ ـ بالتنوين ـ. والباقون: بغير تنوين. وفي الشواذّ، قراءة الحسن، ومجاهد، وسعيد

---

(١) إشارة إلى قصّة، وهي أنّ إمرء القيس أودع مائة درع عند السموال بن عاديا، فأتاه الحارث بن غانم ليأخذها منه، فإمتنع، فأخذ الحارث إبناً له، وقال: إن لم تسلم إلّا درع لأقتلنّه، فأبي فقتل إبنه، وهذا البيت على لسانه أي: قال السموال: سوف يعوّضني الله عن أبني المقتول من نسوة بيض أولاداً آخر.

ابن جبير: ﴿أَخفيها﴾ ـ بفتح الألف ـ[١].

الحجة: قال أبو علي: من كسر ﴿إِنَّنِي﴾؛ فلأنّ الكلام حكاية، كأنّه نودي فقيل: يا موسى إنّي أنا ربّك. ومن فتح، فكأنّ المعنى: نودي بكذا. «ونادى» قد يوصل بحرف الجرّ، قال:

نادَيْتُ بِاسْمِ رَبيعَةَ بْنِ مُكَرَّمٍ إنَّ المُنَوَّهَ باسْمِهِ المَوْثُوقُ[٢]

ومن الناس من يعمل هذه الأشياء التي هي في المعنى قول، كما يعمل القول، ولا يضمر القول معها. وينبغي أن يكون في «نُودِيَ» ضمير يقوم مقام الفاعل؛ لأنّه لا يجوز أن يقوم واحد من قوله: يا موسى، ولا أنّي أنا ربّك، مقام الفاعل؛ لأنّها جمل، والجمل لا تقوم مقام الفاعل. فإن جعلت الإسم الذي يقوم مقام الفاعل «موسى»؛ لأنّ ذكره قد جرى، كان مستقيماً.

وقوله: طوى، يصرف، ولا يصرف. فمن صرفه فعلى وجهين: **أحدهما**: أن يجعله إسم الوادي، فيصرفه؛ لأنّه سمّي مذكّراً بمذكّر. والآخر: أن يجعله صفة، وذلك في قول من قال: إن قدس مرّتين. فيكون «طوى» كقولك: ثنى. ويكون صفة كقوله: مكاناً سوى، وقوم عدى. وجاء في «طوى» الضمّ والكسر، كما جاء في «مكان سوى» الضمّ والكسر. قال الشاعر:[١]

أفي جَنْبِ بَكْرٍ قَطَّعَتْني مَلامَة لَعَمْري لَقَدْ كانَتْ مَلامَتُها ثِنى

أي: ليس هذا بأوّل ملامتها.

ومن لم يصرف إحتمل أمرين: **أحدهما**: أن يكون إسماً لبقعة أو أرض، فهو

---

(١) لاهله امكثوا بضم الهاء حمزة وفتح الياء من «أنى انست»، ومن «انّني انا الله» الحرميان وأبو عمرو. ومن «انى اناهم» وابن عامر. ومن «لذكرى» نافع وأبو عمرو.

(٢) نوّه بإسمه: رفع ذكره.

[١] قائله: كعب بن زهير.

مذكّر، فيكون بمنزلة إمرأة سمّيتها بحجر. ويجوز أنْ يكون معدولاً، كعمر. ولا يمتنع أن تقدّر العدل فيما لم يخرج إلى الإستعمال. ألاترى أنّ «جمع، وكتع» معدولتان عمّا لم يستعملا، فكذلك يكون «طوى». وأمّا ضمّ الهاء في قوله: ﴿لِأَهْلِهُ امْكُثُوا﴾، فقد مضى القول في مثله. وأمّا قوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾، فالإفراد أكثر في القراءة، وهو أشبه بما قبله من قوله: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ ووجه الجمع أن يكون ذلك قد جاء في نحو قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ ثمّ قال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾. ويمكن أن يكون الوجه في قراءة حمزة: وأنّا إخترناك، مع أنّه قرأ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ ـ بالكسر ـ أن يكون التقدير: ولأنّا إخترناك فإستمع، فيكون الجارّ والمجرور في موضع نصب بقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ﴾. ولم يذكره الشيخ أبو علي. وقوله: ﴿أُخْفِيهَا﴾ فإنّهم قالوا: معناه: أظهرها. قال أبو علي: الغرض فيه: أزيل عنها خفاءها، وهو ما يلف فيه القربة ونحوها من كساء، وما يجري مجراه. وعليه قول الشاعر:

لَقَدْ عَلَّمَ الأيقاظ أخْفِيَةَ الكَرى ... تَزَجُّجُها مِنْ حالِكٍ فَاكْتِحللُها[١]

قال: أراد بالأيقاظ عيوناً، فجعل العين كالخفاء للنوم، كأنّها تستره. وهو من ألفاظ السلب، فأخفيته: سلبت عنه خفاه، كما تقول: أشكيت الرجل: أزلت عنه ما يشكوه. وأمّا أَخفيها ـ بفتح الألف ـ، فإنّه أظهرها. قال إمرؤ القيس:

خَفاهُنَّ مِنْ أنْفاقِهِنَّ كَأَنَّما ... خَفاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ سَحابٍ مُرَكَّبِ(١)

وقوله:

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدّاءَ، لا نَخْفِهِ ... وَإِنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ، لا نَقْعُدِ[٢]

---

(١) يصف شدّة عدو فرسه، بأنّه أخرج الفار من حجرها، كما يخرجها المطر، وضمير «هنّ» للفار. والنفق: الجحر.

[١] الكرى: النعاس، والحالك: المظلم.

[٢] لانَخْفِه: أي نُظهره، وهو من الأضداد.

رواية أبي عبيدة بضمّ النون من «نخفه». ورواية الفرّاء بفتح النون.

اللغة: الإيناس: وجدان الشيء الذي يؤنس به. والقبس: الشعلة من النار في طرف عود أو قصبة. وهالخلع: نزع الملبوس. يقال: خلع ثوبه، وخلع نعله. والوادي: سفح الجبل. ويقال للمجرى العظيم من مجاري الماء: واد، وأصله: عظم الأمر، ومنها: الدية؛ لأنّها العطيّة في الأمر العظيم، وهو القتل. والمقدّس: المطهّر، قال إمرؤ القيس:

كما شَبْرَقَ الوِلدانُ ثَوْبَ المُقَدَّسِ[١]

يريد العابد من النصارى كالقسيس ونحوه. وسمّي الوادي طوى؛ لأنّه طوي بالبركة مرّتين، ـ عن الحسن ـ. فعلى هذا يكون مصدر قولك: طويت، طوى. قال عدي بن زيد:

أعاذِلَ اللَّوْمَ في غَيْرِ كُنْهِهِ عَلَيَّ طُوىً مِنْ غَيِّكَ الْمُتَرَدِّدِ[١]

ويقال: أخفيت الشيء: كتمته، وأظهرته جميعاً، وخفيته بلا الألف: أظهرته لا غير. والردى: الهلاك. وردي يردى ردي: إذا هلك. وترْدى: بمعناه.

الإعراب: قوله: ﴿إذ رَأَى﴾: الظرف يتعلّق بمحذوف، فهو في موضع النصب على الحال من «حديث موسى». و ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾: جملة في موضع رفع، بأنّها خبر «إنّ»، فهي خبر بعد خبر. اللام في ﴿لِتُجْزَى﴾ يتعلّق بآتية. ويجوز أن يتعلّق بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾. فَتَرْدَى: منصوب بإضمار «أن» في

---

(١) يعني: يا عاذل، إنّ لومك المكرّر ناشيء من غيّك. والبيت من قصيدة حكمية، وفيها عن المرء لا تسئل وسل قرينه، فكل قرين بالمقارن مقتد.

[١] شَبْرَقَ: شقّ. قطعت الكلاب جلد الثور الوحشي كما يمزّق الصبيان ثوب الراهب تبرّكاً. وصدره: (فأدركنه يأخذن بالسّاق والنّسا).

جواب النهي.

المعنى: ثمّ خاطب الله سبحانه نبيّه ﷺ تسلية له ممّا ناله من أذى قومه، وتثبيتاً له بالصبر على أمر ربّه، كما صبر موسى عليه السلام حتى نال الفوز في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ هذا إبتداء إخبار من الله تعالى على وجه التحقيق؛ إذ لم يبلغه حديث موسى، فهو كما يخبر الإنسان غيره بخبر على وجه التحقيق، فيقول: هل سمعت بخبر فلان. وقيل: إنّه إستفهام تقرير بمعنى الخبر أي: وقد أتاك حديث موسى ﴿إِذْ رَأَى نَاراً﴾ عن ابن عباس قال: وكان موسى رجلاً غيوراً، لا يصحب الرفقة لئلّا ترى إمرأته، فلمّا قضي الأجل، وفارق مدين، خرج ومعه غنم له، وكان أهله على أتان، وعلى ظهرها جوالق[١] فيها أثاث البيت. فأضلّ الطريق في ليلة مظلمة، وتفرّقت ماشيته، ولم ينقدح زنده وإمرأته في الطلق. فرأي ناراً من بعيد كانت عند الله نوراً، وعند موسى ناراً.

﴿فَقَالَ﴾ عند ذلك ﴿لِأَهْلِهِ﴾ وهي بنت شعيب كان تزوّجها بمدين ﴿امْكُثُوا﴾ أي: إلزموا مكانكم. قال مقاتل: وكانت ليلة الجمعة في الشتاء. والفرق بين المكث والإقامة: أنّ الإقامة تدوم، والمكث لا يدوم.

﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ أي: أبصرت ناراً ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: بشعلة أقتبسها من معظم النار تصطلون بها.

﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾ أي: أجد على النار هادياً يدلّني على الطريق. وقيل: علامة أستدلّ بها على الطريق. والهدى: ما يهتدى به فهو إسم ومصدر. قال السدّي: لأنّ النار لا تخلو من أهل لها، وناس عندها.

---

[١] الجُوالق: وعاء من الأوعية معروف، معرّب.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ قال ابن عباس: لمّا توجّه نحو النار، فإذا النار في شجرة عنّاب، فوقف متعجّباً من حسن ضوء تلك النار، وشدّة خضرة تلك الشجرة، فسمع النداء من الشجرة وهو قوله: ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾. والنداء: الدعاء على طريقة: يا فلان. فمن فتح الألف من «أنّي» فالمعنى: نودي بأنّي. ومن كسر، فالمعنى: نودي فقيل: إنّي أنا ربّك الذي خلقك ودبّرك. قال وهب: نودي من الشجرة فقيل: يا موسى! فأجاب سريعاً ما يدري من دعاه، فقال: إنّي أسمع صوتك، ولا أرى مكانك فأين أنت؟ فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك، وأقرب إليك من نفسك. فعلم أنّ ذلك لا ينبغي إلّا لربّه عزّوجلّ، وأيقن به. وإنّما علم موسى عليه السلام أنّ ذلك النداء من قبل الله تعالى؛ لمعجز أظهره الله سبحانه، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ. وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ إلى آخره. وقيل: إنّه لمّا رأي شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها تتوقّد فيها نار بيضاء، وسمع تسبيح الملائكة، ورأي نوراً عظيماً لم تكن الخضرة تطفىء النار، ولا النار تحرق الخضرة، تحيَّر وعلم أنّه معجز خارق للعادة، وأنّه لأمر عظيم، فألقيت عليه السكينة. ثمّ نودي: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ وإنّما كرّر الكناية لتأكيد الدلالة، وإزالة الشبهة، وتحقيق المعرفة.

﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي: إنزعهما. وقيل: في السبب الذي أمر بخلع النعلين أقوال: **أحدها**: إنّهما كانتا من جلد حمار ميّت، ـ عن كعب وعكرمة وروي ذلك عن الصادق عليه السلام ـ. **وثانيها**: كانتا من جلد بقرة ذكيّة، ولكنّه أمر بخلعهما؛ ليباشر بقدميه الأرض، فتصيبه بركة الواد المقدّس، ـ عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وابن جريج ـ. **وثالثها**: إنّ الحفاء من علامة التواضع، ولذلك كانت السلف تطوف حفاة، ـ عن الأصم ـ. **ورابعها**: إنّ موسى عليه السلام إنّما لبس النعل؛ إتّقاء من الأنجاس،

وخوفاً من الحشرات، فآمنه الله ممّا يخاف، وأعلمه بطهارة الموضع، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ﴾ أي: المبارك، ـ عن ابن عباس ـ. بورك فيه بسعة الرزق والخصب. وقيل: المطهّر.

﴿طُوىً﴾ هو إسم الوادي، ـ عن ابن عباس ومجاهد والجبائي ـ. وقيل: سمّي به؛ لأنّ الوادي قدّس مرّتين، فكأنّه طوي بالبركة مرّتين، ـ عن الحسن ـ.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي: إصطفيتك بالرسالة ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ إليك من كلامي، وأصغ إليه وتثبّت.

لمّا بشّره الله سبحانه بالنبوّة أمره بإستماع الوحي. ثمّ إبتدأ بالتوحيد فقال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: لا إله يستحقّ العبادة غيري ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ خالصاً، ولا تشرك في عبادتي أحداً. أمره سبحانه بأن يبلغ ذلك قومه.

﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي: لأنّ تذكرني فيها بالتسبيح والتعظيم؛ لأنّ الصلاة لا تكون إلّا بذكر الله، ـ عن الحسن ومجاهد ـ. وقيل: معناه: لأن أذكرك بالمدح والثناء. وقيل: إنّ معناه: صلّ لي، ولا تصلّ لغيري، كما يفعله المشركون، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: أقم الصلاة متى ذكرت أنّ عليك صلاة، كنت في وقتها أم لم تكن، ـ عن أكثر المفسّرين، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام ـ، ويعضده ما رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: من نسي صلاة فليصلّها إذا ذكرها، لا كفارة لها غير ذلك، وقرأ: ﴿أَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ـ رواه مسلم في الصحيح ـ.

ثمّ أخبره سبحانه بمجيء الساعة، فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ يعني: إنّ القيامة جائية قائمة لا محالة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: أريد أن أخفيها عن عبادي؛ لئلّا

تأتيهم إلّا بغتة. قال ثعلب: هذا أجود الأقوال وهو قول الأخفش. وفائدة الإخفاء التهويل والتخويف، فإنّ الناس إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة، كانوا على حذر منها كل وقت. وروى ابن عباس: «أكاد أخفيها من نفسي» وهي كذلك في قراءة أبي. وروي ذلك عن الصادق عليه السلام. والمعنى: أكاد لا أظهر عليها أحداً، وهو قول الحسن وقتادة. والمقصود من ذلك تبعيد الوصول إلى علمها، وتقديره: إذا كدت أخفيها من نفسي، فكيف أظهرها لك. قال المبرّد: هذا على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء قال: كتمته حتى من نفسي أي: لم أطلع عليه أحداً، فبالغ سبحانه في إخفاء الساعة، وذكره بأبلغ ما تعرفه العرب. وقال أبو عبيدة: معنى أخفيها: أظهرها. ودخلت «أكاد» تأكيداً، والمعنى: يوشك أن أقيمها.

﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ أي: بما تعمل من خير وشرّ، ولينتصف من الظالم للمظلوم ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي: لا يصرفنَّك عن الصلاة من لا يؤمن بالساعة. وقيل: معناه: لا يمنعك عن الإيمان بالساعة من لا يؤمن بها. وقيل عن العبادة، ودعاء الناس إليها. وقيل: عن هذه الخصال.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ والهوى: ميل النفس إلى الشيء، ومعناه: ومن بنى الأمر على هوى النفس دون الحقّ، وذلك أنّ الدلالة قد قامت على قيام الساعة.

﴿فَتَرْدَى﴾ أي: فتهلك كما هلك أي: إن صددت عن الساعة بترك التأهّب لها هلكت. والخطاب وإن كان لموسى عليه السلام، فهو في الحقيقة لسائر المكلّفين. وفي هذه الآيات دلالة على أنّ الله تعالى كلّم موسى، وأنّ كلامه محدث؛ لأنّه حل الشجرة وهي حروف منظومة.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن
لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ
أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

القراءة: قرأ ابن عامر: ﴿أَشْدُدْ﴾ ـ بقطع الهمزة وفتحها ـ ﴿وَأُشْرِكْهُ﴾ ـ بضمّها ـ. والباقون: ﴿أَشْدُدْ﴾ ـ بهمزة الوصل ـ، ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾ بالفتح. وفي الشواذّ، قراءة عكرمة: ﴿وَأَهُسُّ﴾ ـ بالسين ـ. وقراءة أبي البَرَهسَم[1]: ﴿وَأَهِشُّ﴾ ـ بكسر الهاء ـ.

---

(١) وفي نسخة: «إبراهيم»، ويقف حمزة على «أتوكّؤا» بإبدال الهمزة ألفاً أو واواً على الرسم، ويجوز الروم والإشمام والخامس التسهيل كالواو، وإتّفقوا على كتابة ألف بعد الهمزة وفتح الياء من «لى فيها» حفص والأزرق، ومن «لي أمري» نافع، وأبو عمرو، ومن «أخي» ابن كثير، وأبو عمرو.

الحجة: الوجه في قراءة ابن عامر: أنّه جعله خبراً. وسائر القرّاء جعلوه دعاء. وضمّ الهمزة في «أشركه» ضعيف جدّاً؛ لأنّه ليس إلى موسى إشراك هارون في النبوّة، بل ذلك إلى الله تعالى. فالوجه فتح الهمزة على الدعاء. ومن قرأ ﴿أَهِشُّ﴾ ـ بكسر الهاء ـ، فيمكن أن يكون أراد: أهُشّ ـ بضمّ الهاء ـ أي: أكسر الكلاء بها للغنم. فجاء بها على يفعل إنْ كان متعدّياً، كما جاء: هرَّ الشيء يهرُّه ويهرُّه: إذا كرهه، وشدَّ الحبل يشُدّه ويشدّه، ونمَّ الحديث ينُمُّهُ وينِمُّهُ. وأمّا أهسّ ـ بالسين ـ، فمعناه: أسوق. وكان ينبغي أنْ يقول: أهسّ بها غنمي، ولكن لمّا دخل السوق معنى الإنتحاء لها، والميل بها عليها، استعمل على معها؛ حملاً على المعنى.

اللغة: التوكّؤ والإتّكاء بمعنى. مثل: التوقّي والإتّقاء. والهشّ: ضرب ورق الشجر ليتساقط. والمآرب: الحوائج، واحدتها: مأربة ـ بضمّ الراء وفتحها وكسرها ـ، عن عليّ بن عيسى. والسيرة والطريقة من النظائر، ومعناه: مرور الشيء في جهة. وأصل الجناح من الجنوح: وهو الميل لأن، الطائر يميل به في طيرانه. وعضد الإنسان: جناحه؛ لأنّ من جهته يميل اليد حيث شاء صاحبها. وقيل: يريد بالجناح الجنب؛ لأنّ فيه جنوح الأضلاع. وقال الراجز:

أضمّها للصدر والجناح

قال أبو عبيدة: الجناحان الناحيتان. والطغيان: تجاوز الحدّ في العصيان. وشرح الصدر: توسّعه، ومنه: شرح المعنى، وهو بسط القول فيه. والعقدة: جملة مجتمعة يصعب تفكيكها. والحلّ ضدّ العقد، ونظيره: الفصل و القطع. والوزير: حامل الثقل عن الرئيس، مشتقّ من الوزر الذي هو الثقل. والأزر: الظهر يقال: أزرني فلان على أمري أي: كان لي ظهراً. ومنه: المئزر؛ لأنّه يشدُّ على الظهر، والإزار؛ لأنّه يسيل [يسبل] على الظهر. والتأزير: التقوية، ويمكن أن يكون «أزر ووزر» مثل: أرخ وورخ، وأكد ووكد. قال إمرؤ القيس:

بِـمَحْنِيَّةٍ قَـدْ آزَرَ الضّـالَ نَـبْتُها مَضَمُّ، جُيُوشٍ، غانِمِينَ وَخُيَّبِ[١]

الإعراب: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾: قال الزجّاج: تلك: إسم مبهم يجري مجرى «التي»، ويوصل كما توصل «التي»، والمعنى: وما التي بيمينك. وأنشد الفرّاء:

عَدَسَ ما لِعَبَّادٍ عَلَيْكِ إمـارَةٌ أمِنْتِ وَهذا تَحْمِلِينَ طَلِيقٌ[٢]

أي: والذي تحملين. قال بعض المتأخّرين: إنّ الصحيح الذي لا غبار عليه أن يكون ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ. و ﴿وَمَا﴾ خبره، قدّم عليه؛ لما فيه من معنى الإستفهام، و﴿بِيَمِينِكَ﴾: الجارّ والمجرور في موضع نصب؛ على الحال من معنى الفعل في ﴿تِلْكَ﴾ وهو الإشارة. قال: وإنّما قلنا ذلك؛ لأنّ أسماء الإشارة إنّما تبيّن بصفاتها، كما أنّ الأسماء الموصولة تبيّن بصلاتها. ولا يجوز وصف المبهم بالجملة؛ لأنّ الجمل نكرات.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ «إذا» هذه ظرف المفاجأة، وهي ظرف مكان، تقديره: فبالحضرة هي حيّة. والعامل في الظرف ﴿تَسْعَى﴾. وهذا يدلّ على أنّ ﴿إذا﴾ هيهنا غير مضاف إلى الجملة؛ لأنّه لو كان كذلك لم يعمل فيه ممّا في الجملة شيء؛ لأنّ المضاف إليه لا يعمل في المضاف. و ﴿سِيرَتَهَا﴾ إنتصب على تقدير: سنعيدها إلى سيرتها، فحذف الجارّ.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: في موضع نصب على الحال، والتقدير: تبيض غير برصاء، فيكون حالاً عن حال. ﴿آيَةً أُخْرَى﴾: إسم في موضع الحال أيضاً، والمعنى: تخرج بيضاء مبيّنه. قال الزجّاج: ويجوز أن يكون منصوبة على آتيناك آية أُخرى، اونؤتيك آية أُخرى؛ لأنّ في قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ دليلاً على أنه يعطي آية أُخري. ﴿لِنُرِيَكَ﴾: اللام يتعلّق بقوله: ﴿وَاضْمُمْ﴾ والمفعول الثاني من

---

(١) محنّية: عطف الوادي يصفها بالخصب، وان نبتها يساوي شجر الضال في الإرتفاع.

(٢) الشعر في جامع الشواهد. وعدبر: إسم بغلة.

«نري» يجوز أن يكون محذوفاً، وتقديره: لنريك من آياتنا الكبرى آيات، ويجوز أن يكون ﴿الْكُبْرَى﴾ صفة محذوف، وهو المفعول الثاني، والتقدير: لنريك الآية الكبري من آياتنا.

﴿هَارُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿وَزِيراً﴾ ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار فعل، كأنّه قال: أعني هارون أخي، أو إستوزر لي هارون؛ لأنّ وزيراً يدلّ عليه. و﴿أَخِي﴾: صفة لهارون، ويجوز أن يكون بدلاً منه. قال الزجّاج: يجوز أن يكون ﴿هَارُونَ﴾ مفعولاً أوّل لإجعل، و«وزيراً» مفعولاً ثانياً له. وعلى هذا فيكون مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ﴾ في أنّ المفعول الثاني من هذا الباب قد تقدّم على المفعول الأوّل. ولو قرأ بالرفع ـ هَارُونُ ـ لكان خبر مبتدأ محذوف، كأنّه قيل: من هذا الوزير؟ فقيل: هو هارون. و﴿كَثِيراً﴾: نعت مصدر محذوف في الموضعين أي: تسبيحاً كثيراً، وذكراً كثيراً. ويجوز أن يكون نعتاً لظرف محذوف، تقديره: نسبّحك وقتاً كثيراً، ونذكرك وقتاً كثيراً.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه ما أعطي موسى من المعجزات، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ سأله عمّا في يده من العصا؛ تنبيهاً له عليها، ليقع المعجز بها بعد التثبّت فيها، والتأمّل لها. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها إذا مشيت. والتوكّؤ: التحامل على العصا في المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أي: وأخبط بها ورق الشجر لترعاه غنمي.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ولم يقل: أُخر، ليوافق رؤوس الآي. أي: حاجات أُخرى، فنصَّ على اللازم، وكنّي عن العارض. قال ابن عباس: كان يحمل عليها زاده، ويركزها فيخرج منه الماء، ويضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل، وكان يطرد بها السباع. وإذا ظهر عدوّ حاربت. وإذا أراد الإستسقاء من بئر طالت وصارت شعبتاها كالدلو. وكان يظهر عليها كالشمعة فتضيء له الليل. وكانت

تحدثه وتؤنسه. وإذا طالت شجرة حناها بمحجنها.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أي: تمشي بسرعة. وقيل: صارت حيّة صفراء لها عرف كعرف الفرس، وجعلت تتورّم حتى صارت ثعباناً، وهي أكبر من الحيّات، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّه ألقاها، وحانت منه نظرة، فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، ويمرّ بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلقمها، وتطعن أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فتجثّها، وعيناه تتوقّدان ناراً. وقد عاد المحجن عنقاً فيه شعر مثل النيازك. فلمّا عاين ذلك، ولّى مدبراً ولم يعقّب. ثمّ ذكر ربّه فوقف إستحياء منه، ثم نودي: يا موسى! إرجع إلى حيث كنت. فرجع وهو شديد الخوف.

ف﴿قَالَ خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أي: سنعيدها إلى الحالة الأُولى عصاء، وعلى موسى يومئذ مدرعة من صوف، قد خلّها بخلال. فلمّا أمره سبحانه بأخذها، أدلى طرف المدرعة على يده، فقال: ما لك يا موسى أرأيت لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا. ولكنّي ضعيف، ومن ضَعْفٍ خُلِقْتُ. وكشف عن يده، ثمّ وضعها في فم الحيّة، فإذا يده في الموضع الذي كان يضعها إذا توكّأ عليها بين الشعبتين، ـ عن وهب ـ. وقيل: كانت العصا من آس الجنّة، أخرجها آدم عليه السلام وتوارثها الأنبياء إلى أن بلغ شعيباً، فدفعها إلى موسى. قال وهب: كانت من عوسج، وكان طولها عشرة أذرع على مقدار قامة موسى.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ معناه: واجمع يدك إلى ما تحت عضدك، ـ عن مجاهد، والكلبي ـ. وقيل: إلى جنبك. وقيل: أدخلها في جيبك. وكنّي عن الجنب بالجناح.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ لها نور ساطع يضيء بالليل والنهار، كضوء الشمس والقمر

وأشدُّ ضوءاً، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير برص في قول الجميع قالوا: وكان موسى آدم اللون، ففعل فخرجت يده كما قال الله، ثم ردَّها فعادت إلى لونها الذي كانت عليه ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ أي: فنزيدك بها آية أُخرى، أو تخرج مبينة آية أُخرى.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا﴾ وحججنا ﴿الْكُبْرَى﴾ منها. ولو قال: الكبر ـ على الجمع ـ وصفاً لجميع الآيات، لكان جائزاً. وقيل: معناه: لنريك من دلالاتنا الكبرى، سوى هاتين الدلالتين. وقيل: إنّها هلاك فرعون وقومه.

فلمّا حمله سبحانه الرسالة، وأراه المعجزات، أمره بالتبليغ، فقال: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ فأدْعه إلي ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: تجبر وتكبّر في كفره.

﴿قَالَ﴾ موسى عند ذلك ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي: وسّع لي صدري، حتى لا أضجر ولا أخاف ولا أغتم ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي: سهّل عليَّ أداء ما كلّفتني من الرسالة، والدخول على الطاغي، ودعائه إلى الحقّ.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي: وأطلق عن لساني العقدة التي فيه حتى يفقّهوا كلامي. وكان في لسان موسى عليه السلام رُتَّة لا يفصح معها بالحروف شبه التمتمة[١]. وقيل: إنّ سبب تلك العقدة في لسانه جمرة طرحها في فيه، وذلك لما أراد فرعون قتله؛ لأنّه أخذ بلحية فرعون ونتفها، وهو طفل، فقالت آسية بنت مزاحم: لا تفعل؛ فإنّه صبيّ لا يعقل، وعلامة جهله أنّه لا يميز بين الدرّة والجمرة. فأمر فرعون حتى أُحضر الدرّة والجمرة بين يديه، فأراد موسى أن يأخذ الدرّة، فصرف جبرائيل يده إلى الجمرة، فأخذها ووضعها في فيه فإحترق لسانه، ـ عن سعيد بن جبير ومجاهد والسدّي ـ. وقيل: إنّه انحلّ ما كان بلسانه إلّا بقية منه؛

---

[١] تمتم تمتمة في الكلام: عجل فيه ولم يفهمه.

بدلالة قوله: ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ ـ عن الجبائي ـ. وقيل: استجاب الله تعالى دعاءه، فأحلّ العقدة عن لسانه، ـ عن الحسن ـ، وهو الصحيح لقوله سبحانه: ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ ومعنى قوله: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يأتي ببيان وحجّة، وإنّما قالوا ذلك تمويهاً ليصرفوا الوجوه عنه.

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً﴾ يؤازرني على المضي إلى فرعون، ويعاضدني عليه. وقيل: إجعل لي معاوناً أتقوّى به، وبرأيه، ومشاورته.

وقال: ﴿مِنْ أَهْلِي﴾؛ لأنّه إذا كان الوزير من أهله، كان أولى ببذل النصح له. ثمّ بيَّن الوزير، وفسَّره، فقال: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ وكان أخاه لأبيه وأُمّه، وكان بمصر.

﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ أي: قوِّ به ظهري، وأعنّي به.

﴿وأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أي: إجمع بيني وبينه في النبوّة؛ ليكون أحرص على مؤازرتي لم يقتصر على سؤال الوزارة حتى سأل أن يكون شريكه في النبوّة، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسألة. وإنّما سمّي الوزير وزيراً؛ لأنّه يعين الأمير على ما هو بصدده من الأُمور، أُخذ من المؤازرة التي هي المعاونة. وقيل: إنّما سمّي وزيراً؛ لأنّه يتحمّل الثقل عن الأمير، من الوزر الذي هو الثقل. وقيل: لأنّه يلتجىء الأمير إليه فيما يعرض له من الأُمور من الوزر الذي هو الملجأ. قالوا: إنّ هارون كان أكبر من موسى بثلاث سنين، وأتمّ طولاً، وأبيض جسماً، وأكثر لحماً، وأفصح لساناً، ومات قبل موسى بثلاث سنين.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾ أي: ننزّهك عمّا لا يليق بك. بيَّن عليه السلام أنّه إنّما سأل هذه الحاجات ليتوصّل بها إلى طاعة ربّه، وعبادته، وتأدية رسالته، لا للرياسة ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ أي: نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك، ومننت به علينا من تحميل رسالتك.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ أي: بأحوالنا وأُمورنا عالماً. وقيل: بصيراً

بإحتياجنا في النبوّة إلى هذه الأشياء ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه إجابة له ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي: قد أُعطيت مناك وطلبتك ﴿يَا مُوسَى﴾ فيما سألته. والسؤل: المنى، والمراد فيما يسأله الإنسان. وقال الصادق عليه السلام: حدّثني أبي، عن جدّي، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: كن لما لاترجو أرجى منك لماترجو،فإنّ موسى بن عمران خرج يقتبس لأهله ناراً، فكلّمه الله عزّوجلّ، فرجع نبيّاً، وخرجت ملكة سبأ كافرة، فأسلمت مع سليمان،وخرج سحرة فرعون يطلبون العزّة لفرعون، فرجعوا مؤمنين.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ (١)

القراءة: قرأ أبو جعفر: ولْتَصْنَعْ ـ بالجزم ـ. والباقون: بكسر اللام والنصب.

---

(١) وفتح الياء من «عيني إذ» نافع وأبو عمرو. ومضي إدغام «لبثت»، وفتح الياء من «نفسي اذهب» ومن «ذكرى اذهبا» الحر ميان ونافع.

وفي الشواذّ قرائة أبي نهيك: ولِتَصنع ـ بكسر اللام وفتح التاء ـ.

الحجة: قوله: ولتصنْع ـ بالجزم ـ مثل قولهم: ولتعن بحاجتي. فالمأمور غائب غير مخاطب؛ لأنّ العاني بالحاجة غير المخاطب، وليس ذلك مثل قوله: ﴿فَلْتَفْرَحُوا﴾ فإنّ المأمور هناك مخاطب به ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ قال أحمد بن يحيى: معناه: لتكون حركتك وتصرّفك على عين منّي. وقراءة الفرّاء[القرّاء] ﴿ولِتُصنعَ﴾ على عيني ـ بضمّ التاء ـ وفتح العين ـ، معناه: لتربّى وتغذى بمرأى منّي.

اللغة: أصل المنِّ: القطع، ومنه: ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وحبل منين أي: منقطع. فالمنّ: نعمة تقطع لصاحبها من غيره. والمرّة: الكرّة الواحدة، من المرّ. والقذف: الطرح. واليمّ: البحر. والإصطناع: إفتعال من الصنع، والصنع: إتّخاذ الخير لصاحبه. ووني في الأمر يني ونياً ووناً: إذا فتر، فهو وان ومتوانٍ فيه. قال العجاج:

فَماوَنى مُحَمَّدٌ مُذْ أنْ غَفَرَ ... لَهُ الإلَهُ ما مَضى، وَما غَبَرَ

الإعراب: مرّة: يحتمل أن يكون مصدراً، ويحتمل أن يكون ظرفاً، ويكون التقدير: مرّة أُخرى، أو وقتاً آخر. ﴿مَا يُوْحَى﴾: ما: مصدريّة، وتقديره: وأوحينا إلى أُمّك إيحاء. و﴿أَنِ اقْذِفِيهِ﴾ في موضع نصب؛ بأنّه مفعول «أوحينا». ﴿وَلِتُصنَعَ﴾: اللام يتعلّق بألقيت أي: لتربى ولتصنع. وقوله: ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ في موضع النصب على الحال، وتقديره: جئت مقدراً ما قدر لك.

المعنى: لمّا أخبر سبحانه موسى بأنّه آتاه طلبته، وأعطاه سؤله، عدَّد عقيبه ما تقدَّم ذلك من نعمه عليه، ومننه لديه، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ أي: أنعمنا عليك من صغرك إلى كبرك، جارية نعمتنا عليك، متوالية فإجابتنا الآن دعاك تتلوها.

ثم فسَّر سبحانه تلك النعمة فقال: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ أي: حين أو حينا إلى أُمّك أي: ألهمناها ما يلهم، وهو ما كان فيه سبب نجاتك من القتل حتى عنيت بأمرك. وقيل: كانت رأت في المنام، ـ عن الجبائي ـ.

ثمّ فسَّر ذلك الإيحاء فقال: ﴿أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ أي: إجعليه فيه بأن ترميه فيه ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ يريد النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ وهو شطّ البحر، لفظه أمر، فكأنّه أمر البحر، كما أمر أُمّ موسى، والمراد به الخبر. والمعنى: حتى يلقيه البحر بالشطّ.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ يعني: فرعون كان عدوّاً لله ولأنبيائه، وعدوّاً لموسى خاصّة؛ لتصوّره أنَّ ملكه ينقرض على يده، وكانت هذه المنّة من الله سبحانه على موسى أنّ فرعون كان يقتل غلمان بني إسرائيل، ثمّ خشي أن يفني نسلهم، فكان يقتل بعد ذلك في سنة، ولا يقتل في سنة. فولد موسى في السنة التي كان يقتل الغلمان فيها، فنجاه الله تعالى منه.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي: جعلتك بحيث يحبّك من يراك حتى أحبّك فرعون، فسلمت من شرّه، وأحبّتك إمرأته آسية بنت مزاحم فتبنّتك، وربّتك في حجرها، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: معناه: حببتك إلى عبادي، فلا يلقاك أحد مؤمن ولا كافر إلّا أحبّك، ـ عن ابن عباس ـ، وهذا كما يقال ألبسه الله جمالاً، وألقى عليه جمالاً. وقال قتادة: ملاحة كانت في عين موسى، فما رآه أحد إلّا عشقه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي لتربّى وتغذى بمرأى منّي أي: يجري أمرك على ما أُريد بك من الرفاهة في غذائك، ـ عن قتادة ـ، وذلك أنّ من صنع لإنسان شيئاً، وهو ينظر إليه صنعه كما يحبّ، ولا يتهيّأ له خلافه. وقيل: لتربّى ويطلب لك الرضاع، على علم منّي ومعرفة؛ لتصل إلى أُمّك، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: لتربّى

وتغذى بحياطتي وكلاءتي وحفظي، كما يقال في الدعاء بالحفظ والحياطة عين الله عليك، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾: الظرف يتعلّق بتصنع. والمعنى: ولتصنع على عيني قدرنا مشي أُختك.

وقولها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ لأنّ هذا كان من أسباب تربية موسى على ما أراده الله، وهو قوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ يعني حين قالت لها أُمّ موسى قصيه، فاتبعت موسى على أثر الماء، وذلك أنّ أمّ موسى إتّخذت تابوتاً، وجعلت فيه قطناً، ووضعته فيه، وألقته في النيل. وكان يشرع من النيل نهر كبير في باغ فرعون. فبينا هو جالس على رأس البركة مع إمرأته آسية، إذ التابوت يجيء على رأس الماء. فأمر بإخراجه فلمّا فتحوا رأسه. إذا صبي به من أحسن الناس وجهاً، فأحبَّه فرعون بحيث لا يتمالك، وجعل موسى يبكي ويطلب اللبن. فأمر فرعون حتى أتته النساء اللاتي كُنَّ حول داره، فلم يأخذ موسى من لبن واحدة منهنّ. وكانت أُخت موسى واقفة هناك، إذ أمرتها أُمّها أن تتبع التابوت، فقالت: إنّي آتي بإمرأة ترضعه، وذلك قوله: ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ أي: أدلّكم على إمرأة تربّيه، وترضعه، وهي ناصحة له. فقالوا: نعم. فجاءت بالأُمّ فقبل ثديها، وذلك قوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ برؤيتك وبقائك.

﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ من خوف قتله، أو غرقه، وذلك أنّها حملته إلى بيتها آمنة مطمئنّة، قد جعل لها فرعون أُجرة على الرضاع ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً﴾ كان قتل قبطيّاً كافراً، ـ عن ابن عباس ـ. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: رحم الله أخي موسى! قتل رجلاً خطأ، وكان ابن إثنتي عشرة سنة».

﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ الْغَمِّ﴾ أي من غمّ القتل وكربه؛ لأنّه خاف أن يقتصّوا منه بالقبطي. فالمعنى: خلّصناك من غمّ القصاص، وآمنّاك من الخوف.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ أي: إختبرناك إختباراً، ومعناه: إنّا عاملناك معاملة

المختبر، حتى خلّصت للإصطفاء بالرسالة، وكان هذا من أكبر نعمه سبحانه عليه. وقيل: معناه: وخلّصناك من محنة بعد محنة، منها: أنّه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح الأطفال فيها، ثمّ إلقاؤه في اليمّ، ثمّ منعه من الرضاع إلّا من ثدي أُمّه، ثمّ جرّه لحية فرعون حتى همَّ بقتله، ثمّ تناوله الجمرة بدل الدرّة، فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثمّ مجيء رجل من شيعته يسعى ليخبره بما عزموا عليه من قتله، ـ عن ابن عباس ـ. فعلى هذا يكون المعنى: وخلّصناك من المحن تخليصاً. وقيل: معناه: وشددنا عليك التعمّد في أمر المعاش، حتى رعيت لشعيب عشر سنين.

ثمّ بيَّن ذلك فقال: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: لبثت فيهم حين كنت راعياً لشعيب ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ أي: في الوقت الذي قدّر لإرسالك نبيّاً. قال الشاعر:

نالَ الخِلافَةَ، أوْ كانَتْ لَهُ قَدَراً كَما أتىٰ رَبَّهُ مُوسىٰ عَلى قَدَرِ

وقيل: معناه: جئت على الوقت الذي يوحى فيه إلى الأنبياء، وهو على رأس أربعين سنة. وقيل: على المقدار الذي قدَّره الله لمجيئك، وكتبه في اللوح المحفوظ، والمعنى: جئت في الوقت الذي قدَّره الله لكلامك، ونبوّتك، والوحي إليك.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي: لوحيي ورسالتي، ـ عن ابن عباس ـ. والمعنى: إخترتك وإتّخذتك صنيعتي، وأخلصتك لتنصرف على إرادتي ومحبّتي. وإنّما قال: لنفسي؛ لأنّ المحبّة أخصُّ شيء بالنفس، وتبليغه الرسالة، وقيامه بأدائها، تصرف على إرادة الله ومحبّته. وقيل: معناه: إخترتك لإقامة حجّتي، وجعلتك بيني وبين خلقي، حتى صرت في التبليغ عنّي بالمنزلة التي أنا أكون بها، لو خاطبتهم وإحتججت عليهم، ـ عن الزجاج ـ.

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أي: بحججي ودلالاتي. وقيل: بالآيات التسع، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي: ولا تضعفا في رسالتي، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: ولا تفترا في أمري، ـ عن السدّي ـ. وقيل: ولا تقصرا، ـ عن محمد بن كعب ـ أي: لا يحملنكما خوف فرعون على أن تقصرا في أمري.

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ كرَّر الأمر بالذهاب؛ للتأكيد. وقيل: إنّ في الأوّل خصَّ موسى بالأمر، وفي الثاني أمرهما ليصيرا نبيّين وشريكين في الأمر، ثمّ بيَّن من يذهبان إليه. ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: جاوز الحدَّ في الطغيان.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾ أي: إرفقا به في الدعاء والقول، ولا تغلظا له في ذلك، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: كنياه، ـ عن السدّي وعكرمة ـ، وكنيته أبو الوليد. وقيل: أبو العباس. وقيل: أبو مرّة. وقيل: إن القول اللّين هو هل لك إلى أن تزكّى، وأهديك إلى ربك فتخشى، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: هو أنّ موسى أتاه، فقال له: تسلم، وتؤمن بربّ العالمين على أنّ لك شبابك فلا تهرم، وتكون ملكاً لا ينزع الملك منك حتى تموت، ولا تنزع منك لذّة الطعام، والشراب، والجماع، حتى تموت، فإذا متّ دخلت الجنّة. فأعجبه ذلك، وكان لا يقطع أمراً دون هامان، وكان غائباً. فلمّا قدم هامان، أخبره بالذي دعاه إليه، وأنّه يريد أن يقبل منه، فقال هامان: قد كنت أرى أنّ لك عقلاً، وأنّ لك رأياً بيّناً. أنت ربٌّ وتريد أن تكون مربوباً؟ وبينا أنت تُعْبَد وتريد أن تَعبد؟ فقلَّبه عن رأيه، وكان يحيى بن معاذ يقول: هذا رفقك بمن يدعي الربوبيّة، فكيف رفقك بمن يدعي العبوديّة؟

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أي: أُدعوَاه على الرجاء والطمع، لا على اليأس من فلاحه، فوقع التعبّد لهما على هذا الوجه؛ لأنّه أبلغ لهما في دعائه إلى الحقّ. قال الزجّاج: والمعنى في هذا عند سيبويه: إذهبا على رجائكما وطمعكما، والعلم من الله قد أتى من وراء ما يكون. وإنّما يبعث الرسل، وهم يرجون ويطمعون أن يقبل منهم، والمراد بيان الغرض بالبعثة أي: ليتذكّر ما أغفل عنه من ربوبيّة الله تعالى، وعبوديّة نفسه، ويخشى العقاب والوعيد في قوله سبحانه:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ على دلالة وجواب أن يرفق في الدعاء إلى الله، وفي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ ليكون أسرع إلى القبول، وأبعد من النفور. وقيل: إنّ هارون كان بمصر، فلمّا أوحى الله تعالى إلى موسى أن يأتي مصر، أوحى إلى هارون أن يتلقّى موسى، فتلقّاه على مرحلة، ثمّ إئتمرا وذهبا إلى فرعون.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ
لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ
إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ
قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ
﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟
وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾

القراءة: قرأ نصر عن الكسائي: خَلَقه ـ بفتح اللام ـ. والباقون: خَلْقه ـ

بسكون ـ اللام ـ. وقرأ أهل الكوفة، وروح، وزيد عن يعقوب: مهداً. والباقون: مهاداً ـ بالألف ـ.

الحجة: من قرأ: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾: فالمعني: أعطى كل شيء صورته أي: خلق كل حيوان على صورة أُخرى، ثمّ هداه. ومن قرأ: ﴿خَلَقه﴾ ـ بفتح اللام ـ، فإنّه جملة من الفعل والفاعل، في موضع جرّ؛ بأنّه صفة «شيء»، والمفعول الثاني لأعطى محذوف، فكأنّه أعطى كل شيء مخلوق ما أوجبه تدبيره، ثمّ هداه السبيل. والمهد: مصدر، كالفرش. والمهاد كالفراش والبساط في قوله: ﴿جَعَل لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً﴾ وفي موضع آخر بساطاً. ويجوز أن يكون المهد أستعمل إستعمال الأسماء، فجمع كما يجمع «فَعل» على «فعال». والأوّل أبين.

اللغة: الفرط: التقدّم، ومنه: الفارط المتقدّم إلى الماء. قال:

قَدْ فَرَطَ العجلُ عَلَيْنا وَعَجَل

ومنه: الإفراط: الإسراف؛ لأنّه تقدّم بين يدي الحقّ. والتفريط: التقصير؛ لأنّه تأخّر عمّا يجب فيه التقدّم. قال الزجّاج: القرن أهل كل عصر فيهم نبيّ، أو إمام، أو عالم يقتدى به، فإن لم يكن واحد منهم لم يسمّ قرناً. والنهي: جمع نهية. وإنّما قيل لأُولي العقول أولو النهى؛ لأنّهم ينهون الناس عن القبائح. وقيل: لأنّه ينتهى إلى آرائهم.

الإعراب: ﴿أَسْمَعُ﴾: جملة في موضع الرفع؛ بكونها خبراً بعد خبر. ويجوز أن يكون في موضع النصب على الحال. ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾: ﴿عِلْمُها﴾: مبتدأ. و﴿فِي كِتَابٍ﴾: خبره. و ﴿عَنْدَ رَبِّي﴾: معمول الخبر. وتقديره: علمها ثابت في كتاب عند ربّي. ويجوز أن يكون قوله: ﴿عَنْدَ ربِّي﴾ صفة لكتاب. فلمّا تقدَّم إنتصب على الحال، تقديره: في كتاب ثابت عند ربّي. ويجوز أن يكون «عند ربّي» الخبر، و«في كتاب»: بدلاً منه. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر.

وقوله: ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي﴾ تقديره: لا يضلّ ربّي عنه، فحذف الجارّ والمجرور، كما حذف من قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئاً﴾ أي: فيه. ﴿الَّذِيْ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ﴾: يجوز أن يكون في موضع جرّ؛ بأنّه صفة ﴿رَبِّي﴾. ويجوز أن يكون في موضع رفع؛ بأن يكون خبر مبتدأ محذوف. ﴿مِن نَّبَاتٍ﴾: في موضع نصب صفة لقوله: ﴿أَزْوَاجاً﴾. و ﴿شَتَّى﴾: صفة له أيضاً فهي صفة بعد صفة. و﴿تَارَةً﴾: منصوبة على المصدر.

المعنى: لمّا أمر الله سبحانه موسى وهارون أن يمضيا إلى فرعون، ويدعواه إليه ﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أي: نخشى أن يتقدّم فينا بعذاب، ويعجّل علينا ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ أي: يجاوز الحدَّ في الإساءة بنا. وقيل: معناه: إنّا نخاف أن يبادر إلى قتلنا قبل أن يتأمّل حجّتنا، أو أن يزداد كفراً إلى كفره بردّنا.

﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ بالنصرة والحفظ، معناه: إنّي ناصركما وحافظكما.

﴿أَسْمَعُ﴾ ما يسأله عنكما، فأُلهمكما جوابه ﴿وَأَرَى﴾ ما يقصدكما به، فأدفعه عنكما، فهو مثل قوله: فلا يصلون إليكما.

ثمّ فسّر سبحانه ما أجمله، فقال: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أي: فأتيا فرعون ﴿فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾. أي: أرسلنا إليك خالقك بما ندعوك إليه.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أطلقهم، وأعتقهم عن الإستعباد. ﴿وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾ بالإستعمال في الأعمال الشاقّة.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: بدلالة واضحة، ومعجزة لائحة من ربّك، تشهد لنا بالنبوّة.

﴿وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ قال الزجّاج: لم يرد بالسلام هنا التحيّة، وإنّما معناه: إنّ من إتّبع الهدى سلم من عذاب الله. ويدلّ عليه قوله بعده: ﴿إِنَّا قَدْ

﴿أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: إنّما يعذّب الله سبحانه من كذّب بما جئنا به وأعرض عنه، فأمّا من إتّبعه فانّه يسلم من العذاب. وهيهنا حذف، وهو: فأتياه، فقالا له ما أمرهما الله تعالى به.

ثمّ ﴿قَالَ﴾ لهما فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ أي: فمن ربّك وربّه ﴿يَا مُوسَى﴾ وإنّما قال: ربّكما؛ على تغليب الخطاب. وقيل: تقديره: فمن ربّكما يا موسى وهارون، فإكتفى بذكر أحدهما عن الآخر؛ إختصاراً؛ ولتسوى رؤوس الآي، وأراد به: فمن أيّ جنس من الأجناس ربّكما حتى أفهمه؟ فبيّن موسى أنّه تعالى ليس له جنس، وإنّما يعرف سبحانه بأفعاله.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ معناه: أعطى: كل شيء خلقته أي: صورته التي قدَّرها له ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ أي: هداه إلى مطعمه، ومشربه، ومنكحه، وغير ذلك من ضروب هدايته، ـ عن مجاهد، وعطيّة، ومقاتل ـ، وقيل: معناه: أعطي كل شيء مثل خلقه أي: زوجه من جنسه، ثمّ هداه لنكاحه، ـ عن ابن عباس، والسدّي ـ. وقيل: معناه: أعطي خلقه كل شيء من النعم في الدنيا ممّا يأكلون، ويشربون، وينتفعون به، ثمّ هداهم إلى طرق معائشهم، وإلى أُمور دينهم؛ ليتوصّلوا بها إلى نعم الآخرة، ـ عن الجبائي ـ.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أي: فما حال الأُمم الماضية؛ فإنّها لم تقرّ بالله، وما تدعو إليه، بل عبدت الأوثان. ويعني بالقرون الأُولى: مثل قوم نوح، وعاد، وثمود. فـ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: أعمالهم محفوظة عند الله، يجازيهم بها. والتقدير: علم أعمالهم لها عند ربّي.

﴿فِي كِتَابٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ. والمعنى: إنّ أعمالهم مكتوبة مثبتة عليهم. وقيل: المراد بالكتاب: ما يكتبه الملائكة. وقيل أيضاً: إنّ فرعون إنّما قال: ﴿فَمَابَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ حين دعاه موسى إلى الإقرار بالبعث أي: فما بالهم لم يبعثوا.

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يذهب عليه شيء. وقيل: معناه: لا يخطيء ربّي

﴿وَلَا يَنسَى﴾ من النسيان، ـ عن أبي مسلم ـ، أي: لا ينسى ما كان من أمرهم، بل يجازيهم بأعمالهم. وقيل: معناه: لا يغفل ولا يترك شيئاً، ـ عن السدّي ـ.

ثمّ زاد في الإخبار عن الله تعالى، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ أي: فرشاً. ومهاداً أي: فراشاً ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ والسلك: إدخال الشيء في الشيء. والمعنى: أدخل لكم أي: لأجلكم في الأرض طرقاً تسلكونها. وقال ابن عباس: سهل لكم فيها طرقاً.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر، وتمّ الإخبار عن موسى.

ثم أخبر الله سبحانه عن نفسه، فقال موصولاً بما قبله من الكلام: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿أَزْوَاجاً﴾ أي: أصنافاً ﴿مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: مختلفة الألوان أحمر، وأبيض، وأخضر، وأصفر، وكل لون منها زوج. وقيل: مختلفة الألوان، والطعوم، والمنافع، فمنها: ما يصلح لطعام الإنسان، ومنها: ما يصلح للتفكّه، ومنها: ما يصلح لغير الإنسان من أصناف الحيوان.

﴿كُلُوا﴾ أي: ممّا أخرجنا لكم بالمطر من النبات، والثمار ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي: وأسيموا مواشيكم فيما أنبتناه بالمطر. واللفظ للأمر، والمراد الإباحة، والتذكير بالنعمة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما ذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِأُوْلِي النُّهَى﴾ أي: لذوي العقول الذين ينتهون عمّا حرَّم الله عليهم، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: لذوي الورع، ـ عن قتادة ـ، وقيل: لذوي التقى، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: من الأرض خلقنا أباكم آدم عليه السلام ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وفي الأرض نعيدكم إذ أمتناكم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي: دفعة أخرى إذا حشرناكم.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ يعني: فرعون ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني: الآيات التسع أي: معجزاتنا الدالّة على نبوّة موسى ﴿فَكَذَّبَ﴾ بجميع ذلك ﴿وَأَبَى﴾ أن يؤمن به.

وقيل: معناه: فجحد الدليل، وأبى القبول، ولم يرد سبحانه بذلك جميع آياته التي يقدر عليها، ولا كل آية خلقها، وإنّما أراد كل الآيات التي أعطاها موسى.

النظم: ووجه إتّصال قوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ بما قبله من الدعاء إلى التوحيد؛ أنّ فرعون لمّا ظهرت المعجزات، ودلائل التوحيد على يد موسى، تحيَّر وخاف الفضيحة، فأقبل على نوع آخر من السؤال تلبيساً. وكثيراً مّا يفعل ذلك أهل البدع عند ظهور الحجّة. وقيل: لمّا دعاه موسى إلى الإقرار بالبعث، قال: فما بال أولئك القرون لم يبعثوا.

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ
بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا
أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ
ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ
مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ۖ
وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا
النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ
مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾
قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: ﴿لا نخلفه﴾ ـ بالجزم ـ. والباقون: بالرفع. وقرأ

أهل الحجاز، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿سِوى﴾ ـ بكسر السين ـ. والباقون: بضمّها. وقرأ ﴿يومَ الزينة﴾ ـ بالنصب ـ هبيرة عن حفص، وهي قراءة الحسن، والأعمش، والثقفي. والباقون: ﴿يومُ الزينة﴾ ـ بالرفع ـ.

وقرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر، ورويس: ﴿فيُسحِتكم﴾ ـ بضمّ الياء ـ، وكسر الحاء ـ. والباقون: ﴿فيَسحَتكم﴾ ـ بفتح الياء والحاء ـ. وقرأ أبو عمرو: ﴿إنّ هذين﴾ وقرأ ابن كثير، وحفص: ﴿إنْ هذان﴾ خفيف. وقرأ الباقون: ﴿انَّ هذان﴾. وابن كثير وحده يشدّد النون من ﴿هذانّ﴾. وقرأ أبو عمرو: ﴿فاجمعوا﴾ ـ بوصل الهمزة وفتح الميم ـ. والباقون: ﴿فأجمعوا﴾ ـ بقطع الهمزة وكسر الميم ـ. وقرأ ابن عامر، وروح، وزيد ﴿تخيّل إليه﴾ ـ بالتاء ـ، وهو قراءة الحسن، والثقفي. والباقون: ﴿يخيّل﴾ ـ بالياء ـ.

الحجة والإعراب: فأمّا قوله: ﴿لا نخلفُه﴾ ـ بالجزم ـ، فإنّه يكون على جواب الأمر، والقراءة المشهورة بالرفع على أن يكون ﴿لا نخلفه﴾ في موضع النصب؛ بكونه صفة لقوله: ﴿موعداً﴾ وهو الظاهر. وأمّا قوله: ﴿سوى﴾ فإنّه المكان النصف فيما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

وَجَدْنا أبانا كانَ حلَّ بِبَلدَةٍ سِوىً بَيْنَ قَيس قَيْسِ عَيْلانَ وَالْفِزْرِ[1]

قال أبو علي: قوله: ﴿سُوَى﴾ فِعلَ من التسوية، فكان المعنى: مكاناً مستوياً مسافته على الفريقين. فيكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر. وهذا بناء يقلّ في الصفات، ومثله: قوم عدى. فأمّا «فُعَل» فهو في الصفات أكثر. قالوا: دليل خُتَع[1]، ومال لُبَد، ورجل حُطَم.

---

(١) الفزر: أبو قبيلة. وأبان: جبل.

[١] دليل ختع: ماهر بالدلالة. ومال لبد: كثير لايخاف فناؤه، كأنه التبد بعضه. ورجل حُطم: لايشبع لأنه يحطم كل شيء.

وأما انتصاب قوله: ﴿مَكَانًا﴾ فلا يخلو من أن يكون مفعولا للموعد، إمّا على أنّه مفعول به، أو على أنّه ظرف له، أو يكون منتصباً بأنّه المفعول الثاني لقوله: فاجعل. ولا يجوز الأوّل ولا الثاني؛ لأنّ الموعد قد وصف بالجملة التي هي ﴿لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ﴾ وإذا وصف لم يجز أن يعمل عمل الفعل؛ لإختصاصه بالصفة؛ ولأنّه إذا عطف عليه لم يجز أن يتعلّق به بعد العطف عليه شيء منه، وكذلك إذا أخبر عنه، لم يجز أن يقع بعد الخبر عنه شيء يتعلّق بالمخبر عنه. لم يجز سيبويه: هذا ضارب ظريف زيداً، ولا هذا ضويرب زيداً إذا حقّر إسم الفاعل؛ لأنّ التحقير في تخصيصه الإسم، بمنزلة إجراء الوصف عليه، وقد جاء من ذلك شيء في الشعر. قال بشر بن أبي حازم:

إذا فـاقِدٌ خَـطباءُ فَـرْخَيْنِ رَجَّـعَتْ ذَكَرْتُ سُلَيْمىٰ في الخَلِيطِ المُباينِ[1]

ويحتمل ذلك على إضمار فعل آخر، كما ذهبوا إليه في نحو قول الشاعر:

إنَّ العَـرارَةَ وَالنُّـبُوحَ لِـذُارِمٍ وَالمُسْتَخِفَّ أخُوهُمُ الأثـقالا[2]

فإذا لم يجز ذلك كان مفعولاً ثانياً لقوله: ﴿فَاجْعَلَ﴾، فيكون بمنزلة قـوله: ﴿جَعَلُواْ القُرْآنَ عِضِينَ﴾ ونحوه. وأمّا ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ فمن نصبه فعلى الظرف، كما تقول: قيامك يوم الجمعة، فالموعد إذا هنا مصدر، والظرف بعده خبر عنه. قال ابن جنّي: وهو عندي على حذف المضاف أي: إنّ إنجاز موعدنا إيّاكم في ذلك اليوم، ألاترى أنّه لا يراد أنّه في ذلك اليوم يعدكم لأنّ الموعد قد وقع الآن، وإنّما يتوقّع إنجازه في ذلك اليوم. لكن في قوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ نـظر. وظـاهر حاله أن يكون مجرور الموضع، حتى كأنّه قال: انـتظروا مـوعدكم يـوم الزيـنة،

---

(١) خطباء: الشقراق، وهو طائر يعتى إذا سمعت صوت هذا الطائر ينوح حزناً؛ لفقدان فرخيه. ذكرت معشوقتي، والشاهد في عمل «فاقد» في «فرخين».

(٢) العرارة: الشدّة. والنبوح: العزّ والكثرة.

وحشر الناس ضحى أي: يوم هذا، ولهذا فيكون «أن يحشر» معطوفاً على «الزينة». وقد يجوز أن يكون مرفوع الموضع؛ عطفاً على الموعد، فكأنّه قال: إنجاز موعدكم وحشر الناس ضحى في يوم الزينة أي: هذان الفعلان في يوم الزينة.

وأمّا من رفع ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾: فإنّ الموعد عنده ينبغي أن يكون زماناً، فكأنّه قال: وقت وعدكم يوم الزينة، كقولنا: مبعث الجيوش شهر كذا أي: وقت بعثها حينئذ. والعطف عليه بقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ يؤكّد الرفع؛ لأنّ ﴿أَن﴾ لا يكون ظرفاً، بل هو حرف موصول في معنى المصدر. وينبغي أن يكون على حذف المضاف أي: وقت وعدكم يوم الزينة، ووقت حشر الناس ضحى، كما أنّ قولك: ورودك مقدم الحاجّ، إنّما هو على حذف المضاف أي: وقت قدوم الحاجّ.

وأمّا قوله: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾: فإنّ سحت وأسحت بمعنى. قال الفرزدق:

وَعَضُّ زَمان يا إبْنَ مَرْوانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ المالِ إلّا مُسْحَتاً، أوْ مُجَلَّفُ[1]

وفسّر «لم يدع» على أنّه بمعنى: لم يبق. وأمّا قوله: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ فمن قرأ بتشديد النون من «إنْ» والألف من ﴿هَذَانِ﴾ فقد قيل فيه أقوال:

أحدها: إنّ ﴿إِنَّ﴾ بمعنى «نعم»، وأنشدوا شعراً:

بَكَرَ العَواذِلُ في الضُّحى يَلُمْحِينَنِي وَأَلُومُهُنَّهَ

وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلا كَ، وَقَدْ كَبُرْتَ فَقُلْتُ: إنَّهُ

فعلى هذا يكون تقديره: نعم هذان لساحران. وهذا لا يصحّ؛ لأنّ ﴿إِنَّ﴾ إذا كانت بمعنى «نعم» إرتفع ما بعدها بالإبتداء والخبر، واللام لا يدخل على خبر مبتدأ جاء على أصله. وأمّا ما أنشد في ذلك من قوله:

خالي لأَنْتَ وَمَنْ جُرَيْرٌ خالُهُ يَنَل الْعُلاٰ، وَيُكَرِّمِ الأخْوالا

---

(١) مرفوع على القطع.

وقوله:

أُمُّ الحُـلَيْسِ لَـعَجُوزٌ شَـهْرَبَةٌ تَرْضىٰ مِنَ اللَّـحْمِ بِـعَظْمِ الرَّقَـبَةِ

فمحمول على الشذوذ والضرورة. وأيضاً فإنّ أبا علي قال: ما قيل: إنّ في الآية لا يقتضي أن يكون جوابه «نعم»؛ لأنّك إن جعلته جواباً لقـول مـوسى عليه السلام ويلكم لا تفتروا على الله كذباً قالوا نعم هذان ساحران، كان محالاً. وإن جـعلته على تقدير فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى، قالوا نعم هذان لساحران كان محالاً أيضاً.

وثانيها: ما قاله الزجّاج: انّ تقديره: نعم هذان لهما ساحران، فاللام دخل على مبتدأ محذوف. وهذا أيضاً مثل الأوّل لما قلناه؛ ولأنّ سيبويه قال: نعم عدة وتصديق وأن يصرف إنّ إلى الناصبة للإسم أولى، وهو قراءة أبي عمرو، وعيسى ابن عمرو[عمر].

قال أبوعلي: هذا الذي قالهالزجّاج لا يتّجه لأمرين: أحدهما: إنّ الذي حمله النحويّون على الضرورة، لا يمتنع أن يستمرّ هذا التأويل فيه، ولم يحملوه مع ذلك عليه. والآخر: إنّ التأكيد باللام لا يتعلّق به الحذف. ألاترى أنّ الأوجه في الزينة أن تمّالكلام، ولا يحذف ثمّ يؤكّد فأمّا ان يحذف ثمّ يؤكّد فليس باللائق في التدبّر.

وثالثها: ما قاله المتقدّمون من النحويّين: إنّ التقدير: إنّه هذان لسـاحران، فحذف ضمير القصّة. وهذا أيضاً فيه نظر من أجل دخول اللام في الخـبر؛ ولأنّ إضمار الهاء بعد ﴿إِنْ﴾ إنّما يأتي في ضرورة الشعر، نحو قوله:

إنَّ مَنْ لامَ في بَنِي بِنْتِ حَسّانٍ أَلَـمْهُ، وأعْـصِهِ فـي الخُـطُوبِ

وقوله:

إنَّ مَـنْ يَـدْخُلِ الكَـنيسَةَ يَـوْماً يَـلْقَ فـيها جَآذِراً، وَظِـباءً[١]

ورابعها: ما قاله علي بن عيسى، وهو أنّ ﴿إنْ﴾ لمّا كانت مشبّهة بالفعل وليست بأصل في العمل، ألغيت هيهنا كما تلغى إذا خفّفت. وهذا غير مستقيم أيضاً لأنّ الإلغاء في ﴿إنْ﴾ ما رأيناه في غير هذا الموضع. وأيضاً فإنّها قد أعملت مخفّفة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فكيف يجوز إلغاؤها في غير التخفيف؟ وأيضاً فقد أعمل إسم الفاعل والمصدر لشبههما بالفعل. ولا يجوز إلغاؤهما. وأيضاً فإنّ اللام يمنع من هذا التأويل؛ لأنّ ﴿إنْ﴾ إذا ألغيت إرتفع ما بعدها بالإبتداء. واللام لايدخل على خبر المبتدأ على ما بيّنّاه.

وخامسها: إنّ هذه الألف ليست بألف التثنية، وإنّما هي ألف «هذا» زيدت عليها النون. وهذا قول الفرّاء، وهو غير صحيح، فإنّه لا يجوز أن يكون تثنية، ولا يكون لها علم. ولو كان على ما زعم لم تنقلب هذه الألف ياء في حال الجرّ والنصب. ويدلُّ على أنّ هذه الألف للتثنية: إنّ الألف التي كانت في الواحد، قد حذفت كما حذفت الياء من «الذي، والتي»، إذا قلت: اللذان واللتان.

وسادسها: وهو أجود ما قيل فيه: أن يكون «هذان» اسم ﴿إنْ﴾ بلغة كنانة، يقولون: أتاني الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان. قال بعض شعرائهم:

واهاً لرَيّاً، ثـــمَّ واهاً واهاً يـا لَـيْتَ عَـيْناهَا لَـنا وَفـاها
وَمَوْضِعُ الْخَلْخالِ مِنْ رِجْلاها بِـــثَمَنٍ نُـعْطِي بِـهِ أبـاها
إنَّ أبـــاها، وأبـــا أبـاها قَدْ بَـلَغا فـي المَـجْدِ غـايَتاها

وقال آخر:

---

[١] الجآذر جمع الجؤذر: ولد البقرة الوحشيّة. أراد بالجآذر والظباء النساء، شبّههن بها في سعة العين.

تَـزَوَّدَ مِـنّا بَـيْنَ أذْنـاهُ طَـعْنَة دَعَتْهُ إلى هابِي التُّرابِ عَـقِيمِ[١]

وقال آخر:

فَأطْـرَقِ إطْـراقَ الشُّـجاعِ، وَلَـوْيَرى مسـاغاً لِـناباهُ الشُّـجاعُ لَـصَمَّما[٢]

ويقولون: ضربته بين أذناه، ومن يشتري الخفان. وقيل: إنّها لغة لبني الحرث بن كعب. وهذا القول إختيار أبي الحسن، وأبي عليّ الفارسيّ. ومن قرأ: إن هذين لساحران، فهو صحيح مستقيم، وزيف الزجّاج هذه القراءة لمخالفتها المصحف. وقيل: إنّه إحتجّ في مخالفته المصحف بما روي أنّه من غلط الكاتب. ويروون عن عثمان وعائشة أنّهما قالا انَّ في هذا القرآن غلطاً تستقيمه [ستقيمه] العرب بألسنتها. وهذا غير صحيح عند أهل النظر؛ فإنّ أبا عمرو، ومن ذهب من القرّاء مذهبه، لا يقرأ إلّا بما أخذه عن الثقات من السلف، ولا يظنّ به مع علوّ رتبته أن يتصرّف في كتاب الله من قبل نفسه، فيغيّره(١).

---

(١) قال في الجواهر كتاب الصلاة: فإنّ من مارس كلماتهم، علم أن ليس قرائتهم إلّا بإجتهادهم وما يستحسنوه بأنظارهم، كما يؤمي إليه ما في كتب القرائة من عدّهم قرائة النبيّ صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام وأهل البيت في مقابلة قراآتهم، ثمّ قال كان أحدهم إذا برع وتمهر شرع للناس طريقاً في القرائة لايعرف الا من قبله انتهى وهذا يل على عدم ممارسته في القراآت وذكرنا في الحواشي قرائن قاطعة على بطلان هذا التوهّم، وكل قرأ بما تواتر لديه، ومع ذلك فهذه الآية أوضح برهان على أنّهم لم يعتمدوا في القرائة إلّا على النقل والسماع؛ لأنّهم سمعوا «هذان» ـ بالألف ـ فقرؤا بها، مع أنّ النحو يقتضي أن يكون «هذين» ـ بالياء ـ ولم يكن يخفى مثل ذلك عن مثل الكسائي إمام النحو، وعاصم، وغيرهما. وإحتمال حذف الياء من الكتابة غير بعيد، كما في الافهم وتواتر شيء إلى رجل دون آخر ممكن واقع، فقد يتّفق كثرة النسخ من كتاب عند رجل، وقد إتّفقت عبارته في موضع بحيث يأمن من تواطؤها على الغلط، فتلك العبارة متواترة عنده دون صاحبه، الذي لم يتكثّر النسخ عنده، ومضي شيء من الكلام سابقاً.

[١] قائله: هَوْبر الحارثي. الهابي من التراب: ما ارتفع ودقّ.

[٢] ساغ في الأرض مساغاً: دخل فيها.

ومن قرأ ﴿إِنْ هَذَانِ﴾ بسكون النون من «إن والألف»، فقد قال الزجّاج: يقوّي هذه القراءة قراءة أبي (ما هذان إلّا ساحران). وروي عنه أيضاً (إن هذان إلّا ساحران) وهذا يدلّ على أنّه جعل اللام بمنزلة «إلّا». والعجب أنّه بصريّ المذهب، والبصريّون ينكرون مجيء اللام بمعنى «إلّا». قالوا: لو كان كذلك لجاز أن تقول: جاءني القوم لزيداً، بمعنى: إلّا زيداً. فالوجه الصحيح فيه: أنّه جعل ﴿إِنْ﴾ هذه مخفّفة من الثقيلة، وأضمر فيها إسمها، ورفع ما بعدها على الإبتداء والخبر، وجعل الجملة خبر إن. وإذا كانت ﴿إن﴾ مخفّفة من الثقيلة، لزمتها اللام ليكون فرقاً بينها وبين ﴿إن﴾ النافية.

وأمّا تشديد النون في قول ابن كثير، ففيه وجهان: **أحدهما**: أن يكون عوضاً من ألف «هذا» التي سقطت من أجل التثنية. والآخر: أن يكون للفرق بين النون التي تدخل على المبهم، والنون التي تدخل على المتمكّن، وذلك أنّ هذه إنّما وجدت مشدّدة مع المبهم. وأمّا قوله: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ قال أبو الحسن: إنّما يقولون بالقطع إذا قالوا: أجمعوا على كذا. فأمّا إذا قالوا: أجمعوا أمركم، وأجمعوا كيدكم، فلا يقولون إلّا بالوصل. قال: وبالقطع أكثر القرّاء. قال: فأمّا أن يكون لغة في هذا المعنى؛ لأنّ باب فعلت وأفعلت كثير، وأن يكون أجمعوا على كذا، ثمّ قال كيدكم على أمر مستأنف. قال أبو علي: فإن قيل: فقد تقدّم ذكر قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ فإذا قيل: فأجمعوا كيدكم كان تكريراً. قيل: لا يكون كذلك؛ لأنّ ذلك في قصّة، وهذا في أخرى، ذاك إخبار عن فرعون في جمعه كيده وسحره، وهذا فيما يتواصى به السحرة في جمع كيدهم، ويشبه أن يكون ذلك على لغتين، كما ظنّه أبو الحسن. قال الشاعر:

وَأَنْـتُمْ مَـعْشَرٌ زِيـدُوا عَـلى مِـائَةٍ فَأجْمِعُوا أمْرَكُمْ طُرّاً فَكِـيدُوني[١]

فقوله: فأجمعوا أمركم بمنزلة: فأجمعوا كيدكم؛ لأنّ كيدهم من أمرهم. وأمّا قوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ فمن قرأ بالياء، فإنّه فعل فارغ، وفاعله قوله: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، ومن قرأ بالتاء، فعلى هذا يكون فاعله الضمير المستكن فيه، العـائد إلى الحـبال والعصي، و ﴿أنّها تسعى﴾ في محلّ الرفع؛ لأنّه بدل من ذلك الضمير، وهو بـدل الإشتمال. ويجوز أن يكون موضعه على هذه القراءة نصباً أيضاً، على معنى يخيّل إليه كونها ذات سعي.

المعنى: ثمّ حكى سبحانه عن فرعون أنّه نسب موسى إلى السحر؛ تلبيساً على قومه بأن قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ أي: من أرض مصر ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ أي: مثل ما أتيت به ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوىً﴾ أي: إضرب بيننا وبـينك مـوعداً مكـاناً يـعد لحضورنا ذلك المكان، لا يقع منّا في حضوره خلاف. ثمّ وصف سبحانه المكان بأنّه تستوي مسافته على الفريقين، و«مكاناً» بدل عن «موعد». وقيل: مكاناً سوى أي: عدلا بيننا وبينك، ـ عن قتادة ـ. وقيل: منصفاً يكون النصف بيننا وبينك، ـ عن مجاهد ـ.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾. وكان يوم عيد لهم، فسمّي يـوم الزينة؛ لأنّ الناس يتزيّنون فيه، ويزينون فيه الأسـواق، ـ عـن مـجاهد وقـتادة والسدّي ـ.

﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً﴾ يعني: ضـحى ذلك اليـوم. ويـريد بـالناس:

---

[١] قائله: ذو الاصبع العدواني.

أهل مصر يقول: يحشرون إلى العيد ضحى، فينظرون إلى أمري وأمرك، فيكون ذلك أبلغ في الحجّة، وأبعد من الشبهة. قال الفرّاء: يقول: إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى، فذلك الموعد. قال: وجرت عادتهم بحشر الناس في ذلك اليوم.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أي: إنصرف، وفارق موسى على هذا الوعد ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: حيلته ومكره، وذلك جمع السحرة ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي: حضر الموعد.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ أي: قال للسحرة؛ لأنّهم أحضروا ما عملوا من السحر؛ ليقابلوا بمعجزة موسى، فوعظهم فقال: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ وهي كلمة وعيد وتهديد، معناه: ألزمكم الله الويل والعذاب. ويجوز أن يكون على النداء نحو: يا ويلتا، فيكون الدعاء بالويل عليهم. وقيل: إنّ «ويلكم» كلمتان، تقديرهما: وي لكم، فيكون مبتدأ وخبراً، ويكون «ويلكم» بمنزلة أتعجب لكم.

﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ أي: لا تشركوا مع الله أحداً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: لا تكذبوا على الله بأن تنسبوا معجزاتي إلى السحر وسحركم إلى أنّه حقّ، وبأن تنسبوا فرعون إلى أنّه إله معبود.

﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ أي: يستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾، ـ عن قتادة والسدّي ـ. وقيل: يهلككم، ـ عن ابن عباس و الكلبي ومقاتل والجبائي ـ. وأصل السحت: إستقصاء الحلق، يقال: سحت شعره: إذا إستأصله. وسحته الله وأسحته: إذا إستأصله وأهلكه.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ أي: خسر من كذب على الله، ونسب إليه باطلا، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنقطع رجاء من كذب على الله عن ثوابه وجنته.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تشاور القوم، وتفاوضوا في حديث موسى

وهارون وفرعون، وجعل كل واحد منهم ينازع لكلام صاحبه. وقيل: تشاورت السحرة فيها هيّئوه من الحبال والعصي، وفيمن يبتدىء بالإلقاء.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ يعني: أنّ السحرة أخفوا كلامهم، وتناجوا فيما بينهم سرّاً من فرعون، فقالوا: إن غلبنا موسى إتّبعناه، ـ عن الفرّاء والزجّاج ـ. وقيل: إنّ موسى لمّا قال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ قال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر. وأسرَّ بعضهم إلى بعض يتناجون، ـ عن محمّد بن إسحاق ـ. وقيل: أسرّوا النجوى بأن قالوا: إن كان هذا ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمره، ـ عن قتادة ـ. وقيل: تناجوا مع فرعون وأسرّوا عن موسى وهارون.

قولهم: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، عن الجبائي وأبي مسلم: إن هذان يعني: موسى وهارون.

﴿لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ قاله فرعون وجنوده للسحرة، ويريدون بالأرض: أرض مصر.

﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثْلَى﴾ هي تأنيث الأمثل، وهو الأفضل، وهو الأشبه بالحقّ، يقال: فلان أمثل قومه أي: أشرفهم وأفضلهم. والمعنى: يريدان أن يصرفا وجوه الناس إليهما، ـ عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ـ. وقيل: إنّ طريقتهم المثلى بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً أي: يريدان أن يذهبا بكم لأنفسهم، ـ عن قتادة وأكثر المفسّرين ـ. وقيل: يذهبا بطريقتكم التي أنتم عليها في السيرة والدين، ـ عن الجبائي وأبي مسلم وابن زيد ـ.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: لا تدعوا من كيدكم شيئاً إلّا جئتم به.

﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً﴾ أي: مصطفين مجتمعين؛ ليكون أنظم لأموركم، وأشدّ

لهيبتكم، ـ عن ابن عباس وأكثر المفسّرين ـ. وقيل: ثمّ ائتوا موضع الجمع، ويسمّي المصلّى الصفّ، ـ عن أبي عبيدة ـ. والمعنى: ثمّ ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ أي: وقد سعد اليوم من غلب وعلا، ـ عن ابن عباس ـ. قال بعضهم: إنّ هذا من قول فرعون للسحرة. وقال آخرون: بل هو قول بعض السحرة لبعض.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ هذا قول السحرة، خيّروه بين أن يلقوا أوّلاً ما معهم، أو يلقي موسى عصاه، ثمّ يلقون ما معهم. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم ما معكم أمرهم بالإلقاء أوّلاً؛ لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا ما معهم، ثمّ يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك. وهيهنا حذف أي: فألقوا ما معهم.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ الضمير في «إليه» راجع إلى «موسى». وقيل: إلى فرعون أي: يرى الحبال من سحرهم أنّها تسير وتعدو مثل سير الحيّات، وإنّما قال ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾؛ لأنّها لم تكن تسعى حقيقة، وإنّما تحرّكت لأنّهم جعلوا داخلها الزئبق، فلمّا حميت الشمس طلب الزئبق [يبق] الصعود، فحركت الشمس ذلك، فظن أنها تسعى.

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا
كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
الْبَيِّنَٰتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ
الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا
فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَٰتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

القراءة: قرأ ابن ذكوان: تلقفُ ـ بالرفع ـ. والباقون: بالجزم. إلّا أنّ حفصاً يقرؤها خفيفة، والآخرون مشدّدة. وإبن كثير برواية البزّي، وابن فليح يشدّد التاء أيضاً. وقرأ: كيد سِحرٍ ـ بغير ألف ـ أهل الكوفة، غير عاصم. والباقون: ساحر ـ بالألف ـ[1].

(١) وإختلفوا في «آمنتم» فحفص بهمزة واحدة على الخبر، وأبو بكر، وحمزة، والكسائي، ←

الحجة: من قرأ: تلقفُ ـ بالرفع ـ فإنّه يرتفع؛ لأنّه في موضع الحال. والحال يجوز أن يكون من الفاعل الملقى أو من المفعول الملقي. فإن جعلته من الفاعل، جعلته من المتلقّف، وإن كان التلقّف في الحقيقة للعصا؛ لأنّ التلقّف كان بإلقائه، فجاز أن ينسب إليه. وإن جعلته من المفعول فإنّه أنّث على المعنى؛ لأنّ الذي في يمينه عصا. ومثل ذلك في أن يكون مرّة للخطاب، ومرّة للمؤنّث قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فهذا يكون على تحدث أنت أيّها الإنسان. وعلى أنّ الأرض تحدث.

وأمّا «تلقفْ» بالجزم، فعلى أن يكون جواباً، كأنّه قال: إن تلقه تَلْقَف أو تَلَقَّفْ. ومن شدَّد التاء فإنّما أراد تتلقّف. وهذا يكون على تتلقّف أنت أيّها المخاطب. وعلى تتلقّف هي، إلّا أنّه أدغم التاء الأولى في التاء الثانية، والإدغام في هذا ينبغي أن لا يكون جائزاً؛ لأنّ المدغم يسكن، وإذا سكن لزم أن يجلب له همزة الوصل، كما جلبت في أمثلة الماضي نحو: إدّارأتم، وإزّيّنت، وإطّيّروا. وهمزة الوصل لا تدخل على المضارع. قال: وسألت أحمد بن موسى كيف يبتدىء من أدغم: فقال كلاماً معناه: إنّه يصير بالإبتداء إلى قول من خفّف، ويدع الإدغام.

ومن قرأ: كيد ساحر؛ فلأنّ الكيد للساحر في الحقيقة، وليس للسحر، إلّا أن يريد كيد ذي سحر، فيكون في المعنى مثل كيد ساحر. والإختلاف بين القرّاء في «آمنتم» والوجه في ذلك ذكرناه في سورة الأعراف.

← وخلف، بهمزتين محقّقتين، أوليهما إستفهامية، وأبو عمرو بهمزتين أيضاً، لكن ثانيتهما مسهلة. واختلف عن الحرميّين، وابن عامر. وقرأ الهاء من «ياته» بالإسكان البزي بخلف، وبالإختلاس قالون يخلف أيضاً، والباقون: بالإشباع. وكتب جزؤا في مصاحف أهل الكوفة بواو بعد الزاي وبعدها ألف، ولذلك يقف حمزة عليها، كما يقف على «أنبؤا» في سورة الانعام.

اللغة: يقال: لقفت الشيء وتلقّفته وإلتقفته: إذا أخذته بسرعة. قال الكسائي: الصبي في الحجاز إذا جاء من عند معلّمه قال: جئت من عند كبيري. والكبير في اللغة: الرئيس. ولهذا يقال للمعلم: الكبير. والإيثار: الإختيار. والتزكّي: طلب الزكاء، والرخاء: النماء في الخبر. ومنه: الزكاة؛ لأنّ المال ينمو بها.

الإعراب: إنَّ مفصول من «ما صنعوا»[1]؛ لأنّ «ما» هيهنا موصولة، و«صنعوا» صلته. ويجوز أن يكون الموصول إسماً بمعنى «الذي»، ويكون العائد من الصلة إلى الموصول محذوفاً. ويجوز أن يكون حرفاً، فيكون تقديره: إن صنعهم. والفرق بين آمنتم به، وآمنتم له: أنّ «آمنتم به» ـ بالباء ـ: هو من الإيمان الذي هو ضدّ الكفر. و«آمنتم له»: بمعنى التصديق.

﴿مِنْ خِلَافٍ﴾: يحتمل أن يكون «من» بمعنى «عن» أي: عن خلاف. ويحتمل أن يكون بمعنى «على خلاف»، فيكون الجارّ والمجرور في موضع نصب على الحال.

﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾: في بمعنى «على». وإنّما جاز ذلك؛ لأنّ الجذع قد إشتمل عليهم، وقد صاروا فيها. قال الشاعر:

هُمُ صَلَبُوا العَبْدي في جِذْعِ نَـخْلَةٍ فَلا عَطَسَتْ شَيْبانُ إلا بِأجْدَعا[2]

﴿أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ﴾: تعليق، ومعنى التعليق إن عملت [علمت] تعمل في المعنى، ولا تعمل في اللفظ. ﴿والَّذِي فَطَرَنَا﴾: موضعه جرّ، عطف على «ما جاءنا». ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾: يجوز أن يكون «ما» مصدريّة في تقدير الظرف أي: فاقض القضاء مدّة كونك قاضياً. ويجوز أن يكون «ما» مفعوله أي: فاقض ما أنت قاضيه. فحذف الهاء. ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: حذف المضاف،

---

(١) لا في الكتابة.

(٢) يعني: صار أنفهم أجدع، وهو كناية عن الحرمان.

وتقديره: إنّما تقضي أمور هذه الحياة الدنيا. ويجوز أن يكون تقديره: إنّما تقضي مدّة هذه الحياة الدنيا. فهذه على القول الأوّل منصوبة؛ مفعول بها. وعلى الثاني منصوبة؛ على الظرف. ويجوز أن يكون الواو للقسم.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: يجب أن يكون بدلاً من «الدرجات»، ولا يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف؛ لأنّ قوله: خالدين فيها، نصب على الحال من قوله: لهم، وذو الحال الضمير المجرور باللام. فعلى هذا لا يجوز الوقف على «الدرجات العلى». و ﴿الدَّرَجَات﴾: مرتفع بالظرف، بلا خلاف بينهم؛ لأنّ الظرف جرى خبراً على المبتدأ، وهو «أولئك» وإعتمد عليه، فيرتفع ما بعده.

المعنى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ معناه: فأحسّ موسى، ووجد في نفسه ما يجده الخائف. أوجس القلب فزعاً أي: أضمر. والسبب في ذلك أنّه خاف أن يلتبس على الناس أمرهم، فيتوهّموا أنهم فعلوا مثل ما فعله، ويظنّوا المساواة، فيشكّوا ولا يتّبعونه، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّه خوف الطباع إذا رأي الإنسان أمراً فظيعاً، فإنّه يحذره ويخافه في أوّل وهلة. وقيل: إنّه خاف أن يتفرّق الناس قبل إلقائه العصا، وقبل أن يعلموا ببطلان السحرة، فيبقوا في شبهة، وقيل: إنّه خاف؛ لأنّه لم يدر أنّ العصا إذا إنقلبت حيّة هل تظهر المزيّة؛ لأنّه لم يعلم أنّها تتلقّفها، فكان ذلك موضع خوف؛ لأنّها لو إنقلبت حيّة، ولم تتلقّف ما يأفكون، ربما إدّعوا المساواة، لا سيما والأهواء معهم، والدولة لهم. فلمّا تلقّفت زالت الشبهة، وتحقّق عند الجميع صحّة أمر موسى، وبطلان سحرهم.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ عليهم بالظفر والغلبة.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: العصاء ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ أي: تبتلع ما صنعوا فيه من الحبال والعصي؛ لأنّ الحبال والعصي أجسام ليست من صنعهم، قالوا: ولمّا ألقي موسى عصاه صارت حيّة، وطافت حول الصفوف حتى رآها

الناس كلّهم، ثمّ قصدت الحبال والعصي، فإبتلعتها كلّها على كثرتها، ثـمّ أخـذها موسى فعادت عصا، كما كانت.

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ أي: إنَّ الذي صنعوه، أو إنّ صنيعهم كيد سـاحر أي: مكره وحيلته.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَاحِرُ﴾ أي: لا يظفر الساحر ببغيته؛ إذ لا حقيقة للسحر ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ أي: حيث كان من الأرض. وقيل: لا يفوز الساحر حيث أتى بسحره؛ لأنّ الحقّ يبطله.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ هيهنا محذوف، وهو فألقي عـصاه، وتـلقف مـا صنعوا، فألقي السحرة سجّداً أي: سجدوا و ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُـوسَى﴾ أضافوه سبحانه إليهما؛ لدعائهما إليه، وكونهما رسولين له ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ أي: لموسى. والمعنى: قد صدقتم له ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي: من غير إذني؛ لأنّه بلغ من جهله أنّه لا يعتقد دين إلّا بإذنه. والفرق بين الإذن والأمر: أنّ في الأمر دلالة على إرادة الآمر الفعل المأمور به، وليس في الإذن ذلك. وقوله: ﴿فَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ إذن، وقوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمر.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ﴾ معناه: إنّه لأُستاذكم وأنتم تـلامذته، وقد يعجز التلميذ عمّا يفعله الأستاذ. وقيل: إنّه لرئيسكم، ومتقدّمكم، وأنتم أشياعه وأتباعه ما عجزتم عن معارضته، ولكنّكم تركتم معارضته؛ إحتشاماً له وإحتراماً. وإنّما قال ذلك ليوهم العوام أنّ ما أتوا به إنّما هو لتواطؤ من جهتهم؛ ليصرفوا وجوه الناس إليهم [إليه].

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ أي: أيديكم اليمنى وأرجـلكم اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أيها السحرة ﴿أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً﴾ لكم ﴿وَأَبْقَى﴾ وأدوم، أنا على إيمانكم، أم ربّ موسى

على تركككم الإيمان به.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نفضلك، ولن نختارك على ما آتانا من الأدلّة الدالّة على صدق موسى، وصحّة نبوّته، والمعجزات التي تعجز عنها قوى البشر.

﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: وعلى الذي فطرنا أي: خلقنا. وقيل: معناه: لن نؤثرك والله الذي فطرنا على ما جاءنا من البيّنات، وما ظهر لنا من الحقّ.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي: فاصنع ما أنت صانعه على إتمام وإحكام. وقيل: معناه: فاحكم ما أنت حاكم، وليس هذا بأمر منهم، ولكن معناه: أيّ شيء صنعت، فإنّا لا نرجع عن الإيمان.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنّما تصنع بسلطانك، أو تحكم في هذه الحياة الدنيا دون الآخرة، فلا سلطان لك فيها، ولا حكم. وقيل: معناه: إنّما تفني وتذهب هذه الحياة الدنيا دون الحياة الآخرة.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ﴾ إنّما قالوا ذلك؛ لأنّ الملوك كانوا يجبرونهم على تعليم السحر؛ كيلا يخرج السحر من أيديهم. وقيل: إن السحرة قالوا لفرعون: أرنا موسى إذا نام. فأراهم إيّاه، فإذا هو نائم، وعصاه تحرسه. فقالوا: ليس هذا بسحر، إنّ الساحر إذا نام بطل سحره. فأبى عليهم إلّا أن يعملوا فذلك إكراههم، ـ عن عبدالعزيز بن أبان ـ.

﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: والله خير لنا منك، وثوابه أبقي لنا من ثوابك. وقيل: معناه: والله خير ثواباً للمؤمنين، وأبقى عقاباً للعاصين منك. وهذا جواب لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾ وهيهنا انتهى الإخبار عن السحرة.

ثمّ قال الله سبحانه ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ وقيل: إنّه من قول السحرة. قال ابن عباس: في رواية الضحّاك المجرم: الكافر. وفي رواية عطاء: يعني: الذي

أجرم، وفعل مثل ما فعل فرعون.

﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة فيها راحة، بل هو معاقب بأنواع العقاب.

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً﴾ مصدّقاً بالله، وبأنبيائه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أدّى الفرائض، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا﴾ يعني: درجات الجنّة، وبعضها أعلى من بعض. والعلى: جمع العليا، وهي تأنيث الأعلى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ معناه: إنَّ الثواب الذي تقدَّم ذكره، جزاء من تطهر بالإيمان والطاعة، عن دنس الكفر والمعصية. وقيل: تزكّى: طلب الزكاء بإرادة الطاعة، والعمل بها.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا
فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ
وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ
جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟
مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ
وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن
قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ

(١) قرأ: «اسر» ـ بهمزة وصل ـ الحرميّان.

رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۖ قَالَ
يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ
ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم
مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾

القراءة: قرأ حمزة: لا تخفْ ـ جزماً ـ. والباقون: لا تخاف. وقرأ أهل الكوفة، غير عاصم: قد أنجيتكم وواعدتكم ورزقتكم. وقرأ الباقون: قد أنجيناكم وواعدناكم ورزقناكم ـ بالنون ـ. وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، ويعقوب، وسهل: ووعدناكم ـ بغير الألف ـ. والباقون: بالألف. وقرأ الكسائي: فيحُل ـ بضمّ الحاء ـ، ومن يحلُل ـ بضمّ اللام ـ. والباقون: بالكسر في الموضعين.

الحجة: قال أبو علي: من رفع قوله: لا تخاف: فإنّه حال من الفاعل في أضرب أي: غير خائف، ولا خاش. ويجوز أن يقطعه من الأوّل أي: أنت لا تخاف. ومن قرأ: لا تخف: جعله جواب الشرط أي: إن تضرب لا تخف دركاً ممّن خلفك، ولا تخش غرقاً بين يديك. فأمّا من قال: لا تخف دركاً ثمّ لا تخشى: فيجوز أن يقطعه من الأوّل أي: إن تضرب لا تخف، وأنت لا تخشى. ولا يحمله على قول الشاعر:

كأنْ لَمْ ترى قَبْلي أسيراً يَمانيّاً[١]

ولا على نحو:

إذا العَجُوزُ غَضِبَتْ فَطلِّقْ ... وَلا تَرَضّيها، وَلا تُمَلِّق[٢]

---

[١] قائله: عبديغوث بن وقاص، وقبله: (وتضحك مني شيخة عبشمية) والشاهد في قوله «لم ترى» حيث أثبت الشاعر الألف مع الجازم.

[٢] قائله: رؤبة بن العجاج.

لأنّ ذلك إنّما يجيء في ضرورة الشعر، كما أنّ قوله:

أَلَــمْ يَأتــيكَ، والانْـبَاءُ تَـنْمي بِـما لاقَتْ لَـبُونُ بَـنِي زِيـادٍ[١]

كذلك، ولكنّك تقدر أنّك حذفت الألف المنقلبة عن اللام، ثمّ أشبعت الفتحة؛ لأنّها في فاصلة، فأثبت الألف الناشئة عن إشباع الفتحة. ومثل هذا ممّا ثبت في الفاصلة قوله: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾ وقد جاء إشباع هذه الفتحة في كلامهم قال:

وَأنتَ عَنِ الغَوائِلِ حِينَ تُرْمَى (١) وَمِــنْ ذَمِّ الرِّجـالِ بِـمُنْتَزاحِ[٢]

أي: بمنتزح.

وحجّة من قرأ ﴿وعدناكم﴾: أنّ ذلك يكون من الله سبحانه. قال أبو الحسن: زعموا أنّ ﴿واعدناكم﴾ لغة في ﴿وعدناكم﴾. فإذا كان كذلك، فاللفظ لا يدلّ على أنّ الفعل من إثنين. فيكون القراءة بوعد أحسن؛ لأنّ «واعد» بمعنى «وعد»، ويعلم من «وعد» أنّه فعل واحد لا محالة. وليس «واعد» كذلك. فالأخذ بالأبين أولى. ومن قرأ: أنجيناكم وواعدناكم، فحجّته قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

وحجّة من قرأ: ﴿يحِل﴾ ـ بكسر الحاء ـ؛ أنّه روي في زمزم إنّه لِشـارِبٍ حلّ أي: مباح له، غير محظور عليه، ولا ممنوع عنه. فالحلّ والحلال في المعنى مثل المباح، فهو خلاف الحظر، والحجر، والحرام، والحرم، فهذه الألفاظ معناها: المنع. والمباح من قولهم: باح بالسر. والأمر يبوح به: إذا لم يجعل دونه حـظراً. فمعنى يحلّ عليكم: ينزل بكم وينالكم بعدما كان ذا حظر، وحجر، ومنع عـنكم. ووجه قراءة من قرأ: يحلل عليكم غضبي، أنّ الغـضب لمـا كـان تـتبعه العـقوبة والعذاب، جعله بمنزلة العذاب، فقال: يحلل أي: ينزل. فجعله بمنزلة قولهم: حـلَّ بالمكان يحلّ. وعلى هذا جاء ﴿يصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَـحُلُّ قَـرِيباً مِـنْ

---

(١) حين ترمي: أي: ترمي الغوائل تنزل المصائب، فأنت بعيد عنها، وعن ذمّ الرجال.

[١] قائله: قيس بن زهير وكان قد طرد إبلاً للربيع بن زياد في قصة مشهورة.

[٢] قائله: ابن هرثمة يرثي ابنه. أنت بمنتزاح من كذا أي ببُعد منه.

دَارِهِمْ﴾ فكما أنَّ هذا عذاب قد أخبر عنه بأنّه يحلّ، كذلك أخبر عن الغضب بمثله، وجعله بمنزلته؛ لأنّه يتبعه، ويتّصل به.

﴿اللغة﴾: اليبس: اليابس، وجمعه: أيباس. وجمع اليبْس ـ بسكون الباء ـ: يبوس. قال الكميت:

فَما زِدْتُهُ إلاَّ يُبُوساً وَما أرى ... لَهُمْ رَحِماً والْحَمْدُ لِلَّهِ تُوصَلُ

قال أبو زيد: حلَّ عليه أمر الله يحلُّ حلولاً. وحلَّ الدار يحلّها حلولاً. وحلّ العقدة يحلّها حلّاً. وحلَّ له الصوم يحلُّ حلّاً. وأحلّه الله إحلالاً. وحلّ عليه حقّي يحلّ محلّاً. وأحلَّ الرجل من إحرامه إحلالاً. وحلّ يحلّ حلّاً. والأسف: أشدّ الغضب، ويكون أيضاً بمعنى الحزن.

﴿الإعراب﴾: ﴿هُمْ أُولَآءِ﴾ مبتدأ وخبر. ويجوز أن يكون ﴿أُولَآءِ﴾ بدلاً من ﴿هُمْ﴾، ويكون ﴿عَلَى أَثَرِي﴾ في موضع رفع؛ بأنّه خبر المبتدأ. وعلى الوجه الأوّل يجوز أن يكون ﴿عَلَى أَثَرِى﴾ في موضع نصب على الحال. والعامل فيه: معنى الإشارة في ﴿أُوْلَآءِ﴾. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر.

﴿المعنى﴾: ثمّ أخبر سبحانه عن حال بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ بعدما رأي فرعون من الآيات، فلم يؤمن هو، ولا قومه ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سر بهم ليلاً من أرض مصر.

﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾ أي: إجعل لهم طريقاً في البحر يابساً بضربك العصا؛ لينفلق البحر. فعدّي «الضرب» إلى الطريق؛ لما دخله هذا المعنى، فكأنّه قد ضرب الطريق، كما يضرب الدينار.

﴿لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾ أي: لا تخاف أنْ يدركك فرعون من خلفك، ولا تخشي من البحر غرقاً. ومن قرأ: ﴿لَا تَخف﴾ ـ بالجزم ـ، فمعناه: لا تخف أن يدركك فرعون وأنت لا تخشى شيئاً من أمر البحر مثل قوله: ﴿يُوَلُّوكُمُ الأَدبَارَ ثُمَّ

﴿لاَ يُنصَرُونَ﴾. ويجوز أن يكون في موضع الجزم؛ على نحو ما ذكرناه في الحجّة.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ معناه: ألحق جنوده بهم، وبعث بجنوده خلفهم وفي أثرهم. وفي الكلام حذف، أنّهم فعلوا ذلك، فدخل موسى وقومه البحر، ثمّ أتبعهم فرعون بجنوده.

﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: جاءهم من البحر ما جاءهم، ولحقهم منه ما لحقهم، وفيه تعظيم للأمر، ومعناه: غشيهم الذي عرفتموه وسمعتم به، ومثله: قول أبي النجم: أنا أبو النجم وشعري شعري أي: شعري الذي سمعت به، وعلمته أي: هلك فرعون ونجي موسى هذا كان عاقبة أمرهم، فليعتبر المعتبرون بهم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ أي: صرفهم عن الهدى والحقّ، وما هداهم إلى الخير والرشد وطريق النجاة. وإنّما قال: ﴿وَمَا هَدَى﴾ بعد قوله: ﴿أَضَلَّ﴾؛ ليتبيّن أنّه إستمرّ على ذلك، وما زال يضلّهم، ولا يهديهم. وحسن حذف المفعول لمكان رأس الآية. وإنّما قال سبحانه تكذيباً لقول فرعون لقومه: ﴿وَمَا أَهْدِيكُم إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

ثمّ خاطب سبحانه بني إسرائيل، وعدَّد نعمه عليهم، فقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون بمر أي منكم ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ وهو أنّ الله تعالى وعد موسى بعد أن أغرق فرعون ليأتي جانب الطور الأيمن، فيؤتيه التوراة، فيها بيان الشرائع والأحكام وما يحتاجون إليه.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ يعني: في التيه. وقد مرَّ بيان ذلك في سورة البقرة.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ صورته صورة الأمر، والمراد به: الإباحة ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: فلا تتعدّوا فيه؛ فتأكلوه على الوجه المحرّم عليكم. وقيل: إنَّ المعنى: لا تتجاوزوا عن الحلال إلى الحرام. وقيل: معناه: لا تتناولوا من

الحلال؛ للإستعانة به على المعصية. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: فيجب عليكم عقوبتي. ومن ضمّ الحاء، فالمعنى: فينزل عليكم عقوبتي.

﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي: هلك؛ لأنّ من هوى من علوّ إلى سفل فقد أهلك نفسه. وقيل: فقد هوى إلى النار. قال الزجّاج: فقد صار إلى الهاوية.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ وهو فعّال، من المغفرة ﴿لِمَنْ تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أي: أدّي الفرائض.

﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: ثمّ لزم الإيمان إلى أن يموت، وإستمرّ عليه. وقيل: ثمّ لم يشكّ في إيمانه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: ثمّ أخذ بسنّة النبيّ ﷺ ولم يسلك سبيل البدعة، ـ عن ابن عباس أيضاً، والربيع بن أنس ـ. وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: ثمّ إهتدى إلى ولايتنا أهل البيت عليهم السلام، فوالله لو أنّ رجلاً عبدالله عمره ما بين الركن والمقام، ثمّ مات ولم يجيء بولايتنا، لأكبّه الله في النار على وجهه. رواه الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده، وأورده العياشي في تفسيره من عدّة طرق.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ قال ابن إسحاق: كانت المواعدة أن يوافي الميعاد هو وقومه. وقيل: مع جماعة من وجوه قومه، وهو متّصل بقوله: ﴿وَاعدنَاكُم جَانِبَ الطور الأَيْمَن﴾ فتعجل موسى من بينهم؛ شوقاً إلى ربّه. وخلفهم ليلحقوا به، فقيل له: ما أعجلك عن قومك يا موسى أي: بأيّ سبب خلفت قومك، وسبقتهم، وجئت وحدك.

﴿قَالَ﴾ موسى في الجواب ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ أي: هؤلاء من ورائي، يدركونني عن قريب. وقيل: معناه: هم على ديني ومنهاجي، ـ عن الحسن ـ. وروي عنه أيضاً أنّه قال: هم ينتظرون من بعدي ما الذي آتيهم به، وليس يريد أنّهم يتبعونه.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي: سبقتهم إليك حرصاً على تعجيل رضاك

أي: لأزداد رضاً إلى رضاك. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ أي: إمتحنّاهم، وشددنا عليهم التكليف بما حدث فيهم من أمر العجل، فألزمناهم عند ذلك النظر؛ ليعلموا أنّه ليس بإله كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾.

﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: من بعد إنطلاقك ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أي: دعاهم إلى الضلال فقبلوا منه، وضلّوا عند دعائه. فأضاف الضلال إلى السامريّ، والفتنة إلى نفسه؛ ليدلّ سبحانه على أنّ الفتنة غير الضلال. وقيل: إنَّ معنى «فتنّا قومك»: عاملناهم معاملة المختبر المبتلي؛ ليظهر لغيرنا المخلص منهم من المنافق، فيوالي المخلص، ويعادي المنافق.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ أي: رجع موسى من الميقات إلى بني إسرائيل، شديد الغضب، حزيناً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: جزعاً، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: متحسّراً متلهّفاً على ما فاته؛ لأنّه خشي أنْ لا يمكنه تدارك أمر قومه، ـ عن الجبائي ـ.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ أي: صدقاً لإيتاء الكتاب، وهو التوراة؛ لتعلموا ما فيه، وتعملوا به، فتستحقّوا الثواب، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: الوعد الحسن، هو ما وعدهم به من النجاة من فرعون، ومجيئهم إلى جانب الطور، ووعده بالمغفرة لمن تاب. وقيل: هو ما وعدهم به في الآخرة على التمسّك بدينه في الدنيا، ـ عن الحسن ـ.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي: مدّة مفارقتي إيّاكم ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يجب عليكم ﴿غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بعبادتكم العجل. والمعني: أم أردتم أن تصنعوا صنعاً يكون سبباً لغضب ربّكم.

﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ أي: ما وعدتموه لي من حسن الخلافة بعدي. ويبيّن

ذلك قوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾. وقيل: إنَّ إخلافهم موعده، أنّه أمرهم اللحاق به، فتركوا المسير على أثره للميقات. وقيل: هو أنّه أمرهم أن يتمسّكوا بطريقة هارون وطاعته، ويعملوا بأمره إلى أنْ يرجع فخالفوه.

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا
مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾
فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ
يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ
أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ
إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة، والكوفة، وعاصم: بمَلْكنا ـ بالفتح ـ. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: بمُلكنا ـ بضمّ الميم ـ. والباقون: بمِلكنا ـ بكسر الميم ـ.

وقرأ ابن عامر، وحفص، ورويس: حُمِّلنا ـ بالضمّ والتشديد ـ. والباقون: حَمَلنا ـ بفتح الحاء والتخفيف ـ. وقرأ أهل الكوفة، غير عاصم: لم تبصروا ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء. وفي الشواذّ، قراءة ابن مسعود، وأبيّ، والحسن، وقتادة، وأبي رجاء، ونصر بن عاصم: فقبصت قبصة ـ بالصاد ـ. وروي عن الحسن أيضاً «قُبضة» ـ بضمّ القاف ـ[1].

الحجة: قال أبو علي: في قوله: بملكنا هذه، ثلاث لغات، والكسر أكثر، والفتح لغة فيه. والمعنى: ما أخلفنا موعدك بملكنا الصواب، ولكن لخطئنا. فأضيف المصدر إلى الفاعل، وحذف المفعول. فأمّا من ضمّ الميم، فإنّه لا يخلو من أنْ يريد به مصدراً لِمَلِك، أو يكون لغة في مصدر المالك. فإن أريد الأوّل، فالمعنى: لم يكن لنا مُلكٌ فنخلف موعدك لمكان ملكنا، ويكون على هذا التقدير كقوله: ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ أي: ليس منهم مسألة، فيكون منهم إلحاف فيها ليس أنّه أثبت ملكاً، كما لم يثبت في قوله: لا يسئلون الناس إلحافاً مسألة منهم، ومثل ذلك: قول ابن أبي أحمر:

لا تَفْزَعُ الأَرْنَبَ أهْوالُها ... وَلاتَرَى الضَّبَ بِها يَنْجَحِرْ

أي: ليس بها أرنب فيفزع لهوله، ومثله: قول ذي الرمة:

لاتَشْتَكي سَقْطَةً مِنْها، وَقَدْ رَفَضَتْ ... بِهَا المَفاوِزُ حَتّى ظَهْرُها حَدِبُ[1]

أي: ليس منها سقطة فتشتكي. وقوله: ﴿حُمِّلْنَا﴾ من حمل الإنسان الشيء، وحملته إيّاه. فمن قرأ: حُمِّلنا: فالمعنى: جعلونا نحمل أوزار القوم. ومن قرأ:

---

(١) وأثبت الياء من «تتّبعن» وصلاً نافع، وأبو عمرو، وفي الحالين ابن كثير، وإتّفقوا على كتابة الهمزة من يبنوُم بواو موصولة بالنون، ولذلك يقف حمزة بوجهين التسهيل كالواو، والتحقيق. وفتح الياء من «برأسي إنّي» نافع، وأبو عمرو. وأدغم «فنبذتها» أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وهشام بخلف عنه.

[١] المفازة: البريّة القفْر.

حَمَلنا: أراد أنّهم فعلوا ذلك. ومن قرأ: بما لم يبصروا به ـ بالياء ـ، فالمعنى: بما لم يبصر به بنو إسرائيل. ومن قرأ بالتاء، صرف الخطاب إلى الجميع. والقبض بالضاد: باليد كلّها. وبالصاد: بأطراف الأصابع. والقُبضة ـ بالضمّ ـ: القدر المقبوض. والقبضة: فعلك أنت. وقد ذكرنا الإختلاف في قوله: يا ابن أم، والوجه في ذلك في سورة الأعراف.

(اللغة): الوزر: أصله: الثقل، ومنه: الوزر: الذنب؛ لأنّ صاحبه قد حمل به ثقلاً. والوزر: الحمل. والأوزار: الأحمال والأثقال، ومنه: الأوزار للسلاح؛ لأنّها تثقل على لابسها. والخوار: الصوت المتردّد، الشديد التردّد، كصوت البقر ونحوه. والعكوف: الإقامة وملازمة الشيء، ومنه: الإعتكاف في المسجد. ورقب يرقب رقباناً ورقبة: إنتظر. والمرقب: المكان العالي الذي يقف عليه الرقيب. وأرقبت فلاناً داري وأعمرته. والإسم الرقبى والعمرى. وبصر بالشيء يبصر: إذا صار عليماً به. وأبصر يبصر: إذا رأى.

(الإعراب): ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾: الكاف صفة مصدر محذوف لألقى، تقديره: ألقى السامريّ إلقاء مثل إلقائنا. ﴿جَسَداً﴾: بدل من عجل. ﴿أَنْ لاَ يَرْجِعُ﴾: تقديره: أفلا يرون أنّه لا يرجع. ويجوز أن ينصب ﴿يَرْجِعُ﴾ بأنْ، فيكون الناصبة للفعل، ولا يكون ﴿أَنْ﴾ المخفّفة من «أنّ». ﴿ضَلُّواْ﴾ جملة في موضع نصب على الحال وقد مضمرة. ﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِي﴾: في موضع جرّ بمِن المحذوف، أو في موضع نصب، على الخلاف فيه، تقديره: ما منعك من إتّباعي. و«لا» زائدة، كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لاَ تَسْجُدَ﴾.

(المعنى): ﴿قَالُوا﴾ أي: قال الذين لم يعبدوا العجل ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: ونحن نملك من أمرنا شيئاً. والمعنى: إنّا لم نطق ردّ عبدة العجل عن عظيم ما ارتكبوه للرهبة؛ لكثرتهم وقلّتنا. وجاء في الرواية: إنّ الذين لم

يعبدوا العجل كانوا إثني عشر ألفاً، والذين عبدوه كانوا ستّمائة ألف رجل. ومن قرأ: بمُلكنا ـ بضمّ الميم ـ، فمعناه: بقدرتنا وسلطاننا أي: لم نقدر على ردّهم.

﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ معناه: ولكنّا حمّلنا أثقالاً من حليّ آل فرعون، وهو ما إستعاروه من حليّهم حين أرادوا السير. وقيل: هو ما ألقاه البحر على الساحل من ذهبهم، وفضّتهم، وحليّهم بعد إغراقهم، فأخذوه. وقيل: هو من أثقال الذنوب والآثام أي: حمّلنا آثاماً من حليّ القوم؛ لأنّهم إستعاروا حليّاً من القبط؛ ليتزيّنوا بها في عيد كان لهم، ثمّ لم يردّوها عليهم عند الخروج من مصر؛ مخافة أن يعلموا بخروجهم، فحملوهم، وكان ذلك ذنباً منهم؛ إذ كانوا مستأمنين فيما بينهم. وقيل: إنّهم كانوا في حكم الأسراء فيما بينهم، فكان يحلّ لهم أخذ أموالهم، فعلى هذا لا يمكن حمله على الإثم.

﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي: ألقيناها في النار لتذوب ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أيضاً ليوهم أنّه منهم، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: فمثل ما ألقيناه نحن من هذا الحليّ في النار، ألقي السامريّ أيضاً، فإتّبعناه. وقيل: إنَّ هذا كلام مبتدأ من الله، حكي عنهم أنّهم ألقوا ثمّ قال: وكذلك ألقي السامريّ، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ أي: أخرج لهم من ذلك عجلاً جسيماً ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ أي: صوت. وقد ذكرنا صفة العجل في سورة الأعراف ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ أي: قال السامريّ، ومن تبعه من السفلة، والعوام: هذا العجل معبودكم، ومعبود موسى.

﴿فَنَسِيَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إنّه من قول السامريّ، ومن تبعه، أي: نسي موسى أنّه إلّه، وهو قول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدّي، والضحّاك. وقيل: معناه: فنسي أي: ضلّ وأخطأ الطريق. وقيل: معناه: أنّه تركه هنا، وخرج يطلبه

والثاني: إنّه قول الله تعالى أي: فنسي السامريّ أي: ترك ما كان عليه من الإيمان الذي بعث الله به موسى، ـ عن ابن عباس أيضاً ـ. وقيل: معناه: فنسي السامريّ الإستدلال على حدوث العجل، وأنّه لا يجوز أن يكون إلهاً. وقيل: فنسي السامريّ أي: نافق وترك الإسلام.

ثمّ إحتجّ سبحانه عليهم فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ أي: أفلا يرى بنو إسرائيل أنّ العجل الذي عبدوه، وإتّخذوه إلهاً، لا يردّ عليهم جواباً.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ ومن كان بهذه الصفة، فإنّه لا يصلح للعبادة. قال مقاتل: لمّا مضي من موعد موسى خمسة وثلاثون يوماً، أمر السامريّ بني إسرائيل أن يجمعوا ما إستعاروه من حليّ آل فرعون، وصاغه عجلاً في السادس والثلاثين، والسابع، والثامن، ودعاهم إلى عبادته في التاسع، فأجابوه. وجاءهم موسى بعد إستكمال الأربعين. قال سعيد بن جبير: كان السامريّ من أهل «كرمان»، وكان مطاعاً في بني إسرائيل. وقيل: كان من قرية يعبدون البقر، فكان حبّ ذلك في قلبه. وقيل: كان من بني إسرائيل، فلمّا جاوز البحر نافق. فلمّا قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إغتنمها، وأخرج لهم العجل، دعاهم إليه، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل عود موسى إليهم ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ﴾ يعني: أنّ الله تعالى شدّد عليكم التعبّد، فإعلموا إلهكم واعبدوا، ولا تعبدوا العجل؛ موعظة ونصحاً. ويحتمل أن يكون أراد فتنكم السامريّ به، وأضلّكم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: إتّبعوني فيما أدعوكم إليه ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في عبادة الله، ولا تتّبعوا السامريّ، ولا تطيعوا أمره في عبادة العجل.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ معناه: لا نزال مقيمين على عبادته ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ فننظر أيعبده كما عبدناه، أم لا. فإعتزلهم هارون في إثني عشر ألفاً. فلمّا رجع موسى عليه السلام، وهو ممتليء غيظاً منهم، ومن عبادتهم العجل، وسمع الصياح والجلبة، إذ كانوا يرقصون حول العجل، ويضربون الدفوف والمزامير، وإستقبله هارون. فألقي الألواح، وأخذ يعاتب هارون.

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِي﴾ أي: هلّا تتّبعني بمن أقام على إيمانه ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: هلّا قاتلتهم إذا علمت أنّي لو كنت فيهم لقاتلتهم. وقيل: هلّا لحقت بي حين رأيتهم ضلّوا بعبادة العجل قبل إستحكام الأمر. والأصل أنّ «لا» مزيدة، وتقديره: ما منعك أنْ تتّبعني.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ فيما أمرتك به يريد قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلمّا أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم نسبه إلى عصيانه. وقيل: إنَّ صورته صورة الإستفهام، والمراد به: التقرير؛ لأنّ موسى عليه السلام كان يعلم أنَّ هارون لا يعصيه في أمره.

سؤال: متى قيل: إنّ الظاهر يقتضي أنَّ موسى عليه السلام كان أمره باللحاق به، فعصي هارون أمره؟

قلنا: يجوز أن يكون أمره بذلك بشرط المصلحة، ورأي هارون الإقامة أصلح، والشاهد يري ما لا يري الغائب. ويجوز أن يكون لم يأمره بذلك، وإنّما أمره بمجاهدتهم، وزجرهم عن القبيح، وإنّما عاتبه مع أنَّ اللوم إنّما توجّه على القوم؛ لأنّ أمره بمفارقتهم لوم عليهم. وقيل: إنَّ موقع الذنب ممّن عظمت رتبته أعظم. فلمّا كان هارون أجلّ من خلفه موسى، خصَّه باللائمة. وهذا إنّما يتّجه إذا ثبت لهارون ذنب. فأمّا وهو نقي الجيب من جميع الذنوب، بريء الساحة من العيوب، فالقول الأوّل هو الوجه.

﴿قَالَ﴾ هارون ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ قد فسّرناه في سورة الأعراف. وقيل: كانت العادة جارية في القبض عليهما في ذلك الزمان، كما أنّ العادة في زماننا هذا القبض على اليد والمعانقة، وذلك ممّا تختلف العادة فيه بالأزمنة والأمكنة. وقيل: إنّه أجراه مجرى نفسه إذا غضب في القبض على لحيته؛ لأنّه لم يكن يتّهم عليه، كما لا يتّهم على نفسه. ثمّ بيّن عليه السلام عذره في مقامه معهم، فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: أنّي لو فارقتهم، أو قاتلتهم، لصاروا أحزاباً، وتفرّقوا فرقاً، ففريق يلحقون بك معي، وفريق يقيمون مع السامريّ على عبادة العجل، وفريق يتوقّفون شاكين في أمره، مع أنّي لم آمن إن تركتهم أن يصيروا بالخلاف إلى تسافك الدماء، وشدّة التصميم والثبات على إتّباع السامري، فإنّهم كانوا يمتنعون بعض الإمتناع بمكاني فيهم. وكنت أوجه إليهم من الإنكار مقدار ما يتحمّله الحال، وذلك قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ﴾ فإعتذر بما يقبل مثله؛ لأنّه وجه واضح من وجوه الرأي.

وقوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ معناه: ولم تحفظ وصيّتي، ولم تعمل به حين قلت ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾. ولمّا ظهرت براءة ساحة هارون، أقبل على السامريّ ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي: ما شأنك؟ وما دعاك إلى ما صنعت؟ فكأنّه قال: ما هذا الخطب الجليل والأمر العظيم الذي أحدثت؟ وما حملك عليه؟.

﴿قَالَ﴾ السامريّ ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيت ما لم يروه. وقيل: معناه: علمت ما لم يعلموا من البصيرة.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: قبضت قبضة تراب من أثر قدم جبرائيل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في العجل.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما حدّثتك يا موسى ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: زيّنت لي

نفسي من أخذ القبضة، وإلقائها في صورة العجل. وقيل: معناه: حدّثتني نفسي. فأمّا حديث العجل وما الذي قبضه السامريّ، وكيفيّة ذلك، وإختلافهم فيه، فقد سبق ذكره.

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾
كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وِزْرًا
﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ
فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ
فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ (١)

القراءة: قرأ ابن كثير، وأهل البصرة غير سهل: لن تخلِفه ـ بكسر اللام ـ.

---

(١) أدغم الياء من «فاذهب فإنّ» أبو عمرو، والكسائي، وهشام بخلف عنه. والدال من «قد سبق» أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وهشام. والتاء من «لبثتم» أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي.

وقرأ الضرير: لن نخلفه ـ بالنون وكسر اللام ـ، وهو قراءة الحسن. وقرأ الباقون: لن تخلَفه ـ بفتح اللام ـ. وقرأ أبو جعفر: لنَحْرقنه ـ بفتح النون، وسكون الحاء، وتخفيف الراء ـ، وهو قراءة عليّ عليه السلام، وابن عباس. وقرأ أبو عمرو: يوم ننفخ في الصُّور ـ بالنون ـ. والباقون: ينفَخ ـ بالياء، وفتح الفاء ـ. وفي الشواذّ قراءة أبي حيوة: لامساسَ. وقرأ مجاهد وقتادة: وسع كل شيء علماً. وقرأ ابن عياض: في الصوَر ـ بفتح الواو ـ.

الحجة: قال أبو علي: أخلفت: يتعدّى إلى مفعولين. لن تخلفه: مثل ولن تعطاه. لمّا أسندت الفعل إلى أحد المفعولين، فأقمته مقام الفاعل، بقي الفعل متعدّياً إلى مفعول واحد، وفاعله الذي يخلف هو الله تعالى، أو موسى، ومعناه: سيأتيك به، ولن [وإن] يتأخّر عنك. ولن تخلفه أي: سيأتيك [ستأتيه]، ولا مذهب لك عنه. وقال ابن جنّي: معناه: لن تصادفه مخلفاً، كقول الأعشى:

أثْـــوىٰ، وَقَـصَّرَ لَـيْلَةً، لِـيُزَوَّدا ومَضىٰ، وَأخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِداً[1]

وهو وعيد، والمعنى في قراءة الأُولى أبين. وأمّا نخلفه ـ بالنون ـ، فالمعنى: لن نخلفك إيّاه أي: لن ننقص منه ما عقدناه لك. وقوله: ﴿لَنَحْرِقَنَّهُ﴾: من قولهم فلان يحرق عليَّ الأُرَّم أي: يحكّ أسنانه بعضها ببعض؛ غيظاً عليَّ. قال زهير:

أبى الضَّيْمَ وَالنُّـعْمانُ يَـحْرُقُ نـابُهُ عَلَيْهِ فَأَفْضىٰ وَالسُّيُوفُ مَعاقِلُهُ[2]

فكان لنحرقنّه على هذا: لنبردنّه ولنحتّنّه حتّاً يقال: حـرقت الحـديد أي: بردته فتحات وتساقط. وقوله: ﴿مِسَاسٌ﴾: مثل: نزال وحذار. قال ابن جنّي: ولا

---

(١) أثوي بالمكان أي: سكن. وقصّر أي: إستراح ليلة. وقتيلة: علم إمرئة. وأخلف موعداً أي: وجدها مخلفة وعدها.

(٢) يعني أبي ممدوحه ان يظلمه أحد، حتى أنّ النعمان ملك الحيرة عضّ عليه السنّ من غيظه. فأفضى أي: دخل فضاء من الأرض، والسيوف حصون له.

يدخل على هذا الضرب من الكلام لا النافية بالنكرة فلا إذاً في قوله: ﴿لاَ مَسَاسِ﴾ نفي للفعل كقولك: لا أمسك ولا أقرب منك، فكأنّه حكاية قول القائل مَساس، فكأنّه قال: لا أقول مساس. قال الكميت:

لا هَمام لي لا هَمام[١]

أي: لا أقول همام(١). ولابدّ أن تكون الحكاية مقدرة. ألا ترى أنّه لا يجوز أن تقول: لا اِضرب، فتنفي بلا لفظ الأمر؛ لتنافي إجتماع لفظ الأمر والنهي، فالحكاية إذاً معتقدة مقدرة. وأمّا قوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ فمعناه: على ما قاله ابن جنّي: إنّه خرق كل مصمت بعلمه؛ لأنّه بطن كلّ مخفيّ، فصار لعلمه فضاء متّسعاً بعدما كان متلاقياً مجتمعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ وهذا في العمل، وذاك في العلم. والوجه في قوله: ننفخ في الصور: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، وقوله فيما بعده: ﴿وَنَحْشُرُ﴾، والوجه في الياء، قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾، ونفخ في الصور. وأمّا قوله: في الصُوَر: فإنّه جمع صورة، وقد يقال فيها صير، وأصله: صور. قال:

أَشْبَهْنَ مِنْ بَـقَرِ الْـخَلْصاءِ أعْـيُنَها فَهُنَّ أحْسَنُ مِنْ صيرانِها صِـيَراً(٢)

وصِوَراً أيضاً. قال أبو عبيدة: الصور: جمع صورة. ويقال: الصور القرن. ويقال: فيه ثقب بعدد نفوس البشر، فإذا نفخ فيه قام الناس من الأرماس.

اللغة: ظلت: أصله: ظللت، وللعرب فيها مذهبان: فتح الظاء وكسرها. فمن قال: ظلت، ترك الظاء على حالها. ومن قال: ظِلت ـ بالكسر ـ، نقل حركة

---

(١) جزء من بيت هو: عادلا غيرهم من الناس طرا بهم لاهمام لي لاهمام. وهمام يبنى على الكسر، كقطام أي: لاهمّ لي بغير آل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) الخلصاء: الأرض بالبادية. وصيران: جمع صوار، قطيع البقر.

[١] هذا جزء من بيت له في مدح أهل البيت عليهم السلام وقبل هذا البيت قوله: «إن أمت لا أمت ونفس نفسان من الشك في عمى أو نعام».

اللام إليها؛ للإشعار بأصلها. ومثله: مَست ومِست في: مسست، وهل أحست في: أحسست. قال الشاعر:

خَــلاْ إنَّ العِـتاقَ مِـنَ الْـمَطايا أحَسْنَ بِهِ فَهُنَّ إلَيْهِ شُـوس(١)[١]

لننسفنّه: يقال: نسف فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه ليطير عنه قشوره. والصفصف: الموضع المستوي الذي لا نبات به، كأنّه على صفّ واحد في إستوائه. والقاع: الأرض الملساء. وقيل: مستنقع الماء، وجمعه: أقواع وقيعان وقيعة. والأمت: الأكمة. ويقال: مدَّ حبله حتى ما ترك فيه أمتاً، وملأ سقاءه حتى ما ترك فيه أمتاً أي: إنثناء. قال الشاعر:

ما في انجذاب سيره من أمْتِ

المعنى: ثمّ حكي سبحانه عن موسي عليه السلام أنّه: ﴿قَالَ﴾ للسامريّ ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ وأختلف في معناه: فقيل: إنّه أمر الناس بأمر الله أنْ لا يخالطوه، ولا يجالسوه، ولا يؤاكلوه؛ تضييقاً عليه، والمعنى: لك أن تقول لا أمُسّ ولا أُمْسّ ما دمت حيّاً. قال ابن عباس: لك ولولدك. والمساس: فعال، من المماسة، ومعنى لا مساس: لا يمسّ بعضنا بعضاً. فصار السامريّ يهيم في البرية مع الوحش والسباع، لا يمسّ أحداً، ولا يمسّه أحد. عاقبه الله تعالى بذلك. وكان إذا لقي أحداً يقول: لا مساس أي: لا تقربني، ولا تمسّني. وصار ذلك عقوبة له ولولده، حتى إنَّ بقاياهم اليوم يقولون ذلك، وإن مسّ واحد من غيرهم واحداً منهم حُمَّ كلاهما في الوقت. وقيل: إنَّ السامريّ خاف وهرب، فجعل يهيم في البريّة، لا يجد أحداً من الناس يمسّه، حتى صار لبعده عن الناس كالقائل لا مساس، ـ عن الجبائي ـ.

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

[١] قائله: أبو زبيد الطائي. الشوس: النظر بإحدى شِقّي العينين.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي: وعداً لعذابك، يعني: يوم القيامة لن تخلف ذلك الوعد، ولن يتأخّر عنك. قال الزجّاج: المعنى: يكافيك الله على ما فعلت يوم القيامة.

﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظلت عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ معناه: وانظر إلى معبودك الذي ظلت على عبادته مقيماً، يعني: العجل ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ أي: لنذرينّه في البحر. قال ابن عباس: فحرقه، ثمّ ذراه في البحر. وهذا يدلّ على أنّه كان حيواناً لحماً ودماً. وعلى القراءة الأُخرى لنحرقنه أي: لنبردنّه بالمبرّد يدلّ على أنّه كان ذهباً وفضّة، ولم يصر حيواناً. ونبّه عليه السلام بذلك على أنَّ ما يمكن سحقه، أو إحراقه، لا يصلح للعبادة، وقال الصادق عليه السلام: إنَّ موسى عليه السلام همَّ بقتل السامريّ، فأوحى الله سبحانه إليه: لا تقتله يا موسى، فإنّه سخيّ.

ثمّ أقبل موسى على قومه، فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الذي يستحقّ العبادة ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي: يعلم كل شيء علماً تامّاً، وهي لفظة عجيبة في الفصاحة. وفي ذلك دلالة على أنّ المعدوم يسمّى شيئاً؛ لكونه معلوماً.

ثمّ قال الله لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: مثل ما قصصنا عليك يا محمّد من نبأ موسى وقومه، نقصّ عليك من أخبار ما قد مضى وتقدّم من الأُمم والأُمور ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ يعني: القرآن؛ لأنّ فيه ذكر كل ما يحتاج إليه من أُمور الدين.

ثمّ أوعد سبحانه على الإعراض عنه، وترك الإيمان به، فقال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً﴾ أي: حملاً ثقيلاً من الإثم يشقُّ عليه حمله؛ لما فيه من العقوبة، كما يشقّ حمل الثقيل ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في عذاب ذلك الوزر وجزائه، وهو الخلود في النار.

﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ تقديره: ساء الحمل حملاً، والحمل بمعنى المحمول أي: بئس الوزر هذا الوزر لهم يوم القيامة. قال الكلبي: بئس ما حملوا على أنفسهم من المآثم كفرهم بالقرآن ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ هو بدل من يوم القيامة، وقد سبق معناه ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ قال ابن عباس: يريد بالمجرمين: الذين إتّخذوا مع الله إلهاً يحشرون زرق العيون، سود الوجوه. ومعنى الزرقة: الخضرة في سواد العيون، كعين السنور. والمعنى في هذا تشويه الخلق. وقيل: زرقاً عمياً ترى زرقاً وهي عمي، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: عطاشاً يظهر في عيونهم كالزرقة، مثل قوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ ـ عن الأزهري ـ.

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتسارّون بينهم[1] فيقول المجرمون بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴾ أي: ما لبثتم إلّا عشر ليال ـ عن ابن عباس وقتادة ـ، يعني: من النفخة الأولى إلى الثانية، وذلك أنّه يكفُّ عنهم العذاب فيما بين النفختين، وهو أربعون سنة. وقيل: ما لبثتم في الدنيا. ينسون من شدّة هول ذلك اليوم مدّة لبثهم في الدنيا. وقيل: في القبر يذهب عنهم طول لبثهم في قبورهم، كأنّهم كانوا نياماً فإنتبهوا. وقيل: إنّهم يقللون لبثهم في الدنيا لطول ما هم لا بثون فيه من النار، ـ عن الحسن ـ.

ثمّ قال سبحانه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: بما يتسارّون بينهم ﴿إِذْ

---

(١) هذا يدلّ على أنّ الإخفات ليس بمعني ما لا يسمعه أحد، وما ورد في كلام فقهائنا أنّ حدّ الإخفات ما لا يسمعه غيرك، فليس المراد مطلق الغبر [الغير]؛ اذ كل ما يسمعه المتكلّم نفسه لابدّ أن يسمعه من كان بجنبه، مع أنّه إخفات. وقال بعض المتأخّرين: إنّ الإخفات: أن لا يظهر جوهر الصوت، والجهر: أن يظهر. ولا دليل عليه من لغة، ولا شرع، ولا إشارة إليه في كلام أعاظم الفقها، بل الأظهر أنّ الجهر: ما يسمعه الغير ممّن هو في المجلس، والبيت. والإخفات: ما يسمعه الملاصق والقريب جدّاً. ومضى شيء في ذلك.

﴿يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أصلحهم طريقة، وأوفرهم عقلاً، وأصوبهم رأياً. وقيل: أكثرهم سداداً عند نفسه ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾ أي: ما لبثتم إلّا يوماً في الدنيا، وفي القبور. إنّما قال ذلك؛ لأنّ اليوم الواحد والعشرة إذا قوبلا بيوم القيامة، وما لهم من الأيّام في النار، كان اليوم الواحد أقرب إليه، وهو كقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا﴾. وقيل: إنّهم قالوا ذلك بعد إنقطاع عذاب القبر عنهم؛ لأنّ الله يعذّبهم، ثمّ يعيدهم، ـ عن الجبائي ـ.

ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أي: ويسألك منكروا البعث عند ذكر القيامة ﴿عَنْ الْجِبَالِ﴾ ما حالها ﴿فَقُلْ﴾ يا محمّد ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ أي: يجعلها ربّي بمنزلة الرمل، ثمّ يرسل عليها الرياح فيذربها [فتذريها] كتذرية الطعام من القشور والتراب، فلا يبقي على وجه الأرض منها شيء. وقيل: يصيرها كالهباء. وقيل: إنّ رجلاً من ثقيف سأل النبيّ ﷺ كيف تكون الجبال يوم القيامة مع عظمها؟ فقال: إنّ الله يسوقها بأن يجعلها كالرمال، ثمّ يرسل عليها الرياح فتفرقها.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيدع أماكنها من الأرض إذا نسفها ﴿قَاعاً﴾ أرضاً ملساء. وقيل: منكشفة، ـ عن الجبائي ـ ﴿صَفْصَفاً﴾ أي: أرضاً مستوية ليس للجبل فيها أثر. وقيل: القاع والصفصف بمعنى واحد، وهو المستوي من الأرض، الذي لا نبات فيه، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ.

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾ أي: ليس فيها منخفض ولا مرتفع، ـ عن عكرمة، عن ابن عباس ـ. قال الحسن: العوج ما إنخفض من الأرض. والأمت: ما إرتفع من الروابي. وقيل: لا ترى فيها وادياً ولا رابية، ـ عن مجاهد ـ.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ
فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ
وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ
عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ
حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾
فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن
يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَا
إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

القراءة: قرأ ابن كثير: فلا يخفْ ـ بالجزم ـ. والباقون: فلا يخاف ـ بالألف ـ. وقرأ يعقوب: أن نقضي ـ بالنون ـ، وحيَه ـ بالنصب ـ. والباقون: يُقضي ـ بضمّ الياء ـ، وحيُه ـ بالرفع ـ[1].

الحجة: من قرأ: فلا يخفْ: فإنّه على النهي. ومن قرأ: فلا يخاف: فإنّه على الخبر، وتقديره: فهو لا يخاف. وموضع الفاء مع ما بعدها في الموضعين مجزوم؛

---

(١) وفي رواية عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: وعنت الوجوه للحيّ القيّوم وقد خاب من حمل ظلماً لآل محمّد صلى الله عليه وآله كذا نزلت، إنتهى. ولابدّ أن يكون المعني أنّهم المراد فى تنزيله، لا أنّه نزل لفظاً؛ إذ يختلّ به فواصل الآي، ونظير ذلك منقول في آية: ولقد عهدنا الى آدم، باختلاف في اللفظ الذي توهّم منه كونه من القرآن.

لكونه في موضع جواب الشرط، والمبتدأ محذوف، ومراد بعد الفاء. وهو مؤمن: في موضع نصب على الحال، والعامل في الحال: يعمل. وذو الحال الذكر الذي في «يعمل» العائد إلى «مَن». ومن قرأ: من قبل أن نقضي إليك وحيه: فإنّه أضاف القضاء إلى الله، وجعل الوحي مفعوله. والمعنى في القراءتين واحد.

اللغة: الهمس: إخفاء الكلام، والصوت الخفيّ. قال الراجز:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنا هَميساً ... إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَبُكْ لَميساً[1]

يعني: صوت أخفاف الإبل في سيرها. والعنوة: الخضوع والذلّ. والعاني: الأسير. وأخذت الشيء عنوة أي: غلبة تذلّ المأخوذ منه. وقد يكون العنوة عن تسليم وطاعة؛ لأنّه على طاعة الذليل للعزيز. قال الشاعر:

هَلْ أنْتَ مُطِيعي أيُّهَا القَلْبُ عَنْوَةً ... وَلَمْ تُلْحَ نَفْسٌ لَمْ تُلَمْ في احْتِيالِها

وقال آخر:

فَما أخَذُوها عَنْوَةً عَنْ مَوَدَّةٍ ... وَلٰكِنْ بِضَرْبِ المَشْرفيّ اسْتَقالَها

والهضم: النقص، يقال: هضمني حقّي ويهضمني أي: ينقصني. وإمرأة هضيم الحشا أي: ضامرة الكشحين لنقصانه عن حدّ غيره. ومنه: هضمت المعدة الطعام أي: نقصته مع تغييرها. والعزم: الإرادة المتقدّمة لتوطين النفس على الفعل.

الإعراب: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف ﴿يَتَّبِعُونَ﴾. و ﴿لاَ عِوَجَ لَهُ﴾: جملة في موضع الحال، والتقدير: يتّبعون الداعي غير معوجين عن إجابته؛ لأنّ معناه: لا عوج لهم عن دعائه أي: لا يقدرون على أن لا يتّبعوه. ﴿قُرْءَانًا﴾: منصوب على الحال. و ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفته، وفي الحقيقة الحال قوله عربيّاً، وإنّما ذكر قرآناً للبيان، وكذلك الكاف في محلّ النصب؛ بأنّه صفة لمصدر محذوف.

---

(١) لميس: علم إمرئة. وضمير «هنّ» للإبل. ونبك: من باك، أراد به الوصال، وتفأّل به من الطير.

المعنى: ثمّ وصف سبحانه القيامة فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ أي: يوم القيامة يتّبعون صوت داعي الله الذي ينفخ في الصور، وهو إسرافيل عليه السلام.

﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لدعاء الداعي، ولا يعدل عن أحد، بل يحشرهم جميعاً، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: لا عوج لهم عن دعائه، لا يميلون عنه، ولا يعدلون عن ندائه أي: يتّبعونه سراعاً، ولا يلتفتون يميناً، ولا شمالاً، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَخَشَعَتْ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ﴾ أي: خضعت الأصوات بالسكون لعظمة الرحمن، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ وهو صوت الأقدام، ـ عن ابن عباس وابن زيد ـ، أي: لا تسمع من صوت أقدامهم إلّا صوتاً خفيّاً، كما يسمع من وطىء الإبل. وقيل: الهمس إخفاء الكلام، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: إنّ الأصوات العالية بالأمر والنهي في الدنيا ينخفض ويذلّ أصحابها، فلا تسمع منهم إلّا الهمس.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ أي: لا تنفع ذلك اليوم شفاعة أحد في غيره، إلّا شفاعة من أذن الله له في أن يشفع، ورضي قوله فيها من الأنبياء والأولياء، والصالحين، والصديقين، والشهداء.

ثم قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الضمير يرجع إلى الذين يتّبعون الداعي أي: يعلم سبحانه منهم جميع أقوالهم، وأفعالهم قبل أن خلقهم، وبعد أن خلقهم، وما كان في حياتهم وبعد مماتهم، لا يخفى عليه شيء من أُمورهم، تقدّم أو تأخّر، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: يعلم ما بين أيديهم من أحوال الآخرة، وما خلفهم من أحوال الدنيا.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ أي: ولا يحيطون هم بالله علماً أي: بمقدوراته ومعلوماته. وقيل: بكنه عظمته في ذاته وأفعاله. وقيل: لا يحيطون به علماً بما بين أيديهم، وما خلفهم، إلّا من أطلعه الله على ذلك، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: ولا

يدركونه بشيء من الحواسّ حتى يحيط علمهم به.

﴿وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي: خضعت وذلّت خضوع الأسير في يد من قهره. والمراد: خضع أرباب الوجوه، وإستسلموا الحكم للحيّ الذي لم يمت، ولا يموت. وإنّما أسند الفعل إلى الوجوه؛ لأنّ أثر الذلّ يظهر عليها. وقيل: المراد بالوجوه: الرؤساء، والقادة، والملوك أي: يذلّون وينسلخون عن ملكهم وعزّهم. وقد سبق معنى الحيّ القيّوم في مواضع.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ أي: وقد خاب عن ثواب الله من حمل شركاً إلى يوم القيامة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: قد خسر الثواب من جاء يوم القيامة كافراً ظالماً ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ومن يعمل شيئاً من الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ عارف بالله تعالى، مصدق بما يجب التصديق به. وإنّما قال ذلك؛ لأنّه لا تنفع الطاعة من غير إيمان.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾ أي: فهو لا يخاف أن يظلم، ويزاد عليه في سيّئاته، ولا أن يهضم أي: ينقص من حسناته، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: لا يخاف أن يؤاخذ بذنب لم يعمله، ولا أن تبطل حسنة عملها، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: لا يخاف ظلماً بأن لا يجزى بعمله، ولا هضماً بالإنتقاص من حقّه، ـ عن ابن زيد ـ. ومن قرأ: ﴿فَلَا يَخفْ﴾ ـ على النهي ـ، فمعناه: فليأمن، ولا يخف الظلم والهضم، والنهي عن الخوف أمر بالأمن. وفي هذه الآية دلالة على بطلان التحابط[1].

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما أخبرناك بأخبار القيامة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: أنزلنا هذا

---

(١) وربما يختلج في الأذهان الساذجة إعتراض على ذلك، بأنّ الله تعالى صرّح في مواضع كثيرة من القرآن بالحبط، فقال: حبطت أعمالهم، وكأنّي رأيت كلاماً قريباً من ذلك في الأنوار النعمانيّة، ولكن ينبغي أن يعلم أنّ الألفاظ في الكتاب الكريم والسنّة، لايجب أن يكون موافقة لإصطلاح أهل الفقه والكلام، كالمكروه أريد به الحرام، ونهوا عن الإجتهاد، والمراد: القياس، فالحبط في القرآن أيضاً ليس بمعني حبط المتكلّمين.

الكتاب ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ﴾ أي: كرّرنا فيه من الوعيد، وذكرناه على وجوه مختلفة، وبيّناه بألفاظ متفرّقة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي. وقيل: ليتّقي العرب من قبل أن ينزل بهم، مثل ما أنزل بأُولئك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ معناه: أو يجدد القرآن لهم عظة وإعتباراً أي: يذكروا به عقاب الله للأُمم الماضية فيعتبروا. وقيل: يحدث لهم شرفاً بإيمانهم به. وإنّما أضاف إحداث الذكر إلى القرآن؛ لأنّه يقع عنده، كما قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾.

﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: إرتفعت صفاته عن صفات المخلوقين، فلا يشبهه أحد في صفاته؛ لأنّه أقدر من كل قادر، وأعلم من كل عالم، وكل عالم وقادر سواه محتاج إليه، وهو غنيّ عنه، وكل قادر وعالم، قادر على شيء، عاجز عن شيء عالم بشيء جاهل بشيء، وما هو عالم به يجوز أن ينساه أو يسهو عنه، فهو بمعرض للزوال، والله سُبحانه لم يزل عالماً قادراً، ولا يزال كذلك. والملك: الذي يملك الدنيا والآخرة، والحقّ: الذي يحقّ له الملك، وكل ملك سواه يملك بعض الأشياء، ويبيد ملكه ويفنى.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ فيه وجوه:

أحدها: إنَّ معناه: لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبرائيل عليه السلام من إبلاغه؛ فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم، كان يقرأ معه، ويعجل بتلاوته؛ مخافة نسيانه أي: تفهم ما يوحي إليك إلى أن يفرغ الملك من قراءته، ولا تقرأ معه، ثمّ اقرأ بعد فراغه منه. وهذا كقوله: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، ـ عن ابن عباس، والحسن، والجبائي ـ.

وثانيها: إنّ معناه: ولا تقرأه لأصحابك، ولا تمله عليهم، حتى يتبيّن لك معانيه، ـ عن مجاهد وقتادة وعطية وأبي مسلم ـ.

وثالثها: إنّ معناه: ولا تسأل إنزال القرآن قبل أن يأتيك وحيه؛ لأنّه تعالى

إنّما ينزله بحسب المصلحة، وقت الحاجة.

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ أي: استزد من الله سبحانه علماً إلى علمك. روت عائشة عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: إذا أتي عليَّ يوم لا أزداد فيه علماً، يقرّبني إلى الله، فلا بارك الله لي في طلوع شمسه. وقيل: معناه: زدني علماً بقصص أنبيائك، ومنازل أوليائك. وقيل: زدني قرآناً؛ لأنّه كلّما إزداد من نزول القرآن عليه، إزداد علماً، ـ عن الكلبي ـ.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ معناه: أمرناه؛ وأوصينا إليه أن لا يقرب الشجرة، ولا يأكل منها، فترك الأمر، ـ عن ابن عباس ـ. ولم نجد له عقداً ثابتاً. وقيل: معناه: فنسي من النسيان الذي هو السهو، ولم نجد له عزماً على الذنب؛ لأنّه أخطأ، ولم يتعمّد، ـ عن ابن زيد وجماعة ـ. وقيل: ولم نجدله حفظاً لما أُمر به، ـ عن عطية ـ. وقيل: صبراً، ـ عن قتادة ـ. وروي عن ابن عباس أنّه قال: إنّما أُخذ الإنسان من أنّه عهد إليه فنسي، ومن حمله على النسيان. فما الذي نسيه فيه أقوال:

أحدها: إنّه نسي الوعيد بالخروج من الجنّة إنْ أكل.

والثاني: إنّه نسي قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾.

والثالث: إنّه نسي الإستدلال على أنّ النهي عن الجنس، وقد نهي عن الجنس، فنسي وظنّ أنّ النهي عن العين.

النظم: وجه إتّصال قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ بما قبله، أنّه يتّصل بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وقيل: إنّه يتّصل بما قبله من قصّة موسى أي: كما أنزلنا التوراة على موسى، أنزلنا عليك القرآن. ووجه إتّصال قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَى آدَمَ﴾ الآية بما قبله: أنّه لمّا ذكر تصريف الآيات والقرآن، وأنَّ بها

يتذكّر، أمره سبحانه بالتذكّر، وأن لا يكون مثل آدم في نسيان العهد. وقيل: إنّه إتّصل بقوله: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ﴾ أي: لا تعجل خوف النسيان للفظه، ولكن توكّل على الله، وسله التوفيق لحفظه، فإنّ أباك آدم نسي ما عهد إليه. وقيل: إنّه عطف على قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباء مَا قَدْ سَبَقَ﴾، فقصّ عليه قصّة آدم عليه السلام، ـ عن أبي مسلم ـ.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

القراءة: قرأ نافع وأبو بكر: وإنّك لا تظمؤا ـ بالكسر ـ. والباقون: أنّك

ـ بالفتح ـ. وفي الشواذّ، قراءة أبان بن تغلب: ونحشرْه ـ بالجزم ـ[١].

الحجّة: من قرأ بالفتح، فتقديره: إنّ لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى، وإنّ لك أنّك لا تظمأ فيها. ولا يجوز أن تقول: إنّ أنّك منطلق؛ لكراهة إجتماع حرفين متقاربي المعنى، فإذا فصل بينهما جاز. ومن كسر فقال: فإنّك لا تظمأ، قطع الكلام الأوّل، وإستأنف. ومن قرأ: نحشره، فإنّه عطفه على موضع قوله: فإنّ له معيشة ضنكاً، وموضعه جزم؛ لكونه جواب الشرط.

اللغة: ضحي الرجل يضحي ضحى: إذا برز للشمس. قال عمر بن أبي ربيعة:

رَأتْ رَجُلاً أيْما إذَا ٱلشَّمْسُ عارَضَتْ فَيَضْحىٰ، وَأيْما بِـالْعَشِيِّ فَـيَخْصَرْ[٢]

يعني: أمّا. والضنك: الضيق الصعب. يقال: منزل ضنك، وعيش ضنك، لا يثنّى، ولا يجمع، ولا يؤنّث؛ لأنّ أصله المصدر. قال: وإذا هم نزلوا بضنك فانزل.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه تفصيل ما أجمله من قصّة آدم عليه السلام، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قد مرَّ تفسيره ﴿أَبَى﴾ أي: إمتنع من أن يسجد.

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حوّاء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ﴾ أي: لا تطيعاه. والمعنى: لا يكوننّ سبباً لخروجكما من الجنّة بغروره، ووساوسه. ﴿فَتَشْقَى﴾ أي: فتقع في تعب العمل، وكدّ الإكتساب، والنفقة على زوجك ونفسك. ولذلك قال: ﴿فَتَشْقَى﴾ ولم يقل: فتشقيا. وقيل: لأنّ أمرهما في

---

(١) يقف حمزة على «سوآتهما» بالنقل على القياس، وبالإدغام؛ إلحاقاً للواو الأصليّة بالزائدة. وفتح ياء «حشرتني أعمى» الحرميان. وأمّا أبان بن تغلب، فهو من أصحاب الصادقين عليهما السلام، وكان له قرائة مستقلّة، ذكره الشيخ، والنجاشي، في فهرستهما.

(٢) الشعر في جامع الشواهد.

السبب واحد، فإستوى حكمهما؛ لإستوائهما في السبب والعلّة. وقيل: لتستقيم رؤوس الآي. قال سعيد بن جبير: أُنزل على آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه، ويرشّح العرق عن جبينه، وذلك هو الشقاوة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ أي: في الجنّة لسعة طعام الجنّة، وثيابها. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ أي: لا تعطش، ولا يصيبك حرّ الشمس، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، قالوا: ليس في الجنّة شمس، وإنّما فيها ضياء ونور، وظلّ ممدود.

ويسأل هيهنا فيقال: كيف جمع بين الجوع والعري، وبين الظمأ والضحي، والجوع من جنس الظمأ، والعري من جنس الضحي؟

وأُجيب عن ذلك بجوابين: **أحدهما**: إن الظمأ أكثر ما يكون من شدّة الحرّ، والحرّ إنّما يكون من الضحي، وهو الإنكشاف للشمس. فجمع بينهما لإجتماعهما في المعنى. وكذلك الجوع والعري متشابهان، من حيث إنّ الجوع عري في الباطن من الغذاء، والعري للجسم في الظاهر. **والثاني**: إنّ العرب تلفُّ الكلامين بعضهما ببعض؛ إتّكالاً على علم المخاطب، وأنّه يرد كل واحد منهما إلى ما يشاكله، كما قال إمرؤ القيس:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَواداً لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كاعِباً ذاتَ خَلْخالِ
وَلَمْ أَسْبَا ٱلزقَّ ٱلرَّوِيَّ، وَلَمْ أَقُلْ ... لخَيْلي: كِرّي كَرَّةً بَعْدَ إجفالِ[1]

وكان حقّه أن يقول: كما قال عبد يغوث:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَواداً، وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْليَ: كِرِّي نَفِّسي عَنْ رِجالِيا
وَلَمْ أَسْبَإِ الزِقَّ ٱلرَّوِيَ، وَلَمْ أَقُلْ ... لأيْسارِ صِدْقٍ: أَظْهِرُوا ضَوْءَ نارِيا[2]

---

(١) السبأ: تجارة الخمر.

(٢) عبد يغوث: من شعراء الجاهليّة. والبيتان من قصيدة، قالها عند موته اسروه وقطعوا اكحله. والأيسار: ندمائه.

وقد يؤوّل قول إمرء القيس على الجواب الأوّل. ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ قد تقدَّم بيانه ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي: على شجرة من أكل منها لم يمت ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ جديد ولا يفنى. وهذا كقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَجَرَةِ﴾ الآية. ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ هذا مفسّر في سورة الأعراف.

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ معناه: خالف آدم ما أمره به ربّه، فخاب من ثوابه. والمعصية: مخالفة الأمر سواء كان الأمر واجباً أو ندباً. قال الشاعر:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني

ولا يمتنع أن يسمّى تارك النفل عاصياً، كما يسمّى بذلك تارك الواجب. يقولون: فلان أمرته بكذا وكذا من الخير، فعصاني وخالفني، وإن لم يكن ذلك واجباً. ولا شبهة أنّ لفظة ﴿غَوَى﴾ يحتمل الخيبة. قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ ٱلنَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لائِماً[١]

ويجوز أن يكون معناه: فخاب ممّا كان يطمع فيه بأكل الشجرة من الخلود. ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: إصطفاه الله تعالى، وإختاره للرسالة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ أي: قبل توبته وهداه إلى ذكره. وقيل: هداه للكلمات التي تلقّاها منه.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ يعني: آدم وحوّاء ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً﴾ قد فسّرنا جميعها في سورة البقرة.

﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ أي: فلا يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.قال ابن عباس: ضمن الله سبحانه لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه، أن لا

---

[١] قائله: قعنب المزاري. ونسبه بعض إلى المرقش. يريد: إنّ من ظفر بمطلوبه، حمده الناس، ومن لم يظفر، عابوه مع أنه لم يكن مقصراً.

يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. ثمّ قرأ هذه الآية.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أي: ومن أعرض عن القرآن، وعن الدلائل التي أنزلها الله تعالى لعبادة، وصدف عنها، ولم ينظر فيها.

﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ أي: عيشاً ضيقاً، ـ عن مجاهد وقتادة والجبائي ـ. وهو أن يقتّر الله عليه الرزق؛ عقوبة له على إعراضه. فإن وسع عليه فإنّه يضيق عليه المعيشة بأن يمسكه، ولا ينفقه على نفسه. وإن أنفقه، فإنّ الحرص على الجمع، وزيادة الطلب، يضيق المعيشة عليه. وقيل: هو عذاب القبر، ـ عن ابن مسعود ـ، وأبي سعيد الخدري والسدّي، ورواه أبو هريرة مرفوعاً ـ. وقيل: هو طعام الضريع والزقّوم في جهنّم؛ لأنّ مآله إليها، وإن كان في سعة من الدنيا، ـ عن الحسن وابن زيد ـ. وقيل: معناه: أن يكون عيشه منغضاً [منغصاً] بأن ينفق إنفاق من لا يوقن بالخلف، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو الحرام في الدنيا الذي يؤدّي إلى النار، ـ عن عكرمة والضحّاك ـ. وقيل: عيشاً ضيقاً في الدنيا؛ لقصرها وسائر ما يشوبها ويكدرها، وإنّما العيش الرغد في الجنّة، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ أي: أعمى البصر، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أعمى عن الحجّة، ـ عن مجاهد ـ. يعني: أنّه لا حجّة له يهتدي إليها. والأوّل هو الوجه؛ لأنّه الظاهر، ولا مانع منه، ويدلّ عليه قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ قال الفرّاء: يقال: إنّه يخرج من قبره بصيراً فيعمى في حشره. وقد روي معاوية بن عمّار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل لم يحجّ، وله مال؟ قال: هو ممّن قال الله: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ فقلت: سبحان الله! أعمى؟ قال: أعماه الله عن طريق الحقّ[١]. فهذا يطابق قول من قال: إنّ المعنى في الآية

---

[١] ذكر الحسكاني في شواهده ١: ٤٩٥ عن علي عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله للمهاجرين ←

أعمى عن جهات الخير، لا يهتدي لشيء منها.

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ
وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

القراءة: قرأ الكسائي وأبو بكر: تُرضى ـ بضم التاء ـ. والباقون: بفتحها(١).

الحجة: حجّة من فتح التاء: قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. وحجّة من ضمّ التاء: أنّه جاء في صفة بعض الأنبياء: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾.

← والأنصار: أحبوا علياً لحبي وأكرموه لكرامتي، والله ما قلت لكم هذا من قبلي ولكن الله تعالى أمرني بذلك، ويا معشر العرب من أبغض علياً من بعدي حشره الله يوم القيامة أعمى ليس له حجة.

وعن ابن عباس أنّه قال: من ترك ولاية علي أعماه الله وأصمّه.

(١) في كلمة «انای» همزتان، كتبت ثانيتها بياء بعد الف في المصاحف كلّها، وفي الهمزة الأولى لحمزة ثلثة أوجه: السكت على «من». وعدمه: ونقل حركتها الى النون من كلمة «من». وفي الوقف على الثانية تسعة أوجه: إبدالها ألفاً «مع المدّ والقصر والتوسّط» أو إبدالها ياء على الرسم ساكنة «مع المدّ والقصر والتوسّط» أو ياء بالروم، والقصر، أو تسهيل الهمزة بين بين «مع المدّ والقصر».

وكان معنى تَرضي: تَرْضي لفعلك ما أُمرت به من الأفعال التي يرضاها الله، أو ترضي بما تعطاه من الدرجة الرفيعة، وترضي بما يعطيكه الله من الدرجة العالية، والرتبة المرضيّة.

اللغة: آناء الليل: ساعاته، واحدها: إنى. قال السعدي:

حُلْوٌ وَمُرٌّ كَعَطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ بِكُلِّ إنى قَضاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ[1]

الإعراب: أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ: فاعل «يهد» مضمر، يفسّره «كَمْ أَهْلَكْنَا» والمعنى: أفلم يهد لهم إهلاكنا من قبلهم من القرون. وموضع «كَمْ» نصب بـ«أَهْلَكْنَا».

المعنى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ هذا جواب من الله سبحانه لمن يقول: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾ ومعناه: كما حشرناك أعمى، جاءك محمد ﷺ والقرآن والدلائل، فأعرضت عنها، وتعرّضت لنسيانها، فإنّ النسيان ليس من فعل الإنسان فيتوعّد عليه.

﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ أي: تصير بمنزلة من ترك، كالمنسيّ بعذاب لا يفنى. وقيل: معناه: كما حشرتك أعمى لتكون فضيحة، كنت أعمى القلب، فتركت آياتي، ولم تنظر فيها، وكما تركت أوامرنا فجعلتها كالشيء المنسيّ، نترك اليوم في العذاب كالشيء المنسيّ. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: وكما ذكرنا نجزي من أشرك، وجاوز الحدّ في العصيان، ولم يؤمن بآيات ربّه أي: لم يصدّق بحجج ربّه، وكتبه، ورسله.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا، وعذاب القبر ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: أدوم؛ لأنّه لا يزول. وعذاب الدنيا وعذاب القبر يزول.

---

(١) نسبه ابن هشام في السيرة الى المنتخل الهذلي في مرثية إبنه اثيلة وبدل «مرّته» شيمته. وببالي أنّي رأيت في موضع أنّه يصف ميل المكحلة وإنتعاله دخوله المكحلة. والقدح: السهم. ومرّته: أي شدّته.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ يعني: كفّار مكّة. والمعنى: أفلم يبيّن لهم طريق الإعتبار كثرة إهلاكنا القرون قبلهم؛ بتكذيبهم رسلنا، فيعتبروا ويؤمنوا.

وقوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يريد: أهل مكّة، كانوا يتّجرون إلى الشام، فيمرّون بمساكن عاد وثمود، ويرون علامات الإهلاك. وفي هذا تنبيه لهم، وتخويف أي: أفلا يخافون أن يقع بهم، مثل ما وقع بأُولئك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في إهلاكنا إيّاهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لعبراً ودلالات.

﴿لِأُوْلِي النُّهَى﴾ أي: لذوي العقول الذين يتدبّرون في أحوالهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن هؤلاء الكفّار إلى يوم القيامة، وهو قوله:

﴿لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي: لكان العذاب لازماً لهم، واقعاً في الحال. واللزام مصدر وصف به.

﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ قال قتادة: الأجل المسمّى: قيام الساعة. وقال غيره: هو الأجل الذي كتبه الله للإنسان أنّه يبقيه إليه. وقيل: إنّ عذاب اللزام كان يوم بدر، قتل الله فيه رؤوس الكفّار، ولولا ما قدر الله تعالى من آجال الباقين، ووعدهم من عذاب الآخرة، لكان ذلك القتل الذي نالهم يوم بدر، لازماً لهم أبداً في سائر الأزمان.

ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بالصبر على أذاهم، بأن قال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك، وأذاهم إيّاك.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صل لربك بالحمد له، والثناء عليه. وقيل: معناه: سبّحه واحمده في هذه الأوقات ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة العصر ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ أي: ساعاته. قال ابن عباس: هي

صلاة الليل كلّه. وقيل: يريد أوّل الليل المغرب والعشاء الآخرة ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ يعني: الظهر. وسمّي وقت صلاة الظهر أطراف النهار؛ لأنّ وقته عند الزوال، وهو طرف النصف الأوّل، وطرف النصف الثاني، وهذا قول قتادة والجبائي. ومن حمل التسبيح على الظاهر قال: أراد بذلك المداومة على التسبيح والتحميد في عموم الأوقات.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ بالشفاعة والدرجة الرفيعة. وقيل: بجميع ما وعدك الله به من النصر، وإعزاز الدين في الدنيا، والشفاعة والجنّة في الآخرة.

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ
﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ
لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

القراءة: قرأ يعقوب وسهل: زهَرة ـ بفتح الهاء ـ. والباقون: بسكونها. وقرأ أهل المدينة، والبصرة، وقتيبة، وحفص: أو لم تأتهم ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء.

اللغة: زهرة الحياة الدنيا: حسنها. ويجوز فتح العين فيها. والزهرة: النور الذي يروق عند الرؤية، ومنه: يقال لكل شيء مستنير: زاهر. ومنه: الحديث في صفة النبيّ ﷺ، كان أزهر اللون أي: نيّر اللون. والزهراوان: البقرة وآل

عمران. ويوم الجمعة: يوم أزهر.

الإعراب: قال الزجّاج: زَهْرَةَ: منصوب، بمعنى: متعنا؛ لأنّ معناه وجعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة لنفتنهم فيه أي: لنجعل ذلك فتنة لهم. ويجوز أن يكون حالاً من الهاء في ﴿بِهِ﴾ ويجوز أن يكون حالاً من ﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم﴾: تقديره: ولو ثبت إهلاكهم؛ لأنّ ﴿لَو﴾ يقتضي الفعل، فيكون ﴿أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم﴾ في موضع رفع؛ بأنّه فاعل الفعل المقدّر. و ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ تعلق بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾، وهو مبتدأ وخبر، وكذلك: ﴿مَنِ اهْتَدَى﴾.

النزول: قال أبو رافع: نزل برسول الله ﷺ ضيف، فبعثني إلى يهوديّ فقال: قل إن رسول الله يقول بعني كذا وكذا من الدقيق، أو أسلفني إلى هلال رجب. فأتيته، فقلت له: فقال: والله لا أبيعه، ولا أسلفه إلّا برهن[1]. فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: والله لو باعني أو أسلفني، لقضيته. وإنّي لأمين في السماء، وأمين في الأرض. إذهب بدرعي الحديد إليه. فنزلت هذه الآية تسلية له عن الدنيا.

المعنى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ وقد فسّرناه في سورة الحجر. وقال أبيّ بن كعب في هذه الآية: من لم يتعزّ بعزاء الله، تقطّعت نفسه حسرات على الدنيا، ومن يتبع بصره ما في أيدي الناس، يطل حزنه، ولا يشفي غيظه. ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعمه ومشربه، نقص علمه ودنا عذابه. وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية، إستوى رسول الله ﷺ جالساً، ثمّ قال هذه الكلمات التي تقدّمت.

﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا﴾ أي: بهجتها ونضارتها، وما يروق الناظر عند الرؤية.

---

(١) معني السلف هنا: القرض، لا السلف في إصطلاح الفقهاء، ولذلك جعل قسيماً للبيع نسية.

وقال ابن عباس وقتادة: زينة الحياة الدنيا.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنعاملهم معاملة المختبر بشدّة التعبّد في العمل بالحقّ في هذه الأُمور، وأداء الحقوق عنه. وقيل: لنفتنهم أي: لنشدّد عليهم التعبّد بأن نكلّفهم متابعتك، والطاعة لك، مع كثرة أموالهم، وقلّة مالك. وقيل: معناه: لنعذّبهم به؛ لأنّ الله قد يوسّع الرزق على بعض أهل الدنيا تعذيباً له، ولذلك قال عليه السلام: لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي ورزق ربّك الذي وعدك به في الآخرة، خير ممّا متعنا به هؤلاء في الدنيا ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: أدوم.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ معناه: وأمر يا محمّد أهل بيتك، وأهل دينك بالصلاة. روى أبو سعيد الخدري قال: لمّا نزلت هذه الآية، كان رسول الله صلى الله عليه وآله، يأتي باب فاطمة وعليّ تسعة أشهر، عند كل صلاة، فيقول: الصلاة رحمكم الله، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهّركم تطهيراً. ورواه ابن عقدة بإسناده من طرق كثيرة، عن أهل البيت عليهم السلام، وعن غيرهم مثل أبي برزة، وأبي رافع. وقال أبو جعفر عليه السلام: أمره الله تعالى أن يخصّ أهله دون الناس؛ ليعلم الناس أنّ لأهله عند الله منزلة ليست للناس، فأمرهم مع الناس عامّة، ثمّ أمرهم خاصّة.

﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: واصبر على فعلها، وعلى أمرهم بها ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً﴾ لخلقنا، ولا لنفسك، بل كلّفناك العبادة، وأداء الرسالة، وضمنّا رزق الجميع.

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله، والمراد به: جميع الخلق أي: نرزق جميعهم، ولا نسترزقهم، وننفعهم ولا ننتفع بهم، فيكون أبلغ في الإمتنان عليهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: العاقبة المحمودة لأهل التقوى. قال ابن عباس: يريد الذين صدّقوك واتّبعوك واتّقوني. وفي الأثر: إنَّ عروة بن الزبير كان إذا رأى ما عند السلطان، دخل بيته، وقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآيات. ثمّ ينادي الصلاة،

الصلاة، رحمكم الله!

﴿وَقَالُوا﴾ يعني: الكفّار ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ محمّد ﷺ ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ إقترحناها عليه[1]، كما أتي به الأنبياء، نحو الناقة.

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: أو لم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب الأُولى من أنباء الأُمم التي أهلكناهم، لما إقترحوا الآيات، ثمّ كفروا بها، فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآية كحال أولئك.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يعني: كفّار قريش ﴿بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل بعث محمّد ﷺ ونزول القرآن ﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ أي هلّا أرسلت ﴿رَسُولاً﴾ يدعونا إلى طاعتك، ويرشدنا إلى دينك.

﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ أي: نعمل بما فيها ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾ بالعذاب ﴿وَنَخْزَى﴾ في جهنّم. وقيل: من قبل أن نذلّ في الدنيا بالقتل والأسر. ونخزى في الآخرة بالعذاب. فقطَّعنا عذرهم بإرسال الرسول، فلم يبق لهم متعلّق.

ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ﴾ أي: كل واحد منّا ومنكم منتظر، فنحن ننتظر وعد الله لنا فيكم، وأنتم تتربّصون بنا الدوائر.

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أنتم أي: إنتظروا. وهذا على وجه التهديد ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أي: فسوف تعلمون فيما بعد ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي: أهل الدين المستقيم. ﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾ إلى طريق الحقّ أي: أنحن أم أنتم.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ الآية، دلالة على

---

(١) والآية التي إقترحوها من آيات العذاب بدليل قوله تعالى بعده واو انا أهلكناهم بعذاب من قبله. والحاصل أنّهم سالوا العذاب الذي نزل على الأمم السابقة؛ تعجيزاً للنبيّ ﷺ ليثبت مدعاهم، ومضى منافي سورة بني اسرائيل أي: من القرآن تدلّ على صدور المعجزات منه ﷺ ولو كان مراد كفّار قريش طلب المعجزة، لا حالهم على ما رأوه قبل.

وجوب اللطف؛ لأنّه سبحانه بيَّن أنّه إنّما بعث الرسول إليهم لطفاً لهم، وأنّـه لو لم يبعثه لكان لهم الحجّة عليه، فكان في البعثة قطع العذر، وإزاحة العلّة، وبالله التوفيق والعصمة.

سورة الأنبياء

مكّيّة كلّها، وهي مائة وإثنتا عشرة آية كوفيّ، وإحدى عشرة آية في الباقين.

اختلافها: آية واحدة ﴿وَمَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ﴾ كوفيّ.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأ سورة الأنبياء، حاسبه الله حساباً يسيراً، وصافحه وسلم عليه كل نبيّ ذكر إسمه في القرآن. وقال أبو عبدالله عليه السلام: من قرأ سورة الأنبياء حُبّاً لها، كان ممّن رافق النبيّين أجمعين في جنّات النعيم، وكان مهيباً في أعين الناس حياة الدنيا.

تفسيرها: ختم الله سبحانه سورة «طه» بذكر الوعيد، وإفتتح هذه السورة بذكر القيامة فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ
ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

القراءة: قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿قال ربّي﴾ ـ بالألف ـ. والباقون: ﴿قل ربّي﴾.

الحجة: من قرأ: قال، فإنه على إضافة القول إلى الرسول، والخبر عنه. ومن قرأ: قل فإنّه على الخطاب.

الإعراب: ﴿مِن ذِكْرٍ﴾: في موضع رفع، و«مِن» مزيدة. ﴿مِنْ رَّبِّهِم﴾: صفة لذكر، فيجوز أن يكون في موضع جرّ، على لفظه. ويجوز أن يكون في موضع رفع، على محلّ الجارّ والمجرور. ﴿اسْتَمَعُوهُ﴾: في محلّ النصب على الحال بإضمار «قد»، وتقديره: ما يأتيهم ذكر ربّانيّ إلّا مستمعاً. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: حال من الواو

في (اسْتَمَعُوهُ). ﴿لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾: حال من الواو في ﴿يَلْعَبُونَ﴾، وإن شئت كان حالاً بعد حال. وقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ موضع ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: يجوز أن يكون رفعاً على وجوه: أحدها: أن يكون على البدل من الواو في «أسرّوا» والثاني: أن يكون مرفوعاً على الذمّ، فيكون خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين ظلموا.

والثالث: أن يكون فاعل ﴿أَسَرُّوا﴾ على لغة من يقول: أكلوني البراغيث، وتكون الواو في ﴿وَأَسَرُّوا﴾ حرفاً لعلامة الجمع، كالتاء في «قالت»، ولا يكون إسماً. ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ على الذمّ بإضمار «أعني».

المعنى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ إقترب: إفتعل، من القرب، والمعنى: إقترب للناس وقت حسابهم، يعني: القيامة، كما قال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي: دنا وقت محاسبة الله إيّاهم ومسألتهم عن نعمه، هل قابلوها بالشكر، وعن أوامره، هل إمتثلوها، وعن نواهية، هل إجتنبوها. وإنما وصف ذلك بالقرب؛ لأنّه آت، وكل ما هو آت قريب؛ ولأنّ أحد أشراط الساعة مبعث رسول الله ﷺ فقد قال: بعثت أنا والساعة كهاتين. وأيضاً فإنّ الزمان يقرب بكثرة ما مضى، وقلّة ما بقي، فيكون يسيراً بالإضافة إلى ما مضي ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ من دنّوها، وكونها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التفكّر فيها، والتأهّب لها. وقيل: عن الإيمان بها. وتضمّنت الآية، الحثّ على الإستعداد ليوم القيامة.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿مُحْدَثٍ﴾ أي: محدث التنزيل، مبتدأ التلاوة، كنزول سورة بعد سورة، وآية بعد آية. ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: لم يستمعوه إستماع نظر وتدبّر، وقبول وتفكّر، وإنّما إستمعوه إستماع لعب وإستهزاء. وقال ابن عباس: معناه: يستمعون القرآن مستهزئين، غافلة قلوبهم عمّا يراد بهم. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ أي: تناجوا فيما بينهم، يعني: المشركين.

ثمّ بيّن من هم؟ فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا بالله. ثمّ بيّن سبحانه سرّهم الذي تناجوا به، فقال: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: إنّه آدميّ مثلكم، ليس مثل الملائكة.

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنّه سحر. نفروا الناس عنه بشيئين: أحدهما: إنّه بشر. والآخر: إنّ ما أتى به سحر. وقيل: إنّ «أسرّوا» معناه: أظهروا هذا القول، فإنّ هذا اللفظ مشترك بين الإخفاء والإظهار. والأوّل أصحّ.

ثمّ أمر سبحانه نبيّه، فقال: ﴿قَالَ﴾ يا محمّد ﴿رَبِّي﴾ الذي خلقني وإصطفاني ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم أسرار المتناجين، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم وضمائرهم.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ «بل» للإضراب عمّا حكى سبحانه أنّهم قالوه أوّلاً، وللإخبار عمّا قالوه ثانياً أي: قالوا: إنّ القرآن تخاليط أحلام، رآها في المنام، ـ عن قتادة ـ.

﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ أي: ثمّ قالوا: لا، بل إفْتراه أي: تخرصه وافتعله ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي: ثمّ قالوا: بل هو شاعر. وهذا قول المتحيّر الذي بهره ما سمع، فمرّة يقول: سحر، ومرّة يقول: شعر، ومرّة يقول: حلم، ولا يجزم على أمر واحد. وهذه مناقضة ظاهرة.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ معناه: فليأتنا بآية ظاهرة يدركها الخاصّ والعامّ، كما أتى بها الأوّلون من الأنبياء. قال ابن عباس: بآية، مثل الناقة والعصا. وقال الزجّاج: إقترحوا بالآيات التي لا يكون معها إمهال. وفي قوله سبحانه: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ دلالة ظاهرة على أنّ القرآن محدث؛ لأنّه تعالى أراد بالذكر: القرآن؛ بدلالة قوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقد وصفه بأنّه محدث، ويوضحه

قوله: ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ﴾.

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ: نوحي ـ بالنون ـ حفص، عن عاصم. والباقون: يوحي. وقد تقدّم ذكره في سورة يوسف عليه السلام.

الإعراب: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: في موضع الجرّ؛ لأنّه صفة «قَرْيَةٍ». ﴿جَسَداً﴾: واحداً بمعنى الجمع أي: وما جعلناهم أجساداً، بمعنى: ذوي أجساد، ولذلك قال: ﴿لاَّ يَأْكُلُونَ﴾ وتقديره: غير آكلين الطعام. ﴿وَمَن نَشَاءُ﴾: في موضع نصب؛ عطفاً على «هم» من قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ﴾.

المعنى: لمّا تقدّمت الحكاية عن الكفّار، بأنّهم إقترحوا الآيات، قال سبحانه مجيباً لهم: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: لم يؤمن قبل هؤلاء الكفّار من أهل قرية جاءتهم الآيات التي طلبوها، فأهلكناهم مصرّين على الكفر.

﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ عند مجيئها. هذا إخبار عن حالهم، وأنّ سبيلهم سبيل من تقدَّم من الأُمم، طلبوا الآيات فلم يؤمنوا بها، وأُهلكوا. فهؤلاء أيضاً لو أتاهم ما إقترحوه لم يؤمنوا، ولإستحقّوا عذاب الإستئصال. وقد حكم سبحانه في هذه الآية [الأمّة] أن لا يعذّبهم عذاب الإستئصال، فلذلك لم يجبهم في ذلك. وقيل: ما

حكم الله سبحانه بهلاك قرية، إلّا وفي المعلوم أنّهم لا يؤمنون، فلذلك لم يأت هؤلاء بالآيات المقترحة.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ يا محمّد ﴿إِلَّا رِجَالاً ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿وَمَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ والمعنى: لم نرسل قبلك يا محمّد إلّا رجالاً من بني آدم ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ لا ملائكة؛ لأنّ البشر إلى البشر أميل، وبه آنس، وعنه أفهم، ومن الأنفة منه أبعد؛ لأنّه يجري مجرى النفس، والإنسان لا يأنف من نفسه.

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أختلف في المعني بأهل الذكر على أقوال: فروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: نحن أهل الذكر، وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام. ويعضده أنّ الله تعالى سمّى النبيّ صلى الله عليه وآله ذكراً في قوله: ﴿ذِكْراً رسولاً﴾. وقيل: أهل الذكر: أهل التوراة والإنجيل، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وقيل: هم أهل العلم بأخبار من مضى من الأُمم. وقيل: هم أهل القرآن. والذكر: هو القرآن. وهم العلماء بالقرآن، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي: باقين لا يموتون. هذا ردٌّ لقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ ومعناه: وما جعلنا الأنبياء قبلك أجساداً لا يأكلون الطعام، ولا يموتون، حتى يكون أكلك الطعام، وشربك، وموتك، علّة في ترك الإيمان بك، فإنّا لم نخرجهم عن حدّ البشريّة بالوحي. قال الكلبي: الجسد: المجسّد الذي فيه الروح، ويأكل ويشرب. فعلى هذا يكون ما يأكل ويشرب جسماً. وقال مجاهد: الجسد: ما لا يأكل ولا يشرب. فعلى هذا يكون ما يأكل ويشرب نفساً.

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ أي: صدقناهم الوعد بأنّ العاقبة الحميدة تكون لهم، ومعناه: أنجزنا ما وعدناهم به من النصر والنجاة، والظهور على الأعداء، وما وعدناهم به من الثواب.

﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أي: فأنجيناهم من أعدائهم، وأنجينا معهم من نشاء من المؤمنين بهم ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ على أنفسهم بتكذيبهم الأنبياء. قال قتادة: المسرفون هم المشركون. وهذا تخويف لكفّار مكّة.

ثمّ ذكر نعمته عليهم بإنزال القرآن، فقال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: فيه شرفكم إن تمسّكتم به كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَومِكَ﴾. وقيل: هو خطاب للعرب؛ لأنّه أنزل القرآن بلغتهم. وقيل: هو خطاب لجميع المؤمنين؛ لأنّ فيه شرفاً للمؤمنين كلّهم. وقيل: إنّ معناه: فيه ذكر ما تحتاجون إليه، من أمر دينكم ودنياكم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: فيه ذكر مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال؛ لتتمسّكوا بها.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضّلتم به على غيركم. وقيل: معناه: أفلا تتدبّرون، فتعلمون أنّ الأمر على ما قلناه.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ (١)

اللغة: القصم: الكسر. يقال: قصمه يقصمه وهو قاصم الجبابرة. والإنشاء: الإيجاد، ونظيره: الإختراع، والإبداع. والركض: العدو بشدّة والوطء. وركض دابّته: ضربها برجله حتى تعدو. وإرتكاض الصبي: إضطرابه في الرحم. والترف: النعمة. والمترف: المنعم والمتنعم. والزاهق: من الأضداد. يقال للهالك: زاهق، وللسمين من الدوابّ: زاهق. وزهقت نفسه تزهق زهوقاً أي: تلفت. والدمغ: شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ. يقال: دمغه يدمغة: إذا أصاب دماغه. ومنه: في صفة النبيّ ﷺ: الدامغ جيشات الأباطيل. والإستحسار: الإنقطاع من الإعياء. يقال: بعير حسير أي: معيي، وأصله من قولهم: حسر عن ذراعيه. فالمعنى: إنّه كشف قوته بإعياء، وجمعه حسرى: قال علقمة بن عبدة(٢) :

بِها جِيَفُ الْحَسْرىٰ، فَأمّا عِظامُها فَبِيضٌ، وَأمّا جِلْدُها فَصَلِيبُ

الإعراب: ﴿كَمْ﴾: في موضع نصب؛ بأنّه مفعول ﴿قَصَمْنَا﴾. و ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾: في موضع نصب على التمييز. ويجوز أن يكون صفة لكم، والتقدير: كثيراً من القرى قصمنا. ﴿إِذَا﴾: ظرف مكان العامل فيه ﴿يَرْكُضُونَ﴾ .و ﴿تِلْكَ﴾: في موضع رفع إسم «زَالَت». و ﴿دَعْوَاهُمْ﴾: في موضع نصب؛ خبر «زَالَت». وجائز

---

(١) أدغم «كانت ظالمة» العراقيّون من السبعة، وفيهم: عاصم ـ صاحب القرائة المعروفة ـ، وابن عامر من الشام، كذا في الاتحاف. وهذه القرائة عن عاصم غريبة، ولعلّه غلط النسخة. وأدغم «بل نقذف» الكسائي.

(٢) ويقال له: علقمة الفحل. والبيت من قصيدة يخاطب بها الحارث بن جبلة الغساني، ويصف الطريق، وطوله، وصعوبته. وإنّ بها جيفاً من المطي، ماتت فيها للاعياء، ظهرت عظمها، ويبست جلدها.

أن يكون ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ إسماً، و ﴿تِلْكَ﴾ خبراً. ﴿إن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: ما كنّا فاعلين. ويجوز أن تكون «إن» للشرط أي: كنّا ممّن يفعل ذلك، ولسنا ممّن يفعله، إتّخذناه من لدنّا. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾: مبتدأ، و ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾: خبره. ويجوز أن يكون ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ معطوفاً على ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾، فيكون ﴿لاَ يَسْتَكْبُرُونَ﴾ في موضع الحال. فالمعنى: غير مستكبرين، وكذا ﴿لاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾، و ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، و﴿لاَ يَفْتُرُونَ﴾ كلّها أحوال على هذا.

﴿المَعْنَى﴾: ثمّ بيّن سبحانه ما فعله بالمكذّبين، فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ ـ عن مجاهد والسدّي ـ. وقيل: عذّبنا، ـ عن الكلبي ـ ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة، يعني: أهلها.

﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أوجدنا ﴿بَعْدَهَا﴾ أي: بعد إهلاك أهلها ﴿قَوْماً آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا﴾ أي: فلمّا أدركوا بحواسّهم ﴿بَأْسَنَا﴾ أي: عذابنا ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ معناه: إذا هم من القرية، أو من العقوبة، يهربون سراعاً، هرب المنهزم من عدوّه.

﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ أي: يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: لا تهربوا ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ أي: وإرجعوا إلى ما نعمتم فيه، وإلى مساكنكم التي كفرتم وظلمتم فيها. وقيل: إنّهم لمّا أخذتهم السيوف إنهزموا مسرعين، فقالت لهم الملائكة بحيث سمعوا النداء: لا تركضوا وإرجعوا إلى ما خولتم ونعمتم فيه، وإرجعوا إلى مساكنكم. وقال ابن قتيبة: معناه: إلى نعمكم التي أترفتكم، ومساكنكم، لعلكم تسألون شيئاً من دنياكم. والمعنى: أنّ الملائكة إستهزأت بهم، فقالت لهم: إرجعوا الى نعمكم ومساكنكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ شيئاً من دنياكم، فإنّكم أهل ثروة ونعمة. يقولون ذلك

إستهزاء بهم. هذا قول قتادة. وقيل: لعلّكم تسألون أي: يسألكم رسولكم أن تؤمنوا، كما سئل قبل نزول العذاب بكم. وهذا إستهزاء بهم أيضاً أي: لا سبيل إلى هـذا، فتدبّروا الأمر قبل حلوله. وقيل: لكي تسألوا عن أعمالكم، وعن تنعّمكم في الدنيا بغير الحقّ، وعمّا إستحققتم به العذاب، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ.

﴿قَالُوا﴾ على سبيل التندّم، لمّا رأوا العـذاب: ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ لأنفسنا حيث كذّبنا رسل ربّنا. والمعنى: أنّهم إعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب. والويل: الوقوع في الهلكة.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: لم يزالوا يقولون يا ويلنا، وتلك دعواهـم ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً ﴾ أي: محصوداً مقطوعاً ﴿خَامِدِينَ ﴾ ساكني الحركات، ميّتين، كما تخمد النار إذا انطفأت. والمعنى: إستأصلناهم بالعذاب، وأهـلكناهم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: بالسيف، وهو قتل بخت نصر لهم، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: نزلت في قرية باليمن قتلوا نبيّاً لهم يقال له: حنظلة، فسلّط الله عليهم بخت نصر حتى قتلهم، وسباهم، ونكل [نكأ] فيهم، حتى خرجوا من ديارهم منهزمين، فبعث الله ملائكة حتى ردّوهم إلى مساكنهم، فقتل صغارهم وكبارهم، حتى لم يبق لهم إسم ولا رسم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ بل خـلقناهما لغـرض صحيح، وهو أن يكون دلالة ونعمة وتعريضاً للثواب ﴿لَوْ أَرَدْنَـا أَنْ نَـتَّخِذَ لَـهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ اللهو: المرأة، ـ عن الحسن ومجاهد ـ. وقيل: هو الولد، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: اللهو الذي هو داعي الهوى، ونازع الشهوة. والمعنى: لو إتّخذنا نساء أو ولداً لإتّخذناه من أهل السماء، ولم نتّخذه من أهل الأرض. يريد لو كان ذلك جائزاً عليه، لم يتخذه بحيث يظهر لهم، ويسرّ ذلك حـتى لا يـطّلعوا

عليه. وقد أحسن ابن قتيبة في شرح اللهو هنا، فقال: التفسيران في اللهو متقاربان؛ لأنّ إمرأة الرجل لهوه، وولده لهوه، ولذلك يقال: إمرأة الرجل وولده ريحانتاه. وأصل اللهو الجماع، كنّي عنه باللهو، كما كنّي عنه بالسرّ. ثمّ قيل للمرأة لهو؛ لأنّها تجامع. قال امرؤ القيس:

ألا زَعَمَتْ بَسْباسَةُ الْيَوْمَ أَنَّني كَبُرْتُ، وَإِنْ لا يُحْسِنُ اللَّهْوَ أمثالِي

وتأويل الآية: إنّ النصارى لمّا قالت في المسيح وأُمّه ما قالت، قال الله عزّوجلّ: (لو أردنا أن نتخذ) صاحبة وولداً، كما تقولون، لإتّخذنا ذلك من عندنا، ولم نتّخذ من عندكم؛ لأنّكم تعلمون أنّ ولد الرجل وزوجته يكونان عنده، لا عند غيره.

﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: ما كنّا فاعلين، ـ عن قتادة ومجاهد وابن جريح ـ. وقيل: معناه: إنّ كنّا فاعلين ذلك، لإتّخذناه من عندنا، بحيث لا يصل علمه إليكم، ـ عن الجبائي ـ.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ معناه: بل نورد الأدلّة القاهرة على الباطل. وقيل: نرمي بالحجّة على الشبهة. وقيل: بالإيمان على الكفر.

﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي: يعلوه ويبطله. وقيل: يهلكه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: هالك مضمحلّ، ـ عن قتادة ـ. وتأويله: إنّ الله سبحانه يظهر الحقّ بأدلّته، ويبطل الباطل، واللعب فكيف يفعل الباطل واللعب.

﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: الهلاك لكم يا معشر الكفّار ممّا تصفون الله تعالى به من إتّخاذ الصاحبة والولد ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلكاً ومِلكاً وخلقاً. وهذا ردّ أيضاً على من أثبت له الولد، والشريك أي: وكيف يجوز عليه إتّخاذ الشريك، والولد.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني: الملائكة الذين لهم عند الله تعالى المنزلة، كما يقال: عند الأمير كذا وكذا من الجند، وإن كانوا متفرّقين في الأماكن، ولا يراد بذلك قرب المسافة.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: لا يأنفون ولا يترفّعون عن عبادته. وأراد بذلك نفي النبوّة عنهم؛ لأنّ أحداً لا يستعبد إبنه.

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يعيبون [يعيون]، ـ عن قتادة والسدّي ـ. وقيل: لا يملون، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: لا ينقطعون، مأخوذ من البعير الحسير المنقطع بالإعياء.

﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: ينزّهون الله تعالى عن جميع ما لا يليق بصفاته على الدوام ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: في الليل والنهار ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: لا يضعفون عنه. قال كعب: جعل الله لهم التسبيح، كما جعل لكم النفس في السهولة.

النظم: إتّصل قوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بما تقدَّم من ذكر هلاك الكفّار، فبيّن سبحانه أنّه لم يهلكهم إلّا بالإستحقاق؛ لأنّه سبحانه وتعالى خلقهم للعبادة، فلمّا كفروا جازاهم بكفرهم. ولولا ذلك لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما لعباً؛ لأنّ خلقهما إنّما هو لأجل المكلّفين، وخلق المكلّف إنّما هو لتعريض الثواب. ووجه إتّصال قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾ بما قبله: أنّ هؤلاء الذين وصفتموهم بأنّهم بنات الله، هم عبيد الله على أتمّ وجوه العبوديّة، وذلك يحيل معنى الولادة؛ لأنّ الولادة لا تكون إلّا مع المجانسة.

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ
فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ
بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم
بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ
جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا
مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: إلّا نوحي ـ بالنون ـ. والباقون: يوحي. وقرأ ابن كثير: ألم ير ـ بغير واو ـ، وكذلك هو في مصاحف أهل مكّة. والباقون: أوَلم ير ـ بالواو ـ. وفي الشواذّ، قراءة الحسن، وابن محيصن: الحق

(١) وفتح ياء الإضافة «مَن معي». وذكر حفص وحده.

ـ بالرفع ـ، فهم معرضون. وقراءة الحسن أيضاً وعيسى الثقفي: رتَقاً ـ بفتح التاء ـ.

الحجة: وجه النون: أنّه أشبه بما تقدَّم من قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾. واليـاء في المعنى كالنون. والوجه في قراءة الحسن ـ «الحقّ» بالرفع ـ: الإستئناف، فإنّ الوقف في هذه القراءة على قوله: ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾، والتقدير: هذا الحقّ، أو هو الحقّ. فيحذف المبتدأ، ويوقف على الحقّ. ثمّ يستأنف، فيقال: ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لأنّ أكثرهم لا يعلمون.

والوجه في قوله: رتقاً ـ بفتح التاء ـ: أنّه قد كثر مجيء المصدر على «فَعْل» وإسم المفعول منه على «فَعَل» ـ مفتوح العين ـ، وذلك كالنَّفْض، والنَّفَض، والطرد والطَّرَد. فالرتَق على هذا يكون للشيء المرتوق، كما أنّ النَّفَض المنفوض، والهدَم المهدوم. فقراءة الجماعة «رتْقاً» ـ بسكون التاء ـ كأنّه ممّا وضع من المصادر موضع إسم المفعول، كالصيد بمعنى المصيد، والخلق بمعنى المخلوق.

الإعراب: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾: أم هذه: هي المنقطعة، وليست المعادلة لهمزة الإستفهام في مثل قولك، أزيد عندك أم عمرو. وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾: إلاّ هذه صفة لآلهة، وتقديره: غير الله. ﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ما هذه: الأجود أن تكون مصدريّة، ويحتمل أن تكون إسماً.

المعنى: ثمّ عاد سبحانه إلى توبيخ المشركين، فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ هذا إستفهام، معناه: الجحد أي: لم يتّخذوا آلهة من الأرض.

﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: يحيون الأموات، ـ عن مجاهد ـ. يقال: أنشر الله الموتى، فنشروا أي: أحياهم فحيّوا، وهو من النشر بعد الطي؛ لأنّ المحيا كأنّه كان مطويّاً بالقبض عن الإدراك، فأُنشر بالحياة. والمعنى في ذلك: أنّ هؤلاء إذا كانوا لا يقدرون على الإحياء الذي من قدر عليه، قدر على أن ينعم بالنعم التي يستحقّ بها العبادة، فكيف يستحقّون العبادة. قال الزجّاج: ومن قرأ: ﴿يَنشِرُونَ﴾ ـ بفتح الياء ـ، فمعناه: لا يموتون أبداً ويبقون أحياء أي: لا يكون ذلك. وأقول: قد يجوز

أن يكون يَنشرون ويُنشرون بمعنى. يقال: نشر الله الميّت، بمعنى: أنشر.

ثمّ ذكر سبحانه الدلالة على توحيده، وأنّه لا يجوز أن يكون معه إلٰه سواه، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ومعناه: لو كان في السماء والأرض آلهة سوى الله، لفسدتا، وما إستقامتا، وفسد من فيهما، ولم ينتظم أمرهم. وهذا هو دليل التمانع الذي بنى عليه المتكلّمون مسألة التوحيد، وتقرير ذلك: أنّه لو كان مع الله سبحانه إلٰه آخر لكانا قديمين، والقدم من أخصّ الصفات. فالإشتراك فيه يوجب التمائل، فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيّين. ومن حقّ كل قادرين أن يصحّ كون أحدهما مريداً لضدّ ما يريده الآخر، من إماتة وإحياء، أو تحريك وتسكين، أو إفقار وإغناء، ونحو ذلك.

فإذا فرضنا ذلك، فلا يخلو إمّا أن يحصل مرادهما وذلك محال، وإمّا أن لا يحصل مرادهما، فينتقض كونهما قادرين. وإمّا أن يقع مراد أحدهما، ولا يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول قادراً. فإذاً لا يجوز أن يكون الإلٰه إلّا واحداً. ولو قيل: إنّهما لا يتمانعان؛ لأنّ ما يريده أحدهما يكون حكمة فيريده الآخر بعينه؟ والجواب: إنّ كلامنا في صحّة التمانع لا في وقوع التمانع، وصحّة التمانع يكفي في الدلالة؛ لأنّه يدلّ على أنّه لا بدّ من أن يكون أحدهما متناهي المقدور، فلا يجوز أن يكون إلٰهاً.

ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن أن يكون معه إلٰه فقال: ﴿سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ وإنّما خصَّ العرش؛ لأنّه أعظم المخلوقات، ومن قدر على أعظم المخلوقات[1]، كان قادراً على ما دونه.

---

(١) يزعم الحكماء أنّ العرش الجسمانيّ هو الجسم المحدّد للجهات الذي أثبتوه لتعيين أمكنة ذوات الجهات، وهو جسم لا يقدر عظمه الّا الله تعالى؛ لأنّ كل مسافة يتصوّرها الإنسان، فهو أعظم منها، حتى أنّ أكثر أهل عصرنا يقولون: إنّ الفضاء غير متناه. ولكنّ الصحيح أنّ البعد غير المتناهي باطل بأدلّة قاطعة، وإن كان الفضاء أعظم من كل ما يتصوّره الإنسان.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ معناه: إنّ جميع أفعاله حكمة وصواب، ولا يقال للحكيم لمَ فعلت الصواب. وهم يسألون؛ لأنّهم يفعلون الحقّ والباطل. وقيل: معناه: إنّه لا يسأل عن إدّعاء الربوبيّة، وهم مسؤولون إذا إدّعوها، ويدلّ على هذا التأويل النظم والسياق. وقيل: معناه: لا يحاسب على أفعاله، وهم يحاسبون على أفعالهم. وقيل: معناه: إنّه لا يسأله الملائكة والمسيح عن فعله، وهو يسألهم ويجازيهم. فلو كانوا آلهة لم يسألوا عن أفعالهم.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ وهذا إستفهام إنكار، وتوبيخ أيضاً ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمّد: هاتوا حجّتكم على صحّة ما فعلتموه؛ لأنّهم لا يقدرون على ذلك أبداً. وفي هذا دلالة على فساد التقليد؛ لأنّه طالبهم بالحجّة على صحّة قولهم. والبرهان: هو الدليل المؤدّي إلى العلم.

﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ أي: وقل لهم يا محمّد: هذا القرآن ذكر من معي بما يلزمهم من الأحكام، وذكر من قبلي من الأُمم ممّن نجا بالإيمان، أو هلك بالكفر، ـ عن قتادة ـ. وقيل: هذا ذكر من معي بالحقّ، في إخلاص الإلهيّة والتوحيد في القرآن. وهذا ذكر من قبلي، في التوراة والإنجيل، عن الجبائي، قال: لأنّ في القرآن ذكراً منه تعالى ولمن معه، وفي التوراة والإنجيل ذكر تلك الأُمم.

وقال أبو عبدالله عليه السلام: يعني بذكر من معي: من معه، وما هو كائن، وبذكر من قبلي: ما قد كان. وقيل: إنّ معناه: «في القرآن» خبر مِن «معي على ديني ممّن يتبعني إلى يوم القيامة، بما لهم من الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، وذكر ما أنزل الله من الكتب قبلي»، فأنظروا هل في واحد من الكتب أنّ الله أمر بإتّخاذ إلٰه سواه. فبطل بهذا البيان جواز إتّخاذ معبود سواه من حيث الأمر به. وقال الزجّاج: قل لهم هاتوا برهانكم، بأنّ رسولاً من الرسل أتى أُمّته بأنّ لهم إلٰهاً غير الله، فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي إلّا توحيد الله؟ ويدلّ على صحّة هذا قوله

فيما بعد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

فلمّا توجّهت الحجّة عليهم، ذمّهم سبحانه على جهلهم بمواضع الحقّ، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن التأمّل والتفكّر. وإختصّ الأكثر منهم؛ لأنّ فيهم من آمن.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمّد ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ أي: رسولاً. ومِن: مزيدة ﴿إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ نحن، أو يوحي إليه أي: يوحي الله إليه ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ﴾ أي: لا معبود على الحقيقة ﴿إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾ أي: فوجّهوا العبادة إليَّ دون غيري.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ يعني: من الملائكة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزَّه نفسه عن ذلك؛ لأنّ إتّخاذ الولد لا يخلوا إمّا أن يكون على سبيل التوالد، أو على سبيل التبنّي، وكلاهما لا يجوز عليه؛ لأنّ الأوّل: يقتضي أنْ يكون من قبيل الأجسام، والثاني: وهو التبنّي، يكون بأن يقيم غير ولده مقام ولده. وإذا كان حقيقة الولد مستحيلاً منه، فالمشبّه به كذلك، وليس ذلك كالخلة؛ لأنّه من الإختصاص، وحقيقته جائزة عليه.

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: ليسوا أولاد الله كما يزعمون، بل هم عباد مكرمون، أكرمهم الله، وإصطفاهم.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يتكلّمون إلّا بما يأمرهم به ربّهم، فكل أقوالهم طاعة لربّهم، وناهيك بذلك جلالة قدرهم ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ومن كان بهذه الصفة لا يوصف بأنّه ولده.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما قدّموا من أعمالهم، وما أخّروا منها. يعني: ما عملوا منها، وما هم عاملون.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ الله دينه. وقال مجاهد: إلّا لمن رضي الله

عنه. وقيل: إنّهم أهل شهادة أن لا إله إلّا الله، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هم المؤمنون المستحقّون للثواب، وحقيقته أنّهم لا يشفعون إلّا لمن إرتضى لله أنْ يشفع فيه، فيكون في معنى قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خشيتهم إيّاه، فأُضيف المصدر إلى المفعول ﴿مُشْفِقُونَ﴾: خائفون، وجلون من التقصير في عبادته.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من يقل من هؤلاء الملائكة: إنّي إله تحقّ لي العبادة من دون الله ﴿فَذَلِكَ﴾ أي: فذلك القائل ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يعني: أنّ حالهم مثل حال سائر العبيد في إستحقاق الوعيد. وقيل: إنّه عني به إبليس؛ لأنّه الذي دعا الناس إلى عبادته، ـ عن ابن جريج، وقتادة ـ. وقيل: إنّ هذا لا يصحّ؛ لأنّ الله سبحانه علّق الوعيد بالشرط؛ ولأنّ إبليس ليس من الملائكة عند الأكثرين.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين الذين يصفون الله بما لا يليق به. وفي هذه الآية دلالة على أنّ الملائكة ليسوا مطبوعين على الطاعات، على ما قاله بعضهم، وأنّهم مكلّفون.

﴿أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إستفهام، يراد به التقريع، والمعنى: أولم يعلموا أنّه سبحانه الذي يفعل هذه الأشياء، ولا يقدر عليها غيره، فهو الإله المستحقّ للعبادة دون غيره.

﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ تقديره: كانتا ذواتي رتق، فجعلناهما ذواتي فتق، والمعنى: كانتا ملتزقتين منسدّتين، ففصلنا بينهما بالهواء، ـ عن ابن عباس والحسن والضحّاك وعطاء وقتادة ـ. وقيل: كانت السماوات مرتتقة مطبقة، ففتقناها سبع سماوات، وكانت الأرض كذلك، ففتقناها سبع أرضين، ـ عن مجاهد والسدّي ـ. وقيل: كانت السماء رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا

تنبت، ففتقنا السماء بالمطر، والأرض بالنبات، ـ عن عكرمة وعطية وابن زيد، وهو المرويّ عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليه السلام ـ.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: وأحيينا بالماء الذي نزّله من السماء، كل شيء حيّ. وقيل: وخلقنا من النطفة كل مخلوق حيّ، ـ عن أبي العالية ـ. والأوّل أصحّ. وروى العياشيّ، بإسناده عن الحسين بن علوان قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن طعم الماء، فقال له: سل تفقّهاً، ولا تسأل تعنّتاً، طعم الماء طعم الحياة[1]، قال الله سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. وقيل: معناه: وجعلنا من الماء حياة كل ذي روح، ونماء كل نام. فيدخل فيه الحيوان، والنبات، والأشجار، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدّقون بالقرآن، وبما يشاهدون من الدليل، والبرهان.

النظم: وجه إتّصال الآية الأُولى بما قبلها: أنّه سبحانه قال: فإسألوا أهل الذكر هل أرسلنا قبلك إلّا رجالاً، وهل إتّخذوا آلهة من الأرض، أي: من الحجر والمدر والخشب، فإنّ كلّه من الأرض، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه يتّصل بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً﴾ والمعنى: أنّهم أضافوا إليه الولد، وأضافوا إليه الشريك. ووجه إتّصال قوله: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بما قبله: أنّه لمّا بيّن التوحيد، عطف عليه بيان العدل. وقيل: إنّه يتّصل بقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ والحساب: هو السؤال عمّا أنعم الله عليهم به، وهل قابلوا نعمه بالشكر، أم قابلوها بالكفر، ـ عن أبي مسلم ـ. ووجه إتّصال قوله: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِي وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ بما قبله: أنّ ما قدّمنا ذكره من التوحيد، والعدل، مذكور في القرآن، وفي الكتب السالفة.

---

(١) طعم الحيوة طعم الماء، فإنّهما لذيذان، يشتهيهما الإنسان أشدّ شهوة، وليسا حلواً كالسكّر، وساير الطعوم.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ (١)

(اللغة): الرواسي: الجبال. رَسَت تَرسُوا رَسْواً: إذا ثبتت بثقلها، فهي راسية، كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكّنة في وقوفها. والميد: الإضطراب بالذهاب في الجهات. والفجّ: الطريق الواسع بين الجبلين. والفلك: أصله: كل شيء دائر، ومنه: فلكة المغزل. ويقال: فلك ثدي المرأة تفليكاً: إذا إستدار. والسباحة والعوم والسبح والجري، بمعنى.

(الإعراب): ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾: في موضع نصب؛ بأنّه مفعول، وتقديره: كراهة أن تميد بهم، أو حذار أن تميد. ومن قال: إنّ «لا» هنا مضمرة، والتقدير: لأن لا تميد، فلا وجه لقوله. و ﴿سُبُلًا﴾: بدل من ﴿فِجَاجًا﴾؛ لأنّ الفجّ هو السبيل. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: جملة إسميّة في موضع الحال. و«في» يتعلّق بيسبحون. ﴿أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾: شرط وجزاء، دخلت الفاء في الشرط وفي الجزاء.

---

(١) وأختلف في ضمّ الميم وفتحها من «متّ». وفي قوله: يسبحون، دلالة على أنّ الشمس والقمر في فلكهما، ليسا على ما كان يظنّه أكثر منجّمي السلف، مركوزين في فلكهما، ويدور الفلك بهما، بل هما يسبّحان، كما يسبّح الرجل في الماء. وأمّا الأرض، وعدم إضطرابها بسبب الجبال ففي اللغة لايراد بالأرض الكرة الأرضية، بل البرّ المبسوط تحت الأقدام، على المانع المذاب المركزي.

وقوله: ﴿فِتْنَةً﴾: مفعول له، والمعنى: للفتنة. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال أي: نبلوكم فاتنين. ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر؛ لأنّ البلاء بمعنى الفتنة.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته، وشمول نعمته، بأن قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت تمنع الأرض من الحركة والإضطراب ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: تتحرّك، وتميل، وتضطرب بهم. وقيل: لتستقرّ، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الرواسي ﴿فِجَاجاً﴾ أي: طرقاً واسعة بينها، لولا ذلك، لما أمكن أنْ يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار. ثمّ بيَّن الفجاج، فقال: ﴿سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بها إلى طريق بلادهم ومواطنهم. وقيل: ليهتدوا بالإعتبار بها إلى دينهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ أي: رفعنا السماء فوق الخلق كالسقف، محفوظاً من الشياطين بالشهب التي ترمى بها، كما قال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: محفوظاً من أنْ تسقط، كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ﴾ الآية. وقيل: محفوظاً من أنْ يطمع أحد في أنْ يتعرّض لها بنقص [بنقض]، أو أن يلحقها بِلى، أو هدم على طول الدهر، ـ عن الحسن ـ.

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ أي: عن الإستدلال بما فيها من دلائل الحدوث، والحاجة إلى المحدث ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي: أعرضوا عن التفكّر فيها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يجرون. وقيل: يدورون. وأراد الشمس والقمر والنجوم؛ لأنّ قوله: الليل، يدلّ على النجوم. وقال ابن عباس: يسبحون بالخير والشرّ بالشدّة والرخاء. وقيل: معناه: أنّه سبحانه جعل لكل واحد منهما فلكاً يدور فيه بسرعة كالسباحة. وإنّما

قال ﴿يَسْبَحُونَ﴾؛ لأنّه أضاف إليها فعل العقلاء، كما قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وقال النابغة الجعدي:

تَمزَرْتُها وَالدّيكُ يَدْعُو صِياحَهُ إذا ما بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا[1]

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمّد ﴿الْخُلْدَ﴾ أي: دوام البقاء في الدنيا ﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ أنت على ما يتوقّعونه، وينتظرونه ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أي: فهم يخلّدون بعدك، يعنى: مشركي مكّة، حين قالوا: نتربّص بمحمّد ريب المنون، فقال: لئن متّ فإنّهم أيضاً يموتون، فأيُّ فائدة لهم في تمنّي موتك.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: لا بدّ لكل نفس حيّة بحياة أن يدخل عليها الموت، وتخرج عن كونها حيّة.

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ أي: نعاملكم معاملة المختبر بالفقر والغنى، وبالضرّاء والسرّاء، وبالشدّة والرخاء، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: بما تكرهون وما تحبّون؛ ليظهر صبركم على ما تكرهون، وشكركم فيما تحبُّون، ـ عن ابن زيد ـ. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام، أن أمير المؤمنين عليه السلام مرض، فعاده إخوانه فقالوا: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: بشرّ. قالوا: ما هذا كلام مثلك. قال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ فتنة، فالخير: الصحّة والغنى، والشرّ: المرض والفقر. وقال بعض الزهّاد: الشرّ: علبة الهوى على النفس، والخير: العصمة عن المعاصي.

﴿فِتْنَةً﴾ أي: إبتلاء وإختبار، أو شدّة تعبّد ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى حكمنا تردّون للجزاء بالأعمال، حسنها وسيّئها.

---

(١) تمزرت الشراب: إذا شربته قليلاً قليلاً: يعني: شربت قُبيل الصبح عند صياح الديك. وتصويب بني النعش في الصيف دليل قرب الفجر. والمراد من دنوّها: قربها من الافق، حيث يظنّ أنّه أقرب إلينا.

النظم: يتّصل قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ بما ذكر سبحانه من خلق الأشياء، فإنّه بيّن أنّه لم يخلقها للخلود، وإنّما خلقها ليتوصّل بها إلى نعيم الآخرة، فلا بدّ لكل إنسان من الموت، والرجوع إلى الجزاء، ـ عن القاضي ـ.

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ (١)

اللغة: الهزؤ: إظهار خلاف الإبطان؛ لإيهام النقص عن فهم القصد. يقال: هزأ منه يهزأ هزؤاً فهو هازىء، ومثله: السخريّة. ويقول العرب: ذكرت فلاناً أي: عبته. قال عنترة:

لاتَـذْكُـرِي مُـهْرِي، وَمـا أطْـعَمْتُهُ فَيَكُونَ جِلْدُكِ مِثْلَ جِلْدِ الأجْـرَبِ(٢)

---

(١) «وإذا رآك» بإمالة الراء والألف معاً حمزة والكسائي، وبفتحهما معاً حفص والحرميّان، وبفتح الراء وإمالة الألف أبو عمرو، وأختلف عن أبي بكر، وابن عامر. ومضي الكلام في «هزواً» في سورة البقرة، وأثبت الياء من «يستعجلون» يعقوب وصلاً ووقفاً. وأدغم «بل تأتيهم» حمزة، والكسائي.

(٢) يخاطب إمرئته، ويهدّدها لما لامته في فرسٍ كان يؤثره.

والعجلة: تقديم الشيء قبل وقته، وهو مذموم. والسرعة: تقديم الشيء في أقرب أوقاته، وهو محمود. والإستعجال: طلب الشيء قبل وقته الذي حقّه أن يكون فيه دون غيره، وهو مذموم.

الإعراب: ﴿وَإِذَا رَآكَ﴾: العامل في إذا اتّخذوا، وهو معنى قوله: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً﴾؛ لأنّ معناه: اتّخذوك هزواً. وقوله: ﴿أَهَـذَا الَّذِي يَذكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ تقديره: قائلين أهذا الذي يذكر آلهتكم، فحذف «قائلين» وهو في موضع الحال، كما حذف ذلك من قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: قائلين ما نعبدهم. والباء في قوله: ﴿بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾: يتعلّق بقوله: ﴿كَافِرُونَ﴾ وقوله: ﴿حِينَ لاَ يَكُفُّونَ﴾: يجوز أن يكون مفعولاً به ليعلم. ويجوز أن يكون ظرفاً له، فيكون مفعول «يعلم» محذوفاً، تقديره: لو يعلمون الأمر حين لا يكفّون. وجواب «لو» محذوف، وتقديره: لإنتهوا. ﴿بَغْتَةً﴾: نصب على الحال من المفعول، تقديره: بل تأتيهم مبغوتين مفاجئين. ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل، وهو الضمير المستكن في «تأتي». والتقدير: بل تأتيهم باغتة مفاجئة.

المعنى: ثم خاطب نبيّه ﷺ وقال: ﴿وَإِذَا رَآكَ﴾ أي: إذا رآك يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وأنت تعيب آلهتهم، وتدعوهم إلى التوحيد ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي: ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُواً﴾ أي: سخرية يقول بعضهم لبعض: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيب آلهتكم وذلك قوله إنها جماد لا ينفع ولا يضرّ ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: بتوحيده. وقيل: بكتابه المنزل ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: جاحدون. عجب الله سبحانه نبيّه ﷺ منهم، حيث جحدوا الحي المنعم القادر، العالم الخالق الرازق، واتخذوا ما لا ينفع ولا يضرّ، ثم إن من دعاهم إلى تركها اتخذوه هزؤاً وهم أحق بالهزؤ عند من يدبر حالهم.

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ قيل فيه قولان أحدهما: إن المعني بالإنسان آدم. ثم إنه قيل في عجل ثلاث تأويلات منها: إنه خلق بعد خلق كل شيء آخر نهار يوم الجمعة، وهو آخر أيام السنة، على سرعة، معاجلاً به غروب الشمس، عن مجاهد. ومنها: إن معناه في سرعة من خلقه، لأنه لم يخلقه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، كما خلق غيره. وإنما أنشأه إنشاء. فكأنه سبحانه نبّه بذلك على الآية العجيبة في خلقه. ومنها: إن آدم عليه السلام لما خلق، وجعلت الروح في أكثر جسده، وثب عجلان مبادراً إلى ثمار الجنة. وقيل: همَّ بالوثوب. فهذا معنى قوله ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ عن ابن عباس والسدي، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

والقول الثاني: إن المعني بالإنسان الناس كلهم. ثم اختلف في معناه على وجوه أحدها: إن معناه خلق الإنسان عجولاً أي: خلق على حب العجلة في أمره، عن قتادة وأبي مسلم والجبائي قال: يعني أنه يستعجل في كل شيء يشتهيه، وللعرب عادة في استعمالهم هذا اللفظ عند المبالغة، يقولون لمن يصفونه بكثرة النوم: ما خلق إلا من نوم، وبكثرة وقوع الشر منه: ما خلق إلا من شر. ومنه قول الخنساء في وصف البقرة: «فإنما هي إقبال وإدبار». وثانيها: إنه من المقلوب، والمعنى خلقت العجلة من الإنسان، عن أبي عبيدة وقطرب. وهذا ضعيف لأنه مع حمل كلامه تعالى على القلب، يحتاج إلى تأويل، فلا فائدة في القلب وثالثها: إن العجل هو الطين، ـ عن أبي عبيدة وجماعة ـ، وإستشهدوا بقول الشاعر:

وَالنَّبْعُ يَنْبُتُ بَيْنَ الصَخْرِ ضاحِيَةً وَالنَّخْلُ تَنْبُتُ بَيْنَ الْماءِ، وَالْعَجَلِ

ورواه ثعلب[1]:

---

(١) ثعلب: هو أحمد بن يحيى النحويّ. وتغلب تصحيف.

والنَّبْعُ فِي الصَّخْرَةِ الصَّماء مَنْبُتُهُ

فعلى هذا يكون كقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾.

ورابعها: إنّ معناه: خلق الإنسان من تعجيل من الأمر؛ لأنّه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، ـ عن أبي الحسن الأخفش ـ. ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ الدالّة على وحدانيّتي، وعلى صدق محمّد ﷺ فيما يوعدكم به من العذاب ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِي﴾ في حلول العذاب بكم، فإنّه سيدرككم عن قريب. قال ابن عباس في رواية عطاء: يريد به النضر بن الحرث، وهو الذي قال: ﴿أَللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ﴾ الآية. ويريد بقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ القتل يوم بدر.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: ويقول المشركون للمسلمين ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدوننا يريدون وعد القيامة ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: ويقولون إنْ كنتم صادقين في هذا الوعد، فمتى يكون ذلك.

ثم قال سبحانه. ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ النَّارَ﴾ أي: لو علموا الوقت الذي لا يدفعون فيه عذاب النار عن وجوههم ﴿وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ يعني: أنّ النار تحيط بهم من جميع جوانبهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ وجواب «لو» محذوف، وتقديره: لعلموا صدق ما وعدوا به، ولما استعجلوا، ولا قالوا ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾.

ثمّ قال: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: فتحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: فلا يقدرون على دفعها. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخّرون إلى وقت آخر، ولا يمهلون لتوبة أو معذرة.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا (١) مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾

القراءة: قرأ ابن عامر: ولا تُسمع ـ بضمّ التاء ـ، الصمَّ: بالنصب. والباقون: ولا يَسمع ـ بفتح الياء ـ، الصمُّ ـ بالرفع ـ.

الحجة: الوجه في قراءة ابن عامر: أنّه وجّه الخطاب إلى النبيّ ﷺ، فكأنّه قال: ولا تسمع أنت يا محمّد الصمّ، كما قال: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾؛ لأنّ الله تعالى لمّا خاطبهم فلم يلتفتوا إلى ما دعاهم إليه، صاروا بمنزلة الميّت الذي لا يسمع، ولا يعقل. ووجه قراءة الباقين: أنّه جعل الفعل لهم، ويقوّيه قوله: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

اللغة: الكلاءة: الحفظ. قال ابن هرمة:

---

(١) الدعاء إذا: من إجتماع الهمزتين، سهل ثانيتهما كالياء، الحرميان، وأبو عمرو.

إنَّ سُـلَيْمىٰ، وَاللَّـهُ يَكْـلَؤُها[١] ضَـنَّتْ بِشَـيْءٍ مـا كَـانَ يَـرْزَؤُها

والفرق بين السخريّة والهزء: أنّ في السخريّة معنى طلب الذلّة؛ لأنّ التسخير التذليل. فأمّا الهزء، فيقتضي طلب صغر القدر بما يظهر في القول.

﴿الإعراب﴾: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾: أم هذه: هي المنقطعة، وتقديره: بل ألهم آلهة. ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾: جملة مستأنفة؛ لأنّها لا تستقيم أن تكون صفة لآلهة، ولا حالاً عنها؛ لأنّ الله وصفها بقوله: ﴿تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ على زعمهم. و ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ ضدُّ هذه الصفة.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم ذكر إستهزاء الكفّار بالنبيّ والمؤمنين، سلّى الله سبحانه نبيَّه ﷺ عند ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما إستهزأ هؤلاء ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ أي: حلَّ بهم وبال استهزائهم وسخريّتهم. وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يعني: من الرسل.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار ﴿مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ الرَّحْمَنِ﴾ أي: يحفظكم من بأس الرحمن وعذابه. وقيل: من عوارض الآفات. وهو إستفهام، معناه النفي، تقديره: لا حافظ لكم من الرحمن.

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: بل هم عن كتاب ربّهم معرضون، لا يؤمنون به، ولا يتفكّرون فيه. وقيل: معناه: إنّهم لا يلتفتون إلى شيء من المواعظ والحجج.

ثمّ قال على وجه التوبيخ لهم، والتقريع: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم من عذابنا، وعقوباتنا، وتمَّ الكلام.

ثمّ وصف آلهتهم بالضعف، فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنـفُسِهِمْ﴾ فكيف

---

(١) الله يكلؤها: جملة معترضة دعاء. ويرزؤها أي: ينقصها يعني: إنّ المرئة بخلت بالوصال، وليس ممّا ينقصها.

ينصرونهم. وقيل: معناه: إنّ الكفّار لا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا يقدرون على دفع ما ينزل بهم عن نفوسهم.

﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: ولا الكفّار يجارون من عذابنا، ـ عن ابن عباس ـ. قال ابن قتيبة: أي لا يجيرهم منّا أحد؛ لأنّ المجير صاحب الجار، يقول العرب: صحبك الله أي: حفظك الله، وأجارك. وقيل: يصحبون أي: ينصرون ويحفظون، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: لا يصحبون من الله بخير، ـ عن قتادة ـ.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ في الدنيا بنعمها، فلم نعاجلهم بالعقوبة ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: طالت أعمارهم، فغرَّهم طول العمر، وأسباب الدنيا، حتى أتوا ما أتوا.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ألم ير هؤلاء الكفّار أنّ الأرض يأتيها أمرنا، فننقصها بتخريبها، وبموت أهلها. وقيل: بموت العلماء، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام قال: نقصانها ذهاب عالمها. وقيل: معناه: ننقصها من أطرافها بظهور النبي صلى الله عليه وآله على من قاتله، أرضاً فأرضاً، وقوماً فقوماً، فيأخذهم قراهم وأرضيهم، ـ عن الحسن وقتادة ـ. ومعناه: إنّا ننقصها من جانب المشركين، ونزيدها في جانب المسلمين.

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: أفهؤلاء الغالبون أم نحن؟ ومعناه: ليسوا بغالبين، ولكنّهم المغلوبون، ورسول الله صلى الله عليه وآله الغالب. وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة الرعد.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: قل يا محمّد إنّما أنذركم من عذاب الله، وأخوّفكم بما أوحى الله إليَّ.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ شبَّههم بالصمّ، الذين لا يسمعون النداء إذا نودوا؛ لأنّهم لم ينتفعوا بالسمع. والمعنى: أنّهم يستثقلون القرآن وسماعه، وذكر

الحقّ، فهم في ذلك بمنزلة الأصمّ الذي لا يسمع ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي: يخوفون.

النظم: إنّما إتّصل قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، وتقديره: أفهم الخالدون، أم لهم آلهة تمنع نفوسهم من الموت، وممّا ينزل الله بهم، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إتّصل بقوله: ﴿مَنْ يَكْلَؤُكُمْ﴾ أي: أم لهم آلهة تكلؤهم وتمنعهم. ووجه إتصال قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ بما قبله: أنّه إتّصل بقوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُمْ﴾ وتقديره: لو تفكّروا لعلموا أنّه لا عاصم من الله، وأنّ فيما أنذركم به من القرآن أعظم الآيات والحجج. وقيل: إنّه إتّصل بما تقدّم من العظة بحال من مضى من الأمم، والمعنى: أنّ ذلك وجميع ما نعظهم به من الوحي.

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً(١) وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر ونافع: مثقالُ حبّة ـ بالرفع ـ، وفي لقمان، مثله. والباقون: بالنصب. وقرأ: آتينا بها ـ بالمدّ ـ ابن عباس، وجعفر ابن محمّد عليه السلام،

(١) وقرء «ضياء» بهمزة، بدل الياء قبل الألف، وقد مرّ.

ومجاهد، وسعيد بن جبير، والعلاء بن سيابة. والباقون: أتينا ـ بالقصر ـ.

الحجة: وجه النصب: وإن كان الظلامة مثقال حبّة. وهذا أحسن؛ لتقدّم قوله ﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ فإذا ذكر ﴿تُظْلَمُ﴾ فكأنّه ذكر الظلامة، كقولهم: من كذب كان شراً له. ووجه الرفع أنه أسند الفعل إلى ﴿مِثْقَالَ﴾ كما أسند في قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُوْ عُسْرَةٍ﴾ أي: ذا عسرة. وكذلك قول الشاعر:

إذا كان يوم ذو كواكب اشهبا

ومن قرأ: آتينا، فهو «فاعلنا»، فهو من آتىٰ يؤآتِي مؤآتَاة، ـ عن ابن جنّي ـ. وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: معناه: جازينا بها. وعلى هذا فيجوز أن يكون من أفعلنا، ويكون مفعول «آتينا» محذوفاً، وتقديره: آتيناها بها للجزاء.

اللغة: النفحة: الوقعة اليسيرة تقع بهم، يقال: نَفَح يَنْفَح نَفْحاً، ونفح الطيب ينفَح فله نفحة طيّبة. ونفحت الدابّة: إذا رمت بحافرها، فضربت به. ونفحه بالسيف: إذا تناوله من بعيد. وأمّا حديث شريح: إنّه أبطل النفح، من نفح الدابّة، فالمعنى: أنّه كان لا يلزم صاحبها شيئاً. والقسط: العدل، وهو مصدر يوصف به. والتقدير: ونضع الموازين ذوات القسط.

الإعراب: ﴿شَيْئاً﴾: إنتصب، على أنّه مفعول ثان لتظلم. ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر أي: لا تظلم نفس ظلماً. ومن رفع ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾، فإنَّ «كان» تكون تامّة. ومن نصب، فإنَّ «كان» ناقصة، وإسمها: الضمير المستكن فيها، العائد إلى «شيء». ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾: قال الزجّاج: إنتصب قوله: ﴿حَاسِبِينَ﴾ على التمييز، أو على الحال، ودخلت الباء في ﴿بِنَا﴾؛ لأنّه خبر في معنى الأمر. والمعنى: إكتفوا بالله حسيباً.

وقد روي عن ابن عباس، أنّه قرأ: ﴿ضِيَاءً﴾ ـ بغير واو ـ، ويكون على هذا منصوباً على الحال من «الفرقان». ويجوز أن يكون مفعولاً له. وبالواو يكون عطفاً

على ﴿الْفُرْقَانَ﴾ وتكون الواو داخلة على ﴿ضِيَاءً﴾، وإن كان صفة في المعنى دون اللفظ، كما تدخل على الصفة التي هي صفة لفظاً. قال سيبويه: إذا قلت: مررت بزيد وصاحبك. وزيد هو الصاحب، جاز. ولو قلته بالفاء لم يجز، كما جاز بالواو؛ لأنّ الفاء تقتضي التعقيب، وتأخير الإسم عن المعطوف عليه، بخلاف الواو. ﴿وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾: في محلّ جرّ؛ لأنّه صفة للمتّقين. ويجوز أن يكون في محلّ نصب، أو رفع على المدح. و ﴿بِالْغَيْبِ﴾: في محلّ النصب على الحال.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم الإنذار بالعذاب، ذكر عقيبه: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أي: أصابهم طرف، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: قليل، ـ عن ابن كيسان ـ. وقيل: نصيب، ـ عن ابن جريج ـ. وقيل: بعض ما يستحقّونه من العقوبة، ـ عن أبي مسلم ـ. ﴿مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: يدعون بالويل والثبور عند نزوله.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: نضع الموازين ذوات القسط ليوم القيامة. وقيل: معناه: نحضر الموازين التي لا جور فيها، بل كلّها عدل وقسط لأهل يوم القيامة، أو في يوم القيامة. وقال قتادة: معناه: نضع العدل. في المجازاة بالحقّ لكل أحد على قدر إستحقاقه، فلا يبخس المثاب بعض ما يستحقّه، ولا يفعل بالمعاقب فوق ما يستحقّه. وقد سبق الكلام في الميزان في سورة الأعراف.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقص من إحسان محسن، ولا يزاد في إساءة مسيء.

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: جئنا بها. والمراد: أحضرناها للمجازاة بها ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي: عالمين حافظين، وذلك أنّ من حسب شيئاً علمه وحفظه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: محصين. والحسب: العدّ، ـ عن السدّي ـ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: أعطيناهما التوراة تفرّق بين الحقّ والباطل، ـ عن مجاهد وقتادة ـ. وقيل: البرهان الذي فرّق به بين حقّ موسى وباطل فرعون. وقيل: هو فلق البحر.

﴿وَضِيَاءً﴾ أي: وآتيناهما ضياء، وهو من صفة التوراة أيضاً، مثل قوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ والمعنى: أنّهم إستضاؤوا بها حتى إهتدوا في دينهم. ﴿وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾ يذكرونه، ويعملون بما فيه، ويتّعظون بمواعظه.

ثمّ وصف المتّقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أي: في حال الخلوة والغيبة عن الناس. وقيل: في سرائرهم من غير رياء ﴿وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ﴾ أي: من القيامة وأهوالها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ أراد به: القرآن، أنّه ذكر ثابت نافع، دائم نفعه إلى يوم القيامة. وقيل: سمّاه مباركاً؛ لوفور فوائده من المواعظ، والزواجر، والأمثال الداعية إلى مكارم الأخلاق، والأفعال. لمّا وصف التوراة، أتبعه ذكر القرآن الذي آتاه نبيّنا ﷺ.

﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ إستفهام على معنى التوبيخ أي: فلماذا تنكرونه، وتجحدونه مع كونه معجزاً.

النظم: وجه إتّصال قصّة موسى وهارون بما قبلها: أنّه لمّا تقدّم ذكر الوحي، بيّن عقيبه أنّ إنزال القرآن على نبيّه ليس ببدع، فقد أنزل على موسى وهارون التوراة. وقيل: إتّصل بقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ والمعنى: إنّ هؤلاء كما أنّهم إستهزؤوا بك، مع أنّا أنزلنا إليك الكتاب، فكذلك قد أنزلنا على موسى وهارون الكتاب، فكذّبوهما، وإستهزؤوا بهما.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ
﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ
لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

القراءة: قرأ الكسائي: جِذاذاً ـ بكسر الجيم ـ. والباقون: بضمّها. وفي الشواذّ، قراءة ابن عباس، وأبي السمّاك: بفتح الجيم[1].

الحجة: قال أبو حاتم: فيه لغات: جُذَاذ وجِذاذ، وأجودها الضمّ، كالحطام والرفات، من جذذت الشيء: إذا قطعته. قال النابغة:

تَجِذُّ السَّلُوقيَّ المُضاعَفَ نَسْجُهُ ... وَيُوقِدْنَ بِالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ[2]

---

(١) وسهّل الهمزة الثانية من «أنت» مع الفصل بالألف قالون، وأبو عمرو، وهشام، وبلا فصل ورش، وابن كثير، والباقون: بالتحقيق بغير ألف، وعن هشام روايتان أخريان.

(٢) تجذّ: أي تقطع، والضمير للسيوف، وصفها في بيت قبله، ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب. والسلوقي: هو الدرع، منسوب الى سلوقيّة قرية باليمن والمضاعف ←

وقال جرير:

بَـنُوالْـمُهَلَّبِ جَـدَّ اللَّـهُ دابِـرَهُمْ أمْسَوْا رِماداً فَلا أصْلٌ، وَلا طَرَفٌ

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم من قصّة موسى وهارون، بـقصّة إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أي: أعطينا ﴿إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ يعني: الحـجج التي توصله إلى الرشد، من معرفة الله، وتوحيده. وقيل: معناه: هداه أي: هـديناه صغيراً، ـ عن قتادة ومجاهد ـ. وقيل: هو النبوّة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى. وقيل: من قبل محمّد صلى الله عليه وآله والقرآن. وقيل: من قبل بلوغه.

﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أنّه أهل لإيتاء الرشد، وصالح للنبوّة ﴿إِذْ قَـالَ لِأَبِـيهِ وَقَوْمِهِ﴾ حين رآهم يعبدون الأصنام ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ والعامل في «إذ»، قوله: ﴿آتينا﴾ أي: آتيناه رشده في ذلك الوقت. والتمثال: إسم للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله. وأصله من مثّلت الشيء بالشيء: إذا شبّهته به. وإسم ذلك الممثَل: تمثال، وجمعه: تماثيل. وقيل: إنّهم جـعلوها أمـثلة لعلمائهم الذين إنقرضوا. وقيل: إنّهم جعلوها أمثلة للأجسام العلويّة، والمعنى: ما هذه الصور التي أنتم مقيمون على عبادتها. وروى العياشي، بإسناده عن الأصبغ ابن نباته، أنّ عليّاً عليه السلام مرَّ بقوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، لقد عصيتم الله ورسوله.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ فاقتدينا بـهم. إعـترفوا بـالتقليد؛ إذ لم يجدوا حجّة لعبادتهم إيّاها سوى إتّباع الآباء.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحـقّ ظاهر. ذمَّهم على تقليد الآباء، ونسبهم في ذلك إلى الضلال. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ

← النسج: صفة له. والصفّاح: حجارة عريضة: ونار الحباحب: ما يتطاير من الشرر من وقـع الحديد على الحجر [الجحر].

﴿أَنْتَ مِنْ اللاَّعِبِينَ﴾ معناه: أجادّ أنت فيما تقول، محقّ عند نفسك، أم لاعب مازح؟ وإنّما قالوا ذلك؛ لإستبعادهم إنكار عبادة الأصنام عليهم؛ إذ ألفوا ذلك وإعتادوه.

﴿قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي: بل إلهكم إله السماوات والأرض الذي خلقهنّ، وإبتدأهنّ. فدلّ على الله سبحانه بصنعه.

﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾ ومعنى هذه الشهادة تحقيق الأخبار والشاهد الدالّ على الشيء عن مشاهدة. فإبراهيم عليه السلام شاهد بالحقّ؛ لأنّه دالّ عليه بما يرجع إلى ثقة المشاهدة.

ثمّ أقسم إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي: لأدبّرنّ في بابهم تدبيراً خفيّاً يسوؤكم ذلك. وقيل: إنما قال ذلك في سرّ من قومه، ولم يسمع ذلك إلّا رجل منهم، فأفشاه، ـ عن قتادة ومجاهد ـ.

﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي: بعد أن تنطلقوا ذاهبين. قالوا: كان لهم في كل سنة مجمع وعيد، إذا رجعوا منه دخلوا على الأصنام، وسجدوا لها، فقالوا لإبراهيم عليه السلام: ألا تخرج معنا، فخرج. فلمّا كان ببعض الطريق، قال: أشتكي رجلي، وإنصرف.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾ أي: فجعل أصنامهم قطعاً قطعاً، ـ عن قتادة ـ. وقيل: حطاماً، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾ تركه على حاله. ويجوز أن يكون كبيرهم في الخلقة. ويجوز أن يكون أكبرهم عندهم في التعظيم. قالوا: جعل يكسرهنّ بفأس في يده حتى لم يبق إلّا الصنم الكبير، علّق الفأس في عنقه وخرج.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلّهم يرجعون إلى إبراهيم، فيسألونه عن حال الأصنام؛ لينبّههم على جهلهم. وقيل: لعلّهم يرجعون إلى الكبير، فيسألونه وهو لا ينطق، فيعلمون جهل من إتّخذوه إلهاً.

وفي الكلام هيهنا حذف، تقديره: فلمّا رجع قومه من عيدهم، فوجدوا أصنامهم مكسّرة ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ مَن هذه: الموصولة، تقديره: الذي فعل هذا بآلهتنا، فإنّه ظالم لنفسه؛ لأنّه يقتل إذا علم به. وقيل: إنّهم قالوا من فعل هذا؟ إستفهموا عمّن صنع ذلك، وأنكروا عليه فعله بقولهم: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ إذ فعل ما لم يكن له أن يفعله.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: قال الرجل الذي سمع من إبراهيم قوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ للقوم ما سمعه منه، فقالوا: سمعنا فتى يذكرهم بسوء. وقيل: إنّهم قالوا: سمعنا فتى يعيب آلهتنا، ويقول: إنّها لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فهو الذي كسرها. وعلى القول الأوّل، فإنّما قالوا: سمعنا فتى، وإن لم يسمعوه، كما يقال: سمعت الله يقول، أو سمعت الرسول يقول: إذا بلغك عنه رسالة على لسان ثقة صدوق. وقوله: ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ إرتفع إبراهيم على وجهين: أحدهما: يقال له هو إبراهيم، والمعروف به إبراهيم، وعلى النداء أي: يقال له يا إبراهيم ـ عن الزجّاج ـ.

قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ
فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ (١)

اللغة: النكس: هو أن يجعل أسفل الشيء أعلاه، ومنه: النكس في العلّة، وهو أن يرجع إلى أوّل حاله. ومنه: النكس: وهو السهم الذي ينكسر فوقه، فيجعل أعلاه أسفله. ويقال للمائق أيضاً: نكس؛ تشبيهاً بذلك.

الإعراب: ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾: في موضع الحال أي: مرئياً مشهوداً ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾: هذا من وقف على ﴿فَعَلَهُ﴾، ففاعله مضمر، وتقديره: فعله من فعله. و ﴿كَبِيرُهُمْ﴾: مبتدأ و«هذا» خبره. ومن لم يقف على ﴿فَعَلَهُ﴾، فكبيرهم فاعله، «وهذا» يكون صفة لكبيرهم، أو بدلا عنه. وجواب الشرط الذي هو قوله: ﴿إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ محذوف، يدلّ عليه قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ﴾ على الوجه الثاني. ويقتضي أن يكون للشرط جزاءان على هذا، والجزاء الثاني معطوف على الأوّل، التقدير: إن كانوا ينطقون، فقد فعله كبيرهم هذا، فاسألوهم. والمعنى: إن لم يقدروا على النطق لم يقدروا على الفعل.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه ما جرى بين إبراهيم وقومه في أمر الأصنام، بقوله: ﴿قَالُوا﴾ يعني: قوم إبراهيم ﴿فَأْتُوا بِهِ﴾ أي: فجيئوا به ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: بحيث يراه الناس، ويكون بمشهد منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما قاله،

---

(١) سهّل الهمزة الثانية من «أنت» مع الفصل بالألف أبو عمرو، وقالون، وبلا فصل ورش، وابن كثير. وعن هشام: ثلث روايات، وقرأ: «فسلوهم» ـ بالنقل ـ ابن كثير، والكسائي. ومضى الإختلاف في «أفّ» في الأسراء.

فيكون ذلك حجّة عليه بما فعل، عن الحسن وقتادة والسدّي قالوا: كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة. وقيل: معناه: لعلّهم يشهدون عقابه، وما يصنع به أي: يحضرونه، ـ عن ابن إسحاق والضحّاك ـ.

﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ المعنى: فلمّا جاؤوا به، قالوا له هذا القول، مقرّرين له على ذلك. فأجابهم إبراهيم عليه السلام بأن ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ إختلفوا في معناه، وتقديره على وجوه:

أحدها: إنّه مقيّد بقوله: ﴿إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ والتقدير: فقد فعله كبيرهم إن نطقوا فاسألوهم. فقد علَّق الكلام بشرط لا يوجد، فلا يكون كذباً، ويكون كقول القائل: فلان صادق فيما يقول إن لم يكن فوقنا سماء.

وثانيها: إنّه خرج مخرج الخبر، وليس بخبر إنّما هو إلزام يدلُّ عليه الحال، فكأنّه قال ما تنكرون أن يكون فعله كبيرهم هذا. والإلزام يأتي تارة بلفظ السؤال، وتارة بلفظ الأمر، وتارة بلفظ الخبر. وربما يكون أحد هذه الأمور أبلغ فيه. ووجه الإلزام أنّ هذه الأصنام إن كانت آلهة كما تزعمون، فإنّما فعل ذلك بهم كبيرهم؛ لأنّ غير الإله لا يقدر أن يكسر الآلهة.

وثالثها: إنّ تقديره: فعله من فعله، على ما تقدَّم ذكره، وهو قول الكسائي. وأمّا ما ذكر فيه أنّه أراد به الخبر عن الكبير، وقال: إنّه غضب من أن يعبد معه الصغار فكسرهنَّ.

وما روي في ذلك من أنّ إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سقيم﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله في سارة، لمّا أراد الجبّار أخذها، وكانت زوجته: ﴿إِنَّهَا أُخْتِي﴾ فممّا لا يعوّل عليه. فقد دلَّت الأدلّة العقليّة التي لا تحتمل التأويل على أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم الكذب، وإن لم يقصدوا به غروراً ولا ضرراً، كما لا يجوز عليهم التعمية في الأخبار، ولا التقيّة؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى

التشكّك في إخبارهم.

وكلام إبراهيم عليه السلام يجوز أن يكون من المعاريض، فقد أبيح ذلك عند الضرورة، وقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: إن الكذب لا يصلح في جدّ ولا هزل.

وقد قيل في تفسير قوله: ﴿إِنِّي سَقِيم﴾: إنّ معناه: إنّي سأسقم؛ لأنّه لمّا نظر إلى بعض النجوم علم وقت نوبة حمى، كانت تأتيه، فقال: إنّي سأسقم. وقيل: معناه: إنّي سقيم عندكم فيها أدعوكم إليه، وسنذكر الكلام فيه في موضعه.

وأمّا قوله في سارة: ﴿إِنّها أُختي﴾: فإنّما أراد في الدين، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخوَة﴾ وقد دلَّ الدليل العقليّ على أنّ الكذب قبيح؛ لكونه كذباً، فلا يحسن على وجه من الوجوه.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ معناه: فرجع بعضهم إلى بعض، وقال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون حيث تعبدون ما لا يقدر على الدفع عن نفسه، وما نرى الأمر إلّا كما قال. وقيل: معناه: فرجعوا إلى عقولهم، وتدبّروا في ذلك؛ إذ علموا صدق إبراهيم عليه السلام فيما قاله، وحاروا عن جوابه، فأنطقهم الله بالحقّ فقالوا: إنّكم أنتم الظالمون هذا الرجل في سؤاله، وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها. ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ إذ تحيَّروا، وعلموا أنّها لا تنطق.

ثمّ إعترفوا بما هو حجّة عليهم، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا إبراهيم ﴿مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف نسألهم؟ فأجابهم إبراهيم بعد إعترافهم بالحجّة ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي: أفتوجّهون عبادتكم إلى الأصنام، التي لا تنفعكم شيئاً إن عبدتموها، ولا تضرّكم إن تركتموها؛ لأنّها لو قدرت على نفعكم وضرّكم، لدفعت عن أنفسها من دون الله سبحانه، الذي يقدر على ضرركم ونفعكم، على أنّه ليس كل من قدر على الضرّ والنفع، إستحقَّ العبادة، وإنّما يستحقّها من قدر على أصول النعم، التي هي الحياة، والشهوة، والقدرة، وكمال

العقل، وقدر على الثواب والعقاب.

ثمّ قال إبراهيم عليه السلام مهجِناً لأفعالهم، مستقذراً لها: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قال الزجّاج: معنى أفّ لكم: تبّاً لأعمالكم، وأفعالكم. وقد ذكرنا إختلاف القرّاء فيه، وما قيل في تفسيره في سورة بني إسرائيل.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتفكّرون بعقولكم، في أنّ هذه الأصنام لا تستحقّ العبادة.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ والمعنى: فلمّا سمعوا منه هذا القول، قال بعضهم لبعض: حرّقوه بالنار ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ أي: وإدفعوا عنها، وعظّموها ﴿إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم ناصريها. والمعنى: فلا تنصرونها إلّا بتحريقه بالنار. قال ابن عمر ومجاهد: إنّ الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار، رجل من أكراد فارس، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. وقال وهب: إنما قاله نمرود، وفي الكلام حذف. قال السدّي: فجمعوا الحطب حتى أنّ الرجل منهم ليمرض، فيوصي بكذا وكذا من ماله، فيشترى به حطب، وحتى أنّ المرأة لتغزل، فتشتري به حطباً، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا، فلمّا أرادوا أن يلقوا إبراهيم عليه السلام في النار، لم يدروا كيف يلقونه، فجاء إبليس فدلّهم على المنجنيق، وهو أوّل منجنيق صنعت. فوضعوه فيها، ثمّ رموه.

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ معناه: فلمّا جمعوا الحطب، وألقوه في النار، قلنا للنار ذلك. وهذا مَثَل، فإنّ النار جماد، لا يصحّ خطابه، والمراد: إنّا جعلنا النار برداً عليه وسلامة، لا يصيبه من أذاها شيء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ والمعنى: إنّه صيَّرهم كذلك، لا أنّه خاطبهم، وأمرهم بذلك. وقيل: يجوز أن يتكلّم الله سبحانه بذلك، ويكون ذلك صلاحاً للملائكة، ولطفاً لهم.

وذكر في كون النار برداً على إبراهيم وجوه: أحدها: إنّ الله سبحانه أحدث فيها برداً، بدلاً من شدّة الحرارة التي فيها، فلم تؤذّه.

وثانيها: إنّ الله سبحانه حال بينها وبينه، فلم تصل إليه.

وثالثها: إنّ الإحراق إنّما يحصل بالإعتمادات التي في النار صعداً. فيجوز أن يذهب سبحانه تلك الإعتمادات. وعلى الجملة فقد علمنا أنّ الله سبحانه منع النار من إحراقه، وهو أعلم بتفاصيله. قال أبو العالية: لو لم يقل سبحانه: ﴿وَسَلاَماً﴾ لكانت تؤذيه من شدّة بردها، ولكان بردها أشدّ عليه من حرّها، فصارت سلاماً عليه. ولو لم يقل: ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ لكان بردها باقياً على الأبد. وقال أبو عبدالله عليه السلام: لمّا أجلس إبراهيم عليه السلام، في المنجنيق، وأرادوا أن يرموا به في النار، أتاه جبرائيل عليه السلام فقال: السلام عليك يا إبراهيم ورحمة الله وبركاته. ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. فلمّا طرحوه دعا الله، فقال: يا الله، يا واحد، يا أحد، يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فحسرت النار عنه، وإنّه لمحتب، ومعه جبرائيل عليه السلام، وهما يتحدّثان في روضة خضراء.

وروى الواحدي، بالإسناد مرفوعاً إلى أنس بن مالك، عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: إنّ نمرود الجبّار، لمّا ألقى إبراهيم عليه السلام في النار، نزل إليه جبرائيل عليه السلام بقميص من الجنّة، وطنفسة من الجنّة، فألبسه القميص، وأقعده على الطنفسة[1]، وقعد معه يحدّثه. تمام الخبر. وقال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم عليه السلام غير وثاقه(١). وقيل: إنّ إبراهيم عليه السلام ألقي في النار، وهو ابن ستّ عشرة سنة.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ معناه: إنّ الكفّار أرادوا بإبراهيم عليه السلام كيداً أي: شرّاً، وتدبيراً في إهلاكه. ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو أن سلّط الله على

---

(١) الحبل.

[١] الطنفسة: البساط. الحصير.

نمرود، وخيله، البعوض، حتى أخذت لحومهم، وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في دماغه حتى أهلكته. والمعنى: أنّهم كادوه: أرادوا أن يكيدوه بسوء، فانقلب عليهم ذلك.

وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً (١) يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

(اللغة): النافلة: العطيّة الخاصّة. والنفل: النفع الذي يجرّ الحمد فيما زاد على حدّ الواجب. ومنها: النافلة للصلاة، وهي الفضل على الفرائض. وقيل: النافلة الغنيمة. قال: لله نافلة الأعزّ الأفضل.

(الإعراب): ﴿نَافِلَةً﴾: نصب، على الحال من ﴿يَعْقُوبَ﴾. وقيل: إنّه نصب، على المصدر من ﴿وَهَبْنَا﴾، وتقديره. وهبنا له هبة. و ﴿يَهْدُونَ﴾: صفة لأئمّة. ومفعولاه محذوفان، تقديره: يهدون الناس الطريق. وحذف التاء من «إقامة»؛ لأنّ الإضافة عوّض عنها، ولا يجوز ذلك في غير الإضافة. لا يقال: أقام إقاماً، كما يقال: إقامة. و ﴿لُوطًا﴾: منصوب بفعل مضمر، يفسّره هذا الظاهر، تقديره: وآتينا

(١) أئمة: خفّف الهمزة الثانية الحرميّان، وأبو عمرو، وإما بين بين، وإمّا بإبدالها ياء. وأثبت الألف بينهما أبو جعفر.

لوطاً آتيناه إلّا أنّه إذا ذكر المحذوف، لم يذكر الموجود. والنصب في ﴿لُوطاً﴾ أحسن؛ لتكون الجملة فعليّة، معطوفة على جملة فعليّة.

و ﴿فَاسِقِينَ﴾: يجوز أن يكون منصوباً بكونه صفة لـ ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾، ويجوز أن يكون خبراً لكان، ويكون خبراً بعد خبر.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه تمام نعمته على إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي: من نمرود، وكيده. والمعنى: ورفعناه ﴿وَلُوطاً﴾ من الهلكة، وهو ابن أخي إبراهيم، فآمن به.

﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أختلف فيها، فقيل: هي أرض الشام أي: نجّيناه من كُوثى[1] إلى الشام، عن قتادة قال: وإنّما قال: باركنا فيها؛ لأنّها بلاد خصب. وقيل: إلى أرض بيت المقدس؛ لأنّ بها مقام الأنبياء، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: نجّاهما إلى مكّة، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾ ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ أي: وهبنا لإبراهيم إسحاق حين سأل الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال ابن عباس وقتادة: نافلة راجع إلى يعقوب، فإنّه زاده من غير دعا، فهو نافلة. وقيل: إنّه راجع إلى إسحاق ويعقوب جميعاً؛ لأنّه أعطاهما إيّاه من غير جزاء، ولا إستحقاق، ـ عن مجاهد ـ.

---

(١) حكم ذلك في شرعنا أنّ صاحب الغنم يضمن إن كان مقصّراً في حفظها، وصيانتها، وإلّا فلا ضمان. نعم العادة جارية بحفظ الأنعام ليلاً، وتسريحها نهاراً، فعلى صاحب الزرع حفظ زرعه عن الماشية، وليس على صاحب الغنم حفظها، وإلّا لبطل السوم، مع أنّه جائز. وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جرح العجماء جبار أي: هدر، وهذا إذا لم يفرط صاحبه، وأمّا تعيين مال الضمان، فعلى الضامن أن يعينه من الغنم، أو من مال آخر، لا على الحاكم، إلّا إذا إمتنع، فإن إمتنع، عيّنه الحاكم في كل مال رآه أصلح، فراى داود عليه السلام تعيين الغنم، ورأى سليمان عليه السلام تعيينه في منافعها. وكلاهما صحيح، إلّا أنّ الثاني أنفع، وأسهل عليهما.

﴿وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: وجعلنا إبراهيم و إسحاق ويعقوب صالحين للنبوّة، والرسالة. وقيل: معناه: حكمنا بكونهم صالحين سمّيناهم صالحين، وهو غاية ما يوصف به من الثناء الجميل.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدي بهم في أفعالهم، وأقوالهم، ﴿يَهْدُونَ﴾ الخلق إلى طريق الحقّ، وإلى الدين المستقيم. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ فمن إهتدى بهم في أقوالهم وأفعالهم، فالنعمة لنا عليه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ قال ابن عباس: شرائع النبوّة. ﴿وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ﴾ أي: إقامة الصلاة ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ أي: إعطاء الزكاة ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي: مخلصين في العبادة.

﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ ومعناه: وأعطينا لوطاً حكمة، وعلماً. وقيل: الحكم: النبوّة. وقيل: هو الفصل بين الخصوم بالحقّ أي: جعلناه حاكماً، وعلّمناه ما يحتاج إلى العلم به.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ وهي قرية «سدوم» على ما روي. والخبائث التي كانوا يعملونها، هي أنّهم كانوا يأتون الذكران في أدبارهم، ويتضارطون في أنديتهم. وقيل: هي ما حكى الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ وغير ذلك من القبائح. وأراد بالقرية أهلها.

ثمّ ذمّهم، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله تعالى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي: في نعمتنا، ومنّتنا. ﴿إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ أي: بسبب أنّه من الصالحين، الذين أصلحوا أفعالهم، فعملوا بما هو الحسن منها، دون القبيح. وقيل: أراد بكونه من الصالحين، أنّه من الأنبياء.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ
فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن عامر، وحفص، عن عاصم، وروح وزيد، عن يعقوب: ﴿لتحصنكم﴾ ـ بالتاء ـ. وقرأ أبو بكر عن عاصم، ورويس عن يعقوب: ﴿لنحصنكم﴾ ـ بالنون ـ. والباقون: ﴿ليحصنكم﴾ ـ بالياء ـ.

الحجة: من قرأ بالياء، فيجوز أن يكون الفاعل إسم الله؛ لتقدّم قوله: ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾. ويجوز أن يكون اللباس؛ لأنّ اللبوس بمعنى: اللباس. ويجوز أن يكون داود. ومن قرأ بالتاء، حمله على المعنى؛ لأنّ الدرع مؤنّث. ومن قرأ بالنون؛ فلتقدّم قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾.

اللغة: النفش ـ بفتح الفاء وسكونها ـ: أن تنتشر الإبل، والغنم بالليل، فترعى بلا راع. يقال: غنم نفاش، وإبل نفاش. واللبوس: إسم للسلاح كله عند العرب درعاً كان، أو جوشناً، أو سيفاً، أو رمحاً. قال الهذلي يصف رمحاً:

ومَـعِي لَـبُوسٌ لِـلْبَئِيسِ كَأَنَّـهُ رَوْق بِجَبْهَةِ ذِي نِعاج مُجْفِل[١]

وقيل: هو كل ما يلبس من ثياب، ودرع. وقيل: هو الدرع، وأصل اللباس من الإختلاط، ومنه: سمّيت المرأة لباساً، وسمّي الليل لباساً؛ لأنّه يباشر النـاس بظلمته. والإحصان: الإحراز، وأصله من المنع.

﴿الإعراب﴾: ﴿وَنُوحاً﴾: معطوف على قـوله: ولوطاً. وقـوله: ﴿إِذْ نَـفَشَتْ﴾ ظرف لقوله: ﴿يَحْكُمَانِ﴾. وقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ يجوز أن يكون في موضع الجرّ؛ بالعطف على ﴿يَحْكُمَانِ﴾ أي: وقت حكمهما في الحـرث وكـوننا شاهدين له. ويجوز أن يكون في موضع النصب، على الحال. ﴿وَكُلاًّ﴾: منصوب؛ لأنّه مفعول أوّل لآتينا. و ﴿حكماً﴾ مفعول ثان له. ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: في موضع نصب، على الحال من «الجبال» ﴿والطَّيْرَ﴾: عطف على «الجبال». ويـجوز أن يكـون مفعولاً معه، وتقديره: يسبّحن مع الطير. فيكون «الواو» بمعنى «مع».

﴿المعنى﴾: ثمّ عطف سـبحانه قـصّة نـوح، وداود، وسـليمان، عـلى قـصّة إبراهيم عليه السلام، ولوط، فقال: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى﴾ أي: دعا ربّه، فقال: ﴿رَبِّ لاَ تَـذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾، وقال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾، وغير ذلك.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إبراهيم، ولوط ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبناه إلى ما إلتمسه. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من الغمّ الذي يصل حـرّه إلى القلب، وهو ما كان يلقاه من الأذى طول تلك المدّة، وتـحمّل الإسـتخفاف مـن السقاط من أعظم الكرب.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: منعناه منهم بالنصرة حتى لم يصلوا إليه بسوء. وقيل: معناه: نصرناه على القوم. ومِنْ بمعنى «على»، ـ عن أبي

---

(١) يشبه رمحه بقرن الكبش الجبلي. والروق: القرن. والمجفل: المسرع. والبأس: الشدّة في الحرب.

عبيدة ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ صغارهم وكبارهم، وذكورهم وإناثهم.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي: وآتينا داود، وسليمان، حكماً وعلماً؛ إذ يحكمان. وقيل: تقديره: واذكر داود، وسليمان حين يحكمان في الحرث، في الوقت الذي نفشت فيه غنم القوم أي: تفرَّقت ليلاً.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي: بحكمهم عالمين لم يغب عنّا منه شيء. وإنّما جمع في موضع التثنية؛ لإضافة الحكم إلى الحاكم وإلى المحكوم لهم. وقيل: لأنّ الإثنين جمع، فهو مثل قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ وهو يريد أخوين.

وأختلف في الحكم الذي حكما به، فقيل: إنّه زرع وقعت فيه الغنم ليلاً فأكلته، ـ عن قتادة ـ. وقيل: كان كرماً وقد بدت عَناقِيدُه، فحكم داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبيّ الله! قال: وما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، ويدفع الغنم إلى صاحب الكرم، فيصيب منها حتى إذا عاد الكرم كما كان، ثمّ دفع كل واحد منهما إلى صاحبه ماله، ـ عن ابن مسعود، وروي ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهم السلام ـ. وقال الجبائي: أوحى الله تعالى إلى سليمان عليه السلام بما نسخ به حكم داود، الذي كان يحكم به قبل، ولم يكن ذلك عن إجتهاد؛ لأنّه لا يجوز للأنبياء أن يحكموا بالإجتهاد، وهذا هو الصحيح المعوَّل عليه عندنا.

وقال عليّ بن عيسى، والبلخي: يجوز أن يكون ذلك عن إجتهاد؛ لأنّ رأي النبيّ، أفضل من رأي غيره. فإذا جاز التعبّد بإلتزام حكم غير النبيّ صلى الله عليه وآله من طريق الإجتهاد، فكيف يمنع من حكم النبيّ على هذا الوجه. والذي يدلُّ على صحّة القول الأوّل: أنّ النبيّ إذا كان يوحى إليه، وله طريق إلى العلم بالحكم، فلا يجوز

أن يحكم بالظنّ. على أنّ الحكم بالظنّ والإجتهاد والقياس قد بيَّن أصحابنا في كتبهم، أنّه لم يتعبّد بها في الشرع، إلّا في مواضع مخصوصة، وردّ النصّ بجواز ذلك فيها، نحو: قِيَم المتلفات، وأروش الجنايات، وجزاء الصيد، والقبلة، وما جرى هذا المجرى. وأيضاً فلو جاز للنبيّ أن يجتهد، لجاز لغيره أن يخالفه، كما يجوز للمجتهدين أن يختلفا. ومخالفة الأنبياء تكون كفراً. هذا وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحيٌ يُوحَى﴾ فأخبر سبحانه أنّه إنّما ينطق عن جهة الوحي[١].

ويقوّي ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي: علَّمناه الحكومة في ذلك. وقيل: إنّ سليمان قضى بذلك، وهو ابن إحدى عشرة سنة[٢]. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قضى بحفظ المواشي على أربابها ليلاً، وقضى بحفظ الحرث على أربابه نهاراً.

﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ أي: وكل واحد من داود وسليمان أعطيناه حكمة. وقيل: معناه: النبوة، وعلم الدين، والشرع.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ قيل: معناه: سيَّرنا الجبال مع

---

(١) قال الفاضل المقداد: ظاهر الكلام أنّ الحكمين صوابان لقوله تعالى، وكلّا أتياه حكماً وعلماً، ولا منافاة بين المصلحة والأصلح. وعليهذا فلا يكون الثاني ناسخاً للأوّل. وقال بهذا يخرج الجواب عن السؤال الأوّل، وعن القول بلزوم البداء، انتهى ملخصاً. ويعني بكلامه الأخير، أن حكمهماعليهما السلام لم يكن بإجتهاد، بل بوحي، فإن قيل: يلزم البداء، فإنّ نسخ الحكم قبل وقته بداء. قلنا: انّه ليس نسخاً، ولا بداء؛ لعدم المنافاة.

(٢) تبيّن من كلام المقداد أنّ الإجتهاد غير جائز على الأنبياء، والبداء غير جائز على الله تعالى. والمراد بالإجتهاد: تحصيل الحكم بالأمارات الظنّيّة، كالرأي، والقياس، لا ممّا ثبت حجّيّته بالدليل، كإستخراج حكم الخاصّ، كخيار الغبن من العام كنفي الضرر. والمراد بالبداء: ظهور الرأي بعد خفائه، وهو غير جائز عليه تعالى عند الطائفة، وما ورد في الحديث، فلفظ البداء فيه على غير إصطلاح المتكلّمين.

داود حيث سار، فعبَّر عن ذلك بالتسبيح؛ لما فيه من الآية العظيمة التي تدعو إلى تسبيح الله، وتعظيمه، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به. وكذلك تسخير الطير له تسبيح. يدلّ على أنّ مسخّرها قادر لا يجوز عليه ما يجوز على العباد، ـ عن الجبائي، وعليّ بن عيسى ـ. وقيل: إنّ الجبال كانت تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير يسبّح معه بالغداة والعشيّ، معجزة له، ـ عن وهب ـ.

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: قادرين على فعل هذه الأشياء، ففعلناها دلالة على نبوّته.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ أي: علَّمناه كيف يصنع الدرع. قال قتادة: أوّل من صنع الدرع داود عليه السلام، وإنّما كانت صفائح جعل الله سبحانه الحديد في يده كالعجين، فهو أوّل من سردها وحلقها، فجمعت الخفة والتحصين، وهو قوله: ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: ليحرزكم، ويمنعكم من وقع السلاح فيكم، ـ عن السدّي ـ. وقيل: معناه: من حربكم أي: في حالة الحرب والقتال، فإنّ البأس في اللغة هو شدّة القتال.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ لنعم الله تعالى عليكم، وعلى أنبيائه قبلكم. وهذا تقرير للخلق على شكره، فإنّ إنعامه على الأنبياء، إنعام على الخلق. وقيل: إنّ سبب إلانة الحديد لداود عليه السلام؛ أنّه كان نبيّاً ملكاً، وكان يطوف في ولايته متنكّراً، يتعرّف أحوال عمّاله ومتصرّفيه، فإستقبله جبرئيل ذات يوم على صورة آدميّ، فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، وقال: ما سيرة داود؟ فقال: نعمت السيرة لولا خصلة فيه! قال: وما هي؟ قال: إنّه يأكل من بيت مال المسلمين. فتنكره [فشكره] وأثنى عليه، وقال: لقد أقسم داود أنّه لا يأكل من بيت مال المسلمين. فعلم الله سبحانه صدقه، فألان له الحديد، كما قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾. وروي أنّ لقمان الحكيم حضره، فرآه يفعل ذلك، فصبر ولم يسأله حتى فرغ من ذلك، فقام ولبس وقال:

نعمت الجنّة للحرب. فقال لقمان: الصمت حكمة، وقليل فاعله.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ
ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ
ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ
ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ (١) وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ
وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

اللغة: الريح: هو الجوّ يشتدُّ تارة ويضعف تارة، وهي جسم لطيف منعش [منفش]، يمتنع يلطفه من القبض عليه، ويظهر للحسّ بحركته. والعصوف: شدّة حركة الريح، عصفت تعصف عَصفاً وعصوفاً: إذا إشتدّت. والعصف: التبن؛ لأنّ الريح تعصفه بتطييرها له.

الإعراب: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾: اللام يتعلّق بسخّرنا. والتقدير: وسخّرنا لداود الجبال، وسخّرنا لسليمان الريح. ﴿عَاصِفَةً﴾: نصب، على الحال ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ في موضع الحال أيضاً، فهو حال بعد حال. ويحتمل أن يكون حالاً عن الحال التي

---

(١) فتح الياء من «مسّني الضرّ» غير حمزة.

هي «عاصفة». و ﴿مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾: عطف على «الريح». ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾: في موضع نصب، على الحال من «سخّرنا»، وذو الحال: ﴿مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾. ويجوز أن يكون حالاً من يغوصون له، وذو الحال: الواو. و ﴿مَّعَهُم﴾: في موضع نصب؛ على أنّه صفة بعد صفة، تقديره: وأهلاً مثلهم كائنين معهم. وإنتصب ﴿رَّحْمَةً﴾ بأنه مفعول له.

المعنى: ثمّ عطف سبحانه بقصّة سليمان على ما تقدَّم، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أي: وسخَّرنا لسليمان الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ أي: شديدة الهبوب. قال ابن عباس: إذا أراد أن تعصف الريح عصفت، وإذا أراد أن ترخي رَخَت. وذلك قوله: ﴿رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي: بأمر سليمان ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام؛ لأنها كانت مأواه. وقد سبق ذكرها في هذه السورة. وقيل: كانت الريح تجري به في الغداة مسيرة شهر، وفي الرواح كذلك. وكان يسكن بعلبك، ويبنى له بيت المقدس، ويحتاج إلى الخروج إليها، وإلى غيرها. قال وهب: وكان سليمان يخرج إلى مجلسه، فتعكف عليه الطير، ويقوم له الجنّ والإنس، حتى يجلس على سريره، ويجتمع معه جنوده، ثمّ تحمله الريح إلى حيث أراد.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ فإنّما أعطيناه ما أعطيناه؛ لما علَّمناه من المصلحة.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي: وسخَّرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر، فيخرجون له الجواهر واللآلىء. والغوص: النزول إلى تحت الماء.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: سوى ذلك من الأبنية كالمحاريب والتماثيل، وغيرهما ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ لئلّا يهربوا منه، ويمتنعوا عليه. وقيل:

يحفظهم الله من أن يفسدوا ما عملوه، ـ عن الفرّاء والزجاج ـ.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي: واذكر يا محمّد أيّوب، حين دعا ربّه لمّا إشتدّت المحنة به ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أي: نالني الضرُّ، وأصابني الجهد.

﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: لا أحد أرحم منك من عبادك. وهذا تعريض منه بالدعاء لإزالة ما به من البلاء، وهو من لطيف الكنايات في طلب الحاجات، ومثله. قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبنا دعاءه ونداءه ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي: أزلنا ما به من الأوجاع والأمراض.

﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود: ردَّ الله سبحانه عليه أهله الذين هلكوا بأعيانهم، وأعطاه مثلهم معهم، وكذلك ردَّ الله عليه أمواله ومواشيه بأعيانها، وأعطاه مثلها معها، وبه قال الحسن وقتادة، وهو المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: إنّه خُيِّر أيّوب فاختار إحياء أهله في الآخرة، ومثلهم في الدنيا، فأوتي على ما إختار، ـ عن عكرمة ومجاهد ـ. قال وهب: وكان له سبع بنات وثلاثة بنين. وقال ابن يسار: سبعة بنين وسبع بنات.

﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: نعمة منّا عليه ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ أي: موعظة لهم في الصبر، والإنقطاع إلى الله تعالى، والتوكّل عليه؛ لأنّه لم يكن في عصر أيّوب أحد أكرم على الله منه، فإبتلاه بالمحن العظيمة، فأحسن الصبر عليها. فينبغي لكل عاقل إذا أصابته محنة أن يصبر عليها، ولا يجزع، ويعلم أنّ عاقبة الصبر محمودة.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي: واذكر هؤلاء الأنبياء، وما أنعمت عليهم من فنون النعمة.

ثمّ قال: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ صبروا على بلاء الله، والعمل بطاعته. فأمّا إسماعيل، فإنّه صبر ببلد لا زرع به ولا ضرع، وقام ببناء الكعبة. وأمّا إدريس، فإنّه

صبر على الدعاء إلى الله، وكان أوّل من بعث إلى قومه، فدعاهم إلى الدين فأبوا، فأهلكهم الله تعالى، ورفعه إلى السماء السادسة. وأما ذو الكفل، فأختلف فيه، فقيل: إنّه كان رجلاً صالحاً، ولم يكن نبيّاً، ولكنّه تكفّل لنبيّ بصوم النهار، وقيام الليل، وأن لا يغضب، ويعمل بالحقّ، فوفى بذلك، فشكر الله ذلك له، ـ عن أبي موسى الأشعري وقتادة ومجاهد ـ. وقيل: هو نبيّ إسمه ذو الكفل، عن الحسن قال: ولم يقصّ الله خبره مفصّلاً. وقيل: هو إلياس، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: كان نبيّاً، وسمّي ذا الكفل، بمعنى أنّه ذو الضعف، فله ضعف ثواب غيره ممّن هو في زمانه؛ لشرف عمله، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: هو اليسع بن خطوب الذي كان مع إلياس، وليس اليسع الذي ذكره الله في القرآن. تكفل لملك جبّار، إن هو تاب دخل الجنّة، ودفع إليه كتاباً بذلك، فتاب الملك، وكان إسمه كنعان، فسمّي ذا الكفل. والكفل في اللغة هو الحظّ.

وفي كتاب النبوّة، بالإسناد عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام أسأله عن ذي الكفل، وما إسمه، وهل كان من المرسلين؟ فكتب عليه السلام: إن الله بعث مائة ألف نبيّ، وأربعة وعشرين ألف نبيّ، المرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وإنّ ذا الكفل منهم، وكان بعد سليمان بن داود عليه السلام، وكان يقضي بين الناس، كما يقضي داود عليه السلام، ولم يغضب قطُّ إلّا لله تعالى، وكان إسمه عدويا بن أدارين.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي: وأدخلنا هؤلاء الذين ذكرناهم من الأنبياء في نعمتنا، وأراد: غمرناهم بالرحمة. ولو قال: رحمناهم، لما أفاد ذلك، بل أفاد أنّه فعل بهم الرحمة.

﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إنّما أدخلناهم في رحمتنا؛ لأنّهم كانوا ممّن صلحت أعمالهم.

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ
فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي
كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَـٰهُ
مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ[1]
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدًا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا
لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ
وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

القراءة: قرأ يعقوب: ﴿فظنّ أن لن يُقْدَرَ﴾ ـ بضمّ الياء ـ. والباقون: ﴿نقدِر﴾ ـ بالنون وكسر الدال ـ. وقرأ ابن عامر وأبو بكر: ﴿نجّي﴾ ـ بنون واحدة وتشديد الجيم ـ. والباقون: ﴿ننجي﴾ ـ بالنونين ـ.

الحجة: قوله: ﴿أَن لَّن نَّقدِرَ عَلَيْهِ﴾ أنْ هذه: مخفّفة من الثقيلة، وتقديره: ظنّ أنّه لن نقدر عليه أي: لن نضيق عليه. ومن قرأ: ﴿لن يقدر عليه﴾: فهو مثل الأوّل في المعنى، بني الفعل للمفعول به، وأُقيم الجارّ والمجرور مقام الفاعل. ومن قرأ: ﴿نجّي المؤمنين﴾ ـ بنون واحدة ـ قال أبو بكر السرّاج: هو وهم؛ لأنّ النون لا تدغم في الجيم، وإنّما خفيت؛ لأنّها ساكنة تخرج من الخياشيم [شم]، فحذفت في الكتابة، وهي في اللفظ ثابتة. قال أبو علي: والقول في ذلك إنّ عاصماً ينبغي أن يكون قرأ بنونين، وأخفى الثانية، فظنّ السامع أنّه مدغم، وكذلك غيره.

---

(١) زكرياء: بالمدّ، ابن عامر، وأبو عمرو، والحرميان، وأبو بكر. وبالقصر، حفص، وحمزة، والكسائي وعلى المدّ يجتمع همزتان، حقّقهما أبو بكر، وابن عامر، وسهّل الثانية الباقون.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه قصّة يونس عليه السلام، فقال: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ أي: واذكر ذا النون. والنون: الحوت، وصاحبها: يونس بن متى ﴿إِذْ ذَهَبَ﴾ أي: حين ذهب ﴿مُغَاضِباً﴾ لقومه، ـ عن ابن عباس والضحّاك ـ. أي: مراغماً لهم من حيث إنّه دعاهم إلى الإيمان مدّة طويلة، فلم يؤمنوا، حتى أوعدهم الله بالعذاب. فخرج من بينهم مغاضباً لهم، قبل أن يؤذن له.

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: لن نضيق عليه، ـ عن عطا وجماعة من المفسّرين ـ. وقيل: ظنّ أن لن نقضي عليه ما قضيناه، والقدر بمعنى القضاء، ـ عن مجاهد وقتادة والكلبي والجبائي ـ. قال الجبائي: ضيَّق الله عليه الطريق حتى ألجأه إلى ركوب البحر، ثمّ قذف فيه فإبتلعته السمكة.

ومن قال: إنّه خرج مغاضباً لربّه، وإنّه ظنّ أن لن يقدر الله على أخذه، بمعنى أنّه يعجز عنه، فقد أساء الثناء على الأنبياء، فإنّ مغاضبة الله كفرٌ، أو كبيرة عظيمة، وتجويز العجز على الله سبحانه كذلك، فكيف يجوز ذلك على نبيّ من أنبياء الله تعالى. وقال ابن زيد: إنّه إستفهام، معناه التوبيخ، وتقديره: أفظنّ أن لن نقدر عليه. وأنكره عليّ بن عيسى، وقال: لا يجوز حذف الإستفهام من غير دليل عليه. وقد جاء في كلام العرب حذفه على خلاف ما قاله. أنشد النحويّون قول عمر بن أبي ربيعة:

ثُمَّ قالُوا: تُحِبُّها. قُلْتُ: بَهْراً ـ عَدَدَ القَطْرِ، وَالْحصىٰ، وَالتُّرابِ(١)[١]

أي: أتحبّها.

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قيل: إنّها ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ. وقيل: كان حوت في بطن حوت، ـ عن سالم ابن أبي الجعد ـ.

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

[١] قوله «بهراً» أي: بهرني بهراً بمعنى غلبني غلبة أي: أحبها حباً بهرني بهراً.

﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ لَمّا أراد السؤال والدعاء، قدّم ذكر التوحيد والعدل. ثمّ قال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من الذين يقع منهم الظلم[قال الجبائي]. وإنّما قاله على سبيل الخشوع والخضوع؛ لأنّ جنس البشر لا يمتنع منه وقوع الظلم. قال الجبائي: لم يكن يونس في بطن الحوت على جهة العقوبة من الله تعالى؛ لأنّ العقوبة عداوة للمعاقب، لكن كان ذلك على وجه التأديب، والتأديب يجوز للمكلّف وغير المكلّف، كتأديب الصبيّ وغيره، وبقاؤه في بطن الحوت حيّاً، معجزة له.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ﴾ أي: من بطن الحوت ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ننجيهم إذا دعونا به، كما أنجينا ذا النون.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ أي: واذكر زكريّا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ ودعاه يا ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً﴾ بغير وارث، ولا ولد يعينني على أمر الدين والدنيا في حياتي، ويرثني بعد وفاتي.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ هذا ثناء على الله سبحانه، بأنّه الباقي بعد فناء خلقه، ومعناه: أنّه خير من بقي حيّاً بعد ميّت، وأنّ الخلق كلّهم يموتون ويبقى هو سبحانه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ روى الحرث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّي من أهل بيت قد إنقرضوا، وليس لي ولد؟ فقال: أدع وأنت ساجد: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾، ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ﴾ قال: ففعلت، فولد لي عليّ والحسين.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بأن كانت عقيمة، فجعلناها ولوداً، ـ عن قتادة ـ. وقيل: كانت هرمة، فرددنا عليها شبابها، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: كانت سيّئة الخلق، فجعلناها حسنة الخلق. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني زكريّا ويحيى. وقيل: معناه: إنّ

الأنبياء الذين تقدّم ذكرهم ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يبادرون إلى الطاعات والعبادات.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ أي: للرغبة والرهبة: رغبة في الثواب، ورهبة من العقاب. وقيل: راغبين وراهبين، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: رغباً بـبطون الأكـف، ورهباً بظهور الأكف.

﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي: متواضعين، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: الخشوع: المخافة الثابتة في القلب، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: إنّهم قالوا حال النـعمة: أللهمّ لا تجعلها إستدراجاً، وحال السيّئة: أللهمّ لا تجعلها عقوبة بذنب سلف منّا. وفي قوله سبحانه: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ دلالة على أنّ المسارعة إلى كـل طاعة مرغب فيها، وعلى أنّ الصلاة في أوّل الوقت أفضل.

وَالَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ
لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ
أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾

القراءة: قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر: ﴿وحِرْم﴾ ـ بكسر الحاء بـغير ألف ـ. والباقون: ﴿وحرام﴾ وهو قراءة الصادق عليه السلام. وفي الشواذّ، قراءة الحسن،

وابن أبي إسحاق: ﴿أمةٌ واحدةٌ﴾ ـ بالرفع ـ. وقرأ ابن عباس وقتادة: ﴿وحَرِم﴾ وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وحَرَم﴾، وهي قراءة عكرمة، وأبي العالية.

الحجة: قال أبو علي: حِرْم وحَرام لغتان، وكذلك: حلّ وحلال، وكل واحد من «حرم وحرام» إن شئت رفعته بالإبتداء؛ لإختصاصه بما جاء بعده من الكلام، وخبره محذوف، وتقديره: وحرام على قرية أهلكناها، بأنّهم لا يرجعون مقضيّ، أو ثابت، أو محكوم عليه. وإن شئت جعلته خبر مبتدأ محذوف، وجعلت «لا» زائدة. والمعنى: حرام على قرية أهلكناها رجوعهم، كما قال: ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. وإن شئت جعلته خبر مبتدأ، وأضمرت مبتدأ كما ذكرت، ويكون المعنى: حرام على قرية أهلكناها بالإستئصال رجوعهم؛ لأنّهم لا يرجعون، وتكون «لا» غير زائدة. والمعنى: حرام عليهم أنّهم ممنوعون من ذلك. وقال الزجّاج: تقديره: وحرام على قرية أهلكناها أن يتقبّل منهم عمل؛ لأنّهم لا يرجعون أي: لا يتوبون أبداً، كما قال سبحانه: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية. فعلى هذا يكون «حرام» خبر مبتدأ محذوف، وهو قوله: ﴿أن يتقبّل منهم عمل وأنّهم لا يرجعون﴾ في موضع نصب؛ لأنّه مفعول له. فأمّا من قرأ: ﴿حَرِم على قرية﴾: فإنّه من حرم مالُهُ حرماً فهو حرم أي: قمر ماله. قال زهير:

وَإِنْ أتــاهُ خَــليلٌ يَــوْمَ مَسْـغَبَةٍ يَقُولُ: لاغائِبٌ مالِي، وَلا حَرِمُ[1]

وأمّا حَرَم، فمعناه ظاهر. ومن قرأ: ﴿أمّـةٌ﴾ ـ بالرفع ـ جعله بدلاً من «أمّتكم». ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. و ﴿أُمَّةً﴾ منصوبة على الحال. والعامل فيها معنى الإشارة. وذو الحال الأمّة الأولى. وفي الحقيقة الحال الأولى قوله: ﴿وَاحِدَةً﴾ التي هي صفة الأمّة، كقوله تعالى: ﴿قُرْءَاناً عَرَبِيّاً﴾ والتقدير: ﴿إنّ هذه

---

(١) البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان، يقول فيها إنّ الجواد على علاته هرم. والخليل: من الخلّة، الفقر.

﴿أمّتكم أمّة واحدة﴾ أي: مجتمعة غير متفرّقة.

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم بقصّة عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني: مريم إبنة عمران أي: واذكر مريم التي حفظت فرجها وحصنته، وعفّت، وإمتنعت من الفساد.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أي: أجرينا فيها روح المسيح، كما يجري الهواء بالنفخ. فأضاف الروح إلى نفسه على وجه الملك؛ تشريفاً له في الإختصاص بالذكر. وقيل: إنّ معناه: أمرنا جبرائيل، فنفخ في جيب درعها، فخلقنا المسيح في رحمها.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ إنّما قال: آية، ولم يقل: آيتين؛ لأنّه في موضع دلالة، فلا يحتاج إلى أن تثنّي والآية فيهما، أنّها جاءت به من غير فحل، فتكلّم في المهد بما يوجب براءة ساحتها من العيب.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: هذا دينكم دين واحد، ـ عن ابن عباس ومجاهد والحسن ـ. وأصل الأمّة: الجماعة التي على مقصد واحد، فجعلت الشريعة أمّة واحدة؛ لإجتماعهم بها على مقصد واحد. وقيل: معناه: جماعة واحدة في أنّها مخلوقة مملوكة لله تعالى أي: فلا تكونوا إلّا على دين واحد. وقيل: معناه: هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم من الأنبياء، فريقكم الذي يلزمكم الإقتداء بهم في حال إجتماعهم على الحقّ، كما يقال: هؤلاء أمّتنا أي: فريقنا، وموافقونا على مذهبنا.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقكم ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ ولا تشركوا بي شيئاً.

ثمّ ذكر اليهود والنصارى بالإختلاف، فقال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرّقوا دينهم فيما بينهم، يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرّأ بعضهم من بعض، ـ عن الكلبي وابن زيد ـ. والتقطّع هذا بمنزلة التقطيع.

ثمّ قال مهدّداً لهم: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي: كل ممّن إجتمع وإفترق، راجع

إلى حكمنا في الوقت الذي لا يقدر على الحكم سوانا، فنجازيهم بأعمالهم.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ﴾ التقدير: فمن يعمل من الصالحات شيئاً، مثل صلة الرحم، ومعونة الضعيف، ونصر المظلوم، والتنفيس عن المكروب، وغير ذلك من أنواع الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط الإيمان؛ لأنّ هذه الأشياء لو فعلها الكافر، لم ينتفع بها عند الله تعالى ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي: فلا جحود لإحسانه في عمله، بل يشكر ويثاب عليه.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي: نأمر ملائكتنا أن يكتبوا ذلك، ويثبتوه، فلا يضيع منه شيء. وقيل: كاتبون أي: ضامنون جزاءه، حتى نوفّر على عاملها مجموعه. ومنه: الكتيبة؛ لأنّه ضمّ رجال إلى رجال.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أنّ «لا» مزيدة، والمعنى: حرام على قرية مهلكة بالعقوبة، أن يرجعوا إلى دار الدنيا، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّ معناه: واجب عليها أنّها إذا أُهلكت لا ترجع إلى دنياها، ـ عن قتادة وعكرمة والكلبي ـ. قال عطا: يريد حتم مني، والمراد: إنّ الله تعالى كتب على من أُهلك أن لا يرجع إلى الدنيا قضاء منه حتماً. وفي ذلك تخويف لكفّار مكّة، بأنّهم إن عذّبوا وأُهلكوا، لم يرجعوا إلى الدنيا، كغيرهم من الأُمم المهلكة. وقد جاء الحرام بمعنى الواجب في شعر الخنساء:

وَإِنَّ حَراماً لا أَرَى الدَّهرَ باكِياً ... علىٰ شَجْوَةٍ إلاَّ بَكَيْتُ عَلىٰ صَخْرٍ[1]

وثانيها: إنّ معناه حرام على قرية وجدناها هالكة بالذنوب، أن يتقبّل منهم عمل؛ لأنّهم لا يرجعون إلى التوبة.

---

(١) الشجوة: الحزن والغمّ. وصخر: أخوها.

وثالثها: إنّ معناه: حرام أن لا يرجعوا بعد الممات، بل يرجعون أحياء للمجازاة، ـ عن أبي مسلم ـ. وروى محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: كل قرية أهلكها الله بعذاب، فإنّهم لا يرجعون.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ
يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن عامر، ويعقوب: ﴿فتّحت﴾ ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وقد ذكرنا إختلافهم في «يأجوج ومأجوج» في سورة الكهف. وفي الشواذّ، قراءة ابن مسعود: ﴿من كل جدث﴾. وقراءة ابن السميفع: ﴿حصْب جهنّم﴾ ـ ساكنة الصاد ـ. وقراءة ابن عباس: ﴿حضَب﴾ ـ بالضاد مفتوحة ـ. وقراءة عليّ عليه السلام، وعائشة، وابن الزبير، وأُبيّ بن كعب، وعكرمة: ﴿حطب﴾ ـ بالطاء ـ.

الحجة: من خفّف ﴿فتحت﴾؛ فلأنّ الفعل في الظاهر مسند إلى هذين الإسمين، أو أراد فتح سدّ يأجوج ومأجوج. ومن شدَّد، حمله على الكثرة، فهو مثل: ﴿مُّفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾. والجدث: القبر، بلغة الحجاز. والجدف ـ بالفاء ـ بلغة تميم. وفي «الحطب» لغات: حطب وحصب ـ بالصاد ـ، وحضب ـ بالضاد ـ، ولا يقال: حصب ـ بالصاد ـ، إلّا إذا أُلقي في التنّور، أو في الموقد. وقال أحمد بن يحيى: أصل الحصب: الرمي، حطباً كان أو غيره. قال الأعشى:

فَلاَ تَكُ فـي حَـرْبِنا مُـحْصِباً لِتَجْعَلَ قَوْمَكَ شَتّىٰ شُعُوباً[1]

فأمّا الحصْب ـ ساكناً بالصاد ـ: والضاد فالطرح، فهو مصدر وقع موقع إسم المفعول، كالخلق والصيد، بمعنى المخلوق والمصيد.

اللغة: الحدب: الإرتفاع من الأرض بين الإنخفاض. والحدبة: خروج الظهر، ورجل أحدب. والنسول: الخروج عن الشيء الملابس. يقال: نسل ينسِل وينسَل. قال امرؤ القيس:

فَإنْ يَكُ قَدْ سَـاءَتْكَ مِـنّي خَـلِيقَةٌ فَسُلّي ثِيَابِي مِنْ ثِيابِكِ تَنْسَلي[2]

ونسل ريش الطائر: إذا سقط. وقيل: النسول: الخروج بإسراع نحو: نسلان الذئب. قال:

نَسَلاَنُ الذِّئْبِ أمْسىٰ قَارِباً بَـرَدَ اللَّـيْلُ عَـلَيْهِ فَـنَسَلَ

وشخص المسافر شخوصاً: إذا خرج من منزله. وشخص من بلد إلى بلد، وشخص بصره: إذا نظر إليه، كأنّه خرج إليه. والحسيس والحسّ: الحركة.

الإعراب: ﴿وَٱقْتَرَبَ الْوَعْدُ﴾ قال الفرّاء: معنى الواو، الطرح، والمعنى: إذا

---

(١) الإحصاب: إثارة الحصا، وهو كناية عن إثارة الفتنة.

(٢) يخاطب إمرئة، يعني: ان كان في خلقي مالا ترضيه، فإنزعي قلبي من قبلك، فإن فعلت تخرجي.

فتحت يأجوج ومأجوج، إقترب الوعد الحقّ. قال الزجّاج: والواو لا يجوز أن يطرح عند البصريّين، وجواب «إذا» عندهم قوله: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهيهنا قول محذوف أي: قالوا يا ويلنا. وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾: إذا: ظرف مكان، والعامل فيه: ﴿شَاخِصَةٌ﴾ وهي ضمير القصّة في محلّ رفع بالإبتداء. و ﴿أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: مبتدأ آخر. و ﴿شَاخِصَةٌ﴾ خبر مقدّم. والجملة، خبر «هي». وقيل: إنَّ تمام الكلام عند قوله: هي، وتقديره: فإذا هي بارزة واقعة، يعني: أنّها من قربها كأنّها وقعت. ثمّ إبتدأ، فقال: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على تقديم الخبر على المبتدأ.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم أنّهم لا يرجعون إلى الدنيا، وعدهم بالرجوع إلى الآخرة، وبيّن علامة ذلك، فقال: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي: فتحت جهتهم، والمعنى: إنفرج سدّ يأجوج ومأجوج بسقوط، أو هدم، أو كسر، وذلك من أشراط الساعة[1].

﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي: وهم يريد يأجوج ومأجوج من كل نشز من الأرض يسرعون، ـ عن قتادة وابن مسعود والجبائي وأبي مسلم ـ. يعني: أنّهم يتفرّقون في الأرض، فلا ترى أكمّة إلّا وقوم منهم يهبطون منها مسرعين. وقيل: إنّ قوله: هم، كناية عن الخلق، يخرجون من قبورهم إلى الحشر، ـ عن مجاهد ـ. وكان يقرأ: ﴿من كل جدث﴾ يعني: القبر. ويدلّ عليه قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ

---

(١) إنّ قبل، ذهب كثير من المفسّرين الى أنّ يأجوج ومأجوج من الترك والمغول، ومن يحذو حذوهم، فإن كان ظهورهم على البلاد من أشراط الساعة، فقد إنتشروا بعد الإسلام في القرون الماضية، فكيف يكون ظهورهم من أشراط الساعة، قلنا: لا منافاة في ذلك، كما أنّ إنشقاق القمر على عهد رسول الله ﷺ من علائم القيامة، ولايجب المقارنة، وكما أنّ الآلام، والأمراض، علائم للموت لا محالة، ولو في الصبيّ الذي يطول عمره، ونشر الغبار من الجدار، علامة أنّه في معرض الإنهدام لا محالة.

﴿الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أي: الموعود الصدق، ومعناه: إقترب قيام الساعة. ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معناه: فإذا القصّة أنّ أبصار الذين كفروا تشخص في ذلك اليوم أي: لا تكاد تطرف من شدّة ذلك اليوم وهوله، ينظرون إلى تلك الأهوال، ـ عن الكلبي ـ.

﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي: يقولون: يا ويلنا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ إشتغلنا بأُمور الدنيا، وغفلنا عن هذا اليوم، فلم نتفكّر فيه ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بأن عصينا الله تعالى، وعبدنا غيره.

ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: حطبها، ـ عن مجاهد وقتادة وعكرمة ـ. وأصل الحصب: الرمي، فالمراد: أنّهم يرمون فيها، كما يرمي بالحصباء، ـ عن الضحّاك وأبي مسلم ـ.

ويسأل على هذا، فيقال: إنّ عيسى عليه السلام قد عُبد والملائكة قد عبدوا؟ والجواب: إنّهم لا يدخلون في الآية؛ لأنّ «ما» لما لا يعقل؛ ولأنّ الخطاب لأهل مكّة، وإنّما كانوا يعبدون الأصنام. فإن قيل: فأيّ فائدة في إدخال الأصنام النار؟ قيل: يعذّب بها المشركون الذين عبدوها، فتكون زيادة في حسرتهم وغمّهم. ويجوز أن يرمى بها في النار؛ توبيخاً للكفّار حيث عبدوها، وهي جماد لا تضرّ ولا تنفع. وقيل: إنّ المراد بقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾: الشياطين، دعوهم إلى عبادة غير الله فأطاعوهم كأنّهم عبدوهم، كما قال: ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾.

﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ خطاب للكفّار أي: أنتم في جهنّم داخلون. وقيل: إن معنى لها: إليها، مثل قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: إليها.

﴿لَوْ كَانَ هَـؤُلاَءِ﴾ الأصنام والشياطين ﴿آلِهَةً﴾ كما تزعمون ﴿مَا

وَرَدُوهَا﴾ أي: ما دخلوا النار، ولإمتنعوا منها. ﴿وَكُلٌّ﴾ من العابد والمعبود ﴿فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿خَالِدُونَ﴾: دائمون.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: صوت كصوت الحمار، وهو شدّة تنفّسهم في النار عند إحراقها لهم.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمعون ما يسرُّهم، ولا ما ينتفعون به. وإنّما يسمعون صوت المعذّبين، وصوت الملائكة الذين يعذّبونهم، ويسمعون ما يسوؤهم، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: يجعلون في توابيت من نار، فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحد منهم، أنّ في النار أحداً يعذّب غيره، ـ عن عبدالله بن مسعود ـ.

قالوا: ولمّا نزلت هذه الآية، أتى عبدالله بن الزبعري رسول الله ﷺ، قال: يا محمّد! ألست تزعم أنّ عزيراً رجل صالح، وأنّ عيسى عليه السلام رجل صالح، وأنّ مريم إمرأة صالحة؟ قال: بلى. قال: فإنّ هؤلاء يعبدون من دون الله فهم في النار! فأنزل الله هذه الآية. ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ أي: الموعدة بالجنّة. وقيل: الحسنى: السعادة، ـ عن ابن زيد ـ. وكأنّه يذهب إلى الكلمة بأنّه سيسعد أو إلى العدة لهم على طاعتهم، فأنّث «الحسنى».

﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: يكونون بحيث لا يسمعون صوتها الذي يحسّ ﴿وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ من نعيم الجنّة وملاذها.

﴿خَالِدُونَ﴾ أي: دائمون. والشهوة: طلب النفس اللذّة، يقال: إشتهى شهوة. وقيل: إنّ الذين سبقت لهم منّا الحسنى: عيسى وعزير ومريم، والملائكة الذين عبدوا من دون الله وهم كارهون، إستثناهم من جملة ما يعبدون من دون الله، ـ عن الحسن ومجاهد ـ. وقيل: إنّ الآية عامّة في كل من سبقت له الموعدة بالسعادة.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي: الخوف الأعظم، وهو عذاب النار إذا أطبقت على أهلها، ـ عن سعيد بن جبير وابن جريج ـ. وقيل: هو النفخة الأخيرة لقوله: ﴿ونفخ في الصور﴾ ففزع من في السماوات وفي الأرض إلّا من شاء الله، ـ

عن ابن عباس ـ. وقيل: هو حين يؤمر بالعبد إلى النار، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هو حين يذبح الموت على صورة كبش أملح، وينادى: يا أهل الجنّة! خلود ولا موت، ويا أهل النار! خلود ولا موت. وروى أبو سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ قال: ثلاثة على كثبان من مسك، لا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا يكترثون للحساب: رجل قرأ القرآن محتسباً، ثمّ أمَّ به قوماً محتسباً، ورجل أذَّن محتسباً، ومملوك أدّى حقّ الله عزّوجلّ، وحقّ مواليه.

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم الملائكة بالتهنئة، يقولون لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، فأبشروا بالأمن والفوز.

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا
بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ
﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا
لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ
رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: تُطوي ـ بالتاء والضمّ ـ، السماءُ ـ بالرفع ـ.

والباقون: نطوي ـ بالنون ـ، السماء ـ بالنصب ـ. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: للكتب ـ على الجمع ـ. والباقون: للكتاب. وقرأ حفص: قال ربّ. والباقون: قل ربّي. وقرأ أبو جعفر: ربُّ إحكم ـ بضمّ الباء ـ. وقرأ زيد عن يعقوب: ربّي إحكم، وهو قراءة ابن عباس، وعكرمة، والجحدري، وابن محيصن. والباقون: ربّ إحكم. وفي الشواذّ، قراءة الحسن: كطي السّجل ـ بسكون الجيم ـ. وقراءة أبي زرعة بن عمرو: السُجُلّ ـ بضمّ السين والجيم وتشديد اللام ـ. وقراءة أبي السماك: السَّجْل ـ بفتح السين وسكون الجيم ـ.

الحجة: من قرأ: يوم تطوى السماء، فبنى الفعل للمفعول به. ومن قرأ: يوم نطوي السماء، فالفاعل هو الله سبحانه، والمعنى واحد. وفي إنتصاب «يوم» وجهان عند أبي علي:

أحدهما: أن يكون بدلاً من الهاء المحذوفة من الصلة، ألا ترى أنّ المعنى هذا يومكم الذي توعدونه.

والآخر: أن يكون منتصباً بنعيد، والمعنى: نعيد الخلق إعادة كإبتدائه أي: كإبتداء الخلق. ومثله في المعنى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، وتقديره: كما بدأ خلقكم يعود خلقكم، فحذف المضاف في الموضعين، وأقام المضاف إليه مقامه، والمعنى: يعود خلقكم عوداً كبدئه، ومثله في المعنى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾.

ومن أفرد «الكتاب» ولم يجمع، فإنّه واحد يراد به الكثرة. ومن قرأ: ﴿للكتب﴾ فإنّ المراد به الجمع. ومن قرأ: ﴿قال ربّ﴾ أراد: قال الرسول. ومن قرأ: ﴿قل﴾ فهو على: قل أنت يامحمّد. وقراءة أبي جعفر ﴿ربُّ إحكم﴾ معناه: يا ربّ إحكم، وهي ضعيفة عند النحويّين البصريّين. وقد جاء مثله في المثل، وهو قولهم: أصبح ليل وأطرق كراً وافتد مخنوق، أي: يا ليل، ويا كروان، ويا مخنوق. وقد جاء في الشعر، وهو:

عَـجِبْتُ لِـعَطَّارٍ أتـانا يَسُـومُنا بِـدِسْكَرَةِ المَـرَّانِ دُهْـنَ الْـبَنَفْسَج
فَـقُلْتُ لَـهُ: عَـطَّارُ هَـلاّ أتَـيْتَنا بِنَوْزِ الخَزامى، أوْ بِخَوْصَةِ عَرْفَجٍ[1]

أراد: يا عطار. ومن قرأ: ﴿ربّ إحكم﴾ فالمعنى ظاهر.

﴿الإعراب﴾: الكاف في قوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ في محلّ النصب؛ لأنّه صفة مصدر محذوف، تقديره: نطوي السماء طيّاً، مثل طيّ السجلّ. فإن كان السجلّ إسماً للصحيفة، فالمصدر الذي هو طيّ، مضاف إلى المفعول في المعنى. وإن كان إسم ملك، أو كاتب، فهو مضاف إلى الفاعل في المعنى. فإن كان مفعولاً كان «اللام» بمعنى من أجل. وإن كان فاعلاً كان اللام للإختصاص. ﴿وَعْداً عَلَيْنَا﴾: منصوب، على المصدر. قال الزجّاج: لأنّ قوله: ﴿نُّعِيدُهُ﴾ بمعنى: قد وعدنا ذلك. والأجود أن يقدّر عاملاً محذوفاً؛ لأنّ القرّاء يقفون على قوله: ﴿نُّعِيدُهُ﴾ قال جامع العلوم: الكاف في ﴿كَمَا بَدَأْنَا﴾ من صلة ﴿نُّعِيدُهُ﴾، وإن كان متقدّماً. ومثله: كما علّمه الله فليكتب. ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: نصب، على الحال، أو على أنّه مفعول له. و﴿أَنَّمَآ إِلَهَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: في محلّ رفع، بإسناد يوحى إليه، وقيامه مقام الفاعل. و﴿عَلَى سَوَآءٍ﴾: في موضع نصب، على الحال من الفاعلين والمفعولين، والتقدير: أذنتكم وإستوينا نحن وأنتم. فيكون الحال من الفريقين. ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾: في موضع رفع؛ بأنّه فاعل ﴿أَقَرِيبٌ﴾؛ لأنّه اعتمد على همزة الإستفهام، فهو كقولهم: أقائم أخوك. ويجوز أن يكون مبتدأ، و ﴿أَقَرِيبٌ﴾ خبره، وعلى الوجهين فهما مفعولا ﴿أَدْرِي﴾ أي: أعلم علقتهما همزة الإستفهام، والتقدير: أقريب ما توعدون أم بعيد. فبعيد عطف على «قريب»، والنيّة فيه التأخير. ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾: مفعول ﴿أَدْرِي﴾ محذوف، والتقدير: ما أدري كيف يكون الحال.

---

(١) مرّ أنّ موضع دفن فيه عمرو بن عبيد. وخزامي، وعرفج: نبتان عطران.

المعنى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ المراد بالطيّ هنا: هو الطيّ المعروف، وأنّ الله سبحانه يطوي السماء بقدرته. وقيل: إنّ طيّ السماء، ذهابها عن الحسّ.

﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ والسجل: صحيفة فيها الكتب، ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والكلبي ـ. وعلى هذا فمعناه: نطويها كما تطوي الصحيفة المجعولة للكتاب. ويجوز أن يكون المراد بالكتاب: المكتوب. وقيل: إنّ السجلّ: ملك يكتب أعمال العباد، ـ عن أبي عمرو والسدّي ـ. وقيل: هو ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه، ـ عن عطا ـ. وقيل: هو إسم كاتب كان للنبيّ ﷺ، ـ عن ابن عباس في رواية ـ.

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ أي: كما بدأناهم في بطون أمّهاتهم، حفاة عراة عزلاً، كذلك نعيدهم، روي ذلك مرفوعاً. وقيل: نبعث الخلق كما إبتدأناه أي: قدرتنا إلى الإعادة، كقدرتنا على الإبتداء، ـ عن الحسن والزجّاج ـ. وقيل: معناه: نهلك كل شيء، كما كان أوّل مرة، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَعْداً عَلَيْنَآ﴾ أي: وعدناكم ذلك وعداً ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِيْنَ﴾ ما وعدناكم من ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِن بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ قيل: فيه أقوال:

أحدها: إنَّ الزبور كتب الأنبياء، ومعناه: كتبنا في الكتب التي أنزلناها على الأنبياء من بعد كتابته في الذكر أي: أم الكتاب الذي في السماء، وهو اللوح المحفوظ، ـ عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد ـ. وهو إختيار الزجّاج قال: لأنّ الزبور والكتاب، بمعنى واحد، وزبرت: كتبت.

وثانيها: إن الزبور، الكتب المنزلة بعد التوراة، والذكر هو التوراة، ـ عن ابن عباس والضحّاك ـ.

وثالثها: انّ الزبور، زبور داود، والذكر، توراة موسى، ـ عن الشعبي، وروي

عنه أيضاً: أنّ الذكر: القرآن، وبعد: بمعنى قبل.

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ قيل: يعني: أرض الجنّة يرثها عبادي المطيعون، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وابن زيد ـ، فهو مثل قوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾. وقيل: هي الأرض المعروفة، يرثها أُمّة محمّد ﷺ بالفتوح بعد إجلاء الكفّار، كما قال ﷺ: زويت لي الأرض، فأُريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أُمّتي ما زوي لي منها. عن ابن عباس في رواية أُخرى. وقال أبو جعفر عليه السلام: هم أصحاب المهديّ عليه السلام في آخر الزمان. ويدلّ على ذلك ما رواه الخاصّ والعامّ عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً صالحاً من أهل بيتي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما قد ملئت ظلماً وجوراً.

وقد أورد الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، في كتاب البعث والنشور، أخباراً كثيرة في هذا المعنى، حدّثنا بجميعها عنه حافده أبو الحسن عبيد الله بن محمّد بن أحمد، في شهور سنة ثماني عشرة وخمسمائة، ثمّ قال في آخر الباب: فأمّا الحديث الذي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، بالإسناد عن محمّد بن خالد الجنديّ، عن ابان بن صالح، عن الحسن، عن أنس بن مالك، أنّ النبيّ ﷺ قال: لا يزداد الأمر إلّا شدّة، ولا الناس إلّا شحّاً، ولا الدنيا إلّا إدباراً، ولا تقوم الساعة إلّا على أشرار الناس، ولا مهدي إلّا عيسى ابن مريم. فهذا حديث تفرّد به محمد بن خالد الجنديّ. قال أبو عبد الله الحافظ: ومحمّد بن خالد، رجل مجهول، وأختلف عليه في إسناده، فرواه مرّة عن ابان بن صالح، عن الحسن، عن أنس، عن النبيّ ﷺ. ومرّة عن ابان بن أبي عيّاش، وهو متروك، عن الحسن، عن النبيّ ﷺ وهو منقطع.

والأحاديث في التنصيص على خروج المهديّ عليه السلام أصحُّ إسناداً، وفيها بيان

كونه من عترة النبيّ ﷺ، هذا لفظه:

ومن جملتها ما حدّثنا أبو الحسن حافده عنه قال: أخبرنا أبو عليّ الروديّ قال: أخبرنا أبو بكر بن داسة [خة] قال: حدّثنا أبو داود السجستاني في كتاب السنن، عن طرق كثيرة ذكرها، ثمّ قال كلّهم عن عاصم المقري، عن زيد [زر]، عن عبدالله، عن النبيّ ﷺ قال: لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم، حتى يبعث الله فيه رجلاً منّي، أو من أهل بيتي. وفي بعضها: يواطيء إسمه إسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً.

وبالإسناد قال: حدّثنا أبو داود قال: حدّثنا أحمد بن إبراهيم قال: حدّثني عبد الله بن جعفر الرقّي قال: حدّثني أبي المليح الحسن بن عمر، عن زياد بن بنان، عن عليّ بن نفيل: عن سعيد بن المسيّب، عن أمّ سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: المهديّ من عترتي من ولد فاطمة عليها السلام.

﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ يعني: إنّ في الذي أخبرناكم به ممّا توعدنا به الكفّار من النار، والخلود فيها، وما وعدنا به المؤمنين من الجنّة، والكون فيها. وقيل: معناه: إنّ في هذا القرآن ودلائله ﴿لَبَلَاغاً﴾ أي: كفاية ووصلة إلى البغية. والبلاغ: سبب الوصول إلى الحقّ ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ لله مخلصين له. قال كعب: هم أُمّة محمّد ﷺ الذين يصلّون الصلوات الخمس، ويصومون شهر رمضان، سمّاهم عابدين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمّد ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: نعمة عليهم. قال ابن عباس: رحمة للبرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فهو رحمة للمؤمن في الدنيا والآخرة، ورحمة للكافر، بأن عوفي ممّا أصاب الأمم من الخسف والمسخ. وروي أنّ النبيّ ﷺ قال لجبرائيل، لمّا نزلت هذه الآية: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم إنّي كنت أخشى عاقبة الأمر، فآمنت بك لما أثنى الله عليّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾» وقد قال: إنّما أنا رحمة مهداة.

وقيل: إنّ الوجه في أنّه نعمة على الكافر: أنّه عرضه للإيمان والثواب الدائم، وهداه وإن لم يهتد، كمن قدم الطعام إلى جائع فلم يأكل، فإنّه منعم عليه، وإن لم يقبل. وفي الآية دلالة على بطلان قول أهل الجبر، في أنّه ليس لله على الكافر نعمة؛ لأنّه سبحانه بيّن أنّ في إرسال محمّد ﷺ نعمة على العالمين، وعلى كل من أُرسل إليهم.

ثم قال له ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مستسلمون منقادون لذلك، بأن تتركوا عبادة غير الله. وقيل: معناه: الأمر أي: أسلموا كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ أي: إنتهوا.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا، ولم يسلموا ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ﴾ أي: أعلمتكم بالحرب ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: إيذاناً على سواء، إعلاماً نستوي نحن وأنتم في علمه، لا استيذاناً [إستبداداً] به دونكم؛ لتتأهّبوا لما يراد بكم. ومثله قوله: ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَآءٍ﴾ وقيل: معناه: أعلمتكم بما يجب الإعلام به على سواء في الإيذان، لم أُبين الحقّ لقوم دون قوم، ولم أكتمه عن قوم دون قوم. وفي هذا دلالة على بطلان قول أصحاب الرموز، وأنّ للقرآن بواطن خصّ بالعلم بها أقوام.

﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي: وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: أجل يوم القيامة. فإنّ الله تعالى هو العالم بذلك. وقيل: معناه: آذنتكم بالحرب، ولا أدري متى أؤذن فيه.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنْ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: أنّ الله يعلم السرّ والعلانيّة.

﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي: وما أدري ﴿لَعَلَّهُ﴾ كناية عن غير مذكور ﴿فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ أي: لعل ما آذنتكم به اختبار لكم، وشدّة تكليف؛ ليظهر صنيعكم، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: لعلّ هذه الدنيا فتنة لكم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: لعلّ تأخير العذاب محنة

وإختبار لكم؛ لترجعوا عمّا أنتم عليه.

﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي: تتمتّعون به إلى وقت إنقضاء آجالكم ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: فوّض أمورك يا محمّد إلى الله، وقل: يا ربّ أحكم بيني وبين من كذّبني بالحقّ. قال قتادة: كان النبيّ ﷺ إذا شهد قتالاً قال: ربّ أحكم بالحقّ أي: أفصل بيني وبين المشركين بما يظهر به الحقّ للجميع. وقيل: معناه: أحكم بحكمك الحقّ، وهو إظهار الحقّ على الباطل.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾ الذي يرحم عباده ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ الذي يعينهم في أمورهم. فجمع بين الرحمة والمعونة اللتين تضمّنتا أصول النعم ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ من كذبكم وباطلكم في قولكم: ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وقولكم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ وقيل: معناه: ربّنا الرحمن المستعان على دفع ما تصفون.

سورة الحجّ

مكّيّة ـ عن ابن عباس وعطا ـ، إلّا آيات. قال الحسن: هي مدنيّة غير آيات نزلت في السفر. وقال بعضهم: غير ستّ آيات. وقال بعضهم: غير أربع آيات.

عَدَدُ آيِها: ثمان وسبعون آية كوفيّ، سبع مكّيّ، وستّ مدنيّ، خمس بصريّ، أربع شاميّ.

اِختِلافُها: خمس آيات: الحميم والجلود: كلاهما كوفيّ. وعاد وثمود: غير الشاميّ. وقوم لوط: حجازيّ كوفيّ، سماكم المسلمين: مكّيّ.

فَضلُها: أُبيّ بن كعب قال: قال النبيّ ﷺ: من قرأ سورة الحجّ، أُعطي من الأجر كحجّة حجَّها، وعمرة إعتمرها، بعدد من حجَّ وإعتمر فيما مضى، وفيما بقي. وقال أبو عبد الله ﷺ: من قرأها في كل ثلاثة أيّام، لم يخرج من سنته حتى يخرج إلى بيت الله الحرام، وإن مات في سفره دخل الجنّة.

تَفسيرُها: لمّا ختم الله سورة الأنبياء بالدعاء إلى التوحيد، والإعلام بأنّ نبيَّه رحمة للعالمين، إفتتح هذه السورة بخطاب المكلّفين؛ ليتّقوا الشرك، ومخالفة الدين فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ
عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ
أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ
سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ
﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ
شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ
وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى
رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ
مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ
وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ
بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿سَكرى وما هم بسَكرى﴾

والباقون: ﴿سكارى﴾ في الموضعين، وفي الشواذّ، قراءة الأعرج والحسن بخلاف: ﴿سُكرى﴾ ـ بضمّ السين ـ. وقرأ أبو جعفر: ﴿وربأت﴾ ـ بالهمزة ـ هيهنا وفي «حمّ». والباقون: وربت.

﴿الحجّة﴾: قالوا رجل سكران وإمرأة سكرى، والجمع: سُكارى وسَكارى ـ بضمّ السين وفتحها، إلّا أنّ القراءة بالضمّ ـ. وأمّا سَكرى في الجمع، فهو مثل: صرعى وجرحى، وذلك لأنّ السكر كأنّه علّة لحقت عقولهم، كما أنّ الصرع والجرح علّة لحقت أجسامهم. وفَعلى مختصّ في الجمع بالمبتلين، كالمرضى والهلكى. وأمّا سُكرى ـ بالضمّ ـ فيجوز أن يكون إسماً مفرداً على فعلى بمعنى الجمع. وأمّا قوله: ﴿رَبَتْ﴾: فهو من ربا يربو: إذا زاد. وأمّا الهمز فمن ربأت القوم: إذا أشرفتَ عليهم عالياً؛ لتحفظهم. وهذا كأنّه ذهب إلى علوّ الأرض؛ لما فيها من إفراط الربو. فإذا وصف علوها دلّ على أنّ الزيادة شاعت فيها.

﴿اللغة﴾: الزلزلة والزلزال: شدّة الحركة على الحال الهائلة. وقيل: إنّ أصله: زلّ فضوعف للمبالغة. وأثبته [أباه] البصريّون قالوا: إنّ «زلّ» ثلاثيّ، وزلزل رباعيّ، وإن إتّفق بعض الحروف في الكلمتين؛ لأنّه لا يمتنع مثل هذا. ألا ترى أنّهم يقولون: دمث ودمثر، وسبط وسبطر، وليس أحدهما مأخوذاً من الآخر، وإن كان معناهما واحداً؛ لأنّ الزاي ليست من حروف الزيادة. والزلزال بالفتح: الإسم. قال الشاعر:

يَعْرِفُ الْجاهِلُ الْمُضَلَّلُ أنَّ الدَّ ... هْرَ فِيهِ النَّكْراءُ، وَالزَّلْزالُ

والذهول: الذهاب عن الشيء دهشاً وحيرة. يقال: ذهل عنه يذهل ذهُولاً وذَهِلَ، بمعنى. والذهل: السلو. قال:

صَحا قَلْبُهُ يا عِزَّ أوْ كادَ يَذْهَلُ[1]

---

(١) عز: مرخّم عزّة، علم إمرئة.

والحَمْل ـ بفتح الحاء ـ: ما كان في بطن، أو على رأس شجرة. والحِمْل ـ بكسر الحاء ـ: ماكان على ظهر، أو على رأس. والمريد: المتجرّد للفساد. وقيل: إنّ أصله الملاسة، فكأنّه متملس من الخير. ومنه: صخرة مرداء أي: ملساء. ومنه: الأمرد والممرد من البناء: المتطاول المتجاوز. والمضغة: مقدار ما يمضغ من اللحم. والهمود: الدروس والدثور. قال الأعشى:

قالَتْ قُتَيْلَةُ ما لِجِسْمِكَ شاحِباً ... وَأرىٰ ثِيابَكَ بالِياتٍ هُمَّداً[١]

والبهيج: الحسن الصورة.

﴿الإعراب﴾: العامل في ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: قوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ أي: تذهل كل مرضعة في هذا اليوم عمّا أرضعته، ويجوز أن يكون ﴿مَا﴾ مصدريّة، فيكون التقدير: تذهل كل مرضعة في هذا اليوم عن إرضاعها ولدها. ومفعول «أرضعت» محذوف على الوجهين. و«مرضعة» جار على الفعل، يقال: إمرأة مرضع أي: ذات إرضاع أرضعت ولدها، أو أرضعته غيرها. ومرضعة ترضع. قال إمرؤ القيس:

وَمِثْلِكِ حُبْلىٰ قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ ... فَأَلْهَيْتُها عَنْ ذِي تَمائِمَ مُحْوِلِ(١)

و ﴿سُكَارَىٰ﴾ نصب؛ على الحال. وإن جعلت ﴿وَتَرَى﴾ بمعنى الظنّ، فهو المفعول الثاني له. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾: الهاء في ﴿عليه﴾ يعود إلى الشيطان. والهاء في ﴿أَنَّهُ﴾ يحتمل وجهين: أن يكون ضمير الأمر والشأن، وأن يكون عائداً إلى الشيطان. وإنّما فتحت «أنّ» في قوله: ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ على أحد وجهين: أن يكون عطفاً على الأُولى للتأكيد، والمعنى: كتب عليه أنّه من تولّاه يضلّه. وتأويله: كتب على الشيطان إضلال متوليه، وهدايتهم إلى عذاب السعير.

---

(١) ذي تمائم: الصبي الصغير يعلّق عليه التميمة. ومحول: الذي مضي عليه حول يعني: الهيت المرئة عن رضيعها.

[١] الشاحب: المتغير اللون من هزل، أو مرض، أو سفر.

وهذا قول الزجّاج. وفيه نظر؛ لأنّ الأصل في التوكيد أن لا يدخل حرف العطف بين المؤكِّد والمؤكَّد. فالقول الصحيح فيه أن يكون على معنى فالشأن أنه يضله. فيكون مبنيّاً على مبتدأ مضمر.

﴿وَنُقِرُّ﴾: مرفوع بالعطف على ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾، أو للإستئناف. أو يكون خبر مبتدأ محذوف أي: ونحن نقرّ. و ﴿مَا نَشَاءُ﴾: يجوز أن يكون مفعول ﴿نُقِرُّ﴾. ويجوز أن يكون ظرف زمان. ويكون مفعول ﴿نُقِرُّ﴾ محذوفاً، وتقديره. نقرّ في الأرحام الولد مدّة مشيئتنا. و ﴿طِفْلاً﴾: منصوب؛ على الحال. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا﴾ أي: لأن تبلغوا. والجارّ والمجرور معطوف على محذوف، تقديره: لترضعوا وتشبوا، ثمّ لتبلغوا أشدّكم. ﴿لِكَيْلاَ يَعْلَمَ﴾ إذا إجتمع «اللام» بمعنى كي مع «كي»، فالحكم للام. وكي: يكون بمعنى أنْ. واللام يتعلّق بيُرَدّ.

﴿النُّزُولِ﴾: قال عمران بن الحصين، وأبو سعيد الخدري: نزلت الآيتان من أوّل السورة ليلاً في غزاة بني المصطلق، وهم حيٌّ من خزاعة، والناس يسيرون، فنادى رسول الله ﷺ فحثّوا[فجثّوا] المطي، حتى كانوا حول رسول الله ﷺ فقرأها عليهم، فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة. فلمّا أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدوابّ، ولم يضربوا الخيام، والناس ما بين جماك أو جالس حزين متفكّر، فقال رسول الله ﷺ: أتدرون أيّ يوم ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذاك يوم يقول الله تعالى لآدم: إبعث بعث النار من ولدك. فيقول آدم: من كم كم؟ فيقول الله عزّوجل: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحد إلى الجنّة. فكبر ذلك على المسلمين، وبكوا، وقالوا: فمن ينجو يا رسول الله؟ فقال: أبشروا، فإنّ معكم خليقتين يأجوج ومأجوج، ما كانتا في شيء إلّا كثرتاه. ما أنتم في الناس إلّا كشعرة بيضاء في الثور الأسود، أو كرقم في ذراع البكر، أو كشامة في جنب البعير. ثمّ قال: إنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنّة، فكبّروا. ثمّ قال: إنّي لأرجو أن

تكونوا ثلث أهل الجنّة، فكبّروا. ثمّ قال ﷺ: إنّي لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنّة، وإنّ أهل الجنّة مائة وعشرون صفّاً، ثمانون منها أُمّتي. ثمّ قال: ويدخل من أمّتي سبعون ألفاً الجنّة بغير حساب.

وفي بعض الروايات أنّ عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله! سبعون ألفاً؟ قال ﷺ: نعم، ومع كل واحد سبعون ألفاً. فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله! أدع الله أن يجعلني منهم. فقال: أللهمّ إجعله منهم. فقام رجل من الأنصار فقال: أدع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: سبقك بها عكاشة. قال ابن عباس: كان الأنصاري منافقاً، فلذلك لم يدع له.

المعنى: خاطب الله سبحانه جميع المكلّفين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ معناه: يا أيّها العقلاء المكلّفون! إتّقوا عذاب ربّكم، وإخشوا معصية ربّكم، كما يقال: إحذر الأسد، والمراد إحذر إفتراسه، لا عينه.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ أي: زلزلة الأرض يوم القيامة، ـ عن ابن عباس والحسن والسدّي ـ. والمعنى: أنّها تقارن قيام الساعة، وتكون معها. وقيل: إنّ هذه الزلزلة قبل قيام الساعة، وإنّما أضافها إلى الساعة؛ لأنّها من أشراط ظهورها، وآيات مجيئها، عن علقمة والشعبي. ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر عظيم هائل، لا يطاق. وقيل: معناه: إنّ شدّة يوم القيامة أمر صعب. وفي هذا دلالة على أنّ المعدوم يسمّى شيئاً، فإنّ الله سبحانه سمّاها شيئاً، وهي معدومة.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ معناه: يوم ترون الزلزلة، أو الساعة ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: تشغل كل مرضعة عن ولدها وتنساه. وقيل: تسلو عن ولدها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تضع الحبالى ما في بطونها. وفي هذا دلالة على أنّ الزلزلة تكون في الدنيا، فإنّ الرضاع، ووضع الحمل، إنّما يتصوّر في الدنيا. قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها بغير

تمام. ومن قال: إنّ المراد به: يوم القيامة قال: إنّه تهويل لأمر القيامة، وتعظيم لما يكون فيه من الشدائد أي: لو كان ثمّ مرضعة لذهلت، أو حامل لوضعت، وإن لم يكن هناك حامل، ولا مرضعة.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ من شدّة الخوف والفزع ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ من الشراب. وقيل: معناه: كأنّهم سكارى من ذهول عقولهم؛ لشدّة ما يمرُّ بهم؛ لأنّهم يضطربون إضطراب السكران.

ثم علَّل سبحانه ذلك، فقال: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ فمن شدّته يصيبهم ما يصيبهم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هذا إخبار عن المشركين الذين يخاصمون في توحيد الله سبحانه، ونفي الشرك عنه، بغير علم منهم، بل للجهل المحض. وقيل: إنّ المراد به: النضر بن الحرث، فإنّه كان كثير الجدال، وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأوّلين، وينكر البعث.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ يغويه عن الهدى، ويدعوه إلى الضلال، وإن كان المراد بالآية النضر بن الحرث، فالمراد بالشيطان المريد: شيطان الإنس؛ لأنّه كان يأخذ من الأعجام واليهود، ما يطعن به على المسلمين.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ معناه: إنّه يتبع كل شيطان كتب الله على ذلك الشيطان في اللوح المحفوظ أنّه يضلّ من تولّاه، فكيف يتبع مثله، ويعدل بقوله عمّن دعاه إلى الرحمة. وقيل: معناه: كتب الشيطان أنّه من تولّاه، أضلَّه الله تعالى. وقيل: معناه: كتب على المجادل بالباطل أنّ من إتّبعه وولّاه، يضلّه عن الدين. ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

ثمّ ذكر سبحانه الحجّة في البعث؛ لأنّ أكثر الجدال كان فيه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ والنشور. والريب: أقبح الشكّ ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ معناه: فالدليل على صحّته أنّا خلقنا أصلكم، وهو

آدم عليه السلام من تراب. فمن قدر على أن يصير التراب بشراً، سويّاً، حيّاً في الإبتداء، قدر على أن يحيي العظام، ويعيد الأموات.

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ معناه: ثمّ خلقنا أولاده ونسله، من نطفة في أرحام الأمّهات. وهي الماء القليل يكون من الذكر والأُنثى، وكل ماء صاف فهو نطفة، قلَّ أم كثر ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ بأن تصير النطفة علقة: وهي القطعة من الدم الجامد ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ أي: شبه قطعة من اللحم ممضوغة. فإنّ معنى المضغة: مقدار ما يمضغ من اللحم.

﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: تامّة الخلق، وغير تامّة[1]، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: مصوّرة وغير مصوّرة، وهي ما كان سقطاً، لا تخطيط فيه ولا تصوير، ـ عن مجاهد ـ. ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ معناه: لندلّكم على مقدورنا بتصريفكم في ضروب الخلق، أو لنبيّن لكم أنّ من قدر على الإبتداء، قدر على الإعادة، أو لنبيّن لكم ما يزيل ريبكم فحذف المفعول.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معناه: ونبقي في أرحام الأمّهات ما نشاء إلى وقت تمامه، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: ونقرّ من قدرنا له أجلاً مسمّى في رحم أمّه إلى أجله.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي: نخرجكم من بطون أمّهاتكم وأنتم أطفال.

---

(١) ذكر الجصّاص أنّ الحمل والولد لا يصدقان إلّا بعد تمام الخلقة، وإنّ الآية تدلّ على ذلك؛ لأنّ المضغة غير المخلّقة ليست بإنسان، وإنّما خلق منها الإنسان. وقال أيضاً إنّ النطفة تبقي أربعين يوماً نطفة، ثمّ أربعين يوماً علقة، وأربعين يوماً مضغة، فيلزم من ذلك أن لا ينقضي العدّة بالسقط الى أربعة أشهر، وهذا من مثله مع وفور علمه وكمال دقّته عجيب، إذ السقط في أوائل الحمل واقع كثيراً. وروي أنّه بعد شهرين بل أقلّ أيضاً في صورة إنسان تامّ متميّز الذكورة، الأنوثة، فكيف خفي عليه، ولم يحقّق ذلك. ثمّ إنّ الحمل يصدق على ما علم أنّه مبدء نشو الإنسان، وإن لم يصدق عليه الإنسان.

والطفل: الصغير من الناس. وإنّما وحَّد، والمراد به: الجمع؛ لأنّه بمعنى المصدر، كقولهم: رجل عدل، ورجال عدل. وقيل: أراد: ثمّ نخرج كل واحد منكم طفلاً.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وهو حال إجتماع العقل والقوّة وتمام الخلق. وقيل: هو وقت الإحتلام والبلوغ. وقد سبق تفسير الأشدّ، وإختلاف العلماء في معناه. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ أي: قبل بلوغ الأشدّ أي: يقبض روحه، فيموت في حال صغره، أو شبابه ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: أسوأ العمر، وأخبثه عند أهله. وقيل: أحقره، وأهونه، وهي حال الخوف. وإنّما صار أرذل العمر؛ لأنّ الإنسان لا يرجو بعده صحّة وقوّة، وإنّما يرتقب الموت والفناء، بخلاف حال الطفوليّة والضعف، الذي يرجى له الكمال والتمام بعدها.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: لكيلا يستفيد علماً، وينسى ما كان به عالماً. وقيل: معناه: لكي يصير إلى حال ينعدم عقله، أو يذهب عنه علومه هرماً، فلا يعلم شيئاً ممّا كان علمه. وإذا ذهب أكثر علومه جاز أن يطلق عليه ذهاب الجميع. قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة، وإحتجَّ بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ أي: قرأوا القرآن.

ثمّ ذكر سبحانه دلالة أخرى على البعث، فقال: ﴿وَتَرَىٰ الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يعني: هالكة، ـ عن مجاهد ـ. أي: يابسة دارسة من أثر النبات ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَآءَ﴾ وهو المطر ﴿إِهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرّكت بالنبات. والإهتزاز: شدّة الحركة في الجهات ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: زادت أي: أضعفت نباتها. وقيل: إنتفخت لظهور نباتها، ـ عن الحسن ـ. ﴿وَأَنبَتَتْ﴾ يعني: الأرض ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: من كل صنف ﴿بهيج﴾ مؤنق للعين، حسن الصورة واللون.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ (١) عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

الإعراب: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾: منصوب؛ على الحال، تقديره: ثانياً عطفه. ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾: له خزي مبتدأ وخبر، وفي: يتعلّق بما يتعلّق به اللام، والمبتدأ وخبره في محلّ الرفع؛ بأنّه خبر. ﴿مَنْ يُجَادِلُ﴾: خبر بعد خبر. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، و ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾: يجوز أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدءاً، والجارّ والمجرور في موضع الخبر. ويجوز أن يكون التقدير الأمر ذلك، فيكون خبر مبتدأ محذوف.

المعنى: لمّا قدّم سبحانه ذكر الأدلّة، عقّبه بما يتّصل به، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ معناه: ذلك الذي سبق ذكره من تصريف الخلق على هذه الأحوال، وإخراج النبات بسبب أنّ الله هو الخلق أي: ليعلموا أنّه الذي يحقّ له العبادة دون غيره. وقيل: هو الذي يستحقّ صفات التعظيم ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ لأنّ من قدر على إنشاء الخلق، فإنّه يقدر على إعادته. ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أمّا المعدومات، فيقدر على ايجادها وأمّا الموجودات، فيقدر على إفنائها وإعادتها،

---

(١) قرأ: ليَضلّ ـ بفتح الياء ـ ابن كثير وأبو عمرو. والباقون: بضمّها.

ويقدر على جميع الأجناس، ومن كل جنس، على ما لا نهاية له.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وليعلموا أنّ القيامة آتية لا شكّ فيها ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: يحييهم للجزاء؛ لأنّ ما ذكرناه يدلّ على البعث على الوجه الذي بيّنّاه.

﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ سبق تفسيره ﴿وَلَا هُدىً﴾ أي: لا يرجع فيما يقوله إلى علم ولا دلالة ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي: مضيء له نور يؤدّي من تمسّك به إلى الحقّ. والمعنى: أنّه لا يتبع أدلّة العقل، ولا أدلّة السمع، وإنّما يتبع الهوى والتقليد. وفي هذا دلالة على أنّ الجدال بالعلم صواب، وبغير العلم خطأ؛ لأنّ الجدال بالعلم يدعو إلى إعتقاد الحقّ، وبغير العلم يدعو إلى إعتقاد الباطل.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أي: متكبّراً في نفسه، عن ابن عباس، يقول العرب: ثنى فلان عطفه: إذا تكبّر وتجبّر. وعطفا الرجل: جانباه من عن يمين أو شمال، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان أي: يلويه ويميله عند الإعراض عن الشيء. وقيل: معناه: لا وي عنقه إعراضاً، وتكبّراً عن الله ورسوله، ـ عن قتادة ومجاهد ـ. ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: ليضلّ الناس عن الدين. ومن فتح الياء أراد: ليضلّ هو عن طريق الحقّ، المؤدّي إلى توحيد الله. ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: هوان وذلّ وفضيحة، بما يجري له على ألسنة المؤمنين من الذمّ، وبالقتل وغير ذلك. ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: النار التي تحرقهم.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: يقال له ذلك العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: بما كسبت يداك ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ في تعذيبهم؛ لأنّ الله لا يظلم ولا يعاقب إبتداء، ولا يزيد على الجزاء. وفي هذا دلالة واضحة على بطلان مذهب المجبرة، الذين ينسبون كل ظلم في العالم إلى الله تعالى.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

القراءة: قرأ روح وزيد عن يعقوب: خاسرِ الدنيا والآخرة ـ بالجرّ ـ، وهو قراءة مجاهد، وحميد بن قيس. والباقون: خسر ـ بغير ألف ـ ﴿والآخرة﴾ ـ بالنصب ـ. وقرأ أهل البصرة وابن عامر وورش: ثمّ لِيقطع ـ بكسر اللام ـ. والباقون: بسكونها. وكذلك: ثمّ لِيقضوا. وزاد ابن عامر: ولِيوفوا ولِيطّوّفوا ـ بالكسر فيهما أيضاً ـ. وقرأ أبو بكر: وليوفّوا ـ بتشديد الفاء ـ، والأعشى عنه بكسر اللام أيضاً. والباقون: وليوْفوا ـ ساكنة الواو خفيفة الفاء ـ.

الحجة: من قرأ: خسر الدنيا والآخرة، فإنّ هذه الجملة تكون بدلاً من قوله: ﴿إنقلب على وجهه﴾ فكأنه قال: وإن أصابته فتنة خسر الدنيا والأخرة. ومثله: قول الشاعر:

إنْ يَجْبُنُوا، أوْيَغْدِرُوا، أوْيَبْخَلُوا، لاٰ يَحلفوا

يَغْدُوا عَلَيْكَ مُـرَجَّلِينَ، كَأَنَّـهُمْ لَـمْ يَـفْعَلُوا

فقوله: يغدوا عليك، بدل من «لا يحفلوا». ومن قرأ: خاسر الدنيا والآخرة، فإنّه منصوب؛ على الحال. وأمّا قوله: ثمّ ليقطع، فإنّ أصل هذه اللام الكسر، فإذا دخلها الواو والفاء أو ثمّ، فمن أسكنها مع الفاء والواو، فإنّ الفاء والواو يـصيران كشيء واحد في نفس الكلمة؛ لأنّ كل واحد منهما لا ينفرد بنفسه، فصار بمنزلة كتف وفخذ. فأمّا «ثم» فهو منفصل عن الكلمة، وليست كالواو والفاء، فمن أسكن اللام معها، شبَّه الميم في «ثمّ» بالفاء والواو، وجعله كقولهم: أراكَ مُـنْتَفْخاً كـقول العجاج:

أرٰاكَ مُنْتَصباً وَمٰا تَكَرْدَسا[١]

ومثل ذلك قولهم: وَهْيَ فَهْيَ.

(اللغة): الحرف والطرف والجانب، نظائر. والإطمئنان: التمكّن. والفـتنة هيهنا المحنة. والإنقلاب: الرجوع. والعشـير: الصـاحب المـعاشر أي: المـخالط. والنصرة: المعونة. وقيل: إنّ النصرة هيهنا: الرزق، تقول العرب: من ينصرني نصره الله أي: من أعطاني أعطاه الله. قال الفقعسي:

وَإنَّك لا تُـعْطِي امـرأً فَـوْقَ حَـظِّهِ وَلا تَمْلِكُ الشِقّ الَّذِي الْغَيْثُ ناصِرُهُ

أي: معطيه وجائده. ويقال: نصر الله أرض فلان أي: جاد عـليها بـالمطر. والسبب: كل ما يتوصّل به الى الشيء، ومنه: قيل للحبل: سبب، وللطريق: سبب، وللباب: سبب.

(الإعراب): ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ قال الزجّاج: إختلف الناس

---

[١] التكردس: التجمع والتقبّض. كُرْدس الرجلُ: جُمعت يداه ورجلاه.

في تفسير هذه اللام، فقال البصريّون والكوفيّون: معنى هذه اللام التأخير، والتقدير: يدعو من لضرّه أقرب من نفعه. ولم يشرحوه قال: وشرحه: أنّ اللام لليمين والتوكيد، فحقّها أن تكون في أوّل الكلام، فقدمت لتجعل في حقّها، وإن كان أصلها أن يكون في آخره، كما أنّ «لام» أن حقّها أن تكون في الإبتداء، فلمّا لم يجز أنْ تلي «أنّ» جعلت في الخبر مثل قولك: إن زيداً لقائم فهذا قول. وقالوا أيضاً: إنَّ ﴿يَدْعُوا﴾ معه هاء مضمرة، وإنّ ﴿ذلك﴾: في موضع رفع، و ﴿يَدْعُوا﴾ في موضع الحال. المعنى: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه أي: في حال دعائه إيّاه. ويكون ﴿لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ﴾ مستأنفاً مرفوعاً بالإبتداء، وخبره: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾. وفيه وجه آخر أغفله الناس: وهو أن يكون «ذلك» في تأويل «الذي»، وهو في موضع نصب لوقوع ﴿يَدْعُوا﴾ عليه. ويكون ﴿لَمَن ضَرُّهُ﴾ مستأنفاً، وهو مثل قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ ومعناه: وما التي بيمينك.

وقال أبو عليّ: إنّ اللامات التي هي حروف دالّة على معان سوى الجارّة، والتي للأمر على أربعة أضرب:

أحدها: تدخل على خبر «إنْ» إذا خفّفت، أو على غير خبرها؛ ليفصل بين «إنْ» النافية والمؤكّدة، مثل قوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾، و ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾.

والثاني: يختصّ بالدخول على الفعل المضارع والماضي، ويكون جواباً للقسم، نحو قوله: ﴿لأملئنّ جهنّم﴾، وقول إمرء القيس:

لَنامُوا فَمَا إن مِنْ حَدِيثٍ وَلاصَالِ[١]

والثالث: يدخل في الشرط إذا كان جزاؤه معتمداً على قسم نحو قوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا﴾.

---

[١] وقبله: (حلفت لها بالله حلفة فاجر). والشعر بتمامه في جامع الشواهد.

والرابع: يختصّ بالدخول على الأسماء المبتدأة، وهي التي تدخل على خبر «إنَّ»، ويدخل على الفعل لمضارع إذا كان للحال، وكان خبراً لأن، وهو أحد جهتي مضارعة الفعل المضارع للإسم. وقد تدخل هذه اللام في ضرورة الشعر على خبر المبتدأ في غير «إنَّ»، وذلك كقوله:

أُمُّ الحُلَيْس لَعَجُوزٌ شَهْرَبَة[١]

وكما حكى أبو الحسن في حكاية نادرة: إنَّ زيداً وجهه لحسن. فإذا كان هذه اللام، حقّها أن تدخل على المبتدأ، أو على إسم إنَّ، أو خبرها، من حيث أدخلها على المبتدأ، وكان دخولها على خبر المبتدأ ضرورة، مع أنّه المبتدأ في المعنى، فدخوله في الموصول، والمراد به الصلة، ينبغي أن لا يجوز؛ لأنّ الصلة ليست بالموصول. كما أنّ خبر المبتدأ ليس المبتدأ.

فمن زعم أنّ اللام في ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ حكمها أن تكون في المبتدأ الذي في الصلة، ثم قدّم على الموصول، كان مخطئاً. وأيضاً فإنّ اللام إذا كان حكمه أنّه يكون في الصلة، ثمّ قدّم على الموصول، فذلك غير سائغ، كما أنّ سائر ما يكون في الصلة لا يتقدّم على الموصول قال: والوجه في ذلك أن يجعل قوله: ﴿يَدْعُواْ﴾ تكراراً للفعل الأوّل، على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء من فاعله، ولا تجعلها متعدّية؛ إذ قد تعدّت مرّة. ويجوز أن تجعل مع ﴿يَدْعُواْ﴾ هاء مضمرة، ويكون في موضع نصب؛ على الحال من ذلك، فكأنّه قال: ذلك هو الضلال البعيد مدعواً. ويجوز أن تجعل «ذلك هو الضلال البعيد» مفعول «يدعو»، على أن يكون «ذلك» في معنى «الذي»، ويكون «هو الضلال البعيد» صلته، كما قال أبو إسحاق أيضاً.

---

[١] وبعده: (ترضى من اللحم بعظم الرقبة). والشعر في جامع الشواهد.

فتكون اللام في هذه الوجوه داخلة على إسم مبتدأ موصول، ولا موضع للجملة التي هي ﴿لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ الآية؛ لأنّها لا تقع موقع مفرد، ويكون اللام في قوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ في موضع رفع؛ لوقوعه خبر المبتدأ. وتكون هذه اللام لليمين.فهذا ما يجب أن تحمل الآية عليه.

وأقول: إنّ إعرابه على الوجه الأول: أن يكون ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُ﴾: مفعول ﴿يَدْعُواْ﴾. ﴿وَمَا لا يَنفَعُهُ﴾: معطوفاً عليه، و ﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ، و ﴿هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾: خبره، و ﴿يَدْعُواْ﴾ تكراراً للفعل الأوّل. وعلى الوجه الثاني: يكون ﴿يَدْعُواْ﴾: حالاً من معنى الإشارة في ﴿ذلك﴾. وعلى الوجه الثالث: يكون ﴿ذلك﴾ إسماً موصولاً بمعنى «الذي»، والجملة: صلته، والموصول والصلة في موضع نصب؛ بأنّه المفعول ليدعو. واللام في ﴿لَمَن ضَرُّهُ﴾ لام الإبتداء. والموصول والصلة في موضع رفع؛ بالإبتداء. و ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾: جواب القسم. والقسم والمقسم في موضع رفع؛ بأنّه خبر المبتدأ. والعائد إلى المبتدأ، هو الضمير المحذوف من الجملة؛ لأنّ التقدير: لبئس المولى هو، ولبئس العشير هو.

قال الزجّاج: وفيه وجه آخر، وهو أن يكون ﴿يَدْعُواْ﴾ في معنى «يقول»، ويكون ﴿مَن﴾ في موضع رفع، وخبره محذوف. ويكون المعنى لمن ضرّه أقرب من نفعه هو مولاي، ومثله: قول عنترة:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ، وَالرِّمَاحُ كَأَنَّها أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبانِ الأَدْهَمِ[١]

أي: يقولون: يا عنتر! ويجوز أن يكون ﴿يَدْعُواْ﴾ في معنى «يسمّى»، كما قال ابن أحمر:

---

[١] هذا بيت من المعلقة. الشطن: الجبل الذي يستقى به. واللبان: الصدر، شبه النصل الطويل بحبال البئر.

أهْوىٰ لَهٰا مِشْقَصاً حَشْـراً فَشَـبْرَقها وَكُنْتُ أدْعُو قَذٰاها الإثْمِدَ الفَردا[١]

وأقول: إنّما قال خبر المبتدأ هنا محذوف؛ لأنّ من يعبد الصنم لا يقول: لمن ضرّه أقرب من نفعه لبئس المولى، فلذلك قدّر الخبر محذوفاً.

﴿النُّزُولُ﴾: قيل: نزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ في جماعة كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة. فكان أحدهم إذا صحَّ جسمه، ونتجت فرسه، وولدت إمرأته غلاماً، وكثرت ماشيته، رضي به، وإطمأنّ إليه. وإن أصابه وجع في المدينة، وولدت إمرأته جارية، قال: ما أصبت في هذا الدين إلّا شرّاً، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿المَعْنَىٰ﴾: لمّا تقدَّم ذكر الكفار، وما تعاطوه من الجدال، ذكر سبحانه بعده حال مقلّدة الضلال، والدعاة إلى الضلال، فـقال: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي: على ضعف في العبادة، كضعف القائم على حرف أي: طرف جبل، أو نحوه، عن عليّ بن عيسى قال: وذلك من إضطرابه في طريق العلم، إذا لم يتمكّن من الدلائل المؤدّية إلى الحقّ، فينقاد لأدنى شبهة لا يمكنه حـلّها. وقـيل: عـلى حرف أي: على شكّ، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: إنّه يعبد الله بلسانه دون قلبه، عن الحسن قال: الدين حرفان: أحدهما: اللسان، والثاني: القلب، فـمن إعـترف بلسانه، ولم يساعده قلبه، فهو على حرف.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: أصابه رخاء، وعافية، وخصب، وكـثرة مال، إطمأنَّ على عبادة الله بذلك الخير.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: إختبار بجدب وقلّة مال ﴿إِنقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: رجع عن دينه إلى الكفر. والمـعنى: إنـصرف إلى وجـهه الذي تـوجَّه مـنه،

---

(١) المِشقص: النصل الطويل. وسنان حشر أي: دقيق. شـبرقها أي: مـزقها. والإثـمد: حـجر يكتحل به، وأراد بالقذى: ما تساقط من صيده.

وهو الكفر.

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أي: خسر الدنيا بفراقه، وخسر الآخرة بنفاقه. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: الضرر الظاهر لفساد عاجله وآجله. وقيل: خسر في الدنيا العز والغنيمة، وفي الآخرة الثواب والجنّة.

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ أي: يدعو هذا المريد بعبادته سوى الله، ما لا يضرُّه إن لم يعبده، وما لا ينفعه إن عبده ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعل ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الحقّ والرشد.

﴿يَدْعُو﴾ على الوجه الآخر معناه: يدعوه؛ أي: يدعو الذي هو الضلال البعيد.

﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ قال السدّي: يعني: الذي ضرّه في الآخرة؛ بعبادته إيّاه، أقرب من النفع، وإن كان لا نفع عنده. ولكن العرب تقول لما لا يكون: هذا بعيد. ونفع الصنم بعيد؛ لأنّه لا يكون. فلمّا كان نفعه بعيداً قيل لضرّه: إنّه أقرب من نفعه، على معنى أنّه كائن.

﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ أي: لبئس الناصر هو ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي: الصاحب المعاشر المخالط هو يعني: الصنم يخالطه العابد ويصاحبه.

ولمّا ذكر الشاكّ في الدين بالخسران، ذكر ثواب المؤمنين على الإيمان فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وصدّقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ بأوليائه، وأهل طاعته من الكرامة، وبأعدائه، وأهل معصيته من الإهانة، لا يدفعه دافع، ولا يمنعه مانع.

ثمّ قال: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللهُ﴾ الهاء في ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائدة إلى النبيّ ﷺ، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ. والمعنى: من كان يظنّ أنّ الله لن ينصر نبيّه محمّداً ﷺ، ولا يعينه على عدوّه ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى

﴿السَّمَاءِ﴾ أي: فليشدّد حبلاً في سقفه.

﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي: ليمدد ذلك الحبل حتى ينقطع، فيموت مختنقاً. والمعنى: فليختنق غيظاً حتى يموت، فإنّ الله ناصره، ولا ينفعه غيظه، وهو قوله: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ أي: صنعه وحيلته.

﴿مَا يَغِيظُ﴾ ما: بمعنى المصدر أي: هل يذهبنّ كيده غيظه، ـ عن قتادة وأكثر المفسّرين ـ. وقيل: فليمدد بسبب إلى السماء، معناه: فليطلب شيئاً يصل به إلى السماء المعروفة، ثمّ ليقطع نصر الله، ووحي الله عن محمّد ﷺ، وليزل بكيده ما يغيظه من نصر الله له، ونزول الوحي عليه أي: لا يتهيّأ له ذلك، ولا سبيل له إليه، فليتجرّع ما يغيظه. وإنّما قال سبحانه ذلك على وجه التبعيد أي: كما لا يتهيّأ لهم الوصول إلى السماء، كذلك لا يتهيّأ لهم إزالة ما يغيظهم من أمر رسول الله، ونصره على أعدائه دائماً. وإنّما ذكر السماء؛ لأنّ النصر يأتيه من قبل السماء، ومن الملائكة، ـ عن أبي عليّ الجبائي ـ. وقيل: إنّ الهاء في ﴿ينصره﴾ عائدة إلى ﴿مَن﴾، ـ عن مجاهد والضحّاك وأبي مسلم ـ.

ثمّ أختلف في معناه فقيل: من كان يظنّ من الناس أنّ الله لا ينصره، فليجهد جهده، وليصعد السماء، ثمّ ليقطع المسافة، فلينظر هل ينفعه كيده في إزالة غيظه لما يدعى إليه من دين الله، فإنّ الذي حكم الله به لا يبطل بكيد الكائد، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: المراد بالنصر: الرزق، ويقال: أرض منصورة أي: ممطورة. والمعنى: من ظنّ أنّ الله لا يرزقه في الدنيا والآخرة، فليختنق نفسه أي: لا يمكنه تكثير رزقه أي: كما لا يقدر أن يزيد فيما رزقه الله بهذا النوع من الكيد، كذلك لا يقدر عليه بسائر أنواع الكيد. وهذا مثل ضربه الله لهذا الجاهل الذي يسخط لما أعطاه الله أي: مثله مثل من فعل بنفسه هذا.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ
﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ(١) وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

الإعراب: خبر ﴿أنَّ﴾ الأولى جملة الكلام مع «إنّ» الثانية. وزعم الفرّاء أنَّ قولك: إنَّ زيداً إنه لقائم رَديّ، وأنَّ هذه الآية إنّما صلحت في «الذي». قال الزجّاج: لا فرق بين الذي، وغيره في باب «أنَّ». إنْ قلت: إنَّ زيداً إنه قائم، كان جيّداً. قال جرير:

إنَّ الْخَلِيفَةَ إنَّ اللَّهَ سَرْبَلَهُ سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَواتِيمُ[١]

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أنّه نزل الآيات حجّة على الخلق، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما تقدّم من آيات القرآن ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: حججاً واضحات على التوحيد، والعدل، والشرائع.

﴿وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أي: وأنزلنا إليك أنّ الله يهدي إلى الدين من

---

(١) قرأ نافع: الصابين ـ بحذف الهمزة ـ.

[١] السربال: القميص والدرع. سربلته: ألبسته السربال.

يريد. وقيل: إلى النبوّة. وقيل: إلى الثواب. وقيل: يهدي من يهتدي بهداه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمّد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ظاهر المعنى.

﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يبيّن المحقّ من المبطل بما يضطرّ إلى العلم بصحّة الصحيح، فيبيض وجه المحقّ، ويسوّدُ وجه المبطل. والفصل: التمييز بين الحقّ والباطل.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عليم مطّلع على ما من شأنه أن يشاهد بعلمه قبل أن يكون؛ لأنّه علّام الغيوب.

ثمّ خاطب النبيّ ﷺ والمراد به جميع المكلّفين، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من العقلاء ﴿وَالشَّمْسُ﴾ أي: ويسجد الشمس ﴿وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ وصف سبحانه هذه الأشياء بالسجود، وهو الخضوع والذلّ والإنقياد لخالقها فيما يريد منها ﴿وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ﴾ يعني: المؤمنين الذين يسجدون لله تعالى، وإنقطع ذكر الساجدين، ثمّ إبتدأ فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي: ممّن أبى السجود، ولا يوحّده سبحانه. قال الفرّاء: قوله ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ يدل على أنّ المعنى: وكثير أبى السجود؛ لأنّه لا يحقّ عليه العذاب إلّا بتركه السجود.

﴿وَمَنْ يُهِنْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ معناه: من يهنه الله بأن يشقيه ويدخله جهنّم، فما له من مكرم بالسعادة أي: بإدخاله الجنّة؛ لأنّه لا يملك العقوبة والمثوبة سواه.

﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الإنعام والإنتقام بالفريقين من المؤمنين والكافرين.

﴿ هَٰذَانِ[1] خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ
ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾
وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟
مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾
وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة وعاصم: ﴿ولؤلؤاً﴾ ـ بالنصب ـ، وفي سورة فاطر مثله. والباقون: بالجرّ في الموضعين إلّا يعقوب، فإنّه قرأ هيهنا بالنصب، وفي فاطر: بالجرّ. وترك أبو جعفر وأبو بكر وشجاع، الهمزة الأولى منه في جميع القرآن. وفي الشواذّ، قراءة ابن عباس: ﴿يَحلون﴾ ـ بفتح الياء وتخفيف اللام ـ.

الحجة: قال أبو علي: وجه الجرّ في ﴿لؤلؤ﴾: أنّهم يحلّون فيها من أساور من ذهب ومن لؤلؤ. ووجه النصب: أنّه عطف على «فيها»، أي: ويحلّون لؤلؤاً. ويجوز أن يكون عطفاً على موضع الجارّ والمجرور؛ لأنّ المعنى في يحلّون فيها من أساور: يحلون أساور. وقال ابن جنّي: يحلّون، من حلي يحلى، يقال: لم أحل منه بطائل أي: لم أظفر. ويجوز أن يكون من قولهم: امرأة حالية أي: ذات حليّ.

---

(١) قرأ هذانّ ـ بتشديد النون ـ ابن كثير.

(اللغة): الخصم: يستوي فيه الواحد والجمع، والذكر والأنثى. يقال: رجل خصم، ورجلان خصم، ورجال خصم، ونساء خصم. وقد يجوز في الكلام: هذان خصمان إختصموا، وهؤلاء خصم إختصموا. قال الله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ وهكذا حكم المصادر إذا وصف بها أو أخبر بها، نحو: عدل، ورضى، وصوم، وفطر، وزور، وحري، وقمن، وما أشبه ذلك. وإنّما قال في الآية: ﴿خَصْمَانِ﴾؛ لأنّهما جمعان، وليسا برجلين. ومثله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِقْتَتَلُواْ﴾ والحميم: الماء المغليّ. والصهر: الإذابة. يقال: صهرته فإنصهر. قال:

تَروي لَقى أَلْقِيَ فِي صَفصَفٍ تَصْهَرُهُ الشَّمْسُ فَما يَنْصَهِر(١)[١]

يعني: ولدها. والمقامع: جمع مقمعة، وهي مدقّة الرأس من قمعه قمعاً: إذا ردعه. والحريق: بمعنى المحرق، كالأليم. والأساور: جمع اسوار، وفيه ثلاث لغات اسوار ـ بالألف ـ، وسِوار وسُوار ـ بالكسر والضمّ ـ، والجمع: إسورة.

(النزول): قيل: نزلت الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾ في ستّة نفر من المؤمنين والكفّار، تبارزوا يوم بدر، وهم: حمزة بن عبدالمطّلب قتل عتبة بن ربيعة، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة. وعبيدة بن الحرث بن عبد المطّلب قتل شيبة [عتبة] بن ربيعة، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة، وعبيدة بن الحرث بن عبدالمطّلب قتل شيبة بن ربيعة ـ عن أبي ذرّ الغفاريّ وعطا. وكان أبو ذرّ يقسم بالله تعالى إنّها نزلت فيهم، ورواه البخاري في الصحيح ـ. وقيل: نزلت في أهل القرآن وأهل الكتاب، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: في المؤمنين

---

(١) يصف قطاة تروي فرخها.

[١] قائله: ابن أحمر يصف فرخ قطاة. قوله: «تروى» أي: تسوق إليه الماء أي تصير له كالرواية. والصفصف: الفلاة. وقوله: «تصهره الشمس». أي: تذيبه الشمس فيصبر على ذلك.

والكافرين، ـ عن الحسن ومجاهد والكلبي ـ وهذا قول أبي ذرّ إلّا أنّ هؤلاء لم يذكروا يوم بدر.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر المؤمنين والكافرين، بيّن سبحانه ما أعدَّه لكل واحد من الفريقين، فقال: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي: جمعان. فالفرق الخمسة الكافرة خصم، والمؤمنون خصم. وقد ذكروا في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ﴾ الآية. ﴿إِخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي: في دين ربّهم، فقالت اليهود والنصارى للمسلمين: نحن أولى بالله منكم؛ لأنّ نبيّنا قبل نبيّكم، ودِيننا قبل دينكم. وقال المسلمون: بل نحن أحقّ بالله منكم، آمنّا بكتابنا وكتابكم، ونبيّنا ونبيّكم، وكفرتم أنتم بنبيّنا حسداً، فكان هذا خصومتهم. وقيل: إنّ معنى: اختصموا: إقتتلوا يوم بدر.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ قال ابن عباس: حين صاروا إلى جهنّم، لبسوا مقطّعات النيران، وهي الثياب القصار. وقيل: يجعل لهم ثياب نحاس من نار، وهي أشدّ ما تكون حرّاً، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقيل: إنّ النار تحيط بهم كإحاطة الثياب التي يلبسونها بهم

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي: الماء المغليّ، فيذيب ما في بطونهم من الشحوم، وتتساقط الجلود. وفي خبر مرفوع أنّه يصبّ على رؤوسهم الحميم، فينفذ إلى أجوافهم، فيسلت ما فيها. ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي: يذاب وينضج بذلك الحميم ما فيها من الأمعاء، وتذاب به الجلود.

﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال الليث: المقمعة شبه الجرز من الحديد، يضرب بها الرأس. وروي أبو سعيد الخدري قال: رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَلَهُم مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾: لو وضع مقمع من حديد في الأرض، ثمّ إجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض. وقال الحسن: إنّ النار ترميهم بلهبها، حتى إذا كانوا في أعلاها،

ضربوا بمقامع، فهووا فيها سبعين خريفاً، فإذا إنتهوا إلى أسفلها، ضربهم زفير لهبها فلا يستقرّون ساعة. فذلك قوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي: كلّما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغمّ والكرب الذي يأخذ بأنفسهم حين ليس لها مخرج، ردّوا إليها بالمقامع.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: ويقال لهم ذوقوا. والذوق: طلب إدراك الطعم. والحريق: الإسم من الإحتراق. قال الزجّاج: هذا لأحد الخصمين. وقال في الخصم الذين هم المؤمنون ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وأقرّوا بوحدانيّته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أبنيتها وأشجارها ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: يلبسون الحليّ فيها ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ وهي حليّ اليد ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ أي: ومن لؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: ديباج. حرّم الله سبحانه لبس الحرير على الرجال في الدنيا، وشوّقهم إليه في الآخرة، فأخبر أنّ لباسهم في الجنّة حرير.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ الْقَوْلِ﴾ أي: أرشدوا في الجنّة إلى التحيّات الحسنة، يُحيّي بعضهم بعضاً، ويُحييّهم الله وملائكته بها. وقيل: معناه: أرشدوا إلى شهادة أن لا إله إلا الله، والحمد لله، ـ عن ابن عباس ـ. وزاد ابن زيد: والله أكبر. وقيل: أرشدوا إلى القرآن، ـ عن السدّي ـ. وقيل: إلى القول الذي يلتذّونه، ويشتهونه، وتطيب به نفوسهم. وقيل: إلى ذكر الله فهم به يتنعّمون.

﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ والحميد: هو الله المستحقّ للحمد، المستحمد إلى عباده بنعمه، عن الحسن. أي: الطالب منهم أن يحمدوه. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما أحد أحبّ إليه الحمد من الله، عزّ ذكره. وصراط الحميد هو طريق الإسلام، وطريق الجنّة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ(١)
وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى
شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ
مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن
يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ
لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ
ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

القراءة: قرأ حفص عن عاصم وروح وزيد عن يعقوب: ﴿سواء﴾ ـ بالنصب ـ. والباقون: بالرفع. وفي الشواذّ، قراءة ابن عباس وأبي مجلز ومجاهد وعكرمة والحسن. ﴿رُجّالا﴾ ـ بالتشديد والضمّ ـ، وهو المرويّ عن

(١) أثبت الياء من «والباد» وصلاً ورش وأبو عمرو، وفي الحالين ابن كثير.

أبي عبدالله عليه السلام. وقراءة ابن أبي إسحاق والزهري والحسن بخلاف: ﴿رُجَالا﴾ ـ بالضمّ والتخفيف ـ.

الحجّة: قال أبو عليّ: وجه الرفع في ﴿سواء﴾: أنّه خبر مبتدأ مقدّم، والمعنى: العاكف فيه والبادي سواء، ليس أحدهما بأحقّ به من صاحبه. وهذا يدلّ على أنّ أرض الحرم لا تملك، ولو ملكت لم يستويا فيها، وصار العاكف فيها أولى بها من البادي؛ لحقّ ملكه، ولكن سبيلها سبيل المساجد التي من سبق إليها، كان أولى بها. ومن نصب ﴿سواء﴾: أعمل المصدر إعمال إسم الفاعل، فرفع «العاكف» به، كما يرفع بمستوي لو قال: جعلناه مستوياً العاكف فيه والبادي. ووجه إعماله: أنّ المصدر قد يقوم مقام إسم الفاعل في الصفة في نحو قولهم: رجل عدل، فيصير عدل كعادل. ويجوز في نصب ﴿سواء﴾ وجه آخر: وهو أن تنصبه على الحال، فإذا نصبته عليها، وجعلت قوله: للناس مستقرّاً. جاز أن يكون حالاً يعمل فيها معنى الفعل، وذو الحال الذكر الذي في المستقرّ. ويجوز أن يكون حالاً من الفعل الذي هو ﴿جعلناه﴾ فإن جعلتها حالاً من الضمير المتّصل بالفعل، كان الضمير ذا الحال، والعامل فيها: الفعل، وجواز كون للناس مستقرّاً على أن يكون المعنى: أنّه جعل للناس، ونصب لهم منسكاً ومتعبّداً، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾.

وأمّا قوله: ﴿رُجّالا﴾ فهو جمع راجل، مثل: طالب وطلّاب، وكاتب وكتّاب. وأمّا ﴿رُجَالا﴾ ـ بتخفيف الجيم ـ، فهو غريب في الجمع، فهو نحو: ظُؤار، وعُراق، ورُخال، في جمع: ظئر[١]، وعرق، ورخل.

اللغة: العاكف: المقيم الملازم للمكان. والبادي: أصله من بدا يبدو: إذا ظهر، والبدو: خلاف الحضر سمّي بذلك لظهوره؛ والبادي في الآية: الطارىء.

---

[١] الظئر: العاطفة على غير ولدها، المرضعة له من الناس والإبل.

والمكان: ما يتمكّن عليه الشيء، قيل: هو إسم لما أحاط بالشيء. والمكان والموضع والمستقرّ، نظائر. والرجال: جمع راجل مثل: صحاب وقيام، في جمع، صاحب وقائم. والضامر: المهزول أضمره السير. والعميق: البعيد. قال الراجز:

يقطعن بعد النازح العميق

والبائس: الذي به ضرّ الجوع. والفقير: الذي لا شيء له. يقال: بؤس فهو بائس أي: صار ذا بؤس، وهو الشدّة. قال الأزهري: لا يعرف التفث في لغة العرب إلّا من قول ابن عباس، وأهل التفسير. وقال النضر بن شميل: هو إذهاب الشعث.

﴿الإعراب﴾: خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ محذوف، يدلّ عليه ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالمعنى: إنّ الذين كفروا نذيقهم العذاب الأليم ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلحَادٍ﴾: الباء فيه زائدة، تقديره: ومن يرد فيه إلحاداً. والباء في قوله ﴿بِظُلْمٍ﴾: للتعدية وما جاءت الباء فيه مزيدة، قول الشاعر:

بِوادٍ يَمانٍ يُنبِتُ الشَّتَّ صَدْرُهُ وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ، والشُّبُهانِ[١]

وقول الأعشى:

ضَمِنَتْ بِرِزْقِ عِيالِنا أرْماحُنا مِلْءَ المَراجِلِ، والصَّرِيحَ الأجْرَدا[٢]

وقول إمرىء القيس:

ألا هَلْ أتاهَا، وَالْحَوادِثُ جَّمَةٌ بِأنّ أمْرَأ القَيْسِ بنَ تَمْلِكَ بَيْقَرا[٣]

وقال الزجّاج: والذي يذهب إليه أصحابنا أنَّ الباء ليست بملغاة، والمعنى عندهم: ومن أراد فيه بأن يلحد بظلم، وهو مثل قوله:

---

(١) شت: بنت. والمرخ والشبهان: نوعان من الشجر.

(٢) الصريح: الخالص. والاجرد: الخالص أيضاً، أراد به اللبن ومثله.

(٣) بيقر: أي حسر وأعيا من كثرة السفر، وطوله: والأشعار قبل هذا البيت في صفة ناقة، وسفره. والضمير في «أتاها» للناقة. وقيل: بيقر: أي سكن الأمصار، وأهله بالبادية، ولا يناسب المقام.

أرِيدُ لأنْسى ذِكْرَها، فَكَأنَّما تَمَثَّلُ لِي لَيْلىٰ بِكُـلِّ سَـبِيلِ

والمعنى: أريد وإرادتي لهذا. ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: في موضع نصب؛ على الحال أي: يأتوك رجالاً وركباناً. و ﴿يَأْتِينَ﴾: في موضع جرّ؛ لأنّ المعنى في قوله: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ على إبل ضامرة آتية من كل فجّ عميق. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قرأ يأتون. فعلى هذا يعود الضمير في «يأتون» إلى «الناس».

﴿المَعْنَىٰ﴾: ثمّ بيّن سبحانه حال الكفّار، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ عطف بالمضارع على الماضي؛ لأنّ المراد بالمضارع أيضاً الماضي، ويقويه قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾. ويجوز أن يكون المعنى: أنَّ الذين كفروا فيما مضى، وهم الآن يصدّون الناس عن طاعة الله ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: خلقناه للناس مستقرّاً ومنسكاً ومتعبّداً. وقيل: معناه: خلقناه للناس كلّهم، لم يخصّ به بعض دون بعض. قال الزجّاج: جعلناه للناس وقف تامّ.

ثمّ قال: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي: العاكف المقيم فيه، والباد الذي ينتابه[١] من غير أهل[أهله]، مستويان في سكناه، والنزول به، فليس أحدهما أحقّ بالمنزل يكون فيه من الآخر، غير أنّه لا يخرج أحد من بيته، عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير قالوا: إن كراءَ دور مكّة وبيعها حرام. والمراد بالمسجد الحرام على هذا: الحرم كلّه، كقوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. وقيل: المراد بالمسجد الحرام: عين المسجد الذي يصلّى فيه. ـ عن الحسن ومجاهد والجبائي ـ. والظاهر يدلّ عليه. وعلى هذا يكون المعنى في قوله: ﴿جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: قبلة لصلاتهم، ومنسكاً لحجّهم. فالعاكف والباد سواء في

---

[١] أي: يقصده ويأتيه.

حكم النسك[١]. وكان المشركون يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام، والطواف به، ويدّعون أنّهم أربابه، وولاته.

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ والإلحاد: العدول عن القصد. وأختلف في معناه هيهنا فقيل: هو الشرك وعبادة غير الله تعالى، ـ عن قتادة ـ. فكأنّه قال: ومن يرد فيه ميلاً عن الحقّ، بأن يعبد غير الله، ظلماً وعدواناً. وقيل: هو الإستحلال للحرام، والركوب للآثام، ـ عن ابن عباس والضحّاك ومجاهد وابن زيد ـ. وقيل: هو كل شيء نهي عنه حتى شتم الخادم؛ لأنّ الذنوب هناك أعظم. وقيل: هو دخول مكّة بغير إحرام، ـ عن عطاء ـ.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: نعذّبه عذاباً وجيعاً. وقيل: إنّ الآية نزلت في الذين صدّوا رسول الله ﷺ عن مكّة، عام الحديبية.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ معناه: واذكر يا محمّد إذ وطأنا لإبراهيم مكان البيت، وعرفناه ذلك بما جعلنا له من العلامة. قال السدّي: إنّ الله تعالى لمّا أمره ببناء الكعبة، لم يدر أين يبني، فبعث الله ريحاً خجوجاً[١]، فكنست [فكشفت] له ما حول الكعبة عن الأساس الأوّل، الذي كان البيت عليه، قبل أن رفع أيّام الطوفان. وقال الكلبي: بعث الله سبحانه على قدر البيت، فيها رأس تتكلّم، فقامت بحيال الكعبة وقال: يا إبراهيم إبن عليَّ قدري. وقيل: إنّ المعنى جعلنا البيت مثوبة [مثواه] ومسكنة، ـ عن ابن الأنباري ـ.

﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ أي: وأوحينا إليه أن لا تعبد غيري. قال المبرّد:

---

(١) والصحيح أنّ بيع دور مكّة وإجارتها جائزان، لأنّ المسجد الحرام حقيقة في نفس المسجد وأمّا إطلاقه على الحرم ومكّة، فيجاز، لا يصار إليه إلّا بدليل، كما في الضمير الراجع إليه من «العاكف فيه والباد» فإنّ «العاكف» لا يكون في نفس المسجد، ومثل إخراج أهله منه أكبر، وليس هذا من جهة كونها مفتوحة العنوة؛ للشكّ فيه بل منعه؛ للنهي الخاصّ، وليس.

[١] الريح الخجوج: الشديدة.

كأنّه قال: وحِّدني في هذا البيت؛ لأنّ معنى لا تشرك بي شيئاً: وحِّدني.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الشرك وعبادة الأوثان، ـ عن قتادة ـ. ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ مفسر بسورة البقرة، والمراد بالقائمين: المقيمين بمكّة. وقيل:القائمين في الصلاة، ـ عن عطا ـ.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي: ناد في الناس، وأعلمهم بوجوب الحجّ. وأختلف في المخاطب به على قولين:

أحدهما: إنّه إبراهيم، ـ عن عليّ عليه السلام وابن عباس، وإختاره أبو مسلم ـ. قال ابن عباس: قام في المقام فنادي: يا أيّها الناس! إنَّ الله دعاكم إلى الحجّ، فأجابوا بلبّيك أللهم لبّيك.

والثاني: إنَّ المخاطب به: نبيّنا محمّد ـ عليه أفضل الصلوات ـ أي: وأذّن يا محمّد في الناس بالحجّ، فأذّن ـ صلوات الله عليه ـ في حجّة الوداع أي: أعلمهم بوجوب الحجّ، ـ عن الحسن والجبائي ـ. وجمهور المفسّرين على القول الأوّل، وقالوا: أسمع الله تعالى صوت إبراهيم كل من سبق علمه بأنّه يحجّ إلى يوم القيامة، كما أسمع سليمان مع إرتفاع منزلته، وكثرة جنوده حوله، صوت النملة، مع خفضه وسكونه. وفي رواية عطا عن ابن عباس قال: لمّا أمر الله سبحانه إبراهيم أن ينادي في الناس بالحجّ، صعد أبا قبيس، ووضع إصبعيه في أذنيه، وقال: يا أيّها الناس! أجيبوا داعي ربّكم. فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال، وأوّل من أجابه أهل اليمن.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ أي: مشاة على أرجلهم ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ركباناً. قال ابن عباس: يريد الإبل، ولا يدخل بعير ولا غيره الحرم، إلّا وقد هزل. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس، أنّه قال لبنيه: يا بنيّ! حجّوا من مكّة مشاة، حتى

ترجعوا إليها مشاة[١]، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: للحاجّ الراكب، بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة، وللحاجّ الماشي، بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم. قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف حسنة.

﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: طريق بعيد. وروي مرفوعاً عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، يقول: يا ملائكتي! أنظروا إلى عبادي شعثاً غبراً، أقبلوا يضربون إليّ من كل فجّ عميق، فأشهدكم أنّي قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مسيئهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم. فإذا أفاض القوم إلى جَمْعٍ، ووقفوا، وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله، يقول: يا ملائكتي! عبادي وقفوا، وعادوا في الرغبة والطلب، فأشهدكم أنّي قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مسيئهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألني، وكفلت عنهم بالتبعات التي بينهم.

وقوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قيل: يعني: بالمنافع التجارات، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير ـ. وقيل: التجارة في الدنيا، والأجر والثواب في الاخرة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هي منافع الآخرة، وهي العفو والمغفرة، ـ عن سعيد بن المسيّب، وعطية العوفي، وهو المرويّ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ـ. ويكون المعنى: ليحضروا ما ندبهم الله إليه ممّا فيه النفع لهم في الآخرة.

---

(١) إستدلّ المقداد على أفضلية المشي على الركوب؛ بتقديمه في الذكر؛ وبكونه أشق، وقال: ومنهم: مَن فَضَل الركوب؛ لإشتماله على إستخدام المال، والبدن. وإستدلّ الجصّاص على فضل المشي، بأنّ الحسن بن عليّ عليه السلام حجّ خمساً وعشرين حجّة، وأنّ النجائب تقاد معه، وبأنّ أمّ عقبة بن عامر نذرت أن تمشي إلى بيت الله تعالى، فأمرها النبيّ ﷺ أن تركب، وتهدي، ولولا أنّ المشي قربة، لما أوجب الهدى بتركه.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ أختلف في هذه الأيّام، وفي الذكر فيها، فقيل: هي أيّام العشر. وقيل لها معلومات: للحرص على علمها من أجل انّ وقت الحجّ في آخرها. والمعدودات: أيّام التشريق، ـ عن الحسن ومجاهد ـ. وقيل: هي أيّام التشريق يوم النحر، وثلاثة بعده. والمعدودات: أيّام العشر، ـ عن ابن عباس، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام ـ. وإختاره الزجّاج قال: لأنّ الذكر هيهنا يدلّ على التسمية على ما ينحر لقوله: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: على ذبح ونحر ما رزقهم من الإبل والبقر والغنم، وهذه الأيّام تختصّ بذلك[1].

وقيل: إنّ الذكر فيها كناية عن الذبح؛ لأنّ صحّة الذبح لمّا كان بالتسمية، سمّي بإسمه توسّعاً. وقيل: هو التكبير، قال أبو عبدالله عليه السلام: التكبير بمنى عقيب خمس عشرة صلاة، أولها صلاة الظهر من يوم النحر، يقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله، والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أبلانا، والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام. والبهيمة: أصلها من الإبهام، وذلك أنّها لا تفصح، كما يفصح الحيوان الناطق. والأنعام: الإبل. وإشتقاقها من النعمة، وهي اللين، سمّيت بذلك؛ للين أخفافها. وقد يجتمع معها البقر والغنم فيسمّى الجميع أنعاماً إتّساعاً. وإن إنفردا لم يسمّيا أنعاماً.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي: من بهيمة الأنعام. وهذا إباحة أو ندب وليس بواجب. ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فالبائس: الذي ظهر عليه أثر البؤس، من الجوع،

---

(١) ولا تدلّ الآية على النحر في غير اليوم العاشر، بل على ذكر الله تعالى في أيّام التشريق، فلا يجوز النحر إختياراً في غير يوم النحر. نعم لو ترك هذا الواجب عامداً مختاراً يوم النحر، أجزء عنه في بقيّة ذي الحجّة. وقيل: إنّ الهدى الواجب يجوز ذبحه طول ذي الحجّة، ويوم النحر أفضل.

والعري. وقيل: البائس: الذي يمدّ يده بالسؤال، ويتكفّف للطلب. أمر سبحانه أن يعطى هؤلاء من الهدي.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: ليزيلوا شعث الإحرام من تقليم ظفر، وأخذ شعر، وغسل، وإستعمال طيب، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: ليقضوا مناسك الحجّ كلها، ـ عن ابن عباس، وابن عمر ـ. قال الزجّاج: قضاء التفث كناية عن الخروج من الإحرام إلى الإحلال.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أي: وليتمّوا نذورهم بقضائها، ولم يقل: بنذورهم؛ لأنّ المراد بالإيفاء: الإتمام. قال ابن عباس: هو نحر ما نذروا من البدن. وقيل: هو ما نذروا من أعمال البرّ في أيّام الحجّ، وربما نذر الإنسان أن يتصدّق إن رزقه الله الحج، وإن كان على الرجل نذورٌ مطلقة، فالأفضل أنْ يفي بها هناك.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هذا أمر، وظاهره يقتضي الوجوب. وقيل: أراد به طواف الزيارة؛ لأنّه من أركان أفعال الحجّ بلا خلاف. وقيل: إنّه طواف الصدر[١]؛ لأنّه سبحانه أمر به عقيب المناسك كلّها. وروى أصحابنا: أن المراد به: طواف النساء الذي يتباح به وطئ النساء، وذلك بعد طواف الزيارة، فإنّه إذا طاف طواف الزيارة، حلّ له كل شيء إلّا النساء، فإذا طاف طواف النساء حلت له النساء(١).

---

(١) وقال المقداد: يشمل الآية كل طواف واجب، ثمّ إنّ الترتيب الذكرى مراعي في العمل، فيقدّم الذبح على التقصير، والتقصير على الطواف، فلو خالف أثم، بل يجب اعادة الطواف بعد الحلق ودم شاة، إن قدّمه عمداً، والإعادة فقط إن كان سهواً. وإطلاق التفث يدلّ على جواز كل من الحلق، والتقصير على الصرورة، وغيره. وأوجب بعضهم الحلق على الصرورة في التمتّع؛ لروايات قاصرة، ويجوز الحلق في أيّام منى جميعاً، وتشكّك في الرياض في وجوب تقدّم التقصير على الطواف، وهو عجيب.

[١] قال الطريحي: طواف الصدر: طواف الرجوع من (مِنى).

والبيت العتيق هو الكعبة، وإنما سمّي عتيقاً؛ لأنّه أعتق من أن تملكه العبيد، ـ عن مجاهد، وسفيان بن عيينة، وأبي مسلم ـ. وقيل: إنّما سمّي عتيقاً؛ لأنّه أعتق من أن تصل الجبابرة إلى تخريبه، وما قصده جبّار قبل نبيّنا ﷺ، إلّا أهلكه الله تعالى. وإنّما لم يهلك الحجّاج حين نقضه، وبناه ثانياً ببركة نبيّنا ﷺ، فإنّ الله سبحانه أمن ببركته هذه الأمّة من عذاب الإستئصال، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: سمّي به؛ لأنّه أعتق من الطوفان، فغرقت الأرض كلّها إلّا موضع البيت. وقيل: سمّي به؛ لأنّه قديم، فهو أوّل بيت وضع للناس، بناه آدم عليه السلام، ثم جدّده إبراهيم عليه السلام، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿ذَلِكَ﴾ قيل: هيهنا وقف، ومعناه: الأمر ذلك أي: هكذا أمر الحجّ والمناسك. ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فالتعظيم خير له عند ربّه أي: في الآخرة. والحرمة: ما لا يحلّ إنتهاكه. وقال الزجّاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه، وهي في هذه الآية ما نهي عنها، ومنع من الوقوع فيها، وتعظيمها ترك ملامستها. وإختار أكثر المفسّرين في معنى الحرمات هنا أنّها المناسك لدلالة ما يتّصل بها من الآيات على ذلك. وقيل: معناها هيهنا البيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمسجد الحرام، عن ابن زيد قال: ويدلّ عليه قوله: ﴿والحُرُمَاتُ قصَاصٌ﴾.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني: في سورة المائدة من الميتة، والمنخنقة، والموقوذة، ونحوها.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ مِن: هنا للتبيين، والتقدير: فإجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. وروى أصحابنا أنّ اللعب بالشطرنج، والنرد، وسائر أنواع القمار من ذلك. وقيل: إنّهم كانوا يلطّخون الأوثان بدماء قرابينهم، فسمّي ذلك رجساً.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ يعني: الكذب. وقيل: هو تلبية المشركين: لبّيك لا

شريك لك إلّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وروى أصحابنا أنّه يدخل فيه الغناء، وسائر الأقوال الملهيّة. وروى أيمن بن خزيم[١] عن رسول الله ﷺ أنّه قام خطيباً فقال: أيّها الناس! عدلت شهادة الزور بالشرك بالله. ثمّ قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ يريد أنّه قد جمع في النهي بين عبادة الوثن، وشهادة الزور.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة: ﴿فتخَّطفه﴾ ـ بفتح الخاء مشدّداً ـ. والباقون: ﴿فتخْطفه﴾ ـ بسكون الخاء والتخفيف ـ. وقرأ ﴿منسِكاً﴾ أهل الكوفة غير عاصم. والباقون: ﴿منسَكاً﴾ ـ بالفتح ـ. وفي الشواذّ، قراءة الحسن، وابن أبي إسحاق: ﴿والمقيمي الصَّلاة﴾ ـ بالنصب ـ.

---

[١] في بعض النسخ: خريم.

الحجة: تَخَطَّفُ تَتَخَطَّفُ: فحذف تاء التفعّل، وهما في كلا القراءتين حكاية حال تكون، والمعنى في ذلك أنّه في مقابلة قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لاَ ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ فالمشرك بعكس هذا الوصف، فلم يستمسك لكفره بما فيه أمان من الخرور، ونجاة من الهوى، وإختطاف الطير، فصار كمن خرَّ من السماء، فهوت به الريح، فلم يكن له معتصم. والأصل في المَنسَك: الفتح؛ لأنّه لا يخلو من أن يكون مصدراً أو مكاناً، وكلاهما مفتوح العين من باب يفعل، إلّا أنّه قد جاء إسم المكان منه في كلمات على «المفعل» نحو: المطلع والمسجد شاذّاً عن القياس. ومن قرأ: ﴿والمقيمي الصلاة﴾: فإنّه حذف النون؛ تخفيفاً لا لتعاقبها الإضافة، وشبَّه ذلك بالذين واللذان في قول الشاعر:

وَإِنَّ الَّذِي حانَتْ بِفَلْجٍ دِماؤُهُمْ ... هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَومِ، يا أُمَّ خالِدِ[1]

وقول الأخطل:

أَبَني كُلَيْبٍ إِنَّ عَمَّيَّ اللَّذا ... قَتَلاَ المُلُوكَ، وَفَكَّكَا الأغْلاَلا

ونحوه بيت الكتاب:

وَالْحَافِظُو عَوْرَةَ الْعَشِيرَةِ لاَ ... يَأْتِيهِمُ مِنْ وَرائِهِم وَكْفُ[2]

وقال آخر:

قَتَلْنا ناجِياً بِقَتِيلِ عَمْرٍو ... وَخَيْرُ الطَّالِبِي التِّرَةَ الْغَشُومُ[3]

اللغة: الخطف والإخطاف: الإستلاب، والسحيق: البعيد. والسحوق: النخلة الطويلة. والشعائر: علامات مناسك الحج التي تشعر بما جعلت له. وأشعرت البدن: أَعلمتها بما يشعر أنها هدي. والمنسك: موضع العبادة. والنسك:

---

(١) فلْج: موضع قرب البصرة. حان: هلك.

(٢) الوكف: العيب والنقص.

(٣) الترة: النار [الثار]. والغشوم: الظالم.

العبادة يقال: نسك ينسُك وتنسّك أي تعبّد وقيل: هو عبادة الذبح. والنسيكة: الذبيحة يقال: نسكت الشاة: ذبحتها. والإخبات: الخضوع والطمأنينة وأصله من الخبت وهو المكان المطمئن وقيل: المنخفض.

المعنى: قال سبحانه: ﴿حُنَفَاءَ لِلّٰهِ﴾ أي: مستقيمي الطريقة على أمر الله، مائلين عن سائر الأديان، وهي نصب على الحال. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي: حجاجاً مخلصين وهم مسلمون موحدون، لا يشركون في تلبية الحج به أحداً. ثم ضرب سبحانه مثلاً لمن أشرك فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تأخذه بسرعة. قال ابن عباس: يريد تخطف لحمه ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أي: تسقطه ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مفرط في البعد. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أنّ بُعد من أشرك به من الحق كبعد من خرّ من السماء، فذهبت به الطير، أو هوت به الريح في مكان بعيد. وقال غيره: شبّه حال المشرك بحال الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفسه حلية، فهو هالك لا محالة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي ذكرناه ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّٰهِ﴾ أي: معالم دين الله، والأعلام التي نصبها لطاعته. ثم اختلف في ذلك فقيل: هي مناسك الحج كلها، عن ابن زيد. وقيل: هي البدن. وتعظيمها: استسمانها واستحسانها، عن مجاهد، وعن ابن عباس في رواية مقسم[1]. والشعائر: جمع شعيرة، وهي البدن إذا أُشعرت أي: أعلمت عليها بأن يشقّ سنامها من الجانب الأيمن؛ ليعلم أنّها

---

(١) وروي عن ابن عباس، أنّها مناسك الحجّ والعمرة، فإذا طاف فقد أحلّ من الإحرام. قال الجصّاص: كان ابن عباس يحتجّ بقوله: ثمّ محلّها الى البيت العتيق، على أنّها مناسك، سواء طاف قبل عرفة أو بعدها، قال وهذا معني ما أراده عمر بن الخطّاب بقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ. أقول المتعة قسمان: أحدهما: ما يكون إبتداء إتّفق على مشروعيّتها جميع الفقهاء. والثاني: ما يكون بالعدول عن حجّ الإفراد كان ثابتاً على عهد رسول الله ﷺ وقال ابن عباس بإستمراره، وساير فقهائهم بنسخة.

هدي. فالذي يهدي مندوب إلى طلب الأسمن والأعظم. وقيل شعائر الله: دين الله كله. وتعظيمها: إلتزامها، ـ عن الحسن ـ.

﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: فإنّ تعظيمها لدلالة تعظيم[يعظم] عليه، ثمّ حذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، فقال: فإنّها ﴿مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أضاف التقوى إلى القلوب؛ لأنّ حقيقة التقوى تقوى القلوب. وقيل: أراد: صدق النية.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الشعائر ﴿مَنَافِعُ﴾ فمن تأوّل أنّ الشعائر: الهدي قال: إنّ منافعها: ركوب ظهورها، وشرب ألبانها، إذا أحتيج إليها. وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، وهو قول عطاء بن أبي رباح، ومذهب الشافعي. وعلى هذا فقوله: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معناه: إلى أن ينحر[1]. وقيل: إنّ المنافع من رسلها، ونسلها، وركوب ظهورها، وأصوافها، وأوبارها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: إلى أَنْ يسمّي هدياً، وبعد ذلك تنقطع المنافع، ـ عن مجاهد وقتادة والضحّاك ـ. والقول الأوّل أصحّ؛ لأنّ قبل أن تسمّي هدياً، لا تسمّي شعائر. ومن قال: إنّ الشعائر: مناسك الحجّ قال: المراد بالمنافع: التجارة، إلى أجل مسمّى: إلى أن يعود من مكّة. ومن قال: إنّ الشعائر: دين الله قال: لكم فيها منافع أي: الأجر والثواب، والأجل المسمى: القيامة.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ومن قال: إنَّ شعائر الله: هي البدن قال: معناه: إنّ محلّ الهدي والبدن الكعبة. وقيل: محلّه الحرم كلّه. وقال أصحابنا: إن كان الهدي للحجّ، فمحلّه منى، وإن كان للعمرة المفردة، فمحلّه مكّة قبالة الكعبة بالجزوَرَة[بالحَزَورة]، ومحلّها حيث يحلّ نحرها. ومن قال: إنّ الشعائر: مناسك الحجّ قال: معناه: ثمّ محلّ الحجّ والعمرة: الطواف بالبيت العتيق، وإنّ منتهاها إلى

---

(١) إختلفوا في جواز الإنتفاع بما عيّن للهدى؛ لخروجه بالتعيين عن الملك، كالمنذور.

البيت العتيق؛ لأنّ التحلّل يقع بالطواف، والطواف يختصّ بالبيت. ومن قال: إنّ الشعائر: هي الدين كلّه، فيحتمل أن يكون معناه: إن محلّ ما إختصّ منها بالإحرام: هو البيت العتيق، وذلك الحجّ والعمرة في القصد له، والصلاة في التوجّه إليه. ويحتمل أن يكون معناه: إنّ أجرها على ربّ البيت العتيق.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً﴾ أي: لكل جماعة مؤمنة من الذين سلفوا، جعلنا عبادة في الذبح، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: قرباناً أُحلّ لهم ذبحه. وقيل: متعبداً وموضع نسك يقصده الناس. وقيل: منهاجاً وشريعة، ـ عن الحسن ـ.

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: تعبّدناهم بذلك؛ ليذكروا إسم الله على ما رزقناهم من بهيمة الأنعام، وبهيمة غير الأنعام لا يحلّ ذبحها، ولا التقرّب بها. وفي هذا دلالة على أنّ الذبائح غير مختصّة بهذه الأُمّة، وأنّ التسمية على الذبح كانت مشروعة قبلنا.

﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: معبودكم الذي توجّهون إليه العبادة واحد، لا شريك له. والمعنى: فلا تذكروا على ذبائحكم إلّا الله وحده ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: إنقادوا، وأطيعوا.

﴿وَبَشِّرْ الْمُخْبِتِينَ﴾ أي: المتواضعين المطمئنّين إلى الله، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لا ينتصرون، كأنّهم اطمأنّوا إلى يوم الجزاء. ثمّ وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إذا خوفوا بالله خافوا ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من البلايا والمصائب في طاعة الله ﴿وَالْمُقِيمى الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها يؤدُّونها كما أمرهم الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي يتصدَّقون من الواجب وغيره، عن ابن عباس[1].

---

(١) وما ينحر في الحجّ منسكاً إمّا أضحيّة، أو نذر، أو هدي واجب، أو تطوّع، أو فداء، ولا يجب الأكل من شيء منها، بل يحرم من الفداء، ويضمن إن أكل، وفي النذر وجه بالمنع. وقيل ←

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ
فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ (١) جُنُوبُهَا
فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا
وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾
أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن
يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

القراءة: قرأ: لن تنال الله ولكن تناله ـ بالتاء ـ يعقوب. وقرأ الأوّل بالتاء

← بوجوب الأكل من هدي التمتّع، وإستحبابه من الأضحيّة، وهدى غير التمتع. قال المقداد: الأكل من الأضحيّة ندب، وكذا من هدي القران إتّفاقاً. وإختلفوا في هدي التمتّع. وقال في موضع آخر: الأمران بالاكل والإطعام، في الهدى للوجوب، وفي الأضحيّة للندب. وقال في موضع آخر: لايجوز عند الشافعي الأكل من هدي التمتّع؛ لأنّه فداء عنده.

(١) أدغم «وجبت جنوبها» أبو عمرو وهشام بخلف، وحمزة، والكسائي، وخلف.

أبو جعفر. وقرأ الباقون بالياء فيهما. وقرأ ابن كثير وأهل البصرة: إنّ الله يَدْفَع ـ بغير ألف ـ. والباقون: يدافع ـ بالألف ـ. وقرأ أهل المدينة ويعقوب: ولَوْلا دِفَاعُ اللهِ ـ بالألف ـ. والباقون: دَفْعُ الله ـ بغير ألف ـ. وقرأ أهل المدينة وحفص: أُذن ـ بضمّ الألف ـ، يقاتَلون ـ بفتح التاء ـ. وقرأ أبو بكر وأبو عمرو ويعقوب: أُذن ـ بضمّ الألف ـ، يقاتِلون ـ بكسر التاء ـ. وقرأ ابن عامر: أَذن ـ بفتح الألف ـ، يقاتَلون ـ بفتح التاء ـ. والباقون: أَذن ـ بفتح الألف ـ، يقاتِلون ـ بكسر التاء ـ. وقرأ أهل الحجاز: لهدِمت ـ خفيفة الدال ـ. والباقون بالتشديد. وأظهر التاء عاصم ويعقوب، وأدغمه الآخرون. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عامر [عمر] وأبو جعفر الباقر عليه السلام وقتادة وعطاء والضحّاك: صوافن ـ بالنون ـ. وقرأ الحسن وشقيق وأبو موسى الأشعري وسليمان التيمي: صوافي. وقرأ جعفر بن محمّد عليه السلام: وصُلُوات ـ بضمّ الصاد واللام ـ. وقرأ الجحدري والكلبي: وصُلَوات ـ بضمّ الصاد وفتح اللام ـ.

الحجّة: التأنيث في ﴿تنال﴾ للجماعة، وللفظ التقوى. والتذكير لمعنى الجمع؛ لأنّ التقوى بمعنى الإتّقاء. والدفع: مصدر دفع. والدفاع: مصدر دافع. وقد يكون فاعل بمعنى فعل نحو: طارقت النعل، وعاقبت اللصّ. وأمّا قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ فالقراءات فيها متقاربة، والمأذون لهم في القتال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله. وما ظلموا به: أنّ المشركين أخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثمّ هاجروا إلى المدينة. فمن قرأ: ﴿أذن﴾ على بناء الفعل للفاعل؛ فلِما تقدّم من ذكر الله سبحانه. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾: في موضع نصب. ومن قرأ ﴿يقاتلون﴾ فالمعنى: أنّهم يقاتلون عدوّهم الظالمين لهم. ومن قرأ: ﴿أُذن﴾ على بناء الفعل للمفعول به، فالمعنى: على أنّ الله سبحانه أذن لهم في القتال. والجارّ والمجرور في موضع رفع. وقوله: ﴿لهدِمت﴾ بالتخفيف، إنّما جاز؛ لأنّ ذلك قد يكون للقليل والكثير، تقول: ضربت زيداً ضربة، وضربته ألف ضربة. فاللفظ في

القلّة والكثرة على حالة واحدة. و ﴿هدِّمت﴾ ـ بالتشديد ـ: يختصّ بالكثرة. قال الشاعر:

مـازِلْتُ أفْـتَحُ أبْـواباً، وَأَغْـلِقُها حَتّى أَتَيْتُ أبا عَمْروبْنِ عَمّارِ[١]

فأمّا من قال: ﴿صوافن﴾ فمثل: الصافنات، وهي الجياد من الخيل، إلّا أنّه أستعمل هنا في الإبل. والصافن: الرافع إحدى رجليه معتمّداً منها على سنبكها[٢]. قال عمرو بن كلثوم:

تَرَكْنَا الْخَيْلَ عاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها، صُفُونا

والصوافي: الخوالص لوجه الله. وأمّا صَلَوات وصُلُوات، فيمكن أن يكون جمع صلاة، وإن كانت غير مستعملة، فيكون مثل: حجرة وحُجُرات وحَجَرات.

(اللغة): البدن: جمع بدنة، وهي الإبل المبدنة بالسمن. قال الزجّاج: تقول بدنت الإبل أي: سمنتها. وقيل: أصل البدن: الضخم، وكل ضخم بدن. وبدن بَدْناً وبُدْناً: إذا ضخم. وبدن تبديناً: إذا أَسن وثقل لحمه بالإسترخاء. وفي الحديث: إنّي قد بدنت، فلا تبادروني بالركوع والسجود. وقال:

وكُنْتُ خِلْتُ الشَّيْبَ والتَّبْدِينا[١]

والوجوب: الوقوع. يقال: وجبت الشمس: إذا وقعت في المغيب للغروب. ووجب الحائط: وقع. ووجب القلب: إضطرب بأن وقع ما يوجب إضطرابه. ووجب الفعل: إذا وقع ما يلزم به. ووجب البيع إذا وقع وجوباً. والصوافّ: المصطفّة. الأزهري عن ابن الأعرابي قال: قَنِعْتُ بما رَزِقْتُ ـ بالكسر ـ، وقَنَعْت إلى فلان: خضعت له ـ بالفتح ـ. والمعتر والمعتري، واحد. وروي عن الحسن وأبي

---

(١) تمامه: والهمّ منها يذهل القرينا. والبيت لحميد الأرقط.

[١] قائله: الفرزدق.

[٢] السنبك: طرف الحافر.

رجاء وعمرو بن عبيد أنّهم قرأو المعتري. يقال: عراه وإعتراه، وعرّه وإعترّه، كلّه بمعنى: أتاه وقصده. قال طرفة:

فـــي جِـــفَانٍ تَّـعْتَري نـادِينا وَسَديفٍ حِينَ هاجَ الصِّـنْبِرُ[1]

ويقال: قنع الرجل إلى فلان قنوعاً: إذا سأل. قال الشماخ:

لَـــمالُ المَـــرْءِ يُـصْلِحُهُ فـيُغْنِي مَـفاقِرَهُ، أعَـفُّ مِـنَ القُـنُوعِ[2]

والصومعة: أصلها من الإنضمام، ومنه: الأصمع للاصق الأُذنين، وكل منضمّ فهو متصمّع. قال أبو ذؤيب، يصف صائداً:

فَرَمَىٰ فَأَنْفَذَ مِنْ نُحُوصٍ عائِطٍ سَهْماً، فَخَرَّ وَرِيشُهُ مُـتَصَمِّعُ[3]

والبيع: كنائس اليهود.

الإعراب: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ منصوب بإضمار فعل، تقديره: وجعلنا البدن جعلناها صواف: منصوب على الحال ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾: في محل الجرّ؛ بأنّه بدل من ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾. ويجوز أن يكون في موضع الرفع، على تقدير: هم الذين أُخرجوا، أو في محلّ النصب؛ على المدح، على تقدير: أعني الذين أُخرجوا. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: في موضع نصب؛ على الحال، ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف، وتقديره: أُخرجوا إخراجاً بهذه الصفة. ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾: إلّا: هيهنا لنقض النفي، وتقديره: إلّا بأن يقولوا أي: بقولهم. و ﴿بَعْضَهُم﴾: منصوب؛ على البدل من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وهو بدل البعض من الكلّ، والتقدير: دفع الله بعض الناس ببعض.

---

(١) الصنبر: برد الشتاء، يصف جوده، وإطعامه الضيفان في الشتاء. والسديف: شحم السنام. والنادى: المجلس.

(٢) يعني: مال المرء ادخل في عفافه واحرز له من الفقر. فمال المرء: مبتدأ، وأعفّ: خبره.

(٣) البيت من عينيته المعروفة. والنحوص: الأتان. والعائط: التي لم تحمل أوّل سنة تحمل. ويتصمّع الريش: اذا نفذ في الصيد.

المعنى: ثمّ عاد إلى ذكر الشعائر، فقال: ﴿وَالْبُدْنَ﴾ وهي الإبل العظام. وقيل: الناقة والبقرة ممّا يجوز في الهدي والأضاحي، ـ عن عطاء والسدّي ـ. ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ أي: من أعلام دينه. وقيل: من علامات مناسك الحجّ. والمعنى: جعلناها لكم فيها عبادة الله من سوقها إلى البيت، وإشعارها، وتقليدها، ونحرها، والإطعام منها.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: نفع في الدنيا والآخرة. وقيل: أراد بالخير ثواب الآخرة، وهو الوجه؛ لأنّه الغرض المطلوب.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ أي: في حال نحرها، وعبَّر به عن النحر. قال ابن عباس: هو أن يقول: الله أكبر، لا إله إلّا الله، والله أكبر، أللهمّ منك ولك.

﴿صَوَافَّ﴾ أي: قياماً مقيّدة على سنّة محمّد ﷺ ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو أن تعقل إحدى يديها، وتقوم على ثلاثة، تنحر كذلك، فيسوى بين أوظفتها؛ لئلّا يتقدّم بعضها على بعض، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هو أن تنحر، وهي صافّة أي: قائمة قد ربطت يديها ما بين الرسغ والخفّ إلى الركبة، ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، هذا في الإبل. فأمّا البقر، فإنّه يشدّ يداها ورجلاها، ويطلق ذنبها. والغنم: تشدّ ثلاث قوائم منها، ويطلق فرد رِجل منها.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت إلى الأرض. وعبّر بذلك عن تمام خروج الروح منها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهذا إذن، وليس بأمر؛ لأنّ أهل الجاهليّة كانوا يحرّمونها على نفوسهم. وقيل: إنَّ الأكل منها واجب إذا تطوّع بها[1] ﴿وَأَطْعِمُوا

---

(١) لاريب في أنّ الأمر يشمل هدى التمتّع، والقران، وما تطوّع به إستحباباً. وقال المقداد: ليس الأكل من الأضحيّة، ولا هدى القران واجباً إتّفاقاً، والخلاف في التمتّع وفي الرياض عن المنتهى: هدى التطوّع يستحبّ الأكل منه بلاخلاف، قال: والمراد بهدي التطوّع: هدى القران. وقال ابن إدريس: يجب الأكل من الهدي مستدلاً بالآية أمّا ما ذكره المصنّف، من ←

﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ أختلف في معناهما: فقيل: إنَّ القانع: الذي يقنع بما أُعطي، أو بما عنده، ولا يسأل. والمعتر: الذي يتعرّض لك أَنْ تطعمه من اللحم ويسأل، ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة وإبراهيم ـ. وقيل: القانع: الذي يسأل، والمعترّ: الذي يتعرّض ولا يسأل، ـ عن الحسن وسعيد بن جبير ـ. وقال أبو جعفر عليه السلام، وأبو عبدالله عليه السلام: القانع: الذي يقنع بما أعطيته، ولا يسخط، ولا يكلح، ولا يلوي شدقه غضباً. والمعتر: المادّ يده لتطعمه. وفي رواية الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: القانع: الذي يسأل، فيرضى بما أُعطي. والمعترّ: الذي يعتري رجاءه [رحلك] ممّن لا يسأل. وروي عن ابن عباس، أنّه قال في جواب نافع بن الأزرق، لمّا سأله عن ذلك: القانع: الذي يقنع [يرضى] بما أُعطي، والمعترّ: الذي يعتري الأبواب، أما سمعت قول زهير:

عَلٰى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ وَعِنْدَ الْمُقِلّينَ السَّمٰاحَةُ، وَالْبَذْلُ[1]

وروي عنهم عليهم السلام أنّه ينبغي أن يطعم ثلثه، ويعطي القانع والمعترّ ثلثه، ويهدي لأصدقائه الثلث الباقي. ﴿كَذٰلِكَ﴾ أي: مثل ما وصفناه ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي: ذلّلناها لكم حتى لا تمتنع عمّا تريدون منها من النحر والذبح، بخلاف السباع الممتنعة، ولتنتفعوا بركوبها، وحملها، ونتاجها، نعمة منّا عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذلك.

﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ أي: لن تصعد إلى الله لحومها، ولا دماؤها، وإنّما يصعد إليه التقوى، ـ عن الحسن ـ. وهذا كناية عن القبول، وذلك إنّما يقبله الإنسان. يقال: قد ناله، ووصل إليه، فخاطب سبحانه

← وجوب الأكل ممّا تطوّع به، فقال الشعراني في ميزانه: أنّ بعض العلماء ـ من غير الأئمّة الأربعة ـ أوجب الأكل من الأضحيّة.

(١) يصف اغنيائهم وفقرائهم جميعا بالجود ويعتريهم أي ينزل بهم.

عباده بما إعتادوه في مخاطباتهم، وكانوا في الجاهليّة إذا ذبحوا الهدي، إستقبلوا الكعبة بالدماء، فنضحوها حول البيت قربة إلى الله. وقيل: معناه: لن تبلغوا رضا الله بذلك، وإنّما تبلغونه بالتقوى.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تقدَّم تفسيره ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: على ما بيّن لكم، وأرشدكم لمعالم دينه، ومناسك حجّه. وقيل: هو أَنْ يقول: الله أكبر على ما هدانا ﴿وَبَشِّرْ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الموحّدين، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: الذين يعملون أعمالاً حسنة، ولا يسيئون [يحسنون] إلى غيرهم.

ثمّ بيّن سبحانه دفعه عن المؤمنين بشارة لهم بالنصر، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غائلة المشركين بأن يمنعهم منهم، وينصرهم عليهم ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ وهم الذين خانوا الله، بأن جعلوا معه شريكاً، وكفروا نعمه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: من ذكر إسم غير الله، وتقرّب إلى الأصنام بذبيحته، فهو خوّان كفور، ـ عن الزجاج ـ.

ثمّ بيَّن سبحانه إذنه لهم في قتال الكفّار، بعد تقدّم بشارتهم بالنصرة، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي: بسبب أنّهم ظلموا، وقد سبق معناه في الحجّة. وكان المشركون يؤذون المسلمين، ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله ﷺ، ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيقول لهم، صلوات الله عليه وآله: إصبروا فإنّي لم أُومر بالقتال، حتى هاجر، فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينة، وهي أوّل آية نزلت في القتال. وفي الآية محذوف، وتقديره: أذن للمؤمنين أن يقاتلوا أو بالقتال من أجل أنّهم ظلموا، بأن أُخرجوا من ديارهم، وقصدوا بالإيذاء والإهانة.

﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وهذا وعد لهم بالنصر، معناه: أنّه سينصرهم.

ثمّ بيَّن سبحانه حالهم، فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ يحتمل معناه أن يكون أراد أُخرجوا إلى المدينة، فتكون الآية مدنيّة، ويحتمل إلى الحبشة، فتكون الآية مكّيّة. وذلك بأنّهم تعرضوا لهم بالأذى حتى إضطرّوا إلى الخروج. وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معناه: من غير أن إستحقّوا ذلك، عن الجبائي أي: لم يخرجوا من ديارهم إلّا لقولهم: ربّنا الله وحده. وقال أبو جعفر عليه السلام: نزلت في المهاجرين، وجرت في آل محمّد عليهم السلام، الذين أُخرجوا من ديارهم، وأُخيفوا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ قد تقدَّم الكلام في هذا.

﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ أي: صوامع، في أيّام شريعة عيسى عليه السلام، وبيع، في أيّام شريعة موسى عليه السلام، ومساجد، في أيّام شريعة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ـ عن الزجّاج ـ. والمعنى: ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض، لهدم في كل شريعة بناء المكان الذي يصلّى فيه. وقيل: البيع، للنصارى في القرى، والصوامع، في الجبال والبراري، ويشترك فيها الفرق الثلاث، والمساجد، للمسلمين، والصلوات، كنيسة اليهود، ـ عن أبي مسلم ـ. وقال ابن عباس والضحّاك وقتادة: الصلوات: كنائس اليهود، يسمّونها صُلوة، فعرّبت. وقال الحسن: أراد بذلك عين الصلاة، وهدم الصلاة بقتل فاعليها، ومنعهم من إقامتها. وقيل: أراد بالصلوات: المصلّيات، كما قال: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ وأراد المساجد ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ «الهاء» تعود إلى «المساجد». وقيل: إلى جميع المواضع التي تقدّمت؛ لأنّ الغالب فيها ذكر الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ﴾ هذا وعد من الله بأنّه سينصر من ينصر دينه، وشريعته. ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: قادر قاهر.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل البصرة: أَهلكتها ـ بالتاء ـ. والباقون: اهلكناها، والمعنى واحد.

اللغة: يقال: خَوَتِ الدار خواء ـ ممدوداً ـ فهي خاوية. وخوى جوف الإنسان من الطعام خوى ـ مقصوراً ـ فهو خوي. والتعطيل: إبطال العمل بالشيء، ولهذا يقال للدهري: معطّل؛ لأنّه أبطل العمل بالعلم على مقتضى الحكمة. والمشيد: المرتفع من الأبنية. شاد الرجل بناه يشيده، شيّده يشيّده. قال عدي بن زيد:

شادَهُ مَرْمَراً، وخَللهُ كِلْساً ... فَلِلطَّيْرِ في ذُرَاهُ وُكُورُ(٢)

---

(١) أدغم «أخذتهم» غير ابن كثير، وحفص، وأثبت ياء «نكير» وصلاً ورش، وفي الحالين يعقوب. ومضي الكلام في «كأين»، وأبدل همزه «بئر» ورش، وأبو عمرو بخلفه مطلقا وحمزة وقفاً.

(٢) عدي بن زيد: من حكماء الشعراء، كان صهر النعمان بن المنذر على بنته هند. والبيت من ←

وقال امرؤ القيس:

وتَيْماءَ لَمْ يَتْرُكْ بِها جِذْعَ نَخْلَةٍ ... وَلا أُطُماً إلاَّ مَشِيداً جَنْدَلِ[1]

وقيل: المشيد: المجصّص، والمبني بالشيد. والشيد: الجصّ والجيار.

المعنى: ثمّ وصف سبحانه من ذكرهم من المهاجرين، فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ والتمكين: إعطاء ما يصحُّ معه الفعل، فإن كان الفعل لا يصحّ إلّا بآلة، فالتمكين: إعطاء تلك الآلة لمن فيه القدرة، وكذلك إن كان لا يصحّ الفعل إلّا بعلم، ونصب دلالة واضحة، وسلامة، ولطف وغير ذلك، فالتمكين: إعطاء جميع ذلك، وإن كان الفعل يكفي في صحّة وجوده مجرّد القدرة. فخلق القدرة التمكين. فالمعنى: الذين أعطيناهم ما به يصحُّ الفعل منهم، وسلّطناهم في الأرض، أدّوا الصلاة بحقوقها، وأعطوا ما إفترض الله عليهم من الزكاة.

﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ﴾ وهذا يدلُّ على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمعروف هو الحقّ؛ لأنّه يعرف صحّته. والمنكر هوالباطل؛ لأنّه لا يمكن معرفة صحّته. قال الزجّاج: هذه صفة مَنْ في قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُ﴾. وقال الحسن وعكرمة: هم هذه الأُمّة. وقال أبو جعفر عليه السلام: نحن هم والله! ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ هو كقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ومعناه: إنّه يبطل كل ملك سوى ملكه، فتصير الأمور إليه بلا مانع ولا منازع.

ثمّ عزّى سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله عن تكذيبهم إيّاه، وخوّف مكذّبيه بذكر من

← قصيدة من غرر قصائده، يذمّ فيها الدنيا، وعدم بقائها مطّلعها أرواح مودع أم بكور، لك فاعمد لأيّ حال تصير، وله قصّة. والذري: جمع الذروة. وضمير «شاده» للقصر، المذكور في بيت قبله.

(١) تيماء: الفلاة والاطعم الحصون، يصف سيلاً.

كذبوا أنبياءهم فأُهلكوا، فقال: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يا محمّد ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ كل أُمّة من هؤلاء الأُمم فقد كذّبت نبيّها.

ثمّ قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى ﴾ ولم يقل: وقوم موسى؛ لأنّ قومه بنو إسرائيل، وكانوا آمنوا به. وإنّما كذّبه فرعون وقومه ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي: أخّرت عقوبتهم، وأمهلتهم، يقال: أملى الله لفلان في العمر: إذا أخّر عنه أجله ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعذاب.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إستفهام، معناه التقرير أي: فكيف أنكرت عليهم، ما فعلوا من التكذيب، فأبدلتهم بالنعمة نقمة، وبالحياة هلاكاً. قال الزجّاج: المعنى: ثمّ أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار.

ثمّ ذكر سبحانه كيف عذّب المكذّبين، فقال: ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أي: وكم من قرى أهلكناها، وأخذناها. والإختيار التاء، وذلك لقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي: وأهلها ظالمون بالتكذيب والكفر. ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أي: خالية من أهلها، ساقطة على سقوفها. ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ عطف على قوله ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: وكم من بئر بار[باد] أهلها، وغار ماؤها، وتعطّلت من دلائها، فلا مستقي منها، ولا وارد لها.

﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ أي: وكم من قصر رفيع مجصّص، تداعى للخراب بهلاك أهله، فلم يبق فيه داع ولا مجيب. وأصحاب الآبار ملوك البدو. وأصحاب القصور ملوك الحضر.

وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام في قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾: أنَّ المعنى: وكم من عالم لا يرجع إليه، ولا ينتفع بعلمه. وقال الضحّاك: هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال: حاضوراء نزل بها أربعة آلاف ممّن آمن بصالح، ومعهم صالح. فلمّا

حضروا مات صالح، فسمّي المكان «حضرموت». ثمّ إنّهم كثروا، فكفروا، وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نبيّاً يقال له: حنظلة، فقتلوه في السوق، فأهلكهم الله، فماتوا عن آخرهم، وعطّلت بئرهم، وخرب قصر ملكهم.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ (١)

القراءة: قرأ ابن كثير وأهل الكوفة غير عاصم: ممّا يعدون ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: معجّزين ـ بالتشديد ـ، وفي سبأ أيضاً في موضعين. والباقون: معاجزين ـ بالألف في السورتين ـ.

الحجّة: حجّة من قرأ: يعدون ـ بالياء ـ: أنّ قبله ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾. وحجّة

(١) أدغم «أخذتها» غير حفص وابن كثير. وفرّقوا بين «سعوا في آياتنا» كتابة هنا، وفي سبأ، فأثبتوا ألفاً بعد واو الجمع هنا، ولم يكتبو في «سبأ» ولا سبب لذلك إلّا التعبّد بحفظ الكتابة الأولى؛ لحفظ القرآن عن التغيير، فإن قيل: ما الدليل على وجوب حفظ هذه الأمور؟ قلنا: الدليل عليه هو الدليل على حفظ سايرشعائر الدين، كمنى، ومشعر، والروضة النبويّة، وقبور الأئمّة عليهم السلام ليبقي مصوناً عن التغيير، وعن الشبهات الى آخر الدهر.

من قرأ بالتاء: أنَّ ذلك أعمّ. وقوله: معاجزين أي: ظانّين ومقدّرين أن يعجزونا؛ لأنّهم ظنّوا أن لا بعث ولا نشور، فهو كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ ومعجزين: ينسبون من تبع النبيّ ﷺ إلى العجز نحو: جهَّلته، نسبته إلى الجهل. وروي عن مجاهد، أنّه فسَّر ﴿معجزين﴾ مثبطين أي: يثبطون الناس عن النبيّ ﷺ.

المعنى: ثمّ حثَّ سبحانه على الإعتبار بحال من مضى من القرون المكذّبة لرسلهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أو لم يسر قومك يا محمّد في أرض اليمن والشام، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أي: يعلمون بها ما يرون من العبر. والمعنى: فيعقلون بقلوبهم ما نزل بمن كذّب قبلهم ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأُمم المكذّبة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الهاء في «إنّها» ضمير القصّة، والجملة بعدها تفسيرها. قال الزجّاج: وقوله: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ من التوكيد الذي يورده العرب في الكلام. كقوله: ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾، وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾. وقيل: إنّه إنّما ذكر ذلك؛ لئلّا يتوهّم إلى غير معنى القلب نحو: قلب النخلة، فيكون أنفى للبس [اللبئس] بتجوّز الإشتراك، وكذلك قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾؛ لأنّ القول قد يكون بغير الفم. والمعنى: إنَّ الأبصار وإن كانت عمياء، فلا تكون في الحقيقة كذلك، إذا كان أصحابها عارفين بالحقّ، وإنّما يكون العمى عمى القلب الذي يقع معه الجحود بوحدانيّة الله.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿بِالْعَذَابِ﴾ أن ينزل بهم، ويستبطنونه [يستبطؤنه] ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ أي: في إنزال العذاب بهم. قال ابن عباس:

يعني: يوم بدر ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أختلف في معناه على وجوه:

أحدها: إنَّ يوماً من أيّام الآخرة، يكون كألف سنة من أيّام الدنيا، ـ عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن زيد ـ. وفي رواية أُخرى عن ابن عباس أنّه أراد: أنَّ يوماً من الأيّام التي خلق الله فيها السماوات والأرض، كألف سنة، ويدلّ عليه ما روي أنّ الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام. ويكون المعنى على هذا: أنّهم يستعجلون العذاب، وأنَّ يوماً من أيّام عذابهم في الآخرة كألف سنة.

وثانيها: إنَّ المعنى: وإنَّ يوماً عند ربّك، وألف سنة في قدرته، واحد، فلا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب، وبين تأخّره في القدرة، إلّا أنّه سبحانه تفضّل بالإمهال؛ إذ لا يفوته شيء، ـ عن الزجّاج ـ، وهو معنى قول ابن عباس في رواية عطا.

وثالثها: إنَّ يوماً واحداً كألف سنة في مقدار العذاب لشدّته وعظمته، كمقدار عذاب ألف سنة من أيّام الدنيا على الحقيقة، وكذلك نعيم الجنّة؛ لأنّه يكون في مقدار يوم من أيّام الجنّة من النعيم والسرور، مثل ما يكون في ألف سنة من أيّام الدنيا، لو بقي متنعم فيها، ثمّ الكافر يستعجل ذلك العذاب لجهله، ـ عن الجبائي ـ. وهذا كما يقال في المثل: أيّام السرور قصار، وأيّام الهموم طوال. وقال الشاعر:

يَطُولُ الْيَوْمَ لا أَلْقاكَ فِيهِ ... وَحَوْلٌ نَلْتَقِي فيهِ قَصِيرٌ

وقال:

تَطاوَلْنَ أيّامُ مَعْنٍ بِنا ... فَيَوْمٌ كَشَهْرَينِ إذْ يُسْتَهَلُّ

وقال جرير:

وَيَوْمٍ كأَبْهَامِ الْحُبَارَىٰ لهوْتُهُ[١]

ثمّ أعلم سبحانه أنّه أخذ قوماً بعد الإملاء والإمهال، فقال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مستحقة لتعجيل العقاب. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أي: أهلكتها ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ لكل أحد.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: مخوّف عن معاصي الله، مبيّن لكم ما يجب عليكم فعله، وما يجب عليكم تجنّبه. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله لمعاصيهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني نعيم الجنّة، فإنّه أكرم نعيم في أكرم دار.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ أي: بذلوا الجهد في إبطال آياتنا، وبالغوا في ذلك. وأصل السعي: الإسراع في المشي. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي: مغالبين، عن ابن عباس. والمعاجزة: محاولة عجز المغالب. وقيل: مقدرين أنّهم يسبقوننا. والمعاجزة: المسابقة. وقيل: ظانّين أن يعجزوا الله أي: يفوتوه، ولن يعجزوه، ـ عن قتادة ـ. وهذا مثل ما تقدّم. ومن قرأ: معجزين، فمعناه: مثبطين لمن أراد إتّباع النبيّ ﷺ ـ عن مجاهد ـ. وقيل: قاصدين تعجيز رسولنا. وقيل: ناسبين من تبعه إلى العجز. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: الملازمون للجحيم أي: النار.

---

[١] الحبارى: طائر على شكل الاوزة، وفي المثل: أقصر من إبهام الحباري.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ(١) وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

النزول: روي عن ابن عباس وغيره: أنّ النبيّ ﷺ لمّا تلا سورة «والنجم»، وبلغ الى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ألقى الشيطان في تلاوته: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترجى» فسرَّ بذلك المشركون. فلمّا إنتهى الى السجدة، سجد المسلمون، وسجد أيضاً المشركون؛ لما سمعوا من ذكر آلهتهم بما أعجبهم. فهذا الخبر إن صحّ، محمول على أنّه كان يتلو القرآن، فلمّا بلغ إلى هذا الموضع، وذكر أسماء آلهتهم، وقد علموا من عادته ﷺ أنّه كان يعيبها، قال بعض الحاضرين من الكافرين: تلك الغرانيق العلى. وألقى ذلك في تلاوته يوهم أنّ ذلك من القرآن، فأضافه الله سبحانه إلى الشيطان؛ لأنّه إنّما

---

(١) يقف حمزه على «آياته» بالتحقيق، أو بإبدالها واواً مفتوحة.

حصل بإغوائه ووسوسته. وهذا أورده المرتضى، قدس الله روحه، في كتاب التنزيه، وهو قول الناصر للحقّ من أئمّة الزيديّة. وهو وجه حسن في تأويله.

المعنى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ من: هنا مزيدة، والتقدير: ما أرسلنا قبلك رسولاً ولا نبيّاً. وإنّما ذكر اللفظين لإختلاف فائدتهما. فالرسول الذي أرسله الله تعالى، ولا يحمل عند الإطلاق على غير رسول الله ﷺ. والنبيّ الذي له الرفعة والدرجة العظيمة بالإرسال. وقيل: إنّ بينهما فرقاً: فالرسول الذي تنزل عليه الملائكة بالوحي، والنبيّ الذي يوحى إليه في منامه. فكلُ رسول نبيّ، وليس كل نبيّ رسولاً. وقيل: بل الرسول هو المبعوث إلى أُمّة. والنبيّ هو الذي لا يبعث إلى أُمّة، ـ عن قطرب ـ. وقيل: إنَّ الرسول هو المبتدىء بوضع الشرائع والأحكام. والنبيّ: الذي يحفظ شريعة غيره، ـ عن الجاحظ ـ. والقول هو الأوّل؛ لأنّ الله سبحانه خاطب نبيّنا ﷺ مرّة بالنبيّ، ومرّة بالرسول، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، و ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾. فالرسول والنبيّ واحد، إلّا أنّ الرسول يعمُّ الملائكة والبشر، والنبيّ يختصّ البشر، فجمع بينهما هنا، وفي قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴾ ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ قال المرتضىٰ: لا يخلو التمنّي في الآية من أن يكون معناه: التلاوة، كما قال حسان بن ثابت:[1]

تَمَنَّى كِتابَ اللَّـهِ أَوَّلَ لَـيْلَةٍ ... وَآخِرَهُ لاقَى حِمامَ الْمَقادِرِ

أو يكون تمنّي القلب. فإن كان المراد: التلاوة، فالمعنى: إنّ من أُرسل قبلك من الرسل، كان إذا تلا ما يؤديه إلى قومه، حرَّفوا عليه، وزادوا فيما يقوله، ونقصوا، كما فعلت اليهود، وأضاف ذلك إلى الشيطان؛ لأنّه يقع بغروره.

---

(١) في قرائة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا محدّث» ومثله كثير في الروايات الشاذّة، أعني: زيادة كلمة، أو حرف، ولا يعبأ بها ألبتّة؛ لإجماعهم على ترك غير المتواتر.

﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: يزيله ويدحضه بظهور حجته. وخرج هذا على وجه التسلية للنبيّ ﷺ لما كذب المشركون عليه، وأضافوا إلى تلاوته من مدح آلهتهم، مالم يكن فيها. وإن كان المراد: تمنّي القلب، فالوجه أنّ الرسول متى تمنّى بقلبه بعض ما يتمنّاه من الأمور، وسوس إليه الشيطان بالباطل، يدعوه إليه، وينسخ الله ذلك، ويبطله بما يرشده إليه من مخالفة الشيطان، وترك إستماع غروره.

قال: وأمّا الأحاديث المرويّة في هذا الباب فهي مطعونة، ومضعفة عند أصحاب الحديث، وقد تضمّنت ما ينزّه الرسل عليهم السلام عنه. وكيف يجوز ذلك على النبيّ ﷺ، وقد قال الله سبحانه: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، وقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ﴾. وإن حمل ذلك على السهو، فالساهي لا يجوز أَن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة، ونظمها، ثمّ لمعنى ما تقدّمها من الكلام، لأنّا نعلم ضرورة أنّ الساهي لو أَنشأ قصيدة، لم يجز أن يسهو، حتى يتّفق منه بيت شعر في وزنها، وفي معنى البيت الذي تقدّمه، وعلى الوجه الذي تقتضيه فائدته.

ويمكن أن يكون الوجه فيه ما ذكرناه في النزول؛ لأنّ من المعلوم أنّهم كانوا يلقون [يلغون] عند قراءته طلباً لتغليطه، ويمكن أن يكون كان هذا في الصلاة؛ لأنّهم كانوا يلقون [يلغون] في قراءته. وقيل: أيضاً: إنّه كان إذا تلا القرآن على قريش، توقّف في فصول الآيات، وأتى بكلام على سبيل الحجاج لهم. فلمّا تلا الآيات قال: تلك الغرانيق العلى، على سبيل الإنكار عليهم، وعلى أنّ الأمر بخلاف ما قالوه، وظنّوه. وليس يمتنع أن يكون هذا في الصلاة؛ لأنّ الكلام في الصلاة حينئذ كان مباحاً، وإنّما نسخ من بعد. وقيل: إنّ المراد بالغرانيق: الملائكة، وقد جاء ذلك في بعض الحديث، فتوهّم المشركون أنّه يريد آلهتهم. وقيل: إنّ ذلك كان قرآناً منزلاً في وصف الملائكة، فلمّا ظنّ المشركون أنّ المراد به آلهتهم،

نسخت تلاوته.

وقال البلخي: ويجوز أن يكون النبيّ ﷺ سمع هاتين الكلمتين من قومه وحفظهما، فلمّا قرأ، ألقاها الشيطان في ذكره، فكاد أن يجريها على لسانه، فعصمه الله ونبّهه، ونسخ وسواس الشيطان، وأحكم آياته، بأن قرأها النبيّ ﷺ محكمة، سليمة ممّا أراد الشيطان. ويجوز أن يكون النبيّ ﷺ لمّا إنتهى إلى ذكر اللات والعزّى، قال الشيطان هاتين الكلمتين رافعاً بهما صوته، فألقاهما في تلاوته في غمار الناس، فظنَّ الجهّال أنّ ذلك من قول النبيّ ﷺ، فسجدوا عند ذلك. والغرانيق: جمع غرنوق، وهو الحسن الجميل، يقال: شابّ غرنوق وغرانق: إذا كان ممتلياً ريّاً [ريّانا].

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ أي: يبقي آياته، ودلائله وأوامره محكمة لا سهو فيها، ولا غلط.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ واضع للأشياء مواضعها. ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ليجعل ذلك تشديداً في التعبّد، وإمتحاناً، ـ عن الجبائي ـ. والمعنى: إنّه شدَّد المحنة والتكليف على الذين في قلوبهم شكّ، وعلى الذين قست قلوبهم من الكفّار، فتلزمهم الدلالة على الفرق بين ما يحكمه الله، وبين ما يلقيه الشيطان.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في معاداة ومخالفة بعيدة عن الحقّ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالله وبتوحيده وبحكمته ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: إنَّ القرآن حقّ لا يجوز عليه التبديل والتغيير ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: فيثبتوا على إيمانهم. وقيل: يزدادوا إيماناً إلى إيمانهم.

﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع وتتواضع لقوّة إيمانهم ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح لا عوج فيه أي: يثبتهم على

الدين الحق. وقيل: يهديهم ربّهم بإيمانهم إلى طريق الجنّة.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في شكّ من القرآن، ـ عن ابن جريج ـ. وهذا خاصّ في من علم الله تعالى أنّهم لا يؤمنون من الكفّار ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، وعلى غفلة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قيل: إنّه عذاب يوم بدر، ـ عن قتادة ومجاهد ـ. وسمّاه عقيماً؛ لأنّه لا مثل له في عظم أمره؛ لقتال الملائكة فيه، ومثله قول الشاعر:

عَقُمَ النِّساءُ فَلا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ ... إنَّ النِّساءَ بِمِثْلِهِ لَعَقِيمُ

وقيل: إنّما سمّي ذلك اليوم عقيماً؛ لأنّه لم يكن فيه للكفّار خير، فهو كالريح العقيم التي لا تأتي بخير، ـ عن الضحّاك، وإختاره الزجّاج ـ. وقيل: المراد به: يوم القيامة، والمعنى: حتى تأتيهم علامات الساعة، أو عذاب يوم القيامة. وسمّاه عقيماً؛ لأنّه لا ليلة له، ـ عن عكرمة والجبائي ـ.

النظم: إتّصلت الآية الأولى بما تقدّم من ذكر الكفّار، وما متّعوا به من نعيم الدنيا. ولمّا رأي النبيّ ﷺ ما مُنيَ به أصحابه من الإقتار، تمنّى لهم الدنيا. فبيَّن سبحانه أنّ ذلك التمنّي من وساوس الشيطان، وأنّ ما أعدّه لهم من نعيم الآخرة خير. وقيل: إتّصل بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فبيَّن سبحانه أنّه بشر، وأنّ حاله كحال الرسل قبله.

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟
لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ

ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

القراءة: قرأ ابن عامر: قتّلوا ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وقرأ أهل المدينة: مَدخلاً ـ بالفتح ـ. والباقون: بضمّ الميم. وقد سبق ذكره.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر القيامة، بيّن صفته، فقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ لا يملك أحد سواه شيئاً بخلاف الدنيا ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بين المؤمنين والكافرين.

ثم بيّن حكمه فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ينعمون فيها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يهينهم ويذلّهم ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: فارقوا أوطانهم، وخرجوا من مكّة إلى المدينة ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ في الغربة ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمْ اللهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ وهو رزق الجنّة، ـ عن الحسن والسدّي ـ. والرزق الحسن: ما إذا رآه لا تمتدّ عينه إلى غيره. وهذا لا يقدر عليه غير الله تعالى، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. وقيل: بل هو مثل قوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ لأنّ لهم فيه ما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين. والمدخل: يجوز أن يكون بمعنى المكان، وبمعنى المصدر ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معالجة الكفّار بالعقوبة ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليك ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي: من جازى الظالم بمثل ما ظلمه. قال الحسن: معناه: قاتل المشركين كما قاتلوه، والأوّل لم يكن عقوبة، ولكن كقولهم: الجزاء بالجزاء؛ لإزدواج الكلام.

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أي: ظلم بإخراجه من منزله، يعني: ما فعله المشركون من

البغي على المسلمين، حتى أخرجوهم إلى مفارقة ديارهم ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ﴾ يعني: المظلوم الذي بُغِيَ عليه ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

روي أنّ الآية نزلت في قوم من مشركي مكّة، لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم، فقالوا: إنّ أصحاب محمّد ﷺ لا يقاتلون في هذا الشهر. فحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبوا، فأظفر الله المسلمين بهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل العراق غير أبي بكر: ﴿ما يدعون﴾ هنا، وفي لقمان

(١) إتّفقوا على كتابة «أن» ما» منفصلاً، وقرأ: «السماء أن تقع» بإسقاط الهمزة من «السماء» قالون، والبزي، وأبو عمرو. وقرأ ورش بتحقيق الاولى، وتسهيل «أن تقع» وعن قنبل روايتان، وقرأ بقصر «الرؤف» أبو عمرو، والكوفيّون إلّا حفصاً.

بالياء. والباقون: بالتاء.

الحجة: من قرأ: ﴿تدعون﴾ ـ بالتاء ـ، فعلى الخطاب للمشركين، وحجّته قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾. ومن قرأ بالياء، فعلى الحكاية، وحجّته قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾.

الإعراب: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ﴾: إنّما رفع؛ لأنّه لم يجعله جواباً للإستفهام، والمراد به الخبر، ومثله قول الشاعر:

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقَدِيمَ فَيَنْطِقُ وَهَلْ يُخْبِرَنكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمْلَق[1]

المعنى: ثمّ قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك النصر ﴿بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل ما إنتقص من ساعات الليل في النهار، وما إنتقص من ساعات النهار في الليل ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لدعاء المؤمنين ﴿بَصِيرٌ﴾ بعدم (ذلك) أي: ذلك الذي فعل من نصر المؤمنين ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: ذو الحقّ في قوله وفعله. وقيل: معناه: إنّه الواحد في صفات التعظيم التي من إعتقده عليها، فهو محقّ.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ لأنّه ليس عنده نفع ولا ضرّ ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ عن الأشياء ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء سواه يصغر مقداره عن معناه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ﴾ بإرزاق عباده من حيث لا يحتسبون ﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قلوبهم. وقيل: اللطيف: المحيط بتدبير دقائق الأمور، الذي لا يتعذر عليه شيء يتعذر على غيره.

---

(١) سملق: الأرض الجرداء، لا نبات بها. والشعر لجميل.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له التصرّف في جميع ذلك ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الغني: الحيّ الذي ليس بمحتاج. الحميد: المحمود بصفاته، وأفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوان والجماد ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: وسخّر لكم الفلك في حال جريها ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: يمنع السماء من وقوعها على الأرض إلّا بإرادته. والمعنى: إلّا إذا أذن الله في ذلك بأن يريد إبطالها وإعدامها ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ برأفته، ورحمته بهم فعل هذا التسخير، وأمسك السماء من الوقوع.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۘ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

﴿المعنى﴾: ثمّ ذكر سبحانه دلالة أُخرى على وحدانيّته، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم نطفاً ميّتة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند إنتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث والحساب. وفيه بيان أنّ من قدر على إبتداء الإحياء، قدر على إعادة

الإحياء ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جحود، فإنّه مع هذه الأدلة الدالّة على الخلق، يجحد الخالق.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: لكل قرن مضى ﴿جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: شريعة هم عاملون بها، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: مكاناً يألفونه، وموضعاً يعتادونه لعبادة الله. ومناسك الحجّ من هذا؛ لأنّها مواضع العبادات فيه، فهي متعبّدات الحجّ. وقيل: موضع قربان أي: متعبد في إراقة الدماء منى أو غيره، ـ عن مجاهد وقتادة ـ.

﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ هذا نهي لهم عن منازعة النبيّ ﷺ. وقيل: نهي له؛ لأنّ المنازعة تكون من إثنين، فإذا وجَّه النهي إلى من ينازعه، فقد وجَّه إليه، ومنازعتهم قولهم: اتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعنون الميتة أي: فلا يخاصمنّك في أمر الذبح. وقيل: معناه: ليس لهم أن ينازعوك في شريعتهم، وقد نسخت هذه الشريعة الشرائع المتقدّمة.

﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: لا تلتفت إلى منازعتهم، وادع إلى توحيد ربّك، وإلى دينه ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين قيم.

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إن خاصموك في أمر الذبيحة فقل: الله أعلم بتكذيبكم، فهو يجازيكم به. وهذا قبل الأمر بالقتال. وقيل: معناه: وإن جادلوك على سبيل المراء، والتعنّت، بعد لزوم الحجّة، فلا تجادلهم على هذا الوجه، وإدفعهم بهذا القول. وقيل: معناه: وإن نازعوك في نسخ الشريعة، فحاكمهم إلى الله.

﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يفصل بينكم ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: فيما تذهبون فيه إلى خلاف ما نذهب.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ، والمراد جميع المكلّفين: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ من قليل وكثير، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي

كِتَابٍ ﴾ أي: مثبت في الكتاب المحفوظ، ـ عن الجبائي ـ. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أي: كتابته في اللوح المحفوظ على الله يسير، لا يحتاج إلى معالجة خطوط وحروف، وإنّما يقول: كن فيكون. وقيل: إن الحكم بينكم يسير على الله.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ (١)

القراءة: قرأ يعقوب وسهل: إنّ الذين يدعون ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

اللغة: السطوة: إظهار الحال الهائلة للإخافة، يقال: سطا عليه يسطو

(١) وقرأ: ينزل ـ بسكون النون وتخفيف الزاى ـ ابن كثير وأبو عمرو.

سطوة، وسطا به. والإنسان مسطو به. والسطوة والبطشة، بمعنى.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن حال الكفّار، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ أي: حجّة ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ إنّها آلهة. وإنّما قال ذلك؛ لأنّ الإنسان قد يعلم أشياء من غير حجّة ودليل، كالضروريات ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: وما للمشركين من مانع من العذاب.

ثمّ أخبر سبحانه عن شدّة عنادهم، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ يعني: من القرآن وغيره من حجج الله ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات لمن تفكّر فيها، وهي منصوبة؛ على الحال ﴿تَعْرِفُ﴾ يا محمّد ﴿فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ أي: الإنكار. وهو مصدر يريد أثر الإنكار من الكراهة، والعبوس. ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي: يقعون ويبطشون من شدّة الغيظ. ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ والمعنى: يكادون يبسطون إليهم أيديهم بالسوء. يقال: سطا عليه وسطابه: إذا تناوله بالبطش.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تستمعون، وأشدّ عليكم منه.

ثمّ فسّر ذلكّ فقال: ﴿النَّارُ﴾ أي: هو النار ﴿وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمأوى.

ثمّ خاطب سبحانه جميع المكلّفين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ قال الأخفش: إن قيل: فأين المثل الذي ذكر الله في قوله: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ قيل: ليس هيهنا مثل، والمعنى: إنّ الله قال: ضرب لي مثل أي: شبه في الأوثان. ثمّ قال: فإستمعوا لهذا المثل الذي جعلوه مثلي. وقال القتيبي: هيهنا مثل؛ لأنّه ضرب مثل هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، بمن عبد من لا يخلق ذباباً. وقيل: معناه: أثبت حديثاً يتعجّب منه، فإستمعوا له؛ لتقفوا على جهل الكفّار. من قولك:

ضربتُ خيمة أي: نصبتها وأثبتها. وقيل: معناه: جعل ذلك كالشيء اللازم الثابت من قولك: ضرب السلطان الجزية على أهل الذمّة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: الأصنام. وكان ثلاثمائة وستّين صنماً حول الكعبة ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾ في صغره، وقلّته ﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً﴾ ممّا عليهم. قال ابن عباس: كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران، فيجفّ، فيأتي الذباب فيختلسه ﴿لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لا يقدرون على إستنقاذه منه ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ الطالب: الذباب، والمطلوب: الصنم، ـ عن ابن عباس ـ. وروي عنه على العكس من هذا، وهو أنّ الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. فعلى هذا يكون معناه: ضعف السالب والمسلوب. وقيل: إنّ معناه: راجع إلى العابد والمعبود أي: جهل العابد والمعبود، وقهر العابد والمعبود، ـ عن الضحّاك ـ، وهو معنى قول السدّي: الطالب: الذي يطلب إلى هذا الصنم بالتقرّب إليه، والصنم: المطلوب إليه.

﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عظموه حق عظمته، حيث جعلوا هؤلاء الأصنام شركاء له، ـ عن الحسن والفرّاء ـ. وقيل: معناه: ما عرفوه حقّ معرفته، ـ عن الأخفش ـ. وقيل: ما وصفوه حقّ صفته، ـ عن قطرب ـ. ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: قادر لا يقدر أحد على مغالبته ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً﴾ يعني: جبرائيل وميكائيل ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يعني: النبيّين ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سميع بأقوالهم، بصير بضمائرهم وأفعالهم.

﴿النَّظْمُ﴾: إنّما إتّصل قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: ومن خالفك على الكفر والضلال. وإنّما إتّصل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بقوله: ويعبدون من دون ٱلله ما لا حجّة لهم، والمعنى: أنّ من لا يقدر على خلق ذباب مع صغره، وإذا سلبه الذباب شيئاً لا يقدر على إسترداده،

فكيف يستحقّ أن يعبد. ثمّ قال ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: من أشرك غيره معه في العبادة مع كمال قدرته، فما عرفه حقّ معرفته. ثمّ قال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ ليعلم أنّه سبحانه إنّما إصطفاهم لعبادتهم إيّاه. فمن جعل الملائكة والأنبياء أولاداً، فإنّه لم يعظمه حقّ عظمته، ولم يعرفه حقّ معرفته؛ إذ جعل من يعبده سبحانه معبوداً.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (١) ﴿٧٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟
رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾
وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ
ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

[الإعراب]: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾: منصوب على المصدر؛ لأنّه مضاف إلى المصدر ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾: من: مزيدة أي: ما جعله عليكم حرجاً. ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾: منصوبة بإضمار فعل، تقديره: وإتّبعوا وألزموا ملّة أبيكم؛ لأنّ قبله ﴿جَٰهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾. قال المبرّد: معناه: عليكم ملّة أبيكم. وقال الزجّاج: وجائز أن يكون منصوباً، على تقدير: وافعلوا الخير فعل أبيكم.

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «تَرجع الأمور» ـ مبنيّاً للفاعل ـ.

المعنى: لمّا وصف الله سبحانه نفسه، بأنّه سميع بصير، عقّبه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: ما بين أيدي الخلائق من القيامة وأحوالها، وما يكون في مستقبل أحوالهم. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: وما يخلفونه من دنياهم. وقيل: يعلم ما بين أيديهم أي: أوّل أعمالهم، وما خلفهم: آخر أعمالهم، ـ عن الحسن ـ وقيل: معناه: يعلم ما كان قبل خلق الملائكة والأنبياء، وما يكون بعد خلقهم، عن عليّ بن عيسى ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يوم القيامة، فلا يكون لأحد أمر ولا نهي.

ثمّ خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي: صلّوا ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بفعل ما تعبدكم به من العبادات.

﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس: يريد صلة الرحم، ومكارم الأخلاق، ومعناه: لا تقتصروا على فعل الصلاة، والواجبات من العبادات، وإفعلوا معها غيرها من أنواع البرّ، من إغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، وبرّ الوالدين، وما جانسها. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لكي تفلحوا، وتسعدوا.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أكثر المفسّرين حملوا الجهاد هيهنا على جميع أعمال الطاعات، وقالوا: حقّ الجهاد أن يكون بنيّة صادقة خالصة لله تعالى. وقال السدّي: هو أن يطاع فلا يعصى. وقال الضحّاك: معناه: جاهدوا بالسيف من كفر بالله، وإن كانوا الآباء والأبناء. وروي عن عبدالله بن المبارك، أنّه قال: هو مجاهدة الهوى والنفس.

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: إختاركم وإصطفاكم لدينه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضيق لا مخرج منه، ولا مخلص من عقابه، بل جعل التوبة، والكفّارات، وردّ المظالم، مخلصاً من الذنوب، فليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من العقاب به، فلا عذر لأحد في ترك الإستعداد للقيامة. وقيل: معناه: أنّ الله سبحانه لم يضيّق عليكم أمر الدين، فلن يكلّفكم ما لا تطيقون، بل كلّف دون

الوسع، فلا عذر لكم في تركه. وقيل: إنّه يعني: الرخص عند الضرورات، كالقصر، والتيمّم، وأكل الميتة، ـ عن الكلبي ومقاتل، وإختاره الزجّاج ـ.

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دينه؛ لأنّ ملة إبراهيم داخلة في ملّة محمّد ﷺ. وإنّما سمّاه أباً للجميع؛ لأنّ حرمته على المسلمين، كحرمة الوالد على الولد، كما قال: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ـ عن الحسن ـ. وقيل: إنّ العرب من ولد إسماعيل، وأكثر العجم من ولد إسحاق، وهما إبنا إبراهيم، فالغالب عليهم أنّهم أولاده.

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الله سمّاكم المسلمين، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. وقيل: هو كناية عن إبراهيم، عن ابن زيد قال: ويدلّ عليه قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إنزال القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: وفي هذا القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ أي: ليكون محمّد ﷺ، شهيداً عليكم بالطاعة والقبول، فإذا شهد لكم به، صرتم عدولاً تشهدون على الأمم الماضية، بأنّ الرسل قد بلّغوهم رسالة ربّهم، وأنّهم لم يقبلوا، فيوجب لكافرهم النار، ولمؤمنهم الجنّة بشهادتكم. وهذا من أشرف المراتب، وهو مثل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ الآية. وقيل: معناه: ليكون الرسول شهيداً عليكم في إبلاغ رسالة ربّه إليكم.

﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بعده بأن تبلغوا إليهم ما بلغه الرسول إليكم.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال قتادة: فريضتان واجبتان إفترضهما الله عليكم، فأدُّوهما إلى الله، وروى عبدالله بن عمر، أنّ النبيّ ﷺ قال: لا تقبل الصلاة إلّا بالزكاة.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: تمسّكوا بدين الله، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: إمتنعوا بطاعته عن معصيته. وقيل: إمتنعوا بالله من أعدائكم أي: إجعلوه عصمة لكم

ممّا تحذرون. وقيل: ثقوا بالله، وتوكّلوا عليه، ـ عن مقاتل ـ. ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: وليّكم وناصركم، والمتولّي لأموركم، ومالككم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ هو لمن تولّاه ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هو لمن إستنصره. وقيل: فنعم المولى إذ لم يمنعكم الرزق حين عصيتموه، ونعم النصير إذ أعانكم لما أطعتموه.

سورة المؤمنون

عدد آياتها: مائة وثماني عشرة آية كوفيّ، تسع عشرة في الباقين.

اختلافها: آية واحدة «وأخاه هارون» غير الكوفي.

فضلها: أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأ سورة المؤمنين، بشّرته الملائكة يوم القيامة بالروح والريحان، وما تقرّ به عينه عند نزول ملك الموت. وقال أبو عبدالله عليه السلام: من قرأ سورة المؤمنين، ختم الله له بالسعادة، إذا كان يدمن قراءتها في كل جمعة، وكان منزلة في الفردوس الأعلى مع النبيّين والمرسلين.

تفسيرها: ختم الله سورة الحجّ بأمر المكلّفين في العبادة، وأفعال الخير على طريق الإجمال، وإفتتح هذه السورة بتفصيل تلك الجملة، وبيان تلك الأفعال، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

القراءة: قرأ ابن كثير: لأمانتهم ـ على الواحد ـ هنا، وفي المعارج. والباقون: لأماناتهم ـ على الجمع ـ. وقرأ: على صلاتهم ـ بالإفراد ـ أهل الكوفة غير عاصم. والباقون: على صلواتهم ـ على الجمع ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: وجه الإفراد في الأمانة: أنّه مصدر وإسم جنس، فيقع على الكثرة. ووجه الجمع: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وممّا أفردت فيه الأمانة، والمراد به الكثرة، ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه

قال: من الأمانة أن اؤتمنت المرأة على فرجها. يريد تفسير قوله: ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ ووجه الإفراد في الصلاة: أنّها مصدر. ووجه الجمع: أنّها صارت بمنزلة الإسم لاختلاف أنواعها، والجمع فيه أقوى؛ لأنّه صار إسماً شرعيّاً؛ لإنضمام ما لم يكن في أصل اللغة إليها.

﴿المَعْنَى﴾: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فاز بثواب الله الذين صدَّقوا بالله، وبوحدانيّته، وبرسله. وقيل: معنى أفلح: بقي أي: قد بقيت أعمالهم الصالحة. وقيل: معناه: قد سعد. قال لبيد:

ولقد أفلح من كان عقل

قال الفرّاء: يجوز أن يكون ﴿قَدْ﴾ هيهنا لتأكيد الفلاح للمؤمنين. ويجوز أن يكون تقريباً للماضي من الحال. ألا تراهم يقولون قد قامت الصلاة، قبل حال قيامها. فيكون المعنى في الآية: إنّ الفلاح قد حصل لهم، وإنّهم عليه في الحال.

ثمّ وصف سبحانه هؤلاء المؤمنين بأوصاف، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ أي: خاضعون، متواضعون، متذلّلون، لا يرفعون أبصارهم عن مواضع سجودهم، ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً.

وروي أنّ النبيّ ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه! وفي هذا دلالة على أنّ الخشوع في الصلاة يكون بالقلب وبالجوارح. فأمّا بالقلب، فهو أن يفرغ قلبه بجمع الهمّة لها، والإعراض عمّا سواها، فلا يكون فيه غير العبادة والمعبود. وأمّا بالجوارح، فهو غضّ البصر، والإقبال عليها، وترك الإلتفات والعبث. قال ابن عباس: خشع، فلا يعرف من على يمينه، ولا من على يساره. وروي أنّ رسول الله ﷺ كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته. فلمّا نزلت الآية طأطأ رأسه، ورمى ببصره إلى الأرض.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو في الحقيقة هو كل قول، أو فعل لا

فائدة فيه يعتدّ بها، فذلك قبيح محظور، يجب الإعراض عنه. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. وقال الحسن: هو جميع المعاصي. وقال السدّي: هو الكذب. وقال مقاتل: هو الشتم، فإنّ كفّار مكّة كانوا يشتمون النبيّ ﷺ وأصحابه، فنهوا عن إجابتهم. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: هو أن يتقوّل الرجل عليك بالباطل، أو يأتيك بما ليس فيك، فتعرض عنه لله. وفي رواية أخرى أنّه الغناء والملاهي.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي: مؤدّون. فعبر عن التأدية بالفعل؛ لأنّه فعل. قال أميّة بن أبي الصلت: المُطعِمون الطَّعامَ في السَّنَةِ الازْمَةِ، وَالفاعِلُونَ للزَّكَواتِ[1]. قال ابن عباس للصدقة الواجبة مؤدّون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ قال الليث: الفرج إسم لجميع سوءات الرجال والنساء. والمراد بالفروج هيهنا فروج الرجال[2]؛ بدلالة قوله: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال الزجّاج: المعنى: أنّهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم، وأمروا بحفظه، إلّا على أزواجهم. ودلَّ على المحذوف؛ ذكر اللوم في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾. وملك اليمين في الآية المراد به: الإماء؛ لأنّ الذكور من المماليك لا خلاف في وجوب حفظ الفرج منهم، وإنّما قيل للجارية: ملك يمين، ولم يقل في الدار ونحوها: ملك يمين؛ لأنّ ملك الجارية أخصّ منه؛ إذ يجوز له نقض بنية الدار، وليس له نقض بنية الجارية، وله عارية الدار، وليس له عارية الجارية للوطء حتى توطأ بالعارية. وإنّما أطلق سبحانه إباحة وطء الأزواج والإماء، وإن كانت لهنّ أحوال يحرم وطؤهنّ فيها، كحال الحيض،

---

(١) الأزمة: الشدّة والقحط.

(٢) قال المقداد: حكم النساء مستفاد من دليل خارج، أقول: بل يستفاد من نفس الآية؛ فإنّ الجماع بين إثنين فاذا أحلّ أو حرم، فأحدهما كالآخر، وجماع العبد لسيّدتها، خارج عن منطوق الآية.

والعدّة، للجارية من زوج لها، وما أشبه ذلك؛ لأنّ الغرض بالآية بيان جنس من يحلّ وطؤها، دون الأحوال التي لا يحلّ فيها الوطء.

﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: طلب سوى الأزواج، والولائد المملوكة[1] ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ﴾ أي: الظالمون المتجاوزون إلى ما لا يحلّ لهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: حافظون وافون. والأمانات ضربان: أمانات الله تعالى، وأمانات العباد. فالأمانات التي بين الله تعالى وبين عباده: هي العبادات كالصيام، والصلاة، والإغتسال. وأمانات العباد: هي مثل الودائع، والعواري، والبياعات، والشهادات، وغيرها. وأمّا العهد، فعلى ثلاثة أضرب: أوامر الله تعالى، ونذور الإنسان، والعقود الجارية بين الناس، فيجب على الإنسان الوفاء بجميع ضروب الأمانات والعهود، والقيام بما يتولّاه منها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقيمونها في أوقاتها، ولا يضيعونها. وإنّما أعاد ذكر الصلاة؛ تنبيهاً على عظم قدرها، وعلوّ رتبتها عنده تعالى.

﴿أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ﴾ معناه: إن من كانوا بهذه الصفات، وإجتمعت فيهم هذه الخلال، هم الوارثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنّة. فقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما منكم من أحد إلّا له منزلان: منزل في الجنّة، ومنزل في النار. فإن مات ودخل النار، ورث أهل الجنّة منزله. وقيل: إنّ معنى الميراث هنا: أنّهم يصيرون إلى الجنّة بعد الأحوال المتقدّمة، وينتهي أمرهم إليها، كالميراث الذي يصير الوارث إليه.

---

(١) يشمل وطي البهيمه، والإستمناء باليد. والمتعة داخلة في الأزواج. وقال الجصّاص: الآية تدلّ على حرمتها، وهو غلط؛ لأنّ السورة مكّيّة، وكانت المتعة محلّلة في المدينة قطعا، ولا يجوز نكاح مرئة واحدة بسببين، بأن تكون نصفها مملوكة، ونصفها حرّة، فينكحها بالعقد؛ لخروجها عن القسمين المذكورين، ولكن يجوز نكاح الأمة المشتركة بتحليل الشريك؛ فإنّه بسبب واحد.

ثمّ وصف الوارثين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ وهو إسم من أسماء الجنّة، ـ عن الحسن ـ، ولذلك أنّث، فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقيل: هو إسم لرياض الجنّة، ـ عن مجاهد، وأبي عليّ الجبائي ـ. وقيل: هو جنّة مخصوصة. ثمّ أختلف في أصله، فقيل: إنّه إسم روميّ فعرب. وقيل: هو عربيّ، وزنه «فعلول» وهو البستان الذي فيه كرم. قال جرير:

يا بُعْدَ يَبْرِينَ مِنْ بابِ الفَرادِيس[1]

وقال الجبائي: معنى الوراثة هنا: أنّ الجنّة ونعيمها يؤول إليهم من غير إكتساب، كما يؤول المال إلى الوارث من غير إكتساب.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾

القراءة: قرأ ابن عامر، وأبو بكر: عَظْماً فكسونا العَظْم ـ على الإفراد ـ.

---

(١) يبرين: موضع.

وقرأ زيد عن يعقوب: عَظماً فكسونا العظام. والباقون: على الجمع في الموضعين.

الحجة: قال أبو عليّ: الجمع أشبه؛ بما جاء في التنزيل: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾، ﴿ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً﴾، ﴿مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ﴾ والإفراد؛ لأنّه إسم جنس، فأفرد كما تَفرد المصادر وغيرها من الأجناس نحو: الدرهم والإنسان، وليس ذلك على حدّ قوله:

كُلُوا في بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا ... فَإنَّ زَمانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ[1]

ولكنّه على ما أنشده أبو زيد:

لَقَدْ تَعَلَّلْتُ عَلى أيانِق ... صُهْب قَليلاتِ القَرادِ اللأَّزِقِ[2]

فالقراد يراد به: الكثرة لا محالة.

اللغة: السلالة: إسم كما يسلّ من الشيء، كالكساحة إسم لما يكسح. وتسمّى النطفة سلالة، والولد سلالة، وسليلة، والجمع: سلالات وسلائل. فالسلالة: صفوة الشيء [الشجرة] التي يخرج منها كالسلافة. قال الشاعر:

وَهَلْ كُنْت إلاَّ مُهْرَةً عَرَبِيَّةً ... سَلِيلَةَ أفْراسٍ تَجَلَّلَها بَغْلٌ[3]

والنطفة: الماء القليل. وقد يقال للماء الكثير أيضاً. ومنه: قول أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات: مصارعهم دون النطفة. يريد النهروان يعني الخوارج. ومنه: الحديث: حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جو[حو]راً «هلاكاً» يعني: بحر المشرق، وبحر المغرب.

الإعراب: ﴿فِي قَرَارٍ﴾: في موضع الصفة لنطفة. و ﴿عَلَقَةً﴾: حال من «النطفة» بعد الفراغ من الفعل، وكذلك القول في «مضغة وعظام». و ﴿لَحْماً﴾:

---

(١) زمن خميص: أي شديد.

(٢) أيانق: جمع أينق، وهي جمع الناقة. والصهبا: المشوبة بالحمرة. والتعلّل: التشاغل.

(٣) تجلّلها: أي علاها، يصف إمرأة حسناء، تزوّجت بغير كفوء.

مفعول ثان لكسونا. و ﴿خَلْقاً﴾: مصدر أنشأنا من غير لفظه. ﴿مِن نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ صفة لجنّات. وكذلك قوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾.

المعنى: ثمّ قال سبحانه على وجه القسم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ المراد بالإنسان: ولد آدم عليه السلام، وهو إسم الجنس، فيقع على الجميع، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. وأراد بالسلالة: الماء يسلّ من الظهر سلّاً من طين أي: من طين آدم؛ لأنّها تولدت من طين، خلق آدم منه. قال الكلبي: يقول من نطفة سلّت تلك النطفة من طين. وقيل: أراد بالإنسان: آدم عليه السلام؛ لأنّه إستلّ من أديم الأرض، ـ عن قتادة ـ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ يعني: ابن آدم الذي هو الإنسان. ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ يعني: الرحم مكن فيه الماء بأن هُيِّءَ لإستقراره فيه إلى بلوغ أمده، الذي جعل له.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ مفسّر في سورة الحجّ. ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً﴾ أي: جعلنا تلك المضغة من اللحم عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً﴾ أي: فأنبتنا اللحم على العظام، كاللباس[1]. بيَّن سبحانه تنقّل أحوال الإنسان في الرحم، حتى أستكمل خلقه، لينبّه على بدائع حكمته، وعجائب صنعته، وكمال نعمته.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ أي: نفخنا فيه الروح، ـ عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي والضحّاك ـ. وقيل: هونبات الشعر والأسنان، وإعطاء الفهم، ـ عن قتادة ـ. وقيل: يعني: ثمّ أنشأناه ذكراً وأنثى، ـ عن الحسن ـ.

---

(١) والظاهر أنّ الفاء في قوله تعالى: فكسونا العظام لحماً، ليس للترتيب، بل هي مثل: إنّا أنشانا هنّ إنشاءً فجعلناهنّ أبكاراً، فإنّ جعلهنّ أبكاراً ليس متأخّراً عن خلقهنّ، وكذلك ليس خلق اللحم متأخّراً عن العظم؛ إذ الجنين ليس عظماً مجرداً ثمّ يكسي لحماً، والخلق الآخر هو غير الخلق الجسماني الدنيوي، بل هو جوهر مجرّد من عالم الملكوت.

﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: تعالى الله، ودام خيره، وثبت. وقيل: معناه: استحقّ التعظيم؛ بأنّه قديم لم يزل ولا يزال؛ لأنّه مأخوذ من البروك الذي هو الثبوت. وقال: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؛ لأنّه لا تفاوت في خلقه. وأصل الخلق: التقدير، يقال: خلقت الأديم: إذا قسته لتقطع منه شيئاً. وقال حذيفة في هذه الآية: ﴿تصنعون ويصنع الله وهو خير الصانعين﴾: وفي هذا دليل على أنّ إسم الخلق قد يطلق على فعل غير الله تعالى، إلّا أنّ الحقيقة في الخلق لله سبحانه فقط. فإنّ المراد من الخلق: إيجاد الشيء مقدّراً، تقديراً لا تفاوت فيه. وهذا إنّما يكون من الله سبحانه وتعالى، دليله قوله: ﴿أَلاَ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

وروي أنّ عبدالله بن سعد بن أبي سرح، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فلمّا بلغ إلى قوله: ﴿خَلْقاً آخَرَ﴾ خطر بباله ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فلمّا أملاها رسول الله ﷺ كذلك، قال عبدالله: إن كان نبيّاً يوحى إليه، فأنا نبيّ يوحى إليّ! فلحق بمكّة مرتدّاً. ولو صحّ هذا، فإنّ هذا القدر لا يكون معجزاً، ولا يمتنع أن يتّفق ذلك من الواحد منّا، لكن هذا الشقيّ إنّما أشتبه عليه، أو شبّه على نفسه؛ لما كان في صدره من الكفر، والحسد للنبيّ ﷺ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعدما ذكرنا من تمام الخلق ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ عند إنقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي: تحشرون إلى الموقف، والحساب، والجزاء. أخبر الله سبحانه أنّ هذه البنية العجيبة المبنيّة على أحسن إتقان وإحكام، تنقض بالموت لغرض صحيح، وهو البعث والإعادة. وهذا لا يمنع من الإحياء في القبور؛ لأنّ إثبات البعث في القيامة، لا يدلّ على نفي ما عداه. ألاترى أنّ الله سبحانه أحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف، وأحيا قوم موسى على الجبل بعد ما أماتهم. وفي الآية دلالة على فساد قول

النظام، في أنّ الإنسان هو الروح. وقول معمر: إنّ الإنسان شيء لا ينقسم، وإنّه ليس بجسم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سماوات كل سماء طريقة وسمّيت بذلك لتطارقها، وهو أنّ بعضها فوق بعض. وقيل: لأنّها طرائق الملائكة، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: الطرائق الطباق، وكل طبقة طريقة، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: إنّ ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وكذلك ما بين السماء والأرض، ـ عن الحسن[1] ـ.

﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ إذ بنينا فوقهم سبع سماوات، أطلعنا فيها الشمس، والقمر، والكواكب. وقيل: معناه: ما خلقناهم عبثاً، بل خلقناهم عالمين بأعمالهم، وأحوالهم، ـ عن الجبائي ـ. وفي هذا دلالة على أنّه عالم بجميع المعلومات، وفيه زجر عن السيّئات، وترغيب في الطاعات.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً وغيثاً ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بقدر الحاجة، لا يزيد على ذلك فيفسد، ولا ينقص عنه فيهلك، بل على ما توجبه الحكمة والمصلحة ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له الأرض مسكناً، جمعناه فيه لينتفع به. يريد ما يبقى في المستنقعات والدحلان[2]. أقرّ الله الماء فيها؛ لينتفع الناس بها في الصيف عند إنقطاع المطر. وقيل: معناه: جعلناه عيوناً في الأرض. وروى مقاتل عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبيّ ﷺ قال: إنّ الله تعالى أنزل من الجنّة خمسة

---

(١) لم يسنده الحسن الى معصوم، وليس قوله حجة، وإثبات السبع لاينفي الزائد، وإنّما ذكر الناس بما عرفوا، وترك ما لم يعرفوا، والطرائق تدلّ على أنّ السموات ليست أجساماً مصمتة، بل جسم أثيري، تجري الكواكب فيه، كالسابح في الماء.

(٢) الدحلان ـ جمع الدحل ـ: المصنع يجمع الماء.

أنهار: سيحون: وهو نهر الهند. وجيحون: وهو نهر بلخ. ودجلة والفرات: وهما نهرا العراق. والنيل: وهو نهر مصر. أنزلها الله من عين واحدة، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معائشهم، وذلك قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ الآية.

﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي: ونحن على إذهابه قادرون، ولو فعلناه لهلك جميع الحيوانات. نبّه سبحانه بذلك على عظيم نعمته على خلقه، بإنزال الماء من السماء ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ﴾ أي: أحدثنا، وخلقنا لنفعكم ﴿بِهِ﴾ أي: بسبب هذا الماء ﴿جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ﴾ يا معاشر الخلق ﴿فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكّهون بها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وإنّما خصَّ النخيل والأعناب؛ لأنّها ثمار الحجاز من المدينة، والطائف، فذكرهم سبحانه بالنعم التي عرفوها.

النظم: وجه إتّصال الآيات بما قبلها: أنّه سبحانه لمّا ذكر نعمه على المؤمنين بما أعدَّ لهم في الآخرة، إبتدأ بذكر نعمه عليهم في مبتدأ خلقه؛ تنبيهاً لهم على النظر فيها، وترغيباً في التمسّك بالخصال المذكورة. ولمّا بيَّن أحوال الآخرة، بيَّن متى يكون البعث، ودلَّ بذلك على أنّ من قدر على خلق الإنسان في هذا الترتيب، والتركيب العجيب، قدر على الإعادة. ثمّ أبان عن قدرته على البعث، بقدرته على خلق السماوات. ثمّ بيّن أنّه لا يغفل عن عباده؛ إذ لا يشغله فعل عن فعل. ثمّ بيّن أنّه قادر لذاته، حيث أنزل من السماء الماء، وأسكنه في الأرض، بأن فرَّقه في البحار والأنهار والعيون. ثمّ بيّن سبحانه أنّه قادر على إذهابه دلالة على أنّ هذه النعمة وقعت بإختياره. ثمّ ذكر تفصيل النعمة.

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

القراءة: قرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو: طور سيناء ـ بكسر السين ـ. والباقون: بفتحها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب عن [غير] روح: تُنبت بالدهن ـ بضمّ التاء ـ. والباقون: ﴿تَنبُت﴾ ـ بفتح التاء وضمّ الباء ـ. وفي الشواذّ، قراءة الحسن والزهري والأعرج ﴿ننبت﴾ ـ بضمّ التاء وفتح الباء ـ. وقد ذكرنا إختلافهم في ﴿نسقيكم﴾ في سورة النحل[1].

الحجة: قال أبو عمرو: من قرأ: سَيناء ـ بفتح السين ـ لم ينصرف الإسم عنده في معرفة ولا نكرة؛ لأنّ الهمزة في هذا البناء لا تكون إلّا التأنيث، ولا تكون للإلحاق؛ لأنّ «فعلال» لا يكون إلّا في المضاعف، فلا يجوز أن يلحق به شيء. فهذا إذاً كموضع أو بقعة تسمّى بطرفاء، أو صحراء. ومن قرأ سِيناء ـ بالكسر ـ:

---

(١) قرأ «مَن إلٰهٌ» ـ بفتح الميم ورفع إله ـ الكسائي، وكتبت الهمزة من «الملؤ» بالواو هنا في المصاحف كلّها، ووقف حمزة «عليها» بإبدالها ألفاً على القاعدة، أو واواً على الرسم، أو على حركة نفسها، أو بين بين أي: بين الواو والهمزة، أو بين الألف والهمزة.

فالهمزة فيها منقلبة عن الياء، كعلباء وسيساء[١]، وهي الياء التي أظهرت في نحو: درحايَة . وإنّما لم ينصرف على هذا القول، وإن كان غير مؤنّث؛ لأنّه جعل اسم بقعة، فصار بمنزلة إمرأة سمّيت بجعفر. ومن قرأ: تُنْبِتُ بالدهن أحتمل وجهين:

أحدهما: أن يجعل الجارّ زائداً، يريد: تنبت الدهن، كما في قوله: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ وقد زيدت هذه الباء مع الفاعل، كما زيدت مع المفعول به في نحو قوله:

أَلَمْ يُأْتِيكَ وَالأَنْباء تَنْمي بِما لاقَتْ لَبُونُ بَني زِيْادٍ[٢]

وقد زيدت مع هذه الكلمة بعينها في قوله:

بِوادٍ يَمانٍ تَنْبُتُ الشَّتُّ حَوْلَهُ وَأَسْفَلُهُ بِالمَرْخِ، وَالشُّبُهانِ[٣]

حملوه على ينبت أسفله المرخ. ويجوز أن تكون الباء متعلّقاً بغير هذا الفعل الظاهر، ويقدر مفعولاً محذوفاً، تقديره: تنبت جناها أي: ثمرتها وفيها دهن وصبغ، كما تقول: خرج بثيابه، وركب بسلاحه.

ومن قرأ: تنبت بالدهن، جاز أن يكون الجارّ فيه للتعدّي، يقال: أنبته ونبت به. ويجوز أن يكون الباء في موضع حال، كما كان في الوجه الأوّل، ولا يكون للتعدّي. ولكن تنبت وفيها دهن. وقد قالوا: أنبت بمعنى: نبت، فكان الهمزة في «أنبت» مرّة للتعدّي، ومرّة لغيرها. ويكون من باب «أخال وأجرب وأقطف» أي: صار ذا خال، وجرب. ومن قرأ: تُنْبَت، فهو على معنى: تنبت، وفيها دهنها، وتؤكّد ذلك قراءة عبد الله ﴿تخرج بالدهن﴾ أي: تخرج من الأرض، ودهنها معها. قال

---

(١) علباء: عصب العنق. وسيساء ـ بالسينين ـ : منتظم فقار الظهر. وطرفاء: نبت يسمّي بالفارسيّة گز. ودرحاية: قصير سمين.

(٢) الشعر في جامع الشواهد.

(٣) مضي البيت قريباً.

ابن جنّي: ذهبوا في بيت زهير:

حتى إذا أنبت البقل[١]

إلى أنّه في معنى نبت.

وقد يجوز أن يكون محذوف المفعول، بمعنى: حتى إذا أنبت البقل ثـمره. قال: ومن ذهب إلى زيادة الباء في قوله: تنبت بالدهن، فمضعوف المذهب؛ لأنّه يزيد حرفاً لا حاجة له إلى إعتقاد زيادته.

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم، فقال: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أي: أنشأنا لكم بذلك المطر شجرة يعني: شجرة الزيتون، وخصَّت بالذكر؛ لما فيها من العبرة؛ بأنّه لا يتعاهدها إنسان بالسقي، وهي تخرج الثمرة التي يكون منها الدهن، الذي تعظم به المنفعة. وسيناء: إسم المكان الذي به هذا الجـبل فـي أصحّ الأقوال. وهي نبطية في قول الضحّاك، وحبشية في قول عكرمة. وهي إسم حجارة بعينها، أضيف الجبل إليها، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: سيناء: البركة، فكأنّه قيل: جعل البركة، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: طور سيناء: الجبل المشجر أي: كثير الشجر، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: هو الجبل الحسن، ـ عن عطاء ـ. وهو الجبل الذي نودي منه موسى عليه السلام، وهو ما بين مصر، وايلة، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي: تنبت ثمرها بالدهن؛ لأنّه يعصر من الزيتون الزيت ﴿وَصِبْغٍ لِلآكِلِيْنَ﴾ والصبغ: ما يصطبغ به من الأدم، وذلك أنّ الخبز يلوّن بالصبغ إذا غمس فيه. والإصطباغ بالزيت: الغمس فيه للائتدام به. والمراد بالصبغ: الزيت، ـ عن ابن عباس ـ، فإنّه يدهن به ويُؤتدَم. جعل الله فيه هذه الشجرة أدماً ودهناً. فالأدم: الزيتون، والدهن: الزيت. وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: الزيت شجرة

---

(١) جزء من بيت، تمامه: رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم، قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل.

مباركة فائتدموا به، وإدّهنوا.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ أي: دلالة تستدلّون بها على قدرة الله تعالى. ﴿نُسقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ أراد به اللبن. ومن قرأ بضمّ النون، أراد: إنّا جعلنا ما في ضروعها من اللبن سقياً لكم. ومن فتح النون، جعل ذلك مختصّاً بالسقاة. وهو مفسّر في سورة النحل.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ في ظهورها، وألبانها، وأوبارها، وأصوافها، وأشعارها. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي: من لحومها، وأولادها، والتكسّب بها.

﴿وَعَلَيْهَا﴾ يعني: على الإبل خاصّة. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وهذا كقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أمّا في البرّ فالإبل، وأمّا في البحر فالسفن.

ولمّا قدّم سبحانه ذكر الأدلّة الدالّة على كمال قدرته، فأتبعها بذكر شمول نعمته على كافّة خليقته، عقّب ذلك بذكر إنعامه عليهم بإرسال الرسل، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ قيل: إنّما سمّي نوحاً؛ لكثرة نوحه على نفسه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل في سبب نوحه: إنّه كان يدعو على قومه بالهلاك. وقيل: هو مراجعته ربّه في شأن إبنه. ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ أي: أطيعوه، ووحّدوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بدأ بالتوحيد؛ لأنّه الأهمّ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عذاب الله في ترك الإيمان به.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يتشرّف، ويترأس عليكم، بأن يصير متبوعاً، وأنتم له تبع، فيكون له الفضل عليكم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ أن لا يعبد شيء سواه ﴿لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ ولم يرسل بشراً آدميّاً ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي يدعونا إليه نوح من التوحيد ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ أي: في الأمم الماضية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: حالة جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ أي: إنتظروا موته، فتستريحوا منه. وقيل: فانتظروا إفاقته من جنونه، فيرجع عمّا هو عليه. وقيل: معناه: إحبسوه مدّة؛ ليرجع عن قوله.

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ
بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ
الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أبو بكر عن عاصم: مَنزِلا ـ بفتح الميم وكسر الزاي ـ. والباقون: مُنزَلا ـ بضمّ الميم وفتح الزاي.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: مُنزَلا ـ بالضمّ ـ جاز أن يكون مصدراً، وأن يكون موضعاً للإنزال. فعلى الوجه الأوّل، جاز أن يعدّى الفعل إلى مفعول آخر. وعلى الوجه الثاني، فلاتعدّى إلى مفعولين. ومن قرأ: مَنزِلا، أمكن أن يكون مصدراً، وأن يكون موضع نزول. ودلّ «أنزلني» على «نزلت».

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه، أنّ نوحاً لمّا نسبه قومه إليه الجنون، ولم يقبلوا منه ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: بتكذيبهم إيّاي. والمعنى: أنصرني

(١) أثبت الياء من «كذّبون» في الحالين يعقوب، ومضى حكم الهمزتين من «جاء أمرنا».

بإهلاكهم ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحيث نراها، كما يراها الرائي من عبادنا بعينه. وقيل: معناه: بأعين أوليائنا من الملائكة والمؤمنين، فإنّهم يحرسونك من كل من يمنعك منه ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: بأمرنا وإعلامنا إيّاك كيفيّة فعلها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: فادخل في السفينة ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ مفسّر في سورة هود.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تكلّمني في شأنهم ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي: هالكون.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ﴾ يا نوح ﴿وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ أي: السفينة ﴿فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا﴾ أي: خلّصنا ﴿مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لنفوسهم؛ بجحدهم توحيد الله.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾ أي: إنزالاً مباركاً، أو نزولا مباركاً بعد الخروج من السفينة، وذلك تمام النجاة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: المنزل المبارك هو السفينة، ـ عن الجبائي ـ. قيل: لأنّه سبب النجاة. وقيل: معناه: أنزلني مكاناً مباركاً بالماء والشجر، عن الكلبي ـ. وقيل: معنى البركة: أنّهم توالدوا، وكثّروا، ـ عن مقاتل ـ.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ لأنّه لا يقدرأحد على أن يصون غيره من الآفات إذا أنزله منزلاً، ويكفيه جميع ما يحتاج إليه إلّا أنت. قال الحسن: كان في السفينة سبعة أنفس من المؤمنين، ونوح ثامنهم. وقيل: ثمانون.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في أمر نوح والسفينة، وهلاك أعداء الله. ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات للعقلاء يستدلّون بها على التوحيد ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ معناه: وإن كنّا مختبرين إيّاهم بإرسال نوح، ووعظه. وتذكيره، ومتعبّدين عبادنا بالإستدلال

بتلك الآيات على قدرتنا، ومعرفتنا.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ
اعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ
﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أبو جعفر: هيهاتِ هيهاتِ ـ بالكسر ـ. والباقون: بالفتح. وفي الشواذّ، قراءة عيسى بن عمر: هيهاتٍ هيهاتٍ ـ بالتنوين والكسر ـ. وقراءة أبي حَيْوَة: هيهاتٌ هيهاتٌ ـ بالرفع والتنوين ـ. وقراءة عيسى الهمداني: هيهات هيهات ـ مرسلة التاء ـ.

---

(١) مضي قرائة الكسائي: مَن إلَهٌ ـ بفتح الميم ورفع إلَه ـ. والملأ: مكتوب هنا بالألف، ويقف حمزة عليها بإبدالها ألفاً، وبتسهيلها بين بين، ولا يبدل واواً كما في قصّة نوح. وأختلف في «متمّ» فحفص ونافع وحمزة والكسائي بكسر الميم. والباقون: بالضمّ. ويقف البزي على «هيهات» بالهاء، وكذا قنبل، كما في إنشاء طبيه، والكسائي.

الحجة: قال ابن جنّي: أمّا الفتح، وهو قراءة العامّة، فعلى أنّه واحد، وهو إسم سمّي به الفعل في الخبر، وهو اسم بَعُدَ، كما أنّ شتّان إسم افترق، وأفّ إسم أتضجّر. ومن كسر، فقال: ﴿هيهاتٍ﴾ منوّناً أو غير منوّن: فهو جمع هيهاة، وأصلها: هيهيات، فحذف الألف؛ لأنّه في آخر إسم غير متمكّن، كما حذفت ياء «الذي»، وألف «ذا»، في التثنية إذا قلت: اللذان وذان. ومن نوّن، ذهب إلى التنكير أي: بُعداً بُعداً. ومن لم ينوّن، ذهب إلى التعريف، أراد: البعد البعد. ومن فتح، وقف بالهاء؛ لأنّها كهاء «أرطأة». ومن كسر، كتبها بالتاء؛ لأنّها جماعة. ومن قال: هيهاتٌ ـ بالتنوين والرفع ـ: فإنّه يكتبها بالهاء، ويكون إسماً معرباً فيه معنى البعد. وقوله: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾: خبر عنه فكأنّه قال: البعد لوعدكم. وأمّا هيهاتْ ـ ساكنة التاء ـ: فينبغي أن تكون جماعة، وتكتب بالتاء، وأجريت في الوقف مجراها في الوصل.

وتقول العرب: هيهات لما تبغي، وهيهات منزلك. قال جرير:

فَهَيْهاتَ هَيْهاتَ العَقِيقُ ومَنْ بِهِ ... وَهَيْهاتَ خِلٌّ بِالْعَقيقِ نُواصِلُهُ[١]

ويروى: ايهات. وإختار الفرّاء الوقف على ﴿هيهات﴾ ـ بالتاء ـ، لأنّ قبلها ساكناً، فصارت كتأء «نبت أخت». وقال أبو عليّ: إنّما كرّر ﴿هيهات﴾ في الآية، وفي البيت؛ للتأكيد. وأمّا اللتان في الآية، ففي كل واحدة منهما ضمير مرتفع، يعود إلى الإخراج؛ إذ لا يجوز خلوّه من الفاعل، والتقدير: هيهات إخراجكم. لأنّ قوله: ﴿أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ بمعنى الإخراج أي: بعد إخراجكم للوعد؛ إذ كان الوعد إخراجكم بعد موتكم. استبعد أعداء الله إخراجهم لما كانت العدة به بعد الموت. ففاعل «هيهات» هو الضمير العائد إلى ﴿أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ الذي هو بمعنى الإخراج. وأمّا في البيت، ففي هيهات الأولى ضمير العقيق، وفسّر ذلك ظهوره

---

[١] العقيق: وادٍ بالحجاز.

مع الثاني.

﴿الإعراب﴾: إختلفوا في «أنّ» الثانية من قوله سبحانه: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ وكذلك قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فقال سيبويه: أنّ الثانية في هذه المواضع الثلاث بدل من الأولى. وقال أبو عمرو الجرمي، وأبو العباس المبرّد: إنّها مكرّرة للتأكيد، وطول الكلام. وقال أبو الحسن: إنّها مرتفع بالظرف، وإختاره أبو عليّ الفارسي، وزيف القولين الأوّلين. وأقول: إنَّ ﴿أنَّ﴾ الأولى في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ﴾ مع إسمها وخبرها في موضع نصب؛ على أنّه المفعول الثاني من الوعد. ويكون تقديره على مذهب سيبويه: أيعدكم أنّكم مخرجون إذا متمّ وكنتم تراباً وعظاماً أي: أيعدكم كونكم مخرجين بعد موتكم، وكونكم تراباً وعظاماً.

وأمّا على مذهب من جعله للتكرير، فتقديره: أيعدكم أنّكم بعد موتكم مخرجون. وأمّا على مذهب أبي الحسن، وأبي عليّ، فتقديره: أيعدكم أنّكم إذا متّم إخراجكم، كما تقول: إنّكم وقت موتكم أو بعد موتكم إخراجكم. فقوله: ﴿أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ في موضع رفع؛ بالظرف الذي هو قوله: ﴿إِذَا مِتُّمْ﴾. وقوله: ﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ مع ما بعده رفع؛ لكونه جملة واقعة موقع خبر «أنَّ» الأولى. وموضع ﴿إِذَا﴾: نصب كما إنتصب ﴿يوم﴾ في قولك: يوم الجمعة القتال. والعامل في الظرف في الأصل الفعل المحذوف، أو معنى الفعل قولك: يحدث أو حادث، أو يكون أو كائن. ولا يجوز أن يكون العامل فيه الإخراج نفسه؛ إذ لو كان كذلك، لكان الكلام غير تامّ، ولا يكون له خبر، ثمّ يحذف هذا المضمر؛ لدلالة الظرف عليه، وقيامه مقامه، ويصير الذكر الذي كان في المضمر من المحدث عنه في الظرف، وذلك الذكر

مرتفع بالظرف، كما كان يرتفع بالفعل، كما في نحو قولك: زيد ذهب، وزيد ذاهب. فلمّا قام الظرف مقام الفعل، متأخّراً عن الإسم، قام مقامه أيضاً مبتدأ، فرفع الإسم الظاهر كما رفعه الفعل. فكذلك ﴿إِذَا﴾ في الآية، تقديره في الأصل: إذا متمّ إخراجكم كائن، أو حادث، أو يكون، أو يحدث. ثمّ اختزل الفعل، أو معنى الفعل على ما قاله أبو عليّ، فإنتصب «إذا» بذلك، كما ينتصب غداً في قولك: غداً الرحيل. وحذف الخبر كما حذف من غد، ثمّ قام «إذا» مقام الفعل، فرفع قوله: ﴿أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ كما رفع قولك: غداً الرحيل.

وعلى هذا فيجوز أن نقول هنا: إنّ موضع ﴿إِذَا﴾ نصب بحادث، أو يحدث، المضمر في قولك: إذا متمّ إخراجكم يحدث، أو حادث. ويجوز أن نقول: إنَّ الإسم الذي هو ﴿أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ واقع موقع جواب شرط «إذا»، ويرفع بفعل مضمر، تقديره: أيعدكم إذا متمّ يعاد إخراجكم، أو يحدث إخراجكم. ويكون موضع ﴿إِذَا﴾ نصب بذلك الفعل. فأمّا تقدير إرتفاع ﴿أَنَّ﴾ الثانية بالظرف في الآيتين الأخيرتين، فقد تقدّم بيانه في موضعيهما من هذا الكتاب، فلا معنى لإعادته. فقد أجاز أبو عثمان، وغيره، إضمار الظرف وإعماله، كما قالوا في إنتصاب مثلهم في بيت الفرزدق:

فَأصْبَحُوا قَدْ أعادَ اللّه نِعْمَتَهُمْ ... إذْ هُمْ قُرَيْشٌ، وإذْ ما مِثْلُهُمْ بَشرُ

إنّه على ظرف مضمر.

﴿المعنى﴾: ثمّ عطف سبحانه على قصّة قوم نوح، فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أحدثنا، وخلقنا من بعد قوم نوح ﴿قَرْناً آخَرِينَ﴾ أي: جماعة آخرين من الناس. والقرن: أهل العصر على مقارنة بعضهم لبعض. قيل: يعني: عاداً قوم هود؛ لأنّه المبعوث بعد نوح. وقيل: يعني: ثمود؛ لأنّهم أهلكوا بالصيحة، ـ عن الجبائي ـ.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سبق تفسيره ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي: بالبعث والجزاء ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: نعّمناهم فيها بضروب الملاذّ ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ من الأطعمة ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ من الأشربة فليس هو أولى بالرسالة منّا ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ﴾ فيما يدعوكم إليه ﴿إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ بإتّباعه.

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ هذا الرسول ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ وصرتم بعد الموت رميماً ﴿أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء.

﴿هَيْهَاتَ﴾ فيه ضمير مرتفع، عائد إلى قوله: ﴿أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ والمعنى: هيهات هو أي: بعد إخراجكم جِدّاً حتى إمتنع. ﴿هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ قال ابن عباس: بعداً بعداً لما توعدون. وقال الكلبي: بعيد بعيد ما يعدكم ليوم البعث.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ليس الحياة إلّا الحياة التي نحن فيها القريبة منّا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت قوم منّا، ويحيى قوم، ولا نبعث. وقيل: يموت الآباء، ويحيا الأبناء، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: يموت قوم، ويولد قوم. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد ذلك.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ أي: إختلق كذباً. ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدّقين فيما يقول ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ تقدَّم بيانه ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله سبحانه ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن قليل من الزمان والوقت، يعني: عند الموت، أو عند نزول العذاب. وما: هيهنا مزيدة ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ هذا وعيد لهم، واللام للقسم.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا
كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

القراءة: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: ﴿تترا﴾ ـ بالتنوين ـ. والباقون: بغير تنوين. ومن نوّن، وقف بالألف لا غير. ومن لم ينوّن، ومذهبه الإمالة، وقف بالياء، وهي ألف ممالة. والباقون: بالألف[1]. وقد ذكرنا إختلافهم في ﴿ربوة﴾ في سورة البقرة.

الحجة: قال أبو عليّ: تترى: فَعلى، من المواترة، أَنْ يتبع الخبر الخبر، والكتاب الكتاب، فلا يكون بينهما فصل كثير. والأقيس أَنْ لا يصرف؛ لأَنّ المصادر قد يلحق أواخرها ألف التأنيث، كالدعوى والعدوى، والذكرى

(١) كتب: تترا ـ بالألف ـ.

والشورى. ولم نعلم شيئاً من المصادر قد لحق آخرها الياء للإلحاق. فمن قال: تترى، أَمكن أَنْ يريد به فعلى، من المواترة، فيكون الألف بدلاً من التنوين، وإن كان في الخطّ بالياء كان للإلحاق. والإلحاق في غير المصادر ليس بالقليل نحو: أَرطى ومعزى. ولزم أَنْ يحمل على فعلٍ دون فعلى. ومن قال: ﴿تترى﴾ وأراد به فعلى، فحكمه أَنْ يقف بالألف مفخّمة، ولا يميلها. ومن جعل للإلحاق أو للتأنيث، أَمال الألف إذا وقف عليها.

﴿المعنى﴾: لمّا قال سبحانه: إنّ هؤلاء الكفّار يصبحون نادمين على ما فعلوه، عقّبه بالإخبار عن إهلاكهم، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ صاح بهم جبرائيل صيحة واحدة، ماتوا عن آخرهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بإستحقاقهم العقاب بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ وهو ما جاء به السيل من نبات قد يبس، وكل ما يحمله السيل على رأس الماء من قصب، وعيدان شجرة، فهو غثاء. والمعنى: فجعلناهم هلكى قد يبسوا، كما ييبس الغثاء، وهمدوا.

﴿فَبُعْداً﴾ أي: أَلزم الله بعداً من الرحمة ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ المشركين المكذبين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هؤلاء ﴿قُرُوناً آخَرِينَ﴾ أي: أُمماً، وأهل أَعصار آخرين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ هذا وعيد للمشركين، معناه: ما تموت أُمّة قبل أجلها المضروب لها، ولا تتأخّر عنه. وقيل: عني بالعذاب الموعود لهم على التكذيب، أنّه لا يتقدَّم على الوقت المضروب لهم لذلك، ولا يتأخّر عنه. والأجل هو الوقت المضروب لحدوث أَمر من الأمور. والأجل المحتوم هو الذي لا يتأخّر، ولا يتقدّم. والأجل المشروط بحسب الشرط. والمراد بالأجل المذكور في الآية: الأجل المحتوم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ أي: متواترة يتبع بعضهم بعضاً، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. وقيل: متقاربة الأوقات. وأصله: الإتّصال؛ لإتّصاله بمكانه من الفوس، ومنه: الوتر وهو الفرد عن الجمع المتّصل. قال الأصمعي: يقال: واترت الخبر: أَتبعت بعضه بعضاً، وبين الخبرين هنيهة.

﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ ولم يقرُّوا بنبوّته ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً﴾ يعني: في الإهلاك أي: أهلكنا بعضهم في أثر بعض ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: يتحدّث بهم على طريق المثل في الشرّ، وهو جمع: أُحدوثة، ولا يقال هذا في الخير. والمعنى: إنّا صيَّرناهم، بحيث لم يبق بين الناس منهم إلّا حديثهم ﴿فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ظاهر المعنى.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بدلائلنا الواضحة ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: وبرهان ظاهر بيّن ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ﴾ خصَّ الملأ ـ وهم الأشراف ـ بالذكر؛ لأنّ الآخرين كانوا أتباعاً لهم ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تجبَّروا وتعظَّموا عن قبول الحقّ ﴿وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ أي: متكبّرين قاهرين، قهروا أهل أرضهم، وإتخذوهم خولاً.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أي: أنصدّق لإنسانين خلقهما مثل خلقنا، ويسمّى الإنسان بشراً؛ لإنكشاف بشرته، وهي جلدته الظاهرة حتى إحتاج إلى لباس يكنُّه، وغيره من الحيوان مغطّى البشرة بصوف، أو ريش، أو غيره؛ لطفاً من الله سبحانه لخلقه، إذ لم يكن هناك عقل يدبّر أمره، مع حاجته إلى ما يكنُّه. والإنسان يهتدي إلى ما يستعين به في هذا الباب.

﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ أي: مطيعون طاعة العبد لمولاه. قال الحسن: كان بنو إسرائيل يعبدون فرعون، وفرعون يعبد الأوثان ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ الْمُهْلَكِينَ﴾ أي: فكذّبوا موسى وهارون. فكان عاقبة تكذيبهم أَنْ أهلكهم الله، وغرقهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي يهتدوا إلى طريق الحقّ والصواب ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ وهذا مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: حجّة على قدرتنا على الإختراع. وآية عيسى: أنّه خلق من غير ذكر. وآية مريم: أنّها حملت من غير فحل.

﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ أي: جعلنا مأواهما مكاناً مرتفعاً مستوياً واسعاً. يقال: أوى إليه، يأوي، أوياً، وأواه غيره، يؤويه، إيواء أي: جعله مأوى له. والربوة التي أويا إليها: هي الرملة من فلسطين، ـ عن أبي هريرة ـ. وقيل: دمشق، ـ عن سعيد بن المسيّب ـ. وقيل: مصر، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: بيت المقدس، ـ عن قتادة، وكعب ـ. قال كعب: وهي أقرب الأرض إلى السماء. وقيل: هي حيرة الكوفة وسوادها. والقرار: مسجد الكوفة. والمعين: الفرات، ـ عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام ـ.

وقيل: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ معناه: أي ذات موضع قرار أي: هي أرض مستوية يستقرّ عليها ساكنوها، ـ عن الضحّاك، وسعيد بن جبير ـ. وقيل: ذات ثمار، عن قتادة ذهب إلى أنّه لأجل الثمار يستقرّ فيها ساكنوها. ومَعِين: ماء جار ظاهر العيون، مفعول، من عِنْتُهُ أعينه. ويجوز أن يكون «فعيلاً»، من معن يمعن معانة. والماعون: الشيء القليل في قول الزجّاج. قال الراعي:

قَوْمٌ عَلَى الإِسلامِ لَمّا يَمْنَعُوا ... مٰاعُونَهُمْ، وَيُبَدِّلُوا التَّنْزِيلا

قالوا: معناه رفدهم. وقيل: زكاتهم. وقال عُبيد بن الأبرص:[1]

---

(١) عبيد: شاعر جاهلي، معاصر لإمري القيس. والبيت من قصيدة حكمية من البسيط المجزو وزنه مستفعلن فاعلن فعولن. وقبل البيت عيناك دمعهما سروب. كان شانيهما شعيب. والوهي: الخرق، يقول: عينك منخرقة تجري بالدمع، أوهي عين ماء فائض، أو هضبة في أطرافها شقوق، يجري فيها السيل.

وَاهِيَةٌ، أَوْ مَعِينٌ مُمْعِنٌ، أَوْ هَضْبَةٌ دُونَهَا لُهُوبُ[١]

واللهب: شقّ في الجبل. ممعن: مارٌ. والمعن: الشيء السهل الذي ينقاد، ولا يعتاص. وأمعن بحقّه، وأذعن أي: أقرّ. قال ابن الأعرابي. سالت معانه أي: مسائله، ومجاريه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل الكوفة: ﴿وإنَّ هذه﴾ ـ بالكسر ـ. وقرأ ابن عامر: وأنْ ـ بالفتح والتخفيف ـ. والباقون: وأنَّ هذه ـ بالفتح ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: وأنَّ هذه ـ بالفتح ـ، فالمعنى على قول الخليل وسيبويه: إنّه محمول على الجارّ، والتقدير: ولأنّ هذه أُمّتكم أُمّة واحدة، وأنا ربّكم فاتّقون أي: إتّقوني لهذا. ومثل ذلك عندهما، قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ﴾ أي: ولأنّ المساجد لله، فلا تدعوا مع الله أحداً. وكذلك عندهما: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ فكأنّه قال: فليعبدوا ربّ هذا البيت لإيلاف قريش أي: ليقابلوا هذه النعمة بالشكر، والعبادة للمنعم بها، وعلى هذا التقدير يحمل قراءة ابن عامر. ألا ترى أنّ

---

(١) وأثبت ياء «فاتّقون» يعقوب في الحالين. وقرأ: يحسَبون ـ بفتح السين ـ ابن عامر وعاصم وحمزة.

[١] المَعين: الماء الظاهر الجاري.

«أَنَّ» إذا خفّفت إقتضت ما يتعلّق بها إقتضاءها، وهي غير مخفّفة. وقال بعض النحويين: موضع ﴿أَنْ﴾ المفتوحة جرّ؛ عطفاً على قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. و ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: نصب؛ على الحال. والكوفيّون يسمّونه قطعاً. ومن كسر، لم يحملها على الفعل، كما يحملها من فتح، ولكن يجعلها كلاماً مستأنفاً.

المعنى: لمّا أخبر الله سبحانه عن إيتائه الكتاب للإهتداء، ثمّ عمّا أولاه من سايغ [بغ] النعماء، خاطب الرسل بعد ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾ قيل: هو خطاب للرسل كلّهم، وأمر لهم أَنْ يأكلوا من الحلال، ـ عن السدّي ـ. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: إنّ الله طيب لا يقبل إلّا طيباً. وإنّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. وقيل: أراد به محمّداً ﷺ وحده، على مذهب العرب في مخاطبة الواحد مخاطبة الجمع، ـ عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، والكلبي ـ. ويتضمّن هذا أنّ الرسل جميعاً كذا أُمروا. قال الحسن: أما والله ما عني به أصفركم، ولا أحمركم، ولا حلوكم، ولا حامضكم، ولكنّه قال: إنتهوا إلى الحلال منه.

﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ أي: ما أمركم الله به. وقيل: إنّه خطاب لعيسى عليه السلام خاصّة ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان السبب الداعي إلى إصلاح العمل. فإنّ العاقل إذا عمل لمن يعلم عمله، ويجازيه على حسب ما يعمل من عمله، وبقدر إستحقاقه، أصلح العمل.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: دينكم دين واحد ـ عن الحسن، وابن جريج ـ، ويعضده قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: على دين. قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْـرُكْ لِـنَفْسِيَ رِيْـبَةً وَهَلْ يَأْثَمِنْ ذُو أُمَّةٍ وَهْوَ طَائِعُ[1]

وقيل: هذه جماعتكم، وجماعة من قبلكم، واحدة، كلّكم عباد الله تعالى، ـ عن الجبائي ـ. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أي: لهذا فإتّقوا. ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ تفسير الآيتين قد تقدَّم في سورة الأنبياء ﴿زُبُراً﴾ أي: كتباً، وهو جمع زبور، ـ عن الحسن، وقتادة، ومجاهد ـ. والمعنى: تفرَّقوا في دينهم، وجعلوه كتباً دانوا بـها، وكفروا بما سواها، كاليهود كفروا بالإنجيل والقرآن، والنصارى كـفروا بـالقرآن. وقيل: معناه: أحدثوا كتباً يحتجّون بها لمذهبهم، ـ عن ابـن زيـد ـ. ومـن قـرأ ﴿زُبَراً﴾ وهو ابن عامر، فمعناه: جماعات مختلفة، فهي جمع زبـرة أي: تـفرّقوا أحزاباً. وإنتصب ﴿زُبُراً﴾ على الحال من: ﴿أَمْرُهُمْ﴾. والعامل فـيه: ﴿تـقطع﴾. وقال الزجّاج: معناه: جعلوا دينهم كتباً مختلفة، على قراءة من قرأ: ﴿زُبُراً﴾، فعلى هذا يكون ﴿زُبُراً﴾ مفعولاً ثانياً.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل فريق بما عندهم من الدين راضون يرون أنّهم على الحقّ.

ثمّ خاطب نبيَّه ﷺ، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا مـحمّد ﴿فِـي غَـمْرَتِهِمْ﴾ أي: جهلهم، وضلالتهم. وقيل: في حيرتهم. وقيل: في غفلتهم، وهي متقاربة. ﴿حَـتَّى حِينٍ﴾ أي: وقت الموت. وقيل: وقت العذاب.

ثمّ قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ معناه: أيظنّ هؤلاء الكفّار أنّ ما نعطيهم، ونزيدهم من أموال، وأولاد، إنّما نعطيهم ثواباً، ومجازاة لهم على أعمالهم، أو لرضانا عنهم، ولكرامتهم علينا؟ ليس الأمر كما يظنّون، بل ذلك إملاء لهم، وإستدراج لهوانهم علينا، وللإبتلاء في التعذيب لهم.

---

(١) يعتذر عند الملك، ويدفع عن نفسه ما سعي به.

ونظيره قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾.

وروى السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه، عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله تعالى يقول: يحزن عبدي المؤمن إذا أقترت عليه شيئاً من الدنيا، وذلك أقرب له منّي. ويفرح إذا بسطت له الدنيا، وذلك أبعد له منّي. ثمّ تلا هذه الآية إلى قوله: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ثمّ قال: إنّ ذلك فتنة لهم. ومعنى نسارع: نسرع، ونتعجّل، وتقديره: نسارع لهم به في الخيرات. فحذف ﴿به﴾ للعلم بذلك، كما حذف الضمير من قولهم: السمن منوان بدرهم أي: منوان منه بدرهم. والخيرات: المنافع التي يعظم شأنها. ونقيضها: الشرور، وهي المضارّ التي يشتدُّ أمرها. والشعور: العلم الذي يدقّ معلومه، وفهمه على صاحبه، كدقّة الشعر. وقيل: هو العلم من جهة المشاعر، وهي الحواسّ، ولهذا لا يوصف القديم سبحانه به.

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

القراءة: في الشواذ، قراءة النبيّ صلى الله عليه وآله[1] وعائشة وابن عباس وقتادة والأعمش: ﴿يأتُون ما أَتَوا﴾ مقصوراً.

---

(١) مضي كلاماً من صاحب الجواهر، ومفاده: أنّ القراءات المنسوبة الى القرّاء، إنّما هي باجتهادهم لامنقولاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لأنّهم جعلوا قرائته صلى الله عليه وآله قسيماً لقرائتهم. أقول: وهذا غير صحيح؛ لأنّ ما نقلوه عن النبيّ صلى الله عليه وآله قسيماً، هو ماروووه بطريق الآحاد شاذّاً، في مقابل ما سمعوه متواتراً، فالمقابلة بين الشاذّ والمتواتر، لابين المسموع والمخترع.

الحجة: معنى قوله: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: إنّهم يعطون الشيء، ويشفقون أنْ لا يقبل منهم. ومعنى ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾: إنّهم يعملون العمل، وهم يخافونه، ويخافون لقاء الله.

المعنى: ثمّ بيَّن سبحانه حال الأخيار الأبرار، بعد بيانه أحوال الكفّار والفجّار، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي: من خشية عذاب ربّهم خائفون، فيفعلون ما أمرهم به، وينتهون عمّا نهاهم عنه. والخشية: إنزعاج النفس بتوهّم المضرّة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بآيات الله، وحججه من القرآن، وغيرها، يصدّقون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يشركون بعبادة الله تعالى غيره من الأصنام، والأوثان؛ لأنّ خصال الإيمان لا تتمّ إلّا بترك الإشراك ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة. وقيل: أعمال البرّ كلها ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة، ـ عن قتادة ـ. وقال الحسن: المؤمن جمع إحساناً وشفقة. والمنافق جمع إساءة وأمناً. وقال أبو عبدالله عليه السلام: معناه: خائفة أن لا يقبل منهم. وفي رواية أُخرى: يؤتي ما آتى، وهو خائف راج. وقيل: إنّ في الكلام حذفاً، وإضماراً، وتأويله: قلوبهم وجلة أَنْ لا يقبل منهم لعلمهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: لأنّهم يوقنون بأنّهم يرجعون إلى الله تعالى، يخافون أن لا يقبل منهم. وإنّما يخافون ذلك؛ لأنّهم لا يأمنون التفريط.

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ معناه: الذين جمعوا هذه الصفات، وكملت فيهم، هم الذين يبادرون إلى الطاعات، ويسابقون إليها غيرهم؛ رغبة منهم فيها، وعلماً بما ينالون بها من حسن الجزاء ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: وهم لأجل تلك الخيرات سابقون إلى الجنّة. وقيل: معناه: وهم إليها سابقون. وقال الكلبي: سبقوا الأُمم إلى الخيرات. قال ابن عباس: يسابقون فيها أمثالهم من أهل

البرّ والتقوى.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

القراءة: قرأ نافع: تُهجِرون ـ بضمّ التاء وكسر الجيم ـ. والباقون: ﴿تَهجُرون﴾ ـ بفتح التاء وضمّ الجيم ـ. وفي الشواذّ، قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة: ﴿سَامِراً [سَمَراً] تَهْجُرُونَ﴾ وقراءة ابن محيصن: ﴿سُمَّراً﴾. وقراءة يحيى: ﴿ولَوُ اتّبع﴾ ـ بضمّ الواو ـ.

قال أبو علي: من قال ﴿تهجّرون﴾: فالمعنى: أنكم كنتم تهجرون آياتي، وما يتلى عليكم من كتابي، فلا تنقادون له، وتكذبون به، وتُهَجّرون: تأتون بالهجر والهذيان، وما لا خير فيه من الكلام. وقال ابن جنّي: قوله: ﴿تهجرون﴾ معناه:

تكثرون من الهجر، أو هجر النبيّ ﷺ أو كتابه، أو تُكثرون من الإهجار، وهو الإفحاش في القول؛ لأنّ «فعَّل» للتكثير. والسُمَّر: جمع سامر. والسامر: القوم يسمرون أي: يتحدثون ليلاً. قال ذو الرمة:

وَكَمْ عَرَّسَتْ بَعْدَ السُّرىٰ مِنْ مُعَرَّسٍ ... بِهِ مِنْ عَزِيفِ الْجِنِّ أَصْواتُ سامِرِ[1]

قال قطرب: السامر قد يكون واحداً، أو جماعة. وقيل: إنّه أُخذ من السُمرة، وهي اللون الذي بين السواد والبياض، فقيل لحديث الليل: السمر؛ لأنّهم كانوا يقعدون في ظلّ القمر، يتحدّثون. وقيل: إنّ السمر ظلّ القمر.

(اللغة): الوسع: الحال التي يتّسع بها السبيل إلى الفعل. والوسع: دون الطاقة. والتكليف: تحميل ما فيه المشقّة بالأمر والنهي. والإعلام مأخوذ من الكلفة في الفعل. والله سبحانه يكلّف عباده تعريضاً إيّاهم للنفع الذي لا يحسن الإبتداء بمثله. وهو الثواب. وأصل الغمرة: الستر والتغطية، يقال: غمرت الشي إذا سترته. وغمرات الموت: شدائده. وكل شدّة غمرة. قال: «الغمرات، ثمّ ينجلينا، ثمّ يذهبن، فلا يجينا». والجؤار: الإستغاثة، ورفع الصوت بها. والنكوص: رجوع القهقرى، وهو المشي على الأعقاب الى خلف، وهو أقبح مشية، مثّل بها أقبح حال، وهي الإعراض عن الداعي إلى الحقّ.

(الإعراب): ﴿وُسْعَهَا﴾: مفعول ثان لنكلّف. ﴿بِالْحَقِّ﴾: إن جعلت الحقّ مصدراً، فالباء مزيدة، والتقدير: ينطق الحقّ. وإن جعلته صفة محذوفاً، فالتقدير: ينطق بالحكم الحقّ. ومفعول ﴿يَنطِقُ﴾ محذوف. ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: جملة في موضع رفع؛ لأنّها صفة لأعمال. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾: منصوب؛ على الحال من قوله: ﴿تَنكِصُونَ﴾. وذو الحال: الواو، و ﴿تَنكِصُونَ﴾: خبر «كان». و ﴿سَامِراً﴾: إسم

---

(١) التعريس: نزول القوم في السفر. والسري ليسر ليلاً. وعزيف الجنّ: صوتها.

للجمع، منصوب؛ لأنّه حال.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أنّه لا يكلّف أحداً إلّا دون الطاقة، بعد أَنْ أخبر عن حال الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً﴾ أي: لا نكلّفها أمراً، ولا نأمرها ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: دون طاقتها. ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ معناه: وعند ملائكتنا المقرّبين كتاب ينطق بالحقّ: يشهد لكم وعليكم بالحقّ، كتبته الملائكة بأمرنا. يريد صحائف الأعمال.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: يوفون جزاء أعمالهم، فلا ينقص من ثوابهم، ولا يزاد في عقابهم، ولا يؤاخذون بذنب غيرهم ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ بل: ردّ لما سبق، وابتداء الكلام، والمعنى: إنّ قلوب الكفّار في غفلة شديدة من هذا الكتاب، المشتمل على الوعد والوعيد، وهو القرآن. وقيل: في جهل وحيرة، ـ عن الحسن، والجبائي ـ.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي: ولهم أعمال رديّة سوى هذا الجهل، يعملون تلك الأعمال، فيستحقّون بها وبالكفر، العقوبة من الله تعالى. وقيل: ولهم أعمال أي: خطايا من دون الحقّ، ـ عن قتادة، وأبي العالية، ومجاهد ـ. وقيل: ولهم أعمال من دون الأجل الذي أجّلت لهم في موتهم، لابدّ أن يعملوها، ـ عن الحسن، ومجاهد في رواية أخرى، وابن زيد ـ. وقيل: أعمال أَصغر من ذلك أي: دون الكفر، كما يقال: هذا دون هذا في القدر، هم لها عاملون إلى أَنْ يفني آجالهم، فهم مشتغلون بها.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي: يكون هذا دأبهم، حتى إذا أخذنا متنعّميهم ورؤساءهم بعذاب الآخرة. ويقال: عذاب الدنيا. وهو عذاب السيف في يوم بدر، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو الجوع حين دعا النبيّ ﷺ عليهم فقال: أللهمّ اشدد وطأتك على مضر، وإجعلها سنين كسني يوسف. فإبتلاهم الله سبحانه

بالقحط، حتى أكلوا الجيف والكلاب، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي: يضجُّون لشدّة العذاب، ويجزعون. وقيل: يستغيثون، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: يصرخون إلى الله بالتوبة، فلا يقبل منهم ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ أي: يقال لهم: لا تتضرّعوا اليوم ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ هذا إيئاس لهم من دفع العذاب عنهم ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: تقرأ ﴿فَكُنتُمْ﴾ أيّها الكافرون المعذّبون[المكذّبون] ﴿عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: تدبرون، وتستأخرون، وترجعون القهقرى مكذّبين. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: متكبّرين على سائر الناس بالحرم، أو بالبلد، يعني: مكّة، أن لا يظهر عليكم فيه أحد، ـ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد ـ. وقيل: مستكبرين بمحمّد ﷺ أن تطيعوه، وبالقرآن أن تقبلوه، فالهاء كناية عن غير مذكور في قول الجميع.

﴿سَامِراً﴾ أي: تسمرون بالليل أي: تتحدّثون في معائب النبيّ ﷺ. ﴿تَهْجُرُونَ﴾ الحقّ بالإعراض عنه، وتهجرون أي: تفحشون في المنطق. ثمّ قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي: ألم يتدبّروا القرآن، فيعرفوا ما فيه من العبر والدلالات على صدق نبيّنا ﷺ. ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد أليس قد أرسلنا نوحاً، وإبراهيم، والنبيّين إلى قومهم، وكذلك أرسلنا محمّداً ﷺ.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ قال ابن عباس: أليس هو محمّداً، الذي قد عرفوه صغيراً وكبيراً، صادق اللسان، أميناً وافياً بالعهد. وفي هذا توبيخ لهم بالإعراض عنه، بعدما عرفوا صدقه، وأمانته، مع شرف نسبه قبل الدعوة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ قال ابن عباس: يريد: وأيُّ جنون يرون به. وفي هذا

دلالة على جهلهم، حيث أقرّوا له بالعقل، والصدق أوّلاً، ثمّ نسبوه الى للـجنون. وإنّما نسبوه إلى الجنون؛ لينفروا الناس عنه، أو لأنّه يطمع في إيمانهم، فهو يطمع في غير مطمع.

﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ المعنى: بل جاءهم بالقرآن، والدين الحقّ، وليس به جنّة. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لأنّه لم يوافق مرادهم ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الحقّ هو الله تعالى، ـ عن أبي صالح، وابن جريج، والسدّي ـ، والمعنى: ولو جعل الله لنفسه شريكاً كما يهوون.

﴿لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ووجه الفساد: ما تقدّم ذكره عند قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾. وقيل: الحقّ ما يدعو إلى المصالح والمحاسن. والأهواء: ما تدعو إلى المفاسد، والمقابح. ولو إتّبع الحقّ داعي الهوى، لدعا الى المقابح، ولفسد التدبير في السماوات والأرض؛ لأنّها مدبرة بالحقّ، لا بالهوى. وقيل: معناه: لفسدت أحوال السماوات والأرض؛ لأنّها جارية على الحكمة، لا على الهوى.

﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: ولفسد من فيهنّ، وهو إشارة الى العقلاء من الملائكة، والإنس، والجنّ. وقال الكلبي: وما بينهما من خلق، فيكون عاماً. ووجه فساد العالم بذلك: أنّه يوجب بطلان الأدلّة، وإمتناع الثقة بالمدلول عليه، وأَنْ لا يوثق بوعد، ولا وعيد، ولا يؤمن إنقلاب عدل الحيكم ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بما فيه شرفهم وفخرهم؛ لأنّ الرسول ﷺ منهم، والقرآن نزل بلسانهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ﴾ أي: شرفهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ وبالذلّ راضون. وقيل: الذكر البيان للحقّ، ـ عن ابن عباس ـ.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾
وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾
۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ (١)
ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

(اللغة): أصل الخراج والخرج، واحد، وهو الغلة التي تخرج على سبيل الوظيفة، ومنه: خراج الأرض. وهما مصدران يجمعان. وقد سبق إختلاف القرّاء فيه ـ في سورة الكهف ـ. والإستكانة: الخضوع، وهو إستفعل، من الكون. والمعنى: ما طلبوا الكون على صفة الخضوع. قال الأزهري: أكانه الله يكينه أي: أخضعه حتى ذلّ. ومات فلان بكينة سوء أي: بحال سوء. وقيل: إنّ «استكان» من السكينة والسكون، إلّا أنّ الفتحة أُشبعت، فنشأت منها ألف، فصار إستكانوا. والأصل: إستكنوا، على افتعلوا. قال عنترة في إشباع الفتحة:

---

(١) قرأ خراجاً الأوّل ـ بزيادة ألف ـ حمزة والكسائي. وقرأ: فخرْج ربّك ـ بسكون الراء ـ ابن عامر.

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرِي غَضُوبٍ، جَسْرَةٍ زَيَّافَةٍ مِثْلِ الْفَنِيقِ الْمُكْدَمِ[1]

يريد: ينبع، فأشبع الفتحة. وقال آخر:

وَأَنْتَ مِنَ الْغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَزَاحٍ[2]

أي: بمنتزح.

المعنى: ثمّ قال سبحانه: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ يا محمّد على ما جئتهم به من القرآن، والإيمان ﴿خَرْجاً﴾ أي: أجراً، ومالاً يعطونك، فيورث ذلك تهمة في حالك، أو يثقل عليهم قبول قولك لأجله ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: فرزق ربّك في الدنيا خير منه، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: فأجر ربّك في الآخرة خير منه، ـ عن الحسن ـ. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: أفضل من أعطى، وآجر. وفي هذا دلالة على أنَّ في العباد من يرزق غيره بإذن الله.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من التوحيد، وإخلاص العبادة، والعمل بالشريعة. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدّقون بالنشأة الآخرة ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أي: عن الدين الحقّ عادلون مائلون. وقيل: معناه: أنّهم في الآخرة ناكبون عن طريق الجنّة، يؤخذ بهم يمنة ويسرة الى النار، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ ورددناهم إلى دار التكليف ﴿لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ مثل قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: إنّه في الدنيا أي: ولو أنّا رحمناهم، وكشفنا ما بهم

---

(١) ذفري: خلف الأذن. وغضوب: عبوس. وجسرة: الناقة الضخمة الطويلة. والزيافة: المختالة. والفنيق ـ بالنون ـ: الذي لايركب لكرامته. والمكدم: الفحل القويّ. والشاهد في ينباع أي: ينبع العرق من خلف أذن ناقة هذه صفتها.

(٢) يخاطب إبنه الميّت، ويريثه.

من جوع ونحوه، لتمادوا في ضلالتهم وغوايتهم، يتردّدون، ـ عن ابن جريج ـ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ معناه: إنّا قد أخذنا هؤلاء الكفّار بالجدب، وضيق الرزق، والقتل بالسيف. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما تواضعوا، ولا إنقادوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: وما يرغبون إلى الله في الدعاء. وقال أبو عبدالله عليه السلام: الإستكانة في الدعاء والتضرّع: رفع اليد في الصلاة.

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: هذا دأبهم حتى إذا فتحنا عليهم نوعاً آخر من العذاب، وذاك حين دعا النبيّ صلى الله عليه وآله عليهم فقال: أللهمّ سنين كسني يوسف. فجاعوا حتى أكلوا العلهز، وهو الوبر بالدم، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هو القتل يوم بدر، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: فتحنا عليهم باباً من عذاب جهنّم في الآخرة، ـ عن الجبائي ـ. وقيل ذلك حين فتح مكّة. وقال أبو جعفر عليه السلام: هو في الرجعة. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، متحيّرون.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه المنعم على خلقه بأنواع النعم، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: خلق هذه الحواسّ إبتداء لا من شيء، وخصّ هذه الثلاثة؛ لأنّ الدلائل مبنيّة عليها، ينظر العاقل، ويسمع، ويتفكّر، فيعلم. ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: يقلّ شكركم لها، و ﴿قَلِيلاً﴾: منصوب على المصدر، وتقديره: تشكرون شكراً قليلاً لهذه النعم، التي أنعم الله بها عليكم. وقيل: معناه: أنّكم لا تشكرون ربّ هذه النعم، فتوحّدونه، ـ عن مقاتل ـ.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم وأوجدكم ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحييكم في أرحام أُمّهاتكم، ويميتكم عند إنقضاء آجالكم. ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: وله تدبيرهما بالزيادة والنقصان. وقيل: وله ملك، إختلافهما، وهو ذهاب أحدهما، ومجيء الآخر ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعلمون بأن تفكّروا، فتعلموا أنّ لذلك صانعاً قادراً، عالماً حيّاً

حكيماً، لا يستحقّ الإلهية سواه، ولا تحسن العبادة إلّا له.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾(١)

القراءة: قرأ أهل البصرة: سيقولون الله، في الآيتين. والباقون: ﴿لله﴾ ولم يختلفوا في الأُولى.

الحجة: أمّا قراءة أهل البصرة: فجواب على ما يوجبه اللفظ. ومن قرأ ﴿لله﴾ فعلى المعنى؛ وذلك أنّه إذا قيل: من مالك هذه الدار؟ فأُجيب: لزيد، فإنّ الجواب على المعنى، دون ما يقتضيه اللفظ، فإنّ الذي يقتضيه اللفظ، أن يقال: زيد. وإنّما إستقام ذلك؛ لأنّ معنى: من مالك هذه الدار، ولمن هذه الدار، واحد. فلذلك

---

(١) قرأ «إذا متنا»، «إنّا لمبعوثون» ـ بالإستفهام في الأوّل، والإخبار في الثاني ـ نافع، والكسائي. وبالعكس ابن عامر. والباقون: بالإستفهام فيهما، وكل في التسهيل والتحقيق على أصله. «وتذّكرون» ـ بتشديد الذال ـ غير حمزة، والكسائي، وحفص.

أُجيب تارة على اللفظ، وتارة على المعنى.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن الكفّار المكذّبين بالبعث، فقال: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ المنكرون للبعث بعد الموت. ثمّ حكى مقالتهم، فقال: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهذا جهل منهم؛ لأنّهم لو تفكّروا في أنّ النشأة الأُولى أعظم منه، لما إستعظموه، وقد أقرّوا بأنّ الله خالقهم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا﴾ أي: وعد آباؤنا ﴿هَذَا﴾ الذي تعدنا من البعث ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيئك، فما صدق وعدهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلّا أكاذيب الأولين، قد سطروا ما لا حقيقة له. وإنّما يجري مجرى حديث السمر الذي يكتب للإطراف به.

ثمّ إحتجّ على هؤلاء المنكرين للبعث والنشور، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي: لمن خلق الأرض وملكها، ومن فيها من العقلاء ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ﴾ مني الجواب ﴿لله﴾ يقرّون بأنّ الله هو الخالق.

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فقل لهم عند ذلك: أفلا تتفكّرون، فتعلمون أنّه تعالى قادر على ذلك، ومن قدر عليه، قدر على إحياء الموتى؛ لأنّه ليس ذلك بأعظم منه.

ثمّ زاد في الحجّة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم أيضاً ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ أي: من مالكها والمتصرّف فيها؟ ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: ومن مالك العرش، ومدبّره؟ لأنّهم كانوا يقرّون بأنّ الله خالق السماوات والأرض، وأنّ الملائكة سكّان السماوات، والعرش عندهم عبارة عن الملك، إلّا أن يكون أتاهم خلق العرش من قبل النقل[1].

---

(١) يعني: لاسبيل الى إثبات العرش، إلّا النقل عن الأنبياء، ولكن الحكماء أثبتوا وجود جسم عظيم محدّد للجهات، محيط بالأجسام، وإلّا لكان وجود جسم في مكان بعينه، ترجيحاً من غير مرجّح.

ثمّ أخبر أنّهم ﴿سَيَقُولُونَ لِلّهِ﴾ في الجواب عن ذلك أي: إنّ ربّ السماوات، وربّ العرش، هو الله. ومن قرأ: ﴿لِلّهِ﴾ فالمعنى: إنّها لله.

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: فعند ذلك يلزمهم الحجّة. فقل لهم: أفلا تتّقون عذابه على جحد توحيده. والإشراك في عبادته، وفي إنكار البعث. ثمّ زاد في الحجّة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم أيضاً: ﴿مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والملكوت: من صفات المبالغة في الملك، كالجبروت والرهبوت. وقال مجاهد: ملكوت كل شيء خزائن كل شيء.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: يمنع من السوء من يشاء، ولا يمتنع منه من أراده بسوء، يقال: أجرت فلاناً: إذا إستغاث بك فحميته. وأجرت عليه: إذا حميت عنه. ويحتمل أن يكون أراد في الدنيا أي: من قصد عبداً من عباده بسوء، قدر على منعه. ومن أراد الله بسوء، لم يقدر على منعه أَحد. ويحتمل أن يكون أراد في الآخرة أي: يجير من العذاب، ولا يجار عليه منه. ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعلمون ذلك، فأجيبوا.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ في الجواب: ﴿لِلّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيف يخيل إليكم الحقّ باطلاً، والصحيح فاسداً، مع وضوح الحقّ وتمييزه من الباطل. وقيل: معناه: فكيف تعمون عن هذا، وتصدّون عنه من قولهم: سحرت أعيننا، فلم نبصر. وقيل: معناه: فكيف تخدعون ويموه عليكم، كقول إمرىء القيس:

وَنُسحَرُ بِالطَّعامِ وبِالشَّرابِ[1]

أي: ونخدع. ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ معناه: إنّا جئناهم بالحقّ، وبيّنا لهم الحقّ الذي فيه بيان كذبهم، ولكنّهم أصرّوا على باطلهم، وكذبهم.

---

(١) مضى البيت.

النظم: وإنّما إتّصلت الآية الأولى بما قبلها بمعنى: أنّهم لو تفكّروا لعلموا، ولكن عوّلوا على التقليد، فقالوا مثل ما قال الأوّلون. فعلى هذا تكون متّصلة بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. وقيل: إنّه جواب الإستفهام في قوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾. والآية الأخيرة معطوفة على ما تقدَّم من أدلّة التوحيد، وهي ردّ على المشركين، وتكذيب لهم في قولهم: إنّ الأصنام آلهة، وإنّ الله سبحانه له ولد، وإنّ الملائكة بنات الله.

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا
خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ
إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾
وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل المدينة، وأهل الكوفة، غير حفص: عالمُ الغيب ـ بالرفع ـ.

---

(١) لم يمل «لَعَلا» أحد من القرّاء؛ لأنّه وأويّ ثلاثيّ مكتوب بالألف. وأثبت الياء من «يحضرون، وارجعون» يعقوب ـ وصلاً ووقفاً. ـ وفتح ياء «لعلى» الحرميان والبصري والشامي.

والباقون: بالجرّ إلّا أنّ رويساً إذا وصل، جرّ، وإذا إبتدأ، رفع.

﴿الحجة﴾: وجه الرفع: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هو عالم الغيب. ووجه الجرّ: أن يكون صفة الله تعالى. ويكون إضافة «عالم» حقيقية، بمعنى اللام، ويجوز أن يكون بدلاً، فتكون الإضافة غير حقيقيّة. والغيب: في تقدير النصب، والأوّل يكون بمعنى الماضي، والثاني بمعنى الحاضر، ولا يكون بمعنى المستقبل.

﴿اللغة﴾: الهَمْزة: شدّة الدفع، ومنه: الهمزة للحرف الذي يخرج من أقصى الحلق بإعتماد شديد ودفع. وهمز الشيطان: دفعه بالإغواء إلى المعاصي. وقوس هَمَزى: شديدة الدفع للسهم. والبرزخ: الحاجز بين الشيئين، وكل فصل بين شيئين برزخ[1]. ومعنى من ورائهم هنا: من أمامهم وقدامهم، قال الشاعر:

أَيَرْجُو بَنُو مَرْوانَ سَمْعي وطاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمٌ، وَالْفَلاةُ وَرَائِيا

﴿الإعراب﴾: قوله: ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ آلـهٍ بِمَا خَلَقَ﴾: جواب ﴿لو﴾ مقدّر، والتقدير: ولو كان معه إله إذاً لذهب. وإذاً: هنا حشو بين لو وجوابه، فهي لغو غير عامل. ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾: إنْ: للشرط ضمّت إليها «ما» مسلّطة. والمعنى: إنّها سلّطت نون التأكيد على دخولها الفعل المضارع، ولو لم تكن هي، لم يجز أن تريني. وجواب الشرط ﴿فَلاَ تَجْعَلْنِي﴾. ورَبِّ معترض بين الشرط والجزاء. و ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الموصولة والصلة في موضع جرّ؛ بأنّهما صفة محذوف مجرور، التقدير: إدفع بالخصلة التي هي أحسن. و ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾: جاء الخطاب على

---

(١) إصطلح أهل زماننا على تسمية عالم المثل، وما فيه الأرواح قبل البعث برزخاً، وربما يستدلّ على وجوده بالآية الكريمة. ولكن الصحيح الإستدلال عليه بدليل العقل، والروايات، والآية التي تدلّ على بقاء الأرواح، وأمّا هذه الآية فغير دالّة ألتبّة، وربما يخصّص اللفظ بموجود مقداري، لا مادّة له أثبته بعضهم، وتدلّ عليه بعض الأحاديث، كما ورد أنّ أرواح المؤمنين بعد الموت في أبدان كأبدانهم.

لفظ الجمع؛ لأنّه سبحانه يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا﴾ ﴿وَإِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ وهذا اللفظ يعرفه العرب للجليل الشأن يخبر عن نفسه بما يخبر به الجماعة، فكذلك جاء الخطاب في ﴿ٱرْجِعُونِ﴾. وقال المازني: إنّه جمع الضمير ليدلّ على التكرار، فكأنّه قال: ربّ إرجعنِ إرجعنِ إرجعنِ. و ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إلى: تتعلّق بما يتعلّق به ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾. و ﴿يَوْمِ﴾: مضاف إلى ﴿يُبْعَثُونَ﴾؛ لأنّ أسماء الزمان تضاف إلى الأفعال.

المعنى: ثمّ أكّد سبحانه ما قدّمه من أدلّة التوحيد، بقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي: لم يجعل ولد غيره ولد نفسه، لإستحالة ذلك عليه. فمن المحال أن يكون له ولد. فلا يجوز عليه التشبيه بما هو مستحيل ممتنع، إلّا على النفي والتبعيد. وإتّخاذ الولد هو أَنْ يجعل الجاعل ولد غيره يقوم مقام ولده، لو كان له، وكذلك التبنّي إنّما هو جعل الجاعل ابن غيره. ومن يصحّ أن يكون إبناً له مقام إبنه، ولذلك لا يقال: تبنّى شابّ شيخاً، ولا تبنّى الإنسان بهيمة، لما إستحال أن يكون ذلك ولداً له.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ من: هيهنا وفي قوله: ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ مؤكّدة، فهو آكد من أن يقول: ما إتّخذ الله ولداً، وما كان معه إله. نَفَى عن نفسه الولد والشريك، على آكد الوجوه.

﴿إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ والتقدير: إذ لو كان معه إله آخر، لذهب كل إله بما خلق أي: لميّز كل إله خلقه عن خلق غيره، ومنعه من الإستيلاء على ما خلقه، أو نصب دليلاً يميّز به بين خلقه و خلق غيره، فإنّه كان لا يرضى بأن يضاف خلقه، وإنعامه إلى غيره.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ولطلب بعضهم قهر بعض ومغالبته. وهذا معنى قول المفسّرين: ولقاتل بعضهم بعضاً، كما يفعل الملوك في الدنيا. وقيل:

معناه: ولمنع بعضهم بعضاً عن مراده، وهو مثل قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِـهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وفي هذا دلالة عجيبة في التوحيد، وهو أنّ كل واحد من الآلهة من حيث يكون إلهاً، يكون قادراً لذاته، فيؤدّي الى أَنْ يكون قادراً على كل ما يقدر عليه غيره من الآلهة، فيكون غالباً ومغلوباً من حيث إنّه قادر لذاته. وأيضاً فإنّ من ضرورة كل قادرين صحّة التمانع بينهما. فلو صحَّ وجود إلهين، صحَّ التمانع بينهما من حيث إنّهما قادران، وامتنع التمانع بينهما من حيث إنّهما قادران للذات، وهذا محال[1].

وفي هذا دلالة على إعجاز القرآن؛ لأنّه لا يوجد في كلام العرب كلمة وجيزة تضمّنت ما تضمّنته هذه، فإنّها قد تضمّنت دليلين باهرين على وحدانيّة الله، وكمال قدرته. ثمّ نزَّه نفسه عمّا وصفوه به، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عمّا يصفه به المشركون، من إتّخاذه الولد والشريك. ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم ما غاب وما حضر، فلا يخفى عليه شيء ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمعنى: إنّه عالم بما كان، وبما سيكون، وبما لم يكن أَنْ لوكان كيف يكون. ومن كان بهذه الصفة، لا يكون له شريك؛ لأنّه الأعلى من كل شيء في صفته.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إن أريتني ما يوعدون من العذاب، والنقمة، يعني: القتل يوم بدر ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي

---

(١) وإنّما قال صحّة التمانع؛ ليدفع الشبهة التي تختلج في ذهن المبتدي، من أنّه لو فرضنا واجبين متسالمين يرضي كل واحد بفعل الآخر لم يلزم الفساد والتمانع. والجواب: إنّ مجرّد وجود قادر مساوي، يوجب محدوديّة قدرة كل واحد منهما، ونحن نتمسّك بإمكان التمانع عقلاً، لا بوجود التمانع خارجاً، حتى يدفع بإمكان التسالم، وأعلم أنّ المحقّقين من الحكماء لا يعترفون بإحتمال تطرّق الكثرة في وجوب الوجود، كما لايمكن تطرقه في نفس مفهوم الوحدة، فإن تشخّص الوجود ألحق عين حقيقته، ونظيره في المفاهيم مفهوم الكل؛ فإنّه لا يتصوّر كلان، وإلّا فكل واحد منهما بعض.

﴿فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: مع القوم الظالمين. والمعنى: فأخرجني من بينهم عندما تريد إحلال العذاب بهم؛ لئلّا يصيبني ما يصيبهم. وفي هذا دلالة على جواز أن يدعو الإنسان بما يعلم أَنَّ الله يفعله لا محالة؛ لأنّ من المعلوم أنَّ الله تعالى لا يعذّب أنبياءه مع المعذّبين. ويكون الفائدة في ذلك إظهار الرغبة إلى الله.

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ هذا إبتداء كلام من الله تعالى، معناه: إنّا لا نعاجلهم بالعقوبة، مع قدرتنا على ذلك، ولكن ننظرهم، ونمهّلهم لمصلحة توجب ذلك. قال الكلبي: هذا أمر شهده أصحاب رسول الله ﷺ بعد موته. وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني، بإسناده عن أبي صالح، عن ابن عباس، وجابر بن عبدالله، أنّهما سمعا رسول الله ﷺ يقول في حجّة الوداع وهو بمنى: لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن فعلتموها، لتعرفني في كتيبة يضاربونكم. قال: فغمز من خلفه منكبه الأيسر، فإلتفت فقال: أو عليٌّ فنزل: ﴿قُل رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ الآيات.

ثمّ أمره ﷺ بالصبر، إلى أن ينقضي الأجل المضروب للعذاب، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ أي: إدفع بالإغضاء، والصفح، إساءة المسيء، ـ عن مجاهد، والحسن ـ. وهذا قبل الأمر بالقتال. وقيل: معناه: إدفع باطلهم ببيان الحجج على ألطف الوجوه، وأوضحها، وأقربها إلى الإجابة والقبول. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يكذّبون، ويقولون من الشرك. والمعنى: إنّا نجازيهم بما يستحقّونه.

ثمّ أمره ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: أعتصم بك ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: من نزعاتهم، ووساوسهم، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. والمعنى: من دعائهم إلى الباطل والعصيان، ومن شرورهم في كل شيء يخاف فيه من ذلك ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي: يشهدوني،

ويقاربوني، ويصدّوني عن طاعتك. وقيل: معناه: أن يحضروني في الصلاة عند تلاوة القرآن. وقيل: في الأحوال كلّها.

ثمّ عاد سبحانه إلى قوله: ﴿أَءِذا مِتنَا وَكُنّا تُراباً وَعِظَاماً﴾ فقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ يعني: إنَّ هؤلاء الكفّار إذا أشرفوا على الموت، سألوا الله تعالى عند ذلك الرجعة إلى دار التكليف، فيقول أحدهم: ربّ إرجعون ـ على لفظ الجمع ـ، وفي معناه قولان:

أحدهما: إنّهم إستغاثوا أوّلاً بالله، ثمّ رجعوا إلى مساءلة الملائكة، فقالوا لهم: إرجعون أي: ردّوني إلى الدنيا، ـ عن ابن جريج ـ.

والآخر: إنّه على عادة العرب في تعظيم المخاطب، كما قال: ﴿قُرَّةَ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ﴾ . وروى النضر بن شميل قال: سألوا الخليل عن هذا، ففكر، ثمّ قال: سألتموني عن شيء لا أُحسنه، ولا أعرف معناه. فإستحسن الناس منه ذلك.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي: في تركتي. والمعنى: أؤدّي عنها حقّ الله تعالى، وقيل: معناه: في دنياي، فإنّه ترك الدنيا، وصار إلى الآخرة. وقيل: معناه: أعمل صالحاً فيما فرطت، وضيّعت أي: في صلاتي، وصيامي، وطاعاتي. وقال الصادق عليه السلام: إنّه في مانع الزكاة، يسأل الرجعة عند الموت.

ثمّ قال سبحانه في الجواب عن سؤالهم: ﴿كَلاَّ﴾ أي: لا يرجع إلى الدنيا ﴿إِنَّهَا﴾ أي: مسألة الرجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: كلام يقوله، ولا فائدة له في ذلك. وقيل: معناه: وهي كلمة يقولها بلسانه، وليس لها حقيقة، مثل قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾. وروى العياشي بإسناده عن الفتح بن يزيد الجرجاني، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: جعلت فداك أيعرف القديم سبحانه الشيء الذي لم يكن أَنْ لو كان كيف كان يكون؟ قال: ويحك! إنَّ مسألتك لصعبة، أَما قرأت قوله عزوجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ ﴿وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فقد

عرف الشيء الذي لم يكن، ولا يكون، أنْ لو كان كيف كان يكون. وقال: يحكي قول الأشقياء: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فقد علم الشيء الذي لم يكن، لو كان كيف كان يكون، وهو السميع البصير الخبير العليم.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾ أي: ومن بين أيديهم ﴿بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: حاجز بين الموت والبعث في يوم القيامة من القبور، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، وهم فيه إلى يوم يبعثون، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. وقيل: البرزخ: الإمهال إلى يوم القيامة، وهو القبر، وكل فصل بين شيئين فهو برزخ، ـ عن عليّ بن عيسى ـ. وفي الآية دلالة على أنّ أحداً لا يموت، حتى يعرف منزلته عند الله تعالى، اضطراراً، وأنّه من أهل الثواب، أو العقاب، ـ عن الجبائي ـ.

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ

ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: شَقاوتنا ـ بالألف وفتح الشين ـ. والباقون: شِقوتنا ـ بكسر الشين من غير ألف ـ. وقرأ أهل المدينة، وأهل الكوفة غير عاصم: سُخرياً ـ بضمّ السين ـ. والباقون: بكسرها، وكذلك في سورة صّ.

الحجة: قال أبو عليّ: الشقوة مصدر كالرقّة والفطنة، والشقاوة كالسعادة. فالقراءة بهما جميعاً سائغة. وقال أبو زيد: إتّخذت فلاناً سِخريّاً وسُخرياً: وسخرة: إذا هزئت منه. وقد سخرت منه أسخر سخرياً وسَخَرا قال أبو عبيدة: إتّخذتموهم سِخرياً تسخرون منهم، وسُخرياً تُسَخَرونهم. ويقال أيضاً: إنَّ من الهزء سُخري وسِخري، ومن السخريّة مضمومة لا غير. وحكي عن الحسن وقتادة: أنَّ ما كان من العبودية، فهو سُخري ـ بالضمّ ـ، وما كان من الهزء، فبالكسر. قال أبو عليّ: الأكثر في الهزء كسر السين فيما حكوه، ويروى أنّه إنّما كان أكثر؛ لأنّ السخر مصدر سخرت، وفَعل وفِعل قد يكونان بمعنى، نحو: المَثَل والمِثل، والشَّبَه والشِبه في حرف آخر، فكذلك السِّخر والسَّخر. إلاّ أنَّ المكسورة أُلزمت ياء النسب دون المفتوحة، كما إتّفقوا في القسم على الفتح في: لعمر الله. ولم يعتدّ بياء النسب، كما لم يعتدّ بها في نحو: أحمر وأحمري، ودوار ودواري. والوجه في الضمّ على ما حكي عن يونس: أنَّ السخري قد يقال بالضمّ بمعنى الهزء. وإتّفق القرّاء على الضمّ في الزُّخرف؛ لأنّه من السخرة، وإنقياد بعضهم لبعض في الأُمور، وذلك لا يكون إلاّ بالضمّ.

---

(١) أدغم البائين من «فلا أنساب بينهم» أبو عمرو. وأثبت الياء من «تكلّمون» يعقوب في الحالين. وأظهر الذال من «اتّخذتموهم» ابن كثير وحفص.

اللغة: اللفح والنفح، بمعنى، إلّا أنَّ اللفح أشدّ تأثيراً، وأعظم من النفح، وهو ضرب من السموم للوجه. والنفح: ضرب الريح الوجه. والكلوح: تقلّص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان. قال الأعشى:

وَلَـــهُ الْـمَقْدَمُ لا مِـثْلَ لَـهُ ساعَةَ الشِّدْقُ عَنِ النّابِ كَلَحْ[1]

وخسأت فلاناً أخسأه خسأً: إذا زجرته ليتباعد فخسأ، وهو خاسىء. ومعنى إخسأ أي: تباعد تباعد سخط.

الإعراب: العامل في «إذا نفخ، وبينهم، ويومئذ» خبر ﴿لا﴾ المحذوف، تقديره: فلا أنساب تثبت بينهم. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: في موضع النصب؛ على الحال، والعامل فيه: ﴿خَالِدُونَ﴾.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حال الفريقين يوم البعث، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ قيل: إنّ المراد به: نفخة الصعق، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: نفخة البعث، ـ عن ابن مسعود ـ. والصور: جمع صورة أي: إذا نفخ فيه الأرواح، وأُعيدت أَحياء، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إنّ الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بالصوت العظيم الهائل، على ما وصفه الله تعالى، علامة لوقت إعادة الخلق، ـ عن أكثر المفسّرين ـ.

﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: لا يتواصلون بالأنساب، ولا يتعاطفون بها مع معرفة بعضهم بعضاً، ـ عن الحسن ـ. والمعنى: أنّه لا يرحم قريب قريبه؛ لشغله عنه، فإنّ المقصود بالأنساب دفع ضرّ، أو جرُّ نفع، فإذا ذهب هذا المقصود، فكأنّ

---

(١) والظاهر أنّه يصف عمرو بن هند، ملك العرب. ومن هذه القصيدة:

كم رأينا من أناس [أناص] هلكوا ورأينا الملك عمراً بطلح

قاعداً يجبي اليه خرجه كل ما بين عمان فالملح

والشدق: جانب الفم، وتقلّصه: كناية عن الغضب.

الأنساب قد ذهبت، ومثله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾. وقيل: معناه: لا يتفاخرون بالأنساب، كما كانوا يفعلونه في الدنيا، ـ عن ابن عباس، والجبائي ـ. ولابدَّ من تقدير محذوف في الآية على تأويل: فلا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها، أو يتعاطفون بها. والمعنى: إنّه لا يفضل بعضهم بعضاً يومئذ بنسب، وإنّما يتفاضلون بأعمالهم. وقال النبيّ ﷺ: كل حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلّا حسبي ونسبي.

﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله وخبره، كما كانوا يسألون في الدنيا، لشغل كل واحد بنفسه، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه ذنبه، ولا تنافي بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لأنّ للقيامة أحوالاً ومواطن، فمنها: حال يشغلهم عظم الأمر فيها عن المسألة. ومنها: حال يلتقون فيها فيتساءلون. وهذا معنى قول ابن عباس لمّا سئل عن الآيتين، فقال: هذه تارات يوم القيامة. وقيل: إنّما يتساءلون عند دخول الجنّة، وإنّما يسأل بعض أهل الجنّة بعضاً، فإنّهم لا يفزعون من أهوال القيامة، ـ عن السدّي ـ.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالطاعات ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ عن الطاعات ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾. وقد تقدَّم تفسير الآيتين، وإختلاف المفسّرين في كيفيّة الميزان والوزن في سورة الأعراف ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ﴾ أي: يصيب وجوههم لفح النار، ولهيبها ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ أي: عابسون، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو أَنْ تتقلّص شفاههم، وتبدو أسنانهم كالرؤوس المشويّة، ـ عن الحسن ـ.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: ويقال لهم أو لم يكن القرآن يقرأ عليكم. وقيل: ألم تكن حججي، وبيّناتي، وأدلّتي، تقرأ عليكم في دار الدنيا.

﴿فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: شقاوتنا، ومعناهما واحد، وهو المضرّة اللاحقة في العافية، والسعادة: المنفعة اللاحقة في العاقبة. ويقال لمن حصل في الدنيا على مضرّة فادحة: شقي. والمعنى: إستعلت علينا سيّئاتنا، التي أوجبت لنا الشقاء.

﴿وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ أي: ذاهبين عن الحقّ. ولمّا كانت سيّئاتهم التي شقوا بها سبب شقاوتهم، سمّيت شقاوة توسّعاً. ومن أكبر الشقاوة أن تترك عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره، وتترك الأدلّة، ويتبع الهوى.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ لما تكره من الكفر، والتكذيب، والمعاصي ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا. قال الحسن: هذا آخر كلام يتكلّم به أهل النار، ثمّ بعد ذلك يكون لهم شهيق كشهيق الحمار.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أي: إبعدوا بُعد الكلب في النار. وهذه اللفظة زجر للكلاب. وإذا قيل ذلك للإنسان، يكون للإهانة المستحقّة للعقوبة ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذه مبالغة للإذلال والإهانة، وإظهار الغضب عليهم؛ لأنّ من لا يتكلّم إهانة له، فقد بلغ به الغاية في الإذلال. وقيل: معناه: ولا تكلّمون في رفع العذاب، فإنّي لا أرفعه عنكم. وهي على صيغة النهي، وليست بنهي؛ لأنّ الأمر والنهي مرتفعان في الآخرة، لإرتفاع التكليف.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي﴾ أي: طائفة من عبادي، وهم الأنبياء، والمؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: يدعون بهذه الدعوات في الدنيا؛ طلباً لما عندي من الثواب ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أنتم يا معشر الكفّار ﴿سِخْرِيًّا﴾ أي: كنتم تهزؤون، وتسخرون منهم. وقيل: معناه: تستعبدونهم، وتصرفونهم في أعمالكم، وحوائجكم كرهاً بغير أجر. وقيل: إنّهم كانوا إذا رأو المؤمنين، قالوا: أنظروا إلى هؤلاء، رضوا من الدنيا بالعيش الدني؛

طمعاً في ثواب الآخرة، وليس وراءهم آخرة، ولا ثواب، فهو مثل قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾. ﴿حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي: نسيتم ذكري لإشتغالكم بالسخريّة منهم، فنسب الإنساء إلى عبادة المؤمنين، وإنّ لم يفعلوه، لما كانوا السبب في ذلك ﴿وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ظاهر المعنى.

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ
كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا
آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

القراءة: قرأ حمزة والكسائي: إنّهم ـ بكسر الألف ـ. وقل كم لبثتم، وقل إن لبثتم ـ على الأمر ـ. وقرأ ابن كثير: قل كم لبثتم، فقط. وقرأ الباقون: ﴿أنّهم﴾ ـ بفتح الألف ـ، و ﴿قال﴾ في الموضعين. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ويعقوبُ: لا تَرجعون ـ بفتح التاء ـ. والباقون: بضمّ التاء، وفتح الجيم.

الحجة: قال أبو عليّ: من فتح ﴿أَنَّ﴾ فالمعنى؛ لأنّهم هم الفائزون. ويجوز أنْ يكون «أنّهم» في موضع المفعول الثاني؛ لأنّ «جزيت» يتعدّى إلى مفعولين. قال

(١) وأدغم «لبثتم» أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي.

سبحانه: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾. وتقديره: جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز. وفاز الرجل: إذا نال ما أراد. وقالوا: فوّز الرجل إذا مات. ويشبه أَنْ يكون ذلك على التفاؤل له أي: صار إلى ما أَحبّ. والمفازة: المهلكة على وجه التفاؤل أيضاً. ومن كسر ﴿إِنَّ﴾: إستأنف، فقطعه عمّا قبله. ومثله: لبّيك إنَّ الحمد والنعمة لك. وإِنَّ الحمد، بالكسر والفتح. ومن قرأ: قل كم لبثتم: كان على قل أيّها السائل عن لبثهم. وقال: على الإخبار عنه. وزعموا أَنَّ في مصاحف أهل الكوفة ﴿قل﴾ في الموضعين. وحجّة من قال: ﴿ترجعون﴾: إنّا إليه راجعون، قل كل إلينا راجعون، وقد تقدّم ذكر هذا النحو.

الإعراب: كم لبثتم: كم: في محلّ النصب؛ لأنّه ظرف زمان، والعامل فيه لبثتم. و ﴿عَدَدَ﴾: منصوب؛ على التمييز، والعامل فيه: ﴿كَمْ﴾. ولا يمنع «كم» من العمل الفصل الكثير؛ لأنّ «كم» الخبريّة تجرّ المميز. فإذا فصل بينها وبين معمولها، نصبت كالإستفهامية؛ فلأن تنصب الإستفهاميّة مع الفصل أولى. و ﴿قَلِيلاً﴾: صفة مصدر محذوف، تقديره: إن لبثتم إلا قليلاً عبثاً. ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال، وتقديره: أفحسبتم أنّما خلقناكم عابثين. ويجوز أن يكون مفعولاً له أي: للعبث.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: في موضع النصب؛ على الحال، على تقدير: فتعالى الله عديم المثل. والأولى أن يكون جملة مستأنفة. و ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾: خبر مبتدأ محذوف، فهي جملة أُخرى مستأنفة؛ بدلالة حسن الوقف على المواضع الثلاثة: على ﴿ٱلْحَقُّ﴾، وعلى ﴿هُوَ﴾ ، وعلى ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾. ﴿لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾: جملة منصوبة الموضع؛ بأنّه صفة لقوله: ﴿إِلٰهاً﴾، فهي صفة بعد صفة.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن المؤمنين الذين سخر الكافرون منهم في دار الدنيا، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بصبرهم على أذاكم،

وسخريّتكم، وإستهزائكم بهم. ﴿أَنَّهُمْ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الظافرون بما أرادوا، الناجون في الآخرة. والمراد بقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾: أيّام الجزاء، لا يوم بعينه.

﴿قَالَ﴾ أي: قال الله تعالى للكفّار يوم البعث، وهو سؤال توبيخ، وتبكيت لمنكري البعث. ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم لم يشعروا بطول لبثهم ومكثهم؛ لكونهم أمواتاً. وقيل: إنّه سؤال لهم عن مدّة حياتهم في الدنيا.

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إستقلّوا حياتهم في الدنيا لطول لبثهم ومكثهم في النار، عن الحسن قال: ولم يكن ذلك كذباً منهم؛ لأنّهم أخبروا بما عندهم. وقيل: إنّ المراد به يوماً، أو بعض يوم، من أيّام الآخرة. قال ابن عباس: أنساهم الله قدر لبثهم، فيرون أنّهم لم يلبثوا إلّا يوماً، أو بعض يوم؛ لعظم ما هم بصدده من العذاب ﴿فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ﴾ يعني: الملائكة؛ لأنّهم يحصون أعمال العباد، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: يعني: الحساب، لأنّهم يعدُّون الشهور، والسنين، ـ عن قتادة ـ.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: ما مكثتم ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ لأنّ مكثهم في الدنيا، أو في القبور، وإن طال، فإنّه متناه قليل بالإضافة إلى طول مكثهم في عذاب جهنّم ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صحّة ما أخبرناكم به. وقيل: معناه: لو كنتم تعلمون قصر أعماركم في الدنيا، وطول مكثكم في الآخرة في العذاب، لما إشتغلتم بالكفر والمعاصي، وآثرتم الفاني على الباقي.

ثمّ قال سبحانه لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ معاشر الجاحدين للبعث والنشور، الظانّين دوام الدنيا ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ أي: لعباً وباطلاً، لا لغرض وحكمة. ومثله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً﴾، والمعنى: أفظننتم أنّا خلقناكم لتفعلوا ما تريدون، ثمّ إنّكم لا تحشرون، ولا تسئلون عمّا كنتم تعملون، هذا عبث. فإنّ من

خلق الأشياء، لا لينتفع به نفسه أو غيره، كان عابثاً، والله سبحانه غنيّ لا يلحقه منفعة. فلا بدَّ من أن يكون خلق الخلق لينفعهم، ويعرضهم للثواب، بأن يتعبّدهم. وإذا تعبدهم فلا بدَّ من الفرق بين المطيع والعاصي، وذلك إنّما يكون بعد البعث[١].

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: وحسبتم أنّكم لا ترجعون إلى حكمنا، في الموضع الذي لا يملك الحكم فيه غيرنا.

﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تعالى عمّا يصفه به الجهّال، من الشريك والولد. وقيل: معناه: تعالى الله من أَنْ يفعل شيئاً عبثاً. و ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: هو الذي يحقّ له الملك، بأنه ملك غير مملوك، وكل ملك غيره فملكه مستعار. ولأنه يملك جميع الأشياء من جميع الوجوه، وكل ملك سواه يملك بعض الأشياء من بعض الوجوه. والحقّ هو الشيء الذي من إعتقده، كان على ما إعتقده، فالله هو الحقّ؛ لأنّ من إعتقد أنّه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقد إعتقد، الشيء على ما هو به.

﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي: خالق السرير الحسن، والكريم في صفة الجماد، بمعنى الحسن. وقيل: الكريم: الكثير الخير. وصف العرش به؛ لكثرة ما فيه من الخير لمن حوله؛ ولإتيان الخير من جهته. وخصّ العرش بالذكر مع كونه سبحانه ربّ كل شيء؛ تشريفاً وتعظيماً له، كقوله: ﴿رَبَّ هٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾[٢].

---

(١) فإن قيل: ان كان فناء الإنسان بموته، وعدم الحشر يوجب العبث في خلقه، وجب حشر كل موجود كالنبات والجماد، وإن قبل [قيل]: فائدة هذه الأشياء في الدنيا، فنقول: لعلّ غاية خلق الإنسان في الدنيا أيضاً. قلنا: إذا قايسنا بين الدنيا والإنسان، وجدنا الدنيا لايمكن أن تكون غاية له، فإنّ العقل أعظم وجوداً ومجداً من الدنيا، فالدنيا للإنسان، لا الإنسان للدنيا.

(٢) لايخفى ان كثيراً من أهل عصرنا يزعمون ان الفضاء غير متناه ويستشهدون بما لا يدل عليه واما نحن فثابت لدينا بالبراهين القاطعة ان غير المتناهي محال ولابد من التناهي وان بلغ ما بلغ في العظم فلا مانع من وجود جسم عظيم محيط بالكل مسمى بالعرش ولا يستلزم ذلك صحة هيئة بطلميوس.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي: لا حجّة له فيما يدّعيه، يعني: إنّ من صفته أنّه لا حجّة له به. ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ معناه: فإنّما معرفة مقدار ما يستحقّه من الجزاء، عند ربّه، فيجازيه على قدر ما يستحقّه. وقيل: معناه: فإنّما مكافأته عند الله تعالى، والمكافأة والمحاسبة، بمعنى.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا يظفر، ولا يسعد الجاحدون لنعم الله، والمنكرون لتوحيده، والدافعون للبعث والنشور.

ولمّا حكى سبحانه أقوال الكفّار، أمر نبيّه ﷺ بالتبرّي منهم، والإنقطاع إليه سبحانه، فقال: ﴿وَقُلْ﴾ يا محمّد ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ الذنوب ﴿وَارْحَمْ﴾ وأنعم على خلقك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: أفضل المنعمين، وأكثرهم نعمة، وأوسعهم فضلاً.

سُورَةُ النُّور

مدنيّة بلا خلاف.

عَدَدُ آيِهَا: أربع وستّون آية عراقي شامي، آيتان حجازي.

اخْتِلَافُهَا: آيتان: بالغُدُوّ والآصال، ويذهب بالأبصار، كلاهما عراقيّ شاميّ.

فَضْلُهَا: أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأ سوة النور، أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى، وفيما بقي. وروى الحاكم أبو عبد الله في الصحيح، بالإسناد عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: لا تنزلوهنّ الغرف، ولا تعلّموهنّ الكتابة، وعلّموهن المغزل، وسورة النور. يعني: النساء، وروى عبد الله بن مسكان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: حصّنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور، وحصّنوا بها نساءكم، فإنّ من أدمن قراءتها في كل ليلة، أو في كل يوم، لم يزن أحد من أهل بيته أبداً، حتى يموت. فإذا مات شيّعه إلى قبره سبعون ألف ملك، يدعون ويستغفرون الله له، حتى يدخل إلى قبره.

تَفْسِيرُهَا: ختم الله سبحانه سورة المؤمنين، بأنّه لم يخلق الخلق للعبث، بل للأمر والنهي، وإبتدأ هذه السورة بذكر الأمر والنهي، وبيان الشرائع، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

القراءة: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: وفرَّضناها ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وقرأ ابن كثير غير ابن فليح: رأفة ـ بفتح الهمزة ـ. والباقون: بسكون الهمزة. وفي الشواذّ، قراءة عيسى الثقفي: سورة ـ بالنصب ـ والزانيةَ والزاني ـ بالنصب ـ. وروي عن عمر بن عبد العزيز، وعيسى الهمداني:[٢] ﴿سورةً﴾

---

(١) قوله تعالى: «سورة أنزلناها»، يدلّ كما مرّ سابقاً على أنّ سور القرآن كانت مرتّبة على أيدي الناس يتداولونها، ولها أسماء يعرفونها بها، ولم يكن الجمع بعد رسول الله ﷺ إلّا بمعنى جمع السور في مصحف واحد، لا بمعني جمع الآيات في السور. ثمّ إنّ كثيراً من الصحابة كانت عندهم جميع السور متفرّقة، وأمّا كل واحدة من السور، فكانت عند جماعة لا تحصى عدّتهم.

(٢) عيسى الثقفي وعيسى الهمداني، والأوّل بصريّ، والثاني كوفيّ، وإسم أبيهما عمر. والأوّل أشهر، وهو أستاد الخليل في النحو، وهو الذي قال: مالكم تكأكأتم عليّ.

أيضاً بالنصب.

الحجّة: قال أبو عليّ: التثقيل في ﴿فرَّضناها﴾ لكثرة ما فيها من الفرض. والتخفيف يصلح للقليل والكثير. ومن حجّة التخفيف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ﴾ قال: ولعلّ ﴿رأفة﴾ التي قرأها ابن كثير لغة. وأمّا قراءة ﴿سورةٌ﴾ ـ بالرفع ـ على أنّها خبر مبتدأ، محذوف أي: هذه سورة. ولا يجوز أن يكون مبتدأ؛ لأنّها نكرة، ولا يبتدأ بالنكرة حتى توصف. وإنْ جعلت «أنزلناها وفرضناها» صفة لها، بقي المبتدأ بلا خبر. فإن جعلت تقديره: فيما يتلى عليكم سورة أنزلناها، جاز. ومن قرأ: سورةً ـ بالنصب ـ فعلى إضمار فعل يفسّره «أنزلناها». والتقدير: أنزلنا سورة أنزلناها. إلّا أنّ هذا الفعل لا يظهر؛ لأنّ التفسير يغني عنه، ومثله: قول الشاعر:

أصبَحْتُ لا أحْمِلُ السِّلاحَ، وَلا ... أمْلِكُ رَأسَ البَعِيرِ إنْ نَفَرَا
وَالذِّئْبُ أخشاهُ إنْ مَرَرْتُ بِهِ ... وَحْدِي، وَأخْشَى الرِّياحَ، وَالْمَطَرَا[1]

أي: وأخشى الذئب. فلمّا أضمره فسّره بقوله: أخشاه. ويجوز أن يكون الفعل الناصب لـ ﴿سورة﴾ من غير لفظ الفعل بعدها، على معنى التخصيص أي: اقرأوا سورة، وتأمّلوا أنزلناها، كقوله سبحانه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي: احفظوا ناقة الله. وكذلك قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ أنتصب بفعل مضمر أي: إجلدوا الزانية والزاني. فلمّا أضمر الفعل الناصب، فسّره بقوله: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ منهما﴾. وجاز دخول الفاء في هذا الوجه؛ لأنّه موضع أمر. ولا يجوز: زيداً فضربته؛ لأنّه خبر، وإنّما جاز في الأمر، لمضارعته الشرط. ألا تراه دالّاً على الشرط، ولذلك إنجزم جوابه في قولك: زرني أكرمك؛ لأنّ معناه: فإنّك أن تزرني أكرمك. فلمّا آل

---

(١) الشعران لبعض معمّري العرب، إسمه الربيع بن ضبيع.

معناه إلى الشرط، جاز دخول الفاء في الفعل المفسّر للمضمر. وتقول على هذا: بزيد فامرر، وعلى عمرو فاغضب.

اللغة: السورة مأخوذة من سور البناء، وهو إرتفاعه. وقيل: هو ساق [سافٌ] من أسواقه [فه]. فعلى القول الأوّل يكون تسميتها بذلك لإرتفاعها في النفوس. وعلى القول الثاني يكون تسميتها بذلك؛ لأنّها قطعة من القرآن. وقيل: إنَّ السورة المنزلة الشريفة، والجلالة. قال النابغة.

أَلَمْ تَرَ اَنَّ اللّهَ أعطاكَ سُورَةً ... تَرىٰ كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

لإنَّكَ شَمْسٌ، والْمُلوكَ كَواكِبُ ... إذا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنهُنَّ كَوْكَبُ[1]

وقيل: أصله الهمز. وقيل: إشتقاقها من أسأرت: إذا أبقيت في الإناء بقية. ومنه الحديث: ﴿إذا شربتم فاسأروا﴾ إلّا أنّه أجمع على تخفيفها، كما أجمع على تخفيف «برية وروية»، وأصلها من برا الله الخلق، وروأت في الأمر. وأصل الفرض من فرض القوس: وهو الحز الذي فيه الوتر، ثمّ إتّسع فيه، فجعل في موضع الإيجاب. وفصّل بين الفرض والواجب، فإنّ الفرض: واجب بجعل جاعل؛ لأنّه فرضه على صاحبه، كما أنّه أوجبه عليه. والواجب: قد يكون واجباً من غير جعل جاعل، كوجوب شكر المنعم. فجرى مجرى دلالة الفعل على الفاعل، في أنّه يدلّ من غير جعل فاعل. والزنا: هو وطء المرأة في الفرج من غير عقد شرعي، ولا شبهة عقد، مع العلم بذلك، أو غلبة الظنّ. وليس كل وطء حرام زنا؛ لأنّ الوطء في الحيض والنفاس حرام، ولا يكون زنا. والجلد ضرب الجلد، يقال: جلده كما يقال: ظهره، ورأسه، وفأده، وهذا قياس. والرأفة: التحنّن والتعطّف، وفيه ثلاث لغات: سكون الهمزة، وفتحها، ومدّها. وقال الأخفش: الرأفة: رحمة في توجع.

---

(١) يخاطب النعمان بن المنذر. والمَلْك ـ بفتح الميم وسكون اللام ـ: مخفّف المِلك ـ بكسرها ـ.

المعنى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ أي: هذه سورة قطعة من القرآن لها أوّل وآخر، أنزلها جبرائيل عليه السلام بأمرنا ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: وأوجبنا عليكم العمل بها، وعلى من بعدكم إلى يوم القيامة. وقيل: معناه: وفرضنا فيها إباحة الحلال، وحظر الحرام، ـ عن مجاهد ـ. وهذا يعود إلى معنى أوجبناها. وقيل: معناه: وقدّرنا فيها الحدود، ـ عن عكرمة ـ، وهو من قوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾. وفسَّر أبو عمرو معنى القراءة بالتشديد، بأن قال: معناها: فصَّلناها، وبيّنَّاها بفرائض مختلفة. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلالات واضحات على وحدانيّتنا، وكمال قدرتنا. وقيل: أراد بها الحدود، والأحكام التي شرّع فيها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تتذكّروا فتعملوا بما فيها.

ثمّ ذكر سبحانه تلك الآيات، وإبتدأ بحكم الزنا، فقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ معناه: التي تزني، والذي يزني، أي: من زنت من النساء، ومن زنى من الرجال، فيفيد العموم في الجنس.

﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ يعني: اذا كانا حرّين، بالغين، بكرين، غير محصنين. فأمّا إذا كانا محصنين، أو كان أحدهما محصناً، كان عليه الرجم بلا خلاف. والإحصان هو أن يكون له فرج يغدو إليه، ويروح على وجه الدوام، ويكون حرّاً. وأمّا العبد فلا يكون محصناً، وكذلك الأمة لا تكون محصنة، وإنّما عليهما نصف الحدّ خمسون جلدة؛ لقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾. وقيل: إنّما قدَّم ذكر الزانية على الزاني؛ لأنّ الزنى منهنّ أشنع وأعير، وهو لأجل الحبل أضر، ولأنّ الشهوة فيهنّ أكثر، وعليهنّ أغلب. وقوله: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ هذا خطاب للأئمّة، ومن يكون منصوباً للأمر

من جهتهم؛ لأنّه ليس لأحد أن يقيم الحدود إلّا الأئمّة، وولاتهم، بلا خلاف[١].

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ معناه: إن كنتم تصدّقون بالله، وتقرّون بالبعث والنشور، فلا تأخذكم بهما رأفة أي: رحمة تمنعكم من إقامة الحدود عليهما، فتعطلوا الحدود، ـ عن عطا، ومجاهد ـ. وقيل: معناه: لا تأخذكم بهما رأفة تمنع من الجلد الشديد، بل أوجعوهما ضرباً، ولا تخفّفوا كما يخفّف في حدّ الشارب، ـ عن الحسن، وقتادة، وسعيد بن المسيّب، والنخعي، والزهري ـ. وقوله: ﴿فِي دِينِ اللهِ﴾ أي: في طاعة الله. وقيل: في حكم الله، ـ عن ابن عباس ـ، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: في حكمه.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ أي: وليحضر حال إقامة الحدّ عليهما ﴿طَائِفَةٌ﴾ أي: جماعة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم ثلاثة فصاعداً، ـ عن قتادة والزهري ـ. وقيل: الطائفة رجلان فصاعداً، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: أقلّه رجل واحد، ـ عن ابن عباس والحسن ومجاهد وإبراهيم، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام ـ. ويدل على ذلك قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾. وهذا الحكم يثبت للواحد، كما يثبت للجمع. وقيل: أقلّها أربعة؛ لأنّ أقلّ ما يثبت به الزنا شهادة أربعة، ـ عن ابن زيد ـ.

---

(١) فان قيل: فكيف كان يتولّيها الفقهاء؟ قلنا: لأنّهم في الغيبة بمنزلة الولاة، ومجمل الأمر في ذلك: أنّ ما هو من وظايف الولاة، والسلطان، مختصّ في مذهبنا بالإمام المعصوم؛ إذ يقبح من الله أن لا يأمر في الحكومة بشيء، أو يكلها الى ظالم مخطي، وفي الغيبة لابدّ من إلتزام شيئين لامحيص عنهما: إمّا أن يترك الخصومات بلا حاكم، والصغار، والمجانين بلا قيّم، والسارقين، والجانين بلاحدّ، وهذا لايجوز في حكمة الله، أو تولية ذلك الجهّال بأحكام الله التاركين لأوامره ونواهيه، وهذا أيضاً غير لائق بحكمته، فالفقيه العادل أولى بالولاية من غيره، وربما يتمسّك لإثباتها بأحاديث ضعيفه الدلالة، كمرسلة الإحتجاج، وحديث عمربن حنظلة. ولا حاجة إليها بعد وضوح الدليل العقلي.

وقيل: ليس لهم عدد محصور، بل هو موكول إلى رأي الإمام. والمقصود أن يحضر جماعة يقع بهم إذاعة الحدّ؛ ليحصل الإعتبار.

وقوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أختلف في تفسيره على وجوه:

أحدها: إنَّ المراد بالنكاح: العقد، ونزلت الآية على سبب، وهو: أنَّ رجلاً من المسلمين، إستأذن النبيّ ﷺ في أن يتزوّج أمّ مهزول، وهي إمرأة كانت تسافح، ولها راية على بابها، تعرف بها. فنزلت الآية، ـ عن عبدالله بن عباس وابن عمر ومجاهد وقتادة والزهري ـ. والمراد بالآية النهي، وإن كان ظاهره الخبر، ويؤيّده ما روي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام، أنّهما قالا: هم رجال ونساء، كانوا على عهد رسول الله ﷺ، مشهورين بالزنا، فنهى الله عن أولئك الرجال والنساء والناس اليوم على تلك المنزلة، فمن شهر بشيء من ذلك، وأقيم عليه الحدّ، فلا تزوّجوه حتى تعرف توبته.

وثانيها: إنَّ النكاح هنا: الجماع، والمعنى: إنّهما إشتركا في الزنا، فهي مثله، ـ عن الضحّاك، وابن زيد، وسعيد ابن جبير، وفي إحدى الروايتين عن ابن عباس ـ. فيكون نظير قوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ في أنّه خرج مخرج الأغلب الأعمّ.

وثالثها: إنَّ هذا الحكم كان في كل زاني وزانية، ثمّ نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ الآية. ـ عن سعيد بن المسيّب، وجماعة ـ.

ورابعها: انّ المراد به العقد، وذلك الحكم ثابت فيمن زنا بإمرأة، فإنّه لا يجوز له أن يتزوّج بها، روي ذلك عن جماعة من الصحابة، وإنما قرن الله سبحانه بين الزاني والمشرك؛ تعظيماً لأمر الزنا، وتفخيماً لشأنه. ولا يجوز أن تكون هذه الآية خبراً؛ لأنّا نجد الزاني يتزوّج غير الزانية، ولكن المراد هنا: الحكم، أو النهي،

سواء كان المراد بالنكاح: العقد، أوالوطء. وحقيقة النكاح في اللغة الوطء ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرّم نكاح الزانيات، أو حرّم الزنا على المؤمنين، فلا يتزوّج بهنّ، أو لا يطأهنّ إلّا زان، أو مشرك[١].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٥﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة عبدالله بن مسلم بن يسار، وأبي [إبن] زرعة: بأربعة ـ بالتنوين ـ.

الحجة: من قرأ: ﴿بأربعة شهداء﴾ ـ بغير تنوين ـ، أضاف العدد إلى ﴿شهداء﴾، وإن كان الشهداء من الصفات. وساغ ذلك؛ لأنّهم إستعملوها إستعمال الأسماء، كقوله: إذا دفن الشهيد صلت عليه الملائكة، ونحو ذلك. فحسن إضافة إسم العدد إليها، كما يضاف إلى الإسم الصريح. ومن قرأ بالتنوين، جعل شهداء صفة لأربعة في موضع جرّ. ويجوز أن يكون في موضع نصب من جهتين إحداهما: أن يكون على معنى: ثمّ لم يحضروا أربعة شهداء، وعلى الحال من النكرة أي: لم يأتوا بأربعة في حال الشهادة، قاله الزجّاج.

الإعراب: موضع ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ رفع؛ بالإبتداء. ومن قرأ: ﴿الزانية

---

(١) جميع هذه التفاسير في الآية تدلّ على أنّهم أجمعوا على عدم بطلان نكاح الزانية مطلقاً كالمشركة، وإنّ الإجماع مقدّم على كل دليل، ولو لا ذلك لكان نكاح الزاني والزانية باطلاً قبل التوبة، ومن المعلوم أنّ الرجل كان يزني، ثمّ يتزوّج، أو يزني بعد التزوج، فلا يؤمر بمفارقة زوجته، وكذا المرئة، بل آية اللعان صريحة في أنّ المرئة لا تفارق بالزنا حتى يتلاعنا، فالتحريم هنا مطلق المرجوحيّة، يشمل الكراهة والحرمة.

(٢) والمحصِنات ـ بكسر الصاد ـ الكسائي.

والزاني﴾ ـ بالنصب ـ: فيكون على ذلك موضع ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ نصباً على معنى: إجلدوا الذين يرمون المحصنات. والمحصنات هنا: اللاتي أحصنّ فروجهنّ بالعفّة. و ﴿ٱلَّذِينَ تَابُوا﴾: في محلّ النصب، على الإستثناء من قوله: ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾ عند من قال: إنَّ شهادتهم مقبولة. ويكون قوله: ﴿وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾: صفة لهم. ويجوز أن يكون في موضع جرّ على البدل مِن «هم» في ﴿لَهُمْ﴾. ومن قال: إنَّ شهادة القاذف غير مقبولة، فعنده يكون في موضع النصب، على الإستثناء من قوله:﴿وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر حدّ الزنا، عقّبه سبحانه بذكر حدّ القاذف بالزنا، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: يقذفون العفائف من النساء بالفجور والزنا. وحذف؛ لدلالة الكلام عليه. ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: ثمّ لم يأتوا على صحّة ما رموهنّ به من الزنا، بأربعة شهداء عدول، يشهدون أنّهم رأوهنّ يفعلن ذلك.

﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ أي: فاجلدوا الذين يرمونهنّ بالزنا ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ نهى سبحانه عن قبول شهادة القاذف على التأبيد، وحكم عليهم بالفسق. ثمّ استثنى من ذلك، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم. ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. واختلف في هذا الإستثناء إلى ماذا يرجع على قولين:

أحدهما: إنه يرجع إلى الفسق خاصّة، دون قوله: ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾ فيزول عنه، إسم الفسق بالتوبة، ولا تقبل شهادته إذا تاب بعد إقامة الحدّ عليه، ـ عن الحسن وقتادة وشريح وإبراهيم، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ـ.

والاخر: إنَّ الإستثناء يرجع إلى الأمرين، فإذا تاب قبلت شهادته حدّاً، ولم

يحدّ، ـ عن ابن عباس في رواية الوالبي ومجاهد والزهري ومسروق وعطا و طاووس وسعيد بن جبير والشعبي، وهو إختيار الشافعي وأصحابه، وقول أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام ـ. قال الشافعي: أخبرنا سفيان بن عيينة، عن الزهري قال: زعم أهل العراق أنّ شهادة القاذف لا تجوز، فاشهد لأخبرني سعيد بن المسيّب أنّ عمر بن الخطاب قال لأبي بكرة: لمّا شهد على المغيرة بن شعبة: تب تقبل شهادتك، أو إن تبت تقبل شهادتك، فأبى أبو بكرة أن يكذّب نفسه.

وقال الزجّاج: ليس القاذف بأشدّ جرماً من الكافر، والكافر إذا أسلم قبلت شهادته، فالقاذف أيضاً حقّه إذا تاب، أن تقبل شهادته. ويعضد هذا القول: أنّ المتكلّم بالفاحشة لا ينبغي أن يكون أعظم جرماً من مرتكبها. ولا خلاف في العاهر، أنّه إذا تاب، قبلت شهادته. فالقاذف إذا تاب، ونزع مع أنّه أيسر جرماً، يجب أن تقبل شهادته. وقال الحسن: يجلد القاذف وعليه ثيابه، ويجلد الرجل قائماً، والمرأة قاعدة، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام. ومن شرط توبة القاذف: أن يكذّب نفسه فيما قاله، فإن لم يفعل ذلك، لم يجز قبول شهادته، وبه قال الشافعي. وقيل: إنّه لا يحتاج إلى ذلك، وهو قول مالك. والآية وردت في النساء، وحكم الرجال حكمهنّ ذلك في الإجماع. وإذا كان القاذف عبداً، أو أمة، فالحدّ أربعون جلدة عند أكثر الفقهاء.

وروى أصحابنا: أنّ الحدّ ثمانون، في الحر والعبد سواء[1]. وظاهر الآية يقتضي ذلك، وبه قال عمر بن عبد العزيز، والقاسم بن عبد الرحمن .

---

(١) والتنصيف إنّما ورد في الزنا في قوله: فعليهنّ نصف ما على المحصنات.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ (١) إِلَّآ أَنفُسُهُمْ
فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟
عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: فشهادة أحدهم أربعُ شهادات ـ بالرفع ـ. والباقون: أربعَ شهادات ـ بالنصب ـ. وقرأ حفص: والخامسة الثانية ـ بالنصب ـ. والباقون: بالرفع. وقرأ نافع: ﴿أنْ﴾ ـ ساكنة النون ـ ﴿لعنةُ الله﴾ ـ بالرفع ـ و ﴿أن غضب الله عليها﴾ ـ بكسر الضاد، ورفع ﴿الله﴾. وقرأ يعقوب: ﴿أنْ لعنةُ الله﴾، و ﴿أنْ غضبُ الله﴾ ـ برفع لعنة وغضب جميعاً ـ. والباقون: ﴿أنَّ لعنةَ الله﴾، و ﴿أنَّ غضبَ الله﴾ ـ بالتشديد والنصب في الموضعين ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: من نصب ﴿أربع شهادات﴾ نصبه بالشهادة، وينبغي أن يكون قوله: ﴿شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ مبنيّاً على ما يكون مبتدأ، تقديره: فالحكم، أو فالفرض أن تشهد أربع شهادات، أو فعليهم أن يشهدوا. وإن شئت حملته على المعنى؛ لأنّ المعنى يشهد أحدهم. وقوله: ﴿بِاللهِ﴾: يجوز أن يكون من صلة الشهادة؛ لأنك أوصلتها بالشهادة، ومن صلة شهادات إذا نصبت «الأربع». وقياس من أعمل الثاني، أن يكون قوله: ﴿بِاللهِ﴾ من صلة «شهادات»، وحذف من

---

(١) شهداء إلّا: من إجتماع الهمزتين، أبدل الثانية واواً مكسورة ـ الحرميان وأبو عمرو ـ أو سهلوها كالياء.

الأوّل؛ لدلالة الثاني عليه، كما تقول: ضربت وضربني زيد. ومن رفع، فقال: ﴿شهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾ فإنّ الجارّ والمجرور من صلة «شهادات». ولا يجوز أن يكون من صلة «شهادة»؛ لأنّك إن وصلتها بالشهادة، فقد فصلت بين الصلة والموصول. ألاترى أنَّ الخبر الذي هو ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ يفصل. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في قول من نصب «أربع شهادات» يجوز أن يكون من صلة شهادة أحدهم. فتكون الجملة التي هي: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في موضع نصب؛ لأنّ الشهادة كالعلم، فيتعلّق بها إن، كما يتعلّق بالعلم. والجملة في موضع نصب؛ بأنّه مفعول به، و ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ ينتصب إنتصاب المصدر.

ومن رفع ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾، لم يكن ﴿إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ إلّا من صلة شهادات، دون صلة شهادة؛ لأنّك إن جعلته من صلة شهادة، فصّلت بين الصلة والموصول. ومن قرأ: ﴿أن لعنةُ الله عليه﴾، و ﴿أن غضبُ الله عليها﴾ فمعناه: إنّه لعنة الله عليه، وإنّه غضب الله عليها، خفّفت الثقيلة المفتوحة على إضمار القصة والحديث، ولا تكون في ذلك كالمكسورة؛ لأنّ الثقيلة المفتوحة، موصولة. والموصول يتشبّث بصلته، أكثر من تشبّث غير الموصول بما يتّصل به. وأهل العربيّة يستقبحون أن تلي الفعل، حتى يفصل بينها وبين الفعل بشيء، ويقولون: إستقبحوا أن تحذف ويحذف ما تعمل فيه، وأن تلي ما لم تكن تليه من الفعل بلا حاجز بينهم فتجتمع هذه الإتّساعات فيها، فإن فصل بينها وبين الفعل بشيء لم يستقبحوا ذلك، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، وقوله: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ وعلمت أن قد قام.

فإن قلت: فقد جاء: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، وجاء: ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. فالجواب: فأنّ «ليس» يجري مجرى «ما ونحوها» ممّا ليس بفعل. وأمّا قوله: ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ﴾ فإنّ قوله: ﴿بُورِكَ﴾ على

معنى الدعاء، فلم يجز دخول «لا» ولا «قد»، ولا «السين»، ولا شيء ممّا يصحّ دخوله الكلام، فيصحّ به الفصل.

ووجه قراءة نافع، أنّ ذلك قد جاء في الدعاء، ولفظه لفظ الخبر. وقد يجيء في الشعر، وإن لم يكن شي يفصل بين «أن»، وبين ما تدخل عليه من الفعل. فإن قلت: فلِمَ لا تكون «أن» في قوله: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ أن الناصبة للفعل، وصل بالماضي. فيكون كقراءة من قرأ: ﴿وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبي﴾، فأن ذلك لا يسهل، ألاترى أنّها متعلّقة بالشهادة، والشهادة بمنزلة العلم لا تقع بعدها الناصبة.

﴿ٱلنُّورُ﴾: روى الضحّاك عن ابن عباس قال: لمّا نزلت الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ﴾ قال عاصم بن عدي: يا رسول الله! إن رأى رجل منّا مع إمرأته رجلاً، فأخبر بما رأى، جلد ثمانين، وإن التمس أربعة شهداء. كان الرجل قد قضى حاجته ثمّ مضى؟ قال: كذلك أنزلت الآية يا عاصم. قال: فخرج سامعاً مطيعاً. فلم يصل إلى منزلة حتى إستقبله هلال بن أمية يسترجع، فقال: ما وراءك؟ قال: شر، وجدت شريك بن سحما[سمحا] على بطن إمرأتي خولة! فرجع إلى النبيّ ﷺ فأخبره هلال بالذي كان. فبعث إليها فقال: ما يقول زوجك؟ فقالت: يا رسول الله! إنّ ابن سحما[سمحا] كان يأتينا، فينزل بنا، فيتعلّم الشيء من القرآن، فربما تركه عندي وخرج زوجي، فلا أدري أدركته الغيرة، أم بخل عليّ بالطعام. فأنزل الله آية اللعان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الآيات.

وعن الحسن قال: لمّا نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية. قال سعد بن عبادة: يا رسول الله! أرأيت إن رأى رجل مع إمرأته رجلاً، فقتله تقتلونه، وإن أخبر بما رأى جلد ثمانين، أفلا يضربه بالسيف؟ فقال رسول الله ﷺ: كفى بالسيف شاه. أراد أن يقول: شاهداً، ثمّ أمسك وقال: لولا أن يتتابع فيه السكران

والغيران. وفي رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال سعد بن عبادة: لو أتيت لكاع وقد يفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه، حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء، حتى يفرغ من حاجته، ويذهب. وإن قلت ما رأيت انّ في ظهري لثمانين جلدة. فقال النبيّ ﷺ: يا معشر الأنصار! ما تسمعون إلى ما قال سيّدكم؟ فقالوا: لا تلمه، فإنّه رجل غيور، ما تزوّج إمرأة قط إلّا بكراً، ولا طلق إمرأة له، فاجترى رجل منّا أن يتزوّجها. فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله! بأبي أنت وأمّي، والله إنّي لأعرف إنّها من الله، وإنّها حقّ، ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك. فقال: فإنّ الله يأبى إلّا ذاك. فقال: صدق الله ورسوله.

فلم يلبثوا إلّا يسيراً حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له، قد رأى رجلاً مع إمرأته. فلمّا أصبح غداً إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّي جئت أهلي عشاء، فوجدت معها رجلاً رأيته بعيني، وسمعته بأذني. فكَرِهَ ذلك رسول الله ﷺ حتى رأى الكراهة في وجهه، فقال هلال: إنّي لأرى الكراهة في وجهك، والله يعلم أنّي لصادق، وأنّي لأرجو أن يجعل الله فرجاً. فهمّ رسول الله ﷺ بضربه، وقال: وإجتمعت الأنصار، وقالوا: إبتلينا بما قال سعد، أيجلد هلال، وتبطل شهادته؟ فنزل الوحي، وأمسكوا عن الكلام حين عرفوا أنّ الوحي قد نزل. فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الآيات. فقال ﷺ: أبشر يا هلال، فإنّ الله تعالى قد جعل فرجاً. فقال: قد كنت أرجو ذاك من الله تعالى. فقال ﷺ: أرسلوا إليها، فجاءت فلاعن بينهما. فلمّا إنقضى اللعان فرّق بينهما، وقضى أنّ الولد لها، ولا يدعى لأب، ولا يرمى ولدها. ثمّ قال رسول الله ﷺ: إنّ جاءت به كذا وكذا، فهو لزوجها، وإن جائت به كذا وكذا، فهو للذي قيل فيه[1].

---

(١) في كنز العرفان، قال ﷺ: إن جائت به أصهيب أثيبج، يضرب الى السواد، فهو لشريك. وإن جائت به أزرق، جعداً، خدلج الساقين، فهو لغير الذي رميت به، إنتهى. وأُثَيبِج: مصغّر ←

المعنى: لمّا تقدّم حكم القذف للأجنبيّات، عقّبه بحكم القذف للزوجات، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ بالزنا ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾ يشهدون لهم على صحّة ما قالوا ﴿إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ قال الزجّاج: معناه: فشهادة أحدهم التي تدرأ حدّ القاذف، أربع شهادات. ومن نصب فمعناه: فالذي يدرأ عنهم العذاب أن يشهد أحدهم أربع شهادات.

﴿بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به ومن الزنا ﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ أي: والشهادة الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به ومن الزنا. والمعنى: إنَّ الرجل يقول أربع مرّات، مرّة بعد مرّة أشهد بالله إنّي لمن الصادقين، فيما ذكرت عن هذه المرأة من الفجور. فإنّ هذا حكم خصَّ الله به الأزواج، في قذف نسائهم، فتقوم الشهادات الأربع مقام الشهود الأربعة في دفع حدّ القذف عنهم. ثمّ يقول في المرّة الخامسة: لعنة الله عليَّ إن كنت من الكاذبين، فيما رميتها به من الزنا.

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ ويدفع عن المرأة حدّ الزنا ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ معناه: أن تقول المرأة أربع مرّات، مرّة بعد أخرى: أشهد بالله أنّه لمن الكاذبين، فيما قذفني به من الزنا ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ أي: وتقول في الخامسة: غضب الله عليَّ ﴿إِنْ كَانَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ فيما قذفني به من الزنا[1]. ثم يفرّق الحاكم بينهما، ولا تحلّ له أبداً، وكان عليها

← أُثَيْبِج، عريض مابين الكاهل والظهر. ولا يدلّ الحديث على جواز الإعتماد على هذه القرائن في إلحاق الأولاد، وإثبات النسب، لأنّها ظنون لاحجّية فيها حاصلة من قرائن غير منضبطة، بل الحكم فيها، ما صرح ﷺ به أوّلاً، من أنّه لا يدعي لأب، ولا يرمي ولدها، ومنه يعلم أنّ الحكم الظاهري، قد يكون على خلاف المظنون؛ إذ قال ابن عباس جائت بأشبه خلق الله بشريك، فقال ﷺ لو لا الإيمان لكاني لي ولها شان.

(١) قال الفقهاء: يحب التلفّظ بقوله: فيما رميتها به من الزنا، أو نفي الولد، ولا يكتفون بقرائن

العدّة من وقت لعانها.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جواب «لولا» محذوف، تقديره: ولولا فضل الله عليكم، بالنهي عن الزنا، والفواحش، وإقامة الحدود؛ لتهالك الناس، ولفسد النسل، وإنقطع الأنساب، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: لولا إفضال الله، وإنعامه عليكم، وأنَّ الله عواد على من يرجع عن المعاصي بالرحمة، حكيم فيما فرضه من الحدود، لنال الكاذب منهما عذاب عظيم أي: ليتبيَّن الكاذب منهما، فيقام عليه الحدّ. وقيل: لعاجلكم بالعقوبة، ولفضحكم بما تركبون من الفاحشة، ومثله قوله: لو رأيت فلاناً وفي يده السيف، والمعنى: لرأيت شجاعاً، أو لرأيت أمراً هائلا، وقال جرير:

كَذَبَ العوَاذِلُ لَورَأيْنَ مَناخَنا ... بِحَريز رامَةَ، وَالمَطِيُّ سَوامُ[1]

وجاء في المثل: «لو ذات سوار لطمتني».

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ
كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا
جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

← الحال وإن دلّت على المقصود، وذلك لأنّ القرائن غير منضبطة، ولذلك لم يكتفوا بالمعاطاة في البيع وغيره، فإنّ مجرّد الإعطاء، والأخذ، أعمّ من البيع، والإجارة، والإباحة، والمقارضة، وغير ذلك ممّا لا يتناهي من أغراض العطاء، والقرائن المقارنة للإعطاء والأخذ، أمور غير منضبطة لايمكن أن يترتب عليها الحكم الشرعي.

(١) الحريز: الموضع الحصين. ورامة: موضع. والسوام: راعية.

عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

القراءة: قرأ يعقوب: كُبره ـ بضمّ الكاف ـ، وهو قراءة أبي رجا، وحميد الأعرج. وقراءة الفراء [القرّاء]: كِبره ـ بكسر الكاف ـ. وفي الشواذّ، قراءة عائشة، وابن عباس، وابن معمر [يعمر]: ﴿إذ تَلِقُونَهُ﴾. وقراءة ابن السميفع: تُلقُونَه. والقراءة المشهورة: ﴿تَلَقَّونه﴾[1].

الحجة: من ضمّ ﴿كُبره﴾، أراد عظمه. ومن كسر، أراد وزره وإثمه. قال قيس بن الحطيم:

تَنامُ عَنْ كُبْرِ شانِها، فَإذا ... قامَتْ رُوَيْداً، تَكادَ تَنْغَرِفُ[2]

أي: عن معظم شأنها. وأمّا قوله: تَلِقُونَه فمعناه: تسرعون فيه، وتخفون إليه. قال الراجز: «جاءَت بِهِ عَنسَ مِنَ الشَّامِ تَلِقْ»[3] أي: تخف، وأصله: تَلِقون فيه، أو إليه، فحذف حرف الجرّ، فوصل الفعل إلى المفعول. وقيل: إنَّ الولق الكذب، فكان الكاذب يستمرّ في الكذب، ويسرع فيه. وجاء في حديث عليّ عليه السلام: كذبت وولقت. وأمّا ﴿تُلْقُونَه﴾ فمعناه: تلقونه بأفواهكم. وأمّا ﴿تَلَقَّونه﴾ فهو من تلقّيت الحديث من فلان أي: أخذته منه، وقبلته.

---

(١) كسر «تحسِبوه» غير عاصم وحمزة وابن عامر. ويقف حمزة على «امري» بياء ساكنة أو الروم أو تسهيلها مع الروم. ومضي إدغام مثل: «إذ سمعتموه وإذ تلقونه».

(٢) تنغرف: أي تنقطع، كنّي عن الدلال.

(٣) أوّله: إنّ الحصين زلق زملق أي: هذا الرجل ينزل قبل الجماع.

النزول: روى الزهري، عن عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيّب، وغيرهما، عن عائشة أنّها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً، أقرع بين نسائه فأيّتُهنَّ خرج سهمها، خرج بها. فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فخرجت مع رسول الله ﷺ حتى فرغ من غزوه، وقفل. وروي أنّها كانت غزوة بني المصطلق من خزاعة. قالت: ودنونا من المدينة، فقمت حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلمّا قضيت شأني، أقبلت إلى الرحل، فلمست صدرتي، فإذا عِقد من جِزع ظَفار[١]، قد إنقطع. فرجعت فإلتمست عقدي، فحبسني إبتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني، فحملوا هودجي على بعير،ي الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنّي فيه.

وكانت النساء إذ ذاك، خفافاً لم يهبلهنّ[١] اللحم (لم يغشّهنَّ اللحم. خ ل). إنّما يأكلن العُلقة[٢] من الطعام. فبعثوا الجمل، وساروا. ووجدت عِقدي، وجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب، فسموت إلى منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنَّ القوم سيفقدوني، فيرجعون إليّ. فبينا أنا جالسة، إذا غلبتني عيناي، فنمت. وكان صفوان بن المعطل السلمي، قد عرَّس من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، فخمرت وجهي بجلبابي[٣]، ووالله ما كلَّمني

---

(١) ظفار: كقطام، قرية باليمن. والجزع: منسوب إليها.

(٢) هبله اللحم: أي كثر عليه، وتريد بقولها: لم تهبلهنّ اللحم: لايكثرن أكل اللحم، ولم يكن سماناً. والعلقة: القليل من الطعام.

(٣) وهذا يدل على أنّ النساء كنّ يحتجبن ويسترن وجوههنّ بعد آية الحجاب، فإن قيل نقل بعضهم جريان السيرة بسفور الوجه، والكفّين قلنا: بل العلّامة وغيره نقلوا السيرة على الستر، وإنّما جرى السيرة بين أهل البادية اللائي إذا نهين لا ينتهين، أو بين غيرهنّ في الضرورات.

[١] أي لم يكثر عليهنّ اللحم والشحم.

بكلمة حتى أناخ راحلته، فركبتها فإنطلق يقود الراحلة حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا موغرين[١] في حرّ الظهيرة. فهلك من هلك فيَّ، وكان الذي تولّى كبره منهم عبد الله بن أبي سلول.

فقدمنا المدينة، فإشتكيت حين قدمتها شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرثيني في وجعي، غير أنّي لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنّما يدخل فيسلم، ثمّ يقول: كيف تيكم؟ فذلك يحزنني، ولا أَشعر بالسر[بالشر]، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أمّ مسطح قبل المصانع، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلّا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أَنْ نتخذ[يتّخذ] الكُنُف، وأمرنا أمر العرب الأوّل في التنزّه. وكنّا نتأذّى بالكنف أَنْ نتّخذها عند بيوتنا.

وإنطلقت أنا، وأُمّ مسطح، وأُمّها بنت صخر ابن عامر، خالة أَبي، فعثرت أمّ مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح! فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبّين رجلاً قد شهد بدراً؟ فقالت: أي بنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك[٢]. فإزددت مرضاً الى مرضي. فلمّا رجعت إلى بيتي، دخل عليَّ رسول الله ﷺ ثمّ قال: كيف تيكم؟ فقلت: تأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا أُريد أَنْ أَتيقن الخبر من قبله. فأذن لي رسول الله ﷺ. فجئت أبويَّ، وقلت لأُمّي: يا أُمّاه! ماذا يتحدّث الناس؟ فقالت: أي بنية! هوني عليك، فوالله لقلَّ ما كانت إمرأة قطّ، وضيئة عند رجل يحبّها، ولها ضرائر، إلّا أكثرن عليها. قلت: سبحان الله! أو قد يحدث الناس بهذا؟ قالت: نعم.

فمكثت تلك الليلة، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أَكتحل بنوم، ثم

---

(١) أو غر: دخل في الوغر أي: شدّة الحرّ.

(٢) وهذا يدلّ على أنّه يمكن ظهور الفسق بعد العدالة، ولو من بدري.

أَصبحت أَبكي، ودعا رسول الله أُسامة بن زيد، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، حين إستلبث[١] الوحي، يستشيرهما في فراق أهله. فأمّا أُسامة، فأشار على رسول الله صلى الله عليه وآله بالذي علم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ، فقال: يا رسول الله! هم أهلك، ولا نعلم إلّا خيراً. فأمّا عليّ بن أبي طالب، عليه أفضل الصلوات، فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثيرة، وإنْ تسأل الجارية تصدّقك.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بريرة، فقال: يا بريرة! هل رأيتِ شيئاً يريبُكِ من عائشة. قالت بريرة: والذي بعثك بالحقّ! إنْ رأيت عليها أَمراً قطّ أغمضه عليها أكثر من أنّها جارية حديثة السنّ، تنام عن عجين أَهلها. قالت: وأنا والله أعلم أنّي بريئة. ولمّا كنت أظنّ أَنْ ينزل في شأني وحي يتلى، ولكنّي كنت أَرجو أنْ يرى رسول الله رؤيا يبرئني الله بها. فأَنزل الله تعالى على نبيّه، وأخذه ما كان يأخذه من برحاء الوحي، حتى أنّه لينحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الثاني[الشاتى] من ثقل القول الذي أُنزل عليه. فلمّا سري عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أبشري يا عائشة. أمّا والله فقد برأك. فقالت لي أُمّي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلّا الله، فهو الذي أنزل براءتي. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاؤُوا بِٱلْإِفْكِ﴾ الآيات العشر.

﴿المعنى﴾: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي: بالكذب العظيم الذي قلب فيه الأمر عن وجهه ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ أيّها المسلمون. قال ابن عباس، وعائشة: منهم: عبد الله بن أبي سلول. وهو الذي تولّى كبره، ومسطح بن أثانة، وحسان ابن ثابت، وحمنة بنت جحش.

---

[١] استلبث: أي استبطأ.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ هذا خطاب لعائشة وصفوان؛ لأنّهما قُصدا بالإفك، ولمن إغتمَّ بسبب ذلك، وخطاب لكل من يرمي بسبب، عن ابن عباس أي: لا تحسبوا غمّ الإفك شرّاً لكم، بل هو خير لكم؛ لأنّ الله تعالى يبرىء عائشة، ويأجرها بصبرها وإحتسابها، ويلزم أصحاب الإفك ما يستحقّونه بالإثم الذي إرتكبوه في أمرها. وقال الحسن: هذا خطاب للقاذفين من المؤمنين، والمعنى: لا تحسبوا أيّها القذمة هذا التأديب شرّاً لكم، بل هو خير لكم، فإنّه يدعوكم إلى التوبة، ويمنعكم عن المعاودة إلى مثله.

﴿لِكُلِّ إِمْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي: لكل إمرىء من القذفة، جزاء ما إكتسبه من الإثم، بقدر ما خاض، وأفاض فيه. وقيل: معناه: على كل إمرىء منهم عقاب ما إكتسب، كقوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أي: تحمّل معظمه ﴿مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ المراد به: عبد الله بن أبي سلول أي: فإنّه كان رأس أصحاب الإفك، كان يجتمع الناس عنده، ويحدثهم بحديث الإفك، ويشيع ذلك بين الناس، ويقول: قال إمرأة نبيّكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثمَّ جاء يقودها، والله ما نجت منه، ولا نجا منها. والعذاب العظيم: عذاب جهنّم في الآخرة. وقيل: المراد به: مسطح بن أثاثة. وقيل: حسان بن ثابت، فإنّه روي أنّه دخل على عائشة، بعد ما كفّ بصره، فقيل لها: إنّه يدخل عليك وقد قال فيك ما قال، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقالت عائشة: أليس قد كفّ بصره، فأنشد حسان قوله فيها:

حِصَانٌ، رَزَانٌ، مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ[1]

---

(١) حَصان ـ بفتح الحاء ـ . العفيفة. ورزان: أي ذات وقار وعفاف. وما تزنّ: أي لا تتهم. والغوافل: أي الغافلات التي لا تخطر ببالهنّ الفحشاء. وتصبح غرثي: أى هي جائعة من لحوم ←

فقالت عائشة: لكنّك لست كذلك.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً﴾ معناه: هلا حين سمعتم هذا الإفك من القائلين له، ظنّ المؤمنون والمؤمنات بالذين هم كأنفسهم خيراً؛ لأنّ المؤمنين كلّهم كالنفس الواحدة، فيما يجري عليها من الأُمور. فإذا جرى على أحدهم محنة، فكأنّها جرت على جماعتهم، فهو كقوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ ـ عن مجاهد ـ. وعلى هذا يكون خطاباً لمن سمعه، فسكت ولم يصدّق ولم يكذّب. وقيل: هو خطاب لمن أشاعه، والمعنى: هلّا إذا سمعتم هذا الحديث، ظننتم بها ما تظنّونه بأنفسكم، لو خلوتم بها، وذلك لأنّها كانت أُمّ المؤمنين. ومن خلا بأمّه فإنّه لا يطمع فيها، وهي لا تطمع فيه.

﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي: وهلّا قالوا، هذا القول كذب ظاهر ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: هلّا جاءوا على ما قالوه ببيّنة، وهي أربعة شهداء، يشهدون بما قالوه.

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ أي: فحين لم يأتوا بالشهداء ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين قالوا هذا الإفك ﴿عِندَ اللهِ﴾ أي: في حكمه ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بأن أمهلكم لتتوبوا، ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: أصابكم ﴿فيما أَفَضْتُمْ﴾ أي: خضتم ﴿فِيهِ﴾ من الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عذاب لا إنقطاع له، ـ عن ابن عباس ـ.

ثمّ ذكر الوقت الذي كان يصيبهم العذاب فيه، لولا فضله فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ

← الغافلات وغيبتهنّ، وهذه كلّها صفات عايشة، وقالت بعد سماع هذا البيت لحسان لكنّك لست كذلك، بل أكلت لحوم الغافلات، وكان على عائشة أن لا تذكره بما فعل سابقاً، وتاب عنه، وندم؛ إذ ما من أحد كلّما بلغ، إلّا ويمكن صدور خطاء منه، إلّا من يكون معصوماً.

﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: يرويه بعضكم عن بعض، ـ عن مجاهد، ومقاتل ـ. وقيل: معناه: تقبلونه من غير دليل، ولذلك أضافهُ إلى اللسان. وقيل: معناه: يلقيه بعضكم إلى بعض، ـ عن الزجّاج ـ.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً﴾ أي: تظنّون أنّ ذلك سهل، لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر؛ لأنّه كذب وإفتراء.

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ (١)

المعنى: ثمّ زاد سبحانه في الإنكار عليهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ﴾ أي: هلا قلتم حين سمعتم ذلك الحديث ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي: لا يحلّ لنا أن نخوض في هذا الحديث، وما ينبغي لنا أَنْ نتكلّم به ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يا ربّنا ﴿هَذَا﴾ الذي قالوه ﴿بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ أي: كذب وزور عظيم عقابه، أو نتحيّر من عظمه. وقيل: إنَّ سبحانك هنا معناه: التعجب، كقول الأعشى:

سُبْحانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفاخِرِ [١]

---

(١) قرأ: رؤف ـ بالقصر ـ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر. ووقف حمزة عليه بالتسهيل بين بين.

[١] وقبله: (أقول لما جاءني فخره). قاله في علقمة بن علاثة.

وقيل: معناه: ننزّهك ربّنا من أن نعصيك بهذه المعصية. ثمّ وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ﴾ أي: ينهاكم الله، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: يحرم الله عليكم ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ عن ابن عباس: وقيل: معناه: كراهة أن تعودوا لمثله عن ابن عباس وقيل معناه: كراهة أن تعودوا، أو لئلّا تعودوا إلى مثله من الإفك ﴿أَبَداً﴾ أي: طول أعماركم ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدّقين بالله ونبيّه، قابلين موعظة الله.

﴿وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ في الأمر والنهي ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بما يكون منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله، لا يضع الشيء إلّا في موضعه.

ثمّ هدَّد القاذفين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي: يفشوا، ويظهروا الزنا والقبائح ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأن ينسبوها إليهم، ويقذفوهم بها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ بإقامة الحدّ عليهم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ وهو عذاب النار ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه من سخط الله، وما يستحقّ عليه من المعاقبة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

ثمّ ذكر فضله، ومنّته عليهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لعاجلكم بالعقوبة، ولكنّه برحمته أمهلكم لتتوبوا، وتندموا على ما قلتم. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف؛ لدلالة الكلام عليه.

﴿النَّظْمُ﴾: لمّا بيّن سبحانه أحكام قذف المحصنات، وعظم أمره، عقّب ذلك بأحكام قذف الزوجات. ثمّ عطف بعد ذلك قذف الأمّهات، فإنّ أزواج النبيّ ﷺ، أمّهات المؤمنين؛ بدلالة قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾

القراءة: قرأ روح، عن يعقوب: ما زكّى منكم ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وقرأ أبو جعفر: ولا يتأل، وهو قراءة زيد بن أسلم، وأبي رجا، وأبي مجلز. والباقون: ﴿لا يأتل﴾. وروي عن عليّ عليه السلام: خطؤات ﴿ولتعفوا ولتصفحوا﴾ ـ بالتاء ـ، كما يروى بالياء أيضاً. وقرأ أهل الكوفة، غير عاصم: يوم يشهد عليهم ـ بالياء ـ. ـ بالهمزة ـ وقد تقدّم القول في ذلك في سورة البقرة. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والباقون: ﴿تشهد﴾ ـ بالتاء ـ. وفي الشواذّ، قراءة مجاهد، وأبي روق:

﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحقّ﴾ ـ بالرفع ـ[١].

الحجّة: الوجه في قوله: ما زكّى ـ بالتشديد ـ: أنّه قال: والله يزكي. وأمّا قوله: ﴿ولا يتأل﴾، فإنّه من تألى: إذا حلف. وفي الحديث: ومن يتأل على الله يكذبه. وهو الذي يحلف، فيقول: والله لا يدخل فلان الجنّة، وفلان النار. وأنشد الأصمعي:

عجاجة هجاجة تألى لأصبحن الأحقر الأذلا

وأمّا ﴿لا يأتل﴾، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: من الألية، التي هي اليمين أيضاً، يقال: إيتَلىٰ وتَألّى وأَلي، بمعنى. والآخر: أنّه من قولهم: ما ألوت في كذا أي: ما قصرت، والمعنى: ولا يقصر. وقال الأخفش: إنّه يحتمل الأمرين. وقوله: ﴿ولتعفوا ولتصفحوا﴾ ـ بالتاء ـ، مثل ما روي: فلتفرحوا ـ بالتاء ـ على الأصل، وقد تقدّم القول فيه. ومن قرأ: يوم يشهد ـ بالياء ـ، فلأنّ تأنيث «الألسنة» ليس بحقيقيّ؛ ولأنّه حصل بين الفعل والفاعل فصل. ومن قرأ بالتاء، فعلى أنّ «الألسنة» مؤنّثة. ومن قرأ: الحقُّ ـ بالرفع ـ جعله وصفاً لله تعالى أي: يوفّيهم الله الحقّ دينهم، مثل قوله: ﴿إِلَى ٱللهِ مَوْلاَهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

النزول: قيل: إنّ قوله: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ الآية. نزلت في أبي بكر، ومسطح بن أثاثة، وكان ابن خالة أبي بكر، وكان من المهاجرين، ومن جملة البدريّين، وكان فقيراً. وكان أبو بكر يجري عليه، ويقوم بنفقته. فلمّا خاض في الإفك، قطعها وحلف أن لا ينفعه بنفع أبداً. فلمّا نزلت الآية، عاد أبو بكر إلى ما كان، قال: والله إنّي لأحبّ أن يغفر الله لي، والله لا أنزعها عنه أبداً، ـ عن ابن عباس، وعائشة، وابن زيد ـ. وقيل: نزلت في يتيم كان في حجر

---

(١) خطوات ـ بسكون الطاء ـ: أبو بكر وحمزة ونافع وأبو عمرو، وغيرهم من السبعة بالضمّ، وإتّفقوا على عدم إمالة الألف من «زكي» ولكن أمال «أزكي لكم» حمزة؛ لكونها رباعيّاً.

أبي بكر، حلف لا ينفق عليه، ـ عن الحسن، ومجاهد ـ. وقيل: نزلت في جماعة من الصحابة، أقسموا على أن لا يتصدّقوا على رجل تكلّم بشيء من الإفك، ولا يواسرهم، ـ عن ابن عباس، وغيره ـ.

المعنى: ثمّ نهى سبحانه عن إتّباع الشيطان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: آثاره، وطرقه التي تؤدّي إلى مرضاته. وقيل: وساوسه ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هذا بيان سبب المنع من إتّباعه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بأن لطف لكم، وأمركم بما تصيرون به أزكياء، ونهاكم عمّا تصيرون بتركه أزكياء ﴿مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ أي: ما صار منكم أحد زكيّاً. و«مِن» في قوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مزيدة. وقيل: معناه: ما طهر منكم أحد من وسوسة الشيطان، وما صلح.

﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يطهر بلطفه من يشاء، وهو من له لطف يفعله سبحانه به ليزكّو عنده ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يفعل المصالح والألطاف بالمكلّفين؛ لأنّه يسمع أصواتهم وأقوالهم، ويعلم أحوالهم وأفعالهم. وفي الآية دلالة على أنّ الله سبحانه يريد من خلقه خلاف ما يريده الشيطان؛ لأنّه إذا ذمّ سبحانه الأمر بالفحشاء والمنكر، فخالق الفحشاء والمنكر ومريدهما أولى بالذمّ، تعالى وتقدّس عن ذلك. وفيها دلالة على أنّ أحداً لا يصلح إلّا بلطفه.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: ولا يحلف أو لا يقصر، ولا يترك ﴿أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ أي: أولو الغنى والسعة في المال ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى﴾ قال الزجّاج: معناه: أن لا يؤتوا، فحذف ﴿لا﴾ أي: لا يحلفوا أن لا يؤتوا. وقيل: لا يقصّروا أن يؤتوا، ولا يتركوا جهداً في الإنفاق على أقربائهم.

﴿وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وقد إجتمع في مسطح الصفات الثلاث: كان قريناً [قريباً] لأبي بكر، مسكيناً، مهاجراً. قال الجبائي: وفي قصّة مسطح دلالة على أنّه قد يجوز أن تقع المعاصي ممن شهد بدراً، بخلاف قول النوائب[١].

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ هذا أمر من الله تعالى للمرادين بالآية بالعفو عمّن أساء إليهم، والصفح عنهم. وقال لهم: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ معاصيكم جزاء على عفوكم، وصفحكم عمّن أساء إليكم ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: يقذفون العفائف من النساء ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عن الفواحش ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله، ورسوله، واليوم الآخر. ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: أبعدوا من رحمة الله في الدارين[٢]. وقيل: إستحقّوا اللعنة فيهما. وقيل: عُذّبوا في الدنيا بالجلد، وردّ الشهادة، وفي الآخرة بعذاب النار. ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا الوعيد عام لجميع المكلّفين، ـ عن ابن عباس، وابن زيد ـ.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بيّن الله سبحانه أنّ ذلك العذاب يكون في يوم تشهد ألسنتهم فيه عليهم بالقَذف، وسائر أعضائهم بمعاصيهم. وفي كيفيّة شهادة الجوارح أقوال: أحدها: إنّ الله تعالى يبنيها

---

(١) الأغمار: من الأحداث.

(٢) رأيت في بعض كتب أهل السنّة طعناً على الشيعة الإماميّة بهذه الآيات، في تنزيه عايشة، وإتّصافها بالإيمان، والعفة، ولا أري أنّ الشيعة تنكر ذلك؛ إذ لا ريب في عفّتها وإيمانها، ولا يرتضي مسلم بأن يقول تزوّج النبي صلى الله عليه وآله إمرئة كافرة، أو غير عفيفة، نعوذ بالله من ذلك، وإنّما الكلام في خروجها على أميرالمؤمنين عليه السلام بعد ذلك، ويقولون: إنّها تابت، وندمت على فعلها، وهذا شيء آخر غير مسئلة الإفك. وليس أحد معصوماً من أوّل عمره الى آخره.

بُنية يمكنها النطق والكلام من جهتها، فتكون ناطقة. والثاني: إنّ الله تعالى يفعل فيها كلاماً يتضمّن الشهادة، فيكون المتكلّم هو الله دون الجوارح. وأضيف الكلام إليها على التوسّع؛ لأنّها محلّ الكلام. والثالث: إنّ الله تعالى يجعل فيها علامة تقوم مقام النطق بالشهادة. وأمّا شهادة الألسن، فبأن يشهدوا بألسنتهم إذا رأوا أنّه لا ينفعهم الجحود.

وأمّا قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فإنّه يجوز أن تخرج الألسنة، ويختم على الأفواه. ويجوز أن يكون الختم على الأفواه في حال شهادة الأيدي والأرجل.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: يتمّم الله لهم جزاءهم الحقّ. فالدين هنا بمعنى الجزاء. ويجوز أن يكون المراد: جزاء دينهم الحقّ، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: يعلمون الله ضرورة في ذلك اليوم، ويقرُّون أنّه الحقّ؛ لأنّه يقضي بالحقّ، ويعطي بالحقّ، ويأخذ بالحقّ. ﴿الْمُبِينُ﴾ أي: الذي يظهر لهم حقائق الأمور، ويبيّن جلائل الآيات.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾: بدأ سبحانه فبيَّن حكم القاذف أوّلاً، وأوجب عليه الحدّ، وردّ شهادته، وسمَّاه فاسقاً، فعلم أنّ المراد به أهل الملّة. ثمّ عقّبه بحديث الإفك لاتّصاله به. ثمّ ذكر صنفاً آخر من القذفة، وهم المنافقون بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وبيَّن ما لهم من الغضب واللعنة. ثمّ عمَّ الجميع بالوعيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآيات، ـ عن أبي مسلم ـ.

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ
لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا
يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ (١)

(اللغة): الإستيناس: طلب الأنس بالعلم، أو غيره، تقوم العرب: إذهب فإستأنس هل ترى أحداً. ومنه قوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً﴾ أي: علمتم. وروي عن ابن عباس أنّه قال: إنّما هي تستأذنوا يعني قوله: ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾، وكذلك يروى عن عبدالله. وروي عن أبي «حتى تسلموا وتستأنسوا[تستأذنوا]»، وكذلك قرأ

---

(١) قوله: «فيها متاع لكم»، يدلّ على أنّه يكتفي بالقرائن الحاليّة في إستباحة التصرّف في الأموال وإن لم يكتف بها في المعاملات، ولذلك قال الفقهاء: إنّ المعاطاة في البيع تفيد الإباحة، إذا القرائن تدلّ على رضا البائع بتصرّف المشتري، مشروطاً بتسليطه على الثمن، وكذلك في كل معاملة فاسدة، إذا علم رضا المتعاملين، مع قطع النظر عن المعاملة، إلّا إذا كان حراماً من وجه آخر غير فساد المعاملة، كأجر البغي، ومال القمار، فيحلّ التصرّف فيما لم يوزن أو باعه غير البالغ إذا علم رضا الولي، وصرّح بذلك الحلبي في الكافي، ولفقهاء عصرنا، كلام في هذا الباب طويل لا نحتاج إلى نقله.

ابن عباس.

المعنى: قال سبحانه: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ قيل في معناه أقوال: أحدها: إنَّ الخبيثات من الكلم للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلم، ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من الكلم ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال، ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ من الكلم. ألاترى أنّك تسمع الخبيث من الرجل الصالح، فتقول: غفر الله لفلان ما هذا من خلقه، ولا ممّا يقول عن ابن عباس والضحّاك ومجاهد والحسن. والثاني: إنّ معناه: الخبيثات من السيّئات للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من السيّئات، والطيّبات من الحسنات للطيّبين من الرجال، والطيّبون من الرجال للطيّبات من الحسنات، ـ عن ابن زيد ـ. والثالث: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيّبات من النساء للطيّبين من الرجال، والطيّبون من الرجال للطيّبين من النساء ـ عن أبي مسلم والجبائي ـ. وهو المرويّ عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: هي مثل قوله: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية. إنّ أناساً هَمُّوا أن يتزوَّجوا منهنّ، فنهاهم الله عن ذلك، وكره ذلك لهم.

﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: الطيّبون مبرّؤون أي: منزَّهون من الكلام الخبيث، ـ عن مجاهد ـ. وقال الفرّاء: يعني به: عائشة، وصفوان بن المعطل، وهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾، والام تحجب بالأخوين، فجاء على تغليب لفظ الجمع. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لهؤلاء الطيّبين من الرجال والنساء، مغفرة من الله لذنوبهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عطيّة من الله كريمة في الجنّة.

ثمّ خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ أي: حتى تستأذنوا، ـ عن ابن مسعود ـ. وابن عباس، قال: أخطأ الكاتب فيه، وكان يقرأ: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾. وقيل: تستأنسوا

بالتنحنح والكلام الذي يقوم مقام الإستيذان. وقد بيَّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾، ـ عن مجاهد، والسدّي ـ. وقيل: معناه: حتى تستعلموا وتتعرّفوا، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قلنا يا رسول الله ما الإستيناس؟ قال: يتكلّم الرجل بالتسبيحة، والتحميدة، والتكبيرة، ويتنحنح على أهل البيت.

وعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل في حجرة من حجر رسول الله، فقال رسول الله ﷺ، ومعه مِدرى[١] يحكُّ به رأسه: لو أعلم أنّك تنظر لطعنت به في عينيك! إنّما الإستيذان من النظر. وروي أنّ رجلاً قال للنبيّ ﷺ: أستأذن على أمّي؟ فقال: نعم. قال: إنّها ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها كلّما دخلت؟ قال: أتحبّ أن تراها عريانة؟ قال الرجل: لا. قال: فإستأذن عليها.

﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ قيل: إنّ فيه تقديماً وتأخيراً، تقديره: حتى تسلّموا على أهلها، وتستأنسوا وتستأذنوا، فإن أذن لكم فادخلوا. وقيل: معناه: حتى تستأنسوا بأن تسلّموا، فقد روي أنّ رجلاً إستأذن على رسول الله ﷺ، فتنحنح، فقال رسول الله ﷺ، لإمرأة يقال لها روضة: قُومي إلى هذا فعلّميه، وقولي له: قل السلام عليكم أأدخل. فسمعها الرجل، فقالها، فقال: أدخل.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ معناه: ذلك الدخول بالإستيذان خير لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مواعظ الله، وأوامره، ونواهيه، فتتبّعونها.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا﴾ معناه: فإن لم تعلموا ﴿فِيهَا أَحَداً﴾ يأذن لكم في الدخول ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ لأنّه ربما كان فيها ما لا يجوز أن تطّلعوا عليه. ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: حتى يأذن لكم أرباب البيوت في ذلك. بيَّن الله سبحانه بهذا، أنّه لا

---

[١] المدرى: المشط.

يجوز دخول دار الغير بغير إذنه، وإن لم يكن صاحبها فيها، ولا يجوز أن يتطّلع إلى المنزل، ليرى من فيه، فيستأذنه إذا كان الباب مغلقاً؛ لقوله عليه السلام: إنّما جعل الإستيذان لأجل النظر إلّا أن يكون الباب مفتوحاً؛ لأنّ صاحبه بالفتح أباح النظر.

﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: فإنصرفوا، ولا تلجوا عليهم، وذلك بأن يأمروكم بالإنصراف صريحاً، أو يوجد منهم ما يدلّ عليه. ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ معناه: إنّ الإنصراف أنفع لكم في دينكم ودنياكم، وأطهر لقلوبكم، وأقرب إلى أن تصيروا أزكياء. ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها.

ثمّ قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج، وإثم ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ يعني: بغير إستئذان ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ قيل: في معنى هذه البيوت أقوال:

أحدها: إنّها الخانات، والحمامات، والأرحبة [حية]، ـ عن الصادق عليه السلام، وعن محمّد بن الحنفية، وقتادة ـ. ويكون معنى متاع لكم أي: إستمتاع لكم.

الثاني: إنّها الخرابات المعطّلة، ويدخلها الإنسان لقضاء الحاجة، ـ عن عطا ـ.

والثالث: إنّها الحوانيت، وبيوت التجّار، التي فيها أمتعة الناس، ـ عن ابن زيد ـ. قال الشعبي: وإذنهم أنّهم جاؤوا ببيوعهم فجعلوها فيها، وقالوا للناس: هلمّوا.

والرابع: إنّها مناخاف الناس في أسفارهم، يرتفقون بها، ـ عن مجاهد ـ. والأولى حمله على الجميع. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ لا يخفي عليه شيء من ذلك.

النظم: وجه إتّصال الآية بما قبلها: أنّه سبحانه لمّا عظم شأن الزنا

والقذف، أكّد ذلك بالنهي عن دخول بيوت الناس، إلّا بعد الإستئذان والإستئناس، ليكونوا أبعد من التهمة، وأقرب إلى العصمة من السيئة.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ (١) أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن عامر، وأبو بكر: غيرَ أولي الإربة ـ بالنصب ـ. والباقون: بالجرّ. وقرأ ابن عامر: ﴿أيّهُ المؤمنين﴾، ﴿يا أيّهُ الساحر﴾، و ﴿أيّـهُ

---

(١) لا يجوز للرجل أن ينظر الى وجه المرئة وكفّيها إلّا مرّة واحدة، إن وقعت بغير إختيار؛ لعدم إمكان الإحتراز عنها، ويحرم إعادة النظر على المشهور، وإن لم يكن عن ريبة وشهوة، وفينا قول ضعيف بجوازه مطلقاً، مأخوذ من روايات أخذوا بها، وتركوا بها مدلول القرآن والسيرة، مع عدم دلالة الروايات صريحاً، كما يأتي ان شاء الله.

الثقلان﴾ ـ بضمّ الهاء ـ. والباقون: بفتحها[١].

الحجة: قال أبو عليّ: غير: فيمن جرّ، صفة للتابعين، والمعنى: لا يبدين زينتهنّ إلّا للتابعين، الذين لا إربة لهم في النساء. والإربة: الحاجة؛ لأنّهم في أنّهم لا إربة لهم، كالأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء أي: لم يعثروا عليها. ومنه قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾. وجاز وصف «التابعين» بغير؛ لأنّهم غير مقصودين بأعيانهم، فأجري لذلك مجرى النكرة. وقد قيل: إنّ التابعين جاز أن يوصفوا بـ «غير» في هذا؛ لقصر الوصف على شيء بعينه. فإذا قصرعلى شيء بعينه، زال الشياع عنه، فإختصّ. فالتابعون ضربان: ذو إربة، وغير ذي إربة، وليس ثالث. وإذا كان كذلك، جاز لإختصاصه أن يجري وصفاً على المعرفة. وعلى هذا ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. وكذلك: ﴿لاَ يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ﴾ لأنّ المسلمين وغيرهم لا يخلو من أن يكونوا أصحاء أو زمنى. فإذا وصفوا بأحد الشيئين، زال الشياع، فساغ الوصف به لذلك.

ومن نصب ﴿غيرَ﴾ إحتمل ضربين:

أحدهما: أن يكون إستثناء، والتقدير: لا يبدين زينتهنّ إلّا للتابعين، إلّا ذا الإربة منهم، فإنّهنّ لا يبدين زينتهنّ لمن كان منهم ذا إربة.

والآخر: أن يكون حالاً، والمعنى: أو الذين يتبعونهنّ عاجزين عنهنّ. وذو الحال: ما في التابعين من الذكر. وقال: الوقف على «يا أيها، وأيّها» بالألف؛ لأنّها إنّما أسقطت لسكونها، وسكون لام المعرفة. فإذا وقف عليها زال إلتقاء الساكنين، وظهرت الألف. فأمّا ضمّ الهاء في قراءة ابن عامر فلا يتّجه؛ لأنّ آخر الإسم هو الياء الثانية من «أيُّ»، فينبغي أن يكون المضموم آخر الإسم، ولو جاز أن يضمّ هذا

---

(١) الثلاثة في المصاحف بالهاء بلا ألف إتّفاقاً. والعلة في ذلك: متابعة مصاحف عهد الصحابة؛ حفظاً لخطّ القرآن عن التغيير.

من حيث كان مضموماً إلى الكلمة، لجاز أن يضمّ الميم من أللهمّ؛ لأنّه آخر الكلمة. ووجه الإشكال والشبهة في ذلك: أنّه وجد هذا الحرف قد صار في بعض المواضع التي يدخل فيها بمنزلة ما هو من نفس الكلمة، نحو: مررت بهذا الرجل، وغلام هذه المرأة. فلمّا وجدها في أوائل المبهمة، كذلك جعلها في الآخر أيضاً بمنزلة شيء من نفس الكلمة. وإستجاز حذف الألف اللاحق للحرف، لمّا رآه قد حذف في قولهم: هلمَّ، فأجري عليه الإعراب لمّا كان كالشيء الذي من نفس الكلمة. فإن قلت: فإنّه قد حرّك الياء التي قبلها بالضمّ في ﴿يا أيّها الرجل﴾ فإنّه يجوز أن نقول: حركة «أيُّ» في هذه المواضع كحركات الإتباع في نحو: إمرىء وإمرؤ. فهذا وجه شبهته.

(اللغة): أصل الغضّ: النقصان. يقال: غضّ من صوته، ومن بصره أي: نقص. ومنه حديث عمرو بن العاص، لمّا مات عبدالرحمن بن عوف: هنيئاً لك خرجت من الدنيا ببطنتك، لم تتغضغض منها بشيء. يقال: غضغضت الشيء فتغضغض: إذا نقص. والإربة: فعلة من الأرب، كالمشية والجلسة. وفي الحديث: أنّ رجلاً إعترض النبيّ ﷺ ليسأله، فصاحوا به، فقال ﷺ: دعوا الرجل أرِبَ ما لَهُ [إربٌ مالهُ]. قال ابن الأعرابي: أي: إحتاج فسأل ما له. وقيل: معناه: حاجة جاءت به فدعوه. وما: مزيدة، ـ عن الأزهري ـ.

(الإعراب): ﴿يُغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: مجزوم؛ لأنّه جواب شرط مقدّر، والتقدير: قل للمؤمنين غضّوا من أبصاركم، فإنّك إن تقل لهم يغضّوا. ويجوز أن يكون مجزوماً، على تقدير ليغضّوا من أبصارهم، ومثل ذلك قوله: ﴿يَغْضُضْنَ﴾، وإن لم يظهر فيه الإعراب؛ لكونه مبنيّاً. و ﴿مَا ظَهَرَ﴾: في موضع نصب؛ على البدل من ﴿زِينَتَهُنَّ﴾. وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ مِن: هنا للتبيين. والجارّ والمجرور مع المحذوف في موضع نصب؛ على الحال.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه ما يحلُّ من النظر، وما لا يحلُّ منه، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ عمّا لا يحلّ لهم النظر إليه ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عمّن لا يحلّ لهم، وعن الفواحش. وقيل: إنّ ﴿مِن﴾ مزيدة، وتقديره: يغضّوا أبصارهم عن عورات النساء. وقيل: إنّها للتبعيض؛ لأنّ غضّ البصر إنّما يجب في بعض المواضع، ـ عن أبي مسلم ـ. والمعنى: ينقصوا من نظرهم، فلا يبصروا ولا ينظروا إلى ما حرم. وقيل: إنّها لإبتداء الغاية. وقال ابن زيد: كل موضع في القرآن ذكر فيه حفظ الفروج، فهو عن الزنا، إلّا في هذا الموضع، فإنّ المراد به: الستر، حتى لا ينظر إليها أحد، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال: فلا يحلّ للرجل أن ينظر إلى فرج أخيه، ولا يحلّ للمرأة أن تنظر إلى فرج أختها.

﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ أي: أنفع لدينهم ودنياهم، وأطهر لهم، وأنفى للتهمة، وأقرب إلى التقوى. ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: بما يعملونه، أي: على أيّ وجه يعملونه.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أمر النساء بمثل ما أمر به الرجال من غضّ البصر، وحفظ الفرج. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: لا يظهرن مواضع الزينة لغير محرم، ومن هو في حكمه. ولم يرد نفس الزينة؛ لأنّ ذلك يحلّ النظر إليها[1]، بل المراد: مواضع الزينة. وقيل: الزينة زينتان: ظاهرة وباطنة. فالظاهرة لا يجب سترها، ولا يحرم النظر إليها؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وفيها ثلاثة أقاويل: أحدها: إنّ الظاهرة: هي الثياب، والباطنة الخلخالان والقرطان والسواران، ـ عن ابن مسعود ـ. وثانيها: إنّ الظاهرة: الكحل والخاتم والخدان والخضاب في الكفّ، ـ عن ابن عباس ـ. والكحل والسوار والخاتم، ـ عن قتادة ـ.

---

(١) معنى هذا الكلام: إذا لم تكن هي لابستها جاز أن تظهرها، قاله الجصّاص والإمام وغيره، أمّا إن كانت على المرئة، فلا ينفكّ النظر إلى الزينة عن النظر الى البدن.

وثالثها: إنّها الوجه والكفّان، ـ عن الضحّاك وعطا ـ. والوجه والبنان، ـ عن الحسن ـ. وفي تفسير عليّ بن إبراهيم الكفان والأصابع[١].

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ والخُمُر: المقانع، جمع خمار: وهو غطاء رأس المرأة المنسدل على جيبها. أمرن بإلقاء المقانع على صدورهنّ، تغطية لنحورهنّ، فقد قيل: إنّهنَّ كنَّ يلقين مقانعهنّ على ظهورهنّ، فتبدو صدورهنّ. وكنّي عن الصدور بالجيوب؛ لأنّها ملبوسة عليها. وقيل: إنّهنّ أمرن بذلك؛ ليسترن شعورهنّ، وقرطهنّ، وأعناقهنّ. قال ابن عباس: تغطي شعرها، وصدرها، وترائبها، وسوالفها.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: الزينة الباطنة التي لا يجوز كشفها في الصلاة. وقيل: معناه: لا يضعن الجلباب والخمار، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: لأزواجهنّ يبدين مواضع زينتهنّ لهم؛ إستدعاء لميلهم، وتحريكاً لشهوتهم، فقد روي أنّه ﷺ لعن السلتاء من النساء، والمرهاء. فالسلتاء: التي لا تخضب. والمرهاء: التي لا تكتحل، ولعن المسوّفة والمفسلة. فالمسوّفة: التي إذا دعاها زوجها إلى المباشرة قالت: سوف أفعل. والمفسلة: هي التي إذا دعاها قالت: أنا حائض، وهي غير حائض.

---

(١) الزينة التي تظهر بنفسها غالباً لضرورة أمر المعاش، وإن لم تبدها المرأة عمداً، هي زينة الوجه والكفّين والسوار، وأمّا غير ذلك كالقرط، فيمكن حفظها وسترها، بحيث لايتّفق وقوع نظر الأجنبي عليه، وقال بعض الشافعيّة الآية تدلّ على جواز النظر إلى الوجه والكفّين مطلقاً، وعدم وجوب سترها، وهذا من عجائب الأوهام، وإن قال به بعض متأخّرينا أيضاً، ومن موارد الضرورة والحاجة، المرئة المحرمة، والتي يراد نكاحها، أو الشهادة عليها، أو علاج المريضة. وإعلم الغالب على الإستثناء إذا كان ضرورة لايجوز التعميم إلى غير الضرورة، كأن يقال: يجب الصوم على كل أحد الّا المريض، إختص بالمريض الذي يضرّه الصوم.

﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ وهؤلاء الذين يحرم عليهم نكاحهنّ، فهم ذوو محارم لهنّ بالأسباب والأنساب، ويدخل أجداد البعولة فيه، وإن علوا، وأحفادهم وإن سفلوا. يجوز إبداء الزينة لهم من غير إستدعاء لشهوتهم، ويجوز لهم تعمّد النظر من غير تلذّذ.

﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني: النساء المؤمنات، ولا يحل لهنَّ أن يتجرّدن ليهوديّة، أو نصرانيّة، أو مجوسيّة، إلّا إذا كانت أمة، وهو معنى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي: من الإماء، عن ابن جريج ومجاهد والحسن وسعيد بن المسيّب، قالوا: ولا يحلّ للعبد أن ينظر إلى شعر مولاته. وقيل: معناه: العبيد والإماء، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وقال الجبائي: أراد مملوكاً له لم يبلغ مبلغ الرجال.

﴿أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ﴾ أختلف في معناه، فقيل: التابع: الذي يتبعك لينال من طعامك، ولا حاجة له في النساء، وهو الأبله المولى عليه، ـ عن ابن عباس، وقتادة، وسعيد بن جبير، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: هو العنين الذي لا إرب له في النساء؛ لعجزه ـ عن عكرمة، والشعبي ـ. وقيل: إنّه الخصيّ المجبوب الذي لا رغبة له في النساء، ـ عن الشافعي ـ، ولم يسبق إلى هذا القول. وقيل: إنّه الشيخ الهم لذهاب إربه ـ عن يزيد بن أبي حبيب ـ. وقيل: هو العبد الصغير، ـ عن أبي حنيفة، وأصحابه ـ.

﴿أَوْ الطِّفْلِ﴾ أي: الجماعة من الأطفال ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ يريد به الصبيان الذين لم يعرفوا عورات النساء، ولم يعثروا عليها؛ لعدم شهوتهم. وقيل: لم يطيقوا مجامعة النساء، فإذا بلغوا مبلغ الشهوة، فحكمهم حكم الرجال.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ قال قتادة: كانت

المرأة تضرب برجلها؛ لتسمع قعقعة الخلخال فيها، فنهاهنّ عن ذلك. وقيل: معناه: ولا تضرب المرأة برجلها إذا مشت؛ ليتبيّن خلخالها، ويسمع صوته، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بثواب الجنة. وفي الحديث: إنّه ﷺ قال: أيّها الناس! توبوا إلى ربّكم، فإنّي أتوب إلى الله في كل يوم مائة مرّة. أورده مسلم في الصحيح. والمراد بالتوبة: الإنقطاع إلى الله تعالى:

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن
يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا
تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ (١) إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا
مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة ابن عباس، وسعيد بن جبير: من بعد إكراههنّ لهنّ غفور رحيم وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

---

(١) البغاء إن: من إجتماع الهمزتين، ومضي حكمهما. ومبيّنات ـ بفتح الياء ـ الحرميان، وأبو عمرو، وأبو بكر.

الحجة: اللام في «لهنّ» متعلّقة بغفور أي: غفور لهنّ.

اللغة: الأيامى: جمع أيم، وهي المرأة التي لا زوج لها، سواء كانت بكراً، أو ثيّباً. ويقال للرجل الذي لا زوجة له: أيم أيضاً. قال جميل:

أحِبُّ الأيـامى إذ بُـثَيْنَةُ أيِّـمٌ وَأَحْبَبتُ لَمّا أَنْ غَنِيْتِ الغَوانِيا[1]

وقال الشاعر:

فَـإنْ تَـنْكِحِي أنكِـحْ، وَإنْ تَـتَأيَّمي مَدَا الدَّهْرُ، ما لَـمْ تَـنْكِحَي، أتَأَيَّـمُ[2]

والفعل منه: آمَتِ المرأة تئيم أيمة وأيوماً. والإنكاح: التزويج. يقال: نكح: إذا تزوَّج، وأنكح غيره: إذا زوَّجه. والإستعفاف والتعفّف سواء، وهو طلب العفّة وإستعمالها. ويقال: رجل عفّ، وإمرأة عفّة. والكتاب، والمكاتبة: أن يكاتب الرجل مملوكه على مال يؤدّيه إليه، فإذا أدّاه عتق، وأصله من الجمع. وكل شيء جمعته إلى شيء فقد كتبته، ومنه الكتاب؛ لتداني بعضى حروفه إلى بعض. وهنا قد جمع العبد نجوم المال. وقيل: جمع ماله إلى مال السيّد.

الإعراب: أحد مفعولي ﴿وَأَنكِحُوا﴾ محذوف، تقديره: وأنكحوا رجالكم الأيامى من نسائكم، أو نساءكم الأيامى من رجالكم، وأنكحوا الصالحين من عبادكم إماءكم الصالحات، أو الصالحات من إمائكم عبادكم الصالحين؛ لأنّ الأيامي يشتمل على الرجال والنساء، والصالحين يشتمل عليهما أيضاً. وقوله: ﴿مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾: الجارّ والمجرور في موضع نصب؛ على الحال. و«مِن» للتبيين. وكل موضع يكون ﴿مِن﴾ مع معموله والعامل فيه، في محلّ النصب على الحال، لا يكون إلّا كذلك.

---

(١) إلتفات من الغيبة الى الخطاب، وأراد بقوله: غنيت: تزوّجت.

(٢) وفي نسخة: وإن كنت أفتي منكم أتأيم. وهذا أصحّ يعني: وإن كنت شابّاً فإنّي أبقي بلا زوجة؛ لأكون مثلك.

المعنى: ثمّ أمر سبحانه عباده بالنكاح، وأغناهم عن السفاح، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ ومعناه: زوّجوا أيّها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم. وهذا أمر ندب وإستحباب. وقد صحَّ عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: من أحب فطرتي فليستنَّ بسنّتي، ومن سنّتي النكاح. وقال ﷺ: يا معشر الشباب! من إستطاع منكم الباءة فليتزوّج؛ فإنّه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنّه له وجاء[١]. وروى عطا بن السايب، عن سعيد بن جبير، قال: لقيني ابن عباس في حجّة حجّها، فقال: هل تزوّجت؟ قلت: لا. قال: فتزوّج. قال: ولقيني في العام المقبل، فقال: هل تزوّجت؟ قلت: لا. فقال: إذهب فتزوّج، فإنّ خير هذه الأمّة كان أكثرها نساء، يعني: النبيّ ﷺ. وعن أبي هريرة قال: لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد، للقيت الله بزوجة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: شراركم عزّابكم.

وقال ﷺ: من أدرك له ولد، وعنده ما يزوّجه، فلم يزوّجه، فأحدث، فالإثم بينهما. وعن أبي إمامة، عن النبيّ ﷺ قال: أربع لعنهم الله من فوق عرشه، وأمنت عليه ملائكته، الذي يحصر نفسه فلا يتزوّج، ولا يتسرى، لئلّا يولد له. والرجل يتشبّه بالنساء، وقد خلقه الله ذكراً. والمرأة تتشبّه بالرجال، وقد خلقها الله أنثى، ومضلل الناس: يريد الذي يهزأ بهم يقول للمسكين: هلمّ أعطك. فإذا جاء يقول: ليس معي شيء، ويقول للمكفوف: إتّق الدابّة، وليس بين يديه شيء. والرجل يسأل عن دار القوم فيضلله.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أي: وزوّجوا المستورين من عبيدكم، وولائدكم، وقيل: إنّ معنى الصلاح هيهنا الإيمان، ـ عن مقاتل ـ. ثمّ رجع إلى

---

[١] الوجاء: رض عروق البيضتين حتى تنفضح، فيكون شبيهاً بالخصاء. شبه الصوم به، لأنه يكسر الشهوة كالوجاء.

الأحرار فقال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ لاسعة لهم للتزويج ﴿يُغْنِهِمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعدهم سبحانه أن يوسّع عليهم عند التزويج.

﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾ المقدور، كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم، وما يصلحهم، فيعطيهم على قدر ذلك. وقال أبو عبد الله عليه السلام: من ترك التزويج مخافة العيلة، فقد أساء الظنّ بربّه؛ لقوله سبحانه: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد السبيل إلى أن يتزوّج، بأن لا يجد المهر والنفقة، أن يتعفّف، ولا يدخل في الفاحشة، ويصبر حتى يوسّع الله عليه من رزقه.

ثمّ بيَّن سبحانه ما يسهل سبيل النكاح، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: يطلبون المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ والمكاتبة أن يكاتب الإنسان عبده على مال ينجمه عليه؛ ليؤدّيه إليه في هذه النجوم المعلومة. وهذا أمر ندب، وإستحباب، وترغيب، عند جميع الفقهاء. وقيل: إنّه أمر حتم وإيجاب، إذا طلبه العبد، وعلم فيه الخير، ـ عن عطا، وعمرو بن دينار، والطبري ـ.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ أي: صلاحاً ورشداً، ـ عن ابن عباس ـ. وروي عنه أيضاً إن علمتم فيهم قدرة على الإكتساب لأداء مال الكتابة، ورغبة فيه، وأمانة. وهو قول ابن عمر، وابن زيد، والثوري، والزجّاج. قال الحسن: إن كان عنده مال، فكاتبه، وإلّا فلا تعلّق عليه صحيفة يغدو بها على الناس، ويروح بها، فيسألهم. وروي أنّ عبداً لسلمان قال له: كاتبني. قال: ألك مال؟ قال: لا. قال: تطعمني أوساخ الناس فأبى عليه. وقال قتادة: يكره أن يكاتب العبد، ويقول لا يكاتبه إلّا ليسأل الناس.

﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أي: حطّوا عنهم من نجوم الكتابة شيئاً

ـ عن ابن عباس، وقتادة، وعطا ـ. وقيل: معناه: ردّوا عليهم يا معشر السادة من المال الذي أخذتم منهم شيئاً، وهو إستحباب. وقيل: هو إيجاب. وقال قوم من المفسّرين: إنّه خطاب للمؤمنين بمعونتهم على تخليص رقابهم من الرقّ. ومن قال إنّه خطاب للسادة، إختلفوا في قدر ما يجب، فقيل: يقدَّر بربع المال، ـ عن الثوري، وروي ذلك عن عليّ عليه السلام ـ. وقيل: ليس فيه تقدير، بل يحطّ عنه شيء منه. وهو الصحيح. وقيل: إنّه يعطى سهمه من الصدقات في قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾. قال الحسن: لولا الكتابة لما جاز له أخذ الصدقة. وقال أصحابنا: إنّ المكاتبة ضربان: مطلق ومشروط. فالمشروط: أن يقول لعبده في حال الكتابة: متى عجزت عن أداء ثمنك، كنت مردوداً في الرقّ، فإذا كان كذلك، جاز له ردّه في الرق عند العجز. والمطلق: ينعتق منه عند العجز بحساب ما أدّى من المال، ويبقى مملوكاً بحساب ما بقي عليه، ويرث ويورث بحساب ما عتق.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي: إمائكم وولايدكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أي: على الزنا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ أي: تعفّفاً وتزويجاً، ـ عن ابن عباس ـ. وإنّما شرط إرادة التحصّن؛ لأنّ الإكراه لا يتصوّر إلّا عند إرادة التحصّن، فإن لم ترد المرأة التحصن، بغت بالطبع. فهذه فائدة الشرط.

﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: من كسبهنّ، وبيع أولادهنّ. قيل: إنّ عبدالله بن أبي، كان له ستّ جوار يكرههنّ على الكسب بالزنا. فلمّا نزل تحريم الزنا، أتين رسول الله صلى الله عليه وآله، فشكون إليه. فنزلت الآية.

﴿وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ﴾ أي: ومن يجبرهنّ على الزنا من سادتهنّ ﴿فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ للمكرهات، لا للمكره؛ لأنّ الوزر عليه ﴿رَحِيمٌ﴾ بهنّ.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات ظاهرات. ومن قرأ بفتح الباء، فمعناه: مفصلات، بيّنهنّ الله وفصّلهنّ.

﴿وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وأخباراً من الذين مضوا من قبلكم، وقصصاً لهم، وشبهاً من حالهم بحالكم؛ لتعتبروا بها. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وزجراً للمتّقين عن المعاصي، وخصّهم بالذكر؛ لأنّهم المنتفعون بها.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۚ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: وابن كثير، ويعقوب: كوكب دُرِّيّ ـ مضمومة الدال، مشدّدة الباء ـ، تَوَقَّدَ ـ بفتح التاء والدال، وتشديد القاف ـ. وقرأ أبو عمرو: دِرِّيء ـ مكسورة الدال، ممدودة مهموزة ـ، توقد كما تقدّم. وقرأ الكسائي: دِريء ـ مكسورة الدال، ممدودة مهموزة ـ، ﴿تُوقَدُ﴾ ـ بضمّ التاء، والتخفيف والرفع ـ. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص: دُرّي ـ غير مهموزة، يوقد ـ بضمّ الياء والرفع ـ.

وقرأ أبو بكر وحمزة: دُرّيء ـ مضمومة الدال، مهموزة ممدودة[١] ـ تُوقد ـ بضمّ التاء، وتخفيف القاف ـ. وقرأ خلف: دُري ـ مضمومة الدال، غير مهموزة ـ تُوقد ـ بضمّ التاء والتخفيف ـ. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر: يُسَبَّح له فيها ـ بفتح الباء ـ. والباقون: بكسرها.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ دُرِّيّ: يحتمل قوله أمرين: أحدهما: أن يكون نسبة إلى الدرّ؛ لفرط صفائه، ونوره. ويجوز أن يكون «فُعِّيلا»، من الدَري، فخفّفت الهمزة فإنقلبت ياء، كما تنقلب من النسيء والنبيء. ومن قال: دِرِّيء: كان «فِعِّيلا»، من الدرء، مثل: السِكِّير والفِسِّيق، والمعنى: أنّ الخفاء إندفع عنه؛ لتلألؤه في ظهوره، فلم يخفَ كَما يخفى السهي ونحوه. ومن قرأ: دُرّيء كان «فعيلاً»، من الدَرْء، الذي هو الدفع. وقد حكى سيبويه عن أبي الخطاب: ﴿كوكب دُرِّيء﴾ من الصفات، ومن الأسماء المُرِّيق للعُصفُر. ومما يمكن أن يكون على هذا البناء العُلِّيَّة. ألا تراه أنّه من علا، ومنه: السُرِّيّة الأولى أن تكون فعلية، ومن قرأ: توقَد، كان فاعله المصباح؛ لأنّ المصباح هوالذي توقد. قال إمرؤ القيس:

سَمَوْتُ إلَيْها، وَالنُّجُومُ كَأَنَّها مَصابِيحُ رُهبانٍ تُشَبُ لَقفال[٢]

ومن قرأ: يوقد: كان فاعله المصباح أيضاً. ومن قرأ: ﴿تُوَقَدُ﴾: كان فاعله الزجاجة، والمعنى: على مصباح الزجاجة. فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، فقال: ﴿توقد﴾ فحمل الكلام على لفظ [نفس] الزجاجة، أو يريد بالزجاجة القنديل. فقال: ﴿توقد﴾ على لفظ الزجاجة، وإن كان يريد القنديل. ومعنى: ﴿توقد من شجرة﴾ أي: من زيت شجرة، فحذف المضاف، يدلّك على ذلك قوله:

---

(١) ويصير الوقف على «درّي» من الوقف على المهموز عند حمزة، فيقف على ياء مشدّدة.

(٢) القفال: المسافرون. والرهبان: عباد النصاري، المعتزلون عن الخلق، الساكنون في الصوامع.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾. ومن قرأ: ﴿يسبح له﴾ ـ بفتح الباء ـ أقام الجارّ والمجرور مقام الفاعل، ثمّ فسَّر من يسبح، فقال: رجال، أي: يسبح له رجال، فرفع رجالاً بهذا المضمر الذي دلَّ عليه قوله: ﴿يسبح﴾؛ لأنّه إذا قال ﴿يسبح﴾: دلّ على فاعل التسبيح، ومثله: قول الشاعر:

لَيُبْكَ يَزِيدُ ضارِعٌ لِخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمّا تُطيحُ الطَّوائِحُ(١)[١]

اللغة: المشكاة، قيل: إنّها روميّة معربّة. وقال الزجاج: يجوز أن تكون عربيّة؛ لأنّ في الكلام مثل لفظها شكوة، وهي قربة صغيرة. فعلى هذا تكون «مِفعلة» منها، وأصلها: مشكوة، فقلبت الواو ألفاً؛ لتحركها، وإنفتاح ما قبلها. والمصباح: السراج، وأصله من البياض. والأصبح: الأبيض.

الإعراب: قيل في تقدير قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّماوَاتِ﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون على حذف المضاف، وتقديره: ذو نور السماوات والأرض، على حدّ قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. والثاني: أن يكون مصدراً، وضع موضع إسم الفاعل، كقوله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾ أي: غائراً، وكما قالت الخنساء:

تَرْتَعُ مارَتَعَتْ، حَتّى إذَا ادَّكَرَتْ فَإنَّما هِيَ إقْبالٌ، وَإدْبارٌ(٢)

وعلى هذا تكون الإضافة غير حقيقيّة. و ﴿ٱلسَّماوَاتِ﴾ في تقدير النصب ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: جملة في موضع الجرّ؛ لأنّها صفة مشكاة. ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾: جملة في موضع رفع؛ بأنّها صفة مصباح، والعائد منها إليه، لام العهد، تقديره: فيها مصباح ذلك المصباح في زجاجة، أو هو في زجاجة. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾: الجملة في موضع جرّ؛ بأنّها صفة زجاجة. وقوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾:

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

(٢) الشعر في جامع الشواهد.

[١] مختبط: السائل. تطيح: تهلك. طوّحته الطوائح: قذفته القواذف.

بدل من ﴿شجرة﴾، والباقي صفة. ﴿نُّورٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف أي: هو نور. على نور: متعلّق بمحذوف، في موضع رفع، بكونه صفة «نور». ﴿فِي بُيُوتٍ﴾: يتعلّق بمحذوف، وفي موضع جرّ؛ بكونه صفة لمشكاة. فإنتقل الضمير من المحذوف إليه، يحث سدّ مسدّه. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: في موضع نصب؛ بكونه صفة لمفعول محذوف، وتقديره: يرزق من يشاء رزقاً بغير حساب أي: غير محسوب.

المعنى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أختلف في معناه على وجوه أحدها: الله هادي أهل السماوات والأرض، الى ما فيه من مصالحهم، ـ عن ابن عباس ـ. والثاني: الله منوّر السماوات والأرض بالشمس، والقمر، والنجوم، ـ عن الحسن، وأبي عالية، والضحّاك ـ. والثالث: مزيّن السماوات بالملائكة، ومزيّن الأرض بالأنبياء والعلماء، ـ عن أُبيّ بن كعب ـ. وإنّما ورد النور في صفة الله تعالى؛ لأنّ كل نفع، وإحسان، وإنعام، منه. وهذا كما يقال: فلان رحمة، وفلان عذاب: إذا كثر فعل ذلك منه. وعلى هذا قول الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنّا نُورُ قَوْمٍ، وَإِنْما ... يُبَيِّنُ في الظَّلْماءِ لِلنّاسِ نُورُها

وإنّما المعنى: إنّا نسعى فيما ينفعهم، ومنّا خيرهم. وكذا قول أبي طالب في مدح النبيّ ﷺ:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمالُ الْيَتامىٰ، عِصْمَةٌ لِلأرامِلِ

يَلُوذُ بِهِ الْهُلّاكُ مِنْ آلِ هاشِمٍ ... فَهُمْ عِنْدَهُ في نِعْمةٍ، وَفَواضِلِ[١]

لم يُعْنَ بقوله: أبيض، بياض لونه، وإنّما أراد أفضاله كثرة وإحسانه، ونفعه، والإهتداء به. ولهذا المعنى سمّاه الله تعالى سراجاً منيراً. ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فيه وجوه: أحدها: إنّ المعنى: مثل نور الله الذي هدى به المؤمنين، وهو الإيمان في قلوبهم،

---

[١] ثمال اليتامى: غياثهم. ثملهم ثملاً: أصعمهم وسقاهم وقام بأمورهم.

ـ عن أُبيّ بن كعب، والضحّاك. وكان أُبي يقرأ: مثل نور من آمن به ـ. والثاني: مثل نوره الذي هو القرآن في القلب، ـ عن ابن عباس، والحسن، وزيد بن أسلم ـ والثالث: إنّه عني بالنور: محمّداً ﷺ وأضافه إلى نفسه؛ تشريفاً له، ـ عن كعب، وسعيد بن جبير ـ. فالمعنى: مثل محمّد رسول الله ﷺ الرابع: إنّ نوره سبحانه الأدلّة الدالّة على توحيده، وعدله، التي هي في الظهور والوضوح مثل النور، ـ عن أبي مسلم ـ. الخامس: إنّ النور: هنا الطاعة أي: مثل طاعة الله في قلب المؤمن، ـ عن ابن عباس في رواية أُخرى ـ.

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ المشكاة: هي الكوة في الحائط، يوضع عليها زجاجة، ثمّ يكون المصباح خلف تلك الزجاجة، ويكون للكوة باب آخر، يوضع المصباح فيه، وقيل: المشكاة: عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وهو مثل الكوة. والمصباح: السراج وقيل: المشكاة: القنديل. والمصباح: الفتيلة، ـ عن مجاهد ـ.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي: ذلك السراج في زجاجة. وفائدة اختصاص الزجاجة بالذكر، أنّه أصفى الجواهر. فالمصباح فيه أضوأ.

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: تلك الزجاجة مثل الكوكب العظيم، المضيء الذي يشبه الدرّ في صفائه، ونوره، ونقائه. وإذا جعلته من الدرء، وهو الدفع، فمعناه: المندفع السريع الوقع في الإنقضاض. ويكون ذلك أقوى لضوئه.

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي: يشتعل ذلك السراج من دهن شجرة مباركة ﴿زَيْتُونِةٍ﴾ أراد بالشجرة المباركة شجرة الزيتون؛ لأنّ فيها أنواع المنافع، فإنّ الزيت يسرج به، وهو أدام، ودهان، ودباغ، ويوقد بحطبه، وثفله، ويغسل برماده الإبريسم، ولا يحتاج في إستخراج دهنه إلى إعصار. وقيل: إنّه خصّ الزيتونة؛ لأنّ دهنها أصفى وأضوأ. وقيل: لأنّها أوّل شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان، ومنبتها منزل الأنبياء. وقيل: لأنّه بارك فيها سبعون نبيّاً منهم إبراهيم، فلذلك

سمّيت مباركة.

﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: لا يفيء عليها ظلّ شرق، ولا غرب، فهي ضاحية للشمس، لا يظلّها جبل، ولا شجر، ولا كهف، فزيتها يكون أصفى، ـ عن ابن عباس، والكلبي، وعكرمة، وقتادة ـ. فعلى هذا يكون المعنى: إنها ليست بشرقيّة لا تصيبها الشمس إذا هي غربت، ولا هي غربيّة لا تصيبها الشمس إذا طلعت، بل هي شرقيّة غربيّة، أَخذت بحظّها من الأمرين. وقيل: معناه: أنّها ليست من شجر الدنيا، فتكون شرقيّة أو غربيّة، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: أنّها ليست في مقنوة لا تصيبها الشمس، ولا هي بارزة للشمس لا يصيبها الظلّ، بل يصيبها الشمس والظلّ، ـ عن السدّي ـ. وقيل: ليست من شجر الشرق، ولا من شجر الغرب؛ لأنّ ما اختصّ بإحدى الجهتين كان أقلّ زيتاً، وأضعف ضوءاً، لكنّها من شجر الشام، وهي ما بين الشرق والغرب، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ من صفائه، وفرط ضيائه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: قبل أن تصيبه النار، وتشتعل فيه. وأختلف في هذا التشبيه والمشبه والمشبه به على أقوال:

أحدها: إنّه قبل ضربه الله لنبيّه محمّد ﷺ، فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوّة، لا شرقيّة ولا غربيّة، أي: لا يهوديّة، ولا نصرانيّة، توقد من شجرة مباركة، يعني: شجرة النبوّة، وهي إبراهيم عليه السلام، يكاد نور محمّد ﷺ يبين للناس، ولو لم يتكلّم به، كما أنّ ذلك الزيت يكاد يضيء. ولو لم تمسسه نار أي: تصبه النار، ـ عن كعب، وجماعة من المفسّرين ـ.

وقد قيل أيضاً: إنَّ المشكاة: إبراهيم، والزجاجة: إسماعيل، والمصباح: محمّد ﷺ، كما سمّي سراجاً في موضع آخر من شجرة مباركة: يعني: إبراهيم؛ لأنّ أكثر الأنبياء من صلبه. لا شرقيّة ولا غربيّة: لا نصرانيّة ولا يهوديّة؛ لأنّ

النصارى تصلّي إلى المشرق، واليهود تصلّي إلى المغرب. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ أي: تكاد محاسن محمّد ﷺ تظهر قبل أن يوحى إليه.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: نبيّ من نسل نبيّ، ـ عن محمّد بن كعب ـ. وقيل: إنّ المشكاة: عبدالمطلب، والزجاجة: عبدالله، والمصباح هو النبيّ ﷺ، لا شرقيّة ولا غربيّة، بل مكّيّة؛ لأنّ مكّة وسط الدنيا، ـ عن الضحّاك ـ. وروي عن الرضا عليه السلام أنّه قال: نحن: المشكاة فيها، والمصباح: محمّد ﷺ يهدي الله لولايتنا من أحبّ.

وفي كتاب التوحيد لأبي جعفر بن بابويه رحمه الله بالإسناد عن عيسى بن راشد، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال: نور العلم في صدر النبيّ ﷺ: المصباح في زجاجة، الزجاجة: صدر عليّ عليه السلام، صار علم النبيّ ﷺ إلى صدر عليّ، علم النبيّ عليّاً عليه السلام يوقد من شجرة مباركة نور العلم، لا شرقيّة ولا غربيّة، لا يهوديّة ولا نصرانيّة، يكاد زيتها يضيء، ولو لم تمسسه نار قال: يكاد العالم من آل محمّد ﷺ يتكلّم بالعلم، قبل أن يسأل. نور على نور أي: إمام مؤيّد بنور العلم والحكمة، في إثر إمام من آل محمّد ﷺ، وذلك من لدن آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة. فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء في أرضه، وحججه على خلقه، لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم[1]، ويدلّ عليه قول أبي طالب في رسول الله ﷺ:

أَنْتَ الأَمِيْنُ مُحَمَّدٌ ... قَرْمٌ، أَغَرُ، مُسَوَّدُ

لِلْمُسَوَّدِينَ أَطَاهِرِ ... كَرُمُوا، وَطَابَ الْمَوْلِدُ

---

(١) لأنّ الله تعالى خلق في أفراد الإنسان كل شيء يحتاج إليه النوع، فخلق الذكر والأنثى، وخلق من له رغبة في الصنعة، ومن له رغبة في العلم، وخنق الحكماء، والمخترعين، ورقاق القلوب والشجعان، وبالجملة كل ما يحتاج إليه النوع البشرى، وممّا يحتاج إليه إمام معصوم، مرشد عالم بالحقّ، يهدي الناس إليه، وينقذهم من الضلالة، فإن قصّر الناس في إتّباعه، لم يمنع ذلك من لطفه تعالى.

أَنْتَ السَّعِيدُ مِنَ السُّعُودِ ... تَكَنَّفَتْكَ الأَسْعَدُ
مِنْ لَدْنُ آدَمَ لَمْ يَزَلْ ... فِينا وَصِيٌّ مُرْشِدٌ
وَلَقَدْ عَرَفْتُكَ صادِقاً ... وَالْقَوْلُ لا يَتَفَنَّدُ
مازِلْتَ تَنْطِقُ بِالصَّوابِ ... وَأَنْتَ طِفْلٌ أَمْرَدُ

تحقيق هذه الجملة يقتضي: أنَّ الشجرة المباركة المذكورة في الآية، هي دوحة التقى والرضوان، وعترة الهدى والإيمان، شجرة أصلها: النبوّة، وفرعها: الإمامة، وأغصانها: التنزيل، وأوراقها: التأويل، وخدمها: جبرائيل وميكائيل.

وثانيها: إنّه مثلٌ ضربه الله للمؤمن، والمشكاة: نفسه، والزجاجة: صدره، والمصباح: الإيمان، والقرآن: في قلبه، يوقد من شجرة مباركة، هي الإخلاص لله وحده، لا شريك له، فهي خضراء ناعمة، كشجرة إلتفَّ بها الشجر، فلا يصيبها الشمس على أيّ حال كانت، لا إذا طلعت، ولا إذا غربت، وكذلك المؤمن قد إحترز من أن يصيبه شيء من الفتن، فهو بين أربع خلال: إنْ أُعطي شكر، وإنْ ابتُلي صبر، وإنْ حكم عدل، وإن قال صدق، فهو في سائر الناس كالرجل الحيّ يمشي بين القبور، نور على نور، كلامه نور، وعلمه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة، ـ عن أبيّ بن كعب ـ.

وثالثها: إنّه مثل القرآن في قلب المؤمن، فكما أنّ هذا المصباح يستضاء به، وهو كما هو لا ينقص، فكذلك القرآن يهتدى به، ويعمل به. فالمصباح هو القرآن. والزجاجة قلب المؤمن. والمشكاة لسانه، وفمه. والشجرة المباركة شجرة الوحي، يكاد زيتها يضيء، يكاد حجج القرآن تتّضح، وإن لم تقرأ. وقيل: يكاد حجج الله على خلقه تضيء، لمن تفكّر فيها وتدبّرها، ولو لم ينزل القرآن. نور على نور: يعني: أنَّ القرآن نور مع سائر الأدلّة قبله، فإزدادوا به نوراً على نور، ـ عن الحسن، وابن زيد ـ. وعلى هذا فيجوز أن يكون المراد ترتّب الأدلّة، فإنّ الدلائل يترتّب

بعضها على بعض، ولا يكاد العاقل يستفيد منها إلّا بمراعاة الترتيب، فمن ذهب عن الترتيب، فقد ذهب عن طريق الإستفادة. وقال مجاهد: ضوء نور السراج، على ضوء الزيت، على ضوء الزجاجة.

﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يهدي الله لدينه وإيمانه من يشاء، بأن يفعل له لطفاً يختار عنده الإيمان إذا علم أنّ له لطفاً. وقيل: معناه: يهدي الله لنبوّته وولايته من يشاء. ممّن يعلم أنّه يصلح لذلك. ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ تقريباً إلى الأفهام، وتسهيلاً لدرك المرام. ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيضع الأشياء مواضعها.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ معناه: هذه المشكاة في بيوت هذه صفتها، وهي المساجد في قول ابن عباس والحسن ومجاهد والبجائي، ويعضده قول النبيّ ﷺ: المساجد بيوت الله في الأرض، وهي تضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم لأهل الأرض. ثمّ قيل: إنّها أربع مساجد، لم يبنها إلّا نبيّ: الكعبة: بناها إبراهيم وإسماعيل، ومسجد بيت المقدس: بناه [داود] سليمان، ومسجد المدينة ومسجد قبا: بناهما رسول الله ﷺ. وقيل: هي بيوت الأنبياء. وروي ذلك مرفوعاً أنّه سئل النبيّ ﷺ لمّا قرأ الآية: أيُّ بيوت هذه؟ فقال: بيوت الأنبياء. فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله! هذا البيت منها يعني: بيت عليّ وفاطمة قال: نعم من أفاضلها. ويعضد هذا القول قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. وقوله: ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فالإذن برفع بيوت الأنبياء والأوصياء مطلق. والمراد بالرفع: التعظيم، ورفع القدر من الأرجاس، والتطهير من المعاصي والأدناس. وقيل: المراد برفعها: رفع الحوائج فيها إلى الله تعالى.

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: يتلى فيها كتابه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: تذكر

فيها أسماؤه الحسنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: يصلّى له فيها بالبكور والعشايا، ـ عن ابن عباس والحسن والضحّاك ـ. وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن صلاة. وقيل: المراد بالتسبيح: تنزيه الله تعالى عمّا لا يجوز عليه، ووصفه بالصفات التي يستحقّها لذاته، وأفعاله التي كلّها حكمة وصواب.

ثمّ بيّن سبحانه المسبِّح، فقال: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ﴾ أي: لا تشغلهم، ولا تصرفهم ﴿تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ أي: إقامة الصلاة. حذف الهاء؛ لأنّها عوض عن الواو في أقوام. فلمّا أضافه، صار المضاف إليه عوضاً عن الهاء. وروي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام: أنّهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا التجارة، وإنطلقوا إلى الصلاة، وهم أعظم أجراً ممّن يتّجر.

﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي: إخلاص الطاعة لله تعالى، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: يريد الزكاة المفروضة، ـ عن الحسن ـ.

﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أراد يوم القيامة، تتقلّب فيه أحوال القلوب والأبصار، وتنتقل من حال إلى حال، فتلفحها النار، ثمّ تنضجها، ثمّ تحرقها، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: تتقلّب فيه القلوب بين الطمع في النجاة، والخوف من الهلاك. وتتقلّب الأبصار يمنة ويسرة، من أين تؤتى كتبهم، وأين يؤخذ بهم، أمن قِبَل اليمين، أم من قبل الشمال. وقيل: تتقلّب القلوب ببلوغها الحناجر، والأبصار بالعمى بعد البصر. وقيل: معناه: تنتقل القلوب عن الشكّ إلى اليقين والإيمان، والإبصار عمّا كانت تراه غيّاً فتراه رشداً. فمن كان شاكّاً في دنياه، أبصر في آخرته، ومن كان عالماً، إزداد بصيرة وعلماً، فهو مثل قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ـ عن البلخي ـ.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يفعلون ذلك، طلباً لمجازاة الله إيّاهم بأحسن ما عملوا، ولتفضله عليهم بالزيادة، على ما إستحقّوه

بأعمالهم من فضله وكرمه ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ﴾ أي: يعطي ﴿مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير مجازاة على عمل، بل تفضّلاً منه سبحانه، والثواب لا يكون إلّا بحساب، والتفضّل يكون بغير حساب.

النظم: إتّصلت الآية الأولى بما قبلها إتّصال المثل بالمثل؛ لأنّه تعالى لمّا بيَّن وجوه المنافع والمصالح، وعلم الشرائع فيما سبق، بيّن بعده أنّ منافع أهل السماوات والأرض منه؛ لأنّ إسم النور يطلق على ذلك، كمّا تقدّم بيانه. وقيل: إنّها إتّصلت بما قبلها إتّصال العلّة بالمعلول، فكأنّه قال: أنزلنا آيات بيّنات، ومواعظ بالغات، فهديناكم بها؛ لأنّا نهدي أهل السماوات والأرض. وإتّصل قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ بقوله: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ على ما تقدّم بيانه. وقيل: يتّصل بيسبح، ويكون فيها تكريراً على التوكيد، والمعنى: يسبح الله رجال في بيوت أذن الله أن ترفع، فيكون كقولك: في الدار قام زيد فيها.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ
مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ
حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ
يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتُۢ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ
ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

القراءة: قرأ ابن كثير في رواية البزي: سحاب ـ بغير تنوين ـ ظلمات ـ بالجرّ ـ. وفي رواية القواس وابن فليح: سحاب ـ بالتنوين ـ ظلمات ـ بالجرّ ـ.

والباقون: كلاهما بالرفع والتنوين[١].

الحجة: قال أبو عليّ: قوله: ﴿أو كظلمات﴾ معناه: أو كذي ظلمات. ويدلّ على حذف المضاف: قوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾. فالضمير الذي أضيف إليه ﴿يَدَهُ﴾ يعود إلى المضاف المحذوف. ومعنى ذي ظلمات: أنّه في ظلمات. ومعنى: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة الموج الذي في الموج. وقوله: ﴿خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾: فإنّه يجوز أن يكون ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة. وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ﴾: ظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل. ويجوز أن يكون الإلتقام كان بالليل، فهذه ظلمات. ومن قرأ: سحابٌ، ظلماتٌ، فرفع «ظلمات»، كان خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذه ظلمات بعضها فوق بعض. ومن قرأ: سحابٌ ظلماتٌ، جاز أن يكون تكريراً، وبدلاً من ظلمات الأولى. ومن قرأ: سحابُ ظلماتٍ ـ بإضافة «سحاب» إلى «الظلمات» ـ، فالظلمات هي الظلمات التي تقدّم ذكرها، فأضاف السحاب إلى الظلمات؛ لإستقلال السحاب، وإرتفاعه في وقت كون هذه الظلمات، كما تقول: سحاب رحمة، وسحاب مطر إذا إرتفع في الوقت الذي يكون فيه الرحمة المطر.

اللغة: السراب: شعاع يتخيّل كالماء، يجري على الأرض نصف النهار، حين يشتدّ الحرّ. والآل: شعاع يرتفع بين السماء والأرض، كالماء ضحوة النهار. والآل: يرفع الشخص الذي فيه. وإنّما قيل سراب؛ لأنّه ينسرب أي: يجري كالماء. وقيعة: جمع قاع، وهو الواسع من الأرض المنبسطة، وفيه يكون السراب. ولجّة البحر: معظمه الذي يتراكب أمواجه، فلا يرى ساحله. وإلتجّ البحر إلتجاجاً.

---

(١) مضى الخلاف في فتح السين وكسرها من «يحسب» قريباً.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه مثل الكفّار، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يعملونها، ويعتقدون أنّها طاعات ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أي: كشعاع بأرض مستوية ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ أي: يظنّه العطشان ماء ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ أي: حتى إذا إنتهى إليه، رأى أرضاً لا ماء فيها، وهو قوله: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ ممّا حسب وقدر، فكذلك الكافر يحسب ما تقدّم من عمله نافعاً، وأنَّ له عليه ثواباً، وليس له ثواب.

﴿وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَيهُ حِسَابَهُ﴾ قيل: معناه: ووجد الله عند عمله، فجازاه على كفره. وهذا في الظاهر خبر عن «الظمآن». والمراد به الخبر عن الكفّار. ولكن لمّا ضرب الظمآن مثلاً للكفّار، جعل الخبر عنه كالخبر عنهم، والمعنى: وجدأَمر الله، ووجد جزاء الله. وقيل: معناه: وجد الله عنده بالمرصاد، فأتم له جزاه.

﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، فيحاسب الجميع على أفعالهم في حالة واحدة. وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يحاسبهم في حالة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في حالة واحدة. وقيل: إنّ المراد به: عتبة بن ربيعة، كان يلتمس الدين في الجاهليّة، ثمّ كفر في الإسلام، ـ عن مقاتل ـ. ثمّ ذكر مثلاً آخر لأعمالهم، فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ أي: أو أفعالهم مثل ظلمات ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ أي: عظيم اللجّة لا يرى ساحله. وقيل: هو العميق الذي يبعد عمقه، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ أي: يعلو ذلك البحر اللجّيّ موج.

﴿مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي: فوق ذلك الموج موج ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي: من فوق الموج سحاب ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ يعني: ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب، والمعنى: إنّ الكافر يعمل في حيرة، ولا يهتدي لرشده، فهو من جهله وحيرته، كمن هو في هذه الظلمات؛ لأنّه من عمله، وكلامه، وإعتقاده، متقلّب في ظلمات. وروي عن أُبيّ، أنّه قال: إنَّ الكافر يتقلّب في خمس

ظلمات: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمة، وهي النار.

﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَيٰهَا﴾ أختلف في معناه: فقيل: لا يراها، ولا يقارب رؤيتها، فهو نفي للرؤية، ونفي مقاربة الرؤية؛ لأنّ دون هذه الظلمة لا يرى فيها، ـ عن الحسن، وأكثر المفسّرين ـ، ويدلّ عليه قول ذي الرمّة:

إذا غَيَّرَ النَّأْيُ المُحِبِّينَ لَمْ يَكَدْ عَلىٰ كُلِّ حالٍ، حُبُّ مَيَّةَ يَبْرَحُ[1]

ويروى: رسيسُ الهوى من حبّ مية يبرح. وقال آخر: ما كدت أُعرف إلّا بعد إنكار. وقال الفرّاء: كاد صلة، والمعنى: إنّه لم يرها وقيل: لا يراها إلّا بعد جهد ومشقّة رؤية تخيّل لصورتها؛ لأنّ حكم «كاد» إذا لم يدخل عليها حرف نفي، أَن تكون نافية، وإذا دخلتها حرف نفي، دلَّت على أن يكون الأمر وقع بعد بطء، ـ عن المبرّد ـ.

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ أي: من لم يجعل الله له نجاة وفرجاً، فما له من نجاة وقيل: ومن لم يجعل الله له نوراً في القيامة، فما له من نور.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ
عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ

(١) ميّة: إسم إمرئة. ورسيس أي: ثابت، يقول المحبّون يتسلون بالفراق، وينسون محبوبتهم قليلاً قليلاً، ولكن لا أبرح عاشقاً، ولا يزول حبّها عن قلبي.

وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن
يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ
وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ (١)

القراءة: قرأ أبو جعفر: يُذهَب بالأبصار ـ بضمّ الياء، وكسر الهاء ـ. والباقون: يذهب.

الحجة: من قرأ: يُذهَب، فالباء زائدة، وتقديره: يذهب الأبصار، ومثله: قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقول الهذلي:

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ، ثُمَّ تَرَفَّعَتْ ... مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ(٢)

أي: شربن ماء البحر. قال ابن جنّي: إنّما يزاد هذا الباء؛ لتوكيد معنى التعدّي، كما تزاد اللام لتوكيد معنى الإضافة في قوله:

يابوس للحرب ضراراً لأقوام

وإن شئت حملته على المعنى، فكأنّه قال: يكاد سنا برقه يلوي بالأبصار أي: يستأثر بالأبصار. وقد ذكرنا إختلافهم في قوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ والوجه فيه

---

(١) «يولف» بإبدال الهمزة واواً ورش مطلقاً، وحمزة وقفاً، وينزل بالتخفيف ابن كثير وأبو عمرو. وقرأ: خالق كل دابّة، حمزة والكسائي، ويشاء: من إجتماع همزتين، وكذا «يشاء الى»، ومبيّنات: بفتح الياء، كما مرّ.

(٢) يصف السحاب ونئيج أي: مرّ سريع.

في سورة إبراهيم.

اللغة: الإزجاء والتزجية: الدفع والسوق. وزجا الخراج يزجو زجاء: إذا إنساق إلى أهله، وتيسّر جبايته. والركام: المتراكم بعضه على بعض. والركمة: الطين المجموع. والودق: المطر، ودقت السماء تدقّ ودقّاً: إذا أمطرت. قال الشاعر:[١]

فَلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها ... وَلا أَرْضٌ أَبْقَلَ أَبْقَالُها(١)

والخلال: جمع الخلل، وهو الفرجة بين الشيئين. والبرد: أصله من البرد، خلاف الحرّ. وسحاب برد: أتى بالبرد. ويقال: سمّي البَرد؛ لأنّه يبرد وجه الأرض أي: يقشره، من بردت الشيء بالمبرّد. والسنا مقصوراً: الضوء، وهو بالمدّ: الرفعة.

الإعراب: ﴿صَافَّاتٍ﴾: حال من ﴿ٱلطَّيْرُ﴾. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّماءِ﴾: مِنْ: لإبتداء الغاية؛ لأنّ السماء مبدأ لإنزال المطر. ﴿مِن جِبَالٍ﴾: مِن: للتبعيض؛ لأنّ البرد بعض الجبال التي في السماء. ﴿مِن بَرَدٍ﴾: مِن: لتبيين الجنس؛ لأنّ جنس الجبال جنس البرد، ـ عن عليّ بن عيسى ـ. والتحقيق: أنّ قوله: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ بدل من قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّماءِ﴾. وقوله: ﴿فِيهَا﴾: في: يتعلّق بمحذوف، وتقديره: من جبال كائنة في السماء. فالجارّ والمجرور في موضع الصفة لجبال، تقديره: من جبال سماويّة. وقوله: ﴿مِن بَرَدٍ﴾: يتعلّق بمحذوف آخر، في محل جرّ؛ لأنّه صفة بعد صفة، تقديره: من جبال سماويّة بَرَدية، ومفعول ﴿يُنَزِّلُ﴾ محذوف أي: ينزّل من جبال في السماء من برد برداً، كما يقال: أخذت من المال شيئاً. وقوله: ﴿عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾: في موضع نصب؛ على الحال، وكذلك قوله: ﴿عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ و ﴿عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾. و﴿مَن﴾ الأولى والثالثة بمعنى «ما».

المعنى: ثم ذكر سبحانه الآيات التي جعلها نوراً للعقلاء العارفين بالله وصفاته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم يا محمّد؛ لأنّ ما ذكر في الآية لا يرى

---

(١) يعني: لم يمطر السحاب، ولم تنبت الأرض.

[١] قائله: عامر بن جوين الطائي.

بالأبصار، وإنّما يعلم بالأدلّة. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به: جميع المكلّفين ﴿أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والتسبيح: التنزيه لله تعالى عمّا لا يجوز عليه، ولا يليق به أي: ينزهه أهل السماوات وأهل الأرض بألسنتهم. وقيل: عني به العقلاء وغيرهم. وكنّي عن الجميع بلفظة ﴿مَن﴾ تغليباً للعقلاء على غيرهم.

﴿وَالطَّيْرُ﴾ أي: ويسبّح له الطير ﴿صَافَّاتٍ﴾ أي: واقفات في الجوّ، مصطفّات الأجنحة في الهواء، وتسبيحها: ما يرى عليها من آثار الحدوث.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ معناه: إنّ جميع ذلك قد علم الله تعالى دعاءه إلى توحيده، وتسبيحه، وتنزيهه. وقيل: إنّ الصلاة للإنسان، والتسبيح لكل شيء، ـ عن مجاهد، وجماعة ـ. وقيل: معناه: كل واحد منهم قد علم صلاته وتسبيحه أي: صلاة نفسه، وتسبيح نفسه، فيؤدّيه في وقته، فيكون الضمير في «علم» الكل، وفي الأوّل يعود الضمير إلى إسم الله تعالى وهو أجود؛ لأنّ الأشياء كلّها لا يعلم كيفيّة دلالتها على الله، وإنّما يعلم الله تعالى ذلك.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عالم بأفعالهم فيجازيهم بحسبها ﴿وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والملك: المقدور الواسع لمن يملك السياسة والتدبير. فملك السماوات والأرض، لا يصحّ إلّا لله وحده؛ لأنه القادر على الأجسام، لا يقدر على خلقها غيره. فالملك التامّ لا يصحّ إلّا له سبحانه.

﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة.

ثمّ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً﴾ أي: يسوقه سوقاً رفيقاً الى حيث يريد. ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي: يضمّ بعضه الى بعض، فيجعل القطع المتفرّقة منه قطعة واحدة. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ أي: متراكماً، متراكباً بعضه فوق بعض.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: ترى المطر والقطر، يخرج من خلال السحاب أي: مخارج القطر منه. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ أي: وينزّل من جبال في السماء تلك الجبال من برد برداً. والسماء: السحاب؛ لأنّ كل

ما علا مطبقاً فهو سماء. ويجوز أن يكون البرد يجتمع في السحاب كالجبال، ثمّ ينزل منها، ـ عن البلخي، وغيره ـ. وقيل: معناه: وينزل من السماء مقدار جبال من برد، كما تقول: عندي بيتان من تبن أي: قدر بيتين، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: أراد السماء المعروفة فيها جبال من برد مخلوقة، ـ عن الحسن، والجبائي ـ.

﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالبرد أي: بضرره ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فيهلك زرعه، وماله ﴿وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ﴾ أي: ويصرف ضرره عمن يشاء، فيكون إصابته نقمة، وصرفه نعمة. ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أي: يقرب ضوء برق السحاب من أن يذهب بالبصر، ويخطفه لشدّة لمعانه، كما قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾.

﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: يصرفهما في إختلافها، وتعاقبهما، وإدخال أحدهما في الآخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التقليب ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: دلالة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لذوي العقول، والبصائر.

﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ أي: كل حيوان يدبّ على وجه الأرض، ولا يدخل فيه الجنّ، والملائكة. ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ أي: من نطفة. وقيل: عنى به الماء؛ لأنّ أصل الخلق من الماء؛ لأنّ الله خلق الماء، وجعل بعضه ناراً، فخلق الجنّ منها، وبعضه ريحاً، فخلق منه الملائكة، وبعضه طيناً، فخلق منه آدم عليه السلام. فأصل الحيوان كلّه الماء، ويدلّ عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحيّة، والحوت، والدود ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام، والوحوش، والسباع. ولم يذكر ما يمشي على أكثر من أربع؛ لأنّه كالذي يمشي على أربع في رأي العين، فترك ذكره؛ لأنّ العبرة تكفي بذكر الأربع. قال البلخي: إنّ الفلاسفة تقول: كل ما له قوائم كثيرة، فإن إعتماده إذا سعى على أربعة قوائم فقط. وقال أبو جعفر عليه السلام: ومنهم من يمشي على أكثر من ذلك[1].

---

(١) حمله في فصل الخطاب على أنّه قرائة، وهو غير صريح، نعم نقل التصريح بأنّه قرائة عن السياري، ولا عبرة، به ولا بكتابه.

﴿يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يخترع ما يشاء، وينشئه من الحيوان وغيره. وقال المبرد: قوله: ﴿كُلِّ دَابَّةٍ﴾: للناس وغيرهم، وإذا اختلط النوعان، حمل الكلام على الأغلب. فلذلك قال: «مَن» لغير ما يعقل.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخلق هذه الأشياء لقدرته عليها. فإختلاف هذه الحيوانات مع إتّفاق أصلها، يدلّ على أنّ لها قادراً خالقاً، عالماً حكيماً. ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلالات واضحات بيّنات.

﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: من جملة تلك الدوابّ. وعني به: المكلّفين دون من ليس بمكلّف. والصراط المستقيم: الإيمان، لأنّه يؤدّي إلى الجنّة. وقيل: إنَّ المراد: يهدي في الآخرة إلى طريق الجنّة.

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر وقالون، عن نافع ويعقوب: ويتقِه ـ بكسر القاف، والهاء مكسورة مختلسة غير مشبعة ـ. وقرأ أبو عمرو وحمزة في رواية العجلي

وخلاد وأبو بكر في رواية حماد ويحيى: ويتَّقِهْ ـ بكسر القاف، وسكون الهاء ـ. وقرأ حفص: ويَتَّقْهِ ـ بسكون القاف، وكسر الهاء غير مشبعة ـ. والباقون: يَـتَّقِهِ ـ بكسر القاف والهاء مشبعة ـ. وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قرأ: قولُ المؤمنين ـ بالرفع ـ، وهو قراءة الحسن بخلافٍ، وابن أبي إسحاق، وهو مثل قراءة من قرأ: ﴿فما كان جوابُ قومه﴾ ـ بالرفع. وقد ذكرنا الوجه فيه. وقرأ أبو جعفر وحده: لِيُحكَمَ بينهم ـ بضمّ الياء وفتح الكاف في الموضعين، وفي البقرة، وآل عمران مثل ذلك ـ. وقد ذكرناه هناك.

الحجة: قال أبو عليّ: الوجه ﴿ويتقهي﴾: موصولة بياء؛ لأنّ ما قبل الهاء متحرّك. ومن قرأ: ويَتَّقِهِ؛ لا يبلغ بها الياء، فالوجه فيه: أنّ الحركة غير لازمة قبل «الهاء». ألاترى أنَّ الفعل إذا رفع دخلته الياء. ومن قرأ: ويتقهْ ـ بسكون الهاء ـ، فلأنّ ما يتبع هذه الهاء من الياء والواو زيادة، فردَّ إلى الأصل، وحذف ما يلحقه من الزيادة. ويقوّي ذلك ما حكي عن سيبويه أنّه سمع من يقول: هذه أمة الله في الوصل والقف. وزعم أبو الحسن أنَّ قوله:

له أرقانِ[1]

ونحوه، لغة يجرونها في الوصل مجراها في الوقف، فيحذفون منها، كما حذفوا في الوقف. وحملها سيبويه على الضرورة. وأمّا قراءة حفص ﴿ويـتَّقْهِ﴾ فوجهه: أنّ «تَقِهِ» من يَتّقِهِ مثل: كَتِف، فكما يسكن نحو: كَتف، كذلك تسكن القاف من تَقِه. وعلى هذا قول الشاعر:

---

(١) له أرقان: جزء من مصرع قد مضي، وتمامه: فظلت لدى البيت العتيق اخيله ـ ومطواي مشتاقان له أرقان. ومطواي: أي: صاحباي مشتاقان للكعبة، زادها الله شرفاً، وساهران من الشوق. ولا يستقيم الوزن إلّا بسكون الهاء من «له».

عَجِبتُ لِمَوْلُودٍ، وَلَيْسَ لَهُ أبٌ وَذِي وَلَدٍ لَمْ يَلْدَهُ أبَوانِ[١]

ومثله:

فباتَ مُنتَصباً، وما تَكَرْدَسا[١]

فلمّا أسكن ما قبل الهاء لهذا التشبيه، حرّك الهاء بالكسر، كما حرّك الدال بالفتح في «لم يلدَه»[٢].

اللغة: قال الزجّاج: الإذعان: الإسراع مع الطاعة، يقال: أذعن لي بحقّي أي: طاوعني لماكنت ألتمسه منه، وصار يسرع إليه. وناقة مذعان: منقادة. والحيف: الجور بنقص الحقّ. والفوز: أخذ الحظّ الجزيل من الخير.

النزول: قيل: نزلت الآيات في رجل من المنافقين، كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف. وحكى البلخي: أنّه كانت بين علي عليه السلام وعثمان منازعة، في أرض إشتراها من علي عليه السلام، فخرجت فيها أحجار، وأراد ردَّها بالعيب. فلم يأخذها، فقال: بيني وبينك رسول الله ﷺ. فقال الحكم بن أبي العاص: إن حاكمته إلى ابن عمّه يحكم له، فلا تحاكمه إليه! فنزلت الآيات، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، أو قريب منه.

المعنى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ﴾ أي: صدّقنا بتوحيد الله ﴿وَبِالرَّسُولِ﴾ محمّد ﷺ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ هما فيما حكما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي: يعرض عن طاعتهما طائفة منهم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد قولهم: آمنّا ﴿وَمَا أُوْلَئِكَ﴾ الذين يدعون الإيمان، ثمّ يعرضون عن حكم الله ورسوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي

---

(١) المولود الذي ليس له أب: عيسى عليه السلام ومن لم يلده أبوان: آدم عليه السلام.

(٢) وعلم من جميع ما ذكر من قرائة «يتقه» أنّ القرّاء إعتمدوا على السماع، لاعلى الإجتهاد، وإلّا فالموافق للقياس، كسر القاف وإشباع الهاء، ولم يكن يخفى ذلك على أبي عمرو ـ إمام النحو ـ وحمزة وعاصم.

[١] التكردس: التجمّع والتقبّض.

هذه الآية دلالة على أنَّ القول المجرّد لا يكون إيماناً؛ إذ لو كان ذلك كذلك، لما صح النفي بعد الإثبات.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ﴾ أي: إلى كتاب الله، وحكمه، وشريعته. ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: وإلى حكم رسوله ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الرسول. وإنّما أفرد بعد قوله: ﴿إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ لأنّ حكم الرسول يكون بأمر الله تعالى، فحكم الله ورسوله واحد.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عمّا يدعون إليه ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: وإنّ علموا أن الحقّ يقع لهم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى النبيّ ﷺ. ﴿مُذْعِنِينَ﴾ مسرعين طائعين منقادين.

ثمّ قال سبحانه منكراً عليهم ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شكّ في نبوّتك ونفاق؟ وهو إستفهام يراد به التقرير؛ لأنّه أشدّ في الذّم والتوبيخ أي: هذا أمر قد ظهر حتى لا يحتاج فيه إلى البيّنة، كما جاء في نقيضه من المدح على طريق الإستفهام، نحو قول جرير:

أَلَستُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا ... وَأَنْدَى العالَمِينَ بُطُونَ راحِ

﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ في عدلك أي: رأوا منك ما رابهم لأجله أمرك ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يجور الله عليهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أي: ويميل رسوله في الحكم، ويظلمهم؛ لأنّه لا وجه في الإمتناع عن المجيء إلّا أحد هذه الأوجه الثلاثة.

ثمّ أخبر سبحانه أنّه ليس شيء من ذلك، فقال: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ نفوسهم وغيرهم. وفي هذه الآية دلالة على أنَّ خوف الحيف من الله تعالى، خلاف الدين، وإذا كان كذلك، فالقطع عليه أولى أن يكون خلافاً للدين.

ثمّ وصف سبحانه الصادقين في إيمانهم، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا قول النبيّ ﷺ، وأطعنا أمره، وإن كان ذلك فيما يكرهونه ويضرّهم، ـ عن ابن عباس، ومقاتل ـ. وقيل: معناه: قبلنا هذا القول، وأنفذنا [أنقدنا] له، وأجبنا إلى حكم الله

ورسوله. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بالثواب، الظافرون بالمراد. وروي عن أبي جعفر عليه السلام: أنَّ المعني بالآية: أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراه، ونهيا عنه ﴿وَيَخْشَ اللهَ﴾ أي: ويخش عقاب الله في ترك أوامره، وإرتكاب نواهيه. ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ أي: ويتّق عقابه بإمتثال أوامره، وإجتناب نواهيه ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وقيل: معناه: ويخش الله في ذنوبه التي عملها، ويتّقه فيما بعد.

النَّظْمُ: قيل: إتّصلت الآية الأولى بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾. ويعود الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إليهم، وإن كان يقع على بعضهم، فكأنّه قال: ويقول جماعة من هؤلاء الناس آمنّا، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه لمّا تقدّم ذكر المؤمن والكافر، عقّبه سبحانه بذكر المنافق.

۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

القِرَاءَة: قرأ أبو بكر: كما استُخلف ـ بضمّ التاء ـ. والباقون: بفتح التاء.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب وسهل: وليُبدِلنهم ـ من الإبدال ـ. والباقون: بالتشديد ـ من التبديل ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: الوجه في كما استَخلَف ـ بفتح التاء واللام ـ: لأنّ إسم «الله» قد تقدَّم ذكره، والضمير في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ يعود إليه، فكذلك في قوله: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾. والوجه في استخلف: أنّه يراد به ما يراد بإستخلف. والتبديل والإبدال، بمعنى. وقيل: إنّ التبديل تغيير حال إلى حال أخرى، يقال: بدل صورته. والإبدال: رفع الشيء بأن يجعل غيره مكانه. قال:

عزل الأمير بالأمير المبدل

الإعراب: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أصله: وأقسموا بالله يجهدون الأيمان جهداً، فحذف الفعل، وأقيم مصدره مضافاً إلى المفعول مقامه، كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنّه قال: جاهدين أيمانهم. ﴿طَاعَةٌ﴾: مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: طاعة معروفة أولى بكم، وأفضل لكم. ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: جواب قسم يدلّ عليه قوله: ﴿وَعَدَ ٱللهُ﴾؛ لأنّ وعده سبحانه كالقسم. ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾: يجوز أن يكون جملة مستأنفة على طريق الثناء عليهم. ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ على الحال.

المعنى: ولمّا بيّن الله سبحانه كراهتهم، لحكمه، قالوا للنبيّ ﷺ: والله لو أمرتنا بالخروج من ديارنا وأموالنا، لفعلنا. فقال الله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: حلفوا بالله أغلظ أيمانهم، وقدر طاقتهم، إنّك إن أمرتنا بالخروج في غزواتك لخرجنا.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿لَا تُقْسِمُوا﴾ أي: لا تحلفوا، وتمَّ الكلام. ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أي: طاعة حسنة للنبيّ ﷺ، خالصة صادقة، أفضل وأحسن من قسمكم بما لا تصدّقون به. فحذف خبر المبتدأ للعلم به. وقيل: معناه: ليكن منكم

طاعة والقول المعروف هو المعروف صحّته ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: من طاعتكم بالقول، ومخالفتكم بالفعل.

ثمّ أمرهم سبحانه بالطاعة، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أتاكم به، وإحذروا المخالفة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوا﴾ أي: فإن تعرضوا عن طاعة الله، وطاعة رسوله. والأصل تتولّوا فحذف إحدى التاءين ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي: كلّف وأمر من التبليغ، وأداء الرسالة ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: كلفتم من الطاعة والمتابعة. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ أي: وإن تطيعوا الرسول ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الرشد والصلاح، وإلى طريق الجنّة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليه إلّا أداء الرسالة، وبيان الشريعة، وليس عليه الإهتداء، وإنّما ذلك عليكم، ونفعه عائد إليكم، والمبين: البيّن الواضح.

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: صدقوا بالله وبرسوله، وبجميع ما يجب التصديق به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الطاعات الخالصة لله ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليجعلنّهم يخلفون من قبلهم. والمعنى: ليورثنّهم أرض الكافر من العرب والعجم، فيجعلهم سكّانها وملوكها.

﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال مقاتل: يعني: بني إسرائيل. إذ أهلك الله الجبابرة بمصر، وأورثهم أرضهم، وديارهم، وأموالهم. وعن أبيّ بن كعب قال: لمّا قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلّا مع السلاح، ولا يصبحون إلّا فيه. فقالوا: ترون أنّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنّين، لا نخاف إلّا الله؟ فنزلت هذه الآية. وعن المقداد بن الأسود، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: لا يبقى على الأرض بيت مدر، ولا وبر، إلّا أدخله الله تعالى كلمة الإسلام، بعزّ عزيز، أو ذلّ ذليل، إمّا أن يعزّهم

الله، فيجعلهم من أهلها، وإمّا أن يذلّهم، فيدينون لها[١]. وقيل: إنّه أراد بالأرض: أرض مكّة؛ لأنّ المهاجرين كانوا يسألون ذلك.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ يعني: دين الإسلام الذي أمرهم أن يدينوا به، وتمكينه: أن يظهره على الدين كله، كما قال: زويت لي الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمّتي ما زوي لي منها. وقيل: تمكينه: بإعزاز أهله، وإذلال أهل الشرك، وتمكين أهله من إظهاره بعد أن كانوا يخفونه.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ أي: وليصيرنّهم بعد أن كانوا خائفين بمكّة، آمنين بقوّة الإسلام، وإنبساطه. قال مقاتل: وقد فعل الله ذلك بهم، وبمن كان بعدهم من هذه الأمّة، مكّن لهم في الأرض، وأبدلهم أمناً من بعد خوف، وبسط لهم في الأرض، فقد أنجز وعده لهم. وقيل: معناه: وليبدلنّهم من بعد خوفهم في الدنيا أمناً في الآخرة، ويعضده ما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال حاكياً عن الله سبحانه: إنّي لا أجمع على عبد واحد بين خوفين، ولا بين أمنين: إن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، وإن أمنني في الدنيا، خوّفته في الآخرة.

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ هذا إستئناف كلام في الثناء عليهم، ومعناه: لا يخافون غيري، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: لا يراؤون بعبادتي أحداً. وفي الآية دلالة على صحّة نبوّة نبيّنا ﷺ من جهة الإخبار عن غيب لا يعلم إلّا بوحي من الله عزّوجلّ.

---

(١) ولا يخفى أنّ رضا الله بإستخلاف عامّة المسلمين على الأرض، وتمكّنهم في دينهم، وقهرهم أعدائهم، لا يقتضي رضاء سبحانه بكل فعل من أفعال كل واحد من المسلمين الغالبين، ولذلك نري أنّ زين العابدين عليه السلام في أدعية الصحيفة دعا للمجاهدين، وطلب من الله لهم النصرة على الكفّار، ولا يدلّ ذلك على أنّ كل فعل صدر من عمّال بني أميّة كان حسناً، مع أنّ المجاهدين في زمانه، كانوا من جنود بني أميّة، فمن حيث إنّهم جاهدوا، كان فعلهم حسناً، ولا يوجب ذلك حسن جميع مظالم خلفائهم.

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد هذه النعم ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ذكر الفسق بعد الكفر، مع أنَّ الكفر أعظم من الفسق؛ لأنّ الفسق في كل شيء، هو الخروج إلى أكثره[أكبره]. فالمعنى: أولئك هم الخارجون إلى أقبح وجوه الكفر، وأفحشه. وقيل: معناه: من جحد تلك النعمة بعد إنعام الله تعالى بها، فأولئك هم العاصون لله، ـ عن ابن عباس ـ.

وأختلف في الآية، فقيل: إنّها واردة في أصحاب النبيّ ﷺ. وقيل: هي عامّة في أمّة محمّد ﷺ ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. والمرويّ عن أهل البيت عليهم السلام: أنّها في المهديّ من آل محمّد ﷺ. وروى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام أنّه قرأ الآية، وقال: هم والله شيعتنا أهل البيت. يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منّا، وهو مهديّ هذه الأمّة، وهو الذي قال رسول الله ﷺ: لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم، حتى يلي رجل من عترتي، إسمه إسمي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً. وروي مثل ذلك عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام.

فعلى هذا يكون المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾: النبيّ وأهل بيته، صلوات الرحمن عليهم. وتضمّنت الآية البشارة لهم بالإستخلاف، والتمكّن في البلاد، وإرتفاع الخوف عنهم عند قيام المهديّ عليه السلام منهم. ويكون المراد بقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هو أن جعل الصالح للخلافة خليفة مثل: آدم، وداود، وسليمان عليهم السلام. ويدلّ على ذلك قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، و﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبرَاهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً﴾. وعلى هذا إجماع العترة الطاهرة، وإجماعهم حجّة؛ لقول النبيّ ﷺ: إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. وأيضاً فإنّ التمكين في الأرض على الإطلاق، لم

يتّفق فيما مضى، فهو منتظر؛ لأنّ الله عزّ إسمه، لا يخلف وعده.

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

القراءة: قرأ ابن عامر، وحمزة: لا يحسبن ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ بالياء، جاز أن يكون فاعله أحد شيئين: إمّا أن يكون تضمّن ضميراً للنبي ﷺ أي: لا يحسبن النبيّ الذين كفروا معجزين. فـ«الذين» في موضع نصب؛ بأنّه المفعول الأوّل. و«معجزين» المفعول الثاني. ويجوز أن يكون فاعل الحسبان «الذين كفروا»، ويكون المفعول الثاني محذوفاً، وتقديره: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين، ومن قرأ بالتاء، ففاعل تحسبن المخاطب.

المعنى: ثمّ أمر سبحانه بإقامة أمور الدين، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: قوموا بأدائها، وإتمامها في أوقاتها. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لترحموا جزاء على ذلك، وتثابوا بالنعم الجزيلة.

ثمّ قال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمّد، أو أيّها السامع. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ أي: سابقين فائتين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾. يقال: طلبته فأعجزني أي: فاتني وسبقني أي: لا يفوتونني. ومن قرأ بالياء، فمعناه: لا يظنّ الكافرون أنّهم يفوتونني ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مستقرّهم ومصيرهم النار ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المستقرّ والمأوى. وإنّما وصفها بذلك، وإن كانت حكمة وصواباً من فعل الله تعالى؛ لما ينال الصائر إليها من الشدائد، والآلام.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير حفص: ثَلاثَ عورات ـ بالنصب ـ. والباقون: بالرفع. في الشواذّ، عن الأعمش: عَوَرات ـ بفتح الواو ـ. وقرأ أبو جعفر، وأبو عبدالله عليهما السلام: يضعن من ثيابهنّ. وروي ذلك عن ابن عباس، وسعيد بن جبير.

الحجة: قال أبو عليّ: من رفع، كان خبر المبتدأ محذوفاً، كأنّه قال: هذا ثلاث عورات، فأجمل بعد التفصيل. ومن نصب، جعله بدلاً من قوله: ﴿ثَلاثَ مَرّاتٍ﴾. فإن قلت: إنّ قوله: ثلاث مرّات، زمان؛ بدلالة أنّه فسّر بزمان، وهو قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ وَحينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِن الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ﴾ وليس العورات بزمان، فكيف يصحّ وليس هي هو؟ قيل: يكون ذلك على أن تضمر

الأوقات، كأنّه قال: أوقات ثلاث عورات. فلمّا حذف المضاف، أعرب المضاف إليه بإعراب المضاف. والعورات: جمع عورة. وحكم ما كان على «فَعلة» من الأسماء تحريك العين في الجمع، نحو: جَفنة وجَفَنات، إلّا أنَّ عامّة العرب كرهوا تحريك العين فيما كان عينه واواً، أو ياء، لما كان يلزم من الإنقلاب إلى الألف، فأسكنوا وقالوا: عورات وبيضات، إلّا أنَّ هذيلا حرّكوا العين منها، فقالوا: عَوَرات ولَوَزات. وأنشد بعضهم:

أخُو بَيَضاتٍ، رائِحُ مُتَأوِّبُ رَفيقٌ بِمَسْحِ المِنْكَبَيْنِ، سَبُوحٌ[1]

فحرّك الياء من «بيضات». والجيّد عند النحويّين الأوّل. ومن قرأ: من ثيابهن؛ فلأنّه لا يوضع كل الثياب، وإنّما يوضع بعضها. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: هو الجلباب إلّا أن تكون أمة، فليس عليها جناح أن تضع خمارها.

اللغة: التبرّج: إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره، وأصله: الظهور، ومنه: البرج: البناء العالي؛ لظهوره.

المعنى: لمّا تقدّم أحكام النساء والرجال، ومن أبيح له الدخول على النساء، إستثنى سبحانه هيهنا أوقاتاً من ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ معناه: مُرُوا عبيدكم وإماءكم أن يستأذنوا عليكم، إذا أرادوا الدخول إلى مواضع خلواتكم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أراد العبيد خاصّة، عن ابن عمر، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ من أحراركم. وأراد به الصبي الذي يميّز بين العورة وغيرها[2]. وقال الجبائي: الإستئذان واجب على كل بالغ في كل حال،

---

(١) رفيق بمسح المنكبين: أي عالم بتحريك المنكبين، كنّي بذلك عن المهارة في السير. وسبوح: أي حسن الحركة. ورائح متاوب: أي ذاهب وراجع. والشعر مذكور في شواهد العيني.

(٢) يستدلّ بذلك على عدم جواز كشف العورة عند الصبي، المميّز بين العورة وغيرها.

وعلى الأطفال في هذه الأوقات الثلاثة، بظاهر الآية ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي: في ثلاثة أوقات من ساعات الليل والنهار.

ثمّ فسّرها فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ وذلك أنّ الإنسان ربما يبيت عرياناً، أو على حال لا يحبّ أن يراه غيره في تلك الحال. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ﴾ يريد عند القائلة. ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ الآخرة، حين يأوي الرجل إلى إمرأته، ويخلوبها، أمر الله بالإستئذان في هذه الأوقات التي يتخلّى الناس فيها، ويتكشّفون، وفصّلها.

ثم أجملها بعد التفصيل، فقال: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ أي: هذه الأوقات ثلاث عورات[1] لكم. سمّي سبحانه هذه الأوقات عورات؛ لأنّ الإنسان يضع فهيا ثيابه، فتبدو عورته. قال السدّي: كان أناس من الصحابة يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الأوقات ليغتسلوا، ثمّ يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله سبحانه أن يأمروا الغلمان والمملوكين، أنْ يستأذنوا في هذه الساعات الثلاث. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: المؤمنين الأحرار ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: الخدم، والغلمان ﴿جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: حرج في أن لا يستأذنوا في غير هذه الأوقات الثلاثة.

ثمّ بيّن المعنى، فقال ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هم خدمكم، فلا يجدون بدّاً من دخولهم عليكم في غير هذه الأوقات، ويتعذّر عليهم الإستئذان في كل وقت، كما قال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي: يخدمهم. وقال النبيّ ﷺ: إنها من الطوّافين عليكم والطوافات. جعل الحرّة بمنزلة العبيد والإماء. وقال مقاتل: يتقلّبون فيكم ليلاً ونهاراً.

﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يطوف بعضكم، وهم المماليك، على بعض، وهم

---

(١) الغالب في الأوقات الثلاثة ظهور العورة، ولذلك يتبادر الذهن الى الغالب، وليس الحكم لتلك الأوقات مطلقاً، فلان إتّفق عدم إحتمال ظهور العورة في عادات بعض الأزمنة جاز الدخول.

الموالي. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما بيَّن لكم ما تعبدكم به في هذه الآية ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: الدلالات على الأَحكام. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ﴾ يعني: من الأحرار ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ أي: في جميع الأَوقات ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار الكبار الذين أُمروا بالإستئذان على كل حال في الدخول عليكم، فالبالغ يستأذن في كل الأوقات، والطفل والعبد يستأذن في العورات الثلاث. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مرَّ معناه. قال سعيد بن المسيّب: ليستأذن الرجل على أُمّه، فإنّما نزلت هذه الآية في ذلك.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللاَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ وهنّ المسنّات من النساء اللاتي قعدن عن التزويج؛ لأنّه لا يرغب في تزويجهنّ. وقيل: هن اللاتي إرتفع حيضهنّ، وقعدن عن ذلك، اللاتي لا يطمعن في النكاح أَي: لا يطمع في جماعهنّ؛ لكبرهنّ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ يعني: الجلباب فوق الخمار، ـ عن ابن مسعود، وسعيد بن جبير ـ. وقيل: يعني: الخمار والرداء، ـ عن جابر بن زيد[1] ـ. وقيل: ما فوق الخمار من المقانع وغيرها، أُبيح لهنّ القعود بين يدي الأجانب في ثياب أبدانهنّ مكشوفة الوجه واليد. فالمراد بالثياب ما ذكرناه، لا كلّ الثياب.

---

(١) قال أبو بكر الجصّاص: لاخلاف في أنّ شعر العجوز عورة، لايجوز للأجنبيّ النظر اليه كشعر الشابّة وأنّها إن صلّت مكشوفة الرأس، كانت كالشابّة في فساد صلوتها، فغير جائز أن يكون المراد وضع الخمار بحضرة الأجنبيّ، الى أن قال: وأباح لها بذلك كشف وجهها ويدها؛ لأنّها لاتشتهي، وبذلك يستكشف أنّه لا يجوز الكشف للشابّة وإلّا لم يكن لاستثناء القواعد وجه، ونقل في جامع المقاصد قولاً بأنّها كالشابّة، وقال: انّ لكل ساقطة لاقطة، وعليهذا فإستثناء القواعد من كراهة إكتفا لشابّة في الستر بغير الجلباب.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير قاصدات بوضع ثيابهنّ إظهار زينتهنّ، بل يقصدن به التخفيف عن أنفسهنّ. فإظهار الزينة في القواعد وغيرهنّ محظور. وأمّا الشابّات، فإنّهنّ يمنعن من وضع الجلباب أو الخمار، ويؤمرن بلبس أكثف الجلابيب؛ لئلّا تصفهنّ ثيابهنّ. وقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: للزوج ما تحت الدرع، وللإبن والأخ ما فوق الدرع، ولغير ذي محرم أربعة أثواب: درع، وخمار، وجلباب، وإزار. ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي: واستعفاف القواعد، وهو أنْ يطلبن العفّة بلبس الجلابيب. ﴿خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ من وضعها، وإنْ سقط الحرج عنهنّ فيه. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبكم.

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

اللغة: الحَرَج: الضيق مشتقّ من الحَرَجة: وهي الشجر الملتفّ بعضه

ببعض؛ لضيق المسالك فيه، وجمعها: حَرَجات وحِراج. قال:

أَيا حَرَجاتِ الحَيِّ حِينَ تَجَمَّلُوا بِذي سَلَمٍ، لا جادَكُنَّ رَبِيعُ[1]

وحرج فلان :إذا أثم. وتحرّج من كذا: إذا تأثم من فعله. والأشتات: المتفرّقون، وهو جمع شتّ.

الإعراب: ﴿جَمِيعاً﴾: نصب؛ على الحال، وكذلك: ﴿أَشْتَاتاً﴾. و ﴿تَحِيَّةً﴾: منصوب؛ لأنّها مصدر ﴿سَلِّمُوا﴾ لأنّ التحيّة بمعنى التسليم. ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾: صفة ﴿تَحِيَّةً﴾.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر الإستيذان، عقّبه سبحانه بذكر رفع الحرج عن المؤمنين في الإنبساط بالأكل والشرب، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ الذي كفَّ بصره ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ الذي يعرج من رجليه، أو إحداهما ﴿حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ العليل ﴿حَرَجٌ﴾ أي: إثم. وأختلف في تأويله على وجوه:

أحدها: إنَّ المعنى: ليس عليكم في مؤاكلتهم حرج؛ لأنّهم كانوا يتحرّجون من ذلك، ويقولون: إنّ الأعمى لا يبصر فنأكل جيد الطعام دونه. والأعرج لا يتمكّن من الجلوس. والمريض يضعف عن الأكل، ـ عن ابن عباس، والفرّاء ـ.

وثانيها: إنَّ المسلمين كانوا إذا غزوا، خلفوا زمناهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أَن تأكلوا ممّا في بيوتنا، فكان أُولئك يتحرّجون من ذلك، ويقولون: لا ندخلها وهم غيب. فنفى الله سبحانه الحرج عن الزمني في أكلهم من بيت أقاربهم، أو من بيت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو، عن سعيد بن المسيب، والزهري.

وثالثها: إنَّ المعنى ليس على الأَعمى، والأعرج، والمريض ضيق، ولا إثم

---

(١) يعاتب الطرق التي سارت فيها المحبوبة للفراق.

في ترك الجهاد، والتخلّف عنه. ويكون قوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ كلاماً مستأنفاً. فأوّل الكلام في الجهاد، وآخره في الأكل، ـ عن ابن زيد، والحسن والجبائي ـ.

ورابعها: إنَّ العُمي والعُرج والمرضى، كانوا يتنزّهون عن مؤاكلة الأصحاء؛ لأنّ الناس كانوا يتقذّرون منهم، ويكرهون مؤاكلتهم، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعام أعمى، ولا أعرج، ولا مريض، ـ عن سعيد بن جبير، والضحّاك ـ.

وخامسها: إن الزمنى والمرضى، رخَّص الله سبحانه لهم في الأكل من بيوت من سمّاهم في الآية، وذلك أنَّ قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم، ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم، وأمّهاتهم، وقراباتهم، فكان أهل الزمانة يتحرّجون من أن يطعموا ذلك الطعام؛ لأنّه يطعمهم غير مالكيه، ـ عن مجاهد ـ.

﴿وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وليس عليكم حرج في أنفسكم ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت عيالكم، وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الزوج. وقيل: معناه: من بيوت أولادكم. فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء؛ لأنّ الأولاد كسبهم وأموالهم كأموالهم. ويدلّ عليه قوله ﷺ: أنت ومالك لأبيك. وقوله ﷺ: إنّ أطيب ما يأكل المؤمن كسبه، وإنّ ولده من كسبه. ولذلك لم يذكر الله بيوت الأبناء حين ذكر بيوت الآباء والأقارب؛ إكتفاء بهذا الذكر.

ثمّ ذكر بيوت الأقارب بعد الأولاد، فقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾. وهذه الرخصة في أكل مال القرابات، وهم لا يعلمون ذلك، كالرخصة لمن دخل حائطاً، وهو جائع أن يصيب من ثمره، أو مرَّ في سفره بغنم، وهو عطشان، أَنْ يشرب من رِسْله، توسعة منه على عباده، ولطفاً لهم، ورغبة بهم عن دناءة الأخلاق، وضيق العطن. وقال الجبائي: إنَّ الآية منسوخة بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ وبقول النبيّ ﷺ: لا يحلّ مال إمرء مسلم إلّا بطيبة نفس منه. والمرويّ عن

أئمّة الهدى، صلوات الله عليهم، أنّهم قالوا: لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكر الله تعالى بغير إذنهم، قدر حاجتهم من غير إسراف[١].

وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ معناه: أو بيوت عبيدكم ومماليككم، وذلك أنّ السيّد يملك منزل عبده. والمفاتح هنا: الخزائن، لقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾: وقيل: هي التي يفتح الغيب بها، عن ابن عباس قال: عني بذلك وكيل الرجل، وقيّمه في ضيعته وماشيته، فلا بأس عليه أن يأكل من ثمر حائطه، ويشرب من لبن ماشيته. وقيل: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: هو الرجل يولّي طعام غيره، يقوم عليه، فلا بأس أَنْ يأكل منه، ـ عن السدّي ـ.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ رفع الحرج عن الأكل من بيت صديقه بغير إذن، إذا كان عالماً بأنّه تطيب نفسه بذلك. والصديق: هو الذي صدقك عن مودّته. وقيل: هو الذي يوافق باطنه باطنك، كما وافق ظاهره ظاهرك. ولفظ الصديق يقع على الواحد، وعلى الجمع. قال جرير:

دَعَوْنَ الْهَوىٰ، ثَمَّ ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا ... بِأَسْهُمِ أَعْدَاءٍ، وَهُنَّ صَدِيقُ

وقال الحسن، وقتادة: يجوز دخول الرجل بيت صديقه، والتحرم بطعامه من غير إستئذان منه في الأكل. وقال أبو عبد الله عليه السلام: لهو والله الرجل يأتي بيت

---

(١) لمّا كان الغالب في هذه البيوت رضا أربابها بالأكل، كان الإحتياط أن يخصّص ذلك بالرضا؛ لعدم إنصراف الذهن الى غيره، ومناط حلّية الأكل: العلم برضا المالك كيف كان. فإن قيل: هل يجوز اكل مال القمار، وثمن الخمر، ومهر الزانية للعلم برضا المالك قلنا: لا؛ لأنّ الرضا اذا كان معلّقاً بأمر حرام لم يمضه الشارع فهو كالعدم. فإن قيل: ما تقول في المعاملات الفاسدة غير المحرّمة؟ قلنا: إن كان رضا المالك مقيّداً بهذه المعاملة، فظاهر أنّ الرضا غير حاصل، وإن كان عالماً بالرضا، ولو مع قطع النظر عن المعاملة؛ لمجرّد تسلّطه على عوضه جاز التصرّف، وبذلك يصحّ المعاطاة.

صديقه، فيأكل طعامه بغير إذنه. وروي أنّ صديقاً للربيع بن خيثم، دخل منزله، وأكل من طعامه. فلمّا عاد الربيع إلى المنزل، أخبرته جاريته بذلك، فقال: إن كنت صادقة فأنت حرّة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي: مجتمعين، أو متفرّقين. وذكر في تأويله وجوه:

أحدها: إنَّ حياً من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده، فإن لم يجد من يؤالكه لم يأكل شيئاً. وربما كانت معه الإبل الحُفَّل[١]، فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه. فأعلم الله سبحانه أنّ الرجل منهم إن أكل وحده فلا إثم عليه، ـ عن قتادة، والضحّاك، وابن جريج ـ.

وثانيها: إنَّ معناه: لا بأس بأن يأكل الغني مع الفقير في بيته، فإنّ الغني كان يدخل على الفقير من ذوي قرابته، أو صداقته، فيدعوه إلى طعامه، فيتحرّج، ـ عن ابن عباس ـ.

وثالثها: إنّهم كانوا إذا نزل بهم ضيف، تحرّجوا أنْ يأكلوا إلّا معه، فأباح الله سبحانه الأكل على الإنفراد، وعلى الإجتماع، ـ عن أبي صالح ـ. والأقوال متقاربة. والأولى الحمل على العموم.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ليسلم بعضكم على بعض، ـ عن الحسن ـ، فيكون كقوله: ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. وقيل: معناه: فسلّموا على أهليكم وعيالكم، ـ عن جابر وقتادة والزهري والضحّاك ـ. وقيل: معناه: فإذا دخلتم بيوتاً يعني: المساجد، فسلّموا على من فيها، ـ عن ابن عباس ـ. والأولى حمله على العموم. وقال إبراهيم: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد، فقل :السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقال أبو عبد الله عليه السلام: هو تسليم الرجل على أهل البيت، حين يدخل، ثمّ يردّون عليه، فهو سلامكم على أنفسكم.

---

[١] التحفيل: ترك حلب الناقة أياماً ليجتمع اللبن في ضرعها.

﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ أي: هذه تحيّة حيّاكم الله بها، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: علّمها الله، وشرّعها لكم، فإنهم كانوا يقولون: عم صباحاً. ثمّ وصف التحيّة فقال: ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: إذا ألزمتموها كثر خيركم، وطاب أجركم. وقيل: مؤبدة حسنة جميلة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّما قال: مباركة؛ لأنّ معنى السلام عليكم: حفظكم الله وسلّمكم الله من الآفات، فهو دعاء بالسلامة من آفات الدنيا والآخرة. وقال: طيّبة؛ لمّا فيها من طيب العيش بالتواصل. وقيل: لما فيها من الأجر الجزيل، والثواب العظيم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما بيّن لكم هذه الأحكام والآداب ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: الأدلّة على جميع ما يتعبدكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لتعقلوا معالم دينكم.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

(اللغة): التسلّل: الخروج في خفية. يقال: تسلّل فلان بين أصحابه: إذا

خرج من جملتهم. والسلّة: السرقة في الخفية. وكذلك الإسلال. ومنه الحديث: لا إغلال ولا إسلال. واللواذ: أنْ يستتر بشيء مخافة من يراه. وقيل:اللواذ الإعتصام بالشيء بأن يدور معه حيث دار من قولهم: لاذ بـه. وقـال الزجّـاج: المـلاوذة: المخالفة هيهنا: بدلالة قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾. ويقال: خـالفه إلى الأمر: إذا ذهب إليه دونه. ومنه: قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾. وخالفه عن الأمر: إذا صدّ عنه دونه...

﴿الإعراب﴾: ﴿لِوَاذاً﴾ مصدر وضع موضع الحال، والتقدير: يتسلّلون مـنكم ملاوذين. ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: يخالفون الله عن أمره بمعنى: يجاوزون أمره. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ﴾: يوم منصوب؛ بالعطف على مـحذوف، وهـو ظـرف زمـان. والتقدير: ما أنتم تثبتون عليه الآن، ويوم يرجعون إليه. خرج مـن الخـطاب إلى الغيبة.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم ذكر المعاشرة مع الأقرباء والمسلمين، بيّن سبحانه في هذه الآية كيفيّة المعاشرة مع النبيّ ﷺ فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: ليس المؤمنون على الحقيقة إلّا الذين صدّقوا بتوحيد الله وعدله، وأقرّوا بصدق رسوله ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أي: مع رسوله ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وهو الذي يقتضي الإجماع عليه، والتعاون فيه، من حضور حرب، أو مشورة في أمر، أو صلاة جمعة، أو ما أشبه ذلك ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ أي: لم ينصرفوا عن الرسول، أو عن ذلك الأمر إلّا بعد أن يطلبوا الإذن منه في الإنصراف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فهم الذين يصدّقون بالله ورسوله على الحقيقة، دون الذيـن يـنصرفون بـلا إستئذان.

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: متى ما إستأذنك هؤلاء المؤمنون أن

يذهبوا لبعض مهمّاتهم، وحاجاتهم ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ خيّر سبحانه نبيّه ﷺ بين أن يأذن، وأن لا يأذن. وهكذا حكم من قام مقامه من الأئمّة.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ﴾ أي: وأطلب المغفرة لهم من الله، بخروجهم من جملة من معك. وإستغفار النبيّ ﷺ لهم، هو دعاؤه لهم باللطف الذي تقع معه المغفرة ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ للمؤمنين أي: ساتر لذنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم أي: منعم عليهم.

ثمّ أمر سبحانه جميع المكلّفين، فقال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ أختلف في تأويله على وجوه:

أحدها: إنّه سبحانه علَّمهم تفخيم النبيّ ﷺ في المخاطبة، وأعلمهم فضله فيه على سائر البريّة. والمعنى: لا تقولوا له عند دعائه: يا محمّد، أو يا إبن عبد الله، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبيّ الله، في لين، وتواضع، وخفض صوت، ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ.

وثانيها: إنّه نهى عن التعرّض لدعاء رسوله عليهم، فالمعنى: إحذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه، فإنّ دعاءه مجاب بغير شكّ، وليس كدعاء غيره، ـ عن ابن عباس في رواية أُخرى ـ.

وثالثها: إنَّ المعنى: ليس الذي يأمركم به الرسول، ويدعوكم إليه، كما يدعو بعضكم بعضاً؛ لأنّ في القعود عن أمره قعوداً عن أمر الله تعالى، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً﴾ قال ابن عباس: هو أن يلوذ بغيره فيهرب، وذلك أنّ المنافقين كان يثقل عليهم خطبة النبيّ ﷺ يوم الجمعة، فيلوذون ببعض أصحابه، فيخرجون من المسجد في إستتار من غير إستئذان. وفيه معنى التهديد بالمجازاة. وقال مجاهد: كانوا يتسلّلون في الجهاد رجوعاً عنه. وقيل: معناه: يستترون ويستخفون تقيّة وإلتجاء.

﴿فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ حذرهم سبحانه عن مخالفة نبيّه ﷺ

أي: فليحذر الذين يعرضون عن أمر الله تعالى. وإنّما دخلت ﴿عن﴾ لهذا المعنى. وقيل: عن أمر النبيّ ﷺ ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بليّة تظهر ما في قلوبهم من النفاق. وقيل: عقوبة في الدنيا.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وفي هذا دلالة على أنّ أوامر النبيّ ﷺ على الإيجاب؛ لأنّها لو لم تكن كذلك لما حذر سبحانه عن مخالفته. ثمّ عظم سبحانه نفسه، بأن قال: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرّف في جميع ذلك. ولا يجوز لأحد الإعتراض عليه، ولا مخالفة أمره. فليس للعبد أن يخالف أمر مالكه.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الخيرات والمعاصي، ومن الإيمان والنفاق، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني: يوم البعث، يعلمه الله سبحانه متى هو ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من الخير والشرّ، والطاعات والمعاصي ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أعمالهم وغيرها ﴿عَلِيمٌ﴾ معناه: يردّون إليه للجزاء، فيجازي كُلّاً على قدر علمه من الثواب والعقاب.

سورة الفرقان

مكّيّة كلها، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقال ابن عباس: إلّا ثلاث آيات: منها: نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُوراً رَحِيماً﴾.

عَدَدُ آيِهَا: وهي سبع وسبعون آية، بلا خلاف.

فَضْلُهَا: أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ سورة الفرقان، بعث يوم القيامة وهو يؤمن أنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور، ودخل الجنّة بغير حساب. وروى إسحاق بن عمّار، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: يا إبن عمّار! لا تدع قراءة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ فإنّ من قرأها في كل ليلة، لم يعذّبه الله أبداً، ولم يحاسبه، وكان منزلته في الفردوس الأعلى.

تَفْسِيرُهَا: إتّصلت هذه السورة بسورة النور، إتّصال النظير بالنظير، فإنّ مختتم تلك السورة تضمن ﴿إِنَّ لِلهِ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وٱلْأَرْضِ﴾ وإنّه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومفتتح هذه السورة أنّ ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاواتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، سبحانه من قدير حكيم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا
(١) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢)
وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ
ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا
(٤) وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) وَقَالُوا۟
مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ
لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰٓ
إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) ٱنظُرْ

كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: نأكل منها ـ بالنون ـ. والباقون: بالياء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر: ويَجْعَلُ لك ـ بالرفع ـ. والباقون: بالجزم.

الحجة: من قرأ: يأكل منها ـ بالياء ـ: فإنّه يعني به: النبيّ ﷺ. ومن قرأ: نأكل منها: فكأنّه أراد به أن تكون له المزيّة علينا في الفضل يؤكلنا من جنّته. ومن قرأ: ويجعلْ لك ـ بالجزم ـ: عطف على موضع «جعل»؛ لأنّه جزاء الشرط. قال الشاعر:

أَنَّى سَلَكْتَ فَإِنَّني لَكَ كَاشِحٌ وَعَلى انْتِقَاصِكَ في الحَيَاةِ، وَأَزْدَدِ[١]

ومن رفع، قطعه ممّا قبله، وإستأنف.

الإعراب: قال الزجّاج: التقدير: جاؤا بظلم وزور. فلمّا سقطت الباء أفضى الفعل فنصب الفعل. وأقول: إنّه يجوز «جاؤا ظلماً» بمعنى: أتوا ظلماً. قال طرفة:

---

(١) فقد جاءو: بإدغام الدال أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي. ووقف حمزة على «جاء» بين بين مع المدّ والقصر. وإتّفقوا على فصل «مال هذا» في الكتابة هنا، ونظيره: في النساء، والكهف، وفي «سال» وجميعها أربعة مواضع. ويجوز عند جميع القرّاء، الوقف على «ما» وإختلفوا في الوقف على «مال»؛ لأنّ اللام حرف جرّ، ومقتضي كلام الشاطبي أنّ الكسائي يقف على ما يخلف وكذا أبو عمرو، والباقون على «اللام»، ومقتضى كلام غير الشاطبي غيره، ولابدّ من التأمّل.

[١] الكاشح: العدو المضمر للعداوة.

عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ جِئْتُهُ، غَيْرَ أَنِّي نَشَدْتُ فَلَمْ أعْقل حَمُولَةَ مَعْبَدِ[١]

فمعنى جئته: فعلته. ﴿اكْتَتَبَهَا﴾: جملة في موضع نصب؛ على الحال من ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وقد: مضمرة. و ﴿أَسَاطِيرُ﴾: خبر مبتدأ محذوف. و ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾: حال، والعامل فيه: ما تعلّق به اللام في قوله: ﴿مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ﴾ فيكون منصوباً بإضمار «أن». ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا﴾: كيف في محلّ النصب على المصدر، والتقدير أي ضرب ضربوا لك الأمثال. ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ على الحال من الواو في ﴿ضَرَبُوا﴾. التقدير: أمنكرين ضربوا لك الأمثال أم لا. ﴿إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذٰلِكَ﴾: الشرط والجزاء صلة «الذي». و ﴿جَنَّاتٍ﴾: بدل من قوله: ﴿خَيْراً﴾.

المعنى: ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من البركة، معناه: عظمت بركاته وكثرت، ـ عن ابن عباس ـ. والبركة: الكثرة من الخير. وقيل: معناه: تقدَّس وجلَّ بما لم يزل عليه من الصفات، ولا يزال كذلك، فلا يشاركه فيها غيره. وأصله من بروك الطير، فكأنّه قال: ثبت ودام فيما لم يزل، ولا يزال، ـ عن جماعة من المفسّرين ـ. وقيل: معناه: قام بكل بركة، وجاء بكل بركة.

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن الذي يفرّق بين الحقّ والباطل، والثواب والخطأ، في أمور الدين، بما فيه من الحثّ على أفعال الخير، والزجر عن القبائح والشرّ. ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمّد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ محمّد ﷺ بالقرآن ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: لجميع المكلّفين من الإنس والجن. ﴿نَذِيراً﴾ أي: مخوّفاً بالعقاب، وداعياً لهم إلى الرشاد.

---

[١] هذا بيت من معلقته الشهيرة، ومعبد هذا أخوه. والحمولة: الإبل التي تطيق أنْ يحمل عليها. ولهذا البيت قصة طويلة مذكورة في هامش المعلقات العشر برواية الزوزني، وغيره هكذا.

ثمّ وصف سبحانه نفسه، فقال: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ كما زعمت اليهود، والنصارى، والمشركون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ يشاركه فيما خلق، ويمنعه عن مراده. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ممّا يطلق عليه إسم المخلوق.

﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ على ما إقتضته الحكمة. والتقدير: تبيين مقادير الأشياء للعباد، فيكون معناه: قدّر الأشياء، بأن كتبها في الكتاب الذي كتبه الملائكة؛ لطفاً لهم. وقيل: خلق كل شيء فقدّر طوله وعرضه، ولونه وسائر صفاته، ومدّة بقائه، ـ عن الحسن ـ.

ثمّ أخبر سبحانه عن الكفّار، فقال: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿آلِهَةً ﴾ من الأصنام والأوثان، وجهوا عبادتهم إليها. ثمّ وصف آلهتهم بما ينبىء أنّها لا تستحقّ العبادة، فقال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي: وهي مخلوقة مصنوعة. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً ﴾ فيدفعونه عن أنفسهم ﴿وَلَا نَفْعاً ﴾ فيجرّونه إلى أنفسهم أي: لا يقدرون على دفع ضرّ، ولا على جرّ نفع.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً﴾ أي: لا يستطيعون إماتة ولا إحياء. ﴿وَلَا نُشُوراً ﴾ ولا إعادة بعد الموت. يقال: أنشره الله فنشر، فإنّ جميع ذلك يختصّ الله تعالى بالقدرة عليه. والمعنى: فكيف يعبدون من لا يقدر على شيء من ذلك، ويتركون عبادة ربّهم الذي يملك ذلك كله.

ثمّ أخبر سبحانه عن تكذيبهم بالقرآن، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ أي: ما هذا القرآن إلّا كذب افتراه محمّد ﷺ وإختلقه من تلقاء نفسه. ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ قالوا: أعان محمّداً ﷺ على هذا القرآن عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار غلام العلاء بن

الحضرمي، وحبر مولى عامر، وكانوا من أهل الكتاب. وقيل: إنّهم قالوا أعانه قوم اليهود، ـ عن مجاهد ـ. ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ أي: فقد قالوا شركاً وكذباً، حين زعموا أنَّ القرآن ليس من عند الله. ومتى قيل: كيف إكتفى بهذا القدر في جوابهم؟ قلنا: إنّه لمّا تقدّم التحدّي، وعجزهم عن الإتيان بمثله، إكتفى هيهنا بالتنبيه على ذلك(١).

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ معناه: وقالوا أيضاً هذه أحاديث المتقدّمين، وما سطروه في كتبهم إنتسخها. وقيل: إستكتبها ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: تملى عليه طرفي نهاره، حتى يحفظها وينسخها. والأصيل: العشي؛ لأنّه أصل الليل وأوّله. وفي هذا بيان مناقضتهم وكذبهم؛ لأنّهم قالوا: ﴿افْتَرَيهُ﴾، ثمّ قالوا: ﴿تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ فقد إفتراه غيره. وقالوا: إنّه كتب، وقد علموا أنّه كان لا يحسن الكتابة، فكيف كتب ولم يستكتب.

ثمّ قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم تكذيباً لقولهم ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي: أنزل القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي: الخفيّات ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على ما إقتضاه علمه ببواطن الأمور، لا على ما تقتضيه أهواء النفوس والصدور. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ حيث لم يعاجلهم بالعذاب، بل أنعم عليهم بإرسال الرسول إليهم لتأكيد الحجّة، وقطع المعذرة.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نأكل ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾

---

(١) وجواب شبهة هؤلاء قوله تعالى: يعلم السرّ الى آخره، يشير بذلك أنّ عداس ويساراً وحبراً وغيرهم، لا يقدرون على نظم القرآن المشتمل على أسرار الملك والملكوت، ولابدّ أن يكون ناظمه عالماً بخفيّاتها، وفي القرآن دقائق، وحكم، وعلوم يعجز عنها فكر أولي العقول الكاملة، فكيف يمكن أن يخترعه أغمار الناس، وأرذالهم.

في طلب المعاش، كما نمشي ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ أي: هلّا أنزل إليه ملك، فيكون معيناً له على الإنذار والتخويف. وهذا أيضاً من مقالاتهم الفاسدة؛ لأنّ الملك لو كان معيناً له على أداء الرسالة، ومخوفاً من ترك قبولها، ولو فعل تعالى ذلك، لأدّى ذلك إلى إستصغار كل واحد منهما من حيث إنّه لم يقم بنفسه في أداء الرسالة؛ ولأنّ الجنس إلى الجنس أميل، وبه آنس.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ يستغني به عن طلب المعاش. قال ابن عباس: أو ينزل إليه مال من السماء ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: بستان يأكل من ثمارها. ومن قرأ: بالنون، فالمعنى: نأكل نحن معه ونتبعه.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المشركون للمؤمنين ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ أي: ما تتّبعون إلّا رجلاً مخدوعاً، مغلوباً على عقله. وقد سبق تفسير المسحور في بني إسرائيل ﴿أنظُرْ﴾ يا محمّد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي: الأشباه؛ لأنّهم قالوا تارة هو مسحور، وتارة هو محتاج متروك، حتى تمنّوا له الكنز، وتارة إنّه ناقص عن القيام بالأمور.

﴿فَضَلُّوا﴾ بهذا عن الهدى، وعن وجه الصواب، وطريق الحقّ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ لإلزامك الحجّة من الوجوه المذكورة. وقيل: معناه: لا يستطيعون سبيلاً إلى إبطال أمرك. وقيل: معناه: لا يستطيعون سبيلاً إلى الحقّ، مع ردّهم الدلائل والحجج، وإتّباعهم التقليد والإلف والعادة.

﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تقدّس ﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ﴾ الذي إقترحوه من الكنز والبستان. ثمّ فسّر الذي هو خير ممّا إقترحوه، فقال: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ليكون أبلغ في الزهو، وأسرع في نضج الثمار ﴿وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾ أي: وسيجعل لك قصوراً في كل بستان قصراً، والقصور: البيوت

المبنيّة المشيّدة المطولة، ـ عن مجاهد ـ. وأراد في الآخرة أي: سيعطيك الله في الآخرة أكثر ممّا قالوا. وقيل: أراد به في الدنيا؛ لأنّ جبرائيل عليه السلام عرض عليه ذلك كله، فإختار الزهد في الدنيا.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ
أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى
هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ
يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ

لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أبو جعفر وابن كثير وحفص ويعقوب: ويوم يحشرهم ـ بالياء ـ. والباقون: بالنون. وقرأ ابن عامر: فنقول ـ بالنون ـ. والباقون: بالياء. وقرأ أبو جعفر وزيد عن يعقوب: أن نَتخذ ـ بضمّ النون، وفتح الخاء ـ. وهو قراءة زيد بن ثابت، وأبي الدرداء. وروي عن جعفر بن محمّد عليه السلام وزيد بن عليّ. والباقون: نَتخِذ ـ بفتح النون، وكسر الخاء ـ. وروى بعضهم (٢) عن ابن كثير: ﴿فقد كذبوكم بما يقولون﴾ ـ بالياء ـ. والقراءة المشهورة بالتاء. وقرأ حفص: ﴿فما تستطيعون﴾ ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء. وروي عن عليّ عليه السلام: ﴿ويمشون في الأسواق﴾ ـ بضمّ الياء، وفتح الشين المشدّدة ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من قرأ: ﴿يحشرهم﴾ بالياء: قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾. ومن قرأ: ﴿نحشرهم﴾ ـ بالنون ـ، ﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء، فعلى أنّه أفرد بعد أن جمع، كما أفرد بعد الجمع في قوله: ﴿آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾. وقراءة ابن عامر: ﴿ويوم نحشرهم﴾ ﴿فنقول﴾ حسن؛ لإجرائه المعطوف مجرى المعطوف عليه في لفظ الجمع. قال ابن جنّي: من قرأ: ﴿أن نُتخذ﴾ ـ بضم النون ـ فإنّ قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ في موضع الحال أي: ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك أولياء. ودخلت ﴿مِنْ﴾ زائدة؛ لمكان النفي، تقول: إتّخذت زيداً وكيلاً. فإن نفيت قلت: ما إتّخذت

---

(١) وضيقاً: بسكون الياء ابن كثير. وفي «أنتم» إجتمع همزتان، سهل الثانية بلا فصل ورش وابن كثير، ومع الفصل قالون وأبو عمرو. وعن هشام ثلاثة وجوه: التحقيق بلا فصل كساير القرّاء، والتسهيل كقالون والتحقيق مع الفصل. وأبدل الثانية من «هؤلاء أم» ياءً الحرميان وأبو عمرو.

(٢) هذا رواية ابن شنبور عن قنبل، وهو من الشواذّ، وإن روى عن أحد السبعة.

زيداً من وكيل. وكذلك أعطيته درهماً، وما أعطيته من درهم. وهذا في المفعول به.

وأمّا قراءة الجماعة: ﴿إن نتّخذَ من دونك من أولياء﴾ فإنّ قوله: ﴿من أولياء﴾ في موضع المفعول أي: أولياء، فهو كقولك: ضربت رجلاً، فإن نفيت قلت: ما ضربت من رجل. والمعنى في قوله: ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ﴾: لسنا ندَّعي إستحقاق الولاء، ولا العبادة لنا، والمعنى في قوله: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ بالتاء: كذَّبوكم في قولكم إنّهم شركاء، وإنّهم آلهة، وذلك في قولهم: ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيّانا يعبدون﴾.

ومن قرأ: ﴿بما يقولون﴾ ـ بالياء ـ، فالمعنى: فقد كذَّبوكم أي: ما كنتم تعبدون بقولهم. وقولهم هو نحو ما قالوه في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، وقوله: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. وقوله: ﴿فما يستطيعون﴾ ـ بالياء ـ، معناه: فما يستطيع الشركاء صرفاً ولا نصراً لكم. ومن قرأ: بالتاء، فمعناه: فما تستطيعون أنتم أيّها المتّخذون للشركاء من دونه صرفاً ولا نصراً. ومن قرأ: ﴿يُمشّون﴾ فمعناه: يدعون إلى المشي، ويحملهم حامل على المشي. وجاء على فعَّل لتكثير فعلهم؛ لأنّهم جماعة.

اللغة: السعير: النار الملتهبة، مأخوذة من إسعار النار: وهو شدّة إيقادها. أسعرتها إسعاراً، وسعَّرها الله تسعيراً. والتغيظ: الهيجان والغليان، ومنه: قيل لشدّة الغضب: الغيظ. ومقرّنين: مأخوذ من القرن، وهو الحبل يشدّ فيه بعيران أو أبعرة، ثمّ يستعمل في كل مجتمعين. والثبور: الهلاك. وثبرُ الرجل فهو مثبور: أهلك. قال ابن الزبعرى:

إذا أُجارِي الشَّيْطانَ فِي سَنَنِ الغَيِّ ... وَمَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ[1]

---

(١) مثبور أي: هالك وبور كذلك.

ويقال: ما ثبرك عن هذا الأمر أي: ما صرفك عنه، فكأنَّ المثبور ممنوع من كل خير حتى هلك، والبور: الهلكى، وهو جمع البايِر. وقيل: هو مصدر لا يثنى ولا يجمع، ولا يؤنّث، قال ابن الزبعرى:

يارَسُولَ المَلِيكِ! إنَّ لِساني راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ[1]

وأصل الباب من بارت السلعة تبور: إذا كسدت، فلا تشترى، فكأنّها بقيت وفسدت.

﴿الإعراب﴾: ﴿مَكَاناً﴾ ظرف لألقى. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: نصب؛ على الحال. ﴿ثُبُوراً﴾: مصدرفعل محذوف، تقديره: يثبر ثبوراً. ودعوا: هنا بمعنى: قالوا. وهنالك: يحتمل أن يكون ظرف زمان، وأن يكون ظرف مكان أي: دعوا في ذلك اليوم، أو في ذلك المكان. ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾: في موضع نصب؛ على الحال من «وُعد». وقد: مضمرة. وذو الحال الضمير المحذوف العائد من الصلة إلى الموصول.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ﴾: جملة أخرى في موضع الحال من قوله: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوف، تقديره: وما أرسلنا قبلك رسلاً. ويدلّ عليه قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾: «إنّ» مع إسمه وخبره مستثنى عن «الرسل» المحذوفة، تقديره: وما أرسلنا قبلك رسلاً إلّا هم يأكلون الطعام. وهذا كما يقال: ما قدم علينا أمير إلّا إنّه مكرّم لي، وليست كسرة «أنّ» لأجل اللام، فإنّ دخولها وخروجها واحد في هذا الموضع. وقيل: ما في الآية كقول الشاعر:

---

(١) قوله: راتق: مافتقت، أراد به أنّ ما هجا به المسلمين. ونظمه في أشعاره من الكفر سابقاً جبره بالتوبة والإسلام.

ما أعْطَانِي، وَلا سَألْتُهُما إلاّ وَإنّي لَحاجِزٌ كَرَمِي[١]

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه سوء اعتقادهم، وما أعدّه لهم على قبيح فعالهم ومقالهم، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي: ما كذّبوك؛ لأنّك تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق، بل لأنّهم لم يقرّوا بالبعث والنشور، والثواب والعقاب ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ أي: ناراً تتلظّى.

ثمّ وصف ذلك السعير، فقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من مسيرة مائة عام، ـ عن السدّي والكلبي ـ. وقال أبو عبد الله عليه السلام: من مسيرة سنة. ونسب الرؤية إلى النار، وإنّما يرونها هم؛ لأنّ ذلك أبلغ كأنّها تراهم رؤية الغضبان الذي يزفر غيظاً. وذلك قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ وتغيّظها: تقطعها عند شدّة إضطرابها. وزفيرها: صوتها عند شدّة إلتهابها، كإلتهاب الرجل المغتاظ. والتغيّظ لا يسمع، وإنّما يعلم بدلالة الحال عليه. وقيل: معناه: سمعوا لها صوت تغيظ وغليان. قال عبيد بن عمير: إنّ جهنّم لتزفر زفرة لا يبقى نبيّ، ولا ملك، إلّا خرّ لوجهه. وقيل: التغيّظ للنار، والزفير لأهلها، كأنّه يقول: رأوا للنار تغيّظاً، وسمعوا لأهلها زفيراً.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ معناه: وإذا ألقوا من النار في مكان ضيّق، يضيق عليهم، كما يقيض الزج في الرمح، ـ عن أكثر المفسّرين ـ. وفي الحديث قال عليه السلام في هذه الآية، والذي نفسي بيده! إنّهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي: مصفدين قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: قرنوا مع الشياطين في السلاسل والأغلال، ـ عن الجبائي ـ.

﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ أي: دعوا بالويل والهلاك على أنفسهم، كما يقول القائل: واثبوراه أي: واهلاكاه. وقيل: والنصرافاه عن طاعة الله!

---

(١) هي بالواو جملة حاليّة، فيكون إنّهم ليأكلون مثله بحذف الواو. وكرمي: فاعل «حاجز» وضمير التثنية لخليليه في البيت السابق. وإذ خليلاك: من بني الحكم، والشعر لكثير.

فتجيبهم الملائكة: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ أي: لا تدعوا ويلاً واحداً، وأدعوا ويلاً كثيراً أي: لا ينفعكم هذا، وإن كثر منكم. قال الزجّاج: معناه: هلاككم أكبر من أن تدعوا مرّة واحدة. ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿أَذَلِكَ﴾ يعني: ما ذكره من السعير ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ﴾ تلك الجنّة ﴿لَهُمْ جَزَاءً﴾ على أعمالهم ﴿وَمَصِيراً﴾ أي: مرجعاً ومستقراً.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ويشتهون من المنافع واللذّات ﴿خَالِدِينَ﴾ مؤبّدين لا يفنون فيها ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً﴾ قال ابن عباس: معناه: أنّ الله سبحانه وعد لهم الجزاء، فسألوه الوفاء، فوفى. وقيل: معناه: أنّ الملائكة سألوا الله تعالى ذلك لهم، فأجيبوا إلى مسألتهم، وذلك قولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾، عن محمّد بن كعب. وقيل: إنّهم سألوا الله تعالى في الدنيا الجنّة بالدعاء، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا، وأتاهم ما طلبوا.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: نجمعهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: عيسى وعزيزاً والملائكة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: يعني: الأصنام، ـ عن عكرمة والضحّاك ـ. ﴿فَيَقُولُ﴾ الله تعالى لهؤلاء المعبودين ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: طريق الجنّة والنجاة.

﴿قَالُوا﴾ يعني: المعبودين من الملائكة والإنس، أو الأصنام إذا أحياهم الله وأنطقهم ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك عن الشريك، وعن أن يكون معبود سواك ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ليس لنا أن نوالي أعداءك، بل أنت وليّنا من دونهم. وقيل: معناه: ما كان يجوز لنا وللعابدين، وما كان يحقّ لنا أن نأمر أحداً بأن يعبدنا، ولا يعبدك، فإنّا لو أمرناهم بذلك لكنّا والياهم، ونحن لا نوالي من يكفر بك. ومن قرأ: ﴿نتخذ﴾ فمعناه: ما كان يحقُّ لنا أن نعبد.

﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ معناه: ولكن طوّلت أعمارهم، وأعمار آبائهم، ومتعتهم بالأموال والأولاد بعد موت الرسل، حتى نسلوا الذكر

المنزل على الأنبياء، وتركوه ﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ أي: هلكى فاسدين. هذا تمام الحكاية عن قول المعبودين من دون الله. فيقول الله سبحانه عند تبرّؤ المعبودين من عبدتهم:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ أي: كذّبكم المعبودون أيّها المشركون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: بقولكم إنّهم آلهة شركاء لله. ومن قرأ بالياء، فالمعنى: فقد كذّبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ الآية.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً﴾ أي: فما يستطيع المعبودين صرف العذاب عنكم. ﴿وَلَا نَصْراً﴾ لكم بدفع العذاب عنكم. ومن قرأ بالتاء، فالمعنى: فما تستطيعون أيّها المتّخذون الشركاء صرف العذاب عن أنفسكم، ولا أن تنصروا أنفسكم بمنعها من العذاب. ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ نفسه بالشرك، وإرتكاب المعاصي ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَاباً كَبِيراً﴾ أي: شديداً عظيماً.

ثمّ رجع سبحانه إلى مخاطبة النبيّ ﷺ فقال: ﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمّد ﴿مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قال الزجّاج: وهذا إحتجاج عليهم في قوله ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ أي: فقل لهم كذلك كان من خلا من الرسل، فكيف يكون محمّد ﷺ بدعاً منهم.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: إمتحاناً وإبتلاء، وهو إفتتان الفقير بالغني، يقول: لو شاء الله لجعلني مثله غنيّاً، والأعمى بالبصير، يقول: لو شاء الله لجعلني مثله بصيراً، وكذلك السقيم بالصحيح، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هو إبتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش، كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين إتّبعوا محمّداً من موالينا ورذالنا. فقال الله لهؤلاء الفقراء: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أيّها الفقراء على الأذى والإستهزاء.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ إن: صبرتم فصبروا. فأنزل الله فيهم: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ ـ عن مقاتل ـ. وقيل: معناه: أتصبرون أيّها الفقراء على فقركم،

ولا تفعلون ما يؤدّي إلى مخالفتنا. أتصبرون أيّها الأغنياء فتشكرون، ولا تفعلون ما يؤدّي إلى مخالفتنا. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي: عليماً فيغني من أوجبت الحكمة إغناءه، ويفقر من أوجبت الحكمة إفقاره. وقيل: بصيراً بمن يصبر، وبمن يجزع، ـ عن ابن جريج ـ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل الكوفة وأبو عمرو: ﴿تشقق﴾ ـ خفيفة الشين هيهنا، وفي

---

(١) فتح الياء من «ليتني إتّخذت» أبو عمرو. وأظهر ذال «إتّخذت» حفص وابن كثير. وأدغم «إذ جائني» أبو عمرو وهشام. وفتح ياء «قومي إتّخذوا» نافع والبزي وأبو عمرو.

سورة ق ـ. والباقون: ﴿تشّقق﴾ ـ مشددة الشين ـ. وقرأ ابن كثير: ﴿نُنزِل﴾ ـ بنونين خفيفة ـ، ﴿الملائكةَ﴾ ـ بالنصب ـ. والباقون: ﴿ونزَّلَ﴾ ـ بنون واحدة وتشديد الزاي وفتح اللام ـ، و ﴿الملائكةُ﴾ ـ بالرفع ـ.

الحجة: تشقّق: أصله: تتشقّق، فأدغم التاء في الشين، والتخفيف أكثر في الكلام؛ لأنّ الحذف أخفّ عليهم من الإدغام. ومن قرأ: ﴿نُنزّل الملائكة تنزيلاً﴾: فإنَّ «أنزل» مثل: نَزَّلَ، ومثله: في التنزيل: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾. فجاء المصدر على فَعَّلَ. قال الشاعر:

وَقَدْ تَطَوَّيْتُ انطِواءَ الحضْب[1]

اللغة: الرجاء: ترقّب الخير الذي يقوّي في النفس وقوعه، ومثله: الطمع والأمل. واللقاء: المصير إلى الشيء من غير حائل. والعتوّ: الخروج إلى أفحش الظلم. وأصل الحِجر: الضيق، وسمّي الحرام حِجْراً؛ لضيقه بالنهي عنه. قال المتلمس:

حَنَّتْ إِلَى النَخْلَةِ الْقُصْوىٰ، فَقُلْتُ لَها حِجْرٌ حَرامٌ ألا تِلْكَ الدَّهارِيسُ[2]

ومنه: حِجرُ الكعبة؛ لأنّه لا يُدْخَل عليه في الطواف، وإنّما يطاف من ورائه لتضييقه بالنهي عنه. والحِجر: العقل؛ لما فيه من التضييق في القبيح. والهباء: غبار كالشعاع لا يمكن القبض عليه. وفلان: كناية عن واحد بعينه من الناس؛ لأنّه معرفة. وقال ابن دريد عن أبي حاتم عن العرب: إنّهم كنوا عن كل مذكر بفلان، وعن كل مؤنّثة بفلانة، فإذا كنوا عن البهائم، أدخلوا عليه الألف واللام، فقالوا:

---

(١) الحضب: بتقديم المهملة: الذكر من الحيّات. وتطوّت الحيّة، وإنطوت: تجمعت وإستدارت.

(٢) المتلمس خال طرفة، وصحيفة المتلمس مثل في العرب، والبيت من قصيدة قالها لما كان بالشام، وهدّده ملك العراق عمرو بن هند بالقتل ومال حرام عليه حب العراق. وفاعل «حنّت» القلوص أي: إشتاقت مطياتي أرض العراق، والنخلة القصوى فيها، وقلت لها هناك ألد هاريس أي: الدواهي.

الفلان والفلانة.

﴿الإعراب﴾: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلاَئِكَةَ﴾: العامل في ﴿يَوْمَ﴾ معنى قوله: ﴿لاَ بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنّه يدل على يحزنون، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: توكيد لـ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾. ولا يجوز أن يكون ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ منصوباً بـ﴿لاَ بُشْرَىٰ﴾، لأنّ ما يتّصل بلا لم يعمل فيما قبلها و ﴿حِجْراً﴾: منصوب؛ لأنّه مفعول ثان لفعل مقدّر، وهو: جعل الله عليكم الجنّة حِجراً محجوراً. ﴿أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ﴾: العامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾: العامل فيه محذوف، تقديره: واذكر يوم تشقّق. ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ﴾: يومئذ من صلة ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ الذي هو المصدر. و ﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفة له، والجارّ والمجرور الذي هو ﴿لِلرَّحْمٰنِ﴾: في موضع خبر المبتدأ الذي هو ﴿ٱلْمُلْكُ﴾. ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرفاً، وهو بدل من ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾، ويكون العالم فيهما الظرف الذي هو قوله: ﴿لِلرَّحْمٰنِ﴾ وإن تقدَّما عليه، و﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾: يجوز أن يكون العامل فيه: أذكر، ويجوز أن يكون و﴿يَقُولُ﴾: جملة في موضع الحال. ﴿يَالَيْتَنِي﴾: المنادى محذوف، وتقديره: يا صاحبي ليتني. و ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾: منادى مضاف، أصله: يا ويلتي تعالي، فإنّه وقتلك [وقتك]، فأبدل من الكسرة فتحة، ومن الياء ألفاً؛ لثقل الكسرة والياء، وخفّة الفتحة والألف.

﴿النّزول﴾: قال ابن عباس: نزل قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ في عقبة ابن أبي معيط، وأبيّ بن خلف، وكانا متخالين، وذلك أنّ عقبة كان لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاماً، فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة الرسول ﷺ فقدم من سفره ذات يوم، فصنع طعاماً، ودعا الناس، فدعا رسول الله ﷺ إلى طعامه. فلمّا قربوا الطعام قال رسول الله ﷺ: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلّا

الله، وأنّي رسول الله، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّداً رسول الله. وبلغ ذلك أبيّ بن خلف، فقال: صبأت يا عقبة؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل عليَّ رجل، فأبى أن يطعم من طعامي إلّا أن أشهد له، فإستحييت أن يخرج من بيتي، ولم يطعم، فشهدت له فطعم. فقال أبيّ: ما كنت براض عنك أبداً حتى تأتيه فتبزق في وجهه! ففعل ذلك عقبة، وإرتدَّ، وأخذ رحم دابّة فألقاها بين كتفيه. فقال النبيّ ﷺ: لا ألقاك خارجاً من مكّة إلّا علوت رأسك بالسيف. فضرب عنقه يوم بدر صبراً[١].

وأمّا أبيّ بن خلف، فقتله النبيّ ﷺ، يوم أحد بيده في المبارزة. وقال الضحّاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ، عاد بزاقه في وجهه، فأحرق خدَّيْه. وكان أثر ذلك فيه حتى مات. وقيل: نزلت في كل كافر، أو ظالم، تبع غيره في الكفر، أو الظلم، وترك متابعة أمر الله تعالى. وقال أبو عبد الله عليه السلام: ليس رجل من قريش إلّا وقد نزلت فيه آية، أو آيتان تقوده إلى جنّة، أو تسوقه إلى نار، تجري فيمن بعده إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرّاً فشرّاً.

المعنى: ثمّ حكى سبحانه عن حال الكفّار بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يأملون لقاء جزائنا. وهذا عبارة عن إنكارهم البعث والمعاد. وقيل: معناه: لا يخافون، فهي لغة تهامة. وهذيل يضعون الرجاء موضع الخوف إذا كان معه جحد؛ لأنّ من رجا شيئاً خاف فوته، فإنّه إذا لم يخف كان يقيناً. ومن خاف شيئاً رجا الخلاص منه. فوضع أحدهما موضع الآخر.

﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: هلّا أُنزل الملائكة ليخبرونا بأنّ محمّدا نبيٌّ ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بذلك، ويأمرنا بإتّباعه وتصديقه. قال الجبائي: وهذا يدلّ

---

[١] يقال للرجل إذا اشتدت يداه ورجلاه، أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه: قتل صبراً.

على أنّهم كانوا مُجَسِّمة، فلذلك جوّزوا الرؤية على الله[١].

ثمّ أقسم الله عزّ إسمه، فقال: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا﴾ بهذا القول ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: طلبوا الكبر والتجبّر بغير حقّ ﴿وَعَتَوْا﴾ بذلك أي: طغوا وعاندوا ﴿عُتُوّاً كَبِيراً﴾ أي: طغياناً وعناداً عظيماً، وتمرّدوا في ردّ أمر الله تعالى غاية التمرّد[٢].

ثمّ أعلم سبحانه أنّ الوقت الذي يرون فيه الملائكة، هو يوم القيامة، وأنّ الله تعالى قد حرمهم البشرى في ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا بشارة لهم بالجنّة والثواب. قال الزجّاج: والمجرمون الذين أجرموا الذنوب، وهم في هذا الموضع الذين إجترموا الكفر بالله، عزّوجلّ.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي: ويقول الملائكة لهم حراماً محرماً عليكم سماع البشرى، ـ عن قتادة والضحّاك ـ. وقيل: معناه: ويقول المجرمون للملائكة كما كانوا يقولون في الدنيا إذا لقوا من يخافون منه القتل حِجْراً محجوراً دماؤنا، ـ عن مجاهد وابن جريج ـ. قال الخليل: كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه

---

(١) حسّ البصر واللمس أضعف الحواسّ، لايدرك بهما الأجسام الشفافة، كالهوا والصغيرة، والذوق أقوى منهما؛ فإنّ الملح المذاب في الماء لا يدرك بالبصر، ويدرك بالذوق. والشمّ أعلى منها جميعاً؛ إذ يدرك من ذرّات الأجسام المنبثّة في الهواء، منتناً أو عطراً ما لا يدرك بالذوق، وأجلاف الناس وأرذالهم يظنّون اللمس والبصر أصحّ الإدراكات، ويظنّون أنّ الحقّ الصحيح مايدرك بإحدي هاتين الحاستين الضعيفتين، فسؤالهم نظير أن ينكر فاقد حاسّة الشمّ الارواح الطيّبة، حتى يبصرها بعينه.

(٢) وإعلم أنّ كتاب المصاحف إتّفقوا على عدم كتابة الألف بعد واو الجمع في ستّ كلمات: جاؤ، فاؤ، باؤ، عتو هنا، سعو في آياتنا بسبأ، الذين تبوّا لدار بالحشر، ونقل في فصل الخطاب عن الراغب في المحاضرات: كان القوم الذين كتبوا المصحف لم يكونوا قد حذفوا الكتابة، فلذلك وضعت أحرف على غير مايجب أن يكون عليه، إنتهى. أقول: وهذا لاينافي القول بوجوب حفظ ما أخطاؤا فيه من الكتابة، نظير ما لو كان البناء غير حاذق في بناء جدار وجب حفظه بعد الوقف، ولا ينظر الى عدم حذق البناء.

القتل في الجاهليّة في الأشهر الحرم، فيقول: حجراً محجورا أي: حرام عليك حرمتي في هذا الشهر، فلا يُبدأه بشرٍّ فإذا كان يوم القيامة رأوا الملائكة، فقالوا ذلك، ظنّاً منهم أنه ينفعهم، وقيل: معناه: يقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنّة إلّا من قال لا إله إلّا الله، ـ عن عطا، عن ابن عباس ـ. وقيل: يقولون حجراً محجوراً عليكم أن تتعوّذوا فلا معاذ لكم ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: قصدنا وعمدنا، كما في قول الشاعر:

وَقَدِمَ الْخَوَارِجُ الضُّلاَّلُ إلى عِبادِ رَبِّهِمْ فَقالُوا:

إِنَّ دِماءَكُمْ لَنا حَلالٌ

وفي هذا بلاغة عجيبة؛ لأنّ التقدير: قصدنا إليه قصد القادم على ما يكرهه ممّا لم يكن رآه قبل، فيغيّره. وأراد به العمل الذي عمله الكفّار في الدنيا، ممّا رجوا به النفع والأجر، وطلبوا به الثواب والبرّ، نحو إنصافهم لمن يعاملهم، ونصرهم للمظلوم، وإعتاقهم وصدقاتهم، وما كانوا يتقرَّبون به إلى الأصنام.

﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ وهو الغبار يدخل الكوة من شعاع الشمس، ـ عن الحسن ومجاهد وعكرمة ـ. وقيل: هو رهج الدوابّ[1]، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: هو ما تسفيه الرياح، وتذريه من التراب، ـ عن قتادة وسعيد بن جبير ـ. وقيل: هو الماء المهراق، ـ عن ابن عباس ـ. والمنثور: المتفرّق، وهذا مثل. والمعنى: تذهب أعمالهم باطلاً، فلم ينتفعوا بها من حيث عملوها لغير الله.

ثمّ ذكر سبحانه فضل أهل الجنّة على أهل النار، فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً﴾ أي: أفضل منزلاً في الجنّة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ أي: موضع قائلة. قال الأزهري: القيلولة عند العرب الإستراحة نصف

---

[1] رهج الدواب هو الغبار الذي تثيره.

النهار إذا إشتدَّ الحرّ، وإن لم يكن مع ذلك نوم، والدليل على ذلك أنّ الجنّة لا نوم فيها. وقال ابن عباس، وابن مسعود: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار. قال البلخي: معنى خير وأحسن هنا أنه في نفسه، لا بمعنى أنّه أفعل من غيره، كما في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: هو هيّن عليه. وكما يقال: الله أكبر، لا بمعنى أنّه أكبر من شيء غيره.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ عطف على قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ المعنى: تتشقّق السماء، وعليها غمام، كما يقال: ركب الأمير بسلاحه، وخرج بثيابه أي: وعليه سلاحه وثيابه، عن أبي عليّ الفارسيّ. وقيل: تتشقّق السماء عن الغمام الأبيض، ـ عن الفرّاء ـ. وإنّما تتشقّق السماء لنزول الملائكة، وهو قوله: ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ وقال ابن عباس: تتشقّق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر ممّن في الأرض من الجنّ والإنس. ثمّ تتشقّق السماء الثانية، فينزل أهلها، وهم أكثر ممّن فيالسماء الدنيا من الإنس والجنّ، ثمّ كذلك، حتى تتشقّق السماء السابعة، وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ﴾ أي: الملك الذي هو الملك حقّاً، ملك الرحمن يوم القيامة، ويزول ملك سائر الملوك فيه. وقيل: إنّ الملك ثلاثة أضرب: ملك عظمة، وهو لله تعالى وحده، وملك ديانة، وهو بتمليك الله تعالى، وملك جبريّة، وهو بالغلبة.

﴿وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ أعسر عليهم ذلك اليوم؛ لشدّته ومشقّته، ويهون على المؤمنين كأدنى صلاة صلّوها في دار الدنيا. وفي هذا بشارة للمؤمنين حيث خصَّ بشدّة ذلك اليوم الكافرين.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ندماً وأسفاً. وقيل: هو عقبة ابن أبي معيط ابن أُمية بن عبد شمس، على ما مضى ذكره، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو عام في

كل ظالم نادم يوم القيامة، وكل خليل يخالّه غيره في غير ذات الله. قال عطاء: يأكل يديه حتى تذهبا إلى المرفقين، ثمّ تنبتان ولا يزال هكذا، كلّما نبتت يده أكلها ندامة على ما فعل.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ أي: ليتني إتّبعت محمّداً ﷺ، وإتّخذت معه سبيلاً إلى الهدى ﴿يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً﴾ يعني: أُبَيّاً ﴿خَلِيلاً﴾ وقيل: أراد به: الشيطان، ـ عن مجاهد ـ. وإن قلنا: إنّ المراد بالظالم هنا جنس الظلمة، فالمراد به: كل خليل يضلُّ به عن الدين. ولو قال: لمّا إتّخذ فرعون وهامان وإبليس وجميع المضلّين لطال، فقال: فلاناً، حتى يتناول كل خليل مضلّ عن الدين.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي﴾ أي: صرفني وردّني ﴿عَنْ الذِّكْرِ﴾ أي: عن القرآن والإيمان به ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ مع الرسول، وتمَّ الكلام هنا. ثمّ قال الله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾؛ لأنّه يتبرّأ منه في الآخرة، ويسلمه إلى الهلاك، ولا يغني عنه شيئاً ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ يعني: محمّداً ﷺ، يشكو قومه ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ يعني: هجروا القرآن، وهجروني وكذّبوني، ـ عن ابن عباس ـ. والمعنى: جعلوه متروكاً لا يسمعونه، ولا يتفهّمونه. وقيل: إنّ قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ معناه: ويقول كما في قول الشاعر:

مِثْلُ الْعَصَافِيرِ أحْلاماً وَمَقْدُرَةً ... لَوْيُوزَنُونَ بِزِفِ الرِّيشِ مَا وَزَنُوا[١]

أي: ما يزنون.

---

[١] قائله: قعنب بن أم صاحب. الزفّ: صغار الريش. وبعده:

جهلاً علينا وجُبناً عن عدوّهم ... لَبِئست الخلّتان الجهلُ والجُبنُ

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً
وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ
ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ
كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ (١)

القراءة: في الشواذّ، قراءة مسلم بن محارب ﴿فَدَمِّرَانِّهِمْ تدميراً﴾ على التأكيد بالنون الثقيلة. وروي ذلك عن عليّ عليه السلام وعنه: ﴿فَدَمِّرَاهُمْ﴾ وهذا كأنّه أمر

---

(١) قرأ «ثموداً» بالتنوين؛ «مصروفاً» جميع السبعة إلّا حفصاً وحمزة، فتركوا التنوين؛ للعلميّة والتأنيث، بإعتبار القبيلة. والألف مكتوبة بعد الدال إتّفاقاً، ويدلّ الهمزة الثانية من «مطر السوء أفلم» ياء محضة الحرميان وأبو عمرو.

لموسى وهارون أن يدمّراهم.

اللغة: العدو: المتباعد عن النصرة للبغضة، من عدا يعدو: إذا باعد خطوه، وعدا عليه: باعد خطوه للإيقاع به. وتعدى في فعله: إذا أبعد في الخروج عن الحقّ، ومنه: عدوتا الوادي؛ لأنهما بعداه ونهايتاه. والترتيل: التبيين في تثبّت وترسّل وثغر. رَتَل ورَتْل بفتح التاء وسكونها: إذا كان مفلجاً لا لصص[1] فيه. والتدمير: الإهلاك لأمر عجيب، ومنه: التنكيل. يقال: دمَّر على فلان: إذا هجم عليه بالمكروه. والرسّ: البئر التي لم تطوَ بحجارة ولا غيرها. والتتبير: الإهلاك. والإسم منه: التبار، ومنه: قيل التِبر: لِقطعِ الذهب.

الإعراب: قال الزجّاج: هادياً ونصيراً: منصوب على وجهين: أحدهما الحال أي: كفى ربّك في حال الهداية، والنصر. والآخر: أن يكون منصوباً على التمييز أي: كفى ربّك من الهداة والنصار. جملةً نصب؛ على الحال، معناه مجموعاً. و ﴿وَأَحْسَنُ﴾ مجرور بالعطف على ﴿الْحَقِّ﴾. ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: في موضع نصب؛ على الحال، وتقديره: يحشرون مكبوبين. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾: منصوب بفعل مضمر يفسّره هذا الظاهر، تقديره: أغرقنا قوم نوح. والعامل فيه [في] لما أغرقناهم. ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾ وما بعد ذلك: عطف على الهاء، والميم في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾. ويجوز أن يكون عطفاً على معنى: وأعتدنا للظالمين عذاباً. ويكون تقديره: وعدنا للظالمين بالعذاب، ووعدنا عاداً. ﴿وَكُلّاً﴾: منصوب بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره، والمعنى: وأنذرنا كلاً ضربنا له الأمثال وتبرّنا كلاً. ﴿مَطَرَ السَّوْءِ﴾: منصوب؛ لأنّه مصدر أمطرت تقديره: إمطار السوء.

المعنى: ثمّ عزّى الله سبحانه نبيّه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ

---

(١) أي: منفرج الثنايا. ولصص الأسنان: تقاربها.

﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: وكما جعلنا لك عدوّاً من مشركي قومك، جعلنا لكل نبيّ عدوّاً من كفّار قومه، ـ عن ابن عباس ـ. والمعنى في جعله إيّاهم عدوّاً لأنبيائه: أنّه تعالى أمر الأنبياء عليهم السلام أن يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، وترك ما ألفوه من دينهم، ودين آبائهم، وإلى ترك عبادة الأصنام وذمّها، وكانت هذه أسباباً داعية إلى العداوة، فإذا أمرهم بها فقد جعلهم عدوّاً لهم.

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ أي: حسبك بالله هادياً إلى الحقّ، وناصراً لأوليائه في الدنيا والآخرة على أعدائهم. وقيل: هادياً للأنبياء إلى التحرّز عن عداوة المجرمين بالإعتصام بحبله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ معناه: وقال الكفّار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة، كما أُنزلت التوراة والإنجيل والزبور جملة واحدة. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: نزّلناه كذلك متفرّقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: لنقوّي به قلبك فتزداد بصيرة، وذلك أنّه إذا كان يأتيه الوحي متجدّداً في كل حادثة، وكل أمر، كان ذلك أقوى لقلبه، وأزيد في بصيرته. وقيل: إنّما أُنزلت الكتب جملة واحدة؛ لأنّها نزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، فنزلت عليهم مكتوبة. والقرآن إنّما نُزّل على نبيّ أُميّ لا يكتب ولا يقرأ، ولذلك نزّل متفرّقاً، وأيضاً فإنّ في القرآن الناسخ والمنسوخ. وفيه ما هو جواب لمن سأله عن أُمور، وفيه ما هو إنكار لما كان. وفيه ما هو حكاية شيء جرى. فإقتضت الحكمة إنزاله متفرّقاً.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ أي: بيّناه تبييناً، ورسّلناه ترسيلاً، بعضه في أثر بعض، ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ. وقيل: فصّلناه تفصيلا، ـ عن السدّي ـ. وقيل: فرّقناه تفريقاً، ـ عن النخعي ـ. وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا ابن عباس! إذا قرأت القرآن فرتّله ترتيلاً. قال: وما الترتيل؟ قال: بيّنه تبييناً، ولا تنثره نثر الدقّل، ولا

تهذّه هذَّ الشعر[١]، قفوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب، ولا يكوننّ همُّ أحدكم آخر السورة.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: ولا يأتيك المشركون بمثل يضربونه لك في إبطال أمرك ومخاصمتك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي يبطله ويدحضه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ أي: وبأحسن تفسيراً ممّا أتوا به من المثل أي: بياناً وكشفاً.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ أي: يسحبون على وجوههم إلى النار، وهم كفّار مكّة، وذلك أنّهم قالوا لمحمد ﷺ وأصحابه: هم شرُّ خلق الله، فقال الله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ أي: منزلاً ومصيراً. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي: ديناً وطريقاً من المؤمنين. وروى أنس أنّ رجلاً قال: يا نبيّ الله! كيف يحشر الكافر على وجه يوم القيامة؟ قال: «إنَّ الذي أمشاه على رجليه، قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» أورده البخاري في الصحيح.

ثمّ ذكر سبحانه حديث الأنبياء وأممهم؛ تسلية للنبيّ، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾ أي: معيناً يعينه على تبليغ الرسالة، ويتحمّل عنه بعض أثقاله. ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: فرعون وقومه، وفي الكلام حذف أي: فذهبا إليهم، فلم يقبلوا منهما، وجحدوا نبوّتهما.

﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً بأمر فيه أعجوبة. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ أي: وأغرقنا قوم نوح بالطوفان، وهو مجيء السماء بماء منهمر، وتفجير الأرض عيوناً، حتى إلتقى الماء على أمر قد قدر. قال الزجّاج: من كذب نبيّاً فقد كذب بجميع الأنبياء.

---

[١] الدقل: رديء التمر ويابسه، وما ليس له إسم خاص، فتراه ليبسه ورداءته لايجتمع، ويكون منثوراً. والهذ: سرعة القراءة.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي: عبرة وعظة ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: هيّأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ سوى ما حلَّ بهم في الدنيا ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾ أي: وأهلكنا عاداً وثمود.

﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ وهو بئر رسوا فيها نبيّهم أي: ألقوه فيها، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: إنّهم كانوا أصحاب مواش، ولهم بئر يقعدون عليها، وكانوا يعبدون الأصنام. فبعث الله إليهم شعيباً، فكذّبوه فإنهار البئر، وانخسفت بهم الأرض، فهلكوا، ـ عن وهب ـ. وقيل: الرسّ: قرية باليمامة، يقال لها: فلج، قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله، ـ عن قتادة ـ. وقيل: كان لهم نبيّ يسمّى حنظلة، فقتلوه فأهلكوا، ـ عن سعيد بن جبير والكلبي ـ. وقيل: هم أصحاب رسّ. والرسّ: بئر بأنطاكية، قتلوا فيها حبيباً النجّار، فنسبوا إليها، ـ عن كعب ومقاتل ـ. وقيل: هم أصحاب الرسّ، كان نساؤهم سحاقات، ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ.

﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ أي: وأهلكنا أيضاً قروناً كثيراً بين عاد وأصحاب الرسّ على تكذيبهم. وقيل: بين نوح وأصحاب الرسّ. والقرن: سبعون سنة. وقيل: أربعون سنة، ـ عن إبراهيم ـ.

﴿وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: وكلاً بيّنا لهم أنَّ العذاب نازل بهم، إن لم يؤمنوا، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: معناه: بيّنا لهم الأحكام في الدين والدنيا. ﴿وَكُلاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ أي: كلاً أهلكنا إهلاكاً على تكذيبهم وجحودهم. قال الزجّاج: كل شيء كسرته وفتّته فقد تبرّته. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ يعني: كفّار مكّة ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: قرية قوم لوط أمطروا بالحجارة ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في أسفارهم إذا مرُّوا بها فيخافوا ويعتبروا ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ يعني: بل رأوها، وإنّما لم يعتبروا بها؛ لأنّهم كانوا لا يخافون البعث. وقيل: لا يأملون ثواباً. ولا يؤمنون بالنشأة الثانية، فركبوا المعاصي.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا
﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ
وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ
مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (١) ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ
مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ

---

(١) والطهور على وجوه: الأوّل: مبالغة في الطاهر. الثاني: الإسم لما يتطهّر به، كالوقود والسحور. والثالث: بمعني الطهارة: كقوله عليه السلام: لا صلاة إلّا بطهور، هذا بحسب اللغة. ولا يكون بمعني المطهر. قال الشاعر: عذب الثنايا ريقهنّ طهور. وأمّا بالوضع الثاني صار منقولاً لغوياً أو عرفياً بمعنى المطهر عند أصحابنا، والشافعي هكذا قال في كنز العرفان، وإستدلّ بالنقل عن بعض أهل اللغة والإستعمال قال صلى الله عليه وآله جعلت لي الأرض مسجد، وطهوراً أراد المطهّرية، ولو أراد الطاهريّة، لم يكن له مزّية، وقال: وقد سئل عن الوضوء بماء البحر، هو الطهور ماؤه، الحلّ ميتته، فالمطهريّة مراد، فيكون حقيقة، إنتهى. وما يقال من أنّ أصالة الحقيقة معتبرة في تعيين المراد، لا في كون اللفظ حقيقة في ما يعلم أنّه مراد، فكلام خال عن التحصيل. وطريقة أهل اللغة في كل لسان، على الإستشهاد بكلام البلغاء، واشعارهم في إثبات معاني الألفاظ.

لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾[١]

القراءة: قرأ البرجمي: ﴿نَسقيه﴾ ـ بفتح النون ـ. والباقون: ﴿نُسقيه﴾ ـ بضمّ النون ـ. وفي الشواذّ، قراءة الأعرج: ﴿من اتخذ الألاهَةَ هواه﴾. وقراءة ابن السميقع [السميفع]: ﴿الرياح بشرى﴾.

الحجة: قد مضى الفرق بين نَسقي ونُسقى، فيما تقدَّم. الألاهة: الشمس. وقيل: ألهة ـ بالضمّ ـ غير مصروفة. وأنشد:

تَرَوَّحْنا مِنَ اللَّـعْبَاءِ قَـصْراً وَأعْجَلْنَا الْاٰهَةَ أنْ تَـؤُبَا[٢]

ويروى: وأعجلنا الإلاهة. ومن قرأ: ﴿وألاهتكَ﴾[٣] فمعناه: وعبادتك. وقد يجوز أن يكون أراد هذه المعرفة، فأضافها إليه لعبادته لها، فيكون كـقولك: ويذرك وشمسك أي: والشمس التي تعبدها. ومن قـرأ: ﴿بشرى﴾: فـهو مـصدر وضع موضع الحال أي: مبشّرة كقولهم: هلمّ جرّاً أي: جارّاً، أو منجرّاً، ويأتـينك سعياً. وقد ذكرنا الإختلاف بين القرّاء فيه، وما لهم من الإحتجاج في كل وجه منه في سورة الأعراف، وذكرنا إختلافهم في ﴿ليذكروا﴾ في سورة بني إسرائيل.

اللغة: القبض: جمع الأجزاء المنبسطة. واليسير: السهل القريب. واليسير أيضاً: نقيض العسير. وأيسر الرجل: ملك من المال ما تتيسّر به الأمور عليه. وقيل:

---

(١) قرأ: «هزواً» ـ بالواو ـ حفص وضمّ الزاي. وقرأ حمزة بسكون الزاي والهمز وصلاً. وأمّا وقفاً فله وجهان: الوقف على رسم الخطّ، فيبدل الهمزة واواً، أو بنقل حركتها الى الزاي، وحذفها على أصله، فيصير «هزا» كهدي. وقرأ «الريح» ـ بالتوحيد ـ ابن كثير. ومرّ الإختلاف في «بشراً» بالأعراف، وفي «ليذكروا» في الأسراء.

(٢) تروّحنا: سرنا في الرواح. وقصر الظلام: إختلاطه. واللعباء: موضع. وأعجلنا الألاهة: أي سبقنا الشمس، وبلغنا المقصد قبل طلوع الشمس، وكان إبتداء سيرنا الليل.

(٣) في موضع آخر.

اليد اليسرى؛ لأنّه يتيسّر بها العمل مع اليمنى. وتياسر: أخذ في جهة اليد اليسرى. والسبات: قطع العمل، ومنه، سَبَت رأسه يسْبته سبتاً: إذا حلقه. ومنه: يوم السبت: وهو يوم قطع العمل. والنشر: خلاف الطيّ. وأناسي: جمع إنسان، جعلت الياء عوضاً عن النون، وقد قالوا أيضاً: أناسين. وقد يجوز أيضاً أن يكون جمع إنسي، فيكون مثل: كرسي وكراسي.

﴿الإعراب﴾: ﴿أَهٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً﴾: العائد من الصلة إلى الموصول محذوف؛ لطول الكلام أي: بعثه الله. ﴿رَسُولاً﴾: منصوب؛ على الحال من الهاء المحذوفة. و ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ إنْ مخفّفة، وإسمه محذوف، تقديره: إنّه كاد، وهو ضمير الأمر والشأن. واللام في ﴿لَيُضِلُّنَا﴾: لام التأكيد التي تقع في خبر «إنْ». ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: قال الزجّاج كيف: في محلّ النصب؛ على الحال من الضمير المستكن في «مَدَّ». والتقدير: أمبدعاً مدَّ الظلّ أم لا. ويجوز أن يكون في موضع المصدر، والتقدير: أي مدٍّ مَدَّ الظلّ. وقال الزجّاج: الأجود أن يكون: «ألم تر» من رؤية القلب، ويجوز أن يكون من رؤية العين. و ﴿بُشْراً﴾ نصب؛ على الحال في الوجوه كلّها من «الرياح»، والعامل فيه: ﴿أُرْسِلَ﴾. ﴿مِمَّا خَلَقْنَا﴾: الجارّ والمجرور في موضع نصب؛ على الحال.

﴿المعنى﴾: ثمّ حكى سبحانه عن الكفّار الذين وصفهم فيما تقدّم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ أي: وإذا شاهدوك يا محمّد ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ أي: ما يتّخذونك إلّا مهزوّاً به، والمعنى: أنّهم يستهزئون بك، ويستصغرونك، ويقولون على وجه السخريّة: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ أي: بعثه الله إلينا رسولاً ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ قال ابن عباس: معناه: لقد كاد يصرفنا عن عبادة آلهتنا، وتأويله: قد قارب أن يأخذ بنا في غير جهة عبادة آلهتنا، على وجه يؤدّي إلى هلاكنا، فإنّ الإضلال: الأخذ بالشيء إلى طريق الهلاك. ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾

أي: على عبادتها، لأزلّنا [لازالنا] عن ذلك. وحذف الجواب؛ لدلالة الكلام عليه.

فقال سبحانه متوعّداً لهم: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ الذي ينزل بهم في الآخرة عياناً ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي: من أخطأ طريقاً عن الهدى، أهم أم المؤمنون.

ثمّ عجَّب سبحانه نبيَّه ﷺ من نهاية جهلهم، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: من جعل إلٰهه ما يهواه، وهو غاية الجهل. وكان الرجل من المشركين يعبد الحجر والصنم، فإذا رأى أحسن منه، رمى به، وأخذ يعبد الآخر، ـ عن سعيد ابن جبير ـ. وقيل: معناه: أرأيت من ترك عبادة خالقه وإلٰهه، ثمّ هوى حجراً فعبده، ما حاله عندك، ـ عن عطاء، عن ابن عباس ـ. وقيل: من أطاع هواه وإتّبعه، فهو كالإلٰه له، وترك الحقّ، ـ عن القتيبي ـ.

﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ أي: أفأنت كفيل حافظ يحفظه من إتّباع هواه، وعبادة ما يهواه من دون الله أي: لست كذلك. وقيل: معناه: أتقدر أنت يا محمّد أن تهديه إذا لم يتدبَّر، ولم يتفكّر أي: لا تقدر على ذلك؛ لأنّ الوكيل هو الكافي للشيء، ولا يكون كذلك إلّا وهو قادر عليه.

ثمّ قال للنبيّ ﷺ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ يا محمّد ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ ما تقوله سماع طالب للإفهام ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما تقوله لهم، وتقرأ عليهم، وما يعاينونه من المعجزات والحجج أي: لا تظنّ ذلك ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: ما هم إلّا كالبهائم، التي تسمع النداء ولا تعقل ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ من الأنعام؛ لأنّهم مكّنوا من المعرفة، فلم يعرفوا. والأنعام لم يمكّنوا منها؛ ولأنّ الأنعام ألهمت منافعها ومضارّها، فهي لا تفعل ما يضرّها، وهؤلاء عرفوا طريق الهلاك والنجاة، وسعوا في هلاك أنفسهم، وتجنَّبوا سبيل نجاتهم، فهم أضلُّ منها.

ثمّ نبَّه سبحانه على النظر فيما يدلّ على وحدانيّته، وكمال قدرته، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَى﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد به سائر المكلّفين ﴿إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي: ألم تر إلى فعل ربّك، ثمّ حذف المضاف، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: معناه: ألم تعلم فيكون من رؤية القلب، ـ عن الزجّاج ـ. وذكر أنّ هذا على القلب، وتقديره: ألم تر إلى الظلّ كيف مدَّه ربّك، يعني: الظلّ من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ـ عن ابن عباس والضحّاك وسعيد بن جبير ـ. وجعله ممدوداً؛ لأنّه لا شمس معه، كما قيل في ظلّ الجنّة ممدوداً؛ إذ لم تكن معه الشمس. وقال أبو عبيدة: الظلّ: ما نسخته الشمس وهو بالغداة، والفيء: ما نسخ الشمس وهو بعد زوال الشمس. ويسمّى فيئاً؛ لأنّه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب. وقيل: مدّ الظلّ، من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوعها، فيكون الظلّ بالليل؛ لأنّه ظلّ الأرض[1]، ـ عن الجبائي والبلخي ـ.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ أي: مقيماً دائماً لا يزول، ولا تنسخه الشمس. يُقال: فلان يسكن بلد كذا: إذا أقام به. فهو مثل قول سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ الآية. في المعنى وفي هذا إشارة إلى أنّه قادر على تسكين الشمس، حتى يبقى الظلّ ممدوداً، بخلاف ما يقوله الفلاسفة[2].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الظلّ ﴿دَلِيلاً﴾ قال ابن عباس: تدلّ الشمس على الظلّ بمعنى: أنّه لولا الشمس، لما عرف الظلّ، ولولا النور، لما عرفت الظلمة، وكل الأشياء تعرف بأضدادها. وقيل: معناه: ثمّ جعلنا الشمس عليه دليلاً

---

(١) وظلّ الأرض: مخروط طويل يدور على الأرض بدوران الشمس، ويظهر جانب منه على وجه القمر، مدوّراً في الخسوفات.

(٢) أراد بذلك من يقول منهم بأنّ واجب الوجود مضطرّ في فعله، لا يقدر على غير مافعل، لامن قال بأنّه تعالى قادر على غير ما فعل، إلّا أنّه إختار ما هو الأوفق بالحكمة.

بإذهابها إيّاه عند مجيئها، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: لأنّ الظلّ يتبع الشمس في طوله وقصره[١]، كما يتبع السائر الدليل، فإذا إرتفعت الشمس قصر الظلّ، وإذا إنحطّت الشمس طال الظلّ. وقيل: إنَّ «على» هنا بمعنى «مع»، فالمعنى: ثمّ جعلنا الشمس مع الظلّ دليلاً على وحدانيّتنا.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ أي: قبضنا الظلّ بإرتفاع الشمس؛ لأنّ الشمس كلّما تعلو ينقص الظلّ، فجعل سبحانه ذلك قبضاً. وأخبر أنّ ذلك يسير، بمعنى أنّه سهل عليه، لا يعجزه. قال الكلبي: إذا طلعت الشمس قبض الله الظلّ قبضاً خفيّاً [خفيفاً]، والمعنى: ثمّ جمعنا أجزاء الظلّ المنبسط بتسليط الشمس عليه، حتى ننسخها شيئاً فشيئاً. وقيل: معناه: ثمّ قبضنا الظلّ بغروب الشمس إلينا أي: إلى الموضع الذي حكمنا بكون الظلّ فيه. قبضاً يسيراً أي: خفياً [خفيفاً]. وإنّما قيل ذلك؛ لأنّ الظلّ لا يذهب بغروب الشمس دفعة، بل يذهب جزءاً فجزءاً بحدوث الظلام. فكلّما حدث جزء من الظلام، نقص جزء من الظل.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ أي: غطاء ساتراً للأشياء بالظلام، كاللباس الذي يشتمل على لابسه. فالله سبحانه ألبسنا الليل، وغشانا به، لنسكن ونستريح من كدِّ الأعمال، كما قال في موضع آخر: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾. ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ أي: راحة لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم. قال الزجّاج: السبات: أن ينقطع عن الحركة، والروح في بدنه.

---

(١) لايخفى على من عرف شيئاً من النجوم، أنّ للظلّ شأناً كبيراً في حساب الليل والنهار، والاوقات، والشكل الظلّيّ من مستنبطات الملك الحكيم أبي نصر بن عراق سلطان خوارزم مبني أعمال كثيرة، ويستخرج من الظلّ دقائق عجيبة، ولذلك ذكره الله تعالى عند ذكر الليل والنهار.

﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ لإنتشار الروح باليقظة فيه، مأخوذ من نشور البعث. وقيل: لأنّ الناس ينتشرون فيه لطلب حوائجهم ومعايشهم، فيكون النشور هنا بمعنى التفرّق لإبتغاء الرزق، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ مضى الكلام فيه في سورة الأعراف.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ أي: طاهراً في نفسه، ومطهّراً لغيره، مزيلاً للأحداث والنجاسات[1]. ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ قد ماتت بالجدب، وأراد بالبلدة: البلد، أو المكان، فلذلك قال: ﴿مَيْتاً﴾ بالتذكير، والمعنى: لنحيي بالمطر بلدة ليس فيها نبت. قال ابن عباس: لنخرج به النبات والثمار ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً﴾ أي: ولنسقي من ذلك الماء أنعاماً جمة، أو نجعله سقياً لأنعام ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ أي: أناساً كثيرة.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ أي: صرّفنا المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾، يدور في جهات الأرض. وقيل: قسمناه بينهم، يعني: المطر، فلا يدوم على مكان فيهلك، ولا ينقطع عن مكان فيهلك. ويزيد لقوم، وينقص لآخرين على حسب المصلحة. ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتفكّروا، ويستدلّوا به على سعة مقدورنا، ولأنّه لا يستحقّ العبادة غيرنا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ أي: جحوداً لما عدّدناه من النعم وإنكاراً، فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: فأبوا إلّا كفوراً بالبعث والنشور.

---

(١) تبيّن ممّا ذكرنا صحّة قول المصنّف في معني الطهور، ولم يخرج منه إلّا ما غيّر أوصافه الثلاثة، أو كان أقلّ من كرّ، ولاقى النجاسة، ولو لم يكن الدليل على هذا الإستثناء، لقلنا بأنّه مطلقاً مطهّر.

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ
وَجَاهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ
الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾
وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ
خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

القراءة: قرأ حمزة والكسائي: ﴿لما يأمرنا﴾ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ بالتاء قال: إنّهم تلقوا أمر النبيّ ﷺ إيّاهم بالرد، وزادهم أمره إيّاهم بالسجود؛ نفوراً عمّا أمروا به. ومن قرأ بالياء، فالمعنى:

---

(١) في «شاء أن» همزتان، أسقط الأولى قالون والبزي وأبو عمرو. وقرأ ورش بتسهيل الثانية بين بين، وعن قنبل ثلاثة وجوه: الإسقاط كالبزي، والتسهيل كورش، أو إبدال الثانية ألفاً مع إشباع المدّ. والباقون: بالتحقيق.

أنسجد لما يأمرنا محمّد بالسجود، على وجه الإنكار منهم لذلك، ولا يكون أنسجد لما يأمرنا الرحمن بالسجود له؛ لأنّهم أنكروا الرحمن تعالى بقولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. وأقول: إذا جعلت «ما» بمعنى «الذي» على ما ذكره، فالتقدير: أنسجد لما يأمرنا بالسجود له، وترتيب الحذف فيه على الوجه الذي تقدَّم بيانه في قوله سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾. فلا وجه لإعادته. وإن جعلت «ما» مصدريّة، فإنّك لا تحتاج إلى حذف شيء، ويكون تقديره: أنسجد لأمرك، أو لأمره.

(اللغة): أصل المرج: الخلط. ومنه: أمر مريج أي: مختلط. وفي الحديث: «مرجت عهودهم» أي: إختلطت. مرجت الدابّة وأمرجتها: إذا خليتها ترعى. وعذب الماء عذوبة فهو عذب. والفرات: أعذب المياه. يقال: فرت الماء يفرت فروتة فهو فرات: إذا عذب. والملح الأجاج: الشديد الملوحة. والنسب: ما يرجع إلى ولادة قريبة. والصهر: خلطة تشبه القرابة. والمصاهرة في النكاح: المقاربة. وفي الحديث: «كان يؤسّس «مسجد قبا» فيصهر الحجر العظيم إلى بطنه» أي: يدنيه، يقال: صهره وأصهره.

(الإعراب): ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾: مبتدأ وخبر، في موضع نصب؛ على الحال، وكذلك قوله: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بالعطف عليه. وذو الحال: أحد البحرين. ﴿مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾: نصب؛ على الحال. ﴿مَن شَاءَ﴾: نصب على الإستثناء، والمستثنى منه: الكاف والميم في ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾. و ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾: في موضع نصب؛ بأنّه مفعول «شاء». ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: في موضع جرّ، تقديره: وتوكَّل على الحيّ الذي لا يموت، خالق السماوات والأرض. ويحتمل أن يكون في موضع نصب، أو رفع على المدح والثناء، على تقدير: أعني الذي خلق، أو هو الذي خلق. و ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: بالرفع القراءة. وورد عن بعضهم في الشواذّ بالجرّ، ففي الرفع وجوه:

أحدها: الإبتداء، وخبره: ﴿فَسْأَلْ بِهِ﴾ خبيراً، ـ عن الزجّاج ـ. وفيه نظر؛ لأنّ الفاء إنّما يجوز في خبر ما فيه الألف واللام، إذا جاز فيه معنى الشرط. ولا يصحّ ذلك هنا.

والثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هو الرحمن.

والثالث: أن يكون بدلاً من الضمير المستكن في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾.

والرابع: أن يكون فاعل «استوى». وأمّا الجرّ فعلى أن يكون صفة، وتقديره، وتوكّل على الحيّ الخالق الرحمن. و ﴿نُفُوراً﴾: مفعول ثان لزاد.

المعنى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ ينذرهم، ولكن بعثناك يا محمّد إلى القرى كلها رسولا؛ لعظيم منزلتك لدينا. والنذير: هو الداعي إلى ما يؤمن معه الخوف من العقاب. وقيل: إنّه إخبار عن قدرته سبحانه، والمعنى: لو شئنا لقسمنا بينهم النذر، كما قسمنا الأمطار بينهم، ولكنّا نفعل ما هو الأصلح لهم، والأعود عليهم في دينهم ودنياهم، فبعثناك إليهم كافّة. ﴿فَلَا تُطِعْ ٱلْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من المداهنة والإجابة إليه ما يريدون.

﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾ في الله ﴿بِهِ﴾ أي: بالقرآن ـ عن ابن عباس ـ. ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾ أي: تامّاً شديداً. وفي هذا دلالة على أنّ من أجلّ الجهاد وأعظمه منزلة عند الله سبحانه، جهاد المتكلّمين في حلّ شُبه المبطلين، وأعداء الدين. ويمكن أن يتأوّل عليه قوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسلهما في مجاريها وخلاهما كما يرسل الخيل في المرج، وهما يلتقيان فلا يختلط الملح بالعذب، ولا العذب بالملح، وهو قوله: ﴿هَٰذَا﴾ يعني: أحد البحرين ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: طيّب شديد الطيب ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة. وقيل: الفرات: البارد، والأجاج: الحارّ. وقيل: الأجاج: المُرّ، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ أي: حجاباً وحاجزاً من قدرة الله تعالى يمنعهما من الإختلاط. ﴿وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي: حراماً محرماً أن يفسد الملح العذب ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَراً﴾ أي: خلق من النطفة إنساناً. وقيل: أراد به آدم عليه السلام، فإنّه خلق من التراب الذي خلق من الماء. وقيل: أراد به أولاد آدم، فإنّهم المخلوقون من الماء.

﴿فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ أي: فجعله ذا نسب وصهر. والصهر: حرمة الختونة. وقيل: النسب: الذي لا يحلّ نكاحه، والصهر: النسب الذي يحلّ نكاحه، كبنات العمّ والخال، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: النسب: سبعة أصناف، والصهر: خمسة، ذكرهم الله في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، ـ عن قتادة، والضحّاك ـ. وقد تقدَّم بيانه في سورة النساء. وقيل: النسب: البنون. والصهر: البنات اللاتي يستفيد الإنسان بهنّ الاصهار، فكأنّه قال: فجعل منه البنين والبنات. وقال ابن سيرين. نزلت في النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ بن أبي طالب. زوَّج فاطمة عليها السلام عليّاً عليه السلام فهو ابنُ عمّه، وزوج إبنته، فكان نسباً وصهراً. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ أي: قادراً على ما أراد.

ثمّ أخبر سبحانه عن الكفّار، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ الظهير: العون والمعين أي: معيناً للشيطان على ربّه بالمعاصي، ـ عن الحسن ومجاهد ـ. وقال الزجّاج: لأنّه يتابع الشيطان، ويعاونه على معصية الله، فإنّ عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان. وقيل: ظهيراً أي: هيناً كالمطرح من قولهم: ظهر فلان بحاجته: إذا جعلها خلف ظهره، فلم يلتفت إليها، وإستهان بها. والظهير: بمعنى المظهور، وهو المتروك المستخفّ به. ومنه: قوله: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً﴾. والأوّل أوجه. وقالوا: عنى بالكافر: أبا جهل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمّد ﴿إِلَّا مُبَشِّراً﴾ بالجنّة ﴿وَنَذِيراً﴾ من النار. وقد

سبق معناه ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن وتبليغ الوحي ﴿مِنْ أَجْرٍ ﴾ تعطونيه ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ بإنفاقه ماله في طاعة الله، وإتّباع مرضاته، والمعنى: إنّي لا أسألكم لنفسي أجراً، ولكنّي لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله سبحانه، بل أرغب فيه، وأحثُّ عليه. وفي هذا تأكيد لصدقه؛ لأنّه له طلب على تبليغ الرسالة أجراً، لقالوا: إنّما يطلب أموالنا.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ أي: فوِّض أمورك إليه، فإنّه ينتقم لك ولو بعد حين، فإنّه الحيّ الذي لا يموت، فلن يفوته الإنتقام.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: احمده منزّهاً له عمّا لا يجوز عليه في صفاته، بأن تقول: الحمد لله ربّ العالمين، الحمد لله على نعمه وإحسانه، الذي لا يقدر عليه غيره. الحمد لله حمداً يكافىء نعمه في عظيم المنزلة، وعلوّ المرتبة. وما أشبه ذلك. وقيل: معناه: واعبده، وصلّ له شكراً منك له على نعمه.

﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ أي: عليماً فيحاسبهم، ويجازيهم بها. فحقيق بهم أن يخافوه، ويراقبوه ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين هذين الصنفين ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ قد سبق تفسيره في سورة الأعراف. ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ أختلف في تأويله، فقيل: إنَّ المعنى: فاسأل عنه خبيراً. والباء بمعنى «عن». والخبير هيهنا هو الله تعالى، ـ عن ابن جريج ـ. وأنشد في قيام «الباء» مقام «عن» قول علقمة بن عبدة:[1]

فَإِنْ تَسْأَلُوني بِالنِّساءِ فَإِنَّني ... خَبِيرٌ بِأدواءِ النِّساءِ طَبِيبُ

يُرِدْنَ ثَراءَ الْمالِ حَيثُ وَجَدْنَهُ ... وَشَرْخُ الشَّبابِ عِندَهُنَّ عَجِيبُ

إذا شابَ رَأسُ المَرْءِ، أوْ قَلَّ مالُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ فِي وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

---

(١) ويقال له علقمة الفحل من شعراء الجاهليّة، من قصيدة مدح بها الحارث بن أبي شمر الغساني، وكان أسرأخاه. وشرخ الشباب: أوّله.

وقوله الأخطل:

دَعِ الْـــمُعَمَّرَ لا تَسْأَلْ بِـمَصْرَعِهِ وَاسْأَلْ بمَصْقَلَةَ البَكْرِيِّ ما فَـعَلا[1]

وقيل: إنّ الخبير هنا محمّد ﷺ والمعنى: ليسأل كل منكم عن الله تعالى محمّداً فإنّه الخبير العارف به. قيل: إنّ الباء على أصلها، والمعنى: فإسأل بسؤالك أيّها الإنسان خبيراً يخبرك بالحقّ في صفته. ودلّ قوله: ﴿فَاسْأَلْ﴾ على السؤال، كما قالت العرب: «من كذب كان شرّاً له» أي: كان الكذب شرّاً له. ودلّ عليه كذب. وقد مرّ ذكر أمثاله. وقيل: إنّ الباء فيه مثل الباء في قولك: لقيت بفلان ليثاً: إذا وصفت شجاعته، ولقيت به غيثاً: إذا وصفت سماحته. والمعنى: أنّك إذا رأيته رأيت الشيء المشبّه به، والمعنى: فإسأله عنه فإنّه الخبير به. وروي أنّ اليهود حكوا عن إبتداء خلق الأشياء بخلاف ما أخبر الله تعالى عنه، فقال سبحانه: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ قال نفطويه: أي: سلني عنه، فإنّك تسأل بسؤالك خبيراً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ أي: وأيّ شيء الرحمن، والمعنى: إنّا لا نعرف الرحمن. قال الزجّاج: الرحمن: إسم من أسماء الله عزّ إسمه، مذكور في الكتب الأولى، ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله، فقيل لهم: إنّه من أسماء الله، ومعناه عند أهل اللغة: ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة؛ لأنّ «فعلان» من أبنية المبالغة، تقول: رجل ريان وعطشان، إذا كان في النهاية من الريّ والعطش، وفرحان وجذلان، إذا كان في النهاية من الفرح والجذل.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ مرّ تفسيره ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ أي: زادهم ذكر الرحمن تباعداً من الإيمان، ـ عن مقاتل ـ. والمعنى: أنّهم إزدادوا عند ذلك نفوراً

---

(١) مصقلة: إسم رجل، وكذا معمر، وكان أخطل رجلاً نصرانيّاً، إستخدمته بنو أميّة لهجو الأنصار، وبيان ما فازبه بنو أميّة من الدولة لإخضاع المسلمين لهم، ومنها هذا البيت.

عن الحقّ، وقبول قول النبيّ ﷺ.

النظم: وجه إتّصال الآية بما قبلها: أنّ فيها إخبار أنّه سبحانه أفرده بالإرسال مراعاة لحسن التدبير في تمييزه بالإكرام والإجلال؛ لعلمه بما فيه من الخلال الموجبة في الحكمة إرساله إلى الخلق على غاية الكمال. فعلى هذا يتعلّق بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾. ثمّ ذكر من التصريف للآيات بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ ما يدلُّ على وحدانيّته، وكمال قدرته. ثمّ عجب سبحانه من إعراضهم عن الآيات، مع وضوحها وظهورها، ومقابلتهم لنعمه بالكفران بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية. ثمّ بيَّن أنّه أراد بتصريف الآيات: الخير والإحسان بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ الآية. ثمّ بيَّن أنّه لا يسألهم عليه أجراً؛ لئلّا ينفروا عنه. ثمّ بيّن سبحانه أنّه كما لا يسألهم أجراً، إنّه يتوكّل عليه في أمره، ويفوّض إليه علم المصالح فيما كلّفه. ثمّ هدّد سبحانه عباده بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيراً﴾ فإنه إذا لم يذهب عليه ذنوبهم، لا يذهب عليه جزاؤهم.

تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا
﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ
هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟
لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير عاصم: ﴿سُرُجاً﴾ ـ بضمّتين من غير ألف ـ والباقون: ﴿سراجاً﴾. وقرأ حمزة وخلف: ﴿أن يَذكُرَ﴾ ـ خفيفاً ـ. والباقون: ﴿يَذَّكَّر﴾ ـ بتشديدتين ـ. وقرأ أهل المدينة وابن عامر: ﴿يُقتروا﴾ ـ بضمّ الياء ـ. وقرأ أهل الكوفة: بفتح الياء وضمّ التاء. وقرأ أهل البصرة وابن كثير: بفتح الياء وكسر التاء. وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب وسهل: ﴿يضعّفْ له العذاب﴾ ـ بالتشديد والجزم ـ، ﴿ويخلدْ﴾ بالجزم. وقرأ ابن عامر: ﴿يضعّفُ﴾ ـ بالتشديد والرفع ـ، ﴿ويخلدُ﴾ ـ بالرفع ـ. وقرأ أبو بكر: ﴿يضاعفُ﴾ ـ بالألف والرفع ـ، ﴿ويخلدُ﴾ ـ بالرفع ـ. وقرأ نافع وأبو عمرو وأهل الكوفة إلّا أبا بكر: ﴿يضاعفُ﴾ ـ بالألف والجزم ـ. ﴿ويخلدْ﴾ ـ بالجزم ـ. وقرأ ابن كثير وحفص: ﴿فيهِي مهاناً﴾ ـ بإشباع كسرة الهاء ـ، وذلك مذهب ابن كثير في جميع القرآن، ووافقه حفص في هذا الموضع فقط. وقرأ: ﴿يبْدل الله﴾ ـ بسكون الباء ـ البرجمي، عن أبي بكر مختلفاً عنه. والباقون: بالتشديد[1].

---

(١) قرأ حفص «فيهي» ـ بالإشباع ـ ولم يشبع إلّا في هذا الموضع، وهذا يدلّ على إعتمادهم على السماع. فإن قيل: كيف يضعّف بعض القراءات بمخالفة النحو والشذوذ؟ قلنا: نحن لا ←

الحجة: من قرأ: ﴿سراجاً﴾ فحجّته قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيها سِرَاجاً﴾. ومن قرأ: ﴿سرجاً﴾ فحجّته قوله: ﴿وَلَقد زَيَّنَّا ٱلسَّماءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ فشبّهت الكواكب بالمصابيح، كما شبّهت المصابيح بالكواكب في قوله: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾. وإنّما المصباح الزجاجة في المعنى: وقد سبق القول في «يذكر ويَذَّكَّرَ» فيما مضى. والإقتار: خلاف الإيسار. قال الشاعر:(١)

لَكُمْ مَسْجِدَ الله المَزورانِ والْحَصىٰ ... لَكُمْ قِبْصُهُ مِنْ بَيْنِ أَثْرىٰ وَأَقْتَرا

تقديره: من بين رجل أثرى، ورجل أقترا. فأقام الصفة مقام الموصوف. ومثله: في التنزيل: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾. قال أبو عليّ: يجوز أن يكون على قبيل «مردوا» مثل قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾. وأمّا قَتَر يَقْتِرُ ويَقْتُرُ فمثل: عكف يعكُف ويعكِف، وعرش يعرُش ويعرِش. فمن ضمَّ الياء، أراد لم يُقْتِروا [يفتقروا] في إنفاقهم؛ لأنّ المسرف مشرف على الإقتار [الإفتقار]. ومن فتح الياء، فالمعنى: لم يضيقوا في الإنفاق. ومن قرأ: يضاعفْ ـ بالجزم ـ: جعله بدلاً من الفعل الذي هو جزاء الشرط، وهو قوله: ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾. وذلك أنَّ تضعيف العذاب هو لقي جزاء الأثام في المعنى، ومثله: قول الشاعر:

إنْ يَجْبُنُوا، أو يَغْدِروا، أو يَبْخَلُوا، لا يَحْفِلُوا

يَغدُو عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

فغدوهم مرجلين في المعنى: ترك الإحتفال. وقد أبدل من الشرط، كما أبدل من الجزاء، وذلك في قول الشاعر:

← ندّعي العصمة في القراءة، ولا يبعد أن يتوهّم بعضهم وجهاً في النحو راجحاً، ولا يشكّ أنّه سمع هكذا، ومن يضعّفه أيضاً لا يقطع على بطلانه، ولا ريب أنّ قواعد النحو طريق كاشف عمّا صدر من المتكلّم، إن علم أنّه لا يتكلّم إلّا بالصحيح.

(١) وهو الكميت، يخاطب أهل البيت عليهم السلام. والمسجدان في مكّة ومدينة. والقبص: العدد الكثير، وأراد بالحصي: العدد، كأنّه قال لكم من العدد أكثره.

مَتى تَأتِنَا تُـلْمِمْ بِـنا فِـي دِيـارنا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً، ونَاراً تَأَجَّجا[١]

فأبدل «تلمم» من «تأتنا»؛ لأنّ الإلمام إتيان في المعنى. قال أبو عليّ: ومثل حذف الجزاء الذي هو مضاف في المعنى في قوله: ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ أي: جزاء أثام قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ المعنى: من جزاء ما كسبوا. وقال أبو عبيدة: ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ أي: عقوبة. وأنشد لمسافع الليثي:

جَزَى اللهُ ابنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أمْسىٰ عَـقُوقاً، والعُـقُوقُ لَـهُ أثـامٌ

قال: وابن عروة رجل من ليث، كان دلَّ عليهم ملكاً من غسان، فأغار عليهم. قال أبو عليّ: ويمكن أن يكون هذا من قول بشر:

فَكان مَـقامُنَا نَـدعو عَـلَيْهِم بِأسْفَلِ ذِي المَجازِلَهُ أثـامٌ[٢]

ومن رفع «يضاعفُ ويخلدُ» قطعه عمّا قبله، وإستأنف. وأمّا «يضاعف ويضعف» فهما في المعنى سواء، وكذلك يبدِّل ويبدل.

(اللغة): قال أبو عبيدة: الخلفة كل شيء بعد شيء الليل خلفة النهار، والنهار خلفة الليل؛ لأنّ أحدهما يخلف الآخر. قال زهير:

بِهَا العِينُ وَالآرامُ، يَـمشينَ خِـلفَةً وأطْلاؤُها يَنْهضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ[٣]

والهون: مصدر الهين في السكينة والوقار. والغرام: أشدّ العذاب، وهو اللازم الملحّ، ومنه: الغريم؛ لملازمته وإلحاحه. وفلان مغرم بالنساء أي: ملازم لهنّ، لا يصبر عنهنّ. قال بشر بن أبي حازم:

---

(١) يصف جودهم، وذكر تأجّجاً؛ بإعتبار الشهاب ونحوه.

(٢) يعني: كان محلّ إقامتنا بأسفل ذي المجاز، وهو موضع على فرسخ من عرفات، جزاؤهم حين كنّا ندعو عليهم.

(٣) العين: جمع عيناء، واسعة العين، أراد بها بقر الوحش. والآرام: جمع رأم، الظبي الأبيض. والأطلاء: جمع الطلا، ولد الظبية. والجثوم: القعود، يصف بريّة.

وَيَوْمُ النِّسارِ، ويَومُ الجِـفارِ كانا عَذاباً، وَكانا غَراماً[1]

وقال آخر:

إنْ يُـعاقِبْ يَكُـنْ غَـراماً، وَإنْ يُـعْطِ جَـزيلاً فَـإنَّهُ لا يُـبالي

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾: خبر المبتدأ الذي هو ﴿عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾. ويجوز أن يكون خبره: ﴿أولئك يجزون الغرفة﴾، ويكون ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ صفة «العباد». و ﴿هَوْناً﴾: في موضع الحال. و ﴿سَلاَماً﴾: نصب على المصدر، بفعل محذوف، وتقديره: فنسلّم [فنتسلّم] منكم سلاماً لا نجاهلكم، كأنّهم قالوا تسلّماً منكم. و ﴿مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾: منصوبان؛ على التميز، والمخصوص بالذمّ محذوف، وتقديره: ساءت مستقرّاً جهنّم. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً﴾ أي: كان الإنفاق ذا قوام بين الإسراف والإقتار. فقوله: ﴿بَيْنَ ذٰلِكَ﴾ تبيين لقوام. وإن شئت علّقته بنفس «كان». وإنْ شئت علّقته بخبر «كان» أي: ثابتاً بين ذلك، فيكون خبراً بعد خبر.

المعنى: ثمّ مدح سبحانه نفسه، بأن قال: ﴿تَبَارَكَ﴾ وقد مرّ معناه في أوّل السورة. ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ يريد منازل النجوم السبعة السيّارة التي هي: زحل، والمشتري، والمرّيخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر، وهي إثنا عشر برجاً: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. وقيل: هي النجوم الكبار، ـ عن الحسن ومجاهد وقتادة ـ. وسمّيت بروجاً؛ لظهورها.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً﴾ يعني: الشمس. ومن قرأ: ﴿سُرُجاً﴾ أراد: الشمس والكواكب معها. ﴿وَقَمَراً مُنِيراً﴾ أي: مضيئاً بالليل إذا لم تكن شمس ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل واحد منهما صاحبه فيما يحتاج أن

---

(١) يوم النسار ويوم الجفار: من الحروب المعروفة بينهم، وهما ماءان.

يعمل فيه. فمن فاته عمل الليل إستدركه بالنهار، ومن فاته عمل النهار إستدركه بالليل، وهو قوله لمن أراد أن يذكر، ـ عن عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن ـ. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تقضي صلاة النهار بالليل، وصلاة الليل بالنهار. وقيل: معناه: إنّه جعل كل واحد منهما مخالفاً لصاحبه، فجعل أحدهما أسود، والآخر أبيض، ـ عن مجاهد ـ.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتفكّر، ويستدلّ بذلك على أنَّ لهما مدبّراً ومصرّفاً لا يشبههما، ولا يشبهانه، فيوجّه العبادة إليه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ يقال: شكر يشكر شكراً وشكوراً أي: أراد شكر نعمة ربّه عليه فيهما. وعلى القول الأوّل، فمعناه: أو أراد النافلة بعد أداء الفريضة.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ يريد: أفاضل عباده. وهذه إضافة التخصيص والتشريف، كما يقال: إبني من يطيعني أي: إبني الذي أنا عنه راض، ويكون توبيخاً لأولاده الذين لا يطيعونه.

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ أي: بالسكينة والوقار والطاعة، غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبّرين، ولا مفسدين، ـ عن ابن عباس ومجاهد ـ. وقال أبو عبد الله عليه السلام: هو الرجل يمشي بسجيّته التي جبل عليها، لا يتكلّف ولا يتبختر. وقيل: معناه: حلماء علماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: أعفّاء أتقياء، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ بما يكرهونه أو يثقل عليهم ﴿قَالُوا﴾ في جوابه ﴿سَلَاماً﴾ أي: سداداً من القول لا يقابلونهم بمثل قولهم من الفحش، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: سلاماً أي: قولاً يسلمون فيه من الإثم، أو سلموا عليهم دليله قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾. وقال قتادة: كانوا لا يجاهلون أهل الجهل. وقال ابن عباس: لا يجهلون

مع من يجهل. قال الحسن: هذه صفة نهارهم إذا إنتشروا في الناس، وليلهم خير ليل، إذا خلوا فيما بينهم وبين ربّهم، يراوحون بين أطو[أطرا]افهم، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ قال الزجّاج: كل من أدركه الليل فقد بات، نام أو لم ينم، والمعنى: يبيتون لربّهم بالليل في الصلاة ساجدين وقائمين، طالبين لثواب ربّهم، فيكونون سُجّداً في مواضع السجود، وقياماً في مواضع القيام.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ أي: يدعون بهذا القول وغراماً أي: لا زماً مُلحّاً دائماً غير مفارق. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ أي: إنّ جهنّم بئس موضع قرار، وإقامة هي.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ وأختلف في معنى الإسراف، فقيل: هو النفقة في المعاصي، والإقتار: الإمساك عن حقّ الله تعالى، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ. وقيل: السرف: مجاوزة الحدّ في النفقة، والإقتار: التقصير عمّا لابدّ منه، ـ عن إبراهيم النخعي ـ. وروي عن معاذ، أنّه قال: سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «من أعطى في غير حقّ فقد أسرف، ومن منع من حق فقد قتر». وروي عن أمير المؤمنين، عليه أفضل الصلاة، أنّه قال: ليس في المأكول والمشروب سرف، وإن كثر.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ أي: وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار، لا إسرافاً يدخلون به في حدّ التبذير، ولا تضييقاً يصيرون به في حدّ المانع لما يجب. وهذا هو المحمود. والقوام من العيش: ما أقامك وأغناك. وقيل: القَوام ـ بالفتح ـ: وهو العدل والإستقامة، وبالكسر: ما يقوم به الأمر ويستقرّ، ـ عن ثعلب ـ. وقال أبو عبدالله عليه السلام: القوام: هو الوسط. وقال عليه السلام: أربعة لا يستجاب لهم دعوة: رجل فاتح فاه، جالس في بيته فيقول: يا ربّ أرزقني، فيقول له: ألم آمرك بالطلب. ورجل كانت له إمرأة يدعو عليها يقول: يا رب أرحني منها، فيقول: ألم أجعل

أمرها بيدك. ورجل كان له مال فأفسده، فيقول: يا ربّ أرزقني فيقول: ألم آمرك بالإقتصاد. ورجل كان له مال، فأدانه بغير بيّنة، فيقول: ألم آمرك بالشهادة.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ أي: لا يجعلون لله سبحانه شريكاً، بل يوجّهون عبادتهم إليه وحده. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ أي: حرَّم الله قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. والنفس المحرم قتلها نفس المسلم والمعاهد. والمستثناة قتلها نفس الحربيّ. ومن يجب قتلها على وجه القود والإرتداد، أو للزنا بعد الإحصان، وللسعي في الأرض بالفساد.

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ والزنا هو الفجور بالمرأة في الفرج. وفي هذا دلالة على أنّ أعظم الذنوب بعد الشرك، القتل والزنا. وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما بالإسناد عن عبدالله بن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أيّ الذنب أعظم؟ قال: أَنْ تجعل لله ندّاً، وهو خلقك. قال، قلت: ثمّ أيّ؟ قال: أنْ تقتل ولدك؛ مخافة أن يطعم معك. قال، قلت: ثمّ أيّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ الآية.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ قال مقاتل: هذه الخصال جميعاً ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ أي: عقوبة وجزاء لما فعل. قال الفرّاء: أثمه الله يأثمه إثماً وأثاماً أي: جازاه جزاء الإثم. وقال الشاعر:[١]

وَهَلْ يأثُمَنِّي اللهُ في أن ذَكَرْتُها ... وَعَلَّلْتُ أَصْحابِي بِها لَيْلَةَ النَّفْرِ (١)

وقيل: إنَّ أثاماً إسم واد في جهنّم، عن عبدالله بن عمر وقتادة ومجاهد وعكرمة.

---

(١) ليلة النفر: ليلة الخروج من منى الى مكّة. والإستفهام إنكار أي: لا يأخذني الله سبحانه بالإثم ان ذكرتها، وكان كلامي مع صحبي في جمالها.

[١] قائله: صعيب بن الأسود.

ثمّ فسّر سبحانه لقي الأثام بقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يريد سبحانه مضاعفة أَجزاء العذاب، لا مضاعفة الإستحقاق؛ لأنّه تعالى لا يجوز أن يعاقب بأكثر من الإستحقاق؛ لأنّ ذلك ظلم، وهو منفي عنه. وقيل: معناه: أنّه يستحقّ على كل معصية منها عقوبة، فيضاعف عليه العقاب. وقيل: المضاعفة: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ أي: ويدوم في العذاب مستحقّاً [مستخفّاً] به. وإنّما قال ذلك؛ لأنّه عزّ إسمه، قد يوصل الآلام إلى بعض المكلّفين، لا على وجه الإستخفاف والإهانة. فبيّن أنّه يوصل العقاب إليهم على وجه الإهانة.

ثمّ إستثنى من جملتهم التائب بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال قتادة: إلّا من تاب من ذنبه، وآمن بربّه، وعمل عملاً صالحاً فيما بينه وبين ربه. قال: والتبديل في الدنيا طاعة الله بعد عصيانه، وذكر الله بعد نسيانه، والخير يعمله بعد الشرّ. وقيل: يبدّلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام بالشرك إيماناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفّة وإحصاناً، ـ عن ابن عباس ومجاهد والسدّي ـ. وقيل: إنّ معناه: أن يمحو السيّئة عن العبد، ويثبت له بدلها الحسنة، ـ عن سعيد بن المسيّب، ومكحول، وعمرو بن ميمون ـ. وإحتجّوا بالحديث الذي رواه مسلم في الصحيح مرفوعاً إلى أبي ذرّ، قال: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ونحّوا عنه كبارها. فيقال: عملت يوم كذا كذا، وكذا وكذا، وهو مقرٌّ لا ينكر، وهو مشفق من الكبائر، فيقال: أَعطوه مكان كل سيّئة عملها حسنة، فيقول: إنَّ لي ذنوباً ما أراها هيهنا؟ قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً﴾ أي: ساتراً لمعاصي عباده ﴿رَحِيماً﴾ أي: منعماً عليهم

بالرحمة، والفضل.

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا
﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ
مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى
لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

القراءة: قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة غير حفص: ﴿وذريتنا﴾. والباقون: ﴿ذرياتنا﴾ ـ على الجمع ـ. وقرأ ﴿يَلقون﴾ ـ بفتح الياء والتخفيف ـ أهل الكوفة غير حفص. والباقون: ﴿يُلقّون﴾ ـ بضمّ الياء والتشديد ـ. وفي قراءة أهل البيت عليهم السلام: ﴿واجعل لنا من المتقين إماماً﴾. والقراءة المشهورة: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ وفي قراءة ابن عباس وابن الزبير: ﴿فقد كذب الكافرون﴾.

الحجة: قال أبو عليّ: الذرّيّة تكون واحدة، وتكون جمعاً. فمن قرأ:

---

(١) يعبؤا: مكتوب بواو بعده ألف، فإن وقف حمزة على الرسم المكتوب أبدلها واواً، وإن وقف على القياس أبدلها ألفاً، أو يسهّلها، كالواو على الروم، وفي القرآن عشر كلمات مرسومة بالواو، هذه أحدها.

﴿وذرّيتنا﴾ ـ على الإفراد ـ فإنّه أراد به: الجمع، فاستغنى عن جمعه، لما كان جمعاً. ومن جمع فكما يجمع هذه الأسماء التي تدلّ على الجمع، نحو: قوم وأقوام. وجاء في الحديث: «صواحبات يوسف». وحجّة من قرأ: ﴿ويُلَقّون﴾ قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾. وحجّة من خفّف: ﴿فسوف يلقون غياً﴾. ومن قرأ: ﴿فقد كذب الكافرون﴾ ترك لفظ الحضور إلى الغيبة، ألاترى أنَّ قبله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾.

اللغة: القُرَّة: مصدر. يقال: قرَّت عينه قرّة. ويكون من القرور، وهو برد العين عند السرور. ويكون أيضاً من إستقرارها عند السرور. وقوله: إماماً: مصدر، من أمّ فلان فلاناً إماماً، كما قيل: قام قياماً، وصام صياماً. ولذلك وحده هنا من جمع إماماً، فقال: أئمّة؛ فلأنّه قد كثر في معنى الصفة. وقيل: إنّه إنّما وحَّد؛ لأنّه جاء على الجواب، كقول القائل: من أميركم؟ فيقول المجيب: هؤلاء أميرنا. قال الشاعر:

يا عاذِلاتي! لاتُرِدْنَ مَلامَتِي ... إنَّ العَواذِلَ لَيْسَ لي بِأميرِ[1]

وقيل: إنّما وحّد؛ لأنّ المعنى: واجعل كل واحد منّا إماماً، فأجمل. فالمعنى معنى التفصيل. وقال الزجّاج: تأويل ﴿مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ﴾: أي: وزن يكون لكم عنده، كما يقال: ما عبأت بفلان أي: ما كان له عندي وزن ولا قدر. وأصل العبء في اللغة: الثقل. وقيل: أصله من تهيئة الشيء، يقال: عبئت الطيب أعبؤه عباء: إذا هيّأته. قال الشاعر يصف أسداً:

كَأنَّ بِنَحرِهِ، وبِمِنْكَبَيْهِ ... عَبيراً، باتَ تَعْبَأُهُ عَرُوسُ[2]

أي: تهيئه. وعبأت الجيش ـ بالتشديد والتخفيف ـ: إذا هيّأته. وما أعبؤ به

---

(١) والشاهد في كون «أمير» مفرداً، مع أنّ «العواذل» جمع.

(٢) العبير: أراد به الزعفران، يصف صفرة لون الاسد.

أي: لا أهيّء به أمراً.

المعنى: ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ أي: أقلع عن معاصيه، وندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً﴾ أي: يرجع إليه مرجعاً عظيماً جميلاً. وفرَّق عليّ بن عيسى بين التوبة إلى الله، والتوبة من القبيح لقبحه: بأنَّ التوبة إلى الله تقتضي طلب ثوابه، وليس كذلك التوبة من القبيح لقبحه. فعلى هذا يكون المعنى: من عزم على التوبة من المعاصي، فإنّه ينبغي أن يوجّه توبته إلى الله، بالقصد إلى طلب جزائه ورضاه عنه، فإنّه يرجع إلى الله فيكافيه. وقيل: معناه: من تاب وعمل صالحاً، فقد إنقطع إلى الله، فاعرفوا ذلك له. فإنّ من إنقطع إلى خدمة بعض الملوك، فقد أحرز شرفاً، فكيف المنقطع إلى الله سبحانه.

ثمّ عاد سبحانه إلى وصف عباده المخلصين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون مجالس الباطل، ويدخل فيه مجالس الغناء والفحش والخناء. وقيل: الزور الشرك، ـ عن الضحّاك ـ. قال الزجّاج: الزور في اللغة: الكذب، ولا كذب فوق الشرك بالله. وقيل: الزور: أعياد أهل الذمّة، كالشعانين[1] [كالسعانين] وغيرها، ـ عن محمّد بن سيرين ـ. وقيل: هو الغناء، ـ عن مجاهد، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: يعني شهادة الزور، ـ عن عليّ بن أبي طلحة ـ. فيكون المراد: أنّهم لا يشهدون شهادة الزور. فحذف المضاف. وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم[1] وجهه، ويطوف به في السوق. وأصل الزور: تمويه الباطل بما يوهم أنّه حق.

---

(١) أي: يسود.

[١] الشعانين: عيد معروف للنصارى قبل عيدهم الكبير بأسبوع، كما قاله ابن الأثير في (النهاية).

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ واللغو: المعاصي كلها، أي: مرّوا به مرّ الكرماء الذين لا يرضون باللغو؛ لأنّهم يجلون عن الدخول فيه، والإختلاط بأهله، ـ عن الحسن والكلبي ـ. والتقدير: إذا مرّوا بأهل اللغو أو ذوي اللغو، مرّوا منزّهين أنفسهم، معرضين عنهم، فلم يجاروهم [يجاوروهم] فيه، ولم يخوضوا معهم في ذلك. فهذه صفة الكرام، يقال: تكرم فلان عمّا يشينه: إذا تنزّه، وأكرام نفسه عنه. وقيل: مرورهم كراماً، هو أن يمرّوا بمن يسبّهم، فيصفحون عنه، وبمن يستعين بهم على حقّ، فيعينونه. وقيل: هو الذين إذا أرادوا ذكر الفرج، كنوا عنه، ـ عن أبي جعفر عليه السلام، ومجاهد ـ. وأصل اللغو: هو الفعل الذي لا فائدة فيه، ولهذا يقال للكلمة التي لا تفيد: لغو. وليس المراد به: القبيح؛ فإنّ فعل الساهي والنائم لغو، وليس بحسن ولا قبيح، إلّا ما يتعدّى إلى الغير على الخلاف فيه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ أي: إذا وعظوا بالقرآن، والأدلّة التي نصبها الله لهم، نظروا فيها، وتفكّروا في مقتضاها، ولم يقعوا عليها صمّاً، كأنّهم لم يسمعوها، وعمياناً كأنّهم لهم يروها، لكنّهم سمعوها وأبصروها، وإنتفعوا بها، وتدبّروا لها. قال الحسن: كم من قارىء يقرؤها، فخرَّ عليها أصمّ وأعمى. وقال الأخفش: لم يخرُّوا عليها أي: لم يقيموا. وقال ابن قتيبة: لم يتغافلوا عنها، كأنّهم صمٌّ لم يسمعوها، وعمي لم يروها.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: إجعل أزواجنا وذريّاتنا قرّة أعين، بأن نراهم يطيعون الله، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: أرزقنا من أزواجنا أولاداً، ومن ذرّيتنا أعقاباً، قرة أعين أي: أهل طاعة تقرُّبهم أعيننا في الدنيا بالصلاح، وفي الآخرة بالجنّة.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ أي: إجعلنا ممّن يقتدي بنا المتّقون طلبوا العزَّ بالتقوى لا بالدنيا. وقيل: معناه: إجعلنا نأتمّ بمن قبلنا حتى يأتّم بنا أي: يقتدي بنا

من بعدنا ـ عن مجاهد ـ. وعلى هذا فيجوز أن يكون اللام في اللفظ في «المتقين»، وفي المعنى في «نا»، والتقدير: واجعل المتّقين لنا إماماً. ومثله: قول الشاعر:

كَأَنَّنا رَعْنُ قُفٍّ يَرْفَعُ الآلا[1]

والتقدير: يرفعه الآل.

ثمّ أخبر سبحانه عمّن جمع هذه الأوصاف. فقال: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أي: يثابون الدرجة الرفيعة في الجنّة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على أمر ربّهم، وطاعة نبيّهم، وعلى مشاقّ الدنيا، وصعوبة التكليف. وقيل: هي غرف الزبرجد والدرّ والياقوت، ـ عن عطا ـ. والغرفة في الأصل: بناء فوق بناء. وقيل: الغرفة: إسم لأعلى منازل الجنّة وأفضلها، كما أنّها في الدنيا أعلى المساكن.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً﴾ أي: تتلقّاهم الملائكة فيها بالتحيّة، وهي كل قول يسرُّ به الإنسان، وبالسلام بشارة لهم بعظيم الثواب. وقيل: التحيّة: الملك العظيم، والسلام: جميع أنواع السلامة. وقيل: التحية: البقاء الدائم. وقال الكلبي: يُحَيّي بعضهم بعضاً بالسلام، ويرسل إليهم الربّ بالسلام.

﴿خَالِدِينَ﴾ أي: مقيمين ﴿فِيهَا﴾ من غير موت ولا زوال ﴿حَسُنَتْ﴾ الغرفة ﴿مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ أي: موضع قرار وإستقامة.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ أي: ما يصنع بكم ربّي، ـ عن مجاهد وابن زيد ـ. وقيل: ما يبالي بكم ربّي، ـ عن أبي عمرو بن العلاء ـ. وما لا يعبؤ به، فوجوده وعدمه سواء.

﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: لولا دعاؤه إيّاكم إلى الدين والإسلام، ـ عن ابن

---

(١) الرعن: أنف الجبل. والقفّ: ما إرتفع من الأرض. والآل: السراب، فإذا رؤي السراب يتخيّل للرائي أنّ الجبال والنخيل قد إرتفعت عن الأرض، فتقدير الكلام يرفعه الآل. وصدره: حتى لحقناهم تعدو فوارسنا، وقد مرّ.

عباس ـ. فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول، والمعنى: قل للمشركين، ما يفعل بكم ربّي أي: أيُّ نفع له فيكم، وأيُّ ضرر يعود إليه من عدمكم، وأيُّ قدر لكم عنه الله سبحانه حتى يدعوكم إلى الإيمان، لكن الواجب في الحكمة دعاؤكم إلى الدين، وإرسال الرسول، وقد فعل. وقيل: معناه: لولا عبادتكم له، وإيمانكم به، وتوحيدكم إيّاه، ـ عن الكلبي ومقاتل والزجّاج ـ. فيكون الدعاء بمعنى العبادة. وفي هذا دلالة على أنّ من لا يعبد الله، ولا يطيعه، فلا وزن له عند الله. وقيل: معناه: ما يعبؤ بعذابكم ربّي لولا دعاء بعضكم بعضاً إلى الشرك والشرّ، ـ عن البلخي ـ، ودليله: ﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ الآية. وقيل: معناه: لولا دعاؤكم له إذا مسَّكم ضرّ، أو أصابكم سوء، رغبة إليه، وخضوعاً له. وروى العياشي بإسناده عن يزيد [بريد] بن معاوية العجلي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: كثرة القراءة أفضل، أم كثرة الدعاء أفضل؟ قال: كثرة الدعاء أفضل، وقرأ هذه الآية. ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الخطاب لأهل مكّة أي: إنَّ الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يا معاشر الكفّار الرسول ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ أي: فسوف يكون عقابه لتكذيبكم إيّاه، لازماً لكم. قال صخر الغي:

فَإمّا يَنْجُوا مِنْ حَتفِ أرْضِي ... فَقَدْ لَقِيا حُتُوفَهُمَا لِزاماً[1]

أي: إنّه واقع لا محالة. قال الزجّاج: تأويله فسوف يكون تكذيبكم لزاماً يلزمكم، فلا تعطون التوبة، وتلزمكم به العقوبة. وقال أبو عبيدة، لزاماً فيصلا. وقيل في تفسير اللزام: إنّه القتل يوم بدر، ـ عن ابن مسعود، وأبيّ بن كعب ـ. وقيل: هو عذاب الآخرة. وقال أبو ذؤيب في اللزام:

فَفاجَأهُ بِعادِيَةٍ لِزامٍ ... كَما يَتَفَجَّرُ الحَوضُ اللَّقِيفُ[2]

فلزام: معناه: كثيرة يلزم بعضها بعضاً. ولقيف: متساقط متهدّم، وبالله التوفيق.

---

(١) يعني: إن نجيا من الموت في مكان الذي أنا فيه، فقد لقيا موتهما في مكان آخر.

(٢) أي: فاجاه مع جماعة يعدون على أرجلهم كثيرة عددهم، يصف حيشاً كثيفاً.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مكّيّة كلها، غير قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ﴾ الآيات إلى آخر السورة، فإنّها نزلت بالمدينة.

عَدَدُ آيِهَا: مائتان وسبع وعشرون آية كوفيّ وشاميّ، والمدنيّ الأوّل، وستّ في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: أربع آيات ﴿طسم﴾ كوفيّ، ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ غير الكوفي، ﴿مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ غير البصريّ، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ﴾ عراقيّ شاميّ، والمدنيّ الأوّل.

فَضْلُهَا: أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء، كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدّق بنوح عليه السلام وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم عليهم السلام، وبعدد من كذّب بعيسى عليه السلام، وصدّق بمحمّد ﷺ». وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت السورة التي يذكر فيها البقرة من الذكر الأوّل، وأعطيت طه وطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي يذكر فيها البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصلة نافلة». وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة، كان من أولياء الله، وفي جواره وكنفه، وأسكنه الله في جنّة عدن، وسط الجنّة، مع

النبيّين والمرسلين والوصيّين الراشدين، ولم يصبه في الدنيا بؤس أبداً، وأعطي في الآخرة من الأجر الجنّة، حتى يرضى، وفوق رضاه، وزوَّجه الله مائة حوراء من الحور العين.

تفسيرها: ذكر الله سبحانه في مختتم سورة الفرقان تكذيبهم بالكتاب، وذكر في مفتتح هذه السورة وصف الكتاب، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير الأعشى والبرجمي وحفص: طٰسٓمٓ، ويسٓ،

(١) «السماء آية»: بإبدال الثانية ياء الحرميان وأبو عمرو. «وننزل»: بسكون النون ابن كثير وأبو عمرو «وأنبوا»: مكتوب بواو بعدها ألف. ويقف حمزة كما ذكر في أوّل الأنعام.

وحمّ بالإمالة. والباقون: بالفتح والتفخيم، وابن كثير أشدّ فتحاً وتفخيماً، وكذلك عاصم، ثمّ يعقوب. والآخرون: لا يفتحون فتحاً شديداً. وقرأ أبو جعفر وحمزة بإظهار النون من سين عند الميم. والآخرون: يدغمون.

﴿الحجّة﴾: قال أبو عليّ: تبيين النون هو الوجه؛ لأنّ حروف الهجاء في تقدير الإنفصال والإنقطاع ممّا بعدها. فإذا كان كذلك، وجب تبيين النون؛ لأنّها إنّما تخفى إذا إتّصلت بحرف من حروف الفم. فإذا لم تتصل بها، لم يكن شيء يوجب إخفاءها. ووجه إخفائها مع هذه الحروف: أنَّ همزة الوصل قد وصلت ولم تقطع، وهمزة الوصل إنّما تذهب في الدرج. فلمّا سقطت همزة الوصل، وهي لا تسقط إلّا في الدرج مع هذه الحروف في ألف لام ميم الله، كذلك لا يبيّن النون، ويقدر فيها الإتّصال بما قبلها، ولا يقدر الإنفصال.

﴿الإعراب﴾: ﴿أَلَّا يَكُونُوا﴾: في محلّ نصب؛ بأنّه مفعول له، والتقدير: لأن لا يكونوا، أو بأن لا يكونوا. ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾: في موضع جزم؛ عطفاً على «ننزّل» من ذكر في محل رفع. ومن: مزيدة وكم: في موضع نصب؛ بأنّه مفعول «أنبتنا». وأنبتنا: في موضع نصب؛ على الحال. وقد: مضمرة، والتقدير: منبتاً.

﴿المعنى﴾: ﴿طسم﴾ قد بيّنا معاني هذه الحروف المقطّعة في أوّل البقرة، فلا معنى لإعادته. وقال مجاهد[قتاده] والضحّاك: إنّ طسّم، وطسّ، من أسماء القرآن. وقال ابن عباس في رواية الوالبي: طسّم قسم، وهو من أسماء الله عزّوجلّ. وقال القرطبي: أقسم الله بطوْله وسنائه وملكه. وروي عن ابن الحنفيّة، عن عليّ عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، لمّا نزلت طسّم قال: «الطاء: طور سيناء. وسين: الإسكندريّة. والميم: مكّة». وقيل: الطاء: شجرة طوبى، والسين: سدرة المنتهى، والميم: محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أشارب ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما ليس بحاضر، لكنّه

متوقّع فهو كالحاضر لحضور المعنى في النفس، والتقدير: تلك الآيات التي وعدتم بها، هي آيات الكتاب أي: القرآن. والمبين: الذي يبيّن الحقّ من الباطل.

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لعلّك مهلك نفسك، وقاتل نفسك، بأن لا يكونوا مؤمنين، وبأن يقيموا على الكفر. إنّما قال ذلك سبحانه؛ تسلية لنبيّه ﷺ، وتخفيفاً عنه بعض ما كان يصيبه من الإغتمام لذلك.

﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ أي: دلالة وعلامة تلجئهم وتضطرّهم إلى الإيمان ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾ أي: لتلك الآية ﴿خَاضِعِينَ﴾ منقادين. وقيل في ذلك وجوه:

أحدها: إنّ المراد: فظل أصحاب الأعناق لها خاضعين. فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ لدلالة الكلام عليه.

وثانيها: إنّه جعل الفعل أوّلاً للأعناق، ثمّ جعل خاضعين للرجال؛ لأنّ الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون.

وثالثها: إنّ الخضوع مردود إلى المضمر الذي أضيف الأعناق إليه، ـ عن الأخفش والمبرّد وأبي عبيدة ـ. وأنشدوا قول جرير:

أرىٰ مَرَّ السِّنِينَ أخَذْنَ مِنّي كَما أَخَذَ السِّرارُ مِنَ الْهِلالِ[1]

ورابعها: إنّ المراد بالأعناق: الرؤساء والجماعات، يقال: جاءني عنق من الناس أي: جماعة.

وخامسها: إنّه لمّا وصف الأعناق بصفة ما يعقل، نسب إليها ما يكون من العقلاء، كما قال الشاعر:[1]

---

(١) السرار: آخر ليلة أشهر.

[١] قائله: النابغة الجعدي.

تَـــمَزَّزتُها وَالدِّيكُ صِـــياحَهُ إذا ما بَنُونَعْش دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا[1]

وروي: «نادى صياحه». وذكر أبو حمزة الثمالي في هذه الآية: أنّها صوت يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان، وتخرج له العواتق من البيوت. وقال ابن عباس: نزلت فينا وفي بني أميّة، قال: سيكون لنا عليهم الدولة، فتخضع لنا أعناقهم بعد صعوبتها، وتلين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفّار، أنّه لا يأتيهم ذكر من الرحمن محدث أي: جديد يعني: القرآن، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ إلّا أعرضوا عن الذكر، ولم يتدبّروا فيه ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ فيما بعد، يعني: يوم القيامة ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهي مفسّرة في سورة الأنعام.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ معناه: من كل نوع معه قرينه ﴿كَرِيمٍ﴾ أي: حسن. وقيل: نافع محمود ممّا يحتاج إليه. وقيل: من كل صنف يكرم على أهله. وقيل: كريم ممّا يأكل الناس والأنعام. ـ عن مجاهد ـ. وقال الشعبي: الناس نبات الأرض، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً﴾. فمن دخل الجنّة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لدلالة على وحدانيّتنا، وكمال قدرتنا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يصدّقون بذلك، ولا يعترفون به، عناداً وتقليداً لأسلافهم، وهرباً من مشقّة التكليف. قال سيبويه: كان: هنا مزيدة، ومجازه: وما أكثرهم

---

(١) تمزّز الشراب: الشربة قليلاً قليلاً، يصف بكوره الى شرب الخمر حين يصيح الديك، وتنزل بنات النعش علامة قرب الفجر.

مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القادر، الذي لا يعجز، والغالب الذي لا يغلب. ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: المنعم على عباده بأنواع النعم.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ
فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ
﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ
هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ
كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾
قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ

أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ (١)

القراءة: قرأ يعقوب: ويضيقَ ولا ينطلقَ ـ بالنصب فيهما ـ. والباقون: بالرفع. وفي الشواذّ، قراءة عبدالله بن مسلم بن يسار، وحمّاد بن سلمة: ﴿ألا تتقون﴾ ـ بالتاء ـ. وقراءة الشعبي: ﴿وفَعَلْتَ فِعلَتَك﴾.

الحجة: من قرأ: يضيقُ ولا ينطلقُ ـ بالرفع ـ عطف على ﴿أخاف﴾. ومن قرأ بالنصب، عطف على ﴿أن يكذبون﴾ أي: أخاف أن يكذبوني، وأن يضيق صدري ولا ينطلق لساني. ومن قرأ: ﴿ألا تتقون﴾ ـ بالتاء ـ فهو على إضمار القول أي: فقل لهم: ألا تتّقون. ومن قرأ: ﴿فِعلتك﴾ ـ بكسر الفاء ـ فهي مثل: الرِكبة والجِلسة، تكون كناية عن الحال التي يكون عليها. وقد يكون المصدر على هذه الزنة، تقول: نشدته بالله نِشدة.

الإعراب: قال الزجّاج: موضع ﴿إذ﴾ نصب على معنى: وأتل عليهم هذه القصّة فيما تتلو. والدليل عليه قوله، عطفاً على هذه القصّة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ موضعه نصب؛ بأنّه مفعول «نادى» أي: ناداه بهذه الكلمة رسول ربّ العالمين، واحد في معنى الجمع، كقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾. ويجوز أن يكون كل واحد منهما رسولاً. ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: في موضع رفع؛ لأنّه بدل من نعمة، تقديره: وتلك نعمة تعبيدك بني إسرائيل، وتركك إياي غير عبد. ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ بأنّه مفعول له أي: إنّما صارت نعمة؛ لأنّ عبدت بني إسرائيل. والمعنى: لو لم تفعل ما فعلت لكفّلني أهلي، ولم يلقوني في

---

(١) وفتح ياء «إنّي أخاف» الحرميان وأبو عمرو. وأثبت الياء من «يكذبون ويقتلون» يعقوب في الوصل والوقف. وأدغم «لبثت» أبو عمرو وحمزة والكسائي وهشام. وأظهر «إتّخذت» ابن كثير وحفص.

اليمّ. فإنّما صارت نعمة لما فعلت من البلاء. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: يجوز أن يكون «ما» في موضع رفع؛ بالإبتداء، وذا: بمعنى «الذي» على تقدير: فأيُّ شيء الذي تأمرونه. ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ بأنه مفعول ﴿تَأْمُرُونَ﴾، ويكون مع «ذا» بمنزلة إسم واحد، وتقديره: أيّ شيء تأمرون.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه أقاصيص رسله، تسلية للرسول ﷺ، وتحريضاً [تحريصاً] له على الصبر، ثقة بنزول النصر، وإبتدأ بقصّة موسى وفرعون، فقال: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ﴾ أي: وأذكر يا محمّد، وأتل عليهم الوقت الذي نادى فيه ربك الذي خلقك ﴿مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا أمر بعد النداء، وتقديره: قال له: يا موسى أن إئت القوم الذين ظلموا أنفسهم بإرتكاب المعاصي، وظلموا بني إسرائيل بأن ساموهم سوء العذاب.

ثمّ بيّن القوم الموصوفين بهذه الصفة، فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وهو عطف بيان ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إنّما قاله بالياء؛ لأنّه على الحكاية، ومعناه: أما آن لهم أن يتّقوا، ويصرفوا عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته. والتقوى: مجانبة القبائح بفعل المحاسن، وأصله: صرف الأمر بحاجز بين الصارف وبينه.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ بالرسالة، ولا يقبلوا منّي. والخوف: إنزعاج النفس بتوقّع الضرّ، ونقيضه: الأمن، وهو سكون النفس إلى خلوص النفع. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ بتكذيبهم إيّاي. ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي: لا ينبعث بالكلام للعقدة التي كانت فيه، وقد مرَّ بيانها. وقد يتعذّر ذلك لآفة في اللسان. وقد يتعذّر لضيق الصدر، وغروب [عزوب] المعاني التي تطلب للكلام.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ أخي يعني: ليعاونني كما يقال: إذا نزلت بنا نازلة أرسلنا إليك أي: لتعيننا، وإنّما طلب المعاونة حرصاً على القيام بالطاعة. وقال الجبائي: لم يسأل موسى عليه السلام ذلك إلّا بعد أن أذن الله له في ذلك؛ لأنّ الأنبياء لا

يسألون الله إلّا ما يؤذن لهم في مسألته.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ يعني: قتل القبطي الذي قتله موسى عليه السلام أي: لهم عليّ دعوى ذنب ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ خاف أن يقتلوه بتلك النفس، لا لإبلاغ الرسالة، فإنّه علم أنّ الله تعالى إذا بعث رسولاً، تكفّل بمعونته على تبليغ رسالته.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿كَلَّا﴾ وهو زجر أي: لا يكون ذلك، ولن يقتلوك به، فإنّي لا أسلّطهم عليك. ﴿فَاذْهَبَا﴾ أنت وأخوك. وحذف ذكر هارون وإجابة موسى إلى ما اقترحه من إرساله معه إلى فرعون؛ لدلالة قوله: ﴿فَاذْهَبَا﴾ عليه. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بدلالاتنا ومعجزاتنا، التي خصّصناكما بها ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أي: نحن نحفظكم، ونحن سامعون ما يجري بينكم، ومستمع هنا في موضع سامع؛ لأنّ الإستماع طلب السمع بالإصغاء إليه، وذلك لا يجوز عليه سبحانه، وإنّما أتى بهذه اللفظة؛ لأنّه أبلغ في الصفة وأوكد، وهو قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وإنّما قال: ﴿أنا مَعكم﴾؛ لأنّه أجراهما مجرى الجماعة.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلنا الله إليك لندعوك إلى عبادته، وترك الإشراك به، ولم يقل: رسولا ربّ العالمين؛ لأنّ الرسول قد يكون في معنى الجمع. قال الهذلي:

أَلِكْني إِلَيْها، وَخَيْرُ الرَّسُو ... لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَواحِي الْخَبَرِ[1]

أي: خير الرسل. وقيل: إنّ الرسول بمعنى الرسالة، كما في قوله:

لَقَدْ كَذَبَ الواشُونَ ما بُحْتُ عِنْدَهُمْ ... بِسِرٍّ،وَلا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

أي: برسالة. وقال العباس بن مرداس:

أَلا مِنْ مُبْلِغ عَنِّي خُفافاً[1] ... رَسُولا بَيْتُ أَهْلِكَ مُنْتَهاها

---

(١) خفاف بن ندبة: صحابيّ، شاعر.

[١] قوله: ألكني إليها أي: كن رسولي، وتحمل رسالتي إليها.

فأنث «الرسول» تأنيث «الرسالة». وقد يقع المصدر موقع الصفة، كما تقع الصفة موقع المصدر، فيكون مجازه: أنا ذوا رسالة ربّ العالمين.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أمرك الله بأن أرسلهم، وأطلقهم من الإستعباد، وخلّ عنهم. وفي الكلام حذف، تقديره: إنّهما أتيا فرعون، وبلغا الرسالة على ما أمرهما الله تعالى به.

﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ والتربية: تنشية الشيء حالاً بعد حال، معناه: ألم تكن فينا صبياً صغيراً، فربّيناك ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي: أقمت سنين كثيرة عندنا، وهي ثماني عشرة سنة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: ثلاثين سنة، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: أربعين سنة، ـ عن الكلبي ـ[1]. وإنّما قال ذلك امتناناً عليه بإحسانه إليه. وقيل: إنّه أظهر لؤمه حيث ذكر صنائعه.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطي ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ لنعمتنا وحقّ تربيتنا، ـ عن ابن عباس وعطاء ومقاتل ـ. وقيل: معناه: وأنت من الكافرين بآلهك؛ إذ كنت معنا على ديننا الذي تعيب، وتقول: إنّه كفر، ـ عن الحسن والسدي ـ.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: فعلت هذه الفعلة، وأنا من الجاهلين، لم أعلم بأنّها تبلغ القتل. وقيل: معناه: من الناسين، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: من الضالّين عن العلم بأنّ ذلك يؤدّي إلى قتله، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: من الضالّين عن طريق الصواب؛ لأنّي ما تعمدته، وإنّما وقع منّي خطأ، كمن يرمي

---

(١) ظاهر الكلام يقتضي أنّ فرعون مصر حين بعث موسى عليه السلام، هو الذي أمر بقتل أولاد بني إسرائيل، ويقال إنّه غيره، ويحتمل حمل الكلام على «لثبت في سلفنا»؛ إذ يجوز أن يقول الرجل لمن كان عند أبيه وجدّه، أنّه كان عندنا، ويقال أيضاً إنّ إسم فرعون موسى عليه السلام رعسيس [رعمسيس] ملك أكثر من أربعين سنة، وجسده موجوداً، لان بمتحف بولاق، ولعلّه إليه أشير بقوله تعالى: «لتكون لمن خلفك آية»، والله العالم.

طائراً فيصيب إنساناً. وقيل: من الضالّين عن النبوّة أي: لم يوح إليّ تحريم قتله.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي: ذهبت من بينكم حذراً على نفسي إلى مدين لما خفتكم أن تقتلوني بمن قتلته ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ أي: نبوّة. وقيل: إن الحكم العلم بما تدعو إليه الحكمة، وهو الذي وهبه الله تعالى لموسى من التوراة، والعلم بالحلال والحرام، وسائر الأحكام.

﴿وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: نبيّاً من جملة الأنبياء ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يقال: عبده وأَعبده: إذا إتّخذه عبداً. وقيل في معناه أقوال:

أحدها: إنَّ فيه إعترافاً بأنّ تربيته له كانت نعمة منه على موسى، وإنكاراً للنعمة في ترك إستعباده. ويكون ألف التوبيخ مضمراً فيه. فكأنّه يقول: أو تلك نعمة تمنّها عليّ أَن عبدت بني إسرائيل، ولم تعبدني.

وثانيها: إنّه إنكار للمنة أصلاً، ومعناه: أتمنّ عليَّ بأن ربّيتني مع إستعبادك قومي؟ هذه ليست بنعمة. يريد: إنّ إتّخاذك بني إسرائيل الذين هم قومي، عبيداً [عبياً] أحبط نعمتك التي تمنّ بها عليَّ.

وثالثها: إنّ معناه: أنّك لو كنت لا تستعبد بني إسرائيل، ولا تقتل أبناءهم، لكانت أُمّي مستغنية عن قذفي في اليّم. فكأنّك تمتنّ عليَّ بما كان بلاؤك سبباً له، ـ عن الزجّاج ـ. وزاد الأزهري لهذا بياناً، فقال: إنّ فرعون لمّا قال لموسى عليه السلام ألم نربّك فينا وليداً، فإعتدّ عليه بأن ربّاه وليداً، منذ ولد إلى أن كبر. فكان من جواب موسى عليه السلام له: تلك نعمة تعتدّ بها عليَّ؛ لأنّك عبَّدت بني إسرائيل، ولو لم تعبدهم لكفّلني أهلي، فلم يلقوني في اليّم، فإنّما صارت لك علي نعمة، لما أقدمت عليه ممّا حظره الله عليك.

ورابعها: إنّ فيه بيان أنّه ليس لفرعون عليه نعمة؛ لأنّ الذي تولّى تربيته أُمّه

وغيرها من بني إسرائيل، بأمر فرعون، لما إستعبدهم. فيكون معناه: إنّك تمنّ عليَّ بأن إستعبدت بني إسرائيل حتى ربّوني وحفظوني، ـ عن الجبائي ـ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أيُّ جنس ربّ العالمين الذي تدعوني إلى عبادته. ﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما، ومنشئهما، وخالقهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الحيوان والجماد والنبات. ﴿إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بأنّ الربّ من كان بهذه الصفة، أو موقنين بأن هذه الأشياء محدثة، وليست من فعلكم. والمحدّث لا بدَّ له من محدث. ولم يشتغل موسى لجواب ما سأله فرعون؛ لأنّ الله تعالى ليس بذي جنس، بل إشتغل ببيان ربوبيّته وصفاته، وبيان الحجّة الدالّة عليه من خلقه، الذي يعجز المخلوقون عن مثله.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ يريد: ألا تستمعون مقالة موسى، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: ألا تصغون إليه، وتفهمون ما يقوله، معجباً من قوله: وإنّما عجَّب فرعون مَن حوله من جوابه؛ لأنّه طلب منه أيُّ أجناس الأجسام هو، جهلاً منه بالتوحيد؛ لأنّه لو كان كأحد أجناس الأجسام، لكان محدثاً كسائر الأجسام التي هي من جنسه؛ لحلول الحوادث فيه[1] ودلَّه موسى على الله بدلالة أفعاله التي بها يجب أن يستدلّ عليه تعالى، فقال فرعون: أُنظروا إلى هذا أسأله عن شيء فيجيب عن غيره. فجرى موسى عليه السلام على عادته في الرفق، وتأكيد الحجّة، وتكريرها.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وإنّما ذكره تأييداً لما قبله، وتوكيداً له.

---

(١) مرّ منّا سابقاً أنّ الحوادث لايمكن أن تكون غير متناهية، ولو كان الجسم قديماً لزم أن تكون الحوادث التي طرأت عليها في الأزمنة الغير المتناهية غير متناهية بالعدد، فليس الجسم قديماً، وأمّا بطلان غير المتناهي، فأثبت في محلّه ببرهان التطبيق وغيره، وأمّا عدم تناهي الحوادث إن كان الجسم قديماً، فواضح.

فإنّ فرعون كان يدّعي الربوبيّة على أهل عصره، دون من قبله. فبيَّن أنّ المستحقّ للربوبيّة من هو ربّ أهل كل عصر، ومالك تدبيرهم، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ فرعون إذ لم يقدر على جواب لكلام موسى عليه السلام، يموه عليهم ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لأنّي أسأله عن ماهيّة ربّ العالمين، فيجيبني عن غير ذلك، كما يفعل المجنون.

فعند ذلك لم يشتغل موسى عليه السلام بالجواب عمّا نسبه إليه من الجنون، ولكن إشتغل بتأكيد الحجّة، والزيادة في الإبانة، بأن ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك وتتدبّرونه. وقيل: إن كنتم تعلمون أنّه إنّما يستحقّ العبادة من كان بهذه الصفة.

فلمّا طال على فرعون الإحتجاج من موسى ﴿قَالَ﴾ مهدّداً له ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ أي: من المحبوسين. قالوا: وكان إذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت. فلمّا توعّده بالسجن ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ معناه: أتسجنني ولو جئتك بأمر ظاهر، تعرف به صدقي، وكذبك، وحجّة ظاهرة تدلّ على نبوّتي.

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ
بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ

لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ (١)

المعنى: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: هات ما إدّعيت من المعجزات، إن كنت صادقاً ﴿فَأَلْقَى﴾ حينئذ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ أي: حيَّة عظيمة. وقيل: الثعبان: الذكر من الحيّات ﴿مُبِينٌ﴾ ثعبان لا شبهة فيه. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي: وأخرج يده من كمّه، أو جيبه على ما روي، فإذا هي بيضاء بياضاً نورياً، كالشمس في إشراقها للناظرين إليها.

---

(١) مضى في سورة الأعراف الإختلاف في «أرجه» وكذلك في الهمزتين من «أئنّ»، وقرء الكسائي في «نِعم» بكسر العين، ومضي «تلقف وآمنتم».

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلإِ﴾ الأشراف من قومه ﴿حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا﴾ يعني: موسى ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر [بالسرّ]، والحيل ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ وديارِكم، ويتغلب عليها ﴿بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ في بابه. وإنّما شاور قومه في ذلك، مع أنّه كان يقول لهم: إنّه إلٰه؛ لأنه يجوز أن يكون ذهب عليه وعلى قومه، أنّ الإلٰه لا يجوز أن يشاور غيره، كما ذهب عليهم أنّ الإلٰه لا يجوز أن يكون جسماً محتاجاً، فإعتقدوا إلٰهيّته مع ظهور حاجته.

﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ﴾ قد مرّ تفسيره، وإختلاف القرّاء فيه في سورة الأعراف. ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون الناس من جميع البلدان ﴿يَأْتُونَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ وفي الكلام حذف، تقديره: إنّه أنفذ الحاشرين في البلدان، فحشروهم.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: لوقت يوم بعينه إختاروه وعيّنوه، وهو يوم عيدهم يوم الزينة ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لأهل مصر ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ لموسى وأخيه ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ وحضروا بين يدي فرعون ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ أي: هل لنا أجرة وجزاء على غلبتنا إيّاه، إن نحن غلبناه؟

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿نَعَمْ﴾ لكم على ذلك الأجر الجزيل ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ما تعطون من الجزاء والأجر ﴿إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ والمقرّب: المدنيّ من مجلس الكرامة ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ أي: للسحرة ﴿مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ هذا بصورة الأمر، والمراد به: التحدّي.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ أي: طرحوا ما كان معهم من الحبال والعصي. ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ والعزّة: القوّة التي يمتنع بها من لحاق

ضيم لعلوّ منزلتها. وهذا القول قَسَم منهم، وإن كان غير مبرور.

﴿فَأَلْقَى﴾ عند ذلك ﴿مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: أنّ العصا تتناول جميع ما موّهوا به في أوجز مدّة من الزمان ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لما بهرهم ما أظهره موسى عليه السلام من قلب العصا حية، وتلقفها جميع ما أتعبوا به نفوسهم فيه، وعلموا أنَّ ذلك من عند الله؛ إذ أحد من البشر لا يقدر عليه.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ فرعون مهدّداً لهم ﴿آمَنْتُمْ﴾ أي: صدّقتم ﴿لَهُ﴾ فيما يدعو إليه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي: آذن أنا في تصديقه.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ﴾ أي: أستاذكم وعالمكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فيما بعد ما أفعله بكم؛ عقوبة لكم على تصديقكم إيّاه.

ثمّ فسَّر ذلك بقوله ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ يعني: قطع اليد من جانب، والرجل من الجانب الآخر، كقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مع ذلك على الجذوع، ولا أترك أحداً منكم لا تناله عقوبتي.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه عن ذلك: ﴿لاَ ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرر علينا فيما تفعله. يقال: ضاره يضيره ضيراً، وضرَّه يضرُّه ضرراً. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي: إلى ثواب ربّنا راجعون، فيجازينا على إيماننا، وصبرنا، بالنعيم الدائم الذي لا ينقضي، ولا يضرّنا قطعك وصلبك، فإنّه ألم ساعة عن قريب ينقضي. قال الحسن: لم يصل فرعون إلى قتل واحد منهم، ولا قطعه. وقيل: إنّ أوّل من قطع الأيدي والأرجل فرعون.

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ
﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ (١)

القراءة: قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة: ﴿حاذرون﴾ ـ بالألف ـ. والباقون: بغير ألف. وقرأ: ﴿فاتبعوهم﴾ ـ موصولة الألف، مشدَّدة التاء ـ، زيد عن يعقوب. وقرأ الباقون: ﴿فاتْبعوهم﴾ ـ بقطع الألف، وسكون التاء ـ. وقرأ حمزة ونصير، عن

---

(١) مضى «أن أسر»، وفتح ياء «بعبادي انكم» نافع، وياء «معي ربّي» حفص. وأثبت ياء «سيهدين» يعقوب وابان بن تغلب ـ من أكابر الشيعة من أصحاب الصادقين عليهم السلام وكان له قرائة مستقلّة، ذكره الشيخ والنجاشي، ولكنّه غير متواتر ـ. والظاهر أنّ قرائته لم تكن مأخوذة عن أهل البيت عليهم السلام وإلّا لنسبت إليهم دونه، ويعلم من ذلك أنّ كتب أصحاب الأئمّة عليهم السلام لم تكن جميعها متواتره.

الكسائي وخلف: ﴿ترِيء الجمعان﴾ ـ بكسر الراء ـ. والباقون: بفتحها. وفي الشواذ قراءة أبان بن تغلب: ﴿إن كنا أول المؤمنين﴾ ـ بكسر الهمزة من ﴿إن﴾ ـ. وقراءة ابن أبي عامر: ﴿حادرون﴾ ـ بالدال غير المعجمة ـ. وقراءة الأعرج، وعبيد بن عمير: ﴿إنا لمدّركون﴾ ـ بتشديد الدال ـ. وقراءة عبدالله بن الحرث: ﴿وأزلقنا﴾ ـ بالقاف ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: قال أبو عبيدة: رجل حَذِر وحَذُر وحاذر، قال ابن أحمر:

هَلْ يَنْسَأَنْ يَوْمِي إلى غَيْرِهِ أَنّي حُوالِي، وَأَنّي حَذِرُ[1]

حوالي أي: ذو حيلة. وقال العباس بن مرداس [مرادس]:

وَإِنِّي حاذِرٌ أَنْمي سِلاحِي إلى أَوْصالِ ذَيالٍ مَنيع[2]

ووجه إمالة الحركة على الراء من «ترائى»: أنّ قياسه أن يكون «تراآى» في الموقف، مثال: تراعى، فأمال فتحة الراء لإمالة فتحة الهمزة التي أميلت، ليميل الألف نحو:الياء، كماقالوا رأى،أمالوا فتحةالراء[الهمزة] لإمالة فتحة الهمزة[الراء].

فإن قيل: فإذا وصل وقيل: تراه الجمعان، لم يجز إمالة الفتحة التي على الراء؛ لأنّه إذا كان إمالتها لإمالة فتحة الهمزة، وما يوجب إمالة الفتحة، فقد سقط، وهوالألف المنقلبة من الياء التي سقطت لإلتقاء الساكنين، فإذا سقطت لم يجز إمالة فتحة الهمزة. فإذا لم يجز إمالة فتحة الهمزة، وجب أن لا يجوز إمالة فتحة الراء؟

قيل: إنّ إمالة فتحة الراء في «تراآى» جائزة في الوصل، مع سقوط الألف من تفاعل؛ لإلتقاء الساكنين، وما سقط لإلتقاء الساكنين، فهو عندهم في حكم الثابت. يدلُّ على ذلك قولهم:

---

(١) يعني: لايؤخّر يوم موتى كونى ذا حيلة وحذق.

(٢) فرس ذيال: أي طويل القد. والأوصال: المفاصل.

وَلا ذاكِراً اللهَ إلّا قليلاً[١]

فنصب مع سقوط التنوين لإلتقاء الساكنين، كما ينصب إذا ثبت. وزعم أبو الحسن أنّه قد قرئ في «القتلى الحر» بإمالة فتحة اللام مع سقوط الألف. وقال ابن جنّي: قوله: ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الكلام الذي يعتاده المستظهر المدل بما عنده. يقول الرجل لصاحبه: أنا أحفظه عليك إن كنت وافياً. ولن يضيع لك جميل عندي. إن كنت شاكراً أي: فكما تعلم أنّ هذا معروف من حالي، فثق بوفائي وشكري، ومثله: بيت كتاب سيبويه:

أتَغْضِبُ أنْ أُذْنا قُتَيْبَةَ حُزْتا جِهاراً، وَلَمْ تَغْضِبْ لِقَتْلِ ابنِ حازِمِ

فشرط بذلك، وقد كان ووقع قبل ذلك. وقد جاء به أبو تمام، فقال:

وَمَكارِماً عُتْقَ النِّجارِ تَلِيدَةً إنْ كانَ هَضْبُ عِمايَتَيْنِ تَلِيداً[٢]

أي: كما كان هضب عمايتين تليداً، فكذلك هذه المكارم. وأمّا قوله: ﴿حَادِرُونَ﴾: فالحادر: القويّ الشديد، ومنه: الحادرة: الشاعرة. وحدر الرجل: إذا قوي جسمه، وإمتلأ لحماً وشحماً. قال الأعشى:

وَعَسيرٌ أدْماءُ حادِرَةُ الْعَيْنِ خَنُوفٌ عَيْرانَةٌ شِمْلالُ[٣]

ويقال: أدركت الشيء وأدركته بمعنى. ومن قرأ: ﴿وأزلفنا﴾ ـ بالفاء ـ، فالآخرون: موسى وأصحابه. ومن قرأ: بالقاف، فالآخرون: فرعون وأصحابه أي: أهلكناهم.

اللغة: سرى وأسرى لغتان، وقد فرّق بينهما. والشرذمة: العصبة الباقية

---

(١) عجز بيت لأبي الأسود. صدره: فالفيته غير مستعتب وقد مضى.

(٢) التالد والتليد: القديم والنجّار الأصل. وعتق: جمع عتيق، الكريم. والهضب: الجبل. وعمايتين: جبلان، يقول: مجده قديم كان أن هذين الجبلين قديمان.

(٣) عسير: ناقة لم ترض. وأدماء: بيضاء. والخنوف: لين في ارساغ البعير. وحادرة العين: أسود الملقتين. وعيرانة: ناقة قويّة. وشملال: سريعة.

من عصب كثيرة، وشرذمة كل شيء: بقيّته القليلة. قال الراجز:

جاءَ الشِتّاءُ، وَقَمِيصِي أخْلاقُ شَراذِمٌ يَضْحَكُ مِنْها التَّواقُ[1]

والفرق بين الحذر والحاذر: أنّ الحاذر: الفاعل للحذر. والحذر: المطبوع على الحذر. والكنوز: الأموال المخبأة في مواضع غامضة من الأرض بعضها على بعض، ومنه: كناز التمر وغيره ممّا يعبأ بعضه على بعض. والمقام: الموضع الذي يقام فيه. والكريم: الحقيق بإعطاء الخير الجزيل، وهي صفة تعظيم في المدح. وإتّبع فلان فلاناً وتبعه: إذا إقتفى أثره. والإشراق: الدخول في وقت شروق الشمس، ويقال: شرقت الشمس: إذا طلعت. وأشرقت: إذا أضاءت وصفت. وأشرقنا: دخلنا في الشروق. وتراءى الجمعان أي: تقابلا بحيث يرى كل منهما صاحبه. ويقال: تراءى نارا هما: إذا تقابلا. وإنّما جاز تثنية الجمع؛ لأنّه يقع عليه صفة التوحيد، فتقول: هذا جمع واحد، كما تقول جملة واحدة. والإدراك: اللحاق، يقال: أدرك قتادة الحسن أي: لحقه. وأدرك الزرع أي: لحق ببلوغه. وأدرك الغلام أي: بلغ. وأدركت القدر: نضجت. والطود: الجبل. قال الأسود بن يعفر:

حَلُّوا بَأنْقُرَةٍ يَجِيشُ عَلَيْهِمُ ماءُ الفُراتِ، يَجيءَ مِنْ أطْوَادِ[2]

والإزدلاف: الإدناء والتقريب، ومنه: المزدلفة. أبو عبيدة: أزلفنا: جمعنا.

وليلة المزدلفة: ليلة جمع. قال الشاعر:

وَكُلُّ يَوْمٍ مَضى، أوْلَيْلَةٍ سَلَفَتْ فِيهَا النُّفوسُ إلى الآجالِ تَزْدَلِفُ

والآخَر ـ بفتح الخاء ـ: الثاني من قسمي أحد، يقال: نجّى الله أحدهما، وأهلك الاخَر. وبكسر الخاء: هو الثاني من قسمي الأوّل. يقال: نجا الأوّل، وهلك الآخِر.

---

(١) أخلاق وشراذم: أي بال وصف بهما المفرد. والتواق: الذي يصلح الأمور أو ابن [ابن] الشاعر.

(٢) أنقرة: موضع. ويجيش: أي يغلي. والأطواد: الجبال.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن السحرة، أنّهم قالوا لفرعون حين آمنوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ أي: مافعلناه من السحر وغيره ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لأنّا كنّا أوّل من صدَّق موسى، وأقرَّ بنبوته، وبما دعانا إليه من التوحيد، ونفي التشبيه. وقيل: إنّهم أوّل من آمن عند تلك الآية، أو أوّل من آمن من آل فرعون؛ لأن بني اسرائيل كانوا آمنوا به.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ سبق تفسيره في سورة طه ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ يتّبعكم فرعون وجنوده، ليحولوا بينكم وبين الخروج من أرض مصر ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون إليه الناس، ويجمعون له الجيوش؛ ليقبضوا على موسى وقومه لمّا ساروا بأمر الله عزّوجلّ.

فلمّا حضروا عنده قال لهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أصحاب موسى ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: عصابة من الناس قليلة. قال الفرّاء: يقال: عصبة قليلة وقليلون، وكثيرة وكثيرون. قال المفسّرون: وكان الشرذمة الذين قلّلهم فرعون ستّمائة ألف، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ يقال: غاظه وإغتاظه وغيظه: إذا أغضبه أي: إنّهم غاظونا لمخالفتهم إيّانا في الدين، ثمّ لخروجهم من أرضنا على كره منّا، وذهابهم بالحلي الذي إستعاروها، وخلوصهم من إستعبادنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي: خائفون شرَّهم، وحاذرون أي: مؤدّون مقوون أي: ذوو أداة وقوّة مستعدّون شاكون في السلاح. وقال الزجّاج: الحاذر: المستعدّ. والحذر: المتيقّظ.

ثمّ أخبر سبحانه عن كيفيّة إهلاكهم بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ يعني: آل فرعون ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية فيها ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي: أموال مخبأة وخزائن ودفائن ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: منابر يخطب عليها الخطباء، عن ابن عباس. وقيل: هو مجالس الأمراء والرؤساء، التي كان يحفُّ بها الأتباع، فيأتمرون بأمرهم. وقيل: المنازل الحسان التي كانوا مقيمين فيها في كرامة. وقيل: يريد

مرابط الخيل لتفرّد الرؤساء بإرتباطها عدّة وزينة، فصار مقامها أكرم مقام متروك.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما وصفنا لك أخبارهم ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وذلك أنَّ الله سبحانه ردَّ بني إسرائيل إلى مصر[1] بعدما أغرق فرعون وقومه، وأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والعقار والمساكن والديار.

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ يعني: قوم فرعون أدركوا موسى وأصحابه حين شرقت الشمس، وظهر ضوؤها، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: سيدركنا جمع فرعون، ولا طاقة لنا بهم ﴿قَالَ﴾ موسى ثقة بنصر الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ لن يدركونا، ولا يكون ما تظنّون. فإنتهوا عن هذا القول ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بنصره ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سير شدني إلى طريق النجاة. وقيل: سيكفيني، ـ عن السدي ـ.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ وهو نهر النيل ما بين أيلة ومصر. وقيل: هو بحر قلزم ما بين اليمن ومكّة إلى مصر. وفيه حذف أي: فضرب ﴿فَانفَلَقَ﴾ أي: فإنشقّ البحر، وظهر فيه إثنا عشر طريقاً. وقام الماء عن يمين الطريق ويساره، كالجبل العظيم، وذلك قوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: فكان كل قطعة من البحر كالجبل العظيم. والفرق: الإسم لما إنفرق، والفرق مصدر.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ أي: قربنا إلى البحر فرعون وقومه حتى أغرقناهم، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ. وقيل: معناه: جمعنا في البحر فرعون وقومه، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: معناه: وقرّبناهم إلى المنية لمجيء وقت هلاكهم. ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى

---

(١) لا يجب أن يكون ما أعطاه تعالى بني إسرائيل من عين الأموال التي خلفها فرعون بمصر، وذلك لأنّ رجوع بني إسرائيل الى مصر غير مشهور، وآيات الكتاب تدلّ على أنّهم خرجوا من مصر الى أرض الشام، وكانوا في التيه أربعين سنة، ثمّ فتحوا أريحا واستولوا على فلسطين، ولعلّ بها أموالاً من فرعون وقومه؛ إذ كان فرعون مصر ملكاً على أكثر تلك النواحي.

﴿وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بني إسرائيل أنجينا جميعهم من الغرق والهلاك.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ فرعون وجنوده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ معناه: إنّ في فرق البحر، وإنجاء موسى وقومه، وإغراق فرعون وقومه، لدلالة واضحة على توحيد الله، وصفاته التي لا يشاركه فيها غيره.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ معناه: إنّهم مع هذا السلطان الظاهر، والبرهان الباهر، والمعجز القاهر، ما آمن أكثرهم، فلا تستوحش يا محمّد من قعود قومك عن الحق الذي تأتيهم به، وتدلّهم عليه، فقد جروا على عادة أسلافهم في إنكار الحقّ، وقبول الباطل.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في سلطانه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بخلقه. وقيل: العزيز في إنتقامه من أعدائه، الرحيم في إنجائه من الهلاك لأوليائه. وقيل: إنّه لم يؤمن من أهل مصر غير آسية إمرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، ومريم التي دلّت على عظام يوسف.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾
قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ
يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ
﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ
إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ (١)

(اللغة): الأقدم: الموجود قبل غيره، ومثله: الأوّل والأسبق. والقِدم: وجود الشيء لا إلى أول. والتبريز: الإظهار، يقال: أبرزه وبرَّزه فبرز يبرز بروزاً. والغاوي: العامل بما يوجب الخيبة من الثواب. كبكبوا: أصله: كببوا إلّا أنّه ضوعف بتكرير الفاء أي: دهدهوا، وطرح فيها بعضهم على بعض جماعة جماعة. والحميم: القريب الذي تودّه ويودُّك.

---

(١) سهل الثانية من «نبأ ابراهيم» كالياء الحرميان وأبو عمرو. وأدغم «إذ تدعون» أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي. وسهل الهمزة الثانية من «أفرايتم» قالون وورش، وحذفها الكسائي. وفتح الياء من «عدوّ لي إلّا، ولأبي إنّه» نافع وأبو عمرو. وأثبت الياء في أربع كلمات «يهدين ويسقين ويسقين ويحيين» يعقوب.

[الإعراب]: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ سمعت: أصله أن يتعدّى إلى ما كان صوتاً مسموعاً، تقول: سمعت كلامك. فإن وقع على جوهر تعدّى إلى مفعولين، ولا يكون الثاني منهما إلّا صوتاً، كقولك: سمعت زيداً يقرأ. ولا يجوز: سمعت زيداً يقوم؛ لأنّ القيام لا يكون مسموعاً. وقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ على حذف المضاف. والتقدير: هل يسمعون دعاءكم، فحذف المضاف، ودلَّ عليه قوله: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾. ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ إستثناء منقطع. ويجوز أن يكون غير منقطع، على تقدير: فإنّ جميع ما عبدتم عدوّ لي إلّا ربّ العالمين. وقد عبدوا مع الله تعالى الأصنام. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ﴾: الموصول والصلة في محلّ النصب؛ على البدل من مفعول «ينفع» المحذوف، تقديره: يوم لا ينفع أحداً مال ولا بنون إلّا من أتى الله. ويجوز أيضاً أن يكون منصوباً على الإستثناء. ﴿هُمْ فِيهَا﴾: مبتدأ وخبر. ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾: في موضع نصب؛ على الحال. ويجوز أن يكون ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ خبر المبتدأ، و ﴿فِيهَا﴾: يتعلّق به. ﴿فَنَكُونَ﴾ منصوباً بإضمار «أن» في جواب التمنّي.

[المعنى]: ثمّ قال سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمّد ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: خبر ابراهيم، فإنّه شجرة الأنبياء، وبه إفتخار العرب، وفيه تسلية لك، وعظة لقومك. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ على وجه الإنكار عليهم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: أيّ شيء تعبدون من دون الله.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أي: فنظلّ لها مُصَلّين، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: فنقيم على عبادتها مداومين. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي: هل يسمعون دعاءكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ معناه: هل يستجيبون دعاءكم إذا دعوتموهم ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ إذا عبدتموهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إن تركتم عبادتها. وفي هذا بيان أنّ الدين إنّما يثبت بالحجّة، ولولا ذلك لم يحاجّهم

إبراهيم عليه السلام هذا الحجاج.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وهذا إخبار عن تقليدهم آباءهم في عبادة الأصنام ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام منكراً عليهم التقليد ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: الذي كنتم تعبدونه من الأصنام ﴿أَنْتُمْ﴾ الآن ﴿وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ أي: المتقدمون أي: والذين كان آباؤكم يعبدونهم. وإنّما دخل لفظة «كان»؛ لأنّه جمع بين الحال والماضي.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ معناه: إنّ عبادة الأصنام مع الأصنام، عدوّ لي إلّا أنّه غلب ما يعقل. وقيل: إنّه يعني: الأصنام. وإنّما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فجمعها جمع العقلاء، لما وصفها بالعداوة التي لا تكون إلّا من العقلاء، وجعل الأصنام كالعدوّ في الضرر من جهة عبادتها. ويجوز أن يكون قال: فإنّهم: لأنّه كان منهم من يعبد الله مع عبادته الأصنام، فغلب ما يعقل، ولذلك استثنى، فقال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ إستثناء من جميع المعبودين. قال الفرّاء: إنّه من المقلوب، والمعنى: فإنّي عدوّ لهم، ومن عاديته فقد عاداك.

ثمّ وصف ربّ العالمين، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ وأخرجني من العدم إلى الوجود ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: يرشدني إلى ما فيه نجاتي. وقيل: الذي خلقني لطاعته، فهو يهديني إلى جنّته ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ معناه: إنّه يرزقني ما أتغذّى به، ويفعل ما يصحّ بدني ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي: يميتني بعد أن كنت حيّاً، ويحييني يوم القيامة بعد أن أكون ميّتاً.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء. وإنما قال ذلك على سبيل الإنقطاع منه إلى الله تعالى، لا على سبيل أنَّ له خطيئة يحتاج إلى أن يغفر له يوم القيامة؛ لأنّ عندنا لا يجوز أن يقع من الأنبياء شيء من القبائح. وعند جميع أهل العدل، وإن جوّزوا عليهم الصغائر، فإنّها تقع عندهم محبطة

مكفرة، فليس شيء منها غير مغفور، فيحتاج إلى أن يغفر يوم القيامة. وقيل: معناه: أطمع أن يغفر لمن يشفعني فيه، فأضافه إلى نفسه، كقوله سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. وإنّما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ فأضاف المرض إلى نفسه. وإن كان من الله، إستعمالاً لحسن الأدب. فإنّ المقصود شكر نعمة الله تعالى، ولو كان المقصود بيان القدرة لأضافه إلى الله تعالى، ونظيره قول الخضر عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، ثمّ قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ وإنّما حذف الياء آت؛ لأنه رؤوس الآيات. وهذا الكلام من إبراهيم عليه السلام إنّما صدر على وجه الإحتجاج على قومه، والإخبار بأنّه لا يصلح للإلـهيّة إلّا من فعل هذه الأفعال.

ثمّ حكى الله عنه أنّه سأله، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ والحكم: بيان الشيء على ما تقتضيه الحكمة. وقيل: إنّه العلم، ـ عن ابن عباس ـ، يعني: علماً إلى علم، وفقهاً إلى فقه. وقيل: إنّه النبوّة، ـ عن الكلبي ـ.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: بمن قبلي من النبيّين في الدرجة والمنزلة. وقيل: معناه: إفعل بي من اللطف ما يؤدّيني إلى الصلاح والإجتماع مع النبيّين في الثواب. وفي هذا دلالة على عظم شأن الصلاح، وهو الإستقامة على ما أمر الله تعالى به، ودعا إليه.

﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: ثناء حسناً في آخر الأمم، وذكراً جميلاً، وقبولاً عاماً في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة. فأجاب الله سبحانه دعائه. فكل أهل الأديان يثنون عليه، ويقرُّون بنبوّته، والعرب تضع اللسان موضع القول على الإستعارة؛ لأنّ القول يكون بها، وكذلك يسمّون اللغة لساناً، قال أعشى باهلة:

إنِّـــي أتَـــتْنِي لِســـانٌ لا أُســـرُّ بِها مِنْ عَلْوَ، لا عَجَبٌ مِنها، ولا سَخَرَ[١]

وقيل: إنّ معناه: واجعل لي ولد صدق في آخر الأمم، يدعو إلى الله، ويقوم بالحقّ، وهو محمّد ﷺ. ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي: من الذين يرثون الفردوس.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنْ الضَّالِّينَ﴾ أي: من الذاهبين عن الصواب في إعتقاده. ووصفه بأنّه ضالّ، يدلُّ على أنّه كان كافراً كفر جهالة، لا كفر عناد. وقد ذكرنا الوجه في إستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه في سورة التوبة. ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تفضحني، ولا تعيرني بذنب يوم تحشر الخلائق. وهذا الدعاء كان منه عليه السلام على وجه الإنقطاع إلى الله تعالى؛ لمّا بيّنّا أنّ القبيح لا يجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام.

ثمّ فسّر ذلك اليوم بأن قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي: لا ينفع المال والبنون أحداً؛ إذ لا يتهيّأ لذي المال أن يفتدي من شدائد ذلك اليوم به، ولا يتحمّل من صاحب البنين بنوه شيئاً من معاصيه. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والشكّ، ـ عن الحسن، ومجاهد ـ. وقيل: سليم من الفساد والمعاصي. وإنّما خصّ القلب بالسلامة؛ لأنّه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد، من حيث إنّ الفساد بالجارحة، لا يكون إلّا عن قصد بالقلب الفاسد. وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: هو القلب الذي سلم من حبّ الدنيا[٢]. ويؤيّده قول النبيّ ﷺ: «حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة».

---

(١) قد أتاه خبر قتل أخيه، وهو المراد باللسان. ولا سخر: أي لا يستهزىء به.

(٢) والآية تدلّ على أنّه لا يحصل السعادة في الآخرة بأعمال الجوارح فقط، بل يجب أن ينضمّ إليها سلامة القلب، فما هو معروف بين كثير من الناس، من أنّ الأوامر الأخلاقيّة ليست على الوجوب كالأوامر الفقهيّة، ليس صحيحاً.

﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قربت لهم ليدخلوها ﴿وَبُـرِّزَتْ الْـجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي: أظهرت وكشف الغطاء عنها للضالّين عن طريق الحقّ والصواب. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ في ذلك اليوم على وجه التوبيخ: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِـنْ دُونِ اللهِ﴾ من الأصنام والأوثان وغيرهما. وإنّما وُبّخوا بلفظ الإستفهام؛ لأنّه لا جواب لهم عن ذلك إلّا بما فيه فضيحتهم. ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم في ذلك اليوم ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ لكم إذا عوقبتم. وقيل: ينتصرون أي: يمتنعون من العذاب.

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي: جمعوا وطرح بعضهم على بعض، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: نكسوا فيها على رؤوسهم، ـ عن السّدي ـ. ﴿هُـمْ﴾ يـعني: الآلهـة التـي يعبدونها ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ أي: والعابدون. والمعنى: إجتمع المعبودون من دون الله، والعابدون لها في النار. ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي: وكبكب معهم جنود إبليس، يريد من إتبعه من ولده، وولد آدم.

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: قال هؤلاء، وهم في النـار، يـخاصم بعضهم بعضاً ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإنْ هذه هي المخفّفة من الثقيلة أي: إنّا كنّا لفي ضلال. ومعناه: لقد كنّا في ضلال عن الحقّ بيّن، وذهاب عن الصواب ظاهر؛ إذ سوّيناكم بالله، وعدلناكم به في توجيه العبادة إليكم. ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: إلّا أوّلونا الذين إقتدينا بهم، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: إلّا الشياطين، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: الكافرون الذين دعونا إلى الضلال.

ثمّ أظهروا الحسرة، فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ يشفعون لنا، ويسألون في أمرنا. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: ذي قرابة يهمّه أمرنا. والمعنى: ما لنا من شفيع من الأباعد، ولا صديق من الأقـارب، وذلك حـين يشـفع المـلائكة والنـبيّون والمؤمنون. وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي فلان وصـديقه فـي الجـحيم،

فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنّة. فيقول من بقي في النار: فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم».

وروى العياشي بالإسناد عن حمران بن أعين، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: والله لنشفعنّ لشيعتنا، والله لنشفعن لشيعتنا، ثلث مرّات حتى يقول الناس: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ ﴿وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي رواية أخرى: حتى يقول عدونا. وعن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إنّ المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته، فيشفع فيهم حتى يبقى خادمه، فيقول ويرفع سبّابتيه: يا ربّ خويدمي كان يقيني الحرّ والبرد! فيشفع فيه. وفي خبر آخر عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ المؤمن ليشفع لجاره، وما له حسنة، فيقول: يا ربّ جاري، كان يكفُّ عنّي الأذى! فيشفع فيه. وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً.

ثمّ قالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدّقين فتحلُّ لنا الشفاعة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما قصصناه ﴿لَآيَةً﴾ أي: دلالة لمن نظر فيها، وإعتبر بها. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيها تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله، وإعلام له بأن الشرّ قديم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ مضى معناه.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ

﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن
مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ (١)

القراءة: قرأ يعقوب: ﴿وأتباعُك﴾ وهو قراءة ابن مسعود، والضحّاك، وابن السميقع [السميفع]، والفرّاء. والباقون: ﴿واتبعك﴾.

الحجة: يحتمل قوله: ﴿وأتباعك﴾ وجهين: أحدهما: أن يكون مبتدأ. و﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ خبره. والمعنى: لماذا نؤمن لك، وإنّما أتباعك الأرذلون. والآخر: أن يكون معطوفاً على الضمير في أنؤمن أي: أنؤمن نحن وأتباعك. و﴿الْأَرْذَلُونَ﴾: صفة للأتباع. وجاز العطف على الضمير المرفوع المتّصل من غير توكيد، لماوقع هناك من الفصل، وهوقوله: ﴿لَكَ﴾، فصار طول الكلام به كالعوض من توكيد الضمير بقوله: ﴿نَحْنُ﴾. والمعنى: أنؤمن لك وأتباعك الأرذلون فنعدّ في عدادهم.

اللغة: الأرذلون والأراذل: السفلة وأوضاع الناس. والرذل: الوضيع. والرذيلة: نقيض الفضيلة. والطرد: إبعاد الشيء على وجه التنفير، طرده يطرده.

---

(١) فتح ياء الإضافة من «أجريَ إلّا» في خمسة مواضع نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص. وأثبت ياء «أطيعون» في ثمانية مواضع، وصلاً ووقفاً، يعقوب. وأثبت الألف من «أنا إلّا» في الوصل قالون في بعض الروايات، ولا خلاف في إثباتها وقفاً. وفتح الياء من «ومَن معي» ورش وحفص.

وأطرده: جعله طريداً. واطرد في الذهاب: إستمرّ في الذهاب كالطريد. والرجم: الرمي بالحجارة، ولا يقال للرمي بالقوس: رجم. ويسمّى المشتوم: مرجوماً؛ لأنّه يرمى بما يذمّ. والإنتهاء: بلوغ الحدّ من غير مجاوزة إلى ما وقع عنه النهي. وأصل النهاية: بلوغ الحدّ. والنِهي: الغدير؛ لإنتهاء الماء إليه. والفتح: الحكم. والفتّاح: الحاكم؛ لأنّه يفتح على وجه الأمر بالحكم الفصل. قال الشاعر:

ألا أبْلِغْ بَنِي أعْيا رَسُولاً ... فَإنّي عَنْ فُتاحَتِكُمْ غَنِيُّ[1]

والفلك: السفن، يقع على الواحد والجمع. والمشحون: من شحنه يشحنه شحناً: إذا ملأه بما يسدُّ خلله. وشحن الثغر بالرجال، ومنه: الشحنة.

الإعراب: ﴿مَا عِلْمِي﴾: ما: حرف نفي، و ﴿عِلْمِي﴾ مبتدأ، وتقديره ما علمي ثبت، أو حصل بما كانوا يعملون.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه حديث نوح عليه السلام، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ دخلت التاء في «كذبت»، والقوم مذكّر؛ لأنّ المراد بالقوم: الجماعة أي: كذبت جماعة نوح المرسلين؛ لأنّ من كذب رسولا واحداً من رسل الله، فقد كذب الجماعة؛ لأنّ كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل. وقال أبو جعفر عليه السلام: يعني بالمرسلين نوحاً والأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي: في النسب لا في الدين ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله تعالى في تكذيبي ومخالفتي. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على الرسالة فيما بيني وبين ربّكم.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ بطاعته وعبادته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من الإيمان والتوحيد ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الدعاء إلى التوحيد ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مِن:

---

(١) بنو أعيا: قبيلة. والفتاحة: الحكم.

مزيدة. ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ ما جزائي وثوابي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وخالق الخلائق أجمعين.

ثمّ كرَّر عليهم قوله ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لإختلاف المعنى؛ لأنّ التقدير: فإتّقوا الله وأطيعوني؛ لأنّي رسول أمين، وإتّقوا الله وأطيعون؛ لأنّي لا أسألكم عليه أجراً، فتخافوا تلف أموالكم به، وكل واحد من هذين المعنيين يقوّي الداعي إلى قبول قول الغير، ويبعد عن التهمة.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي: نصدّقك فيما تقول ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي: وقد اتبعك سفلة الناس، وأراذلهم، وخساسهم، ـ عن قتادة ـ. وقيل: يعنون: المساكين الذين ليس لهم مال، ولا عزّ، ـ عن عطا ـ. وقيل: يعنون: الحاكة والأساكفة، ـ عن الضحّاك، وعلقمة ـ. والمعنى: إنَّ أتباعك أراذلنا وفقراؤنا، وأصحاب الأعمال الدنيّة، والمهن الخسيسة، فلو إتّبعناك لصرنا مثلهم، ومعدودين في جملتهم. وهذا جهل منهم؛ لأنّه ليس في إيمان الأرذلين به ما يوجب تكذيبه، فإنّ الرذل إذا أطاع سلطانه، إستحقّ التقرّب عنده دون الشريف العاصي.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ماأعلم أعمالهم وصنائعهم، ولم أكلّف ذلك، وإنّما كلفت أن أدعوهم إلى الله، وقد أجابوني إليه ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: ليس حسابهم إلّا على ربّي الذي خلقني وخلقهم، لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما أنا بالذي لا يقبل الإيمان من الذين تزعمون أنّهم الأرذلون؛ لأنّي لست إلّا نذيراً مخوّفاً من معصية الله، داعياً إلى طاعته، مبيّناً لها.

﴿قَالُوا﴾ له عند ذلك: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ أي: إن لم ترجع عمّا تقوله،

وتدعو إليه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمَرْجُومِينَ﴾ بالحجارة، ـ عن قتادة ـ. وقيل: من المرجومين بالشتم، ـ عن الضحّاك ـ. ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ أي: فاقض بيننا قضاء بالعذاب؛ لأنّه قال: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من ذلك العذاب ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: فخلّصناه ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة من الناس وغيرهم من الحيوانات.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد نجاة نوح، ومن معه ﴿الْبَاقِينَ﴾ أي: الخارجين عن السفينة، الكافرين به ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ واضحة على توحيد الله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ وليس هذابتكرار، وإنّما كل واحد في قصّة على حدة. فهذا ذكر آية في قصّة نوح، وما كان من شأنه، بعد ذكر آية ممّا كان في قصّة إبراهيم، وذكر آية أخرى في قصّة موسى وفرعون، فبيّن أنّه ذكر كلاً من ذلك لما فيه من الآية الباهرة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في إهلاك قوم نوح بالغرق ﴿الرَّحِيمُ﴾ في إنجائه نوحاً ومن معه في الفلك.

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾

وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ(١) أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

القراءة: قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو جعفر والكسائي: ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ـ بفتح الخاء ـ. والباقون: بضمّ الخاء واللام. وفي الشواذّ، قراءة قتادة: ﴿تُخلِدون﴾ ـ بضمّ التاء وكسر اللام ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عادتهم، و﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إختلاقهم وكذبهم مثل قوله: ﴿وتخلقون إفكاً﴾، و ﴿إنْ هذا إلّا إختلاق﴾. وخلد الشيء: إذا بقي. وأخلدته وخَلَّدْته، وأخلد إلى كذا: إذا أقام عليه ولزمه. وقيل: أخلد الرجل: إذا أبطأ عنه الشيب.

اللغة: الريع: الإرتفاع من الأرض، وجمعه: أرياع وريعة. قال ذو الرمة:

طِراقُ الْخَوافِي، مُشْرِفٌ فَوْقَ ريعَةٍ نَدىٰ لَيْلِهِ في رِيشِهِ يَتَرَقْرَقُ(٢)

ومنه: الريع في الطعام، وهو إرتفاعه بالزيادة والنماء. وقال أبو عبيدة: الريع: الطريق بين الجبلين في الإرتفاع. وقيل: هو الفجّ الواسع. والمصانع: مأخذ الماء، جمع مصنع. قال أبو عبيدة: كل بناء مصنعة. وقال قتادة ومجاهد: المصانع: هي القصور والحصون. والبطش: العسف قتلاً بالسيف، وضرباً بالسوط. والجبّار:

---

(١) فتح الياء من «إنّي أخاف» الحرميان وأبو عمرو.

(٢) الطراق من الريش: ما يكون بعضها فوق بعض. والخوا في من الريشات: في مقدم الجناح. والندي: المطر. ويترقرق: أي يتلألأ، يصف بريق المطر الواقع على ريش الطائر فوق العوالي.

العالي على غيره بعظيم سلطانه، وهو في صفة الله سبحانه مدح، وفي صفة غيره ذمٌّ؛ لأنّ معناه في العبد أنّه يتكلّف الجبريّة.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن عاد، فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ والتأنيث لمعنى القبيلة؛ لأنّه أراد بعاد: القبيلة ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، بإجتناب معاصيه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مرَّ تفسيره.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: بكل مكان مرتفع. وقيل: بكل شرف، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: بكل طريق، ـ عن الكلبي، والضحّاك ـ. ﴿آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ أي: بناء لا تحتاجون إليه لسكناكم، وإنّما تريدون العبث بذلك، واللعب واللهو. كأنه جعل بناهم ما يستغنون عنه عبثاً منهم، ـ عن ابن عباس في رواية عطا ـ.

ويؤيّده الخبر المأثور عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ، خرج فرأى قبّة مشرفة، فقال له: ما هذه؟ قال له أصحابه: هذا لرجل من الأنصار. فمكث حتى إذا جاء صاحبها، فسلم في الناس، أعرض عنه، وصنع ذلك به مراراً، حتى عرف الرجل الغضب، والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه، وقال: والله إنّي لأنكر نظر رسول الله ﷺ، ما أدري ما حدث فيَّ، وما صنعت؟ قالوا: خرج رسول الله ﷺ يوماً فرأى قبّتك، فقال: لمن هذه؟ فأخبرناه. فرجع إلى قبّته، فسوّاها بالأرض. فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم، فلم ير القبّة، فقال: ما فعلت القبّة التي كانت هيهنا؟ قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه، فأخبرناه فهدمها. فقال: إنّ لكل بناء يبنى، وبال على صاحبه يوم القيامة، إلّا ما لا بدَّ منه.

وقيل: معناه: إنّهم كانوا يبنون بالمواضع المرتفعة؛ ليشرفوا على المارّة والسائلة [السابلة]، فيسخروا منهم، ويعبثوا بهم، ـ عن الكلبي، والضحّاك ـ. وقيل: إنّ هذا في بنيان الحمام، أنكر هود عليهم إتّخاذهم بروجاً للحمام عبثاً، ـ عن سعيد

ابن جبير، ومجاهد ـ.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: حصوناً وقصوراً مشيّدة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: مأخذاً للماء تحت الأرض، ـ عن قتادة ـ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ كأنّكم تخلدون فيها، فلا تموتون. فإنّ هذه الأبنية بناء من يطمع في الخلود. قال الزجّاج: معناه: تتّخذون مباني للخلود، لا تتفكّرون في الموت.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطش: الأخذ باليد أي: إذا بطشتم بأحد تريدون إنزال عقوبة به، عاقبتموه عقوبة من يريد التجبّر بإرتكاب العظائم، كما قال: ﴿إن تريد إلّا أن تكون جبّاراً في الأرض﴾. وقيل: معناه: وإذا عاقبتم قتلتم، فمعنى الجبار: القتال على الغضب بغير حقّ. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ مرَّ معناه.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعطاكم ما تعلمون من الخير. والإمداد: إتّباع الثاني ما قبله شيئاً بعد شيء على انتظام. وهؤلاء أمدُّوا بأنواع من النعم،وهو قوله:﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فأعطاهم رزقهم على إدرار.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إنْ عصيتموني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد يوم القيامة. وصفه بالعظم؛ لما فيه من الأهوال العظيمة. ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي: أنهيتنا أم لم تكن من الناهين لنا، ـ عن الكلبي ـ. والمعنى: إنّا لا نقبل ما تدعونا إليه على كل حال، أوعظت أم سكت أي: حصول الوعظ منك وإرتفاعه مستويان عندنا.

ثمّ قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به إلّا كذب الأوّلين الذين إدَّعوا النبوّة، ولم يكونوا أنبياء، وأنت مثلهم. ومن قرأ: ﴿خُلق الأوّلين﴾ ـ بضمّ الخاء ـ فالمعنى: ما هذا الذي نحن عليه من تشييد الأبنية، وإتّخاذ المصانع، والبطش الشديد، إلّا عادة الأوّلين من قبلنا. وقيل: معناه: ما هذا الذي نحن فيه إلّا عادة الأوّلين، في أنّهم كانوا يحيون ويموتون، ولا بعث ولا حساب. وقيل: معناه: ما الذي تدّعيه من النبوّة والرسالة، إلّا عادة الأوّلين.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما تدعيه لا في الدنيا، ولا بعد الموت ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعذاب الإستئصال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قد مرَّ تفسيره.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾
فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل الكوفة، والشام: ﴿فارهين﴾ ـ بالألف ـ. والباقون:

---

(١) أدغم «كذبت ثمود» أبو عمرو وحمزة والكسائي وابن عامر من طريق هشام، ومن طريق ابن ذكوان في بعض رواياته. ومرّ كسر «بيوت» و«عيون» في سورة البقرة.

﴿فرهين﴾ ـ بغير الألف ـ.

الحجة: قال الزجّاج: فرهين: أشرين مرحين. وفارهين: حاذقين. أبو عبيدة قال: قد جاء «فارهين» في معنى «فرهين». وأنشد:

لا أَسْتَكِينُ إذا أزمَةُ أَزِمَتْ ... وَلَنْ تَرانِي بِخَيْرٍ فَارِهَ اللَبَبِ[1]

أي: مرح اللبب.

اللغة: الهضيم: اللطيف في جسمه، ومنه: هضيمة الحشا أي: لطيفة الحشا، ومنه: هضمه حقة أي: نقصه؛ لأنّه لطف جسمه بنقصه. ومنه: هضم الطعام: إذا لطف وإستحال إلى مشاكلة البدن. والمُسَحَّر: الذي قد سحر مرّة بعد أخرى، وهو أن يكون ممّن له سَحْر أي: رئة. ومنه: قولهم: إنتفخ سَحْره، قال لبيد:

فَإنْ تَسْأَلِينافَيم نَحْنُ، فَإنَّنا ... عَصافِيرُمِنْ هذا الأَنامِ المُسَحَّرِ

أي: المعلل بالطعام والشراب على أمر يخفى كخفاء السحر. والشرب: الحظّ من الماء قال:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْها غَيْرَ أنْ نَطَقَتْ ... حَمامَةٌ فِي غُصُونٍ ذاتِ أوْقالِ[2]

أي: لم يمنع حظّها من الماء. والسوء: الضرّ الذي يشعر به صاحبه؛ لأنّه يسوؤه وقوعه: والعقر: قطع شيء من بدن الحيّ، فإذا كثر إنتفت معه الحياة، وإذا قلّ لم ينتف.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن ثمود، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو مفسّر في هذه السورة إلى قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَيْهُنَا آمِنِينَ﴾ معناه: أتظنّون أنّكم تتركون فيما أعطاكم الله من الخير في هذه الدنيا، آمنين من الموت والعذاب. وهذا

---

(١) الأزمة: الشدّة والمصيبة، يصف نفسه بقوّة القلب، وأنّه لا يؤثّر فيه المصائب، فيضع، ولا موجبات الفرح، فيبطر.

(٢) أو قال: أثمار تنك الشجرة، يريد أنّ نوح الحمامة هيّج حزنها، فمنعها من شرب الماء.

إخبار بأنّ ما هم فيه من النعم، لا يبقى عليهم، وأنّها ستزول عنهم.

ثمّ عدَّد نعمهم التي كانوا فيها، فقال: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين تسترها الشجر ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ الطلع: الكفرى، مشتقّ من الطلوع؛ لأنّه يطلع من النخل. والهضيم: اليانع النضيج، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو الرطب اللين، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: هو الضامر بدخول بعضه في بعض، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: هو الذي إذا مسّ تفتت، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هو الذي ليس فيه نوى، ـ عن الحسن ـ.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ أي: حاذقين بنحتها، من فره الرجل فراهة فهو فاره. وفرهين: أشرين بطرين، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ في مخالفته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمركم به ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: الرؤساء منهم، وهم تسعة رهط من ثمود الذين عقروا الناقة.

ثمّ وصفهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا﴾ في جوابه ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ﴾ قد أصبت بسحر، ففسد عقلك، فصرت لا تدري ما تقول. وهو بمعنى المسحورين. والمراد: سحرت مرّة بعد أخرى. وقيل: معناه: من المخدوعين. وقيل: من المخلوقين المعلّلين بالطعام والشراب، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: أنت مخلوق مثلنا لك سحر أي: رئة تأكل وتشرب، فلمَ صرت أولى منّا بالنبوّة ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: آدميّ مثلنا.

﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ أي: بمعجزة تدلّ على صدقك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ وهي الناقة التي أخرجها الله تعالى من الصخرة، عشراء تو[تر]غو على ما إقترحوه. ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: لها حظّ من الماء لا تزاحموها فيه، ولكم حظّ لا تزاحمكم فيه. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: إنّ أوّل عين نبعت في الأرض، هي التي فجرها الله لصالح، فقال: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ

شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾. ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هذا مع ما بعده، مفسَّر في سورة الأعراف، والقصّة مشروحة هناك.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

(اللغة): العادي والظالم والجائر، نظائر، وهو من العدوان، وأصله من العدو، الذي هو الإسراع في السعي. والقالي: المبغض، يقال: قلاه يقليه قلى: أبغضه. الغابر: الباقي في قلة كالتراب الذي يذهب بالكنس، ويبقى غباره. والغبر: البقيّة من اللبن في الأخلاف. قال الحرث بن حلزة:

لا تَكْسَعِ الشَّولَ بِأغْبارِها ... إنَّكَ لا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ[1]

(١) حارث بن حلزة من أصحاب المعلّقات، من معمري العرب، يقال عاش مائة وخمسين ←

والتدمير: الإهلاك بأهول الأمور.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن قوم لوط، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقد فسَّرناه إلى قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تصيبون الذكور من جملة الخلائق. ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أي: وتتركون ما خلقه الله لكم من الأزواج والنساء. والزوجة: هي التي وقع عليها العقد بالنكاح الصحيح، يقال لها: زوجة وزوج. قال سبحانه: ﴿أسكن أنت وزوجك الجنّة﴾.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: ظالمون معتدون الحلال إلى الحرام، والطاعة إلى المعصية. ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ وترجع عمّا تقوله، ولم تمتنع عن دعوتنا، وتقبيح أفعالنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمُخْرَجِينَ﴾ عن بلدنا. ﴿قَالَ﴾ لوط لهم عند ذلك: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنْ الْقَالِينَ﴾ أي: من المبغضين الكارهين.

ثمّ دعا ربّه فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عاقبة ما يعملونه، وهو العذاب النازل بهم. وأجاب الله سبحانه دعائه، قال: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: من العذاب الذي وقع بهم. ويجوز أن يكون أراد: نجّيناه وأهله من نفس عملهم، وتكون النجاة من العذاب النازل بهم تبعاً لذلك. والأوّل أوضح، ويدلّ عليه قوله: ﴿إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾. وأراد بالعجوز إمرأته؛ لأنّها كانت تدلّ أهل الفساد على أضيافه، فكانت من الباقين في العذاب، وهلكت فيما بعد مع من خرج من القرية، بما أمطره الله من الحجارة.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أهلكناهم بالخسف. وقيل: بالإئتفاك، وهو الإنقلاب.

← سنة، ومات قبل مبعث النبيّ ﷺ، وهذا من أبيات يوصي بها ولده عمروا، ويرغّبه في الجود وإطعام الأضياف؛ لقلّة ثبات المال. ولا تكسع الشول: أي لاتضرب الماء البارد على الضرع؛ ليرتفع اللبن فتسمن الناقة، ولكن إحلبها للأضياف، فإنّك لا تدري لمن تكون ولدها.

ثمّ أمطر على من كان غائباً منهم من القرية الحجارة من السماء، وهو قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس وإشتدّ مطر الكافرين مطرهم، وما بعده مفسّر قبل.

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ
مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

القراءة: قرأ أهل الحجاز، والشام ﴿ليكة﴾ ـ بالنصب، غير مهموز هيهنا وفي ص ـ. والباقون: ﴿الأيكة﴾ ـ بإثبات الهمزة والجرّ، في الموضعين ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: الأيكة: تعريف أيكة، فإذا خفّفت الهمزة حذفتها،

وألقيت حركتها على اللام، فقلت: اَلْيَكَة، كما قالوا اَلْحَمَر. ومن قال: لَحْمَر، قال: لَيْكَة. وقول من قال: ﴿أصحاب ليكةَ﴾ ـ بفتح التاء ـ مشكل[١]؛ لأنه فتح مع لحاق لام المعرفة الكلمة. وهذا في الإمتناع كقول من قال: بلحمر، فيفتح. وإنّما يخرج هذا على أنّ المعنى قد سمّي بكلمة تكون اللام فيها فاء، ولم أسمع بها. وقال الزجّاج: جاء في التفسير: إنّ إسم المدينة التي أرسل إليها شعيب كان ليكة.

(اللغة): الأيكة: الغيضة ذات الشجر الملتف. والجمع الأيك. قال:

تَجْلُو بِقادِمَتَي حَمامَةِ أيْكَةٍ بَرَداً أسِفَّ لِثاثُهُ بِالإثمِدِ[٢]

المخسر: المعرض للخسران في رأس المال بالنقصان. أخسر يخسر إخساراً: إذا جعله يخسر في ماله. ونقيضه: أربحه. والجِبِلة: الخليقة التي طبع عليها الشيء ـ بكسر الجيم والباء ـ. وقيل أيضاً بضمّهما. ويسقطون الهاء أيضاً. قال أبو ذؤيب:

مَنايا يُقَرِّبْنَ الحُتُوفِ لأهْلِها جِهاراً، وَيَسْتَمْتِعْنَ بِالأنَسِ الجِبْلِ[١]

وقال آخر:

وَالمَوْتَ أعْظَمُ حادِثٍ مِمّا يَمُرُّ عَلَى الجِبِلَّة

(المعنى): ثمّ أخبر سبحانه عن قوم شعيب، فقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ

---

(١) والحقّ أنّه يمكن خروج بعض الكلمات عن القواعد المعلومة في النحو، بشرط أن يثبت ذلك في إستعمال الفصحاء من أهل اللسان، وقد أكثر سيبويه في الكتاب من ذلك، وإذا ثبت القرائة من أهل الحجاز، وفيهم: نافع وابن كثير، والشام ومنهم: ابن عامر، ثبت صحّة هذه الكلمة، كما ثبت صحّة استحوذ من غير إبدال الواو ألفاً، كما في «إستقام» وأختلف في «قسطاس» فحفص وحمزة والكسائي بكسر القاف، وقرأ: كسْفا ـ بسكون السين ـ جميع القرّاء إلّا حفصاً، وفتح «ربّي أعلم» الحرميان وأبو عمرو.

(٢) البيت للنابغة، يعني: تظهر الشفتين كريشتي مقدم جناح حمامة. وثغر: كالبرد ذرّ بالإثمد، وكنّ يذررن الكحل على اللثة.

[١] الجِبْلة والجُبْلة والجِبلَة: الأمّة من الخلق.

﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وهم أهل مدين ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّهم غيرهم، ـ عن قتادة ـ. وقال: إنّ الله سبحانه أرسل شعيباً إلى أمّتين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم؛ لأنّه لم يكن من نسبهم، وكان من أهل مدين، فلذلك قال في ذلك الموضع: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مفسّر فيما قبل إلى قوله: ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾. وإنما حكى الله سبحانه دعوة كل نبيّ بصيغة واحدة، ولفظ واحد؛ إشعاراً بأنّ الحقّ الذي تأتي به الرسل، ويدعون إليه واحد، من إتّقاء الله تعالى، وإجتناب معاصيه، والإخلاص في عبادته، وطاعة رسله. وإنّ أنبياء الله تعالى لا يكونون إلّا أمناء الله في عباده، وإنّه لا يجوز على واحد منهم أن يأخذ الأجرة على رسالته، لما في ذلك من التنفير عن قبولهم.

ثمّ قال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: أعطوا الكيل وافياً غير ناقص، ويدخل الوفاء في الكيل والوزن والذرع والعدد[1]. ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: من الناقصين للكيل والوزن. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالعدل الذي لا حيف فيه، يعني: زنوا وزناً يجمع الإيفاء والإستيفاء. وذكرنا الأقوال في القسطاس في سورة بني إسرائيل.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: ولا تنقصوا الناس حقوقهم، ولا تمنعوها ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تسعوا في الأرض بالفساد. والعثي: أشدّ الفساد والخراب، ـ عن أبي عبيدة ـ.

---

(١) يدخل ساير الموازين في الكيل؛ لأنّ القرينة قائمة على إرادة المعني الأعمّ من الكيل مجازاً؛ لأنّه تعالى ذكر بعده: وزنوا بالقسطاس المستقيم، وذكر أيضاً: ولا تبخسوا الناس أشيائهم، وقال: ولا تكونوا من المخسرين. ثمّ إنّ الآية لا تدلّ على حرمة التصرّف على الآخذ فيما أخذه ناقصاً، بل على عصيان المعطي.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: أوجدكم بعد العدم ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ أي: الخليقة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: وخلق الأمم المتقدّمين.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ مرَّ معناه ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: وإنّا نظنّك كاذباً من جملة الكاذبين. وإنْ: هذه مخفّفة من الثقيلة، ولذلك لزمها اللام في الخبر.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: قطعاً من السماء، جمع كسفة، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومعناه: إنّه إن كان في معلومه أنّه إنْ أبقاكم تبتم، أو تاب بعضكم، لم يقتطعكم بالعذاب. وإنْ كان في معلومه أنّه لا يفلح واحد منكم، فسيأتيكم عذاب الإستئصال.

ثمّ قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ أصابهم حرّ شديد سبعة أيّام، وحبس عنهم الريح، ثمّ غشيتهم سحابة. فلمّا خرجوا إليها طلباً للبرد من شدّة الحرّ الذي أصابهم، أمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم، فكان من أعظم الأيّام في الدنيا عذاباً. وذلك قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ومعنى الظلّة: هيهنا السحابة التي قد أظلّتهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ مفسر إلى آخره.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾
عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ
﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ
عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ

فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟
هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا
لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ
عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص وزيد: ﴿نزل﴾ ـ بالتخفيف ـ، ﴿الروحُ الأمين﴾ ـ بالرفع ـ. والباقون. ﴿نزَّل﴾ ـ بالتشديد ـ، ﴿الروحَ الأمين﴾ ـ بالنصب ـ. وقرأ ابن عامر: ﴿أَوَلَمْ تَكُن﴾ ـ بالتاء ـ، ﴿آيةٌ﴾ ـ بالرفع ـ. والباقون: ﴿أولم يكن﴾ ـ بالياء ـ ﴿آيةً﴾ ـ بالنصب ـ. وفي الشواذّ، قراءة الحسن: ﴿الأعجميين﴾ وقراءته أيضاً ﴿فتأتيهم بغتة﴾ ـ بالتاء ـ ﴿ما تنزلت به الشياطون﴾.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من قال: ﴿نزّل به﴾ ـ بالتشديد ـ: قوله: ﴿نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، و ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ فإنّه مطاوع ﴿نَزَلَ﴾، وقوله: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾. ومن أسند الفعل إلى الروح، فقال: نزل به

---

(١) إتّفقوا على كتابة «علموا» بالواو والألف. ويقف حمزه عليها، كما يقف على «أنبوا ما كانوا» في الأنعام.

الروح الأمين، فإنّه ينزل بأمر الله تعالى، فمعناه معنى المثقّلة.

والوجه في قراءة ابن عامر ﴿أو لم تكن لهم آية﴾ أنَّ في ﴿تكن﴾ ضمير القصّة، والحديث؛ لأنّ ما يقع تفسيراً للقصة والحديث من الجملة، إذا كان فيها إسم مؤنّث، جاز تأنيث المضمر على شريطة التفسير، كقوله: ﴿فَإِذا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَىٰ ٱلْأَبْصَارُ﴾ وكذلك: ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، لمّا كان فيه المؤنّث، جاز أن يؤنّث «تكن». فآية: مرتفعة بأنّها خبر المبتدأ الذي هو: ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾. ولا يمتنع أن لا يضمر القصّة والحديث، ولكن يرفع ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ بقوله: ﴿تكن﴾، وإنْ كان في «تكن» علامة التأنيث؛ لأنّ ﴿أن يعلمه﴾ في المعنى هو الآية. فيحمل الكلام على المعنى، كما حمل على المعنى في قوله: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، فأنّث؛ لما كان المراد بالأمثال: الحسنات.

وكذلك قراءة من قرأ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا﴾. وقال ابن جنّي في قراءة الحسن ﴿الأعجميّين﴾: إنّها تفسير للغرض في القراءة المجمع عليها، وهي قوله: بعض الأعجمين، وذلك أنّ ما كان من الصفات على «أفعل»، ومؤنّثه «فعلى»، لا يجمع بالواو والنون، ولا بالألف والتاء. فكان قياسه أنْ لا يجوز فيه الأعجمون؛ لأنّ مؤنّثه: عجمى. لكن سببه أنّه أريد به الأعجميّون، ثمّ حذف ياء النسب، وجعل جمعه بالواو والنون دليلاً عليها، وإمارة لإرادتها، كما جعلت صحّة الواو في «عواور»، إمارة لإرادة الياء في «عواوير».

وقوله: ﴿فتأتيهم بغتة﴾ ـ بالتاء ـ معناه: فتأتيهم الساعة، فأضمر الساعة؛ لدلالة العذاب الواقع فيها عليها، ولكثرة ما يرد في القرآن من ذكر إتيانها. وأمّا قوله: ﴿الشياطون﴾ فقد قال الفرّاء: فيه غلط الشيخ، يعني: الحسن. فقيل: ذلك للنضربن شميل، فقال: إذا جاز أن يحتجّ بقول العجاج وقول رؤبة، فهلّا جاز أنْ

يحتجّ بقول الحسن، مع أنّا نعلم أنّه لم يقرأ له إلّا وقد سمعه. قال ابن جنّي: هذا ممّا يعرض مثله للفصيح؛ لتداخل الجمعين عليه، وتشابههما عنده، ونحو منه: قولهم: مسيل، فيمن أخذه من السيل، ثمّ قالوا في جمعه: مسلان وأمسلة. وفي معين: معنان وأمعنة، مع أنَّ الأقوى أن يكون «معنان» من العين. فالشياطون غلط لكن يشبهه، كما أنَّ من همز «مصائب»، كذلك عندهم. وقال الزمخشري: الوجه فيه: أنّه رأى آخره كآخر «يبرين وفلسطين»، فتخيَّر بين أنْ يجري الإعراب على النون، وبين أنْ يجريه على ما قبله، فيقول: الشياطين والشياطون، كما تخيّرت العرب بين أنْ تقول: هذه يبرون ويبرين، وفلسطون وفلسطين. وحقّه أنْ يشقّ من الشيطوطة، وهي الهلاك، كما قيل له الباطل.

اللغة: الأعجم: هو الذي يمتنع لسانه عن العربيّة. والعجميّ: نقيض العربيّ. والأعجمي: نقيض الفصيح.

الإعراب: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: في موضع النصب؛ على الحال. و ﴿بغتة﴾: مصدر وضع موضع الحال. ﴿سِنِينَ﴾: ظرف زمان ﴿مَتَّعْنَاهُمْ﴾ لمتعانهم. ﴿مَاأَغْنَىٰ﴾: ما نافية ومفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾ محذوف، وتقديره: ما أغنى عنهم تمتّعهم شيئاً. ﴿ذِكْرَىٰ﴾: في محل النصب؛ لأنّه مفعول له. ﴿وَمَا يَنبَغِي﴾: فاعل «ينبغي»، مستكن فيه، عائد إلى مصدر «تنزل»، تقديره: وما ينبغي لهم أن يتنزّلوا به.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أمر القرآن بعد أنْ قصَّ أخبار الأنبياء عليهم السلام؛ ليتّصل بها حديث نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ﴾ أي: نزل الله بالقرآن ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ يعني: جبرائيل عليه السلام، وهو أمين الله عليه، لا يغيّره ولا يبدّله. وسمّاه روحاً؛ لأنّه يحيي به الدين. وقيل: لأنه يحيي به الأرواح بما ينزل من البركات. وقيل: لأنّه جسم روحانيّ.

﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمّد. وهذا على سبيل التوسّع؛ لأنّ الله تعالى يسمعه

جبرائيل عليه السلام فيحفظه، وينزل به على الرسول، ويقرأه عليه، فيعيه ويحفظه بقلبه. فكأنّه نزل به على قلبه. وقيل: معناه: لقنك الله حتى تلقنته، وثبته على قلبك، وجعل قلبك وعاء له.

﴿لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتخوّف به الناس، وتنذرهم بآيات الله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي: بلغة العرب، مبين للناس مابهم إله الحاجة في دينهم. وقيل: أراد به لسان قريش ليفهموا ما فيه، ولا يقولوا: ما نفهم ما قال محمّد، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: لسان جرهم. وإنّما جعله عربيّاً؛ لأنّ المنزل عليه عربيّ، والمخاطبون به عرب؛ ولأنّه تحدّى بفصاحته فصحاء العرب. وقد تضمّنت هذه الآية تشريف هذه اللغة؛ لأنّه سمّاها مبيناً، ولذلك إختارها لأهل الجنّة.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: وإنَّ ذكرالقرآن وخبره ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: لفي كتب الأوّلين على وجه البشارة به، وبمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم، لا بمعنى أنَّ الله أنزله على غير محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. وواحد الزبر: زبور. وقيل: معناه: إنّه أنزل على سائر الأنبياء من الدعاء إلى التوحيد والعدل، والإعتراف بالبعث، وأقاصيص الأمم مثل الذي نزل في القرآن.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ معناه: أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل بمجيئه، على ما تقدّمت البشارة، دلالة لهم على صحّة نبوّته؛ لأنّ العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل، كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وكانت اليهود تبشّر به، وتستفتح على العرب به، وكان ذلك سبب إسلام الأوس والخزرج، على ما مرّ بيانه، وعلماء بني إسرائيل عبد الله بن سلام وأصحابه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هم خمسة: عبد الله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة، وأسد، وأسيد، ـ عن عطية ـ.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أي: ولو نزّلنا القرآن على رجل ليس من العرب، أو على من لا يفصح ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على العرب ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: لم يؤمنوا به، وأنفوا من إتّباعه، لكنّا أنزلناه بلسان العرب على أفصح رجل منهم، من أشرف بيت؛ ليتدبَّروا فيه، وليكون أدعى إلى إتّباعه وتصديقه. وقيل: معناه: لو نزّلناه على أعجم من البهائم، أو غيرها، لما آمنوا به، وإنْ كان فيه زيادة أعجوبة، ـ عن عبدالله بن مطيع ـ. وروي عن عبد الله بن مسعود، أنّه سئل عن هذه الآية، وهو على بعير، فأشار إليه، وقال: هذا من الأعجمين.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما أنزلنا القرآن عربيّاً مبيناً، أمررناه، وأدخلناه، وأوقعناه في قلوب الكافرين، بأن أمرنا النبيّ ﷺ حتى قرأه عليهم، وبيَّنه لهم.

ثمّ بيَّن أنّهم مع ذلك ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فيلجئهم إلى الإيمان به. وهذا خبر عن الكفّار الّذين علم الله أنّهم لا يؤمنون أبداً. ﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ أي: العذاب الذي يتوقّعونه، ويستعجلونه ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: مؤخّرون لنؤمن ولنصدّق.

قال مقاتل: لمّا أوعدهم النبيّ ﷺ العذاب، إستعجلوا العذاب تكذيباً به، فقال الله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ توبيخاً لهم. ثمّ قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ أي: أرأيت إن أنظرناهم، وأخَّرناهم سنين، ومتّعناهم بشيء من الدنيا، ثمّ أتاهم العذاب لم يغن عنهم ما متّعوا في تلك السنين من النعيم؛ لإزديادهم في الآثام، وإكتسابهم من الأجرام. وهو إستفهام في معنى التقرير. ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي:

وما أهلكنا قرية.

﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: إلّا بعد إقامة الحجج عليهم بتقديم الإنذار، وإرسال الرسل. ﴿ذِكْرَى﴾ أي: تذكيراً وموعظة لهم؛ ليتّعظوا ويصلحوا. فإذا لم يصلحوا مع التخويف والتحذير، وإستحقّوا عذاب الإستئصال؛ بإصرارهم على الكفر والعناد، أهلكناهم.

﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: وما ظلمناهم بالإهلاك؛ لأنّا لا نظلم أحداً. نفى سبحانه عن نفسه الظلم، وفي هذا تكذيب لمن زعم أنَّ كل ظلم وكفر في الدنيا، هو من خلقه وإرادته. وغاية الظلم أنْ يعاقب عباده على ما خلقه فيهم، وأراده منهم، تعالى الله عن ذلك، وتقدّس.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ كما يزعمه بعض المشركين ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ إنزال ذلك، أي: للشياطين ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك، ولا يقدرون عليه؛ لأنّ الله تعالى يحرس المعجزة عن أنْ يموِّه بها المبطل، فإنّه إذا أراد أنْ يدلَّ بها على صدق الصادق، أخلصها بمثل هذه الحراسة، حتى تصحّ الدلالة بها. ومعنى قول العرب: ينبغي لك أن تفعل كذا أنّه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية التي هي الطلب.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي: مصروفون عن إستماع القرآن أي: عن المكان الذي يستمعون ذلك فيه، ممنوعون عنه بالشهب الثاقبة. وقيل: معناه: إنَّ الشياطين عن سمع القرآن منحون، ـ عن قتادة ـ. فإنّ العزل تنحية الشيء عن موضع إلى خلافه، وإزالته عن أمر إلى نقيضه. قال مقاتل: قالت قريش: إنّما تجيء بالقرآن الشياطين، فتلقيه على لسان محمد ﷺ فأكذبهم الله تعالى بأن قال: إنهم لا يقدرون بأن يأتوا بالقرآن من السماء، قد حيل بينهم و بين السمع بالملائكة والشهب.

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة وابن عامر: ﴿فتوكل﴾ ـ بالفاء ـ. والباقون: بالواو.

الحجة: هو في مصاحف أهل المدينة والشام بالفاء. وفي مصاحب مكّة والعراق بالواو. والوجهان حسنان.

اللغة: عشيرة الرجل: قرابته، سمّوا بذلك؛ لأنّه يعاشرهم، وهم يعاشرونه.

المعنى: ثمّ خاطب سبحانه نبيَّه ﷺ، والمراد به سائر المكلّفين، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ﴾ بسبب ذلك. وإنّما أفرده بالخطاب، ليعلم أنّ العظيم الشأن إذا أوعِدَ، فمن دونه كيف يكون حاله. وإذا حذر هو، فغيره أولى بالتحذير.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أي: رهطك الأدنين أي: أنذرهم بالإفصاح من غير تليين بالقول، كما تدعو إليه مقاربة العشيرة. وإنّما خصّهم بالذكر؛ تنبيهاً على أنّه ينذر غيرهم، وأنّه لا يداهنهم لأجل القرابة، ليقطع طمع الأجانب عن مداهنته في الدين. وقيل: إنّه ﷺ أمر بأن يبدأ بهم في الإنذار والدعاء إلى الله، ثمّ

بالذين يلونهم، كما قال: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار﴾؛ لأنّ ذلك هو الذي يقتضيه حسن الترتيب. وقيل: إنّه إنما خصّهم؛ لأنّه يمكنه أن يجمعهم، ثمّ ينذرهم، وقد فعل ذلك النبي ﷺ، وإشتهرت القصة بذلك عند الخاصّ والعامّ.

وفي الخبر المأثور عن البراء بن عازب أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ بني عبدالمطّلب، وهم يومئذ أربعون رجلاً، الرجل منهم يأكل المسنة[١]، ويشرب العسّ، فأمر عليّاً عليه السلام برجل شاة، فأدمها[٢]، ثمّ قال: أدنوا بسم الله، فدنا القوم عشرة، عشرة، فأكلوا حتى صدروا. ثم دعا بقعب[٣] من لبن، فجرع منه جرعة، ثمّ قال لهم: إشربوا بسم الله. فشربوا حتى رووا. فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل. فسكت ﷺ يومئذ، ولم يتكلّم.

ثمّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب، ثمّ أنذرهم رسول الله ﷺ فقال: يا بني عبدالمطّلب! إنّي أنا النذير إليكم من الله عزّوجلّ، والبشير. فأسلموا وأطيعوني تهتدوا. ثمّ قال: من يؤاخيني ويؤازرني، ويكون وليّي، ووصيّي بعدي، وخليفتي في أهلي، ويقضي ديني؟ فسكت القوم. فأعادها ثلاثاً، كل ذلك يسكت القوم، ويقول عليّ عليه السلام: أنا. فقال في المرّة الثالثة أنت. فقام القوم، وهم يقولون لأبي طالب: أطِعْ إبنك فقد أمِّر عليك. أورده الثعلبي في تفسيره.

وروي عن أبي رافع هذه القصّة، وأنّه جمعهم في الشعب، فصنع لهم رجل شاة، فأكلوا حتى تضلعوا، وسقاهم عسّاً فشربوا كلّهم حتى رووا. ثمّ قال: إنّ الله تعالى، أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم عشيرتي ورهطي. وإنّ الله لم يبعث

---

[١] وفي بعض الروايات: «الجذعة»، وفي بعضها: «الجفرة». وهي من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر، وفصل عن أمه، وأخذ في الرعي. والعس: القدح الكبير.

[٢] أدم الخبز: خلطه بالأدام.

[٣] القعب: القدح الضخم الغليظ.

نبيّاً إلّا جعل له من أهله أخاً، ووزيراً، ووارثاً ووصيّاً، وخليفة في أهله، فأيّكم يقوم فيُبايعني على أنّه أخي، ووارثي، ووزيري، ووصيّي، ويكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي؟ فسكت القوم، فقال: ليقومنَّ قائمكم، أو ليكوننَّ في غيركم، ثمّ لتندمنّ. ثمّ أعاد الكلام ثلاث مرّات. فقام عليّ عليه السلام فبايعه، وأجابه، ثمّ قال: أدن منّي. فدنا منه، ففتح فاه، ومجَّ في فيه من ريقه، وتفل بين كتفيه وثدييه، فقال أبولهب: فبئس ماحبوت به[1] ابن عمّك أن أجابك، فملأت فاه ووجهه بزاقاً! فقال صلى الله عليه وآله: ملأته حكمة وعلماً.

وعن ابن عباس قال: لمّا نزلت الآية، صعد رسول الله صلى الله عليه وآله على الصفا، فقال: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك. فقال: أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم، أو ممسيكم، ما كنتم تصدّقونني؟ قالوا: بلى. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تبّاً لك! ألهذا دعوتنا جميعاً. فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة. وفي قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين، ورهطك منهم المخلصين﴾. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألن جانبك، وتواضع لهم، وحسن أخلاقك معهم، ـ عن أبي [ابن] زيد، وغيره ـ. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ يعني: أقاربك، بعد إنذارك إيّاهم، وخالفوك فيما تدعوهم إليه ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: من أعمالكم القبيحة، وعبادتكم الأصنام.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي: فوّض أمرك إلى العزيز المنتقم من أعدائك، الرحيم بأوليائه؛ ليكفيك كيد أعدائك الذين عصوك فيما أمرتهم به. ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: الذي يبصرك حين تقوم من مجلسك، أو فراشك إلى الصلاة وحدك، أو في الجماعة. وقيل: معناه: يراك حين تقوم في صلاتك،

---

[1] أي أعطيت به.

ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: حين تقوم بالليل؛ لأنّه لا يطّلع عليه أحد غيره. وقيل: حين تقوم للإنذار، وأداء الرسالة.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي: ويرى تصرّفك في المصلّين بالركوع والسجود، والقيام والقعود، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. والمعنى: يراك حين تقوم إلى الصلاة مفرداً، وتقلّبك في الساجدين إذا صلّيت في جماعة. وقيل: معناه: وتقلّبك في أصلاب الموحّدين من نبيّ إلى نبيّ، حتى أخرجك نبيّاً، عن ابن عباس في رواية عطا، وعكرمة، وهو المرويّ عن أبي جعفر، وأبي عبد الله، صلوات الله عليهما، قالا: في أَصلاب النبيّين، نبيّ بعد نبيّ، أخرجه من صلب أبيه، من نكاح غير سفاح، من لدن آدم عليه السلام. وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا ترفعوا قبلي، ولا تضعوا قبلي، فإنّي أراكم من خلفي، كما أراكم من أمامي» ثمّ تلا هذه الآية ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع ما تتلو في صلاتك، ويعلم ما تضمر فيها.

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن
بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

القراءة: قرأ نافع: ﴿يَتْبعهم﴾ ـ ساكنة التاء ـ. والباقون: ﴿يَتَّبعهم﴾.

الحجة: الوجهان حسنان، يقال: تبعت القوم وأَتبعتهم: أَتبعهم.

اللغة: الأفّاك: الكذّاب. وأصل الإفك: القلب. والأفاك: الكثير القلب للخبر عن جهة الصدق إلى جهة الكذب. والأثيم: الفاعل للقبيح، يقال: أثم يأثم إثماً: إذا إرتكب القبيح. وتأثم: إذا ترك الإثم. والهائم: الذاهب على وجهه، ـ عن الكسائي ـ. وقيل: هو المخالف للقصد، ـ عن أبي عبيدة ـ.

الإعراب: إنتصب قوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾ لأنّه صفة مصدر محذوف، وتقديره: سيعلم الذين ظلموا إنقلاباً أي: انقلاب ينقلبون. ولا يجوز أن يكون معمول ﴿سيعلم﴾، لأنّ الإستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإنّما يعمل فيه ما بعده. والعلّة في ذلك الإستخبار قبل الخبر، ورتبة الإستخبار التقديم، فلا يجوز أن يعمل فيه الخبر؛ لأنّ الخبر بعده، وذلك أنّه موضوع على أنّهُ جواب مستخبر.

المعنى: لمّا أخبر الله سبحانه أنّ القرآن ليس ممّا تتنزّل به الشياطين، وأنّهُ وحي من الله، عقّبه بذكر من تنزّل عليه الشياطين، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: هل أُخبركم ﴿عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: إنّما تتنزّل الشياطين على كل كذّاب فاجر، عامل بالمعاصي، وهم الكهنة. وقيل: طليحة ومسيلمة، ـ عن مقاتل ـ. ولست بكذّاب، ولا أثيم، فلا يتنزّل عليك الشياطين، وإنّما يتنزّل عليك الملائكة.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ معناه: أنّ الشياطين يلقون ما يسمعونه إلى الكهنة والكذّابين، ويخلطون به كثيراً من الأكاذيب، ويوحونه إليهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أي: وأكثر الشياطين ﴿كَاذِبُونَ﴾ وقيل: أكثر الكهنة كاذبون. قال الحسن: هم الذين يسترقون السمع من الملائكة، فيلقون إلى الكهنة. وهذا كان قبل أن أُوحي إلى النبيّ ﷺ. وبعد ذلك ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قال ابن عباس: يريد شعراء المشركين، وذكر مقاتل أسماءهم، فقال: منهم عبدالله بن الزبعرى السهمي، وأبو سفيان بن الحرث

ابن عبدالمطّلب، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف الجمحي، وأبو عزة عمروبن عبد الله، كلهم من قريش، وأُميّة بن أبي الصلت الثقفي، تكلّموا بالكذب والباطل، وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمّد ﷺ، وقالوا الشعر، وإجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم، ويروون عنهم حين يهجون النبيّ ﷺ وأصحابه، فذلك قوله: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. وقيل: الغاوون: الشياطين، ـ عن قتادة، ومجاهد ـ. وقيل: أراد بالشعراء: الذين غلبت عليهم الأشعار حتى إشتغلوا بها عن القرآن والسنّة. وقيل: هم الشعراء الذين إذا غضبوا سبّوا، وإذا قالوا كذبوا. وإنّما صار الأغلب عليهم الغيّ؛ لأنّ الغالب عليهم الفسق، فإنّ الشاعر يصدر كلامه بالتشبيب، ثمّ يمدح للصلة، ويهجو على حميّة الجاهليّة، فيدعوه ذلك إلى الكذب، ووصف الإنسان بما ليس فيه من الفضائل والرذائل. وقيل: إنّهم القصاص الذين يكذبون في قصصهم، ويقولون ما يخطر ببالهم. وفي تفسير عليّ بن إبراهيم: إنّهم الذين يغيّرون دين الله تعالى، ويخالفون أمره. قال: وهل رأيتم شاعراً قطّ تبعه أحد، إنّما عني بذلك الذين وضعوا ديناً بآرائهم، فتبعهم الناس على ذلك. وروى العياشي؛ بالإسناد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: هم قوم تعلّموا وتفقّهوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا.

﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي: في كل فنّ من الكذب يتكلّمون، وفي كل لغو يخوضون، يمدحون ويذمّون بالباطل، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. والمعنى: أنّهم لمّا يغلب عليهم من الهوى، كالهائم على وجهه في كل واد، يعن له: فيخوضون في كل فنّ من الكلام والمعاني التي تعن لهم، ويريدونها. فالوادي مثل لفنون الكلام، وهيمانهم فيه: قولهم على الجهل بما يقولون من لغو وباطل، وغلوّ في مدح وذمّ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يحثُّون على أشياء لا يفعلونها، وينهون عن أشياء يرتكبونها.

ثمّ إستثنى من جملتهم، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهم شعراء المؤمنين، مثل: عبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وسائر شعراء المؤمنين، الذين مدحوا رسول الله ﷺ، وردّوا هجاء من هجاه. وفي الحديث عن الزهري قال: حدّثني عبدالرحمن بن كعب بن مالك أنّ كعب بن مالك قال: يا رسول الله! ماذا تقول في الشعر؟ فقال: إنّ المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لَكأنّما ينضحونهم بالنبل. وقال النبيّ ﷺ لحسان بن ثابت: «أهجهم، أو هاجهم وروح القدس معك». رواه البخاري ومسلم في الصحيحين. وقال الشعبي: كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان عليّ عليه السلام أشعر من الثلاثة.

﴿وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً﴾ لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله، ولم يجعلوا الشعر همَّهم. ﴿وَانتَصَرُوا﴾ من المشركين للرسول والمؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال الحسن: إنتصروا بما يحبّون الإنتصار به في الشريعة، وهو نظير قوله: ﴿لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول إلّا من ظلم﴾ أي ردّوا على المشركين ما كانوا يهجون به المؤمنين. ثمّ هدّد الظالمين، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي: سوف يعلم أيّ مرجع يرجعون، وأيّ منصرف ينصرفون؛ لأنّ منصرفهم إلى النار، نعوذ بالله منها!

سورة النمل

عدد آياتها: خمس وتسعون آية حجازيّ، أربع بصريّ شاميّ، ثلاث كوفيّ.

اختلافها: آيتان ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ حجازيّ، ﴿مِن قَوَارِيرَ﴾ غير الكوفيّ.

فضلها: أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ طسّ سليمان، كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بسليمان وكذب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادي: لا إله إلّا الله».

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه سورة الشعراء بذكر القرآن، إفتتح هذه السورة بذكره أيضاً، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ
وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن
لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ
إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ (٢) ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، ورويس، عن يعقوب: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ ـ منوّناً

---

(١) نقل حركة همزة «القرآن» الى الراء ابن كثير، كما في ساير المواضع. وفتح «إنّي آنست» الحرميان وأبو عمرو.

غير مضاف ـ. وقرأ الباقون: ﴿بشهابِ قبسٍ﴾ ـ مضافاً ـ.

الحجة: و اللغة: قال أبو عبيدة: الشهاب: النار. والقبس: ما إقتبست. وأنشد:

فِـي كَـفِّهِ صَـعْدَةٌ مُـثَقَّفَةٌ ... فِيها سِنانٌ كَشُعْلَةِ الْقَبَسِ (١)

وقال غيره: كل ذي نور فهو شهاب. قال أبو عليّ: يجوز أن يكون «قبس» صفة، ويجوز أن يكون إسماً غير صفة. فأمّا الصفة، فإنّهم يقولون: قبسته أقبسه قبساً. والقبس: الشيء المقبوس. فإذا كان القبس صفة، فالأحسن أن يجري على شهاب، كما جرى على الموصوف في قوله: «كأنّه ضرم بالكف مقبوس». وإذا كان مصدراً غير صفة، حسنت فيه الإضافة، ولا يحسن ذلك في الصفة؛ لأنّ الموصوف لا يضاف إلى صفته. وقال أبو الحسن: الإضافة، أجود وأكثر في القراءة، كما تقول: دارُ آجرٍ وسوارُ ذهبٍ. ولو قلت: سوارٌ ذهبٌ، ودارٌ آجرٌ، كان غريباً. قال أبو عليّ: جعل أبو الحسن القبس فيه غير وصف، ألا ترى أنّه جعله بمنزلة الآجر والذهب، وليس واحد منهما صفة.

الإعراب: ﴿هُدىً وَبُشْرَىٰ﴾: في محلّ النصب، أو الرفع. فالنصب: على الحال أي: هادية ومبشرة، والعامل فيهما: معنى الإشارة. والرفع على ثلاثة أوجه: علي: هي هدى وبشرى، وعلى: البدل من «آيات»، وعلى: أن يكون خبراً بعد خبر. ﴿أَن بُورِكَ﴾: أن: هي المفسّرة؛ لأنّ النداء فيه معنى القول، يعني: قيل له بورك. ولا يجوز أن يكون مخفّفة من الثقيلة، على تقدير: أنّه بورك؛ لأنّه كان يكون لابدّ من «قَدْ». والهاء في «أنّه» ضمير الشأن. و ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر. و ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾: عطف على «بورك» أي: نودي أن بورك، وأَن ألق عصاك.

---

(١) الصعدة: الرمح. وتثقيفه: تسوية.

المعنى: ﴿طس﴾ سبق تفسيره ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما وعدوا بمجيئه من القرآن. ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أضاف الآيات إلى القرآن، وآيات القرآن هي القرآن، فهو كقوله: ﴿إنّه لحقّ اليقين﴾. والقرآن والكتاب معناهما واحد، وصفه بالصفتين؛ ليفيد أنّه ممّا يظهر بالقراءة، ويظهر بالكتابة، وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً، ووصفه بأنّه ﴿مُبِينٍ﴾ تشبيه له بالناطق بكذا، ومعناه: إنّ الله بيّن فيه أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، ووعده ووعيده. وإذا وصفه بأنّه بيان، فإنّه يجري مجرى وصفه له بالنطق بهذه الأشياء في ظهور المعني به للنفس. والبيان هو الدلالة التي تبيّن بها الأشياء. والمبين: المظهر.

﴿هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هدى من الضلالة إلى الحقّ؛ بالبيان الذي فيه، والبرهان، وباللطف فيه من جهة الإعجاز الدالّ على صحّة أمر النبيّ ﷺ، وبشرى للمؤمنين بالجنّة والثواب. ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ على أن يكون تقديره: هادياً ومبشّراً. ويجوز أن يكون في موضع رفع، والتقدير: هو هدى وبشرى.

ثمّ وصف المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ بحدودها وواجباتها، ويداومون عليها في أوقاتها. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: ويخرجون ما يجب عليهم من الزكاة في أموالهم إلى من يستحقّها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: بالنشأة الآخرة، والبعث، والجزاء ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لا يشكّون فيه.

ثمّ وصف من خالفهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أختلف في معناه، فقيل: إنّ المعنى: زيّناً لهم أعمالهم التي أمرناهم بها بأحسن وجوه التزيين والترغيب، فهم يتحيَّرون بالذهاب عنها، ـ عن الحسن، والجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: زيّنّا لهم أعمالهم، بأن خلقنا فيهم شهوة القبيح الداعية لهم إلى فعل المعاصي؛ ليجتنبوا المشتهى، فهم يعمهون عن هذا

المعنى، ويتردَّدون في الحيرة. وقيل: معناه: حرمناهم التوفيق؛ عقوبة لهم على كفرهم، فتزيّنت أعمالهم في أعينهم، وحليت في صدورهم.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: شدّة العذاب؛ وصعوبته ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ أي: لا أحد أخسر صفقة منهم؛ لأنّهم يخسرون الثواب، ويحصل لهم بدلاً منه العقاب.

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ أي: لتعطى ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ في أمره ﴿عَلِيمٍ﴾ بخلقه أي: من عند الله؛ لأنّ الملك يلقيه من قبل الله سبحانه. وقيل: معناه: لتلقن. قال عليّ بن عيسى: عليم بمعنى: عالم، إلّا أنّ في «عليم» مبالغة، فهو مثل: سامع وسميع؛ لأنّ في قولنا: عالم، يفيد أنّ له معلوماً، كما أنّ قولنا: سامع، يفيد أنّ له مسموعاً. وإذا وصفناه بأنّه عليم، أفاد أنّه متى يصحّ معلوم فهو عالم به، كما أنّ «سميعاً» يفيد أنّه متى وجد مسموع، فلابدّ أن يكون سامعاً له.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ قال الزجّاج: العامل في ﴿إذ﴾ أذكر أي: اذكر في قصّة موسى؛ إذ قال لأهله أي: إمرأته، وهي بنت شعيب. ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ أي: أبصرت ورأيت ﴿نَاراً﴾ ومنه: إشتقاق الإنس؛ لأنّهم مرئيّون، وقيل: آنست أي: أحسست بالشيء، من جهة يؤنس بها. وما آنست به فقد أحسست به، مع سكون نفسك إليه.

﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ معناه: فألزموا مكانكم، لعلّي آتيكم من هذه النار بخبر الطريق، وأهتدي بها إلى الطريق؛ لأنّه كان أضلّ الطريق. ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي: بشعلة نار. والشهاب: نور كالعمود من النار، وكل نور يمتدّ مثل العمود، يسمّى شهاباً. وإنّما قال لإمرأته ﴿آتِيكُمْ﴾ على لفظ خطاب الجمع؛ لأنّه أقامها مقام الجماعة في الأنس بها، والسكون إليها في الأمكنة الموحشة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: لكي تستدفئوا بها، وذلك لأنّهم كانوا قد أصابهم البرد، وكانوا

شاتين، ـ عن الحسن وقتادة ـ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: جاء موسى إلى النار، يعني: التي ظنَّ أنّها نار، وهي نور ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال وهب: لمّا رأى موسى النار، وقف قريباً منها، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء، شديدة الخضرة، لا تزداد النار إلّا إشتعالاً، ولا تزداد الشجرة إلّا خضرة وحسناً. فلم تكن النار بحرارتها تحرق الشجرة، ولا الشجرة برطوبتها تطفىء النار، فعجب منها، وأهوى إليها بضغث في يده؛ ليقتبس منها، فمالت إليها، فخافها، فتأخّر عنها. ثمّ لم تزل تطمعه، ويطمع فيها، إلى أن نودي. والمراد به: نداء الوحي ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: بورك فيمن في النار: وهم الملائكة، وفيمن حولها: يعني: موسى، وذلك أن النور الذي رأى موسى، كان فيه ملائكة، لهم زجل بالتقديس والتسبيح، ومن حولها هو موسى؛ لأنّه كان بالقرب منها، ولم يكن فيها، فكأنّه قال: بارك الله على من في النار، وعليك يا موسى. ومخرجه الدعاء، والمراد: الخبر.

قال الكسائي: تقول العرب: باركه الله، وبارك عليه، وبارك فيه. وقيل: بورك من في النار معناه: من في النار سلطانه، وقدرته، وبرهانه. فالبركة ترجع إلى إسم الله، وتأويله: تبارك من نور هذا النور، ومن حولها، يعني: موسى والملائكة. وهذا معنى قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير. وقيل: معناه: بورك من في طلب النار، وهو موسى عليه السلام. فحذف المضاف، ومن حولها الملائكة أي: دامت البركة لموسى والملائكة. وهذا تحية من الله سبحانه لموسى بالبركة، كما حيّا إبراهيم عليه السلام بالبركة على ألسنة الملائكة، حين دخلوا عليه، فقالوا: ﴿رَحمة الله وَبَركاتهُ عَليكم أهل البيت﴾.

ثمّ نزّه سبحانه نفسه فقال: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تنزيهاً له عمّا لا يليق بصفاته تعالى، عن أن يكون جسماً يحتاج إلى جهة، أو عرضاً يحتاج إلى محلّ، أو يكون ممّن يتكلّم بآلة. ثمّ أخبر سبحانه موسى عن نفسه، وتعرف إليه

بصفاته، فقال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ﴾ أي: إنّ الذي يكلّمك هو الله العزيز أي: القادر الذي لا يغالب، ولا يمتنع عليه شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، المحكم لتدابيره.

ثمّ أراد سبحانه آية يعلم بها صحّة النداء، فقال: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ وفي الكلام حذف، تقديره: فألقاها، فصارت حيّة. ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: تتحرّك كما يتحرّك الجانّ، وهو الحيّة التي ليست بعظيمة، وإنّما شبّهها بالجانّ في خفّة حركتها، وإهتزازها، مع أنّها ثعبان في عظمها، ولذلك هاله ذلك، حتى ولّى مدبراً. وقيل: إنّ الحالتين مختلفتان؛ لأنّ الحال التي صارت ثعباناً هي الحال التي لقي فيها فرعون، والحال التي صارت جانّاً هي الحال التي خاطبه الله في أوّل ما بعثه نبيّاً.

﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ أي: رجع إلى ورائه ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع وكل راجع معقّب. والمفسّرون يقولون: لم يلتفت، ولم يقف، فقال الله سبحانه: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا تسكين من الله سبحانه لموسى، ونهي له عن الخوف. يقول له إنّك مرسل، والمرسل لا يخاف؛ لأنّه لا يفعل قبيحاً، ولا يخلّ بواجب فيخاف عقابي على ذلك.

إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ
يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً
قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ
أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة زيد بن أسلم، وأبي جعفر القاري: ﴿أَلَا مَن

ظلم﴾ ـ بفتح الهمزة خفيفة اللام ـ. وقرأ عليّ بن الحسين عليه السلام وقتادة: ﴿مَبْصَرَة﴾ ـ بفتح الميم والصاد ـ.

الحجة: قال ابن جنّي: من عدل إلى هذه القراءة، فكأنّه خفي عليه إنقطاع الإستثناء في القراءة الفاشية، فإنّ ﴿مَن﴾ في هذه القراءة في موضع رفع؛ بالإبتداء، أو يكون للشرط، كقولك: من يقم إضرب. و ﴿مَن﴾ هناك منصوبة؛ على الإستثناء وهو إستثناء منقطع، بمعنى «لكن». وقوله: ﴿مَبصَرة﴾ كقولك: ﴿هدىً ونوراً﴾، وقد كثرت «المفعلة» بمعنى الشياع والكثرة، في الجواهر والأحداث جميعاً، كقولهم، أرض مضبّة: كثيرة الضباب، ومفعاة: كثيرة الأفاعي، ومحياة ومحواة: كثيرة الحيّات. هذا في الجواهر. وأمّا الأحداث، فكقولك: البطنة موسنة، وأكل الرطب مورَدة، ومحمة، ومنه: المسعاة والمعلاة، والحقّ مجدرة بك ومخلقة. وفي كله معنى الكثرة من موضعين: أحدهما: المصدريّة التي فيه، والمصدر إلى الشياع والعموم والآخر: التاء، وهي لمثل ذلك.

الإعراب: ﴿بَيْضَاءُ﴾: منصوبة؛ على الحال. و ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: يتعلّق ببيضاء. و ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾: يتعلّق بألق، و ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾، ومعناه: إلقاء العصا، وإدخال اليد في جيبك من جملة الآيات التسع التي يظهرها له. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾. يتعلّق بمحذوف، والتقدير: مرسلاً إلى فرعون، فهو في موضع الحال. ﴿ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾: مفعول له. و ﴿كَيْفَ﴾: في موضع نصب؛ بأنّه خبر «كان».

المعنى: ثمّ قال سبحانه ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ المعنى: لكن من ظلم نفسه بفعل القبيح من غير المرسلين؛ لأنّ الأنبياء لا يقع منهم ظلم؛ لكونهم معصومين من الذنوب والقبائح. فيكون هذا إستثناء منقطعاً. وإنّما حسن ذلك لإجتماع الأنبياء وغيرهم في معنى شملهم، وهو التكليف.

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي: بدّل توبة وندماً على ما فعله من القبيح،

وعزماً أن لا يعود إليه في المستقبل. ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ساتر لذنبه، قابل لتوبته.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أعطاه آية أخرى، وقد سبق بيانها ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أي: مع تسع آيات أخر، أنت مرسل بها ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ فحذف، أو يكون تقديره: مرسلاً بها إلى فرعون، ومبعوثاً إليه، ومثله: قول الشاعر:

رَأَتنِي بِحَبْلَيْها فَصَدَّتْ مَخافَةً وَفِي الحَبْلِ رَوْعاءُ الفُؤادِ فَرُوقُ[1]

والتقدير: رأتني مقبلاً بحبليها. وقال الزجّاج: في تسع آيات معناه: من تسع آيات أي: أظهر هاتين الآيتين من جملة تسع آيات، كقولهم: خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان. والمعنى: منها فحلان. والآيات التسع مفسّرة في سورة بني إسرائيل.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله إلى أقبح وجوه الكفر ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ أي: حججنا، ومعجزاتنا ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحة بيّنة على من أبصر أنّها خارجة عن قدرة البشر، وهو مثل قوله: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ وقدمرَّ بيانه.

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر بيّن. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ وأنكروها، ولم يقرّوا بأنّها من عند الله تعالى. قال أبو عبيدة: الباء زائدة، والمعنى: جحدوها، كما قال العجاج:

نضرب بالسيف ونرجوا بالفرج

﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: عرفوها، وعلموها يقيناً بقلوبهم، وإنما جحدوها بألسنتهم. ﴿ظُلْماً﴾ على بني إسرائيل. وقيل: ظلماً على أنفسهم ﴿وَعُلُوّاً﴾

---

(١) الروعاء: من النوق، حديدة الفؤاد منها. وفَروق: أي خائف. وصدّت: أي ضجت.

أي: طلباً للعلوّ والرفعة، وتكبّراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى عليه السلام. ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمّد، أو أيّها السامع. ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ (١)

(اللغة): الوزع: أصله: المنع والكفّ، يقال: وزعه عن الظلم. قال النابغة:

عَلى حِينَ عاتَبْتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبا وَقُلتُ: أَلَمَّا تَصْحُ، وَالشَّيبُ وازِعٌ(٢)

---

(١) وقف الكسائي ويقعوب على «واد النمل» بالياء. وفتح ياء «أوزعني» الأزرق والبزي. ووقف يعقوب على «لديّ وعليّ» بهاء السكت.

(٢) يقول: لمت نفسي؛ لأنّي شيخ وأتعشّق كالصبيان، وألمّا تصحّ أي: ألا تفيق من سكر الهوى، والشيب مانع. وحين: يجوز جرّه وفتحه، مبنيّا؛ لأنّ الظرف إذا أضيف الى مبنيّ، وهو الفعل الماضي، جاز بنائه. وعلى: متعلّق بكفكفت في البيت السابق.

فكفكفت مني عبرة فرددتها على النحر منها مستهل ودامع

وقال آخر:

أَلَمْ تَزِعِ الهَوى إذ لَمْ تُواتِي؟ بَلى، وَسَلَوْتُ عَنْ طَلَبِ الفَتاةِ

والحطم: الكسر، ومنه: الحطمة: من أسماء جهنّم. والحطام: ما تحطم. والإيزاع: الإلهام. وفلان موزع بكذا أي: مولع به. قال الزجّاج: أوزعني تأويله في اللغة: كفّني عن الأشياء إلّا عن شكر نعمتك، وكفّني عمّا يباعد منك.

﴿الإعراب﴾: ﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ﴾: في موضع جزم؛ لأنّه جواب الأمر. قال الزجّاج: ضاحكاً حال مؤكّدة؛ لأنّ تبسّم في معنى ضحك. وقال بعض المتأخّرين: يجوز أن يكون حالاً بعد الفراغ من الفعل؛ لأنّ التبسّم دون الضحك؛ فكأنّه تبسّم أوّلاً ثمّ آل أمره إلى الضحك.

﴿المعنى﴾: ثمّ عطف سبحانه على قصّة موسى عليه السلام، قصّة داود وسليمان عليهما السلام، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾ أي: علماً بالقضاء بين الخلق، وبكلام الطير والدوابّ[1]، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إختارنا من بين الخلق، بأن جعلنا أنبياء، وبالمعجزة والملك والعلم الذي آتاناه. وبإلانة الحديد، وتسخير الشياطين، والجنّ والإنس. وإنّما نكر قوله علماً؛ ليدلّ على أنّه أراد علماً إحتاجا إليه ممّا ينبيء عن صدقهما في دعوى الرسالة.

---

(١) المنطق والكلام في متفاهم العرف: القدرة على تركيب حرفين من المعجم. ولا يقال للصبي أنّه أخذ في التكلّم إلّا بعد أن يقدر على ذلك، والحرف الواحد حاصل مع كل صوت، سواء كان من الصبي أو الحيوان أو الجماد؛ لأنّه معتمد على مركز واحد، ولايقدر غير الإنسان على قطع الصوت بمقطعين متواليين، ولذلك قال الفقهاء التكلّم بحرفين عمداً يبطل الصلاة، وعلى هذا فإطلاق المنطق على صوت الطير، وما كان يفهم منه سليمان مجاز، وإن كانت معجزة من سليمان عليه السلام، وإيجاد الصوت إعجازاً من جسم غير قادر على تركيب حرفين، لا يوجب كونه ناطقاً في صدق اللغة.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ في هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال، كتوريث غيرهم، وهو قول الحسن. وقيل: معناه: أنّه ورثه علمه، ونبوّته، وملكه، دون سائر أولاده. ومعنى الميراث هنا أنّه قام مقامه في ذلك، فأطلق عليه إسم الإرث، كما أطلق على الجنّة إسم الإرث، ـ عن الجبائي ـ. وهذا خلاف للظاهر. والصحيح عند أهل البيت عليهم السلام هو الأوّل. ﴿وَقَالَ﴾ سليمان مظهراً لنعمة الله، وشاكراً إيّاها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ أهل العربيّة يقولون: إنّه لا يطلق النطق على غير بني آدم، وإنّما يقال: الصوت؛ لأنّ النطق عبارة عن الكلام، ولا كلام للطير، إلّا أنّه لمّا فهم سليمان معنى صوت الطير، سمّاه منطقاً مجازاً. وقيل: إنّه أراد حقيقة المنطق؛ لأنّ من الطير ما له كلام مهجى، كالطيطوى. قال المبرّد: العرب تسمّي كل مبين عن نفسه ناطقاً ومتكلّماً. قال رؤبة:

لَوْ أَنَّني أُعطِيتُ عِلْمَ الحُكلِ ... عِلمَ سُلَيْمانَ، كَلامَ النَّمْلِ

والحكل: ما لا يسمع له صوت: وقال عليّ بن عيسى: إنّ الطير كانت تكلّم سليمان معجزة له، كما أخبر عن الهدهد. ومنطق الطير: صوت يتفاهم به معانيها، على صيغة واحدة، بخلاف منطق الناس الذي يتفاهمون به المعاني على صيغ مختلفة، ولذلك لم نفهم عنها مع طول مصاحبتها، ولم تفهم هي عنّا؛ لأنّ أفهامها مقصورة على تلك الأمور المخصوصة. ولما جعل سليمان يفهم عنها، كان قدعلم منطقها.

﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كل شيء يؤتى الأنبياء والملوك. وقيل: من كل ما يطلبه طالب لحاجته إليه، وإنتفاعه به. وقيل: من كل شيء علماً وتسخيراً في كل ما يصلح أن يكون معلوماً لنا، أو مسخراً لنا، غير أنّ مخرجه مخرج العموم، فيكون أبلغ وأحسن. وروي الواحدي بالإسناد عن محمّد بن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليه السلام قال: أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك

سبعمائة سنة وستّة أشهر ملك أهل الدنيا كلّهم من الجنّ والإنس والشياطين والدواب والطير والسباع. وأعطي علم كل شيء، ومنطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة التي سمع بها الناس، وذلك قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذا فضل الله الظاهر الذي لا يخفى على أحد، وهذا قول سليمان على وجه الإعتراف بنعم الله عليه. ويحتمل أن يكون قول الله سبحانه على وجه الإخبار، بأنّ ما ذكره هو الفضل المبين. ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ أي: جمع له جموعه، وكل صنف من الخلق جند على حدة؛ بدلالة قوله: ﴿مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ قال المفسّرون: كان سليمان إذا أراد سفراً، أمر فجمع له طوائف من هؤلاء الجنود على بساط، ثمّ يأمر الريح فتحملهم بين السماء والأرض. والمعنى: وحشر لسليمان جنوده أي: جمع له جموعه في مسير له.

وقال محمّد بن كعب: بلغنا أنّ سليمان بن داود كان معسكره مائة فرسخ: خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة صريحة، وسبعمائة سرية. فيأمر الريح العاصف فترفعه، ويأمر الرخاء فتسير به. فأوحى الله تعالى إليه، وهو يسير بين السماء والأرض: إنّي قد زدت في ملكك، أنّه لا يتكلّم أحد من الخلائق بشيء إلّا جاءت به الريح فأخبرتك.

وقال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ، ذهباً في إبريسم، وكان يوضع فيه منبر من الذهب، في وسط البساط، فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسيّ من ذهب وفضّة، فيقعد الأنبياء على كراسيّ الذهب، والعلماء على كراسيّ الفضّة، وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين، وتظلّه الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط، مسيرة شهر من

الصباح إلى الرواح، ومن الرواح إلى الصباح.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يمنع أوّلهم على آخرهم، ـ عن ابن عباس ـ. ومعنى ذلك: أنّ على كل صنف من جنوده وزعة تردّ أوّلهم على آخرهم؛ ليتلاحقوا، ولا يتفرَّقوا، كما تقوم الجيوش إذا كثرت بمثل ذلك، وهو أن تدفع أخراهم، وتوقف أولاهم. وقيل: معناه: يحبسون، ـ عن ابن زيد ـ. وهو مثل الأوّل في أنّه يحبس أولاهم على أخراهم.

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ﴾ أي: فسار سليمان وجنوده، حتى إذا أشرفوا على واد، وهو بالطائف، ـ عن كعب ـ. وقيل: هو بالشام، ـ عن قتادة ومقاتل ـ. ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ أي: صاحت بصوت خلق الله لها، ولمّا كان الصوت مفهوماً لسليمان، عبَّر عنه بالقول. وقيل: كانت رئيسة النمل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يكسرنكم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بحطمكم ووطئكم، فإنّهم لو علموا بمكانكم لم يطؤوكم. وهذا يدلّ على أنّ سليمان وجنوده كانوا ركباناً ومشاة على الأرض، ولم تحملهم الريح؛ لأنّ الريح لو حملتهم بين السماء والأرض، لما خافت النمل أن يطأوها بأرجلهم. ولعلّ هذه القصّة كانت قبل تسخير الله الريح لسليمان.

فإن قيل: كيف عرفت النملة سليمان وجنوده، حتى قالت هذه المقالة؟ قلنا: إذا كانت مأمورة بطاعته، فلابدّ أن يخلق لهامن الفهم ما تعرف به أمور طاعته، ولا يمتنع أن يكون لها من الفهم ما تستدرك به ذلك، وقد علمنا أنّه تشقّ ما تجمع من الحبوب بنصفين؛ مخافة أن يصيبها الندى فتنبت، إلّا الكزبرة فإنّها تكسرها بأربع قطع؛ لأنّها تنبت إذا شقّت بنصفين. فمن هداها إلى هذا فإنّه جلَّ جلاله يهديها إلى تمييز ما يحطمها ممّا لا يحطمها. وقيل: إنّ ذلك كان منها على سبيل المعجز الخارق للعادة لسليمان عليه السلام.

قال ابن عباس: فوقف سليمان بجنوده، حتى يدخل النمل مساكنه[١] ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان ﴿ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾ وسبب ضحك سليمان التعجّب، وذلك أنّ الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به، تعجَّب وضحك. وقيل: إنّه تبسَّم بظهور عدله حيث بلغ عدله في الظهور مبلغاً عرفه النمل. وقيل: إنّ الريح أطارت كلامها إليه من ثلاثة أميال حتى سمع ذلك، فإنتهى إليها، وهي تأمر النمل بالمبادرة، فتبسّم من حذرها.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بأن علَّمتني منطق النمل، وأسمعتني قولها من بعيد، حتى أمكنني الكفّ، وأكرمتني بالنبوة، والملك. ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ أي: أنعمت على والدي، بأن أكرمته بالنبوّة، وفصل الخطاب، وألنت له الحديد، وعلى والدتي، بأن زوّجتها نبيّك، وجعل النعمة عليها نعمة الله سبحانه عليه، يلزمه شكرها.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ أي: وفِّقني لأن أعمل صالحاً في المستقبل ترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن بعدهم من النبيّين أي: أدخلني في جملتهم، وأثبت إسمي مع أسمائهم، وأحشرني في زمرتهم. وقال ابن زيد: ﴿فِي عِبَادِكَ﴾ معناه: مع عبادك. قال الزجّاج: جاء لفظ ﴿ادخلوا﴾ كلفظ ما يعقل؛ لأنّ النمل هيهنا

---

(١) فإن قيل: ما فائدة هذه الحكاية؛ لأنّ النمل إذا أحسّت بخطر فرّت الى مساكنها، وكذلك كل حيوان يفرّ الى مأوى يحفظه من الخطر. قلنا: إنّ فوائد كلام الله تعالى لايمكن أن يحيط به عقولنا، ومن فوائد هذا الكلام التنبيه على منطق الطير، وكيفيّة فهم المعني منه، وذلك لأنّ النملة لا صوت لها، ويفهم مقاصدها من أعمالها، فإذا إطّلعت إحديها على طعمة أخبرت ساير النمل، فهجمن عليها بأجمعهن، وإذا أحسّت بخطر، أخبرهنّ، ومنطق الطير أيضاً نظير منطق النمل؛ إذ الصوت وعدمه سيّان، فسليمان عرف بنور النبوّة من قرائن حالات الطيور وأصواتها أموراً غائبة، لا يطّلع عليها غير الأنبياء.

أجري مجرى الآدميّين، حتى نطق كما ينطق الآدميّون. وإنّما يقال لما لا يعقل: أدخلني. وفي الخبر: دخلت أو دخلن. وروي أنّ نمل سليمان هذا كان كأمثال الذئاب والكلاب!

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ (١)

القراءة: قرأ ابن كثير: ﴿أو ليأتينّني﴾ ـ بنونين، أولاهما مشدّدة مفتوحة ـ. والباقون: بنون واحدة مشدّدة. وقرأ عاصم ويعقوب: ﴿فَمَكَثَ﴾ ـ بفتح الكاف ـ. والباقون: بضمّ الكاف. وقرأ أبو عمرو وابن كثير في رواية البزي: ﴿من سبأَ﴾ ـ بفتح الهمزة ـ. وقرأ ابن كثير، في رواية القواس وابن فليح: ﴿من سبا﴾ ـ بغير

(١) وفتح «ماليَ لا أري» ابن كثير وعاصم والكسائي. وإتّفقوا على إدغام «أحطت» مع بقاء إطباق الطاء. وزادوا ألفاً بين «لا» و «أذبحنّه».

همزة ـ. وقرأ الباقون: ﴿من سبإ﴾ ـ مجرورة منوّنة ـ. ومثله: سواء، في سورة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾. وقرأ أبو جعفر والكسائي، ورويس عن يعقوب: ﴿ألا يسجدوا﴾ ـ خفيفة اللام ـ. وقرأ الباقون: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا﴾ مثل قوله: ﴿ألاَّ يقولوا﴾. ومن خفَّف وقف على ﴿ألايا﴾، وابتدأ ﴿اُسجدوا﴾. وقرأ الكسائي وحفص عن عاصم: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء.

الحجة: من قرأ: ﴿ليأتيني﴾: حذف النون الثالثة التي هي قبل ياء المتكلّم، لإجتماع النونات. ومن قرأ: ﴿ليأتينّني﴾ فهو على الأصل. ومكَث ومكُث: لغتان. وممّا يقوّي الفتح قوله: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾، وقوله: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ وقال سيبويه: ثمود وسبأ، مرّة للقبيلتين، ومرّة للحيّين. قال أبو عليّ: يريد أنّ هذه الأسماء منها: ما جاء على أنّه إسم الحيّ، نحو معد، وقريش، وثقيف. ومنها: ما يستوي فيه الأمران كثمود وسبأ. وقال أبو الحسن في سبأ: إن شئت صرفت، فجعلته إسم أبيهم، أو إسم الحيّ. وإن شئت لم تصرف، فجعلته اسم القبيلة. قال: والصرف أحبّ إليّ؛ لأنّه قد عرف أنّه إسم أبيهم، وإنْ كان إسم الأب يصير كالقبيلة، إلّا أنّي أحمله على الأصل. وقال غيره: هو إسم رجل واليمانية كلّها تنسب إليه، يقولون: سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان [قطحان]. قال الزجّاج: من قال: إنّ سبأ إسم رجل فغلط؛ لأنّ سبأ هي مدينة تعرف بمأرِبَ من اليمن، بينها وبين صنعا مسيرة ثلاثة أيّام: قال الشاعر:

مِن سَبَأَ الْحاضِرينَ مَأرِبَ إذ ... يَبنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ العَرِمَا[1]

فمن لم يصرف؛ فلأنّه إسم مدينة، ومن صرفه فلأنّ يكون إسماً للبلد. قال جرير:

---

(١) يعني: من قبيلة سبأ الساكنين بمأرب. ومأرب: مفعول الحاضرين. والعرم: السدّ.

الوارِدون، وتَـــيْمٌ فـــي ذُرى سَـــبَأٍ قَد عَضَّ أعْناقَهُم جلدُ الجَوامِيسِ[١]

ومن قرأ: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا﴾ فالتقدير: فصدَّهم عن السبيل، لأن لا يسجدوا، على أنّه مفعول له. قال أبو عليّ: وهذا هو الوجه لتجرّي القصّة على سننها، ولا يفصل بين بعضها وبعض ما ليس منها، وإن كان الفصل بهذا النحو غير ممتنع؛ لأنّه يجري مجرى الإعتراض، وكأنّه لما قيل ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ فدلّ هذا الكلام على أنّهم لا يسجدون لله. قال: ﴿ألا يا قوم اسجدوا لله﴾ خلافاً عليهم.

ووجه دخول حرف التنبيه على الأمر: أنّه موضع يحتاج فيه إلى إستعطاف المأمور لتأكيد ما يؤمر به عليه، كما أنّ النداء موضع يحتاج فيه إلى إستعطاف المنادى لما ينادى له من إخبار، أو أمر، أو نهي، أو نحو ذلك ممّا يخاطب به. وإذا كان كذلك، فيجوز أن لا تريد منادى في نحو قولك ﴿أَلاَّ اسْجُدُوا﴾ كما لا تريد المنادى في نحو قوله:

يـــالَعْنَةُ اللَّـــهِ، والأقـــوامِ كُـــلِّهِمُ والصَّالِحِينَ عَلى سِمعَانَ مِنْ جارِ[٢]

وكذلك ما حكي عن أبي عمرو من قوله: يا ويل له. ويجوز أن يراد: يا مأمورون، فحذفوا من اللفظ كما حذف في قوله: يا لعنة الله. فكما أنّ «يا» هيهنا لا يجوز أن يكون إلّا لغير اللعنة، كذلك يجوز أن يكون المأمورون مرادين، وحذفوا من اللفظ. وقد جاء هذا في مواضع من الشعر. فمن ذلك ما أنشده أبو زيد:

فَقالَتْ: أَلا يا اَسْمَعْ نِعظكَ بِخطّةٍ فَقُلْتُ سَمِيعاً فَانْطِقي وَأَصِيبِي[٣]

---

(١) الذروة: على كل شيء. وذري: الجمع، وأراد بقوله: عضّ أعناقهم إلخ: أنّهم أسراء شدّت أعناقهم بجلد الجواميس.

(٢) سِمَعان ـ بكسر السين وفتحها ـ: إسم رجل.

(٣) أي: تكلّمين رجلاً سميعاً، فتكلّمني، وأصيبي من أصاب.

وأنشد الزجّاج لذي الرمة:

أَلا يَا اَسْلَمي، يا دَارَمَيّ عَلَى البِلى وَلا زالَ مُنْهَلّاً بِجَرْعائِكِ القَطْرُ[١]

وللأخطل:

ألا يا اَسْلَمِي، يا هِندُ هِندَ بَني بَدْرٍ وَلا زَالَ حَيّانا عِدىً آخِرَ الدَّهْرِ[٢]

وممّا يؤكّد قراءة ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا﴾ ـ بالتشديد ـ: أنّها لو كانت مخفّفة، لماكانت في ﴿يَسْجُدُوا﴾ ياء؛ لأنّها اسجدوا. ففي ثبات الياء في المصحف دلالة على التشديد. ومن قرأ: يخفون ويعلنون ـ بالياء ـ، فلأنّ الكلام على الغيبة. وقراءة الكسائي فيهما بالتاء؛ لأنّ الكلام قد دخله خطاب على قراءة: اسجدوا لله. ومن قرأ: ﴿ألا يا اسجدوا﴾: فيجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين والكافرين الذى جرى ذكرهم على لفظ الغيبة.

﴿الإعراب﴾: كان أبو عمرو يسكن الياء في قوله: ﴿مَا لِيَ لاَ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾،ويفتح في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ لئلّا يقف الواقف على «مالي»، ويبتدىء بلا أعبد. و ﴿لا أرى﴾: في موضع نصب؛ على الحال. ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ﴾ أم: منقطعة، التقدير: بل أهو من الغائبين، و«كان» بمعنى «يكون». واللام في ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾: جواب قسم مقدّر أي: والله لأعذّبنّه. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: منصوب؛ لأنّه صفة ظرف، أو صفة مصدر، تقديره: فمكث وقتاً غير بعيد، أو مكثاً غير بعيد. و ﴿يَسْجُدُونَ﴾: في موضع نصب؛ على الحال من ﴿وجدت﴾.

﴿المعنى﴾: ثمّ أخبر سبحانه عن سليمان، فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أي: طلبه عند غيبته ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ أي: ما للهدهد لا أراه. تقول العرب:

---

(١) مي: علم إمرئة. وإستهل المطر: سال. والجرعاء: الأرض ذات الرمل.

(٢) ولازال حيّانا: أي قبيلتانا. وعدي: أي أعداء. وحيان: تثنية حيّ، يعني: انا وأنت سلم، وإن كان قبيلتي تعادي قبيلتك.

مالي أراك كئيباً، ومعناه: مالك. ولكنَّه من القلب الذي يوضحه المعنى. وأختلف في سبب تفقّده الهدهد، فقيل: إنّه إحتاج إليه في سفره، ليدلَّه على الماء؛ لأنّه يقال: إنّه يرى الماء في بطن الأرض، كما يراه في القارورة، ـ عن ابن عباس ـ. وروى العياشي بالإسناد قال: قال أبو حنيفة لأبي عبد الله عليه السلام: كيف تفقّد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: لأنّ الهدهد يرى الماء في بطن الأرض، كما يرى أحدهم الدهن في القارورة. فنظر أبو حنيفة إلى أصحابه وضحك. قال أبو عبدالله عليه السلام: ما يضحكك؟ قال: ظفرت بك جعلت فداك! قال: وكيف ذلك؟ قال: الذي يرى الماء في بطن الأرض، لا يرى الفخّ في التراب حتى يؤخذ بعنقه؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: يا نعمان! أما علمت أنّه اذا نزل القدر أغشى البصر؟ وقيل: إنّما تفقّده لإخلاله بنوبته، ـ عن وهب ـ. وقيل: كانت الطيور تظلّه من الشمس، فلمّا أخلَّ الهدهد بمكانه، بان بطلوع الشمس عليه.

﴿أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ﴾ معناه: أتأخّر عصياناً، أم غاب لعذر وحاجة؟ قال المبرّد: لمّا تفقَّد سليمان الطير، ولم ير الهدهد، قال: مالي لا أرى الهدهد؟ على تقدير: أنه مع جنوده وهو لا يراه. ثم أدركه الشكّ، فشكّ في غيبته عن ذلك الجمع، بحيث لم يره، فقال: أم كان من الغائبين أي: بل أكان من الغائبين، كأنّه ترك الكلام الأوّل، وإستفهم عن حاله، وغيبته.

ثمّ أوعده على غيبته، فقال: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ معناه: لأعذبنّه بنتف ريشه، وإلقائه في الشمس، ـ عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد ـ. وقيل: بأن أجعله بين أضداده، وكما صحَّ نطق الطير، وتكليفه في زمانه؛ معجزة له، جازت معاتبته على ما وقع منه من تقصير، فإن كان مأموراً بطاعته، فاستحق العقاب على غيبته.

﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ أي: لأقطّعنّ حلقه؛ عقوبة له على عصيانه. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحجّة واضحة تكون له عذراً في الغيبة. ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾

أي: فلم يلبث سليمان إلّا زماناً يسيراً حتى جاء الهدهد. وقيل: معناه: فلبث الهدهد في غيبته قليلاً، ثمّ رجع. وعلى هذا فيجوز أن يكون التقدير: فمكث في مكان غير بعيد. قال ابن عباس: فأتاه الهدهد بحجّة.

﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي: إطّلعت على ما لم تطّلع عليه، وجئتك بأمر لم يخبرك به الجنّ، ولم يعلم به الإنس، وبلغت ما لم تبلغة أنت ولا جنودك. وهو قوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[1] أي: بخبر صادق. وعلم الإحاطة: وهو أن يعلم الشيء من جميع جهاته التي يمكن أن يعلم عليها؛ تشبيهاً بالسور المحيط بمافيه. وفي الكلام حذف، تقديره: ثمّ جاء الهدهد، فسأله سليمان عن سبب غيبته، فقال: أحطت بمالم تحط به. وفي هذا دلالة على أنّه يجوز أن يكون في زمن الأنبياء من يعرف ما لا يعرفونه. وسبأ: مدينة بأرض اليمن، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّ الله تعالى بعث إلى سبأ إثني عشر نبيّاً، ـ عن السدّي ـ. وروى علقمة بن وعلة، عن ابن عباس قال: سئل النبيّ ﷺ عن سبأ، فقال: هو رجل ولد له عشرة من العرب، تيامَنَ منهم ستّة، وتشأم أربعة، فالذين تشأموا: لخم، وجذام، وغسان، وعاملة. والذين تيامنوا: كندة، والأشعرون، والأزد، ومذحج، وحمير، وأنمار. ومن الأنمار: خثعم، وبجيلة.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي: تتصرّف فيهم بحيث لا يتعرّض عليها

---

(١) قال الإمام الرازي: طعنت الملاحدة على هذه القصّة، وأحالو كلام الهدهد، وذهابه من الشام الى اليمن في مدّة قليلة، ورجوعه وغير ذلك، هذا حاصل كلامه. وأجاب بما معناه: أنّ القادر المختار يقدر على كل شيء، وإنّما منعه الملاحدة؛ لعدم إعتقادهم بالله، فيجب أولاً إثبات وجوده تعالى لهم، وأقول: لا أري فى حكاية الطير ما يوجب طعنا؛ لأنّ الإطّلاع على الغيب جائز على الأنبياء عليهم السلام وإستخدام الطيور، وتربيتها لإرسال الكتب، وتعذيبها في التربية أمور ممكنة، وساير ما ذكره المفسّرون لا دليل على بطلانها، والله تعالى قادر على كل شيء، فإن كانت واقعة، فليست بخارجة عن قدرة الله، وإلّا فالعهدة على ناقلها.

أحد. ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا إخبار عن سعة ملكها أي: من كل شيء من الأموال، وما يحتاج إليه الملوك من زينة الدنيا، وقال الحسن، وهي بلقيس بنت شراحيل، ملكة سبأ. وقيل: شرحبيل ولدها أربعون ملكاً، آخرهم أبوها (شرحبيل). قال قتادة: وكان أولو مشورتها ثلاثمائة وإثني عشر قَيْلا[١]، كل قيل منهم تحت رايته ألف مقاتل.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير أعظم من سريرك. وكان مقدمه من ذهب، مرصّع بالياقوت الأحمر، والزمرّد الأخضر، ومؤخّره من فضّة، مكلّل بألوان الجواهر، وعليه سبعة أبيات، على كل بيت باب مغلق. وعن ابن عباس، قال: كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعاً، في ثلاثين ذراعاً، وطوله في الهواء ثلاثون ذراعاً. وقال أبو مسلم: المراد بالعرش الملك. ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: عبادتهم للشمس من دون الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ﴾ أي: صرفهم عن سبيل الحقّ.

﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قال الجبائي: لم يكن الهدهد عارفاً بالله تعالى، وإنّما أخبر بذلك كما يخبر مراهقوا صبياننا؛ لأنّه لا تكليف إلّا على الملائكة، والإنس، والجن. فيرانا الصبي على عبادة الله، فيتصوّر أنَّ ما خالفها باطل. فكذلك الهدهد، تصوّر له أنَّ ما خالف فعل سليمان باطل. وهذا الذي ذكره خلاف ظاهر القرآن؛ لأنّه لا يجوز أن يفرق بين الحقّ الذي هو السجود لله، وبين الباطل الذي هو السجود للشمس، وأنَّ أحدهما حسن، والآخر قبيح، إلّا العارف بالله سبحانه، وبما يجوز عليه وما لا يجوز، هذا مع نسبة تزيين أعمالهم، وصدّهم عن طريق الحق إلى الشيطان، وهذا مقالة من يعرف العدل، وأنَّ القبيح غير جائز على الله سبحانه.

---

[١] القيل: الرئيس.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ قد بيَّنّا أنّ التخفيف إنّما هو على معنى الأمر بالسجود، ودخلت الياء للتنبيه، أو على تقدير: ألا يا قوم أسجدوا لله. وقيل: إنّه أمر من الله تعالى لجميع خلقه بالسجود له. أعترض في الكلام. وقيل: إنّه من كلام الهدهد، قاله لقوم بالقيس، حين وجدهم يسجدون لغير الله، أو قاله لسليمان عند عوده إليه؛ إستنكاراً لما وجدهم عليه. والقراءة بالتشديد على معنى: زيّن لهم الشيطان ضلالتهم؛ لئلّا يسجدوا لله. وذكر الفرّاء: إنّ القراءة بالتشديد، لا توجب سجدة التلاوة، وهذا غير صحيح؛ لأنّ الكلام قد تضمن الذم على ترك السجود، فيكون فيه دلالة على وجوب السجود، وهو كقوله: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾ الآية.

﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخبء: المخبوء، وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه، وهو مصدر وصف به، يقال: خبأته أخبؤه خبأ، وما يوجده الله تعالى فيخرجه به من العدم إلى الوجود، يكون بهذه المنزلة. وقيل: الخبء: الغيب، وهو كل ما غاب عن الإدراك. فالمعنى: يعلم غيب السموات والأرض، ـ عن عكرمة، ومجاهد ـ. وقيل: إنَّ خبء السماوات المطر، وخبء الأرض: النبات والأشجار، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم السرّ والعلانية ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ إلى هيهنا تمام الحكاية لما قاله الهدهد. ويحتمل أن يكون ابتداء إخبار من الله تعالى. والعرش: سرير الملك الذي عظمه الله، ورفعه فوق السماوات السبع، وجعل الملائكة تحفّ به، وترفع أعمال العباد إليه، وتنشأ البركات من جهته، فهو عظيم الشأن، كما وصفه الله تعالى، وهو أعظم خلق الله تعالى.

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ (١)

القراءة: في الشواذّ، ما رواه وهب، عن ابن عباس: ﴿ألا تغلوا﴾ ـ بالغين المعجمة، من الغلوّ ـ.

المعنى: ولمّا سمع سليمان ما إعتذر به الهدهد في تأخّره ﴿قَالَ﴾ عند ذلك: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ في قولك الذي أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهذا ألطف وألين في الخطاب من أن يقول: أم كذبت؛ لأنّه قد يكون من الكاذبين بالميل إليهم، وقد يكون منهم بالقرابة تكون بينه وبينهم، وقد يكون منهم بأن يكذب كما كذبوا.

ثمّ كتب سليمان كتاباً، وختمه بخاتمه، ودفعه إليه، فذلك قوله: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ يعني: إلى أهل سبأ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي: إستتر منهم قريباً بعد إلقاء الكتاب إليهم، فأنظر ماذا يرجعون، ـ عن وهب بن منبه وغيره ـ. وقيل: إنّه على التقديم والتأخير والتقدير ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يردّون من الجواب. ثمّ تولّ عنهم؛ لأنّ التولّي عنهم بعد الجواب، ـ عن مقاتل، وابن زيد،

---

(١) قرأ: «فالقهِ» ـ بكسر الهاء قصراً ـ قالون، وبإسكان الهاء أبو عمرو وعاصم وحمزة. وأختلف عن هشام وابن ذكران والباقون من السبعة: بإشباع الكسرة. وسهّل الثانية من «الملؤا إنّي» كالياء، وبابدالها واواً مكسورة الحرميان وأبو عمرو. و«الملؤ»: مكتوب بواو بعدها ألف في ثلاثة مواضع: في هذه السورة، ويقف حمزة بإبدال الهمزة ألفاً على القياس، أو تسهيلها كالواو روماً، أو إبدالها واواً على رسم الكتابة، ويجوز معه الروم والإشمام. وفتح «إنّي ألقي» نافع.

والجبائي، وأبي مسلم ـ. والأول أوجه؛ لأنّ الكلام إذا صحَّ من غير تقديم وتأخير، كان أولى. وفي الكلام حذف، تقديره: فمضى الهدهد بالكتاب، وألقاه إليهم.

فلمّا رأته بلقيس ﴿قَالَتْ﴾ لقومها ﴿يَا أَيُّهَا المَلؤا﴾ أي: الأشراف ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ قال قتادة: أتاها الهدهد، وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، فقرأت الكتاب. وقيل: كانت لها كوة مستقبلة للشمس، تقع الشمس عندما تطلع فيها، فإذا نظرت إليها سجدت. فجاء الهدهد إلى الكوة، فسدها بجناحه، فإرتفعت الشمس، ولم تعلم. فقامت تنظر، فرمى الكتاب إليها، ـ عن وهب، وابن زيد ـ.

فلمّا أخذت الكتاب، جمعت الأشراف وهم يومئذ ثلاثمائة وإثنا عشر قيلاً، ثمّ قالت لهم: إنّي ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ سمّته كريماً؛ لأنّه كان مختوماً، ـ عن ابن عباس ـ. ويؤيّده الحديث: «إكرام الكتاب ختمه». وقيل: وصفته بالكريم؛ لأنّه صدره بسم الله الرحمن الرحيم. وقيل: لحسن خطّه، وجودة لفظه، وبيانه. وقيل: لأنّه كان ممّن يملك الإنس، والجنّ، والطير. وقد كانت سمعت بخبر سليمان، فسمته كريماً؛ لأنّه من كريم رفيع الملك، عظيم الجاه.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ معناه: إنَّ الكتاب من سليمان، وإنّ المكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فإنّ هذا القدر جملة ما في الكتاب، وأوّل من إستفتح ببسم الله الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام. ولم تعرفه هي، ولا قومها. وقيل: إنّ هذا حكاية ما قالته على المعنى باللغة العربية، وإن لم تقل هي بهذا اللفظ. والحكاية على ثلاثة أوجه: حكاية على المعنى فقط، وحكاية على اللفظ فقط. ممّن حكاه من غير أن يعلم معناه، وحكاية على اللفظ والمعنى، وهو الأصل في الحكاية التي لا يجوز العدول عنها إلّا بقرينة وموضع.

﴿أَلاَّ تَعْلُوا﴾ يجوز أن يكون رفعاً بالبدل من ﴿كتاب﴾، ويجوز أن يكون نصباً، على معنى: بأن لا تعلوا. والصحيح أنَّ ﴿أنْ﴾ في مثل هذا الموضع بمعنى: أي، على ما قاله سيبويه في نحو قوله: ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا﴾ أي: امشوا، ومعناه: لا تترفّعوا، ولا تتكبّروا ﴿عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي: منقادين طائعين لأمري فيما أدعوكم. وقيل: مسلمين مؤمنين بالله تعالى، ورسوله، مخلصين في التوحيد. قال قتادة: وكذا كانت الأنبياء تكتب كتبها، موجزة مقصورة على الدعاء إلى الطاعة، من غير بسط.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۖ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ (١)

القراءة: قرأ حمزة، ويعقوب: ﴿أتمدونّي﴾ ـ بنون واحدة مشدّدة على

(١) أبدل الثانية من «الملؤا أفتوني» واوا مفتوحة الحرميان وأبو عمرو. وأثبت الياء في «تشهدون» يعقوب، ومن «أتمدونن بمال» نافع وأبو عمرو وابن كثير وصلاً، ومن «آتاني» نافع وأبو عمرو وحفص، وبفتح الياء وصلاً حفص. وقرأ: أتمدّونن ـ بلا ياء وصلاً ووقفاً. و«آتاني» بالياء وصلاً ووقفاً.

الإدغام ـ. والباقون: بنونين مظهرتين.

﴿الإعراب﴾: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾: إنتصب ﴿تَشْهَدُونِ﴾ بإضمار «أن». والنون فيه نون عماد. ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾: فاعل ﴿جَاءَ﴾ الضمير المستكن فيه، الراجع إلى مفعول ﴿مرسِلة﴾ المحذوف، لأنّ تقديره: إنّي مرسِلة رسولاً. ﴿أذلّة﴾: نصب؛ على الحال. ﴿وهم صاغرون﴾: جملة في موضع نصب، على الحال، معطوفة على ﴿أذلّة﴾.

﴿المعنى﴾: ولمّا وقفت بلقيس على كتاب سليمان ﴿قَالَتْ﴾ لأشراف قومها ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي: أشيروا عليَّ بالصواب. والفتيا والفتوى: الحكم بما فيه صواب بدلاً من الخطأ، وهو الحكم بما يعمل عليه. فجعلت المشورة هنا فتيا ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً﴾ أي: ما كنت ممضية أمراً ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ أي: تحضروني تريد: إلّا بحضرتكم ومشورتكم، وهذا ملاطفة منها لقومها في الإستشارة منهم لما تعمل عليه.

﴿قَالُوا﴾ لها في الجواب عن ذلك: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ﴾ أي: أصحاب قوّة، وقدرة، وأهل عدد ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: وأصحاب شجاعة شديدة ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي: إنَّ الأمر مفوّض إليك في القتال وتركه.

﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: ما الذي تأمريننا به لنمتثله، فإن أمرت بالصلح صالحنا، وإنْ أمرت بالقتال قاتلنا ﴿قَالَتْ﴾ مجيبة لهم عن التعريض بالقتال ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي: إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة، أهلكوها وخربوها.

﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر، والمعنى: أنّها حذرتهم مسير سليمان إليهم، ودخوله بلادهم، وإنتهى الخبر عنها. وصدقها الله فيما قالت، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما قالت هي ﴿يَفْعَلُونَ﴾

وقيل: إنَّ الكلام متّصل بعضه ببعض، وكذلك يفعلون من قولها.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى سليمان، وقومه ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ أصابعه بذلك عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي: فمنتظرة ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ بقبول أم ردّ. وإنّما فعلت ذلك؛ لأنّها عرفت عادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم، وكان غرضها أن يتبيّن لها بذلك أنّه ملك أو نبيّ. فإن قبل الهديّة تبيّن أنّه ملك، وعندها ما يرضيه. وإنْ ردّها تبيّن أنّه نبيّ. وأختلف في الهديّة، فقيل: أهدت إليه وصفاء ووصائف ألبستهم لباساً واحداً حتى لا يعرف ذكر من أنثى، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أهدت مائتي غلام، ومائتي جارية، ألبست الغلمان لباس الجواري، وألبست الجواري ألبسة الغلمان، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: أهدت له صفائح الذهب في أوعية من الديباج.

فلمّا بلغ ذلك سليمان أمر الجنّ فموهوا له الأجر بالذهب، ثمّ أمر به فألقي في الطريق. فلمّا جاؤوا رأوه ملقى في الطريق في كل مكان، فلمّا رأوا ذلك، صغر في أعينهم ما جاؤوا به، ـ عن ثابت اليماني [البناني] ـ. وقيل: إنّها عمدت إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الجواري الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب، وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة، والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس لجام من ذهب، مرصّع بالجواهر، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب، وخمسمائة لبنة من فضّة، وتاجاً مكلّلاً بالدرّ والياقوت المرتفع، وعمدت إلى حقة، فجعلت فيها درة يتيمة غير مثقوبة، وخرزة جزعية مثقوبة، معوجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها إسمه المنذر بن عمرو، وضمَّت إليه رجالاً من قومها، أصحاب رأي وعقل، وكتبت إليه كتاباً بنسخة الهدية، قالت فيها:

إن كنت نبيّاً فميّز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقة قبل أن تفتحها، وأثقب الدرّة ثقباً مستوياً، وأدخل الخرزة خيطاً من غير علاج إنس ولا جنّ. وقالت للرسول: أنظر إليه إنْ دخلت عليه، فإن نظر إليك نظرة غضب، فإعلم أنّه ملك، فلا يهولنّك أمره، فإنا أعزُّ منه. وإن نظر إليك نظر لطف، فإعلم أنّه نبيّ مرسل.

فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان، فأخبره الخبر، فأمر سليمان الجنّ أنْ يضربوا لبنات الذهب، ولبنات الفضّة، ففعلوا. ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى بضع فراسخ، ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضّة، وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضّة، ففعلوا. ثمّ قال للجنّ: عليَّ بأولادكم. فإجتمع خلق كثير، فأقامهم على يمين الميدان ويساره. ثمّ قعد سليمان في مجلسه على سريره، ووضع له أربعة آلاف كرسيّ عن يمينه، ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفّوا صفوفاً فراسخ، وأمر الإنس فإصطفّوا فراسخ، وأمر الوحش والسباع والهوام والطير، فإصطفّوا فراسخ عن يمينه ويساره.

فلمّا دنا القوم من الميدان، ونظروا إلى ملك سليمان، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا بما معهم من الهدايا، فلمّا وقفوا بين يدي سليمان، نظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق، وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا له. وأعطاه كتاب الملكة. فنظر فيه، وقال: أين الحقّة؛ فأتي بها وحركها، وجاءه جبرائيل عليه السلام فأخبره بما في الحقّة، فقال: إنّ فيها درّة يتيمة، غير مثقوبة، وخرزة مثقوبة، معوجة الثقب. فقال الرسول: صدقت فاثقب الدرّة، وأدخل الخيط في الخرزة.

فأرسل سليمان إلى الأرَضَة، فجاءت فأخذت شعرة في فيها، فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر. ثمّ قال: من لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت

دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله. فأخذت الدودة الخيط في فيها، ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر.

ثم ميَّز بين الجواري والغلمان، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثمّ تجعله على اليد الأخرى، ثمّ تضرب به الوجه. والغلام كان يأخذ من الآنية، يضرب به وجهه. وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد. وكانت الجارية تصبّ الماء صبّاً، والغلام يحدر الماء على يده حدراً، فميَّز بينهما بذلك. هذا كلّه مرويّ عن وهب وغيره.

وقيل إنّها أنفذت مع هداياها عصا، كان يتوارثها ملوك حمير، وقالت: أريد أنْ تعرفني رأسها من أسفلها، وبقدح ماء وقالت: تملأها ماء رواء ليس من الأرض، ولا من السماء. فأرسل سليمان العصا إلى الهواء، وقال: أي الرأسين سبق إلى الأرض، فهو أسفلها. وأمر الخيل، فأجريت حتى عرقت، وملأ القدح من عرقها، وقال: ليس هذا من ماء الأرض، ولا من ماءِ السماء.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ أي: فلمّا جاء الرسول سليمان ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ أي: تزيدونني مالاً. وهذا إستفهام إنكار، يعني: أنّه لا يحتاج إلى مالهم ﴿فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ أي: ما أعطاني الله من الملك والنبوّة والحكمة، خير ممّا أعطاكم من الدنيا وأموالها. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إذا أهدى بعضكم إلى بعض، وأمّا أنا فلا أفرح بها. أشار إلى قلّة إكتراثه بأموال الدنيا.

ثم قال عليه السلام: للرسول ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بما جئت من الهدايا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بها، ولا قدرة لهم على دفعها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾ أي: من تلك القرية، ومن تلك المملكة. وقيل: من أرضها وملكها ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: ذليلون، صغيروا القدر، إنْ لم يأتوني مسلمين. فلمّا ردّ سليمان

الهديّة، وميَّز بين الغلمان والجواري، إلى غير ذلك، علموا أنّه نبيّ مرسل، وأنّه ليس كالملوك الذين يغترّون بالمال.

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى
عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا
نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ
﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن
سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى
ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ (١)

القراءة: في الشواذّ، قراءة أبي رجاء، وعيسى الثقفي: ﴿عفرية﴾.

الحجة: والمعنى معنى العفريت، يقال: رجل عفرية نفرية أي: خبيث داه.

---

(١) وفتح ياء «ليبلونيَ أأشكر» نافع. و«أأشكر» نظير: «أأنذرتهم» في أوّل البقرة. ومضى حكمها هناك وعن قنبل: «سأقيها» ـ بالهمز ـ.

قال ذو الرمة:

كَأَنَّــهُ كَـوكَبٌ فـي إثْـرِ عِـفْرِيَةٍ مُسَوَّمٌ في سَوادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبُ[١]

وأصل العفريت والعفرية، من العفر: وهو التراب؛ لأنّه يصرع قرنه في العفر، ومنه: قيل للأسد: عفرنا، وللناقة الشديدة: عفرناة. قال الأعشى:

بِـذاتِ لَـوْثٍ عَـفَرْناةٍ، إذا عَـثَرَتْ فَالتَّعْسُ اَوْلىٰ لَها مِنْ أن يُقال لَعا[٢]

اللغة: التنكير: تغيير الشيء من حال إلى حال ينكرها صاحبها إذا رآه.

والصرح: القصر، وكل بـناء مشـرف صـرح. وصـرحـة الدار، وسـاحتها، وقارعتها: صحنها، وأصله من الوضوح. يقال: صرح بالأمر أي: كشفه وأوضحه. وصرَّح ـ بالتشديد ـ لازم ومتعدّ. واللجّة: معظم الماء، والجمع: لجج. ولجّ البحر: خـلاف السـاحل، ومـنه: لجّ بـالأمر: إذا بـالغ بـالدخول فـيه. والممرَّد: المملس [الملمس]، ومنه: الأمـرد. وشـجرة مـرداء أي: مـلساء لا ورق عـليها. والمارد: المتملّس عن الحقّ، الخارج منه.

المعنى: فلمّا رجع إليها الرسول، وعـرفت أنّـه نـبيّ، وأنّـها لا تـقاومه، فتجهّزت للمسير إليه. وأخبر جبرائيل سليمان عليه السلام أنّها خرجت من اليمن، مـقبلة إليه فـ﴿قَالَ﴾ سليمان لأماثل جنده، وأشراف عسكره ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وأختلف في السبب الذي خـصَّ بـه العـرش بالطلب على أقوال:

أحدها: إنّه أعجبته صفته، فأراد أن يراه، وظهر له آثار إسلامها، فأحبَّ أن يملك عرشها قبل أن تسلم، فيحرم عليه أخذ مالها، ـ عن قتادة ـ.

وثانيها: إنّه أراد أن يختبر بذلك عقلها وفطنتها، ويختبر هل تعرفه أو تنكره،

---

(١) مسوّم: أي معلم بعلامة.

(٢) اللوث: القوّة. وأراد بذات اللوث: ناقته. وتعساً له: دعاء بالمهلكة. ولعا: له دعا بالنجاة والخير، يعني: لايليق هذه الناقة العثور.

ـ عن ابن زيد ـ.

وقيل: أراد أن يجعل ذلك دليلاً ومعجزة على صدقه ونبوّته؛ لأنّها خلفته في دارها، وأوثقته، ووكلت به ثقات قومها، يحرسونه ويحفظونه، ـ عن وهب ـ.

وقال ابن عباس: كان سليمان رجلاً مهيباً، لا يبتدىء بالكلام، حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فخرج يوماً، فجلس على سريره، فرأى رهجاً[١] قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس يا رسول الله! وقد نزلت منّا بهذا المكان، وكان ما بين الكوفة والحيرة على قدر فرسخ، فقال: أيّكم يأتيني بعرشها.

وقوله: ﴿مسلمين﴾ فيه وجهان: أحدهما: إنّه أراد مؤمنين موحّدين.

الآخر: مستسلمين منقادين، على ما مرّ بيانه ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: مارد قويّ داهية، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي: من مجلسك الذي تقضي فيه، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي: وإنّي على حمله لقويّ، وعلى الإتيان به في هذه المدّة قادر، وعلى ما فيه من الذهب والجواهر أمين. وفي هذا دلالة على أنّ القدرة قبل الفعل؛ لأنّه أخبر بأنّه قويّ عليه، قبل أن يجيء به. وكان سليمان يجلس في مجلسه للقضاء غدوة إلى نصف النهار، فقال سليمان: أريد أسرع من ذلك.

فعند ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو آصف بن برخيا، وكان وزير سليمان، وابن أخته، وكان صديقاً يعرف إسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّ ذلك الإسم الله، والذي يليه الرحمن. وقيل: هو يا حيّ يا قيّوم، وبالعبرانية أهيا شراهيا[١]. وقيل: هو يا ذا الجلال والإكرام، ـ

---

(١) كذا في الأصل والمخطوطتين وفي نسخة مطبوعة: «اهي اشراهي» واستهظر في هامش نسخة البحار أن الصحيح «اهيه اشراهيه» وقال اهيه بمعنى واجب الوجود وقيل معنى الجملة: لموجود الذي هو موجود.

[١] أي: غباراً.

عن مجاهد ـ. وقيل: إن قال: يا إلهنا وإله كل شيء، إلهاً واحداً لا إله إلاّ أنت، ـ عن الزهري ـ. وقيل: إنّ الذي عنده علم من الكتاب، كان رجلاً من الإنس، يعلم إسم الله الأعظم، إسمه: بلخيا ـ عن مجاهد ـ. وقيل: إسمه: أسطوم، ـ عن قتادة ـ. وقيل: الخضر عليه السلام ـ عن أبي لهيعة ـ. وقيل: إنّ الذي عنده علم من الكتاب هو جبرائيل عليه السلام، أذن الله له في طاعة سليمان عليه السلام، بأن يأتيه بالعرش الذي طلبه. وقال الجبائي: هو سليمان عليه السلام، قال ذلك للعفريت، ليريه نعمة الله عليه. وهذا قول بعيد، لم يؤثر عن أهل التفسير. وأمّا الكتاب المعرّف في الآية بالألف واللام، فقيل: إنّه اللوح المحفوظ. وقيل: أراد به جنس كتب الله المنزلة على أنبيائه، وليس المراد به كتاباً بعينه، والجنس قد يعرف بالألف واللام. وقيل: إنّ المراد به: كتاب سليمان إلى بلقيس.

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أختلف في معناه، فقيل: يريد قبل أن يصل إليك من كان منك على قدر مدّ البصر، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: قبل أن يبلغ طرفك مداه وغايته، ويرجع إليك. قال سعيد بن جبير: قال لسليمان أنظر إلى السماء، فما طرف حتى جاءبه فوضعه بين يديه، والمعنى: حتى يرتدّ إليك طرفك بعد مدّة إلى السماء. وقيل: إرتداد الطرف إدامة النظر حتى يرتدّ طرفه خاسئاً، ـ عن مجاهد ـ. فعلى هذا معناه: إنّ سليمان مدّ بصره إلى أقصاه، وهو يديم النظر، فقبل أن ينقلب بصره إلى حسيراً، يكون قد أتى بالعرش[1]. قال الكلبي: خرّ

---

(١) وذكر الإمام الرازي في تقريب إمكان هذه السرعة، عظمة الشمس، وطلوعها في مدّة يسيرة أقول: الشمس يطلع في دقيقتين تقريباً، من مبدأ القرص إلى منتهاه، وقطرها أعظم من ألف مثل قطر الأرض، فيتحرّك كل جزء منه في ثانية واحدة، عشرة أمثال قطر الأرض، فلا يبعد أن ينتقل عرش بلقيس في ثوان بين اليمن والشام، ثمّ أقول: الطيّارات في زماننا تسير مثل هذه المسافة، في نحو ما أراده عفريت من الجنّ بأسباب أرضيّة لانعلمها، وأمّا الذي عنده علم من الكتاب، أحضره بسبب نفسانيّ روحانيّ، بقوّة مجهولة لنا ماهيّتها أيضا.

آصف ساجداً، ودعا بإسم الله الأعظم، فغار عرشها تحت الأرض، حتى نبع عند كرسيّ سليمان.

وذكر العلماء في ذلك وجوهاً: **أحدها**: إنّ الملائكة حملته بأمر الله تعالى. **والثاني**: إنّ الريح حملته. **والثالث**: إنّ الله تعالى خلق فيه حركات متوالية. **والرابع**: إنّه إنخرق مكانه حيث هو هناك، ثمّ نبع بين يدى سليمان. **والخامس**: إنّ الأرض طويت له، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام. **والسادس**: إنّه أعدمه الله في موضعه، وأعاده في مجلس سليمان. وهذا لا يصحّ على مذهب أبي هاشم، ويصحّ على مذهب أبي عليّ الجبائي، فإنّه يجوز فناء بعض الأجسام[1] دون بعض. وفي الكلام حذف كثير؛ لأنّ التقدير: قال سليمان له: إفعل. فسأل الله تعالى في ذلك، فحضر العرش، فرآه سليمان مستقرّاً عنده.

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ﴾ أي: فلمّا رأى سليمان العرش محمولاً إليه، موضوعاً بين يديه في مقدار رجع البصر ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: من نعمته عليّ، وإحسانه لديّ؛ لأنّ تيسير ذلك وتسخيره، مع صعوبته وتعذّره، معجزة له، ودلالة على علوّ قدره، وجلالته، وشرف منزلته عند الله تعالى.

﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي: ليختبرني هل أقوم بكشر هذه النعمة، أم أكفر بها ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنّ عائدة شكره ومنفعته ترجعان إليه، وتخصّانه دون غيره. وهذا مثل قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكر العباد، غير محتاج إليه؛ بل هم

---

(١) وإنّما تكلّفوا في توجيه ذلك لإستبعاد حركة الجسم بهذه السرعة، ولم يتعجّبوا من سائر معجزات الأنبياء، مع أنّ هذا أسهل منها. والأولى أن نسبة ذلك الى قوّة روحانيّة في نفس الذي عنده علم الكتاب كسائر كرامات الأولياء، حيث إنّهم متصرّفون بهمّتهم في موادّ الأجسام. وأمّا طيّ الأرض، فكناية عن سهولة الوصول، وذلك لأنّ الماشي إذا وصل الى مقصده من غير إعياء، فكأنّه واقف، وتحرّكت الأرض تحت قدميه.

المحتاجون إليه، لما لهم فيه من الثواب والأجر ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: متفضّل على عباده، شاكرهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم، لا يمنعه كفرهم وعصيانهم من الإفضال عليهم، والإحسان إليهم.

﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيّروا سريرها إلى حال تنكرها إذا رأته، وأراد بذلك اختبار عقلها على ما قيل. ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: أتهتدي إلى معرفة عرشها بفطنتها بعد التغيير، أم لا تهتدي إلى ذلك، ـ عن سعيد بن جبير، وقتادة ـ. وقيل: أتهتدي أي: أتستدلّ بعرشها على قدرة الله، وصحّة نبوّتي، وتهتدي بذلك إلى طريق الإيمان والتوحيد أم لا، ـ عن الجبائي ـ. قال ابن عباس: فنزع ما كان على العرش من الفصوص والجواهر. وقال مجاهد: غير ما كان أحمر، فجعله أخضر، وما كان أخضر فجعله أحمر. وقال عكرمة: زيد فيه شيء، ونقص منه شيء.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فلم تثبته، ولم تنكره. ودلّ ذلك على كمال عقلها، حيث لم تقل: لا؛ إذ كان يشبه سريرها؛ لأنّها وجدت فيه ما تعرفه، ولم تقل: نعم؛ إذ وجدت فيه ما غيّر وبدّل؛ ولأنّها خلّفته في بيتها، وحمله في تلك المدّة إلى ذلك الموضع غير داخل في قدرة البشر[1]. قال مقاتل: عرفته، ولكن شبّهوا عليها حين قالوا لها: أهكذا عرشك؟ فشبّهت حين قالت: كأنّه هو. ولو قيل لها: هذا عرشك. لقالت: نعم. قال عكرمة: كانت حكيمة، قالت: إن قلت: هو، خشيت أن أكذّب. وإن قلت: لا، خشيت أن أكذّب. فقالت: كأنّه هو. شبّهته به. فقيل لها: فإنّه عرشك، فما أغنى عنك إغلاق الأبواب، وكانت قد خلفته وراء سبعة أبواب، لما خرجت.

---

(١) لو كانت حمقاء جاهلة، أنكرت كونه عرشها، كما ينكر الملاحدة مالم يستأنسوا به.

فقالت: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بصحّة نبوّة سليمان ﴿مِنْ قَبْلِهَا﴾ أي: من قبل الآية في العرش. ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ طائعين لأمر سليمان. وقيل: إنّه من كلام سليمان، ـ عن مجاهد ـ. ومعناه: وأوتينا العلم بالله، وقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرّة، وكنّا مخلصين لله بالتوحيد. وقيل: معناه: وأوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائعة قبل مجيئها. وقيل: إنّه من كلام قوم سليمان، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: منعها عبادة الشمس عن الإيمان بالله تعالى، بعد رؤية تلك المعجزة، ـ عن مجاهد ـ. فعلى هذا تكون ﴿مَا﴾ موصولة مرفوعة الموضع؛ بأنّها فاعلة ﴿صَدَّ﴾. وقيل: معناه: وصدَّها سليمان عمّا كانت تعبده من دون الله، وحال بينها وبينه، ومنعها عنه. فعلى هذا يكون ﴿مَا﴾ في موضع النصب. وقيل: معناه: منعها الإيمان والتوحيد عن الذي كانت تعبده من دون الله، وهو الشمس.

ثمّ إستأنف، فقال: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: من قوم يعبدون الشمس قد نشأت فيما بينهم، فلم تعرف إلّا عبادة الشمس.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ والصرح: هو الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف. وذكر أنّ سليمان لمّا أقبلت صاحبة سبأ، أمر الشياطين ببناء الصرح، وهو كهيئة السطح المنبسط، من قوارير أجرى تحته الماء، وجمع في الماء الحيتان، والضفادع، ودوابّ البحر. ثمّ وضع له فيه سرير، فجلس عليه. وقيل: إنّه قصر من زجاج، كأنّه الماء بياضاً. وقال أبو عبيدة: كل بناء من زجاج، أو صخر، أو غير ذلك، موثق، فهو صرح. وإنّما أمر سليمان عليه السلام بالصرح؛ لأنّه أراد أن يختبر عقلها، وينظر هل تستدلّ على معرفة الله تعالى بماترى من هذه الآية العظيمة. وقيل: إنّ الجنّ والشياطين خافت أن يتزوّجها سليمان، فلا ينفكّون من تسخير

سليمان وذرّيّته بعده لو تزوّجها، وذلك أنّ أمّها كانت جنّيّة، فأساؤا الثناء عليها، ليزهّدوه فيها، وقالوا: إنّ في عقلها شيئاً، وإنّ رجلها كحافر الحمار. فلمّا إمتحن ذلك وجدها على خلاف ما قيل. وقيل: إنّه ذكر له أنّ على رجليها شعراً، فلمّا كشفته بان الشعر فساءه ذلك، فإستشار الجنّ[1] في ذلك، فعملوا الحمامات، وطبخوا له النورة والزرنيخ، وكان أوّل ما صنعت النورة.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي: رأت بلقيس الصرح ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ وهي معظم الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ لدخول الماء. وقيل: إنّها لمّا رأت الصرح، قالت: ما وجد ابن داود عذاباً يقتلني به إلّا الغرق، وأنفت أن تجبن، فلا تدخل، ولم يكن من عادتهم لبس الخفاف.

فلمّا كشفت عن ساقيها ﴿قَالَ﴾ لها سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾ أي: مملس ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾ وليس بماء. ولمّا رأت سرير سليمان، والصرح ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالكفر الذي كنت عليه ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فحسن إسلامها. وقيل: إنّها لمّا جلست دعاها سليمان إلى الإسلام، وكانت قد رأت الآيات والمعجزات، فأجابته وأسلمت. وقيل: إنّها لمّا ظنّت أنّ سليمان يغرقها، ثمّ عرفت حقيقة الأمر، قالت: ظلمت نفسي إذ توهّمت على

---

(١) الجنّ: خلق أخبر الشرع عنها، فلابدّ من الاقرار بوجودها، ولكن لم يبيّن ماهيّتها، ولا سبيل للعقل الى تحقيقها. وأقرب ما كان العرب تعتقد، أنّها موجودات غير مرئيّة، مرتبطة بنفوس الشعراء، وأصحاب القرائح النافذة، تبعثهم على استكشاف ما عجز عنه عقولهم، ولا ريب في نبوغ الناس في الصنائع في عصر سليمان في مصر، وفي فلسطين، وهذا ممّا لا ينبغي أن ينكر، وبقاء أجساد الفراعنة الى يومنا هذا بصنعة كانت لهم، وأدوية إطّلعوا على خواصّها مجهولةً لنا وإختراع الزجاج في ذلك العهد من الرمل، من أعظم أدلّة تبحّرهم، وإستعمال الأحجار العظيمة في الأبنية، كما في أهرام مصر، والمسجد الأقصىٰ، لايمكن إلّا بآلات جرّ الأثقال، ولا يبعد علمهم بأمور صارت مجهولة بعدهم.

سليمان ما توهَّمت.

وأختلف في أمرها بعد ذلك، فقيل: إنّه تزوّجها سليمان، وأقرَّها على ملكها. وقيل: إنّه زوَّجها من ملك يقال له: تبّع، وردَّها إلى أرضها، وأمر زوبعة أمير الجنّ باليمن، أن يعمل له ويطيع. فصنع له المصانع باليمن. قال عون بن عبد الله: جاء رجل إلى عبدالله بن عتبة، فسأله: هل تزوّجها سليمان؟ قال: عهدي بها أن قالت وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين، يعني: أنّه لا يعلم ذلك. وأنّ آخر ما سمع من حديثها هذا القول.

وروى العياشي في تفسيره بالإسناد قال: إلتقى موسى بن محمّد بن عليّ بن موسى عليه السلام، ويحيي بن أكثم، فسأله عن مسائل قال: فدخلت على أخي عليّ بن محمّد عليه السلام بعد أن دار بيني وبينه من المواعظ، حتى إنتهيت إلى طاعته، فقلت له: جعلت فداك إنّ ابن أكثم سألني عن مسائل أفتيه فيها؟ فضحك ثمّ قال: فهل أفتيتَه فيها؟ قلت: لا. قال: ولمَ؟ قلت: لم أعرفها. قال: وما هي؟ قلت: أخبرني عن سليمان أكان محتاجاً إلى علم آصف بن برخيا؟ ثمّ ذكر المسائل الأخر. قال: أكتب يا أخي: «بسم الله الرحمن الرحيم. سألت عن قول الله تعالى في كتابه: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فهو آصف بن برخيا، ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرفه آصف، لكنَّه عليه السلام أحبَّ أن تعرف أمّته من الإنس والجنّ، أنّه الحجّة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله تعالى، ففهمه الله ذلك؛ لئلّا يختلف في إمامته ودلالته، كما فهم سليمان في حياة داود؛ ليعرف إمامته ونبوّته من بعده، لتأكيد الحجّة على الخلق».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا
هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ
رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟
تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿لتبيتُنّه﴾ ـ بالتاء ـ، وضمّ التاء الثانية ـ، ﴿ثمّ لتقولُنّ﴾ ـ بالتاء أيضاً وضمّ اللام ـ. والباقون: ﴿لنبيتَنّه﴾ ـ بالنون، وفتح التاء ـ ﴿ثم لنقولنّ﴾ أيضاً بالنون، وفتح اللام. وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وسهل وابن عامر. ﴿إنّا دمرناهم﴾ بكسر الألف. والباقون: بفتح الألف. وروي عن روح وزيد عن يعقوب بكسر الألف أيضاً.

الحجة: قال أبو عليّ: قوله: ﴿تَقَاسَمُوا﴾ لا يخلو من أن يراد به مثال الماضي، أو مثال الآتي الذي يراد به الأمر، فمن أراد به الأمر جعل ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ جواباً لتقاسموا، فكأنّه قال: حلفوا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ لأنّ هذه الألفاظ التي تكون من ألفاظ القسم، تتلقّى بما يتلقّى به الإيمان، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ﴾، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾ فكذلك: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ ملقاة اللام والنون الثقيلة. وأدخل المتكلّمون أنفسهم مع المقتسمين، كما دخلوا في قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾.

ومن قال: ﴿تَقَاسَمُوا﴾ ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ [لَتُبَيِّتَنَّهُ] أراد: ليقسم بعضكم لبعض لنبيتنه [لتبيّتنّه]، فتقاسموا على هذا أمر، كما كان فيمن قال: ﴿لنبيتنه﴾ أمراً. ومن قال ﴿تَقَاسَمُوا﴾ «لتبيتنه» [ليبيّتنّه] بالتاء [بالياء]، فتقاسموا على هذا مثال ماض، ولا يجوز مع هذا إلّا بالتاء [بالياء]؛ لأنّ مثال الماضي للغيبة، ولتبيّتنّه للخطاب.

ومن كسر: ﴿إنا دمرناهم﴾، جاز أن يكون «كان» في قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ تامّة، وأن تكون ناقصة. فإن جعلتها تامّة بمعنى «وقع»، كان قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ في موضع حال، تقديره: على أيّ حال وقع عاقبة مكرهم أي: أحسناً وقع عاقبة مكرهم أو سيّئاً. أو يكون في «كيف» ضمير من ذي الحال، كما أنّك إذا قلت: في الدار حدث الأمر، فجعلته في موضع الحال، كان كذلك. وحكم «كيف» على ذا أن يكون متعلّقاً بمحذوف، كما أنّك إذا قلت: في الدار وقع زيد، فتقديره: وقع زيد مستقرّاً في هذه الحال. فإن جعلته ظرفاً للفعل، تعلّق بـ«كان» الذي بمعنى الحدث.

وقوله: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ فيمن كسر إستئناف، وهو تفسير للعاقبة، كما أنّ قوله: ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تفسير للموعد. ومن قرأ: ﴿أَنَّا دمرناهم﴾ جاز أن

يكون «كان» على ضربيها. وإذا حملته على وقع، كان ﴿كَيْفَ﴾ في موضع حال. وجاز في قوله: ﴿إنا دمرناهم﴾ أمران: أحدهما: أن يكون بدلاً من قوله: ﴿عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾. وجاز أن يكون محمولاً على مبتدأ مضمر، كأنّه قال: هو انّا دمّرناهم أو ذاك انّا دمّرناهم. فإذا حملتها على المقتضية للخبر جاز في قوله: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أن يكون بدلاً من إسم «كان» الذي هو العاقبة، فإذا حملته على ذلك كان ﴿كَيْفَ﴾ في موضع خبر «كان». والآخر: أن يكون خبر «كان»، ويكون موضعه نصباً؛ بأنّه خبر «كان»، كأنّه كان عاقبة أمرهم تدميرهم.

ويكون ﴿كَيْفَ﴾ في موضع حال. ويجوز أن يكون العامل في ﴿كَيْفَ﴾ أحد شيئين:

إمّا أن يكون «كان»، لأنّه فعل كما كان العامل في الظرف في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ ألاترى أنّه لا يجوز أن يتّصل قوله: للناس بواحد من المصدرين، إلّا أن تجعله صفة لعجب، فتقدّمه، فيصير في موضع حال. فالعامل فيه على هذا أيضاً «كان».

ويجوز أن يكون العامل فيه ما في الكلام من الدلالة على الفعل؛ لأنّ قوله: إنّا دمّرناهم بمنزلة تدميرنا، فتدميرنا: يدلّ على دمّرنا. فيصير العامل فيه هذا المعنى الذي دلّ عليه ما في الكلام من معنىٰ الفعل. وزعموا أنّ في حرف أبي ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ فهذا يقوي الفتح في ﴿أنا﴾.

﴿المعنىٰ﴾: ثمّ عطف سبحانه على قصّة سليمان، قصّة صالح، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَالِحاً أَنْ اعْبُدُوا اللهَ﴾ أي: أرسلناه بأن أعبدوا الله وحده، لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: مؤمنون وكافرون، يقول كل فريق: الحقّ معي. ﴿قَالَ﴾ صالح للفريق المكذّب ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذاب قبل الرحمة أي: لمَ قلتم: إن كان ما

أتينا به حقّاً فأتنا بالعذاب. وسمّى العذاب سيّئة؛ لما فيه من الآلام؛ ولأنّه جزاء على السيّئة، لأن السيئة هي الخصلة التي تسوء صاحبها.

﴿لَوْلَا﴾ أي: هلّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ﴾ أي: تطلبون مغفرته من الشرك بأن تؤمنوا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فلا تعذَّبون في الدنيا ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أي: تشأ منّا بك وبمن معك على دينك، وذلك أنّهم قحط المطر عنهم، وجاعوا، فقالوا: أصابنا هذا الشرّ من شؤمك، وشؤم أصحابك. ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ أي: الشؤم أتاكم من عند الله بكفركم، وهذا كقوله: ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تختبرون بالخير والشرّ، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: تعذبون بسوء أعمالكم، ـ عن محمّد بن كعب ـ. وقيل: تبتلون، وتمتحنون بطاعة الله ومعصيته ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني: التي بها صالح، وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كانت هذه التسعة نفراً من أشرافهم، وهم غواة قوم صالح، وهم الذين سعوا في عقر الناقة ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: لا يطيعون الله تعالى. وذكر ابن عباس أسماءهم، وقال: هم قدار بن سالف، ومصدع، ودهمي، ودهيم، ودعمي، ودعيم، وأسلم، وقتال [قبال]، وصداف.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ﴾ أي: قالوا فيها بينهم: احلفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ أي: لنقتلنّ صالحاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ بياتاً. ومن قرأ بالنون، فكأنّهم قالوا: أقسموا لنفعلنّ. والأمر بالقسم في القراءتين داخل في الفعل منهم. ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أي: لذي رحم صالح، إن سألنا عنه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي: ما قتلناه، وما ندري من قتله وأهله. وقد ذكرنا إختلاف القرّاء فيه في سورة الكهف.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في هذا القول. قال الزجّاج: كان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله، ثمّ ينكروا عند أوليائه أن يكونوا فعلوا ذلك، أو رأوه. وكان

هذا مكراً عزموا عليه.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ أي: جازيناهم جزاء مكرهم بتعجيل عقوبتهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بمكر الله بهم، فإنّهم دخلوا على صالح ليقتلوه، فأنزل الله سبحانه الملائكة، فرموا كل واحد منهم بحجر حتى قتلوهم، وسلم صالح من مكرهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّ الله أمر صالحاً بالخروج من بينهم، ثمّ إستأصلهم بالعذاب. وقيل: نزلوا في سفح جبل ينظر بعضهم بعضاً، ليأتوا صالحاً، فخرَّ عليهم الجبل، ـ عن مقاتل ـ.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ أي: أهلكناهم بما ذكرناه من العذاب ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بصيحة جبرائيل ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ ﴾ أشار إلى بيوتهم، والمعنى: فأنظر إليها ﴿خَاوِيَةً ﴾ نصب؛ على الحال أي: فارغة خالية ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم، وشركهم بالله تعالى. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي: في إهلاكهم ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لعبرة لمن نظر إليها، واعتبر بها. وفي هذه الآية دلالة على أنّ الظلم يعقب خراب الدور. وروي عن ابن عباس أنّه قال: أجد في كتاب الله أنّ الظلم يخرب البيوت، وتلا هذه الآية. وقيل: إنّ هذه البيوت بوادي القرى، بين المدينة والشام. ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ به ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ قالوا: إنّهم أربعة آلاف، خرج بهم صالح إلى حضرموت، وسمّي حضرموت؛ لأنّ صالحاً لمّا دخلها مات.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ
وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً
مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ

مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ
عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل البصرة وعاصم: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء ـ على الخطاب ـ. وفي الشواذّ، قراءة الحسن: ﴿فما كان جوابُ قومه﴾ ـ بالرفع ـ.

الحجة: الأولى أن يكون ﴿جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ خبر «كان»، والإسم قوله: ﴿أَنْ قَالُوا﴾، لشبه «أنْ» بالمضمر؛ من حيث كانت لا توصف. والمضمر أعرف من المظهر. وقد تقدّم القول في هذا.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه قصّة لوط؛ عاطفاً بها على ما تقدَّم، فقال: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ منكراً عليهم أفعالهم ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: الخصلة القبيحة، الشنيعة، الظاهرة القبح، وهي إتيان الذكران في أدبارهم ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: تعلمون أنّها فاحشة. وقيل: معناه: وأنتم يرى بعضكم ذلك من بعض.

ثمّ بيَّن سبحانه الفاحشة التي يأتونها، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ اللاتي خلقهنّ الله لكم. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تفعلون أفعال الجهّال. قال ابن عباس: تجهلون القيامة، وعاقبة العصيان.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ عن إتيان الرجال في أدبارهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا﴾

---

(١) «أإنّكم»: من إجتماع الهمزتين، ومرّ مراراً. وقرأ: «قدَرناها» ـ بالتخفيف ـ أبو بكر ومرشي ممّا يتعلّق بـ«الله» في سورة يونس.

أي: جعلناها ﴿مِنْ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ وهو الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ الذين أبلغهم لوط النذارة، وأعلمهم بموضع المخافة ليتّقوها، فخالفوا ذلك.

ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿قُلِ﴾ يا محمّد ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ﴾ شكراً على نعمه، بأن وفّقنا للإيمان. وقيل الحمد لله على هلاك الأمم الكافرة. ـ عن مقاتل ـ. ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ أي: إصطفاهم الله وإجتباهم، وإختارهم على بريّته، وهم الأنبياء، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: هم أصحاب محمّد ﷺ، ـ عن ابن عباس والحسن ـ. وقيل: هم أمّة محمّد ﷺ. ومعنى السلام عليهم: أنّهم سلموا ممّا عذّب الله به الكفّار، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: هم آل محمّد ﷺ، ـ عن عليّ بن إبراهيم ـ.

ثمّ قال سبحانه مخاطباً للمشركين: ﴿آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يا أهل مكّة يعني: الله خير لمن عبده، أم الأصنام لعابديها. وهذا إلزام للحجّة على المشركين، بعد ذكر هلاك الكفّار. والمعنى: إنّ الله تعالى نجى من عبده من الهلاك، والأصنام لم تغن شيئاً عن عابديها عند نزول العذاب، وإنّما قال ذلك؛ لأنّهم توهّموا في عبادة الأصنام خيراً.

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ
أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ
رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾
أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾
قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ (١)

القراءة: قرأ أبو عمرو وهشام: ﴿ما يذكرون﴾ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء. والوجه فيهما ظاهر.

اللغة: الحديقة: البستان الذي عليه حائط، وكل ما أحاط به البناء فهو حديقة. وقيل: الحديقة: البستان الذي فيه النخل. والقرار: المكان المطمئنّ الذي يستقرُّ فيه الماء. ويقال للروضة المنخفضة: قرارة، ومنه: حديث ابن عباس قال: «علمي في علم عليّ عليه السلام كالقراره في المثعنجر» أي: كالغدير في البحر. والبرهان: البيان بحجّة.

الإعراب: ﴿أَمَّن﴾ استفهام في محلّ الرفع؛ على الإبتداء، وخبره: ﴿خَلَقَ﴾

---

(١) أإله: من إجتماع الهمزتين هنا في خمسة مواضع. ووقف الكسائي على «ذات» بالهاء، والباقون: بالتاء. وقرأ: «الرياح» ـ بالجمع ـ «نُشُراً» ـ بضمّتين ـ نافع وأبو عمرو. و«الريح» ـ بالإفراد ـ و«نُشُراً» ـ بضمّتين ـ ابن كثير، وبالجمع وبضمّ النون وسكون الشين ابن عامر، وبالجمع و«نُشْر» ـ بالموحّدة المضمومة وسكون الشين ـ عاصم، وبالتوحيد و«نَشْر» ـ بالنون المفتوحة وسكون الشين ـ حمزة والكسائي.

و ﴿قَرَاراً﴾: نصب؛ على الحال؛ لأنّ ﴿جعل﴾ بمعنى: خلق، وإن كان بمعنى: صير، فهو مفعول ثان له. ﴿ءَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، تقديره: أإله ثبت مع الله. وإنّما جاز أن تكون النكرة مبتدأ؛ لأنّه إستفهام. ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً، أو يكون تقديره: أإله في الوجود مع الله. ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾: صفة مصدر محذوف، تقديره: تذكّرون تذكّراً قليلاً. و ﴿ما﴾: مزيدة. و ﴿بُشْراً﴾: نصب؛ على الحال. و ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: ظرف منه ﴿أَيَّانَ﴾: في محل نصب؛ لأنّه ظرف زمان، والعامل فيه: ﴿يُبْعَثُونَ﴾.

المعنى: ثمّ عدّد سبحانه الدلائل على توحيده، ونعمه الشاملة لعبيده، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وتقديره: أما تشركون خير، أم من خلق السموات والأرض أي: أنشأهما وإخترعهما ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: غيثاً ومطراً لكم أي: لمنافعكم، ولأجل معاشكم. عرّفهم سبحانه أنّ غيره لا يقدر على ذلك.

﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي: رياضاً وبساتين، وما لم يكن عليه حائط، لا يقال له حديقة. ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: ذات منظر حسن، يبتهج به من رآه. ولم يقل: ذوات بهجة؛ لأنّه أراد تأنيث الجماعة. ولو أراد تأنيث الأعيان، لقال: ذوات. وقال الشاعر:

وَسَوْفَ يُعقِبُنِيهِ إنْ ظَفَرْتَ بِهِ ... رَبٌّ كَرِيمٌ، وبِيضٌ ذاتُ أطْهارِ[1]

﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ما: هنا للنفي أي: لم يكونوا يقدرون على

---

(١) الشعر لسموال بن عاد يا، يضرب به المثل في الوفاء، وكانت عنده دروع أمانة، فطلب منه رجل، فأبى أن يخون في الأمانة، فأخذ الرجل إبناً للسموال وهدّده بأنّه إن لم يسلّم إليه الدروع، قتل إبنه. والبيت يشير الى ذلك، يقول: ان ظفرت بإبني، وقتلته، فسوف يخلفني ربّي أبناء من نساء ذات أطهار.

إنبات شجرها. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ وهذا إستفهام إنكار، معناه: هل معه معبود سواه أعانه على صنعه. ﴿بَلْ﴾ ليس معه إله ﴿هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يشركون بالله غيره. يعني: كفّار مكّة.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً﴾ أي: مستقرّة لا تميل، ولا تميد بأهلها ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً﴾ أي: وجعل وسط الأرض، وفي مسالكها ونواحيها، أنهاراً جارية، ينبت بها الزرع، ويحيا بها الخلق. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالا ثوابت، أثبت بها الأرض. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ أي: مانعاً من قدرته، بين العذب والملح، فلا يختلط أحدهما بالآخر. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد ربّهم، وكمال قدرته، وسلطانه.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: يجيب المكروب المجهود، فيكشف ضرَّه وكربه، وإجابة دعاة المضطرّ: هي فعل ما يدعو به، وهذا لا يكون إلّا من قادر على الإجابة، مختار لها. ورأس المضطرّين المذنب الذي يدعوه، ويسأله المغفرة، ومنهم الخائف الذي يسأله الأمن، والمريض الذي يطلب العافية، والمحبوس الذي يطلب الخلاص، فإنّ الكل إذاضاق بهم الأمر، فزعوا إلى ربّ العالمين، وأكرم الأكرمين. وإنّما خصّ المضطرّ، وإن كان قد يجيب غير المضطرّ؛ لأنّ رغبته أقوى، وسؤاله أخضع.

﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي: يدفع الشدّة، وكل ما يسوء ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله، فيهلك قرناً، وينشيء قرناً. وقيل: يجعلكم خلفاء من الكفّار بنزول بلادهم، وطاعة الله تعالى بعد شركهم وعنادهم. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلاً ما تتّعظون، ـ عن ابن عباس ـ. ومن قرأ بالياء، فالمعنى: قليلاً ما يتذكّر هؤلاء المشركون.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: أما تشركون خير، أم من

يرشدكم إلى القصد والسمت في البرّ والبحر، بما نصب لكم من الدلالات، من الكواكب والقمر[١]، إذا ضللتم، وهو كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قد مضى تفسيره، ووجوه القراآت فيه. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: جلَّ وتنزَّه عن الشريك كما يزعمه المشركون. ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ بأن يخترعه، ويوجده، وينشئه على غير مثال وإحتذاء، ثمّ يميته ويفنيه. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الإفناء. وإنّما قال ذلك؛ لأنّهم أقرُّوا بأنّه الخالق، فيلزمهم الإقرار بالبعث من حيث إنَّ من قدر على الإنشاء، قدر على الإعادة. ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بإنزال المطر، وبإخراج الثمار والنبات.

﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ يقدر على ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجّتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنَّ لي شريكاً صنع شيئاً من هذه الأشياء، فإذا لم يقدروا على إقامة البرهان على ذلك، فإعلموا أنّه لا إله معي، ولا يستحقّ العبادة سواي.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة، والإنس، والجنّ ﴿الْغَيْبَ﴾ وهو ما غاب علمه من الخلق ممّا يكون في المستقبل ﴿إِلَّا اللهُ﴾ وحده، أو من أعلمه الله تعالى. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى يحشرون يوم القيامة. دلَّ سبحانه بهذه الآية، كما دلّ بما تقدّمها، على قدرته.

---

(١) ويمكن أن يراد في ظلمات البرّ والبحر: السحاب المظلم؛ حيث لا يرى نجوم، حتى يناسب المضطرّ في الآية السابقة. والحاصل: أنّ المأيوس من جميع الأسباب، يري في قلبه ملجأ، يرجو النجاة به، وهو الله.

بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ
هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا
وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ
وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ
سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

القراءة: قرأ أهل البصرة، وأبو جعفر، وابن كثير: ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ ـ بقطع الألف، وسكون اللام والدال ـ. وقرأ الشموني عن أبي بكر: ﴿بَلِ ادَّرَكَ﴾ ـ موصولة الألف، مشدَّدة الدال بلا ألف بعدها ـ. والباقون: ﴿بل ادّارك﴾. وفي الشواذّ، قراءة سليمان بن يسار، وعطاء بن يسار: ﴿بَلَ دْرَكَ﴾ ـ بفتح اللام، ولا همزة، ولا ألف ـ. وقراءة الحسن، وأبي رجاء، وابن محيصن، وقتادة: ﴿بَلْ أدَّرك﴾ وقراءة ابن عباس: ﴿بلى﴾ ـ بياء ـ ﴿أدرك﴾. وقراءة أبي: ﴿بل تدارك﴾.

وقرأ أهل المدينة: ﴿إذا كنّا تُراباً﴾ ـ بكسر الألف ـ. ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾

بالإستفهام بهمزة واحدة ممدودة، ـ عن أبي جعفر، وقالون ـ وغير ممدودة، ـ عن ورش، وإسماعيل ـ. وقرأ ابن عامر، والكسائي: ﴿أإذا﴾ ـ بهمزتين ـ. ﴿انّـنا﴾ ـ بنونين ـ. وقرأ ابن كثير، ويعقوب: ﴿آذا آنا﴾ بالإستفهام فيهما جميعاً، بـهمزة واحدة غير ممدودة، والثانية مسهلة. وقرأ أبو عمر: و ﴿آذا آنّا﴾ بالإستفهام فيهما جميعاً بهمزة واحـدة مـمدودة. وقـرأ عـاصم، وحـمزة، وخـلف: ﴿أإذا أإنـا﴾ بالإستفهام فيهما جميعاً بهمزتين، همزتين. وقرأ ابن كثير: ﴿في ضِيق﴾ ـ بكسـر الضاد ـ. والباقون: بفتحها.

﴿الحجة﴾: قال أبو عليّ: إنّ «علم» قد يصل بالجارّ، كقوله تعالى: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ وقولهم: علمي بزيد يوم الجمعة. ومعنى أدرك: بلغ ولحق، يـقال: فلان أدرك الحسن أي: لحق أيّامه. وهذا ما أدركه علمي أي: بلغه. فالمعنى: أنّهم لم يدركوا علم الآخرة أي: لم يعلموا حدوثها وكونها. ودلَّ على ذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: بل هم من علمها عمون. وإذا كان كذلك، كان معنى قوله: ﴿في الآخرة﴾ معنى الباء أي: لم يـدركوا عـلمها، ولم يـنظروا فـي حقيقتها، فيدركوا. ولهذا قرأ من قرأ: ﴿أدرك﴾ كأنّه أراد لم يدركوه، كـما تـقول: أجئتني أمس أي: لم تجئني. والمعنى: لم يدرك علمهم بحدوث الآخرة، بل هم في شكّ منها، بل هم من علمها عمون. والعمى عن علم الشيء، أبعد منه من الشاكّ فيه؛ لأنّ الشك قد يعرض عن ضرب من النظر، والعمى عن الشيء، الذي لم يدرك منه شيئاً.

وأمّا من قال: ﴿إدّارك﴾ فإنّه أراد: تدارك، فأدغم التاء في الدال لمقاربتها لها، وكونها من حيّزها. فلما سكنت التاء للإدغام إجتلبت لها همزة الوصل، كـما إجتلبتها في نحو: ﴿إدَّارَأْتُم﴾. وفي التنزيل ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾ كان معناها: تلاحقوا. قال:

تَدارَكتُم الأحْلافَ [الأخلاف] قَدْ ثُلَّ عَرشُها[١]

وما روي عن أبي بكر ﴿بَلِ ادَّرَكَ﴾ معناه: إفتعل، من ادَّركت. وإفتعل وتفاعل يجيآن بمعنى. ومن ثمّ صحَّ قولهم: إزدوجوا، وإن كان الحرف على صورة يجب فيها الإنقلاب، ولكنّه صحَّ لمّا كان بمعنى «تفاعلوا». وتفاعلوا يلزم فيه تصحيح حروف العلّة؛ لسكون الحرف الذي قبل حرف العلّة. فصار تصحيح هذا كتصحيح عَوِرَ وحَوِلَ؛ لما كان بمعنى: إعوَرَّ وإحوَلَّ.

ومن قرأ: ﴿بَلَ ادْرَكَ﴾: فإنّه خفّف الهمزة بحذفها، وإلقاء حركتها على اللام الساكنة قبلها، نحو: قَدَ فْلَحَ في ﴿قَدْ أفلح﴾. وأمّا قوله: ﴿بل أدَّرَك﴾ فإنّ «بل» إستئناف، وما بعدها إستفهام، كما تقول: أزيد عندك بل أعمرو عندك، تركاً للأوّل إلى غيره. وأمّا بَلَىٰ ادرك، فكأنّه جواب، وذلك لأنّه لمّا قال: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فكأنّ قائلاً قال: ما الأمر كذلك، فقيل له: بلى. ثمّ أستؤنف فقيل: أدرك علمهم في الآخرة. وقد سبق ذكر الإستفهامين فيها(١) تقدم، وكذلك ذِكر الضِيق والضَيق.

والأولى أن يحمل على أنّهما لغتان.

(اللغة): قال ابن الأعرابي: ردفت وأردفت، ولحقت وألحقت، بمعنى. وترادفوا: تلاحقوا. قال المبرّد: اللام في ﴿ردف لكم﴾ زائدة قيل: إنّه إنّما أتي باللام؛ لأنّ معنى ردف: دنا، فكأنّه قال: دنا لكم، كما قال الشاعر:

---

(١) في سورة أسرىٰ.

[١] هذا صدر بيت لزهير، وعجزه: (وذبيان قد زلت بأقدامها النعل). ومراده من الأحلاف هم قبيلتا أسد وغطفان، لأنهم تحالفوا على التناصر. وقوله: «وذبيان» عطف على الأحلاف. وثل عرشه أي: تضعضعت حاله.

فَقُلتُ لَهُ: الْحاجاتُ يَطْرَحْنَ بِالفَتىٰ وَهَــمٌّ تَـعَنَّاني مُـعَنّاً رَكـائِبُهُ(١)[١]

قال: يطرحن بالفتى، لما كان معنى يطرحن: يرمين. وكـننت الشـيء فـي نفسي، وأكننته: إذا سترته في نفسك، فهو مكن ومكنون. قال الرماني: الإكنان جعل الشيء بحيث لا يلحقه أذى بمانع يصدُّه عنه.

﴿الإعراب﴾: العامل في «إذا»: معنى قوله: ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾، لأنّ ما بعد «إنّ»، لا يعمل فيما قبل «إنّ»، فالتقدير: أإذا كنّا تراباً أخرجنا. و«هذا» في محلّ نصب؛ لأنّه مفعول ثان لـ«وعد». ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: يكون إسمه: ضمير الأمر والشأن، وما بعده: خبره. و«أن يكون» وما يتعلّق به، في محلّ رفع؛ بأنّه فاعل ﴿عَسَىٰ﴾.

﴿المعنى﴾: لمّا أخبر سبحانه عن الكفّار، أنّهم لا يشعرون متى يبعثون، وأنّهم شاكّون، عقّبه بأنّهم يعلمون حقيقة ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿بَلْ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تتابع منهم العلم، وتلاحق حتى كمل علمهم في الآخرة، بما أخبروا به في الدنيا، فهو على لفظ الماضي، والمراد به: الإستقبال أي: يتدارك. ومن قرأ: ﴿ادرك﴾ فمعناه: سيدرك علمهم هذه الأشياء في الآخرة، حين لا ينفعهم اليقين.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ في الدنيا، ـ عن ابن عـباس ـ. والمـعنى: إنّ مـا جهلوه في الدنيا، وسقط علمه عنهم، علموه في الآخرة. وقيل: معناه: إجتمع علمهم يوم القيامة، فلم يشكّوا، ولم يختلفوا، ـ عن السدّي ـ. وقال مقاتل: يقول بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكّوا وعمّوا عنه في الدنيا. وقيل: إنَّ هذا على وجه الإستفهام، فحذف الألف، والمراد به النفي، بمعنى أنّه لم يدرك علمهم بالآخرة، ولم يبلغها علمهم. وقيل: معناه: أدرك هذ العلم جميع العقلاء، لو تفكّروا ونظروا؛ لأنّ

---

(١) أي: أتعبني ومعنّي: إسم مفعول، من التعنيته.

[١] قائله: الفرزدق من قصيدة يمدح فيها المطلب بن عبدالله المخزومي. وقبل هذا البيت قوله وهو مطلع القصيدة: «تقول ابنة الغوثي مالك هٰهنا * وأنت تميمي مع الشرق جانبه فـقلت لها...» وقوله: «هم تعناني» أي: قاساني. ومعنى من التعنية.

العقل يقتضي أنّ الإهمال قبيح، فلابدّ من تكليف، والتكليف يقتضي الجزاء. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا، فلابدّ من دار للجزاء. وقيل: إنّ الآية إخبار عن ثلاث طوائف: طائفة أقرّت بالبعث، وطائفة شكّت فيه، وطائفة نفته، كما قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي أمرٍ مريج﴾.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ مِنهَا عَمونَ﴾ أي: عن معرفتها. وهو جمع: عمي، وهو الأعمى القلب؛ لتركه التدبّر والنظر. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بإنكارهم البعث: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور مبعوثون. يقولون ذلك على طريق الإستبعاد والإستنكار.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ البعث ﴿نَحْنُ﴾ فيما مضى ﴿وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ووعد آباؤنا ذلك من قبلنا فلم يكن ممّا قالوه شيء ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين كفروا بالله، وعصوه أي: كيف أهلكهم الله، وخرب ديارهم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على تكذيبهم، وتركهم الإيمان. ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ وهو ما يضيق به الصدر ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: يدبّرون في أمرك، فإنّ الله تعالى يحفظك، وينصرك عليهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا يامحمّد من العذاب ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنّه يكون. ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي: قرب لكم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أقرب [إقترب] لكم، ـ عن السدّي ـ. وقيل: أردف [ازف] لكم، ـ عن قتادة ـ. ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب. وعسى من الله واجب، فمعناه: أنّه قرب منكم، وسيأتيكم. وهذا البعض الذي دنا لهم القتل والأسر يوم بدر، وسائر العذاب لهم فيما بعد الموت. وقيل: هو الإنذار عند الموت وشدّته، وعذاب القبر، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بضروب النعم الدينيّة والدنيويّة. وقيل: بإمهالهم ليتوبوا. والفضل: هو الزيادة من الله تعالى للعبد على ما يستحقّه بشكره،

والعدل: حقّ للعبد. والفضل فيه واقع من الله تعالى، إلّا أنّه على ما يصحّ، وتقتضيه الحكمة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: تخفيه وتستره ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ويعلم ما يظهرونه أيضاً ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ أي: من خصلة غائبة ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: جميع ما أخفاه عن خلقه، وغيبه عنهم، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: إلّا وهو مبين في اللوح المحفوظ، وقيل: أراد أنّ جميع أفعالهم محفوظة عنده، غير منسيّة، كما يقول القائل: أفعالك عندي مكتوبة أي: محفوظة، ـ عن أبي مسلم والجبائي ـ.

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾

القراءة: قرأ ﴿ولا يسمع﴾ ـ بالياء ـ، ﴿الصُّمُّ﴾ ـ بالرفع ـ هيهنا وفي

الروم ابن كثير، وابن عباسٍ. والباقون: ﴿لا تسمع﴾ ـ بضمّ التاء ـ، ﴿الصمَّ﴾ ـ بالنصب ـ. وقرأ: ﴿وما أنت تهدي العمي﴾ حمزة هيهنا وفي الروم. وقرأ الباقون: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي ٱلْعُمَيِ﴾. وفي الشواذّ، قراءة ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والجحدري، وابن ذرعة [زرعة]: ﴿تَكلِمُهم﴾ ـ بفتح التاء، والتخفيف ـ. وقرأ أهل العراق، غير أبي عمرو وسهل: ﴿أنَّ الناس﴾ ـ بفتح الهمزة ـ. والباقون: بكسرها.

الحجّة: حجّة من قال: ﴿تُسْمِعُ﴾: أنّه أشبه بما قيل من قوله: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. ويؤكّد ذلك قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ﴾. ومن قرأ: ﴿ولا يَسمَعُ الصُمُّ الدعاءَ﴾: فالمعنى: لا ينقادون للحقّ لعنادهم، كما لا يسمع الأصمّ ما يقال له.

ومن قرأ: ﴿تهدى ٱلْعُمَيِ﴾: فالتقدير: إنّك لا تهديهم لشدّة عنادهم، وإعراضهم. و«أنت» مرفوع بـ«ما»، على قول أهل الحجاز، و ﴿تهدي﴾: في موضع نصب؛ بأنّه خبر. وعلى قول تميم: يرتفع بفعل مضمر يفسّره الظاهر الذي هو ﴿تهدي﴾ تقديره: إذا أظهرت ذلك المضمر ما تهدي تهدي؛ لأنّك إذا أظهرت الفعل المضمر إتّصل به الضمير، ولم ينفصل كما ينفصل إذا لم يظهر.

ومن قرأ: ﴿بِهَادِي ٱلْعُمَيِ﴾ مضافاً في السورتين، فإسم الفاعل للحال، أو للاتي. فإذا كان كذلك، كانت الإضافة في نيّة الإنفصال. وقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ ـ بالفتح ـ: فالوجه فيه: تكلّمهم بأنّ الناس. وزعموا أنّه في قراءة أبي ﴿تنبئهم﴾. وعن قتادة: إنّه في بعض الحروف ﴿تحدثهم﴾. وهذا يدلّ على أن تكلّمهم من الكلام الذي هو النطق، وليس هو من الكلم الذي هو الجراحة. ومن كسر، فقال: ﴿إن الناس﴾ فالمعنى: تكلّمهم فتقول لهم: إنّ النّاس. وإضمار القول في الكلام كثير، وحسن ذلك؛ لأنّ الكلام قول. فكأنّ القول قد أظهر. ومن قرأ: ﴿تَكلِمهم﴾ فمعناه: تجرحهم بأكلها إيّاهم.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه من الحجج ما يقوّي قلب نبيّه ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: يخبرهم بالصدق ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من حديث مريم، وعيسى، والنبيّ المبشّر به في التوراة، حيث قال بعضهم: هو يوشع، وقال بعضهم: لا بل هو منتظر لم يأت بعد، وغير ذلك من الأحكام. وكان ذلك معجزة لنبيّنا ﷺ؛ إذ كان لا يدرس كتبهم، ولا يقرؤها، ثم أخبرهم بما فيها. ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَهُدىً﴾ أي: دلالة على الحقّ ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نعمة لهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ يريد بين المختلفين في الدين يوم القيامة. وأشار بذلك إلى شيئين: أحدهما: إنّ الحكم له. فلا ينفذ حكم غيره، فيوصل إلى كل ذي حقّ حقّه. والآخر: إنّه وعد المظلوم بالإنتصاف من الظالم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على ما يشاء، لا يمتنع عليه شيء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالمحقّ والمبطل، فيجازي، كُلّاً بحسب عمله. وفي هذه الآية تسلية للمحقّين من الذين خولفوا في أمور الدين، وأنّ أمرهم يؤول إلى أن يحكم بينهم ربّ العالمين.

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه ﷺ، فقال ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي: الواضح البيّن الظاهر. والمحقّ أولى بالتوكّل من المبطل المدغل. والمراد بهذا الخطاب: سائر المؤمنين، وإن كان في الظاهر لسيّد المرسلين.

ثمّ شبّه الكفّار بالموتى، فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ يقول: كما لا تسمع الميّت الذي ليس له آلة السمع النداء، كذلك لا تسمع الكافر النداء؛ لأنّه لا يسمع، ولا يقبل الموعظة، ولا يتدبّر فيها. ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ إنّما قال ذلك؛ لأنّ الأصمّ إذا كان قريباً، فالإنسان يطمع في إسماعه. فإذا أعرض وأدبر وتباعد، إنقطع الطمع في إسماعه. فجعل سبحانه المصمم على الجهل كالميّت في أنّه لا يقبل الهدى، وكالأصمّ في أنّه لا يسمع الدعاء.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ في الدين بالآيات الدالّة على الهدى إذا أعرضوا عنها، كما لا يمكنك أن تهدي الأعمي إلى قصد الطريق. جعل سبحانه الجهل بمنزلة العمى؛ لأنّه يمنع عن إدراك الحقّ، كما يمنع العمى من إدراك المبصرات.

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: ما تسمع إلّا من يطلب الحقّ بالنظر في آياتنا ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مستسلمون منقادون. جعل سبحانه إستماعهم، وقبولهم الحقّ سماعاً، وتركهم للقبول تركاً للسماع. وقيل: مسلمون أي: موحّدون مخلصون.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وجب العذاب والوعيد عليهم. وقيل: معناه: إذا صاروا بحيث لا يفلح أحد منهم، ولا أحد بسببهم، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: إذا غضب الله عليهم، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: إذا أنزل العذاب بهم عند اقتراب الساعة فسمّي المقول قولاً، كما يقال: جاء الخبر الذي قلت، ويراد به المخبر. قال أبو سعيد الخدري، وابن عمر: إذا لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، وجب السخط عليهم، وأخذوا بمبادىء العقاب، منها: قوله:

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ تخرج بين الصفا والمروة، فتخبر المؤمن بأنّه مؤمن، والكافر بأنّه كافر، وعند ذلك يرتفع التكليف، ولا تقبل التوبة، وهو علم من أعلام الساعة. وقيل: لا يبقى مؤمن إلّا مسحته، ولا يبقى منافق إلّا حطمته، تخرج ليلة جَمْعٍ، والناس يسيرون إلى منى، ـ عن ابن عمر ـ. وروى محمّد بن كعب القرظي قال: سئل عليّ صلوات الرحمن عليه عن الدابّة؟ فقال: أما والله ما لها ذنب، وإنّ لها للحية. وفي هذا إشارة إلى أنّها من الإنس.

وروي عن ابن عباس أنّها دابّة من دوابّ الأرض[1]، لها زغب وريش،

---

(١) وقيل: إنّ في الإنجيل أيضاً ذكر دابّة الأرض، رآها يوحنّا الحواري فيما رآه من الملاحم الآنية [تية] قبل القيامة.

ولها أربع قوائم. وعن حذيفة عن النبيّ ﷺ قال: دابّة الأرض: طولها ستّون ذراعاً لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب، فتسم المؤمن بين عينيه، وتكتب بين عينيه مؤمن، وتسم الكافر بين عينيه، وتكتب بين عينيه كافر. ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا. وتختم أنف الكافر بالخاتم، حتى يقال: يا مؤمن، ويا كافر.

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه يكون للدابّة ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خروجاً بأقصى المدينة، فيفشو ذكرها في البادية، ولا يدخل ذكرها القرية، يعني: مكّة. ثمّ تمكث زماناً طويلا، ثمّ تخرج خرجة أخرى قريباً من مكّة، فيفشو ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها القرية، يعني: مكّة. ثمّ سار الناس يوماً في أعظم المساجد على الله عزّوجلّ حرمة، وأكرمها على الله يعني: المسجد الحرام، لم ترعهم إلّا وهي في ناحية المسجد، تدنو وتدنو كذا ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم، عن يمين الخارج في وسط من ذلك، فيرفض الناس عنها، ويثبت لها عصابة، عرفوا أنّهم لن يعجزوا الله. فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب، فمرّت بهم، فجلت عن وجوههم، حتى تركتها كأنّها الكواكب الدريّة، ثمّ ولّت في الأرض، لا يدركها طالب، ولا يعجزها هارب، حتى أنّ الرجل ليقوم فيتعوّذ منها بالصلاة، فتأتيه من خلفه، فتقول: يا فلان الآن تصلّي؟ فيقبل عليها بوجهه، فتسمه [فتمسه] في وجهه. فيتجاور الناس في ديارهم، ويصطحبون في أسفارهم، ويشتركون في الأموال، يعرف الكافر من المؤمن، فيقال للمؤمن: يا مؤمن، وللكافر: يا كافر.

وروي عن وهب، أنّه قال: ووجهها وجه رجل، وسائر خلقها خلق الطير. ومثل هذا لا يعرف إلّا من النبوات الإلهيّة. وقد روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: إنّه صاحب العصا و الميسم. وروى عليّ بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رجل لعمّار بن ياسر: يا أبا اليقظان! آية في كتاب الله

أفسدت قلبي؟ قال عمّار: وأيّة آية هي؟ فقال: هذه الآية، فأيّة دابّة الأرض هذه، قال عمّار: والله ما أجلس، ولا آكل، ولا أشرب، حتى أريكها. فجاء عمّار مع الرجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يأكل تمراً وزبداً، فقال: يا أبا اليقظان! هلّم. فجلس عمّار يأكل معه، فتعجّب الرجل منه. فلمّا قام عمّار، قال الرجل: سبحان الله حلفت أنّك لا تأكل، ولا تشرب، حتى ترينيها! قال عمّار: أريتكها إن كنت تعقل. وروى العيّاشي هذه القصّة بعينها عن أبي ذرّ رحمه الله، أيضاً.

وقوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تكلّمهم بما يسوؤهم، وهو أنّهم يصيرون إلى النار بلسان يفهمونه. وقيل: تحدثهم بأنّ هذا مؤمن، وهذا كافر. وقيل: تكلّمهم بأن تقول لهم: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وهو الظاهر. وقيل: بآياتنا: معناها: بكلامها وخروجها. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يدفعون، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: يحبس أوّلهم على آخرهم. وأستدلّ بهذه الآية على صحّة الرجعة من ذهب إلى ذلك من الإماميّة بأن قال: إنّ دخول ﴿مِن﴾ في الكلام، يوجب التبعيض، فدلّ ذلك على أنّ اليوم المشار إليه في الآية، يحشر فيه قوم دون قوم، وليس ذلك صفة يوم القيامة، الذي يقول فيه سبحانه: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾.

وقد تظاهرت الأخبار عن أئمّة الهدى من آل محمّد صلى الله عليه وآله في أنّ الله تعالى سيعيد عند قيام المهديّ، قوماً ممّن تقدّم موتهم من أوليائه وشيعته؛ ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته، ويبتهجوا بظهور دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم، وينالوا بعض ما يستحقّونه من العذاب في القتل، على أيدي شيعته، والذلّ والخزي بما يشاهدون من علوّ كلمته. ولا يشكّ عاقل أنّ هذا مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه، وقد فعل الله ذلك في الأمم الخالية، ونطق القرآن بذلك في عدّة مواضع مثل: قصّة عزير، وغيره، على ما فسّرناه في موضعه. وصحّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قوله:

«سيكون في أمّتي كل ما كان في بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل، والقُذّة بالقُذّة[١] حتى لو أنَّ أحدهم دخل جحر ضبّ لدخلتموه».

على أنّ جماعة من الإماميّة تأوّلوا ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة، والأمر والنهي، دون رجوع الأشخاص، وإحياء الأموات. وأولوا الأخبار الواردة في ذلك، لما ظنّوا أنّ الرجعة تنافي التكليف، وليس كذلك؛ لأنّه ليس فيها ما يلجيء إلى فعل الواجب، والإمتناع من القبيح. والتكليف يصحّ معها، كما يصحّ مع ظهور المعجزات الباهرة، والآيات القاهرة، كفلق البحر، وقلب العصا ثعباناً، وما أشبه ذلك؛ ولأنّ الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة، فيتطرّق التأويل عليها، وإنّما المعوّل في ذلك على إجماع الشيعة الإماميّة، وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيّده[١]. ومن قال: إنّ قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً﴾ المراد به: يوم القيامة، قال: المراد بالفوج: الجماعة من الرؤساء، والمتبوعين في الكفر، حشروا وجمعوا لإقامة الحجّة عليهم.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا﴾ إلى موقف الحساب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ أي: كذبتم بأنبيائي ودلالاتي الدالّة على ديني ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ أي: لم تطلبوا معرفتها، ولم تبيّنوا ما أوجب الله عليكم فيها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين لم تبحثوا عنها، ولم تتفكّروا في صحّتها، يقول ذلك؛ تبكيتاً لهم، وتجهيلاً، أي:

---

(١) هذا صريح في أنّ مخالفة جماعة تأوّلوا الرجعة برجوع الدولة، لاتقدح في الإجماع؛ لمعلوميّة نسبهم، وأنّهم ليسوا بمعصوم، وإعلم أنّ فى مسئلة الإجماع مزلقة لكثير يزعمون أنّه لا يمكن العلم بإتّفاق الجميع إلّا بتصفّح أقوالهم واحداً واحداً، وهذا غير ممكن، ولو فرض إمكانه، فالعلم بدخول المعصوم فيهم غير حاصل ألبتّة؛ إذ الإنسان إن لم يسمع قول المعصوم منه عليه السلام لم يحصل له العلم بدخوله، وإن سمع منه إستغني عن قول غيره، إلّا أن يسمعه، ولا يعرفه في جماعة، وهذا لم يتّفق لأحد، وذلك كله غفلة؛ إذ العلم الإجمالي بإتّفاق الكل حاصل من إتفاق جماعة قضت العادة بأنّه لوكان إختلاف بين غيرهم، لظهر فيهم، كمامرّ مراراً.

[١] قال ابن الأثير: القذة واحدة القذذ: ريش السهم، وفي الحديث: «لتركبن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذّة» أي: كما تقدر كل واحدة منهما على قدر صاحبتها، وتقطع. يضرب مثلاً للشيئين يستويان، ولا يتفاوتان.

هذا كان الواجب عليكم فتركتموها، ولم تعرفوها حقّ معرفتها، فبماذا إشتغلتم؟ ومن قال بالأوّل قال: المراد بالآيات: الأئمّة الطاهرون عليهم السلام.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وجب العذاب عليهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم إذ صاروا بحيث لا يفلح أحد منهم، ولا أحد بسببهم ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ إذ ذاك بكلام ينتفعون به. ويجوز أن يكون المراد: أنّهم لا ينطقون أصلاً؛ لعظم ما يشاهدونه، وهول ما يرونه.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ
مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ
صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾
مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ
الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ
لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

القراءة: قرأ حمزة وحفص وخلف: ﴿أَتَوْهُ﴾ ـ مقصورة الألف، غير

ممدودة بفتح التاء ـ. وقرأ الباقون: ﴿آتُوه﴾ ـ بمدّ الألف وضمّ التاء ـ. وقرأ أهل البصرة غير سهل وابن كثير وحمّاد والأعشى والبرجمي، عن أبي بكر: ﴿بما يفعلون﴾ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء. وقرأ أهل الكوفة: ﴿مِن فَزَعٍ﴾ ـ منوّناً ـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ـ بفتح الميم ـ. وقرأ أهل المدينة، غير إسماعيل: ﴿من فزع﴾ ـ بغير تنوين ـ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ـ بفتح الميم ـ. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ونافع، برواية إسماعيل ويعقوبُ: ﴿من فزع﴾ ـ بغير تنوين ـ، ﴿يومئذ﴾ ـ بكسر الميم ـ. وقرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص ويعقوب: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء.

الحجّة: قال أبو عليّ: من قرأ: أَتَوه، كان فعلوا من الإتيان. ومن قرأ: ﴿آتُوهُ﴾: فهو فاعَلوه. وكلاهما محمول على معنى «كلّ»، ولو حمله على اللفظ جاز، كما في قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ﴾، و ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾. وحجّة من قال: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ ـ بالياء ـ: أنّ ذكر الغيبة قد تقدّم في قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾. وحجّة التاء: أنّه خطاب للكافّة، وقد تدخل الغيبة في الخطاب، ولا يدخل الخطاب في الغيبة. وقوله: ﴿من فزع يومئذ﴾: من نوَّن كان في إنتصاب ﴿يَومَ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون منتصباً بالمصدر، كأنّه قال: وهم من أن يفزعوا يومئذ آمنون.

والآخر: أن يكون «اليوم» صفة لفزع؛ لأنّ أسماء الأحداث توصف بأسماء الزمان، كما يخبر عنها بها، وفيه ذكر الموصوف، وتقديره في هذا الوجه أن يتعلّق بمحذوف؛ كأنّه قال: من فزع يحدث يومئذ.

والثالث: أن يتعلّق بإسم الفاعل كأنّه: آمنون من فزع يومئذ. ويجوز إذا نوَّن «الفزع» أن يعني به: فزعاً واحداً. ويجوز أن يعني به: كثرة؛ لأنّه مصدر. والمصادر

تدلّ على الكثرة، وإن كانت مفردة الألفاظ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ وكذلك إذا أضاف، فقال: ﴿من فزع يومئذ﴾ أو يومئذ. ويجوز أن يعني به: مفرداً، ويجوز أن يعني به: كثرة. فأمّا القول في إعراب يوم وبنائه إذا أُضيف إلى «إذ»، فقد ذكر فيما تقدّم. وحجّة من قرأ: ﴿يعملون﴾ ـ بالياء ـ: أنّه وعيد للمشركين. وحجة التاء: أنّه على معنى: قل لهم ذلك.

﴿الإعراب﴾: وصف النهار بأنّه مبصر، فيه وجهان: أحدهما: إنّ معناه: ذو إبصار [الأبصار]، كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: ذات رضى. وكقول النابغة:

كِليني لهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِب[١]

أي: ذي نصب.

والثاني: إنّه يريك الأشياء، كما يراها من يبصرها بالنور الذي تجلّى عندها.

وفيه قول ثالث: إنّه مثل قول جرير:

لَقَدْ لُمْتِنا يا أُمَّ غَيْلانَ في السُّرىٰ وَنِمْتِ، وَما لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنائِمِ[٢]

أي: بالذي ينام فيه، فيكون «مبصراً»، بمعنى: ما يبصر فيه.

﴿المعنى﴾: ثمّ بيّن سبحانه قدرته على الإعادة والبعث، بما إحتجّ به على الكفّار، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ عن التعب والحركات ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ أي: يبصر فيه، ويمكن التصرّف فيه لضيائه، ويدرك بنوره جميع الأشخاص، كما يدرك بنور البصر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّ جعل الشيء لما يصلح له من الإنتفاع، إنّما يكون بالإختيار، ولا يكون بالطباع.

---

[١] هذا صدر بيت للنابغة الذبياني، وعجزه: (وليل أُقاسيه بطيء الكواكب) وقوله: «كليني» أي: دعيني أمر من وَكَّل إليه الأمر: فوض. وأُميمة على وزن جهينة: إسم حبيبته.

[٢] الشعر في جامع الشواهد، أم غيلان: كُنية امرأة. السُّرى: سير عامة الليل.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ منصوب، بتقدير: وأذكر يوم ينفخ إسرافيل بأمر الله تعالى في الصور، وذلك اليوم الذي يقع عليهم القول بما ظلموا ويجوز أن يكون على حذف في الكلام، والتقدير: ويوم ينفخ في الصور، وتكون النشأة الثانية. وأختلف في معنى الصور، فقيل: هو صور الخلق، جمع صورة، ـ عن الحسن وقتادة ـ، ويكون معناه: يوم ينفخ الروح في الصور، فيبعثون. وقيل: هو قرن ينفخ فيه شبه البوق، ـ عن مجاهد ـ. وقد ورد ذلك في الحديث.

﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ماتوا لشدّة الخوف والفزع، يدلّ عليه قوله في موضع آخر: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية. وقيل: هي ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لربّ العالمين.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ من الملائكة الذين يثبت الله قلوبهم، وهم: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل. وقيل: يعني: الشهداء؛ فإنّهم لا يفزعون في ذلك اليوم. وروي ذلك في خبر مرفوع. ﴿وَكُلٌّ﴾ من الأَحياء الذين ماتوا، ثمّ أُحيوا ﴿أَتَوْهُ﴾ أي: يأتونه في المحشر ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: أذلاء صاغرين، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: واقفة مكانها، لا تسير، ولا تتحرّك في مرأى العين ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: تسير سيراً حثيثاً مثل سير السحاب، ـ عن ابن عباس ـ. وفي مثل هذا المعنى قول النابغة الجعدي، يصف جيشاً:

بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ، تَحْسِبُ أَنَّهُمْ ... وُقُوفٌ لِحاجٍ، والرِّكابُ تُهَمْلِجُ[1]

---

(١) الأرعن: الجبل، وكذا: الطود. وحاج: جمع حاجة. والهملجة: حسن سير الدابّة.

أي: تحسب أنّهم وقوف من أجل كثرتهم، وإلتفافهم، فكذلك المعنى في الجبال، أنّك لا ترى سيرها لبعد أطرافها، كما لا ترى سير السحاب إذا إنبسط؛ لبعد أطرافه. وذلك إذا أُزيلت الجبال عن أماكنها، للتلاشي[1]، كما في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾.

﴿صُنْعَ اللهِ﴾ أي: صنع الله ذلك صنعاً، وإنتصب بما دلَّ عليه ما تقدّمه من قوله: ﴿وهي تمر مرّ السحاب﴾. وذكر إسم الله؛ لأنّه لم يأت ذكره فيما قبل، وإنّما دلَّ عليه: ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: خلق كل شيء على وجه الإتقان والإحكام والإتساق، قال قتادة: أي: أحسن كل شيء خلقه. وقيل: الإتقان حسن في إيثاق. ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعل أَعداؤه من المعصية، وبما يفعل أولياؤه من الطاعة.

ثمّ بيّن سبحانه كيفيّة الجزاء على أفعال الفريقين، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: بكلمة التوحيد والإخلاص، ـ عن قتادة ـ. وقيل: بالإيمان، ـ عن النخعي ـ. وكان يحلف، ولا يستثني، إنّ الحسنة لا إله إلّا الله، والمعنى: من وافي يوم القيامة بالإيمان.

---

(١) إستدلّ بعض أهل هذه العصور بهذه الآية، على أنّ الأرض متحرّكة، ولم يحمله على يوم القيامة؛ لأنّ قوله سبحانه بعد ذلك: صنع الله الذي اتقن كل شيء، لا تناسب إزالة الجبال، وإندكاكها، بل قد يجعل ذلك دليلاً على صحّة النبوّة، وهذا باطل؛ لأنّ فيثاغورث كان يعتقد حركة الأرض قبل رسولنا ﷺ، ولم يكن نبيّاً، ثمّ إنّ حركة الأرض، وسكونها، أمر لايفيد البشر فائدة، حتى يرد ذكرها في كتاب الله الكريم؛ لتحصيل سعادة الناس في الدنيا والآخرة، حتى أنّ المعتنين بعلم النجوم، كأبي ريحان البيروني، ونصير الدين الطوسي، والفاضل القوشجي، صرّحوا بأنّ حساب النجوم لايفرق فيه، بين أن يكون الأرض متحرّكة، أو ساكنة، والحساب واحد، والأمر غير مهمّ في نظرهم، فبان لايكون مهما عند غيرهم أولى، والجهّال يتوهّمون أنّ حركة الأرض شيء إستنبطها الافرنج في هذه الأزمنة المتأخّرة، مع أنّ كتبنا مشحونة من ذكرها، ونقلها من قائلها فيثاغورث.

﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قال ابن عباس: أي: فمنها يصل الخير إليه، والمعنى: فله من تلك الحسنة خير يوم القيامة، وهو الثواب والأمان من العقاب. فخير هيهنا إسم، وليس بالذي هو بمعنى الأفضل، وهو المرويّ عن الحسن وعكرمة وابن جريج. قال عكرمة: فأمّا أن تكون خيراً من الإيمان، فلا، فليس شيء خيراً من لا إله إلّا الله. وقيل: معناه: فله أفضل منها في معظم النفع؛ لأنّه يعطي بالحسنة عشراً، ـ عن زيد بن أسلم، ومحمّد بن كعب، وابن زيد ـ. وقيل: لأنّ الثواب فعل الله تعالى، والطاعة فعل العبد. وقيل: هو رضوان الله تعالى، ﴿وَرضوان مِن الله أكبَر﴾.

﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ قال الكلبي: إذا أطبقت النار على أهلها، فزعوا فزعة لم يفزعوا مثلها، وأهل الجنّة آمنون من ذلك الفزع. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالمعصية الكثيرة التي هي الكفر والشرك، ـ عن ابن عباس وأكثر المفسّرين ـ.

﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: أُلقوا في النار منكوسين ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أنّ هذا جزاء فعلكم، وليس بظلم.

حدّثنا السيّد أبو[الحمد] مهدي بن نزار الحسيني، قال: حدّثنا الحاكم أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الحسكاني، قال: أخبرنا محمّد بن عبدالله بن أحمد، قال: أخبرنا محمّد بن أحمد بن محمّد، قال: حدّثنا عبدالعزيز بن يحيى بن أحمد، قال: حدثني محمّد بن عبدالرحمن بن الفضل، قال: حدّثني جعفر بن الحسين، قال: حدّثني محمّد بن زيد بن عليّ عليه السلام، عن أبيه، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام، يقول دخل أبو عبدالله الجدلي على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أبا عبد الله! ألا أُخبرك بقول الله تعالى: ﴿مَن جَاء بِالحَسَنة﴾ إلى قوله: ﴿تَعمَلُون﴾ قال: بلى، جعلت فداك. قال: الحسنة: حبّنا أهل البيت، والسيّئة: بغضنا. وحدّثنا السيّد أبو الحمد، قال: حدّثنا الحاكم أبو القاسم، قال: أخبرنا أبو عثمان سعيد بن محمّد الحميري، قال:

حدّثنا جدي أحمد بن إسحاق الحميري، قال: حدّثنا جعفر بن سهل، قال: حدّثنا أبو زرعة عثمان بن عبد الله القرشي، قال: حدّثنا ابن لهيعة، عن ابن الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: يا عليّ! لو أنّ أُمّتي صاموا حتى صاروا كالأوتاد[ر]، وصلّوا حتى صاروا كالحنايا، ثمّ أبغضوك؛ لأكبّهم الله على مناخرهم في النار.

ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ قل لهم: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ يعني: مكّة، عن ابن عباس. وقال أبو العالية: هي: مِنَى. ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها حرماً آمناً، يحرم فيها ما يحلّ في غيرها، لا ينفر صيدها، ولا يختلى خلاها، ولا يقتصّ فيها.

﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: وهو مالك كل شيء ممّا أحلّه وحرّمه، فيحرم ما شاء، ويحلُّ ما شاء. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من المخلصين لله بالتوحيد ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ عليكم يا أهل مكّة، وأدعوكم إلى ما فيه ﴿فَمَنْ اهْتَدَى﴾ إلى الحقّ، والعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن ثواب ذلك وجزاءه، يصل إليه دون غيره.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عنه، وحاد ولم يعمل بما فيه، ولم يهتد إلى الحقّ. ﴿فَقُلْ﴾ له يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ الذين يخوّفون بعقاب الله من معاصيه، ويدعون إلى طاعته، ولا أقدر على إكراههم على الإيمان، والدين ﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إعترافاً بنعمته إذ إختارني لرسالته.

﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ يوم القيامة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ وتعرفون أنّها على ما أخبرتم بها في الدنيا، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معنى آياته: هي العذاب في الدنيا، والقتل ببدر، فتعرفونها أي: تشاهدونها، ورأوا ذلك، ثمّ عجّلهم الله إلى النار، ـ عن مقاتل ـ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بجميع ذلك، فيجازيكم

عليها. وإنّما يؤخّر عقابكم إلى وقت تقتضيه الحكمة.

﴿النظم﴾: وجه إتصال قوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ بما قبله: أنّه سبحانه لمّا بيّن أنّ الأمن من أهوال القيامة للمؤمن المحسن، فكأنّ قائلاً قال: وما الحسنة؟ وكيف العبادة؟ فقال: إنّما أُمرت.

سورة القصص

عدد آياتها: وهي ثمان وثمانون آية.

اختلافها: آيتان: ﴿طسٓمٓ﴾ كوفيّ، ﴿يَسْقُونَ﴾ غير الكوفيّ.

فضلها: أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ طسٓمٓ القصص، أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدَّق بموسى، وكذَّب به، ولم يبق ملك في السموات والأرض، إلّا شهد له يوم القيامة، أنّه كان صادقاً أنّ كل شيء هالك إلّا وجهه».

تفسيرها: لمّا أمر سبحانه في خاتمة تلك السورة، بتلاوة القرآن، بيَّن في هذه السورة أنّ القرآن من طسٓمٓ، وأنّه يتلو عليهم من نبأ موسى و فرعون، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿وَيَرى فِرعونُ﴾ ـ بالياء، وما بعده بالرفع ـ. وقرأ الباقون: ﴿ونُرِيَ﴾ ـ بالنون وضمّه، وكسر الراء، ونصب الياء، وما بعده بالنصب ـ.

الحجّة: قال أبو عليّ: حجّة من قرأ بالنون: أنّ ما قبله للمتكلّم، فينبغي أنْ يكون ما بعده أيضاً كذلك؛ ليكون الكلام من وجه واحد. وحجّة من قرأ بالياء: أنَّ فرعون وجنوده أروه ذلك، والمعلوم أنهم يرونه إذا أُروُه، وهو قراءة الأعمش.

اللغة: النبأ: الخبر عمّا هو عظيم الشأن. والشيع: الفرق، وكل فرقة شيعة.

وسمّوا بذلك؛ لأنّ بعضهم يتابع بعضاً. ويقول العرب: شاعكم السلام أي: تبعكم. وشيعه: إتّبعه. والتمكين: تكميل ما يتمّ به الفعل.

﴿الإعراب﴾: قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾: في موضع نصب؛ على الحال. ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف، تقديره: تلاوة كائنة بالحقّ. ويجوز أن يكون ﴿الحقّ﴾ صفة محذوف، تقديره: بالأمر الحقّ. والجار، والمجرور يتعلّق بنتلو. و ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾: في موضع نصب؛ على الحال. و ﴿يذبح﴾: حال بعد حال. ويجوز أن يكون حالاً عن الحال.

﴿المَعْنَى﴾: ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: المبيّن الرشد من الغيّ، ـ عن قتادة ـ. وقيل: هو البيّن الظاهر. والاية مفسَّرة فيما مضى. ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: طرفاً من أخبارهما ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والحقيقة، لا ريب فيه ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدِّقون بالله، وبما أنزلنا إليك.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغى وتجبَّر، وتعظَّم وإستكبر، في أرض مصر. يقال: علا علوّاً: إذا تجبَّر، ومنه: قوله: ﴿لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي: فرقاً. قال قتادة: فرَّق بين بني إسرائيل والقبط، والمعنى: يكرم قوماً، ويذلّ آخرين بالإستعباد، والإستعمال في الأعمال الشاقّة. وقيل: معناه: جعل بني إسرائيل أصنافاً في الخدمة والتسخير.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يعني: من بني إسرائيل. ثمّ فسَّر ذلك، فقال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ يقتل الأبناء، ويستبقي البنات فلا يقتلن، وذلك أنَّ بعض الكهنة قال له: إنَّ مولوداً يولد في بني إسرائيل، يكون سبب ذهاب ملكك. وقال السدّي: رأى فرعون في منامه، أنّ ناراً أقبلت من بيت المقدس، حتى إشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل. فسأل

علماء قومه، فقالوا له: يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ﴾ بالقتل، والعمل بالمعاصي.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ المعنى: إنَّ فرعون كان يريد إهلاك بني إسرائيل، وإفناءهم. ونحن نريد أن نمنَّ عليهم.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: قادة ورؤساء في الخير يقتدى بهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: نجعلهم ولاة وملوكاً، ـ عن قتادة ـ. وهذا القول مثل الأوّل؛ لأنّ الذين جعلهم الله ملوكاً، فهم أئمّة، ولا يضاف إلى الله سبحانه ملك من يملك الناس عدواناً وظلماً. وقد قال سبحانه: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً﴾ والملك من الله تعالى، هو الذي يجب أن يطاع. فالأئمّة على هذا ملوك مقدَّمون في الدين والدنيا، يطأ الناس أعقابهم.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ﴾ لديار فرعون وقومه، وأموالهم. وقد صحَّت الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، لتعطفنّ الدنيا علينا بعد شِماسها[١]، عطف الضروس[الصروس] على ولدها، وتلا عقيب ذلك: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وروى العياشي بالإسناد عن أبي الصباح الكناني، قال: نظر أبو جعفر عليه السلام إلى أبي عبدالله عليه السلام، فقال: هذا والله من الذين قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وقال سيّد العابدين، عليّ بن الحسين عليه السلام: والذي بعث محمّداً بالحقّ بشيراً ونذيراً، إنَّ الأبرار منّا أهل البيت، وشيعتهم، بمنزلة موسى وشيعته، وإنَّ عدوَّنا وأشياعهم، بمنزلة فرعون وأشياعه.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ونريد أن نمكّن لبني إسرائيل في أرض

---

[١] شمس الفرس شماساً: كان لايمكن أحداً من ظهره، ولا من الإسراج، ولا الإلجام، ولايكاد يستقر. والضروس: الناقة السيئة الخلق تعض حالبيها.

مصر. والتمكين: هو فعل جميع ما لا يصحّ الفعل إلّا معه، مع [من] القدرة، والالة، واللطف، وغير ذلك. وقال عليّ بن عيسى: اللطف لا يدخل في التمكين؛ لأنّه لو دخل فيه، لكان من لا لطف له لم يكن ممكّناً، ولكنّه من باب إزاحة العلّة.

﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من ذهاب الملك على يد رجل منهم. قال الضحّاك: عاش فرعون أربعمائة سنة، وكان قصيراً دميماً، وهو أوّل من خضب بالسواد، وعاش موسى عليه السلام مائة وعشرين سنة.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ
وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ (١)
وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن
رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير عاصم: ﴿وحُزْناً﴾ ـ بضم الحاء، وسكون الزاي ـ. والباقون: ﴿حَزَناً﴾ بفتحهما. وفي الشواذّ، قراءة الحسن وفضالة بن عبدالله: ﴿فؤاد أم موسى فَزعاً﴾. وقراءة ابن عباس ﴿قرعاً﴾ ـ بالقاف والراء ـ.

---

(١) إمرأت وقرّت: مكتوب بالتاء.

وحكى قطرب عن بعضهم: ﴿فَرْغا﴾.

الحجة: الحَزَن والحُزْن: لغتان، مثل: البَخَل والبُخْل، والعَرَب والعُرْب، والعَجَم والعُجْم. وأمّا قوله: ﴿فزعاً﴾ ـ بالفاء والزاي ـ، فمعناه: قلقاً يكاد يخرج من غلافه. وأمّا ﴿قرعاً﴾، فمعناه: يرجع إلى معنى فارغ؛ لأنّ رأس الأقرع يكون خالياً من الشعر. وأمّا ﴿فَرْغا﴾، فمعناه: هدراً وباطلاً. قال:

فَإن تَكُ أذْوادٌ أُصِبْنَ، وَنِسوَةٌ فَلَنْ يَذهَبُوا فَرْغاً بِقَتْلِ حِبالِ[1]

وقوله: ﴿فارغاً﴾ معناه: خالياً من الحزن؛ لعلمها أنّه لا يغرق.

الإعراب: مفعول ﴿خِفْتِ﴾ محذوف، تقديره: خفت عليه أحداً ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾: خبر مبتدأ محذوف أي: هو قرّة عين. قال الزجّاج: ويجوز على بعد أن يكون ﴿قرّة عين﴾ مبتدأ، ويكون خبره: ﴿لا تقتلوه﴾. ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾: في موضع نصب؛ على الحال، والعامل فيه ما يدلّ على هذه القصّة، وتقديره: قالوا ما قالوه غير شاعرين.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه كيف دبّر في إهلاك فرعون وقومه، منبّهاً بذلك على كمال قدرته وحكمته، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ أي: ألهمناها، وقذفنا في قلبها، وليس بوحي نبوّة، ـ عن قتادة وغيره ـ. وقيل: أتاها جبرائيل عليه السلام بذلك، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: كان هذا الوحي رؤيا منام، عبَّر عنها من يثق به من علماء بني إسرائيل، ـ عن الجبائي ـ.

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما لم تخافي عليه الطلب. ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ في القتل

---

(١) الأذواد: جمع الذود، وهي من الإبل بين الثلاث الى العشر. والفرغ: الهدو. وحبال: إسم رجل. والشعر لطليحة الأسدي إرتدّ، وأصاب المسلمون بعض اصحابه، ومنهم حبال، وقال هذا فيه، وضمير «يذهبوا» للمسلمين، يعني: إن صاردم الإبل والنسوة هدراً، فلن يصير دم حبال هدراً.

الذي أمر به فرعون في أبناء بني إسرائيل ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي: في البحر، وهو النيل ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه الضيعة ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ من فراقه.

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ سالماً، عن قريب ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ والأنبياء. وفي هذه الآية أمران ونهيان، وخبران وبشارتان. وحكي أنّ بعضهم سمع بدويّة تنشد أبياتاً، فقال لها: ما أفصحك! فقالت: الفصاحة لله تعالى، وذكرت هذه الآية وما فيها.

قال وهب بن منبه: لمّا حملت أمّ موسى بموسى، كتمت أمرها عن جميع الناس، فلم يطّلع على حملها أحد من خلق الله، وذلك شيء ستره الله تعالى، لما أراد أن يمنَّ به على بني إسرائيل. فلمّا كانت السنة التي يولد فيها موسى، بعث فرعون القوابل، وتقدّم إليهنّ أن يفتّشن النساء تفتيشاً لم يفتشنه قبل ذلك. وحملت أمّ موسى بموسى، فلم ينبُ بطنها، ولم يتغير لونها، ولم يظهر لبنها، فكانت القوابل لا يعرضن لها.

فلمّا كانت الليلة التي ولد فيها موسى، ولدته أمّه ولا رقيب عليها، ولا قابلة، ولم يطّلع عليها أحد، إلّا أخته مريم. فأوحى الله تعالى إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية. قال: فكتمته أمّه [أمره] ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها، لا يبكي، ولا يتحرّك. فلمّا خافت عليه، عملت له تابوتاً مطبقاً، ومهدت له فيه، ثمّ ألقته في البحر ليلاً، كما أمرها الله تعالى.

قال ابن عباس: لمّا قربت ولادة أمّ موسى، وكانت قابلة من النساء اللاتي وكلهنّ فرعون بحبالى بني إسرائيل، مصافية لأمّ موسى. فلمّا ضربها الطلق، أرسلت إليها، فجاءت فعالجتها. فلمّا ولد [رأت] موسى، رأت نوراً بين عينيه، فارتعش كل مفصل منها، ودخل حبُّ موسى في قلبها. ثمّ قالت: يا هذه! ماجئت إليك إلّا ومن ورائي قتل مولودك، ولكن وجدت لإبنك هذا حبّاً ما وجدت حبَّ

شيء مثل حبّه، فإحفظي إبنك، فإنّي أراه هو عدوّنا.

فلمّا خرجت من عندها القابلة، بصرتها العيون، فجاؤوا ليدخلوا على أمّ موسى، فقالت أخته: يا أمّاه! هذا الحرس بالباب. فلفَّت موسى في خرقة، فوضعته في تنور مسجور، فدخلوا فإذا التنور مسجور، ورأوا أمّ موسى لم يتغيّر لها لون، ولم يظهر لها لبن، فخرجوا من عندها. وانطلقت إلى الصبي، وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً.

قال: ثمّ لمّا رأت إلحاح فرعون في الطلب، خافت على إبنها، فإنطلقت إلى نجّار من قوم فرعون، فإشترت منه تابوتاً. فقال النّجار: ما تصنعين بهذا التابوت؟ قالت: إنَّ لي إبناً أخبأه في التابوت، وكرهت الكذب. فلمّا إشترت التابوت، وحملته، إنطلق النجّار إلى الذبّاحين؛ ليخبرهم بأمر أمّ موسى، فلم يطق الكلام، فرجع وأخذ في النجر، فإنطلق لسانه. فرجع ثانياً، إليهم، فلمّا إنتهى إليهم إعتقل لسانه، هكذا ثلاث مرّات، فعلم أنّ ذلك أمر إلهي.

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أصابوه، وأخذوه من غير طلب ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ أي: ليكون لهم في عاقبة أمره كذلك، لا إنّهم أخذوه لهذا، كما يقال لمن كسب مالاً، فأداه ذلك إلى الحتف والهلاك: إنّما كسب فلان لحتفه، وهو لم يطلب المال للحتف.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي: عاصين ربّهم في أفعالهم. وكانت القصّة في ذلك: أنّ النيل جاء بالتابوت إلى موضع فيه فرعون وإمرأته على شط النيل، فأمر فرعون فأتي به، وفتحت آسية بنت مزاحم بابه، فلمّا نظرت إليه، ألقى الله في قلبها محبّة موسى، وكانت آسية بنت مزاحم إمرأة من بني إسرائيل، استنكحها فرعون، وهي من خيار النساء، ومن بنات الأنبياء. وكانت أمّا للمؤمنين، ترحمهم، وتتصدّق عليهم، ويدخلون عليها.

فلمّا نظر فرعون إلى موسى، غاظه ذلك، وقال: كيف أخطأ هذا الغلام الذبح؟ قالت آسية وهي قاعدة إلى جنبه: هذا الوليد أكبر من ابن سنة، وإنّك أمرت أن يُذبح الولدان لهذه السنة، فدعه يكن قرّة عين لي ولك. وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ وإنّما قالت ذلك؛ لأنّه لم يكن له ولد. فأطمعته في ولد.

قال ابن عباس: إنَّ أصحاب فرعون لمّا علموا بموسى، جاؤا ليقتلوه، فمنعتهم، وقالت لفرعون: قرّة عين لي ولك، لا تقتلوه. قال فرعون: قرّة عين لك، وأمّا لي، فلا. قال رسول الله ﷺ: «والذي يحلف به، لو أقرَّ فرعون بأن يكون له قرّة عين، كما أقرّت إمرأته، لهداه الله به، كما هداها، ولكنَّه أبى؛ للشقاء الذي كتبه الله عليه».

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون أنّ هلاكهم على يديه. وقيل: لا يشعرون أنّ هذا هو المطلوب الذي يطلبونه ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ أي: خالياً من كلى شيء، إلّا من ذكر موسى. أي: صار فارغاً له، ـ عن ابن عباس وقتادة والضحّاك ـ. وقيل: فارغاً من الحزن؛ لعلمها أنّ إبنها ناج، سكوناً إلى ما وعدها الله تعالى به. وقيل: فارغاً من الوحي الذي أوحي إليها بنسيانها، فإنّها نسيت ما وعدها الله تعالى به، ـ عن الحسن وابن زيد ـ.

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ معناه: إنّها كادت تبدي بذكر موسى، فتقول: يا إبناه! من شدّة الغمّ والوجد، ـ عن ابن عباس وقتادة والسدّي ـ. وقيل: معناه: كادت تصيح على إبنها؛ شفقة عليه من الغرق، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: معناه: همَّت بأن تقول إنّها أمّه، لمّا رأته عند دعاء فرعون إيّاها للإرضاع؛ لشدّة سرورها به، ـ عن جعفر ابن حرب ـ. وقيل: معناه: أنّها كادت تبدي بالوحي.

﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ بالصبر واليقين. والربط على القلب: إلهام الصبر

وتقويته، ـ عن الزجاج ـ. وقيل: معناه: لولا أن قوينا قلبها بالعصمة والوحي. وجواب «لولا» محذوف، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لأظهرته. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فعلنا ذلك لتكون من جملة المصدّقين بوعدنا، الواثقين بوحينا، وقولنا: ﴿إنّا رادُّوه إلَيْك﴾.

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

(اللغة): القصّ: إتّباع الأثر، ومنه: القصص في الحديث؛ لأنّه يتبع فيه الثاني الأول والقصاص:: اتباع الجاني في الأخذ بمثل جنايته في النفس، فبصر به: رآه. فبصر: لا يتعدّى إلّا بحرف الجرّ. ورأى يتعدّى بنفسه. ومعنى بصرت به عن جنب: أبصرته عن جنابة، أي: عن بعد. قال الأعشى:

أتَيتُ حُرَيثاً زائراً عَنْ جِنابَةٍ ... وَكانَ حُرَيثٌ عَنْ عَطائِيَ جامِداً

وقيل: جنب: صفة وقعت موقع الموصوف أي: عن مكان جنب. والمراضع: جمع مرضعة. والنصح: إخلاص العمل من جانب [شائب] الفساد، وهو نقيض الغشّ. والوكز: الدفع. وقيل: هو بجمع الكف، ومثله: اللكز واللهز.

الإعراب: ﴿عَن جُنُبٍ﴾: الجارّ والمجرور في موضع نصب؛ على الحال، وتقديره: فبصرت به بعيدة. وإن جعلت ﴿جنباً﴾ صفة، على تقدير: عن مكان جنب: فهو في موضع نصب؛ بأنّه ظرف مكان. ﴿هٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾: جملتان في محلّ النصب؛ لأنّهما صفة: ﴿رجلين﴾، صفة بعد صفة.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه لطف صنعه في تسخيره لفرعون، حتى تولّى تربية موسى، فقال: ﴿وَقَالَتْ﴾ يعني: أمّ موسى ﴿لِأُخْتِهِ﴾ يعني: أخت موسى، وإسمها: كلثمة[1]، ـ عن الضحّاك ـ. ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتبعي: أثره، وتعرفي خبره. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ في الكلام حذف، وإقتصار، تقديره: فذهبت أخت موسى، فوجدت آل فرعون قد أخرجوا التابوت، وأخرجوا موسى، فبصرت به. وهذا من الإيجاز الدالّ على الإعجاز باللفظ القليل على المعنى الكثير أي: فرأت أخاها موسى عن جنب أي: عن بعد، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: عن جانب تنظر إليه، كأنّها لا تريده، ـ عن قتادة ـ. وتقديره: عن مكان جنب.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وآل فرعون لا يشعرون أنّها أخته، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: وهم لا يشعرون أنّها جاءت متعرّفة عن خبره. ويمكن أن يكون سبحانه كرّر هذا القول؛ تنبيهاً على أنّ فرعون لو كان إلهاً، لكان يشعر بهذه الأمور.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ المعنى: أنّه لا يؤتى بمرضع فيقبلها، وتأويله: منعناهنّ منه، وبغضناهنّ إليه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو جمع مرضع، بمعنى

---

(١) والأصح أنّ إسمها: مريم، كما مرّ.

الرضاع أي: منعناه من الرضاع. فهذا تحريم منع، لا أنّ هناك نهياً عن الفعل، ومثله: قول إمرىء القيس:

جالَتْ لِتَصرَعَني، فَقُلتُ لَهَا: اقْصِري إنّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكَ حَرامٌ[1]

أي: صرعي ممتنع عليك، فإنّي فارس أَمنعك من ذلك. ويقال: فلان حرم على نفسه كذا أي، إمتنع منه، كما يمتنع بالنهي ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء أخته. وقيل: من قبل ردّه على أمّه.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ وهذا يدلّ على أنّ الله تعالى ألقى محبّته في قلب فرعون، فلشدّة محبته، وغاية شفقته عليه، طلب له المراضع، وكان موسى لا يقبل ثدي واحدة منهنّ، بعد أن أتته مرضع بعد مرضع. فلمّا رأت أخته وجدهم به، وحبّهم له، ورقّتهم عليه، قالت لهم: هل أدلُّكم على أهل بيت يقبلون هذا الولد، ويبذلون النصح في أمره، ويحسنون تربيته، ويضمنون لكم القيام بأمره.

﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ يشفقون عليه وينصحونهُ. وقيل: إنّهُ لمّا قالت أختهُ ذلك، قال هامان: إنَّ هذه المرأة تعرف أنّ هذا الولد من أيّ أهل بيت هو. فقالت هي: إنّما عنيت أنّهم ناصحون للملك. فأمسكوا عنها.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ يعني: عين أمّه. وإنطلقت أخت موسى إلى أمّها، فجاءت بها إليهم. فلمّا وجد موسى ريح أمّه قِبل ثديها، وسكن بكاؤه. وقيل: إنَّ فرعون قال لأمّه: كيف إرتضع منك، ولم يرتضع من غيرك؟

---

(١) يخاطب مركوبه، ويصف نفسه بالفروسيّة، ويقول: إضطربت لتسقطني عن ظهرها، فقلت لها: إنتهي؛ فإنّي لا أسقط. والحرام يطلق على كل أمر ممنوع حتى في الشرع، ولا يختصّ بالحرام التكليفيّ، فيجوز إطلاقه حقيقة على مثل: لبس غير المأكول في الصلاة. ويشمله قوله: ﷺ كل شيء فيه حلال وحرام، فهو لك حلال، حتى تعلم أنّه حرام بعينه.

فقالت: لأنّي إمرأة طيّبة الريح طيبة اللبن، لا أكاد أؤتي بصبي إلّا إرتضع منّي. فسَرَّ فرعون بذلك.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أراد به ما وعدها الله به في الآية المتقدّمة بقوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحقيق ذلك الوعد كما علمت.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿وَاسْتَوَى﴾ أي: بلغ أربعين سنة، ـ عن مجاهد وقتادة وابن عباس ـ. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ أي: فقهاً وعلماً وعقلا بدينه ودين آبائه، فعلم موسى وحكم، قبل أن يبعث نبيّاً. وقيل: نبوّة وعلماً، ـ عن السدّي ـ. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه الآية مفسّرة في سورة يوسف.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ يريد مصر. وقيل: مدينة منف من أرض مصر. وقيل: على فرسخين من أرض مصر ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أراد به: نصف النهار، والناس قائلون، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقيل: ما بين المغرب والعشاء الآخرة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: كان يوم عيد لهم، وقد إشتغلوا بلعبهم، ـ عن الحسن ـ.

وقيل: إختلفوا في سبب دخوله المدينة في هذا الوقت على أقوال:

أحدها: إنّه كان موسى حين كبر، يركب في مواكب فرعون. فلمّا جاء ذات يوم. قيل له: إنَّ فرعون قد ركب، فركب في أثره. فلمّا كان وقت القائلة، دخل المدينة ليقيل، ـ عن السدّي ـ.

والثاني: إنّ بني إسرائيل، كانوا يجتمعون إلى موسى عليه السلام، ويسمعون كلامه. ولمّا بلغ أشدَّه، خالف قوم فرعون، فإشتهر ذلك منه، وأخافوه. فكان لا يدخل مصر إلّا خائفاً، فدخلها على حين غفلة، ـ عن ابن إسحاق ـ.

والثالث: إنَّ فرعون أمر بإخراجه عن البلد، فلم يدخل إلّا الآن، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يختصمان في الدين، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: في أمر الدنيا ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: أحدهما إسرائيلي، والآخر قبطي يسخر الإسرائيلي؛ ليحمل حطباً إلى مطبخ فرعون. وقيل: كان أحدهما مسلماً، والآخر كافراً، ـ عن محمّد بن إسحاق ـ.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: إستنصره لينصره[1] عليه. وروى أبو بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ليهنكم الإسم. قال، قلت: وما الإسم؟ قال: الشيعة. قال: أما سمعت الله سبحانه يقول: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾.

﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أي: دفع في صدره بجمع كفّه، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: ضربه بعصاه، ـ عن قتادة ـ. ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: فقتله، وفرغ من أمره. ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: بسببه، حتى هيَّج غضبي، فضربته، فهو من إغرائه [إغوائه]. قال الحسن: لم يكن يحلّ قتل الكافر يومئذ؛ لأنّ الحال كانت حال الكفّ عن القتال. وقيل: معناه: أنّ الأمر الذي وقع القتل بسببه، من عمل الشيطان أي: حصل بوسوسة الشيطان. وذكر المرتضى، قدس الله روحه، فيه وجهين آخرين:

أحدهما: إنّه أراد أنّ تزيين قتلي له، وتركي لما ندبت إليه، من تأخيره، وتفويتي ما أستحقّه عليه من الثواب، من عمل الشيطان.

والآخر: إنّه يريد أنّ عمل المقتول من عمل الشيطان، يبيّن بذلك أنّه مخالف لله تعالى: مستحقّ للقتل.

---

(١) من شيعته: أي من الطبقة التي كان موسى عليه السلام منها، وذلك لأنّ فرعون كان جعل أهل مصر شيعاً، وطبقات، بعضها أعلى من بعض، وهكذا كان دأب أكثر الأمم قديماً، بل هذا التقسيم باق الى الآن في الهنود، وكان العجم قبل الإسلام على أربع طبقات، لايجوزون لإحديهنّ الإشتغال بأعمال الطبعة الأخرى، وكانوا يمنعون أولاد السوقى مثلاً من تصدّي أمور الحكومة.

ثمّ وصف الشيطان، فقال: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ لبني آدم ﴿مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة والإضلال.

سؤال: قالوا إنَّ هذا القتل لا يخلو من أن يكون مستحقّاً، أو غير مستحقّ. فإن كان غير مستحقّ، فالأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم ذلك عندكم، لا قبل النبوّة، ولا بعدها. وإن كان مستحقّاً، فلا معنى لندمه عليه، وإستغفاره منه.

والجواب: إنَّ القتل، إنّما وقع على سبيل تخليص المؤمن من يد من أراد ظلمه، والبغي عليه، ودفع مكروهه عنه، ولم يكن مقصوداً في نفسه. وكل ألم وقع على هذا الوجه. فهو حسن، غير قبيح، سواء كان القاتل مدافعاً عن نفسه، أو عن غيره. وسنذكر الوجه في إستغفاره منه، وندمه عليه.

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۖ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾

اللغة: الترقّب: الإنتظار. والإستصراخ. طلب الصراخ على العدوّ بما

يردعه عن الإيقاع به. والإئتمار: التشاور، والإرتياء. يقال: إئتمر القوم وإرتاءوا، بمعنى. قال إمرؤ القيس:

أحارِ ابْنَ عَمْرو كَأَنِّي خَمِر ... وَيَعْدُو عَلَى المَرْءِ ما يَأْتَمِرْ(١)

وقال النمر بن التولب:

أرَى النَّاسَ قَدأحدَثُوا شِيمَةً ... وَفِي كُلِّ حادِثَةٍ يُؤْتَمَرْ[١]

﴿الإعراب﴾: بما أنعمت عليَّ: الباء: للقسم. ويجوز أن يكون ﴿ما﴾ حرفاً موصولاً، والمعنى: بإنعامك عليَّ. ويجوز أن يكون إسماً موصولاً، والضمير العائد محذوفاً، والتقدير: بالذي أنعمته عليَّ. وجواب القسم ﴿لَنْ أَكُونَ﴾. والفاء: لجواب القسم مقدّر في الموصول بالجملة الفعلية. ﴿أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ «أنْ» الأولى زائدة، و«أنْ» الثانية مع صلتها: منصوبة الموضع؛ بأنّها مفعولة «أراد». ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾: لا يجوز أن تتعلّق اللام في ﴿لك﴾ بالناصحين؛ لأنّ الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول، وإنّما تتعلّق بمحذوف، يفسّره هذا الظاهر، تقديره: إنّي من الناصحين لك.

﴿المعنى﴾: ثمّ حكى سبحانه: أنَّ موسى عليه السلام حين قتل القبطي، ندم على ذلك. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ في هذا القتل، فإنّهم لو علموا بذلك لقتلوني. وقال المرتضى، قدس الله روحه العزيز: إنّما قاله على سبيل الإنقطاع والرجوع إلى الله تعالى، والإعتراف بالتقصير عن أداء حقوق نعمه، أو من حيث حرم نفسه الثواب المستحقّ بفعل الندب.

﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ معناه: معنى قول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ وقبول الإستغفار والتوبة، قد يسمّى غفراناً

---

(١) حار: مرخّم حارث. وخمر: كخشن، من به بقيّة السكر.

[١] الشيمة: الخُلُق والطبيعة.

﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لعباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم المنعم عليهم.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: بنعمتك عليَّ من المغفرة، وصرف بلاء الأعداء عنّي.

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ المعنى: فلك عليَّ أن لا أكون مظاهراً ومعيناً للمشركين، ـ عن ابن عباس ـ. وفي هذا دلالة على أنّ مظاهرة المجرمين، جرم ومعصية، ومظاهرة المؤمنين طاعة. وإنما ظاهر موسى عليه السلام من كان ظاهره الإيمان، وخالف من كان ظاهره الكفر.

وجاء في الأثر: أنّ رجلاً قال لعطاء بن أبي رياح: إنَّ فلاناً يكتب لفلان، ولا يزيد على كتبه دخله وخرجه، فإن أخذ منه أجراً كان له غني، وإنْ لم يأخذ إشتدّ فقره، وفقر عياله! فقال عطاء: أما سمعت قول الرجل الصالح ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى في اليوم الثاني ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً﴾ من قبل القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الأخبار في قتل القبطي، ـ عن ابن عباس ـ. يعني: أنّه خاف من فرعون وقومه، أن يكونوا عرفوا أنّه هو الذي قتل القبطي، فكان يتجسّس، وينتظر الأخبار في شأنه.

﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ معناه: إنَّ الإسرائيلي الذي كان قد خلصه بالأمس، ووكز القبطي من أجله، يستصرخ موسى، ويستعين به على رجل آخر من القبط، خاصمه. قال ابن عباس: لمّا فشا أمر قتل القبطي، قيل لفرعون: إنّ بني إسرائيل قتلت منّا رجلاً. قال: أتعرفون قاتله، ومن يشهد عليه؟ قالوا: لا. فأمرهم بطلبه. فبينا هم يطوفون إذ مرَّ موسى من الغد، وأتى [رأى] ذلك الإسرائيلي يطلب نصرته، ويستغيث به.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر الغواية؛ حيث قاتلت بالأمس

رجلاً، وتقاتل اليوم آخر. ولم يرد الغواية في الدين. والمراد: أنّ من خاصم آل فرعون مع كثرتهم، فإنّه غويّ أي: خائب فيما يطلبه، عادل من الصواب، فيما يقصده.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ﴾ معناه: فلمّا أخذته الرقّة على الإسرائيلي، وأراد أن يدفع القبطي الذي هو عدوّ لموسى والإسرائيلي عنه، ويبطش به أي: يأخذه بشدّة، ظنّ الإسرائيلي أنَّ موسى قصده؛ لما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ فقال: أتريد أن تقتلني، كما قتلت نفساً بالأمس، ـ عن ابن عباس، وأكثر المفسّرين ـ. وقال الحسن: هو من قول القبطي؛ لأنّه قد إشتهر أمر القتل بالأمس، وأنّه قتله بعض بني إسرائيل.

﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما تريد إلّا أن تكون عالياً في الأرض بالقتل والظلم. قال عكرمة والشعبي: لا يكون الإنسان جبّاراً حتى يقتل نفسين بغير حقّ.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ولمّا قال الإسرائيلي ذلك، علم القبطي أنَّ القاتل موسى. فإنطلق إلى فرعون، وأخبر به. فأمر فرعون بقتل موسى، وبعث في طلبه.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ أي: آخرها. فإختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى ﴿يَسْعَى﴾ أي: يسرع في المشي، فأخبره بذلك، وأنذره. وكان الرجل حزقيل مؤمن آل فرعون. وهو ابن عمّ فرعون وقيل: رجل إسمه: شمعون. وقيل: سمعان. ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ﴾ أي: الأشراف من آل فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: يأمر بعضهم بعضاً ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ من أرض مصر ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في هذا يقال: نصحته

ونصحت له.

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿حتّى يَصدُر﴾ ـ بفتح الياء، وضمّ الدال ـ. وقرأ الباقون: ﴿يُصْدِرَ﴾ ـ بضمّ الياء، وكسر الدال ـ.

الحجة: من قرأ: ﴿حتى يَصدُر الرعاء﴾ فمعناه: حتى يرجعوا من سقيهم. وفي التنزيل: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا﴾. ومن قرأ: ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ﴾ أراد: حتى يصدروا مواشيهم من وردهم، فحذف المفعول، كما قال الشاعر:

لا يَعْدِلَنَّ أتاوِيُّونَ تَضْرِبُهُمْ ... نَكْبَاءُ صِرٌّ بِأصحابِ الْمُحِلاَّتِ[1]

---

(١) أتاويّون: الغرباء. والمحلّات: الماعونات كالقدر، والفاس. يعني: الغرباء إذا أصابهم ريح باردة، عرفوا قدر المنزل والأثاث، ولا يعدلون أحداً بأصحاب المنازل.

أي: أحداً.

اللغة: تلقاء الشيء: حذاؤه. ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أي: من حذاء داعي نفسه. وسواء السبيل: وسط الطريق. قال الشاعر:

حَتَّى أغيّبَ في سَواءِ المَلحَدِ[١]

وذاد شاته أو إبله عن الشيء، يذودها ذوداً أي: حبسها عنه بمنعها منه. قال سويد بن كراع:

أبِيتُ عَلى بابِ القَوافي، كَأَنَّما أَذودُ بِها سِرْباً مِنَ الوَحْشِ، نُزَّعاً[١]

قال الفرّاء: ولا يقال: ذُدتُ في الناس، وإنّما يقال في الإبل والغنم. وهذا ليس بشيء، يدلّ عليه قول الكميت، يصف بني هاشم:

سادَةٌ، ذادَةٌ عَنِ الْخُرَّدِ البِيـ ـضِ، إذا الْيَوْم كَانَ كَالأيَّامِ[٢]

والخطب: الأمر الذي فيه تفخيم، ومنه: الخِطبة والخُطبة والخَطاب، كل ذلك فيه معنى العظم. وما خطبكما أي: ما شأنكما. قال الراجز:

يا عَجَباً ما خطبُهُ وخَطبي

والرِّعاء: جمع راع، ويجمع على الرعيان والرعاة.

الإعراب: ﴿تِلْقَاءَ﴾ ظرف مكان. ﴿لاَ نَسْقِي﴾ أي: لا نسقي الغنم الماء فحذف مفعولاه؛ لدلالة الكلام عليه، وكذلك قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾. واللام في قوله: ﴿لِمَا أَنزَلْتَ﴾: يتعلّق بفقير ﴿تَمْشِي﴾: في موضع نصب؛ على الحال من ﴿جاءت﴾. وقوله: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ﴾: في موضع الحال أيضاً من ﴿تَمْشِي﴾ أي:

---

(١) السرب: القطيع. ونزع: أي طالبة الفحل، ودفع أمثال تلك صعب جدّاً، وإذا هاجت بها الشهوة، لم يؤثّر فيها الدفع، وكذلك القوا في إذا هجمن على الشاعر بكثرتها.

[١] سواء الملحد: وسط القبر.

[٢] الخريد من النساء: البكر التي لم تُمسّ قطّ.

تمشي مستحيية. ويجوز أن يكون حالاً بعد حال. ﴿قالت إنَّ أبي يدعوك﴾: الجملة يجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فجاءته إحداهما﴾. ويجوز أن تكون في موضع الحال بإضمار «قد»، والعامل فيه: جاءت، أو تمشي.

المعنى: ثمّ بيَّن سبحانه خروج موسى من مصر إلى مدين، فقال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: من مدينة فرعون ﴿خَائِفاً﴾ من أن يطلب فيقتل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: خرج موسى متوجّهاً نحو مدين، وليس له علم بالطريق إلّا حسن ظنّه بربّه. قال: ﴿ربّ نَجِّنِي مِن فِرعون وَقَومه﴾. وقيل: إنّه خرج بغير زاد، ولا ماء، ولا حذاء، ولا ظهر، وكان لا يأكل إلّا من حشيش الصحراء، حتى بلغ ماء مدين.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ التوجّه: صرف الوجه إلى جهة من الجهات. وقوله: هذا المعنى يتوجّه إلى كذا أي: هو كالطالب له يصرف وجهه إليه. قال الزجّاج: معناه: ولمّا سلك في الطريق الذي تلقى مدين فيها، وهي على مسيرة ثمانية أيّام من مصر، نحو ما بين البصرة إلى الكوفة، ولم يكن له علم بالطريق.

ولذلك ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: يرشدني قصد السبيل إلى مدين. وقيل: سواء السبيل: وسطه المؤدّي إلى النجاة؛ لأنّ الأخذ يميناً وشمالاً يباعد عن طريق الصواب. وقيل: إنّه لم يقصد موضعاً بعينه، ولكنّه أخذ في طريق مدين. وقال عكرمة: عرضت لموسى أربعة طرق، فلم يدر أيّتها يسلك، ولذلك قال عند إستواء الطرق له: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. فلمّا دعا ربّه إستجاب له، ودلَّه على الطريق المستقيم إلى مدين. وقيل: جاء ملك على فرس بيده عنزة، فإنطلق به إلى مدين. وقيل: إنّه خرج حافياً، ولم يصر إلى مدين حتى وقع خفّ قدميه، ـ عن سعيد بن جبير.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وهو بئر كانت لهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ

﴿يَسْقُونَ﴾ أي: جماعة من الرعاة يسقون مواشيهم الماء من البئر. ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تحبسان وتمنعان غنمهما من الورود إلى الماء، ـ عن السّدي ـ. وقيل: تذودان الناس عن مواشيهما، ـ عن قتادة ـ. وقيل: تكفّان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس، ـ عن الحسن ـ. فترك ذكر الغنم إختصاراً.

﴿قَالَ﴾ موسى لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما، وما لكما لا تسقيان مع الناس، ـ عن ابن إسحاق ـ. ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ عند المزاحمة مع الناس ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ مرَّ معناه أي: حتى ينصرف الناس، فإنّا لا نطيق السقي، فننتظر فضول الماء، فإذا إنصرف الناس سقينا مواشينا من فضول الحوض، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر على أن يتولّى السقي بنفسه من الكبر، ولذلك إحتجنا، ونحن نساء، أن نسقي الغنم. وإنّما قالتا ذلك؛ تعريضاً للطلب من موسى أن يعينهما على السقي. وقيل: إنّما قالتا ذلك؛ إعتذاراً إلى موسى في الخروج بغير محرم. ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ معناه: فسقى موسى غنمهما الماء لأجلهما، وهو أنّه زحم القوم عن[على] الماء، حتى أخرجهم عنه، ثمّ سقى لهما، ـ عن ابن إسحاق ـ. وقيل: رفع لأجلهما حجراً عن بئر، كان لا يقدر على رفع ذلك الحجر عنها إلّا عشرة رجال، وسألهم أن يعطوه دلواً، فناولوه دلواً، وقالوا له: إنزح إن أمكنك. وكان لا ينزحها إلّا عشرة، فنزحها وحده، وسقى أغنامهما، ولم يستق إلّا ذنوباً[١] واحداً، حتى رويت الغنم.

﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ أي: ثمّ إنصرف إلى ظلّ سمرة، فجلس تحتها من شدّة الحرّ، وهو جائع. ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن

---

[١] الذنوب: الدلو التي لها ذَنَب.

عباس: سأل نبيُّ الله فلق خبز يقيم به صلبه. وقال أمير المؤمنين، عليه أفضل الصلوات: والله ما سأله إلّا خبزاً يأكله؛ لأنّه كان يأكل بقلّة الأرض. لقد كانت خضرة البقلة تُرى من شفيف صفاق بطنه؛ لهزاله، وتشذب لحمه[١]. قال الأخفش: يقال فقير إليه، وفقير له. قال ابن إسحاق: فرجعتا إلى أبيهما في ساعة كانتا لا ترجعان فيها، فأنكر شأنهما، وسألهما، فأخبرتاه الخبر، فقال لإحداهما: عليَّ به. فرجعت الكبرى إلى موسى لتدعوه.

فذلك قوله: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: مستحيية معرضة على عادة النساء الخفرات. وقيل: أراد بإستحيائها: أنّها غطّت وجهها بكُم درعها، ـ عن عمر بن الخطاب ـ. وقيل: هو بعدها من النداء، ـ عن الحسن ـ، قال: فوالله ما كانت ولاجة، ولا خراجة، ولكنّها كانت من الخفرات اللاتي لا يحسن المشي بين أيدي الرجال، والكلام معهم. وقيل: أراد أنّها كانت تمشي عادلة عن الطريق.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: ليكافئك على سقيك لغنمنا، وأكثر المفسّرين على أنّ أباها شعيب عليه السلام[١]. وقال وهب، وسعيد بن جبير: هو يثرون ابن أخي شعيب، وكان شعيب مات قبل ذلك بعد ما كفّ بصره، ودفن بين المقام وزمزم. وقيل: يثروب. وقيل: هو إسم شعيب؛ لأنّ شعيباً إسم عربيّ.

قال أبو حازم: لمّا قالت: ﴿ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾، كره ذلك موسى، وأراد أن لا يتبعها، ولم يجد بُدّاً من أن يتبعها؛ لأنّه كان في أرض مسبعة، وخوف.

---

(١) لا تعرف اليهود شعيباً بإسمه؛ إذ ليس هذا الإسم في التورية، وإنّما ذكر فيها يثرون كاهن مدين، وأنّ موسى عليه السلام نكح بنته، ورعي غنمه في المدّة المذكورة، ولمّا ورد ذكر شعيب في القرآن، وأنّه نبيّ مدين، وذكر أنّ موسى عليه السلام ورد مدين، ووقع ما وقع بينه وبين أبي هاتين المرأتين، حمله المفسّرون على أنّ هذا الرجل هو شعيب؛ بقرينة كونهما في مدين، إلّا وهباً وسعيد بن جبير، فقالا: إنّه غير شعيب؛ موافقاً للتورية.

[١] التشذّب: التفرّق والنقصان.

فخرج معها، وكانت الريح تضرب ثوبها، فتصف لموسى عجزها. فجعل موسى يعرض عنها مرّة، ويغضّ مرّة، فناداها: يا أمة الله! كوني خلفي، وأرني السمت بقولك.

فلما دخل على شعيب، إذا هو بالعشاء مهيّئاً، فقال له شعيب: إجلس يا شابّ، فَتَعَشّ. فقال له موسى: أعوذ بالله. قال شعيب: ولم ذاك ألست بجائع؟ قال: بلي ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملاء الأرض ذهباً. فقال له شعيب: لا والله يا شابّ، ولكنّها عادتي، وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام. قال: فجعل موسى يأكل، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: فلمّا جاء موسى شعيباً، وقصّ عليه أمره أجمع، من قتل القبطي، وأنّهم يطلبونه ليقتلوه. ﴿قَالَ﴾ له شعيب ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: فرعون وقومه، فلا سلطان لهُ بأرضنا، ولسنا في مملكته.

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ
الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ
تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾
۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ
الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ

مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ (١)

القراءة: قرأ عاصم: ﴿أو جَذوة﴾ ـ بفتح الجيم ـ. وقرأ حمزة، وخلف: ﴿جُذوة﴾ ـ بضم الجيم ـ. والباقون: ﴿جِذوة﴾ ـ بالكسر ـ. وفي الشواذّ، قراءة الحسن: ﴿أيْما الأجلين﴾ ـ بتخفيف الياء، وسكونها ـ.

الحجة: في الجذوة ثلاث لغات على حسب القراءآت الثلاث. وأمّا ﴿أيما﴾ فهي لغة. قال الفرزدق:

تَنَظَّرْتُ نَسْراً، والسِماكَيْنِ، أيُّهُما ... عَلَيَّ مِنَ الغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَواطِرُهُ(٢)

اللغة: الجذوة: القطعة الغليظة من الحطب فيها النار، وجمعها: جذى. قال:

باتَتْ حَواطِبُ لَيْلىٰ يَلْتَمِسْنَ لَها ... جَزْلَ الجِذىٰ،غَيْرَخَوَّارٍ،وَلا ذَعِرِ(٣)

وشاطىء الوادي: جانبه، وهو الشط، والجمع: الشواطىء.

---

(١) فتح ياء «إنّي أريد وستجدني إن» نافع وأبو جعفر. وقرأ: «يا أبتَ» ـ بفتح التاء ـ ابن عامر ووقف عليها بالهاء ابن عامر وابن كثير. وشدّد نون «هاتين» ابن كثير. وضمّ الهاء من «لأهله» في الوصل حمزة. وفتح الياء من «إنّي أنا الله، وإنّي آنست» الحرميان وأبو عمرو، وكذلك من «لعلّي آتيكم» هم وابن عامر. ووقف حمزة على «شاطي» بإبدال الهمزة ياء، أو بالتسهيل بين بين، والروم.

(٢) النسر: الطائر، والنسر الواقع: كوكبان. والسماكان: كوكبان أيضاً رامح واعزل من الانواء، يستدلّ بها على المطر.

(٣) ذعر: الخائف. والخوّار: الضعيف. وحواطب: الجواري التي يلتمسن الحطب.

﴿الإعراب﴾: ﴿هَاتَيْنِ﴾: صفة لإبنتي. ﴿ثماني حجج﴾: ظرف زمان. ﴿ذٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾: ذلك: مبتدأ، وخبره: ﴿بيني وبينك﴾ ومعناه: ما شرطت عليَّ فلك، وما شرطت لي فلي، كذلك الأمر بيننا، ـ عن الزجّاج ـ. و ﴿أيّ﴾ في معنى الجزاء، وهي منصوبة بقضيت. و ﴿ما﴾ مزيدة مؤكّدة، وجوابه: ﴿فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾. ﴿أَنْ يَا موسى﴾: أنْ: في موضع نصب، وهي مخفّفة من الثقيلة، تقديره: نودي بأنّه يا موسى، وبأنّه ﴿ألق عصاك﴾.

﴿المعنى﴾: ثمّ ذكر سبحانه أمر موسى في ﴿مدين﴾، وإنصرافه عنه، فقال: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: إحدى إبنتية، وإسمها: صفورة، وهي التي تزوّج بها. وإسم الأخرى: ليا. وقيل: إنّ اسم الكبرى: صفراء، وإسم الصغرى: صفيراء ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾[1] أي: إتّخذه أجيراً.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أي: خير من استعملت من قوي على العمل، وأداء الأمانة. قال عمر بن الخطاب: لمّا قالت المرأة هذا، قال شعيب: وما علمك بأمانته وقوّته؟ قالت: أمّا قوّته؛ فلأنّه رفع الحجر الذي لا يرفعه إلّا كذا وكذا. وأمّا أمانته: فإنّه قال لي: إمشي خلفي، فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك، فتصف لي عجزك. وقيل: القويّ: في نزعه الحجر من البئر، وكان لا يستطيعه إلّا النفر. الأمين: في غضّ طرفه عنهما، حين سقى لهما، فصدرتا، وقد عرفتا قوّته وأمانته. فلمّا ذكرت المرأة من حاله ما ذكرت، زاده ذلك رغبة فيه.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أي: أزوّجك ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ

---

(١) قال في كنز العرفان: قوله: يا أبت إستأجره، وقوله: على أن تأجرني ثماني حجج دلاّ على مشروعيّة الإجارة، وإن كانت في شرع غيرنا؛ لأصالة عدم النسخ، مع إشتمال عقدها على كونه من متمّمات نظام النوع؛ لأنّه ممّا يضطرّ إليه؛ لما تقرّر في العلوم الحقيقيّة أنّ الإنسان لايمكن أن يعيش وحده، فيفتقر الى المعاضدة، وذلك غير واجب على الغير القيام به، فيجوز أخذ العوض عليه.

﴿تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ﴾ أي: على أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: ذلك تفضّل منك، وليس بواجب عليك. وقيل: معناه: على أن تجعل جزائي وثوابي إيّاك، على أن أنكحك إحدى إبنتيّ، أن تعمل لي ثماني سنين. فزوَّجه إبنته بمهر، وإستأجره للرعي، ولم يجعل ذلك مهراً، وإنّما شرط ذلك عليه. وهذا على وفق مذهب أبي حنيفة، والأوّل أصحّ وأوفق بظاهر الآية[1]. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ في هذه الثمانية حجج، وأن أكلّفك خدمة سوى رعي الغنم. وقيل: وما أشقّ عليك بأن آخذك بإتمام عشر سنين.

﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في حسن الصحبة، والوفاء بالعهد. وإنّما علّق الصلاح بمشيئة الله؛ لأنّ مراده إن شاء الله تبقيتي. فمن الجائز أن يخترمه الله، ولا يفعل الصلاح الديني الذي يريده. وحكى يحيى بن سلام أنّه جعل لموسى كل سخلة توضع على خلاف شية أمّها، فأوحى الله إلى موسى في المنام، أن ألق عصاك في الماء ففعل، فولدن كلّهن على خلاف شيتهن. وقيل: إنّه وعده أن يعطيه تلك السنة من نتاج غنمه كل أدرع[2]، وأنّها نتجت كلها درعاء. وروى الحسين بن سعيد، عن صفوان بن يحيى، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سئل أيّتها التي قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾. قال: التي تزوّج بها. قيل: فأيّ الأجلين قضى؟ قال: أوفاهما وأبعدهما عشر سنين. قيل: فدخل بها قبل أن يمضي الشرط، أو بعد

---

(١) يجوز عندنا جعل منافع الحرّ مهراً للمرئة، ويدلّ عليه ظاهر الآية، فإنّ كلمة «على» تدلّ على أنّ عمل موسى عليه السلام بدل النكاح، وبدل النكاح هو المهر. وقال الجصّاص: ليس عمله عليه السلام مهراً؛ لأنّ المهر يجب أن تستوفيه المرأة لاأبوها، وموسى إنّما عمل لشعيب. والجواب: إنّ هذا لايدفع ظاهر كلمة «على» فلعلّ في شرعهم كان المهر لأبي المرئة، أو لعلّ الأغنام كانت للمرئة، وكلّم شعيب عليه السلام في النكاح والمهر ولاية، أو رضيت إبنته بتسليم المهر الى أبيها.

(٢) أسود الرأس، أبيض الجسد.

إنقضائه؟ قال: قبل أن ينقضي. قيل له: فالرجل يتزوّج المرأة، ويشترط لأبيها إجارة شهرين، أيجوز ذلك؟ قال: إنّ موسى علم أنّه سيتمّ له شرطه. قيل: كيف؟ قال: علم أنّه سيبقى حتى يفي.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: ذلك الذي وصفت وشرطت عليَّ فلك، وما شرطتَ لي، من تزويج إحداهما، فلي. وتمّ الكلام. ثمّ قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ من الثماني والعشر ﴿قَضَيْتُ﴾ أي: أتممت، وفرغت منه ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا ظلم عليّ، بأن أكلّف أكثر منها، وأطالب بالزيادة عليهما ﴿وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[1] أي: شهيد فيما بيني وبينك، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي: أوفاهما. روى الواحدي بالإسناد عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبطأهما». وبالإسناد عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سئلت أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبرّهما. وإن سئلت: أيّ المرأتين تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت، فقالت: ﴿يَا أَبَتِ استأجره﴾. وقال وهب: تزوّج الكبرى منهما. وفي الكلام حذف، وإيجاز وهو: فلمّا قضى موسى الأجل، وتسلّم زوجته، ثمّ توجّه نحو الشام.

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾. وقيل: إنّه لمّا زوّجها منه، أمر

---

(١) قال في كنز العرفان في الآية إشارة الى وجوب ضبط العمل بالمدّة إن قدّر بها، وإلّا فبغيرها من الضوابط. أقول: إنّما قال إشارة ولم يقل دلالة؛ لأنّه ليس في عمل شعيب دلالة على وجوبه، وعدم جواز غيره. والأولى الإستدلال على وجوب الضبط، بما يدلّ على وجوب الوفاء، وحرمة بخس حقوق الناس، فإنّ الشيء إذا لم يكن منضبطاً لايصدق فيه الوفاء والبخس؛ لأنّ البخس إنّما هو النقص عن مقدار معلوم، ولو كان العقد على غير معلوم جائزاً؛ لسهل الخروج عن عهدة الوفاء بكل شيء، ولغي الأمر بالوفاء؛ لأنّ الوفاء وعدمه سيّان تقريباً في مثله.

الشيخ أن يعطي موسى عصا يدفع السباع عن غنمه بها، فأعطي العصا، وقد ذكرنا حديث العصا في سورة الأعراف. وقيل: خرج آدم بالعصا من الجنّة، فأخذها جبرائيل بعد موت آدم عليه السلام، وكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً، فدفعها إليه، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: لم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصل إلى شعيب، فأعطاها موسى، وكانت عصا الأنبياء عنده.

وروى عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: كانت عصا موسى قضيب آس من الجنّة، آتاه به جبرائيل عليه السلام، لمّا توجه تلقاء مدين. وقال السّدي: كانت تلك العصا إستودعها شعيباً ملكٌ في صورة رجل، فأمر إبنته أن تأتيه بعصا، فدخلت وأخذت العصا، فأتته بها. فلمّا رآها الشيخ قال: لا إيتيه بغيرها. فألقتها، وأرادت أن تأخذ غيرها، فكانت لاتقع في يدها إلّا هي. فعلت ذلك مراراً، فأعطاها موسى.

وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قيل: إنّه مكث بعد إنقضاء الأجل عند صهره عشراً أخرى، فأقام عنده عشرين سنة، ثمّ إستأذنه في العود إلى مصر؛ ليزور والديه وأخاه. فأذن له، فسار بأهله، ـ عن مجاهد ـ. وقيل إنّه لمّا قضى العشر، سار بأهله أي: بإمرأته وبأولاد الغنم التي كانت له، وكانت قطيعاً، فأخذ على غير الطريق؛ مخافة ملوك الشام، وإمرأته في شهرها. فسار في البريّة غير عارف بالطريق، فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن، في ليلة مظلمة شديدة البرد، وأخذ إمرأته الطلق، وضلَّ الطريق، وتفرَّقت ماشيته، فأصابه المطر، فبقي لا يدري أين يتوجّه. فبينا هو كذلك، آنس من جانب الطور ناراً. وروى أبو بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لمّا قضى موسى الأجل، وسار بأهله نحو بيت المقدس، أخطأ الطريق ليلاً، فرأى ناراً ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ وقد مرَّ تفسيره.

﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: بخبر من الطريق الذي أريد قصده، وهل

أناعلى صوبه أو منحرف عنه. وقيل: بخبر من النار، هل هي لخير نأنس به، أو لشرّ نحذره. ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قطعة من النار. وقيل: بأصل شجرة فيها نار ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون بها.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: نودي موسى من الجانب الأيمن للوادي ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ وهي البقعة التي قال الله تعالى فيها لموسى: ﴿إِخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾. وإنّما كانت مباركة؛ لأنّها معدن الوحي والرسالة، وكلام الله تعالى. وقيل: مباركة؛ لكثرة الأشجار والأثمار، والخير والنعم بها. والأوّل أصحّ؛ إذ ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ إنّما سمع موسى النداء، والكلام من الشجرة؛ لأنّ الله تعالى فعل الكلام فيها، وجعل الشجرة محلّ الكلام؛ لأنّ الكلام عرض، يحتاج إلى محلّ. وعلم موسى بالمعجز، أنّ ذلك كلامه تعالى، وهذه أعلى منازل الأنبياء، أعني: أن يسمعوا كلام الله من غير واسطة، ومبلّغ.

وكان كلامه سبحانه: ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إنّ المكلّم لك هو الله مالك العالمين، وخالق الخلائق أجمعين، تعالى وتقدّس عن أن يحلّ في محلّ، أو يكون في محلّ، أو يكون في مكان؛ لأنّه ليس بعرض، ولا جسم.

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا
وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ
﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ
وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ
مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل الحجاز والبصرة: من الرَهَب ـ بفتح الراء والهاء ـ، وقرأ حفص: من الرَهْب ـ بفتح الراء وسكون الهاء ـ. والباقون: بضمّ الراء وسكون الهاء. وقرأ أهل البصرة وابن كثير: فذانّك ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وقرأ أبو جعفر ونافع رداً ـ بغير همزة ـ. والباقون: بالهمزة. وقرأ عاصم وحمزة: يُصَدِّقُني ـ بالرفع ـ والباقون: يُصَدِّقْني ـ بالجزم ـ. وفي الشواذّ، قراءة الحسن عَضدُك.

الحجة: الرَهب والرُّهب لغتان مثل: الرَشَد والرَشد، والرَّهَب والرَّهْب مثل الشَّمَع والشَّمع، والنَّهَر والنَهر. وقوله: ﴿فذانك﴾ قد مضى القول فيه فيما تقدَّم وقال الزجّاج: التشديد تثنية «ذلك»، والتخفيف تثنية «ذاك»، وجعل بدل اللام في «ذلك»، تشديد النون. ومن قرأ: رداً، فإنّه خفّف الهمزة، وذلك حكم الهمزة إذا خفّفتها، وكان قبلها ساكن أن تحذف وتلقى حركتها على الساكن قبلها. ومن قرأ: يصدقُني ـ بالرفع ـ جعله صفة للنكرة، وتقديره: ردْءاً مصدقاً. ومن قرأ: بالجزم، كان على معنى الجزاء أي: إن أرسلته يصدقني. وفي «عضد» خمس لغات: عَضُد، وعَضد، وعُضُد، وعُضد، وعَضِد. وأفصحها: عَضُد، مثل: رجل.

---

(١) وإتّفقوا على ترك الامالة في «عصاك»؛ لأنّه ثلاثيّ واويّ، مكتوب بالألف. وأثبت الياء في «فاتّقون» يعقوب، وصلاً ووقفاً. وفتح الياء من «معيَ رداً» حفص وحده. ونقل حركة همزة «ردأ» الى الدال نافع. وأثبت الياء من «يكذبون» في الحالين يعقوب، ووصلاً ورش.

الإعراب: قوله: إلى فرعون، يتعلّق بما يتعلّق به «مِن» من قوله: ﴿بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ ويجوز أن يتعلّق بمحذوف، كما تقدّم ذكره في قوله: في تسع آيات. إلى فرعون وهارون [هامان] عطف بيان. ردءاً نصب؛ على الحال. والباء في قوله: بآياتنا، يحتمل ثلاثة أوجه: **أحدها**: أن يتعلّق بيصلون. **والثاني**: أن يتعلّق بنجعل. **والثالث**: أن يتعلّق بقوله: ﴿الغالبون﴾.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه تمام قصّة موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ إنّما أعاد سبحانه هذه القصّة، وكرّرها في السور؛ تقريراً للحجّة على أهل الكتاب، وإستمالة بهم إلى الحقّ، ومن أحبَّ شيئاً أحبَّ ذكره، والقوم كانوا يدَّعون محبّة موسى، وكل من إدّعى إتّباع سيّده، مال إلى من ذكره بالفضل، على أنّ كل موضع من مواضع التكرار لا تخلو من زيادة فائدة، وهيهنا حذف، تقديره: فألقاها من يده، فإنقلبت بإذن الله تعالى ثعباناً عظيماً، تهتزّ كأنّها جانّ في سرعة حركتها، وشدّة إهتزازها.

﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ أي: تتحرّك ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً﴾ موسى ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع إلى ذلك الموضع، فنودي ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ من ضررها. وفي إنقلاب العصا حيّة دلالةٌ على أنّ الجواهر متماثلة، وأنّها من جنس واحد؛ لأنّه لا حال أبعد إلى حال الحيوان من حال الخشب، وما جرى مجرى ذلك من الجماد، فإذا صحَّ قلب الخشب إلى حال الحيوان، صحَّ أيضاً قلب الأبيض إلى حال الأسود[1].

---

(١) جري على إصطلاح المتكلّمين في الجواهر، والحال، والجنس. وإن جرينا على إصطلاح الحكما، قلنا: قلب العصاحيّة تدلّ على أنّ الهيولي أي: المادة في الاشياء واحدة؛ إذ لا صورة أبعد من الصورة النوعيّة الحيوانيّة من الصورة النوعية للخشب وأمثاله من الجمادات، فإذا صحّ قلب الخشب حيواناً، بزوال صورة الخشب عن المادّة، وحصول صورة الحيوان فيها، صحّ أيضاً زوال السواد، وحدوث البياض في مادّة واحدة، خلافاً لمن قال: لايمكن تبدّل الأعراض إلّا بتبدّل الموادّ.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي: أدخلها فيه ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير برص.

﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ﴾ أي: ضمّ يدك إلى صدرك من الخوف، فلا خوف عليك، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. والمعنى: إنَّ الله تعالى أمره أن يضمّ يده إلى صدره، فيذهب ما أصابه من الخوف عند معاينة الحيّة. وقيل: أمره سبحانه بالعزم على ما أراده منه، وحثَّه على الجدّ فيه؛ لئلّا يمنعه الخوف الذي يغشاه في بعض الأحوال، ممّا أمره بالمضي فيه. وليس يريد بقوله: ﴿اضْمُمْ إِلَيْكَ [يدك]﴾: الضمّ المزيل للفرجة بين الشيئين.

عن أبي عليّ الفارسيّ، قال: وهذا، كما أنّ «أشدد» في قوله: «أشدُد حَيازِيمَكَ لِلمَوتِ فَإنَّ المَوتَ لاقِيكا» ليس يراد به: الشدّ الذي هو الربط، والمراد به: تأهَّب للموت، وإستعدّ للقائه، حتى لا تهاب لقاه، ولا تجزع من وقوعه. وقد جاء ذكر اليدين في مواضع، يراد بها جملة ذي اليد، فمن ذلك قولهم: «لبّيك والخير بين يديك». ومنه: قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾. وفي المثل: «يَداكَ أوْكَتا وَفُوكَ نَفَخَ»[١]. وإنّما يقال هذا عند تفريغ الجملة. وقال أبو عبيدة: جناحا الرجل: يداه. وقال غيره: الجناح: هنا العضد، ويدلّ على قوله: إنّ «العضد» قد تقام مقام الجملة، في مثل قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾. وقد جاء المفرد، ويراد به: التثنية، قال:

يَداكَ يَدٌ إحْداهُمَا الْجُودُ كُلُّهُ وَراحَتُكَ الأُخْرىٰ طِعان تُغامِرُهُ

المعنى: يداك يدان؛ بدلالة قوله: «إحداهما». فعلى هذا يجوز أن يراد بالإفراد في قوله: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾: التثنية. وقيل: إنّه لمّا ألقى العصا، وصارت حيّة، بسط يديه كالمتقي، وهما جناحاه. فقيل له: أضمم إليك جناحك

---

[١] أولى القرية: شدها بالوكاء.

أي: ما بسطته من يديك. والمعنى: لا تبسط يديك خوف الحيّة؛ فإنّك آمن من ضررها. ويجوز أن يكون معناه: أسكن ولا تخف، فإنَّ من هاله أمر أزعجه، حتى كأنّه يطيره، وآلة الطيران الجناح. فكأنّه عليه السلام قد بلغ نهاية الخوف، فقيل له: ضمّ منشور جناحك من الخوف، واسكن. وقيل: معناه: إذا هالك أمر يدك، لما تبصر من شعاعها، فاضممها إليك لتسكن.

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ معناه: فاليد والعصا حجّتان من ربّك على نبوّتك. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: أرسلناك إلى فرعون وملئه، بهاتين الآيتين الباهرتين. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين من طاعة الله إلى أعظم المعاصي، وهو الكفر.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي﴾ بتلك النفس ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾ وإنّما قال ذلك؛ لعقدة كانت في لسانه، وقد مرَّ فيما مضى ذكر سببها، وقد كان الله تعالى أزال أكثرها، أو جميعها بدعائه.

﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً﴾ أي: معيناً لي على تبليغ رسالتك. يقال: فلان ردء لفلان: إذا كان ينصره، ويشدّ ظهره. ﴿يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي﴾ أي: مصدّقاً لي على ما أؤدّيه من الرسالة. وإن جزمته فالمعنى: إنّك إن ترسله معي يصدّقني. وإنّما كان سؤاله ذلك بعد أن أذن له فيه؛ لأنّ الإنسان لا يعلم أنّ المصلحة في إرسال نبيّ واحد، أو إثنين، إلّا بالوحي. وقال مقاتل: معناه: لكي يصدقني فرعون.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ هذه إستعارة رابعة، والمعنى: سنجعله رسولاً معك، ونؤيّدك بأن نقرنه إليك في النبوّة، وننصرك به. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ أي: حجّة، وقوّة، وبرهاناً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي: لا يصل فرعون وقومه إلى

الإضرار بكما، بسبب ما نعطيكما من الآيات، وما يجري على أيديكما من المعجزات، فيخافكما فرعون وقومه لأجلها. وقيل: إنّ قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾: موضعه التقديم أي: ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا، فلا يصلون إليكما.

ثمّ أخبر أنّ الغلبة لهما عليهم، فقال: ﴿أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ على فرعون وقومه، القاهرون لهم، وهذه الغلبة غير السلطان، فإنّ السلطان بالحجّة، والغلبة بالقهر، حين هلك فرعون وقومه، وملك موسى وقومه ديارهم. وروي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل قال: فلمّا رجع موسى عليه السلام إلى إمرأته، قالت: من أين جئت؟ قال: من عند ربّ تلك النار. قال: فغدا إلى فرعون، فوالله لكأنّي أنظر إليه طويل الباع، ذو شعر أدم، عليه جبّة من صوف، عصاه في كفّه، مربوط حقوه بشريط[١]، نعله من جلد حمار، شراكها من ليف. فقيل لفرعون: إنّ على الباب فتى يزعم أنّه رسول ربّ العالمين.

فقال فرعون لصاحب الأسد: خلّ سلاسلها، وكان إذا غضب على رجل خلاها فقطعته. فخلاها، فقرع موسى الباب الأوّل، وكانت تسعة أبواب. فلمّا قرع الباب الأوّل، إنفتحت له الأبواب التسعة. فلمّا دخل جعلن تبصبصن تحت رجليه، كأنّهنّ جراء[٢] . فقال فرعون لجلسائه: رأيتم مثل هذا قطّ. فلمّا أقبل إليه، أنبه، فقال: ﴿ألم نربّك فِينَا وَلِيداً﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنّا مِنَ الضّالِّين﴾. فقال فرعون لرجل من أصحابه: قم فخذ بيده. وقال للآخر: إضرب عنقه، فضرب جبرائيل بالسيف، حتى قتل ستّة من أصحابه، فقال: خلّوا عنه. قال: فأخرج يده، فإذا هي بيضاء قد حال شعاعها بينه وبين وجهه. فألقى العصا فإذا هي حيّة، فإلتقمت الإيوان بلحييها، فدعاه أن يا موسى أقلني إلى غد، ثمّ كان من أمره ما كان.

---

[١] الحقو: الخصر. والشريط: خوص مفتول يشرط به السرير ونحوه.

[٢] بصبص الكلب: تحرك ذنبه. والجراء جمع الجرو: أولاد السباع.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

القراءة: قرأ ابن كثير: ﴿قَالَ مُوسَى﴾ ـ بغير واو ـ، وكذلك هو في مصاحف مكّة. والباقون: ﴿وقال﴾ ـ بالواو ـ. وقرأ نافع و[نافع و]أهل الكوفة غير عاصم: ﴿من يكون﴾ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء. وقرأ [نافع] أهل الكوفة غير عاصم ويعقوب: ﴿لا يَرجعون﴾ ـ بفتح الياء ـ. والباقون: بضمّ الياء، وفتح الجيم.

---

(١) وفتح «ربّي أعلم» في الموضعين الحرميان وأبو عمرو، ومن «لعلي أطّلع» هم وابن عامر.

الحجة: قال أبو عليّ: قد مضى القول في نحو هذا فيما قبل، وكذلك في نحو الياء والتاء من ﴿يكون﴾. وكلاهما حسن. وكذلك قد مضى فيما تقدم القول في «يُرجعون، ويَرجعون».

اللغة: الصرح: البناء العالي كالقصر، وأصله من الظهور. والتصريح: شدّة ظهور المعنى. قال الشاعر:

بِـهِنَّ نَـعامٌ بَـناهَا الرِّجـالُ تَحْسَبُ أعْلامَهُنَّ الصُّرُوحَا[1]

والنبذ: الإلقاء والطرح. والشيء منبوذ. قال أبو الأسود:

نَـظَرْتُ إلى عُـنْوانِـهِ فَـنَبَذتُهُ كَنَبْذِكَ نَعْلاً أخلَقَتْ مِـن نِـعالِكا

والقبح: الإبعاد. قبحه الله أي: أبعده، يقبحه قبحاً. ويقال: قـبحه: إذا جـعله قبيحاً. وقيل: قبحه فهو مقبوح: أهلكه.

الإعراب: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾: نصب؛ على الحال. ﴿مَا سَمِعْنَا بِـهَٰذَا﴾: يـحتمل أن تكون الباء زائدة، ويحتمل أن تكون على أصلها. وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْـحَقِّ﴾: الجـارّ والمجرور في موضع نصب؛ على الحال، والقتدير: وإستكبر هو وجنوده مبطلين. و﴿يَدْعُونَ﴾: صفة الإئمة. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾: ظرف لفعل يدلّ عـليه قـوله: ﴿مِـنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ على تقدير: قـبحوا يـوم القـيامة؛ لأنّ الصـلة لا تـعمل فـيما قـبل الموصول. والألف واللام في ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ موصول، وتقديره: الذين قبحوا.

المعنى: ثمّ قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَـيِّنَاتٍ﴾ التـقدير: فمضى موسى إلى فرعون وقومه. فلمّا جـاءهم بآيـاتنا أي: بـحججنا البـيّنات، ومعجزاتنا الظاهرات ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ أي: مختلق، مفتعل، لم يُبنَ على أصل صحيح؛ لأنّه حيلة توهّم خلاف الحقيقة. فـوصفوا الآيـات بـالسحر، والإختلاق على هذا المعنى؛ جهلاً منهم، وذهاباً عن الصواب.

---

(١) نعام: من أعلام المفازة، والأعلام الجبال أي: تحسب الجبال والتلال كالقصور فـي تـلك المفازة. وهذا البيت وارد في الصحاح بلفظ آخر.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي: لم نسمع ما يدّعيه، ويدعو إليه في آبائنا الذين كانوا قبلنا. وإنّما قالوا ذلك مع إشتهار قصّة نوح، وهود، وصالح، وغيرهم من النبيّين الذين دعوا إلى توحيد الله، وإخلاص عبادته، لأحد أمرين: إمّا للفترة التي دخلت بين الوقتين، والزمان الطويل، وإمّا لأنّ آباهم ما صدقوا بشيء من ذلك، ولا دانوا به. فيكون المعنى: ما سمعنا بآبائنا أنّهم صدقوا الرسل فيما جاؤوا به. ووجه شبهتهم في ذلك: أنّهم قالوا إنّهم الكبراء. فلو كان حقّاً لأدركوه، فإنّه لا يجوز أن يدرك الحقّ الأنقص في الرأي والعقل، ولا يدركه الأفضل فيهما. وهذا غلط؛ لأنّ ما طريقه الإستدلال، لا يمتنع أن يصيبه الأدون في الرأي إذا سلك طريقه، ولا يصيبه الأكمل في الرأي إذا لم يسلك طريقه.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ مجيباً لهم ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ ومعناه: ربّي يعلم أنّي جئت بهذه الآيات الدالّة على الهدى من عنده، فهو شاهد لي على ذلك إن كذّبتموني، ويعلم أنّ العاقبة الحميدة لنا، ولأهل الحقّ والإنصاف. وهذا كما يقال على سبيل المظاهرة: الله أعلم بالمحقّ منّا والمبطل. وحجّتي ظاهرة فأكثرها إن قدرت على ذلك. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفوز بالخير من ظلم نفسه، وعصى ربّه، وكفر نعمه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ منكراً لما أتى به موسى من آيات الله، لمّا أعياه الجواب، وعجز عن محاجّته ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ يريد أشراف قومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ[1] عَلَى الطِّينِ﴾ أي: فأجج النار على الطين، وإتّخذ الآجر. وقيل: إنّه أوّل من إتّخذ الآجر، وبنى به، ـ عن قتادة ـ.

﴿فَاجْعَل لِي صَرْحاً﴾ أي: قصراً، وبناء عالياً ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾

---

(١) ذكر الإمام الرازي في تفسيره، عن بعض أحبار اليهود: أنّ هامان لم يكن وزير فرعون، بل كان وزير ملك آخر بعد زمان فرعون وموسى عليه السلام، وأجاب بما حاصله: إنّه لا عبرة بكتب اليهود وتواريخهم؛ لعدم تواترها. وأقول: يمكن أن يكون كلمة «هامان» نظير كلمة «فرعون» إسماً عامّاً يطلق على كل وزير يعتمد عليه الملك، ومثله شائع في كل عصر.

أي: أصعد إليه، وأشرف عليه، وأقف على حاله. وهذا تلبيس من فرعون، وإيهام على العوام، أنّ الذي يدعو إليه موسى، يجري مجراه في الحاجة إلى المكان والجهة.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في إدّعائه إلهاً غيري، وأنّه رسوله. ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: رفع فرعون وجنوده أنفسهم في الأرض فوق مقدارها بالباطل والظلم، وأنفوا وتعظموا عن قبول الحقّ في إتّباع موسى. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: أنكروا البعث وشكُّوا فيه.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: فعاقبناهم، وطرحناهم في البحر، وأهلكناهم بالغرق. وعني باليمّ نيل مصر. وقيل: بحر من وراء مصر، يقال له: أساف، غرقهم الله فيه. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: تفكَّر، وتدبَّر، وأنظر بعين قلبك، كيف أخرجناهم من ديارهم، وأغرقناهم.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ وهذا يحتاج إلى تأويل؛ لأنّ ظاهره يوجب أنّه تعالى جعلهم أئمّة يدعون إلى النار، كما جعل الأنبياء أئمّة يدعون إلى الجنّة. وهذا ما لا يقول به أحد. فالمعنى: أنّه أخبر عن حالهم بذلك، وحكم بأنّهم كذلك، وقد تحصل الإضافة على هذا الوجه بالتعارف. ويجوز أن يكون أراد بذلك: أنّه لمّا أظهر حالهم على لسان أنبيائه، حتى عرفوا، فكأنّه جعلهم كذلك. ومعنى دعائهم إلى النار: أنّهم يدعون إلى الأفعال التي يستحقّ بها دخول النار، من الكفر والمعاصي.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر بعضهم لبعض، ولا ينصرهم غيرهم يوم القيامة، كما كانوا يتناصرون في الدنيا. ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أردفناهم لعنة بعد لعنة، وهي البعد عن الرحمة والخيرات. وقيل: معناه: ألزمناهم اللعنة في هذه الدنيا، بأن أمرنا المؤمنين بلعنهم، فلعنوهم، ـ عن أبي عبيدة ـ.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المهلكين، ـ عن الأخفش ـ. وقيل: من المشوهين في الخلقة، بسواد الوجوه، وزرقة الأعين، ـ عن الكلبي، عن ابن عباس ـ. وقيل: من الممقوتين المفضوحين.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾
وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ
﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة: ﴿سِحْرَانِ﴾ ـ بغير ألف ـ. والباقون:

﴿ساحران﴾ ـ بالألف ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من قرأ: ﴿ساحران﴾: أنّه قال: تظاهرا، والمظاهرة: المعاونة. وفي التنزيل: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾. والمعاونة في الحقيقة إنّما تكون للساحرين، لا للسِحْرين. والوجه في قوله: ﴿سحران﴾: أنّه نسب المعاونة الى السحرين، على وجه الإتّساع، كأنّ كل سحر منهما يقوّي الآخر.

الإعراب: قال الزجّاج قوله: ﴿بَصَائِرُ﴾ حال أي: آتيناه الكتاب مبيناً. وأقول فيه إنّه بدل من الكتاب. فإنّ المعرفة يجوز أن تبدل منها النكرة. والبصائر في معنى الحجج، فلا يصحّ معنى الحال فيها، إذا كان إسماً محضاً، لا شائبة فيه للفعل. وقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَا﴾: ظرف للمحذوف الذي يتعلّق به الباء في قوله: ﴿بجانب الغربي﴾. و ﴿تَتْلُو﴾: جملة منصوبة الموضع؛ على الحال ﴿وَلٰكِن رَّحْمَةً﴾: منصوبة؛ مفعول لها، تقديره: ولكنّا أوحينا إليك رحمة أي: للرحمة، كما تقول: فعلت ذلك إبتغاء الخير. ﴿لَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ لولا: هذه هي التي معناها إمتناع الشيء لوجود غيره. و ﴿أن تصيبهم﴾: مبتدأ. وجواب ﴿لولا﴾: محذوف، وتقديره: لم يحتج إلى إرسال الرسل. و«لولا» الثانية في قوله: ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾: هي التي معناها التحضيض، بمعنى «هلّا». ﴿بغير هدى﴾: الجارّ والمجرور في موضع نصب؛ على الحال.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه من أخبار موسى عليه السلام ما فيه دلالة على معجزة نبيّنا صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ أي: الجموع التي كانت قبله من الكفّار، مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود. ويجوز أن يريد بالقرون قوم فرعون؛ لأنّه سبحانه أعطاه التوراة بعد إهلاكهم بمدّة.

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: حججاً وبراهين للناس، وعبراً يبصرون بها أمر

دينهم، وأدلّة يستدلّون بها في أحكام شريعتهم. ﴿وَهُدىً﴾ أي: دلالة لمن إتّبعه يهتدي بها ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتّعظون، ويعتبرون. وجاءت الرواية بالإسناد عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ قال: «ما أهلك الله قوماً، ولا قرناً، ولا أُمّة [ولا أمّة]، ولا أهل قرية، بعذاب من السماء، منذ أنزل التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية الذين مسخوا قردة. ألم تر أنّ الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾» الآية.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي: وما كنت يا محمّد حاضراً، بجانب الجبل الغربيّ أي: في الجانب الغربيّ من الجبل، الذي كلّم الله فيه موسى، ـ عن قتادة والسدّي ـ. وقيل: بجانب الوادي الغربيّ، ـ عن ابن عباس والكلبي ـ.

﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي: عهدنا إليه، وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه. وقيل: معناه: أخبرناه بأمرنا ونهينا. وقيل: أراد كلامه معه في وصف نبيّنا ﷺ، ونبوّته. ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: الحاضرين لذلك الأمر، وبذلك المكان، فتخبر قومك عن مشاهدة وعيان. ولكنّا أخبرناك به؛ ليكون معجزة لك.

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: خلقنا قرناً بعد قرن، فطال عهدهم بالمهلكين قبلهم، وفترة النبوّة، فحملهم ذلك على الإغترار، وأنكروا بعثة الله رسله؛ لجهلهم بأمر الرسل، فأرسلناك للناس رسولاً، وجعلناك رحمة للناس، كما جعلنا موسى رحمة. لا يتمّ الكلام إلّا بهذا التقدير. وقيل: إنّ المعنى: خلقنا خلقاً كثيراً، عهدنا إليهم في نعتك [نعمتك] وصفتك، وأمرنا الأوّل بالإبلاغ للناس إلى الثاني، فإمتدّ بهم الزمان، فنسوا عهدنا إليهم فيك.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ معناه: وما كنت مقيماً في قوم شعيب، تتلو عليهم آياتنا. قال مقاتل: معناه: ولم تشهد أهل مدين، فتقرأ

على أهل مكّة خبرهم. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: أرسلناك إلى أهل مكّة، وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها. قال الزجّاج: المعنى: أنّك لم تشاهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكنّا أوحيناها إليك، وقصصناها عليك؛ حتى تخبر قومك بهذا؛ فيدلُّ ذلك على صحّة نبوّتك. وقيل: معناه: أنّك لم تشهد إحساننا إلى عبادنا في إرسال الرسل، ونصب الآيات، وإنزال الكتب بالبيّنات والهدى. وهذا كما يقال: لم تدر أيّ شيء كان هناك، تفخيماً للأمر. ولولا الوحي لما علمت من ذلك ما علمت، ولم تهتد له.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: ولم تك حاضراً بناحية الجبل الذي كلّمنا عليه موسى، وناديناه: يا موسى خذ الكتاب بقوّة. وقيل: أراد بذلك: المرّة الثانية التي كلَّم الله فيها موسى عليه السلام، حين إختار من قومه سبعين رجلاً؛ ليسمعوا كلام الله تعالى. ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ولكن الله تعالى أعلمك ذلك، وعرفك إيّاه نعمة من ربّك أنعم بها عليك، وهو أن بعثك نبيّاً، وإختارك لإيتاء العلم بذلك؛ معجزة لك.

﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: لتنذر العرب الذين لم يأتهم رسول قبلك. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي يتفكّروا ويعتبروا، وينزعوا [يرعووا] من [عن] المعاصي. وفي هذا دلالة على وجوب فعل اللطف، فإنّ الإنذار والدعوة، لطف من الله تعالى، مؤثر في القبول، ومقرّب منه.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: لولا أنَّ لهم أنْ يحتجّوا لو أصابتهم عقوبة بأن يقولوا: هلّا أرسلت إلينا رسولاً يدعونا إلى ما يجب الإيمان به، فنتّبع الرسول، ونأخذ بشريعته، ونصدّق به، لما أرسلنا الرسل، ولكنّا أرسلنا رسلاً لقطع حجّتهم. وهو في معنى قوله: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

وقيل: إنّ جواب ﴿لولا﴾: هيهنا: ﴿لعجّلنا لهم العقوبة﴾. وقيل: المراد بالمصيبة هيهنا: عذاب الإستئصال. وقيل: عذاب الدنيا والآخرة. ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: محمّد ﷺ، والقرآن، والإسلام ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ﴾ أي: هلّا أُعطي محمّد ﷺ ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من فلق البحر، واليد البيضاء، والعصا. وقيل: معناه: هلّا أُوتي كتاباً جملة واحدة. وإنّما قاله اليهود، أو قريش، بتعليم اليهود، فإحتجَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وقد كفروا بآيات موسى، كما كفروا بآيات محمّد ﷺ، و﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعنون: التوراة والقرآن، ـ عن عكرمة والكلبي ومقاتل ـ. ومن قرأ: ﴿سِاحرَانِ تَظَاهَرَا﴾ فمعناه: أنّهم قالوا: تظاهر موسى ومحمّد ﷺ ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ من التوراة، والقرآن. قال الكلبي: وكانت مقالتهم هذه حين بعثوا الرهط منهم إلى رؤوس اليهود وكانت بالمدينة في عيد لهم، فسألوهم عن محمّد ﷺ، فأخبروهم بنعته، وصفته في كتابهم التوراة. فرجع الرهط إلى قريش، فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: سحران تظاهرا.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ معناه: قل يا محمّد لكفّار قومك: فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن، حتى أتّبعه إن صدّقتم أنَّ التوراة والقرآن سحران[1]. وقيل: معناه: فأتوا بكتاب من عند

---

(١) والتورية وإن كانت محرّفة ومنسوخة الأحكام في زمان النبيّ ﷺ، فلا يبعد أن يصفها الله تعالى بأنّه لا كتاب أهدي من القرآن ومنها، وذلك لأنّه قد بقي من كلام الأنبياء بين كلام المحرّفين، وفيها آيات على عجائب قدرة الله، ودلالات على توحيده، وعدله. والمنصف إذا تدبّرها، عرف منها عظمة أمر النبوّة، والإخبار بالغيب فيها، البالغة حدّ التواتر، خصوصاً ما يتضمّن من البشارة برسالة نبيّنا ﷺ، يرغم أنوف الملاحدة المنكرين؛ للوحي والإلهام والإطّلاع على ما سيأتي.

الله، يؤمن معه التكذيب أي: لم يكذب به طائفة من الناس.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن. وقيل: فإن لم يستجيبوا لك إلى الإيمان، مع ظهور الحقّ. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: ما تميل إليه طباعهم؛ لأنّ الهوى ميل الطبع إلى المشتهى. قال الزجّاج: أي: فاعلم أنّما ركبوه من الكفر، لا حجّة لهم فيه، وإنّما آثروا فيه الهوى.

ثمّ ذمّهم، فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أضلّ ممّن إتّبع هواه بغير رشاد، ولا بيان جاءه من الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الى طريق الجنّة. وقيل: معناه: لا يحكم الله بهدايتهم. وقيل: إنّهم إذا لم يهتدوا بهدى الله، فكأنّه لم يهدهم.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ
قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

(اللغة): أصل التوصيل: من وصل الحبال بعضها ببعض. قال إمرؤ القيس:

دَرِيـرٌ كَـخُذْرُوفِ الْـوَلِيدِ أمَـرَّهُ تَـتَابُعُ كَـفَّيْهِ بِـخَيْطٍ مُـوَصَّلِ[1]

أي: موصول بعضه ببعض، وهو في الكلام أن يصير بعضه يلي بعضاً. والدرء: الدفع.

﴿النُّزُول﴾: نزل قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وما بعده في عبد الله بن سلام، وتميم الداري، والجارود العبدي، وسلمان الفارسيّ، فإنّهم لمّا أسلموا نزلت فيهم الآيات، ـ عن قتادة ـ. وقيل: نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل، كانوا مسلمين بالنبيّ ﷺ قبل مبعثه إثنان وثلاثون من الحبشة، أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب عليه السلام وقت قدومه، وثمانية قدموا من الشام، منهم: بحيرا، وأبرهة، والأشرف، وعامر، وأيمن، وإدريس، ونافع، وتميم.

﴿المَعْنَى﴾: ثمّ بيّن سبحانه صفة القرآن، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي: فصّلنا لهم القول وبيّنّا، ـ عن ابن عباس ـ. ومعناه: أتينا بآية بعد آية، وبيان بعد بيان، أخبرناهم بأخبار الأنبياء والمهلكين من أممهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ليتذكّروا ويتفكّروا، فيعلموا الحقّ، ويتّعظوا. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل محمّد ﷺ. ﴿هُمْ بِهِ﴾ أي: بمحمّد ﷺ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّهم وجدوا نعته في التوراة. وقيل: معناه: من قبل القرآن، وهم بالقرآن يصدّقون. والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، يعني: الذين أوتوا الكتاب.

﴿وَإِذَا يُتْلَى﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ به. وذلك أنّ ذكر النبيّ ﷺ والقرآن، كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فهؤلاء لم يعاندوا. ثمّ أثنى الله سبحانه عليهم فقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ مرّة بتمسّكهم بدينهم حتى

---

(١) يشبه شدّة عدو فرسه بخزرُوف الوليد، وهو لعبة للصبيان، شيء مستدير، فيه خيط يديره الصبيان. وأمرّه أي: احكمه. والدرير: من الدّر، أراد به سرعة الجري.

أدركوا محمّداً ﷺ فآمنوا به، ومرّة بإيمانهم به. وقيل: بما صبروا على الكتاب الأوّل، وعلى الكتاب الثاني، وإيمانهم بما فيهما، ـ عن قتادة ـ. وقيل: بما صبروا على دينهم، وعلى أذى الكفّار، وتحمّل المشاقّ.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالحسن من الكلام، الكلام القبيح الذي يسمعونه من الكفّار. وقيل: يدفعون بالمعروف المنكر، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقيل: يدفعون بالحلم جهل الجاهل، ـ عن يحيى بن سلام ـ، ومعناه: يدفعون بالمداراة مع الناس أذاهم عن أنفسهم. وروي مثل ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مرَّ معناه. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ أي: السفه من الناس، والقبيح من القول، والهزء الذي لا فائدة فيه. ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ ولم يقابلوه بمثله. ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: لا نسأل نحن عن أعمالكم، ولا تسألون عن أعمالنا، بل كل منّا يجازى على عمله. وقيل: معناه: لنا ديننا، ولكم دينكم. وقيل: لنا حلمنا، ولكم سفهكم.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أمان منّا لكم أن نقابل لغوكم بمثله. وقيل: هي كلمة حلم، وإحتمال بين المؤمنين والكافرين. وقيل: هي كلمة تحيّة بين المؤمنين[1]، ـ عن الحسن ـ. ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا نطلب مجالستهم ومعاونتهم، وإنّما نبتغي الحكماء والعلماء. وقيل: معناه؛ لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: لا نبتغي دين الجاهلين، ولا تحيتهم، ـ عن الكلبي ـ.

---

(١) قوله: سلام عليكم، يدلّ على أنّه يجوز التسليم على الكفّار بنيّة التوديع، والإعراض، وإنّما الممنوع منه التحيّة. والفرق بينهما راجع الى النيّة، وليس مجرّد التلفّظ بالسلام محرماً، ونظيره: الركوع والسجود بنيّة الإحترام، أو بنيّة العبادة، فيفرق بينهما في النيّة، كسجود الملائكة لآدم، وسجود أخوة يوسف له.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة ويعقوب وسهل: ﴿تجبي﴾ ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء. وقرأ أبو عمرو: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ـ بالياء والتاء كيف شئت ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: قال أبو عليّ: تأنيث «ثمرات» تأنيث جمع، وليس بتأنيث حقيقيّ، فيكون بمنزلة الوعظ والموعظة، والصوت والصيحة، إذا ذكّرت جاز، وإذا أنّثت جاز. وحجّة من قرأ: ﴿أفلا تعقلون﴾ ـ بالتاء ـ، قوله: ﴿فما أوتيتم﴾. والياء على ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يا محمّد.

اللغة: التخطّف: أخذ الشيء على وجه الإستلاب من كل وجه. يقال:

تخطّفه تخطّفاً، وإختطفه إختطافاً، وخطفه يخطفه خطفاً. قال إمرؤ القيس:

تَخَطَّفُ خِـزَّانَ الأُنَـيْعِمِ بِـالضُّحى وَقَدْ حَجَرَتْ مِنْهَا ثَعَالِبُ أَوْرَلِ[1]

يجبى: من جبيت الماء في الحوض أي: جمعته. والجابية: الحوض. والبطر: الطغيان عند النعمة. قال ابن الأعرابي: البطر سوء إحتمال الغنى. وقيل: إنّ أصله من قولهم ذهب دمه بطراً أي: باطلاً، ـ عن الكسائي ـ. وقيل: هو أنْ يتكبّر عند الحقّ، فلا يقبله.

الإعراب: ﴿رِزْقاً﴾: مصدر وضع موضع الحال، تقديره: يجبي إليه ثمرات كل شيء من رزقه [مرزوقة]. ويجوز أن يكون مصدر فعل محذوف، تقديره: نرزق. ويجوز أن يكون مصدراً من معنى قوله: يجبي إليه ثمرات؛ لأنّه في معنى: رزق، فيكون مثل قولهم: حمدته شكراً. ويجوز أن يكون مفعولاً له. وقوله: ﴿لَدُنَّا﴾: في موضع نصب على الصفة لقوله: رزقاً. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثيراً من القرى أهلكنا. فكم: في موضع نصب بأهلكنا. و ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾: في موضع نصب؛ على التميز لأنّ «كم» الخبريّة إذا فصل بينها وبين مميّزها بكلام، نصب كما ينصب «كم» الإستفهاميّة. ﴿معيشتها﴾: إنتصب بقوله: ﴿بَطِرَتْ﴾. وتقديره: في معيشتها، فحذف الجارّ، فأفضى الفعل. ﴿فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿لَمْ تُسْكَنْ﴾: في موضع نصب؛ على الحال، والعامل فيه: معنى الإشارة في «تلك». ﴿قَلِيلاً﴾: صفة مصدر محذوف؛ تقديره: إلّا سكوناً قليلاً، أو صفة ظرف، تقديره: وقتاً، أو زماناً قليلاً.

النزول: قيل: نزل قوله ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي طالب، فإنّ النبيّ ﷺ كان يحبّ إسلامه، فنزلت هذه الآية؛ وكان يكره إسلام وحشيّ قاتل

---

(١) شبّه فرسه بعقاب تخطّف الأرانب، والثعالب، فهي تتواري في حجرها مخافة. والخزّان: جمع خزّ، الذكر من الأرانب، والأنعيم، وأورال: موضعان.

حمزة، فنزل فيه: ﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية. فلم يسلم أبو طالب، وأسلم وحشيّ. ورووا ذلك عن ابن عباس، وغيره. وفي هذا نظر كما ترى؛ فإنّ النبيّ ﷺ لا يجوز أن يخالف الله سبحانه في إرادته، كما لا يجوز أن يخالفه في أوامره ونواهيه.

وإذا كان الله تعالى على ما زعم القوم، لم يرد إيمان أبي طالب، وأراد كفره وأراد النبيّ ﷺ إيمانه، فقد حصل غاية الخلاف بين إرادتي الرسول ﷺ والمرسل. فكأنّه سبحانه يقول على مقتضى إعتقادهم: إنّك يا محمّد تريد إيمانه، ولا أُريد إيمانه، ولا أخلق فيه الإيمان مع تكفّله بنصرتك، وبذل مجهوده في إعانتك، والذبّ عنك، ومحبّته لك، ونعمته عليك. وتكره أنت إيمان وحشيّ؛ لقتله عمّك حمزة، وأنا أريد إيمانه، وأخلق في قلبه الإيمان. وفي هذا ما فيه.

وقد ذكرنا في سورة الأنعام أنّ أهل البيت عليهم السلام، قد أجمعوا على أنّ أبا طالب مات مسلماً، وتظاهرت الروايات بذلك عنهم، وأوردنا هناك طرفاً من أشعاره الدالّة على تصديقه للنبيّ ﷺ وتوحيده، فإنّ إستيفاء ذلك جميعه لا تتّسع له الطوامير، وما روي من ذلك في كتب المغازي وغيرها، أكثر من أن يحصى، يكاشف فيها من كاشف النبيّ ﷺ، ويناضل عنه، ويصحّح نبوّته. وقال بعض الثقات: إنّ قصائده في هذا المعنى، التي تنفث في عُقَد السحر، وتُغَبِّرُ [تَعير] في وجه شعراء الدَّهر، يبلغ قدر مجلّد، وأكثر من هذا. ولا شكّ في أنّه لم يختر تمام مجاهرة الأعداء، إستصلاحاً لهم، وحسن تدبيره في دفع كيادهم؛ لئلّا يلجئوا الرسول إلى ما الجأوه إليه بعد موته.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر الرسول والقرآن، وأنّه أُنزل هدى للخلق، بيّن سبحانه أنّه ليس عليه الإهتداء، وإنّما عليه البلاغ، والأداء، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمّد

﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته. وقيل: من أَحببته لقرابته، والمراد بالهداية هنا: اللطف الذي يختار عنده الإيمان، فإنّه لا يقدر عليه إلّا الله تعالى؛ لأنّه إمّا أن يكون من فعله خاصّة، أو بإعلامه. ولا يعلم ما يصلح المرء في دينه إلّا الله تعالى، فإنّ الهداية التي هي الدعوة والبيان، قد أضافها سبحانه إليه في قوله: ﴿وإنّك لتهدي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقيل: إنَّ المراد بالهداية في الآية: الإخبار[الإجبار] على الإهتداء أي: أنت لا تقدر على ذلك. وقيل: معناه: ليس عليك إهتداؤهم، وقبولهم الحقّ.

﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بلطفه. وقيل: على وجه الإجبار. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: القابلين للهدى، فيدبّر الأمور على ما يعلمه من صلاح العباد. ثمّ قال سبحانه حاكياً عن الكفّار: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي: نستلب من أرضنا، يعني: أرض مكّة والحرم. وقيل: إنّما قاله الحرث بن نوفل بن عبد مناف، فإنّه قال للنبيّ ﷺ: إنَّا لنعلم أنَّ قولك حقّ، ولكن يمنعنا أن نتّبع الهدى معك، ونؤمن بك، مخافة أن يتخطّفنا العرب من أرضنا، ولا طاقة لنا بالعرب.

فقال سبحانه رادّاً عليه هذا القول: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ أي: أو لم نجعل لهم مكّة في أمن وأمان قبل هذا، ودفعنا ضرر الناس عنهم، حتى كانوا يأمنون فيه؟ فكيف يخافون زواله الآن، أفلا نقدر على دفع ضرر الناس عنهم، لو آمنوا. بل حالة الإيمان والطاعة أولى بالأمن والسلامة من حالة الكفر.

﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد ﴿رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: إعطاء من عندنا، جارياً عليهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما أنعمنا به عليهم. وقيل: لا يعلمون الله، ولا يعبدونه فيعلموا ما يفوتهم من الثواب.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية. ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: في معيشتها، بأن أعرضت عن الشكر، وتكبَّرت، والمعنى: أعطيناهم المعيشة الواسعة، فلم يعرفوا حقّ النعمة، وكفروا فأهلكناهم. ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ تلك: إشارة إلى ما يعرفونه هم من ديار عاد، وثمود، وقوم لوط. أي: صارت مساكنهم خاوية، خالية عن أهلها، وهي قريبة منكم. فإنّ ديار عاد: إنّما كانت بالأحقاف، وهو موضع بين اليمن والشام، وديار ثمود: بوادي القرى، وديار قوم لوط: بسدوم. وكانوا هم يمرّون بهذه المواضع في تجاراتهم.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: المالكين لديارهم، لم يخلفهم أحد فيها. ثمّ خاطب سبحانه نبيَّه ﷺ فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمّد ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾ قيل: إنَّ معنى أمّها: أمّ القرى، وهي مكة. وقيل: يريد معظم القرى من سائر الدنيا[1] ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: يقرأ عليهم حججنا وبيّناتنا. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ لنفوسهم بالكفر والطغيان، والعتو والعصيان.

ثم خاطب سبحانه خلقه، فقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما أعطيتموه من شيء. ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي: هو شيء تتمتّعون به في الحياة، وتتزيّنون به ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ﴾ من الثواب، ونعيم الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ من هذه النعم ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنّها فانية، ونعم الآخرة باقية. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك، وتتفكّرون فيه، حتى تميّزوا بين الباقي والفاني.

---

(١) وبذلك يعلم أن مكّة إنّما سمّيت أمّ القرى؛ لأنّها أعظم بلاد العرب، وفى كل بلاد قرية تسمّي أمّ القرى، وهي عاصمة البلاد.

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟
إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ (١)
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

اللغة: المتعة: المنفعة. وقد فُرّق بينهما: بأنّ المتعة: منفعة توجب الإلتذاذ في الحال. والمنفعة: قد تكون بألم تؤدّي عاقبته إلى نفع. فكل متعة منفعة، وليس كل منفعة متعة. والإحضار: إيجاد ما به يكون الشيء بحيث يشاهد. والزعم: القول في الأمر على ظنّ أو علم. ولذلك دخل في باب «علمت وأخواته». قال:

فَإن تَزعَميني كُنتُ أجْهَلَ فيكُمُ فَإنّي شَرَيتُ الحِلمَ عِندَكَ بِالْجَهْلِ (٢)

النزول: نزل قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ﴾ الآية، في رسول الله ﷺ وأبي جهل. وقيل: نزل في حمزة بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وفي أبي جهل، ـ عن محمّد بن كعب والسدّي ـ. وقيل: نزل في عمّار، وفي الوليد بن المغيرة. والأولى أن يكون عامّاً فيمن يكون بهذه الصفة.

---

(١) ثمّ يكون بالياء قالون بخلف، والكسائي. وإتّفقوا على التخفيف في «فعميت».

(٢) أي: بدلت العلم بالجهل عندك. وشري: جاء بمعني التبديل، سواء كان بيعاً أو إشتراء.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر ما أتوا من زينة الحياة الدنيا، عقّبه سبحانه بالفرق بين من أوتي نعيم الدنيا، وبين من أوتي نعيم الآخرة، فقال: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ من ثواب الجنة ونعيمها، جزاء على طاعته ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي: فهو واصل إليه، ومدركه لا محالة. ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الأموال وغيرها. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ﴾ للجزاء والعقاب. وقيل: من المحضرين في النار. والمعنى: أيكون حال هذا، كحال ذاك أي: لا يكون حالهما سواء؛ لأنّ نعم الدنيا مشوبة بالغموم، وتعرض للزوال والفناء. ونعم الآخرة خالصة صافية، دائمة لا تتكدّر بالشوب، ولا تتنقّص بالإنقضاء.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: وأذكر يوم ينادي الله الكفّار، وهو يوم القيامة. وهذا نداء تقريع وتبكيت. ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: كنتم تزعمون في الدنيا أنّهم شركاء في الإلهيّة، وتعبدونهم، وتدّعون أنّهم ينفعونكم. ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ﴾ أي: حقّ عليهم الوعيد بالعذاب، من الجنّ والشياطين، والذين أغووا الخلق من الإنس.

﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ يعنون: أتباعهم ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: أضللناهم عن الدين بدعائنا إيّاهم إلى الضلال، كما ضللنا نحن بأنفسنا. ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم، ومن أفعالهم. قال الزجّاج: برىء بعضهم من بعض، وصاروا أعداء كما قال سبحانه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي: لم يكونوا يعبدوننا، بل كانوا يعبدون الشياطين الذين زيّنوا لهم عبادتنا. وقيل: معناه: لم يعبدونا بإستحقاق وحجّة. ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: ويقال للأتباع: أدعوا الذين عبدتموهم من دون الله، وزعمتم أنّهم شركائي؛ لينصروكم، ويدفعوا عنكم عذاب الله. وإنّما أضاف الشركاء

إليهم؛ لأنّه لا يجوز أن يكون لله شريك، ولكنّهم كانوا يزعمون أنّهم شركاء لله بعبادتهم إيّاهم. ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: فيدعونهم فلا يجيبونهم إلى ملتمسهم. ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: ويرون العذاب.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ جواب «لو» محذوف، تقديره: لو أنّهم كانوا يهتدون لما إتّبعوهم ولرأوا العذاب أي: لإعتقدوا أنَّ العذاب حقّ. وهذا القول أولى؛ لدلالة الكلام على المحذوف. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيّين. وهذا سؤال تقرير بالذنب، وهو نداء يجمع العلم والعمل معاً، فإنّ الرسل يدعون إلى العلم والعمل جميعاً، فكأنّه قيل لهم: ماذا علمتم؟ وماذا عملتم؟

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: فخفيت وإشتبهت عليهم طرق الجواب يومئذ، فصاروا كالعمي؛ لإنسداد طرق الأخبار عليهم، كما تنسدّ طرق الأرض على العمي. وقيل: معناه: فإلتبست عليهم الحجج، ـ عن مجاهد ـ. وسمّيت حججهم أنباء؛ لأنّها أخبار يخبر بها، فهم لا يحتجّون، ولا ينطقون بحجّة؛ لأنّ الله تعالى أدحض حجّتهم، وأكلَّ ألسنتهم، فسكتوا. فذلك قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً عن الغدر الذي يعتذر به في الجواب فلايجيبون. وقيل: معناه: لا يتساءلون بالأنساب والقرابة، كما في الدنيا. وقيل: لايسأل بعضهم بعضاً عن حاله؛ لشغله بنفسه، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل ذنوبه عنه، ـ عن الحسن ـ.

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١) ﴿٧٠﴾

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه التائبين، ورغّب في التوبة بعد التخويف، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ أي: رجع عن المعاصي والكفر. ﴿وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أي: وأضاف إلى إيمانه الأعمال الصالحة ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ الْمُفْلِحِينَ﴾ وإنّما أتى بلفظة ﴿عسى﴾ مع أنّه مقطوع بفلاحه؛ لأنّه على رجاء أن يدوم على ذلك، فيفلح. وقد يجوز أن يزلّ فيما بعد، فيهلك. على أنّه قد قيل: إنّ ﴿عَسَى﴾ من الله سبحانه لفظة وجوب في جميع القرآن.

ولمّا كان المفلح مختار الله تعالى، ذكر عقيبه أنّ الإختيار إلى الله تعالى، والخلق والحكم له؛ لكونه قادراً عالماً على الكمال. فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾ الخيرة: إسم من الإختيار، أقيم مقام المصدر. والخيرة: إسم للمختار أيضاً. يقال: محمّد ﷺ خيرة الله من خلقه. ويجوز التخفيف فيهما. وأختلف في الآية، وتقديرها على قولين:

أحدهما: إنّ معناه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق، ﴿وَيَخْتَارُ﴾ تدبير

---

(١) وقرأ: ترجعون ـ مبنيّاً للفاعل ـ يعقوب.

عباده، على ما هو الأصلح لهم، ويختار للرسالة من هو الأصلح لعباده. ثمّ قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس لهم الإختيار على الله، بل لله الخيرة عليهم. وعلى هذا تكون ﴿ما﴾ نفياً، ويكون الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. وفيه ردّ على المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فاختاروا الوليد بن المغيرة من مكّة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف.

والآخر: أن يكون ﴿ما﴾ في الآية بمعنى: الذي أي: ويختار الذي كان لهم الخيرة فيه. فيكون الوقف على هذا عند قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ وهذا أيضاً في معنى الأوّل؛ لأنّ حقيقة المعنى فيهما أنّه سبحانه يختار، وإليه الإختيار ليس لمن دونه الإختيار؛ لأنّ الإختيار يجب أن يكون على العلم بأحوال المختار، ولا يعلم غيره سبحانه جميع أحوال المختار، ولأنّ الإختيار هو أخذ الخير. وكيف يأخذ الخير من الأشياء من لا يعلم الخير فيها. ﴿سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدَّس وتنزَّه عن أن يكون له شريك في خلقه وإختياره.

ثمّ أقام سبحانه البرهان على صحّة إختياره بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: وربّك يعلم ما يخفونه، وما يظهرونه، فإليه الإختيار. وفي هذا دلالة على أنَّ من لا يعلم السرّ والجهر، فلا إختيار إليه.

ثمّ أكّد سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحقّ العبادة سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي: له الثناء والمدح والتعظيم، على ما أنعم به على خلقه في الدنيا، والعقبى. ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ بينهم بما يميز به الحقّ من الباطل. قال ابن عباس: يحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل، ولأهل معصيته بالشقاء، والويل. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: وإلى جزائه وحكمه ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ (١) أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

(المعنى): ثمّ بيّن سبحانه ما يدلُّ على توحيده، فقال لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لأهل مكّة، الذين عبدوا معي آلهة؛ تنبيهاً لهم على خطئهم. ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً﴾ أي: دائماً ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لا يكون معه نهار ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ كضياء النهار، تبصرون فيه، فإنّهم لا يقدرون على الجواب عن ذلك، إلّا بأنّه لا يقدر على ذلك سوى الله، فحينئذ تلزمهم الحجّة بأنّه لا يستحقّ العبادة غيره. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي: أفلا تقبلون ما وعظتم به. وقيل: أفلا تسمعون ما بيّنه الله لكم من أدلّته، وتتفكّرون فيه.

---

(١) قرأ: بضئاء ـ بهمزة بعد الضاء ـ قنبل.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً﴾ أي: دائماً ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لا يكون معه ليل ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون فيه من الحركة والنصب. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا تعلمون من البصيرة. وقيل: أفلا تشاهدون الليل والنهار، وتتدبّرون فيهما، فتعلموا أنّهما من صنع مدبّر حكيم.

ثمّ قال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ومن نعمته عليكم، وإحسانه إليكم، أن جعل لكم الليل والنهار، ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله في تصريف الليل والنهار، وفي سائر أنواع النعم.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ مضى تفسيره. فإنّما كرّر النداء للمشركين ﴿بِأَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ تقريعاً لهم، بعد تقريع. وقيل: لأنّ النداء الأوّل لتقرير إقرارهم على أنفسهم بالغيّ الذي كانوا عليه، ودعوا إليه. والثاني للتعجيز عن إقامة البرهان على ما طولبوا به بحضرة الأشهاد.

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أي: وأخرجنا من كل أمّة من الأمم رسولها الذي يشهد عليهم بالتبليغ، وبما كان منهم، ـ عن مجاهد وقتادة ـ. وقيل: هم عدول الآخرة، ولا يخلو كل زمان منهم يشهدون على الناس بما عملوا ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حججكم على صحّة ما ذهبتم إليه ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلهِ﴾ أي: فبهتوا وتحيَّروا لما لم يكن لهم حجّة يقيمونها، وعلموا يقيناً أنَّ الحقّ ما أنتم عليه، وما أنزله الله، وأنَّ الحجّة لله ولرسوله، فلزمتهم الحجّة؛ لأنّ المشهود عليه إذا لم يأت بمخلص من بيّنة الخصم، توجّهت القضية عليه، ولزمه الحكم. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب، وبطل ما عبدوه من دون الله تعالى.

النظم: إنّما إتّصلت هذه الآيات بما قبلها: بأنّه جرى ذكر معبودي الكفّار، وأنّهم لم يغنوا من الله شيئاً، فعقّبه سبحانه بأن وصف نفسه بأنّه المنعم المالك للنفع والضّر. وقيل: لمّا تقدّم أنَّ الحمد لله سبحانه في الدارين، ذكر عقيبه ما يوجب الحمد من النعم السابقة. وقيل: يتّصل بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ويختار لعباده ما هو الأصلح لهم، والأنفع.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا

بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

القراءة: قرأ حفص عن عاصم ويعقوب وسهل: ﴿لخَسَف﴾ ـ بفتح الخاء والسين ـ، وهو قراءة الحسن والأعرج وشيبة ومجاهد. والباقون: ﴿لخُسِف﴾ ـ بضمّ الخاء وكسر السين ـ. وقرأ يعقوب: ﴿وَيْكَ﴾ يقف عليها، ثمّ يبتدي فيقول: ﴿إنه﴾[1].

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿لخَسف بنا﴾ ـ بفتح الخاء ـ؛ فلتقدّم ذكر الله تعالى. ومن قرأ: بضمّ الخاء، فبنى الفعل للمفعول به: فإنّه يؤول إلى الأوّل في المعنى. وقال ابن جنّي في ﴿وَيْكَأَنَّهُ﴾ ثلاثة أقوال: منهم: من جعلها كلمة واحدة، فلم يقف على «وي». ومنهم: من وقف على «وي». ومنهم: من قال «ويك»، وهو مذهب أبي الحسن. والوجه فيه عندنا هو قول الخليل وسيبويه، وهو أنّ «وَيْ» إسم سمّي به الفعل في الخبر، فكأنّه إسم أعجب. ثمّ إبتدأ فقال: ﴿وَكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ

---

(١) وقف حمزة على «لتنوأ» بالنقل على القياس بالسكون، أو الروم، أو الإشمام، فهي ثلاثة وجوه. ويجوز عنده الوقف بإدغام؛ جعلاً للهمزة الأصليّة كالزائدة على ثلاثة وجوه أيضاً. وإتّفقوا على كتابة ألف بعد الواو، وفتح ياء «عندي أو لم» الحرميان، وأبو عمرو بخلف عن ابن كثير. وأبدل «فئة» ياء أبو جعفر. «ويكأنّ» متّصل كتابة، أجراه القرّاء مجري كلمة واحدة في الوقف. ووقف على الياء، وإبتداء بالكاف الكسائي. وأبو عمرو جوّز الوقف على الكاف والإبتداء بالهمزة. ونصّ على ذلك في الاتحاف. وإقتصر في الكتاب على نسبة القرائة الى يعقوب. «وويكأنّه» مثل: «ويكأنّ» في جميع ذلك.

﴿الْكَافِرُونَ﴾، و ﴿كَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ فوي: منفصلة من «كأنّ»، وعليه بيت الكتاب:

سَأَلْتَاني الطَّلاقَ إنْ رأَتاني ... قُلْ مالي، قَدْ جِئْتُماني بِنُكْرِ

وَيْ كَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْبَ ... بْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ[1]

وممّا جاءت فيه «كأن» عارية من معنى التشبيه، ما أنشده أبو عليّ:

كَأَنَّني حِينَ أُمْسي لا تُكَلِّمُني ... مُتَيَّمٌ يَشْتهي ما لَيْسَ مَوْجُوداً[2]

أي: أنا حين أمسي متيّم من حالي كذا. ومن قال إنّها «ويك»: فكأنّه قال: أعجب؛ لأنّه لا يفلح الكافرون. وأعجب؛ لأنّ الله يبسط الرزق، وهو قول أبي الحسن. وينبغي أن يكون الكاف هنا حرف خطاب بمنزلة الكاف في «ذلك وأُولئك». ويشهد لهذا قول عنترة:

لَقَدْ شَفا نَفْسي، وأَذْهَبَ سُقْمَها ... قيلُ الْفَوارِسِ: وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ[3]

وقول من قال: ويكأنه كلمة واحدة، إنّما يريد به أنّه لا يفصل بعضه من بعض.

اللغة: البغي: طلب العلو بغير حقّ، ومنه قيل: لِولاة الجور: بغاة. والكنز: جمع المال بعضه على بعض، وصار بالعرف عبارة عمّا يخبأ تحت الأرض، ولا يطلق في الشرع إسم الكنز إلّا على مال لا تخرج زكوته للوعيد الذي جاء فيه. والمفاتح: جمع مفتح. والمفاتيح: جمع مفتاح. ومعناهما واحد، وهو عبارة عمّا يفتح به الأغلاق. وناء بحمله ينوء نوءاً: إذا نهض به مع ثقله عليه، ومنه أخذت الأنواء؛ لأنها تنهض من المشرق على ثقل نهوضها. وقال أبو زيد: ناءني الحمل إذا

---

(١) النشب: المال.

(٢) يعني: إنّني إن لم تكلّمني معشوقتي ليلة كنت متيّماً.

(٣) يصف نفسه بالشجاعة. وأنّ قول القائل: يا عنترة أقدم في الحرب، يشفيني من كل داء.

أثـقلني. والعـصبة: الجـماعة المـلتفّ بـعضها بـبعض. يـقال: نـاءت المـفاتيح بالعصبة، وأناءت العصبة، بمعنى. كما يقال: ذهـبت بـه وأذهـبته. فـالباء والهـمز يتعاقبان في تعدّي الفعل. قال سبحانه: ﴿فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: جاء بها. وقال أبو عبيدة: هذا من المقلوب، ومعنى قوله: ﴿لَتَنُوء بِالْعُصْبَةِ﴾: تنوء العصبة بها، كما قال الشاعر:

إنَّ سِـــراجاً لَكَـــرِيمٌ مَـــفْخَرُهُ تَجْلىٰ بِهِ الْعَيْنُ إذا ما تَجْهَرُهُ[١]

ومعناه: يجلى بالعين فقلب. وقال آخر:

كـانَت عُـقُوبَةُ مـا جَـنَيْتُ كَـما كـانَ الزِّنـاءُ عُـقُوبَةَ الرَّجْـمِ[٢]

قال إمرؤ القيس:

يُـضيءُ الظَّـلامَ وَجْـهُها لِـضَجيعِها كَمِصْباحِ زَيْتٍ في قَـنادِيل ذُبَّـالِ[٣]

أي: في ذُبَّال قناديل. وهذا غير صحيح. ولا يجوز أن يحمل القرآن عليه، لأنّه يجري مجرى الغلط من العرب، ومثل ذلك في شعرهم كثير، قال:

غَـداةَ أحَـلَّتْ لابْـنِ اَصْـرَمَ طَـعنَةً حُصَينٍ، عَبيطاتُ السَّدايِف والخَمْرُ[٤]

والعبيطات: مفعولة. والطعنة: فاعلة، فقلب. ومن أغلاطهم قول الراجز:

جـــارِيَةٌ[٥] لَـــم تَـعلَمِ المُـرقَّقَا وَلَمْ تَـذُقْ مِـنَ البُـقُولِ الفُسْـتقاً

فظنّ الفستق من البقول. فأمّا قول خداش بن زهير:

---

(١) جلى يجلي، من باب سمع يسمع. يقال جلي فلان بعيني: إذا أعجبك.

(٢) عقوبة ما جنيت: إسم «كانت». وكما: خبره.

(٣) الذبالة: الفتيلة.

(٤) حصين: بدل من ابن أصرم. والمعنى: إنّ حصين بن أصرم حرّم على نفسه الخمر، وسنام البعير، حتى يقتصّ من قاتل قريب له، فظفر به، وطعنه، وأحلّت له هذه الطعنة ما حرّم. والسديف: الستام.

(٥) وفي نسخة: برية أي: بدوية.

وَتَـرَكْتُ خَـيْلاً لا هَـوادَةَ بَـينَها وَتَشقَى الرِّماحُ بالضَّياطِرَةِ الْحُمْرِ[١]

فذهب كثير من العلماء إلى أنَّ المعنى: وتشقى الضياطرة الحمر بالرماح، فقلب. وليس الأمر كذلك، وإنّما أراد: إنَّ رماحهم تشرق عن هؤلاء الضياطرة، فإذا طعنوا بها، فقد شقيت الرماح؛ لأنّ منزلتها أرفع من أن يطعنوا بها. وقالوا أيضاً في قول زهير:

فَتُنتِج لَكُمْ غِلْمانَ أشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأحْمَرِ عاد، ثُمَّ تُنتِجْ فَتُتْئِم[٢]

إنّه غلط، فنسبه إلى عاد، وإنّما هو أحمر ثمود. وهذا أيضاً ليس بغلط، فإنّ ثمود يسمّى عاداً الآخرة، لقوله تعالى: ﴿وانّه أَهلَك عَاداً الأولَى﴾ وقيل: إنّما سمّوا ثمود؛ لأنّ الله تعالى أهلك عاداً، وبقيت منهم بقيّة تناسلوا فهم ثمود. وأشتقّ لهم هذا الإسم من الثمد: وهو الماء القليل؛ لأنّهم قلّوا عن عدد عاد الأولى. وإذا جاء في الشعر ما يجري مجرى الغلط، فلا يجوز أن يحمل كلام الله تعالى عليه.

﴿المعنى﴾: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي: كان من بني إسرائيل، ثمّ من سبط موسى، وهو ابن خالته، ـ عن عطا، عن ابن عباس، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: كان ابن عمّ موسى لَحّاً[٣]؛ لأنّه كان قارون بن يصهر بن فاهث وموسى بن عمران بن فاهث، ـ عن ابن جريج ـ. وقيل: كان موسى ابن أخيه، وقارون عمّه، ـ عن محمّد بن إسحاق ـ.

﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: استطال عليهم بكثرة كنوزه، عن قتادة قال: وكان يسمّى المنور؛ لحسن صورته، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتورية، ولكن

---

(١) لا هوادة: أي لارفق. والضيطر: من لا غناء به. والأحمر: من لا سلاح معه.

(٢) يصف الحرب بالشؤم، ويحذر منها بأنّها كإمرتة تولد غلماناً شؤماً، كما كان أحمر عاد، ثمّ يقول: إنّها تلد توأمين، وهذا أقوى في الشرّ.

(٣) لحّاً: ـ بالتشديد ـ أي: لاصق النسب.

عدو الله نافق كما نافق السامريّ، فبغى عليهم. وقيل: كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل، فكان يبغي عليهم، ويطالبهم لماكانوا بمصر، ـ عن سعيد بن المسيّب، وابن عباس ـ. وقيل: إنّه زاد عليهم في الثياب شبراً، ـ عن عطاء الخراساني، وشهر ابن حوشب ـ.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ﴾ قال عطا: أصاب كنزاً من كنوز يوسف ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ ما: هذه موصولة بمعنى «الذي»، وصلتها: إنَّ مع إسمها وخبرها أي: أعطيناه من الأموال المدّخرة، قدر الذي ينيء مفاتحه العصبة. والمفاتح هنا: الخزائن، في قول أكثر المفسّرين، وهو إختيار الزجّاج، كما في قوله سبحانه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾. فيكون المراد بمفاتحه: خزائن ماله، وهو قول ابن عباس والحسن. وقيل: هي المفاتح التي تفتح بها الأبواب، ـ عن قتادة ومجاهد ـ. وروى الأعمش عن خيثمة قال: كانت مفاتح قارون من جلود، كل مفتاح مثل الإصبع.

وأختلف في معنى العصبة، فقيل: ما بين عشرة إلى خمسة عشر، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: ما بين عشرة إلى أربعين، ـ عن قتادة ـ. وقيل: أربعون رجلاً، ـ عن أبي صالح ـ. وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّهم الجماعة يتعصّب بعضهم لبعض.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ من بني إسرائيل ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تأشر، ولا تمرح، ولا تتكبّر بسبب كنوزك، إنَّ الله لا يحبّ من كان بهذه الصفة، ويدلّ على أنَّ «الفرح» بمعنى: البطر: قول الشاعر:

وَلَستُ بِمِفْراح إذَا الدَّهْرُ سَرَّني ... وَلا جازع مِنْ صَرْفِهِ الْمُتَقَلِّبِ

وقول الآخر:

ولا أرخي من الفرح الإزارا[١]

---

[١] وصدره: (ولاينسيني الحدثان عرضي).

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وهذا أيضاً من مقالة المؤمنين من قوم قارون له. وقيل: إنَّ المخاطب له بذلك موسى عليه السلام، وإن ذكر بلفظ الجمع، ومعناه: أطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة، بأن تنفقها في سبيل الله، ووجوه الخير والبرّ.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تعمل في الدنيا للآخرة، ـ عن أكثر المفسّرين ـ، ومعناه: لا تنس أن تعمل لآخرتك؛ لأنّ حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته. وروي في معناه عن عليّ عليه السلام: لا تنس صحّتك، وقوّتك، وفراغك، وشبابك، ونشاطك، وغناك، أن تطلب بها الآخرة. وقيل: أمر أن يقدّم الفضل، وأن يمسك ما يغنيه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: أنّه كان قتوراً شحيحاً، فقيل له: كل، وإشرب، وإستمتع بما أتاك الله من الوجه الذي أباحه الله لك، فإنّ ذلك غير محظور عليك.

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أفضل على الناس كما أفضل الله عليك. وقيل: أحسن فيما إفترض الله عليك، كما أحسن الله في إنعامه عليك، ـ عن يحيى بن سلام ـ. وقيل: معناه: وأحسن شكر الله تعالى على قدر إنعامه عليك، وواس عباد الله بمالك. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ﴾ أي: لا تطلب العمل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ظاهر المعنى.

﴿قَالَ﴾ قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ أختلف في معناه: فقيل: أراد إنّما أعطيت هذا المال بفضل وعلم عندي، ليس ذلك عندكم، ـ عن قتادة ـ، يعني: أنّه قدر أنَّ هذا ثواب من الله تعالى له، لفضيلته، كما أخبر سبحانه عن ذلك الكافر بقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾ وقيل: معناه: لرضا الله عنّي، ومعرفته بإستحقاقي، ـ عن ابن زيد ـ. وهذا قريب من الأوّل. وقيل: معناه: إنّ المال حصل له على علم عندي بوجوه المكاسب، وبما لا يتهيّأ لأحد أن

يكتسبه من التجارات، والزراعات، وغيرها. وقيل: على علم عندي بصنعة الذهب، وهو علم الكيمياء، ـ عن الكلبي ـ. وحكي أنّ موسى عليه السلام علّم قارون الثلث من صنعة الكيمياء، وعلم يوشع الثلث منها، وعلم ابن هارون الثلث منها، فخدعهما قارون حتى علم ما عندهما، وعمل بالكيمياء، فكثرت أمواله.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ﴾ الكافرة بنعمته. ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ كقوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم. ثمّ بيَّن سبحانه أنَّ إغتراره بماله، وعدده من الخطأ العظيم؛ لأنّه لا ينتفع بذلك عند نزول العذاب به، كما أنَّ من كانوا أقوى وأغنى منه، لم تغن أموالهم وأشغالهم [جموعهم] عنهم شيئاً عند ذلك.

﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال قتادة: يعني: أنّهم يدخلون النار بغير حساب. وقال قتادة: إنّ الملائكة تعرفهم بسيماهم، فلا يسألون عنهم لعلامتهم، ويأخذونهم بالنواصي والأقدام، فيصيرونهم إلى النار. وهذا كقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾. وأمّا قوله: ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: فإنّما ذلك سؤال تقريع وتوبيخ، لا ليعلم ذلك من قبلهم، ـ عن الحسن ـ.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي: خرج قارون على بني إسرائيل ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ التي كان يتزيّن بها، وحشمه وتبعه. وقيل: إنّه خرج في أربعة آلاف دابّة، عليها أربعة آلاف فارس، عليهم وعلى دوابّهم الارجوان، ـ عن قتادة ـ. والأرجوان في اللغة: صبغ أحمر. وقيل: خرج في جوار بيض على سرج من ذهب، على قطف أرجوان، على بغال بيض، عليهنّ ثياب حمر، وحليّ من ذهب، ـ عن السدّي ـ. وقيل: خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا﴾ من الكفّار والمنافقين، وضعيفي الإيمان بما للمؤمنين عند الله من ثواب الجنّة؛ لمّا رأوه في تلك الزينة والجمال:

﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الدنيا. والمعنى: أنّهم تمنّوا مثل منزلته، ومثل ماله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم المصدّقون بوعد الله المؤمنون لهم ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ ممّا أوتي قارون. وحذف لدلالة الكلام عليه.

﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أي: ولا يلقّى مثل هذه الكلمة، ولا يوفّق لها إلّا الصابرون على أمر الله. وقيل: معناه: ولا يعطاها يعني: الجنّة في الآخرة. ودلَّ عليها قوله: ﴿ثواب الله﴾. ﴿إلّا الصابرون﴾ على طاعة الله وعن زينة الدنيا، ـ عن الكلبي ـ.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ قال السدّي: دعا قارون إمرأة من بني إسرائيل بغياً، فقال لها: إنّي أعطيك ألفين على أن تجيئي غداً إذا إجتمعت بنو إسرائيل عندي، فتقولي: يا معشر بني إسرائيل! مالي ولموسى قد آذاني. قالت: نعم. فأعطاها خريطتين عليهما خاتمه. فلمّا جاءت بيتها، ندمت وقالت: يا ويلتي! قد عملت كل فاحشة، فما بقي إلّا أن أفتري على نبيّ الله. فلمّا أصبحت، أقبلت ومعها الخريطتان، حتى قامت بين بني إسرائيل، فقالت: إنّ قارون قد أعطاني هاتين الخريطتين، على أن آتي جماعتكم، فأزعم أنّ موسى يراودني عن نفسي، ومعاذ الله أن أفتري على نبيّ الله، وهذه دراهمه عليها خاتمه.

فعرف بنو إسرائيل خاتم قارون، فغضب موسى، فدعا الله عليه [إليه]، فأوحى الله إليه، إنّي أمرت الأرض أن تطيعك، وسلّطتها عليه، فمرها. فقال موسى: يا أرض خذيه! وهو على سريره وفرشه. فأخذته حتى غيّبت سريره، فلمّا رأى قارون ذلك، ناشده الرحم، فقال: خذيه! فأخذته حتى غيّبت قدميه. ثمّ أخذته حتى غيّبت ركبتيه. ثمّ أخذته حتى غيّبت حقويه، وهو يناشده الرحم، فأخذته حتى غيّبته فأوحى الله إليه: يا موسى! ناشدك الرحم وإستغاثك، فأبيت أن تغيثه. لَو

إيّاي دعا وإستغاثني لأغثته!

قال مقاتل: ولمّا أمر موسى الأرض فإبتلعته، قال بنو إسرائيل: إنّما فعل ذلك موسى؛ ليرث ماله؛ لأنّه كان ابن عمّه، فخسف بداره، وبجميع أمواله بعده بثلاثة أيّام، فلم يقدر على ماله بعده أبداً.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: فما كان له من جماعة منقطعة إليه يدفعون عنه عذاب الله تعالى الذي نزل به. وإنّما قال سبحانه ذلك؛ لأنّه كان يقدر مع نفسه الإمتناع بحاشيته وجنوده. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ بنفسه لنفسه.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ حين خرج عليهم في زينته ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ وهذه كلمة ندم وإعتراف. وقد بيّنّا أنّ عند الخليل وسيبويه لفظة «وي» مفصولة من «كأنّ» وإن وقعت في المصحف موصولة. يقول القائل إذا تبيّن له الخطأ: وي كنت على خطأ. وقال الفرّاء: أصله: ويلك، فحذفت اللام، وجعلت «أن» مفتوحة في موضع نصب بفعل مضمر، كأنّه قال: إعلم أنَّ الله تعالى. قال وحدّثني شيخ من أهل البصرة قال: سمعت أعرابيّة تقول لزوجها: أين إبنك ويلك[ويك]؟ فقال لها: ويك إنّه وراء البيت. قال: معناه: أما ترينه وراء البيت. وقيل: معناه: ألا كان وأما كان. وقال الكسائي: «ويكأنّ» في التأويل: ذلك أنّ الله، وهو قول ابن عباس أي قالوا: ذلك أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء، لا لكرامته كما بسط لقارون، ويقدر أن يضيق على من يشاء، لالهوان، لكن بحسب المصلحة. وقال مجاهد وقتادة: ويكأنّ: معناه: ألم تعلم.

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لولا أنّه أنعم علينا بنعمه، فلم يعطنا ما أعطي قارون، لخسف بنا كما خسف به. وقيل: معناه: لولا أنَّ الله تعالى منَّ علينا بالتجاوز عمّا تمنّينا، لخسف بنا لما تمنّينا منزلة قارون. ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

أي: لا يفوز بثواب الله، وينجو من عقابه، الجاحدون لنعمه، العابدون معه سواه.

النظم: إنّما اتّصلت قصّة قارون بما قبلها من قوله: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَبَإِ مُوسَىٰ﴾ فكأنّه قال: ومن نبأ موسى الذي وعدنا تلاوته في أوّل السورة، قصّة قارون معه. وقيل: إتّصل بقوله ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ فأكّد سبحانه ذلك بحديث قارون وحاله. وقيل: إنّه لمّا تقدّم خزي الكفّار، وإفتضاحهم يوم القيامة، ذكر عقيبه أنّ قارون من جملتهم، وأنّه يفتضح يوم القيامة، كما إفتضح في الدنيا.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ (١)

النزول: قيل: لمّا نزل النبيّ ﷺ بالجحفة في مسيره إلى المدينة، لمّا

(١) فتح الياء من «ربّي أعلم» الحرميان وأبو عمرو. «وترجعون» ـ مبنيّاً للفاعل ـ يعقوب.

هاجر إليها، إشتاق إلى مكّة، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ فقال: نعم. قال جبرائيل: فإنّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يعني: مكّة ظاهراً عليها. فنزلت الآية بالجحفة، وليست بمكّيّة ولا مدنيّة، وسمّيت مكّة معاداً؛ لعوده إليها، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿المعنى﴾: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يعني: الجنّة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تجبّراً وتكبّراً على عباد الله، وإستكباراً عن عبادة الله ﴿وَلَا فَسَاداً﴾ أي: عملاً بالمعاصي، ـ عن ابن جريج، ومقاتل ـ. وروى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان يمشي في الأسواق وحده، وهو دالّ يرشد الضالّ، ويعين الضعيف. ويمرّ بالبياع والبقّال، فيفتح عليه القرآن، ويقرأ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً﴾ ويقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل، والتواضع من الولاة، وأهل القدرة من سائر الناس.

وروى أبو سالم [سلام] الأعرج عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قال: إنّ الرجل ليعجبه شراك نعله، فيدخل في هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ الآية. يعني: أنّ من تكبّر على غيره بلباس يعجبه، فهو ممّن يريد علوّاً في الأرض. قال الكلبي: يعني بقوله: ﴿فساداً﴾: الدعاء إلى عبادة غير الله. وقال عكرمة: هو أخذ المال بغير حقّ.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: والعاقبة الجميلة المحمودة، من الفوز بالثواب، للذين إتّقوا الشرك والمعاصي. وقيل: معناه: الجنّة لمن إتّقى عقاب الله، بأداء فرائضه، وإجتناب معاصيه.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ مضى تفسيره ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يزاد في عقابهم على قدر إستحقاقهم، بخلاف الزيادة في الفضل على الثواب المستحقّ، فإنّه يكون

تفضّلاً، فهو مثل قوله: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ خطاب للنبيّ ﷺ والمعنى: إنَّ الذي أوجب عليك الإمتثال بما تضمّنه القرآن، وأنزله عليك ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أي: يردّك إلى مكّة، ـ عن ابن عباس ومجاهد والجبائي ـ. وعلى هذا فيكون في الآية دلالة على صحّة النبوّة؛ لأنّه أخبر به من غير شرط، ولا إستثناء، وجاء المخبر مطابقاً للخبر[1]. قال القتيبي: معاد الرجل: بلده؛ لأنّه يتصرّف في البلاد، ثمّ يعود إليه. وقيل: إلى معاد: إلى الموت، ـ عن ابن عباس في رواية أخرى، وعن أبي سعيد الخدري ـ. قيل: إلى المرجع يوم القيامة أي: يعيدك بعد الموت كما بدأك،

---

(١) إن الذي فرض عليك القرآن أي: الله سبحانه الحكيم العالم بالعواقب، لايمكن أن يبتدأ فعلاً يعلم أنّه لايتمّ؛ فإنّه لغو، وإنّما يشرع في مثل هذا الفعل الجاهل بالعاقبة، فإذا أنزل القرآن على رسوله، فلا ريب أنّه يظفره على أعدائه، وبذلك يعلم صحّة مذهب أصحابنا في النسخ، وأنّه لايجوز قبل حضور وقت العمل. قال السيّد المرتضى رحمه الله في الذريعة في الفرق بين النسخ والبداء: أنّ للبداء شرائط، وهي أربعة: أن يكون الفعل المأمور به واحداً والمكلّف واحداً، والوجه كذلك، والوقت كذلك، فما إختصّ بهذه الوجوه الأربعة من أمر بعد نهي، أو نهي بعد أمر، إقتضي البداء؛ لأنّه لا وجه له إلّا تغيّر حال المكلِّف ـ بالكسر ـ في العلم، أو الظنّ؛ لأنّه لو كانت حاله على ما كانت عليه، لما أمر بنفس ما نهي عنه، أو نهي ما أمر به، مع باقي الشرايط، إنتهى. وقال السيّد عميد الدين، في شرح التهذيب: في النسخ قبل حضور وقت العمل منع منها أصحابنا، وجماهير المعتزلة، وأبو بكر الصيرفيّ من أصحاب الشافعي، وبعض الحنابلة، وجوّزه الأشاعرة، وأكثر الشافعية، ثمّ قال لنا وجهان: الأوّل: لو جاز ذلك لزم البداء، أعني ظهور حال الشيء بعد خفائه على الله تعالى، والتالي باطل، فالمقدّم مثله، أمّا الملازمة؛ فلأنّ شروط البداء تحقّق، ثمّ ذكر نحواً ممّا ذكره السيّد في الذريعة ببسط، ومثله من غيره كثير. والحاصل أنّ كل ما هو نقض للغرض في التكليف، لايجوز على الله تعالى، وإذا أنزل القرآن على رسوله، فلابدّ أن يظفره. وللمتأخّرين كلام في النسخ والبدا لايعتمد عليه، وربما خرجوا به عن أصول المذهب، بل ربما إلتزموا بأمر أفسدو: هو أنّ الوحي الى الأنبياء قد لا يكون من الله تعالى، بل من بعض النفوس العلويّة الغير العالمين، بما يغيّره الله من عالم لوح المحو والإثبات، وعندنا يجب بقاعدة اللطف أن يكون الوحي بأمر الله، ويحفظ الأنبياء من كل شيء يوهنهم عند الناس، ومنها تكذيبهم فيما أخبروا به.

ـ عن الحسن والزهري وعكرمة وأبي مسلم ـ. وقيل: إلى الجنّة، ـ عن مجاهد وأبي صالح ـ. فالمعنى: إنّه مميتك، وباعثك، ومدخلك الجنّة. والظاهر يقتضي أنّه العود إلى مكّة؛ لأنّ ظاهر العود يقتضي إبتداء، ثمّ عوداً إليه، على أنّه يجوز أن يقال: الجنّة معاد، وإن لم يتقدّم له فيها كون، كما قال سبحانه في الكفّار ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾.

ثمّ إبتدأ سبحانه كلاماً آخر، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ الذي يستحقّ به الثواب ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: ومن لم يجىء بالهدى، وضلَّ عنه أي: لا يخفى عليه المؤمن والكافر، ومن هو على الهدى، ومن هو ضالّ عنه، وتأويله: قل ربّي يعلم أنّي جئت بالهدى من عنده، وأنّكم في ضلال، سينصرني عليكم.

ثمّ ذكر نعمه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: وما كنت يا محمّد ترجو فيما مضى، أو يوحي الله إليك، ويشرفك بإنزال القرآن عليك.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الفرّاء: هذا من الإستثناء المنقطع، ومعناه: إلّا أنّ ربّك رحمك، وأنعم به عليك، وأراد بك الخير، كذلك ينعم عليك بردّك إلى مكّة، فاعرف هذه النعم. وقيل: معناه: وما كنت ترجو أن تعلم كتب الأوّلين وقصصهم، تتلوها على أهل مكّة، ولم تشهدها، ولم تحضرها بدلالة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: إنّك تتلو على أهل مكّة قصص مدين وموسى، ولم تكن هناك ثاوياً مقيماً، وكذلك قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ وأنت تتلو قصصهم وأمرهم، فهذه رحمة من ربّك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: معيناً لهم. وفي هذه دلالة على وجوب معاداة أهل الباطل. وفي هذه الآية وما بعدها، وإن كان الخطاب للنبيّ ﷺ فالمراد غيره. وقد روي عن ابن عباس أنّه كان يقول: القرآن كلّه إيّاك أعني

وإسمعي يا جارة.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: ولا يمنعك هؤلاء الكفار عن إتّباع آيات الله، التي هي القرآن والدين، بعد إذ نزلت إليك؛ تعظيماً لذكرك، وتفخيماً لشأنك. ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: إلى طاعة ربّك الذي خلقك، وأنعم عليك، وإلى توحيده. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تمل إليهم، ولا ترض بطريقتهم، ولا توال أحداً منهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ أي: لا تعبد معه غيره، ولا تستدع حوائجك من جهة ما سواه. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلّا هو، وحده لا شريك له.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: كل شيء فانٍ بائد، إلّا ذاته. وهذا كما يقال: هذا وجه الرأي، ووجه الطريق، وهذا معنى قول مجاهد ﴿إلا هو﴾. وفي هذا دلالة على أنّ الأجسام تفنى، وتعاد، على ما قاله الشيوخ في الفناء والإعادة. وقيل: معناه: كل شيء هالك إلّا ما أريد وجه، فإنّ ذلك يبقى ثوابه، ـ عن عطا، وابن عباس، وعن أبي العالية، والكلبي، وهو إختيار الفرّاء ـ. وأنشد:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ ... رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

أي: إليه أُوجّه العمل. وعلى هذا يكون وجه الله ما وجه إليه من الأعمال. ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: له القضاء النافذ في خلقه. وقيل: له الفصل بين الخلائق في الآخرة دون غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تردّون في الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿النظم﴾: إتّصل قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ﴾ الآية، بما قبله، على معنى: أنّه سبحانه كما حرّم نعم الدنيا عليهم بالهلاك، كذلك يحرّم عليهم نعم الآخرة. وأمّا وجه إتّصال قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ﴾ الآية، بما قبله، فقد ذكر فيه من حمل المعاد على البعث، أنّه إتّصل بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ﴾. ومن حمله على

العود إلى مكّة قال: إنّه لمّا بيَّن سبحانه وعده لأُمّ موسى ردَّ موسى عليها، مع شرف النبوّة، كذلك وعده ربّه العودة إلى مكّة، مع الشرف العظيم. وقد أَنجز وعده، كما أنجز وعده هناك. ويكون معنى الكلام: إنّ الذي أَنزل القرآن بذلك الوعد، سينجز هذا الوعد. وإتّصل قوله: ﴿قُل رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ على معنى أنّه أمره بأن يقول لهم: ربّي أعلم بالصادق والكاذب، لا يلتبس عليه شيء.

تمَّ الجزء السابع من كتاب
«مجمع البيان في علوم القرآن»

فهرس الكتاب

(٢٠) سورة طه ـ مكية ـ وآياتها خمس وثلاثون ومائة ٧
(٢١) سورة الأنبياء ـ مكية ـ وآياتها اثنتا عشرة ومائة ٩٧
(٢٢) سورة الحج ـ مدنية ـ وآياتها ثمان وسبعون ١٧١
(٢٣) سورة المؤمنون ـ مكية ـ وآياتها ثماني عشرة ومائة ٢٤٣
(٢٤) سورة النور ـ مدنية ـ وآياتها أربع وستون ٣٠١
(٢٥) سورة الفرقان ـ مكية ـ وآياتها سبع وسبعون ٣٨٧
(٢٦) سورة الشعراء ـ مكية ـ وآياتها سبع وعشرون ومائتان ٤٤٣
(٢٧) سورة النمل ـ مكية ـ وآياتها ثلاث وتسعون ٥٠٣
(٢٨) سورة القصص ـ مكية ـ وآياتها ثمان وثمانون ٥٧٣
فهرس الكتاب ٦٤٨